منتدى
أهل التاريخ

العمارة في مصر القديمة

تأليف
الدكتور محمد أنور شكري

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧٠

« ليس من أقطار العالم ما يملك من الروائع أكثر من مصر ، وليس منها ما له مثلها من عديد الأعمال التى تتحدى الوصف » ·

هيرودوت

« واذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر العوام فى اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة ، وجثثهم عظيمة ، أو أنه كان لهم عصا اذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم ، وذلك أن الأذهان تقصر عن مقدار ما يحتاج اليه فى ذلك من علم الهندسة واجتماع الهمة وتوفر العزيمة ومصابرة العمل »

عبد اللطيف البغدادي المؤرخ العربى

إلى كل من يضع لبنة فى مجد أمته ..
إلى الذين يرنون إلى الماضى ليبنوا على
أساس مكين ..
إلى كل جاد هادف ..
أهدى هذا الكتاب

« المؤلف»

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

مقدمة

ما تكاد تبدو صورة هرم أو مسلة أو صرح يتوجه كورنيش منحن إلا ويتذكر الرائى مصر ؛ ولا يكاد اسم مصر يطرق الأسماع إلا وترتسم فى المخيلة صور معابدها العظيمة ومسلاتها الشاهقة وأهراماتها الضخمة ومقابرها الفخمة حتى ليكاد كل منها يكون علما عليها ، مما يشهد بما كان لها جميعاً من عظيم شأن وبالغ أهمية فى الحضارة المصرية .

وقد كانت المعابد والمقابر المصرية تثير إعجاب كل من شاهدها ، وها نحن أولاء لا نزال نجد فيما بقى مما أنشأه المصريون من عمائر وما أقاموه من صروح ومسلات وأساطين من الجلال والروعة ما يملأ النفس إعجاباً بها وتقديراً لمن أقاموها . وقد قال عنهم شمبليون : ما من شعب قديم أوحديث تصور فن العمارة على نحو فخم وعظيم وجليل كالمصريين القدماء . لقد كانوا يتخيلون وكأنهم أناس طولهم مائة قدم ؛ وأن الخيال فى أوروبا الذى يحلق فوق بواباتنا ليقف خائراً عند أقدام الأساطين المائة والأربعين[1] فى بهو الكرنك .

وفى الحق ليس من شعوب العالم من أكثر البناء[2]، وتحكم فى كميات هائلة وضخمة من الأحجار ، ومن بلغ السعة والضخامة فى البناء كالمصريين . ولا يقتصر الأمر على الضخامة والكم فحسب ،

---

(١) عدد أساطين بهو الكرنك مائة وأربعة وثلاثون أسطونا .

(٢) وصف أرسطو المصريين بأنه كان من سنهم البناء .

وإنما تدل العمارة المصرية أيضاً على شعور دقيق بالأشكال المعمارية ، وهو ما يتجلى بصفة خاصة فى الأساطين على شكل النخيل والبردى . وإذا كنا نعجب الآن بما شيدوا من عمائر ، نجد فيها صوراً مختلفة من الجمال ، فما من ريب فى أن أثرها على المصريين قد كان أقوى بكثير يوم كانت تؤدى فيها الشعائر والمناسك ، ويملأ أجواءها عبير البخور ، وتتردد فى قاعاتها أصداء الأناشيد وأنغام الموسيقى ، وترقص فى أبهائها الراقصات على نغم الجنك والناى .

على أن ما حفظ من عمائر المصريين ضئيل جداً بالنسبة لما اندثر منها ؛ ذلك لأن من المنشآت ما كان من مواد ضعيفة لم تستطع مغالبة عوادى الزمن فغدت أطلالا دارسة ؛ ومن الأساطين والجواسق ما كان من خشب لم يبق الزمن منه على شىء . ومنها ماهدم لإقامة بناء آخر مكانه أو لاستخدام أحجاره فى مبنى جديد[1] . وفى العصور المظلمة من تاريخ مصر تعرضت المعابد والمقابر لكثير من الاعتداءات ، ونهبت ذخائرها ، وخرب منها عدد غير قليل .

وكانت المبانى المنشأة من حجر الجير أكثر من غيرها تعرضاً للدمار ، إذ كانت الأحجار تقتلع منها ليبنى بها من جديد[2] أو ليصنع منها أفضل أنواع الكلس . وكان النيل يغمر شاطئيه كل عام فيرسب فيهما من الطمى ما ابتلع بعض المبانى وخاصة فى الوجه البحرى ؛ كما أن

---

(١) عندما أخذت تتهاوى بعض أساطين البهو العظيم فى الكرنك فى أكتوبر ١٨٩٩ اقتضى الأمر تقوية البهو والصرح الثالث ، ومما وجد فى حشو هذا الصرح أحجار جوسق كل من سنوسرت الأول وأمنحوتب الأول وأحجار المقصورة الفاخرة لحاتشبسوت ؛ ولابد أنها كانت مهدمة فى زمن أمنحوتب الثالث أو أنه هدمها ليستفيد من أحجارها فى بناء ذلك الصرح . وقد هدم حورمحب معبد أخناتون الذى أقامه فى الشرق من معبد الكرنك واستخدم أحجاره فى حشو الصرحين التاسع والعاشر انظر : P. Barguet, Le Temple d'Amon-Ré à Karnak, pp. 84 et seq., 243, 253.

(٢) من ذلك استخدام الأهرامات كمحاجر مما أدى إلى فقدانها كساءها ، وقد بدأ ذلك منذ أواخر الدولة القديمة ، إذ تقضى إحدى فقرات مرسوم دهشور من عهد الملك ببى الأول بوقف استثمار أحجار هرم الملك منكاوحور ، أحد ملوك الأسرة الخامسة .

ارتفاع مستواه بما رسب فى قاعه من طمى ، وما نجم عن ذلك ، وعما أنشىء من ترع وسدود ، من ارتفاع المياه الجوفية ، قد أتلف كثيراً منها ، وخاصة بما تخلفه مياه الرشح بعد جفافها من أملاح تتبلور فتفتت ما تتخلله من أحجار ولو كانت من الجرانيت .

وكان للثورات والحروب والمغيرين ، وللهكسوس والأشوريين والفرس منهم خاصة ، آثار سيئة فى تخريب المدن وسلب المعابد نفائسها . ولابد أن كان لبعض الزلازل أثر فى تصدع بعض المبانى وانهيارها . علاوة على هذا كله لقد خرب الحفارون الأول كثيراً من الأماكن الأثرية ، كما أن كثيراً مما كشف عنه من منشآت لم ينشر نشراً علمياً سليما . وبذلك ضاعت حقائق وأدلة لاتعوض حتى لتعد مصر مثلا حزيناً لما أفسدته يد الإنسان من معالم الحضارة والتاريخ أكثر مما أتلفته الأيام . وما ينبغى أن يغيب عن الأذهان أن البحث عن الآثار إنما يقتضى علما غزيراً وخبرة طويلة ، وأن من الجرم فى حق الوطن والتاريخ أن يوكل ذلك لغير علماء أكفاء ممتازين .

لهذا كله ليس من الغريب أن يزيد ما بقى من مقابر المصريين كثيراً على ما حفظ من قصورهم وبيوتهم ومعابدهم ؛ ذلك لأن المقابر إنما كانت تبنى على حافة الصحراء أو تنحت فى الصخر ، أما البيوت والمعابد فكانت فى الغالب فى المدن ، حيث تعرضت للتغيير والهدم خلال العصور المتعاقبة . ومع هذا فإن مما حفظ من منشآت المصريين إنما يرجع إلى الصدفة فى كثير من الأحيان ، كما أن كثيراً مما كشف عنه منها إنما كان مرده إلى ميول الحفارين واتجاهاتهم .

ومع ذلك فإن مابقى من عمائر المصريين كثير لايفيه حصر . وكان المصريون من أشد الأمم تمسكاً بعاداتهم وتقاليدهم ؛ ومن شأن العقائد الدينية والجنازية التمسك بصيغها وما ورثته من طرز وأشكال . لذلك تحتفظ المعابد والمقابر المصرية فى عصورها المختلفة

بكثير من أشكالها الأولى ؛ وفيها يتجلى أثر العوامل المختلفة وما صاحب نشأة البناء فى مصر من صفات وخصائص بما أضفى على العمارة المصرية فى كافة عصورها طابعاً عاماً يميزها عن عمارة سائر الأمم والشعوب . بيد أن ذلك لم يمنع من أن تتراءى فيها روح كل عصر ، وتتردد فيها أصداء كل تقدم ، ويتجلى فيها تطور نبوغ المصريين فى فن البناء ؛ ثم إنها لتنم عما لابسها من ظروف سياسية واقتصادية ؛ وهى بذلك سجل حافل يتيح ترسم تطور أحوال مصر طوال قرون عديدة .

وبينما كان المصريون يبنون بيوتهم وقصورهم من اللبن ، فقد عنوا كثيراً بمعابد الآلهة ومقابر الموتى . يختارون لها أفضل المواد وأقواها مهما كلفهم ذلك من جهد ومشقة . وكانوا يعلون فى بنائها ويزيدون فيها ، أو ينحتونها فى الصخر الأصم لتكون بيوتاً خالدة على الزمن ، جديرة بالآلهة والموتى الأبرار . لذلك كان للعمائر الدينية والجنازية أكبر الشأن فى العمارة المصرية . وكانت منذ الدولة القديمة على الأقل على أوثق صلة بفنون النحت والنقش والتصوير ، إذ كانت تحلى جدرانها المناظر المختلفة منقوشة أو مصورة ، كما كانت تحتوى على كثير من التماثيل . حتى ليمكن القول بأنه لم يكن يخلو معبد مصرى من نقوش وتماثيل ، ولم يكن لمصرى قادر أن يرضى بقبر لا تحلى جدرانه صور ومناظر تمثل مايرجو أن يحظى به فى حياته الثانية ، أو يخلو من تماثيل تمثله وحده أو مع بعض أفراد أسرته . وليس أدل على ذلك من أن أغلب ما تحفل به متاحف العالم من تماثيل ونقوش مصرية إنما كان فى الأصل فى معبد أو مقبرة . وكانت أعمال البناء والنقش والتصوير تؤدى معاً فى المعابد والمقابر بحيث كان البناؤون كلما انتهوا من بناء جزء عمل النقاشون أو المصورون على نقش المناظر فى جدرانه أو تصويرها عليها . وفى المعابد والمقابر المنحوته فى الصخر كان النحاتون يعملون جنباً إلى جنب مع غيرهم من البنائين والنقاشين والمصورين .

لقد كان من الممكن أن يستغنى معبد الوادى لهرم خفرع بحسن تصميمه وجمال أحجاره وجودة صقلها وما يتجلى فيه من روعة وجلال عما أقيم فيه من تماثيل وذلك على نحو ماهو عليه فى الوقت الحاضر ؛ ومع ذلك فقد كان تزويده بها تنعكس عليها الأضواء والظلال مما يزيد فى روعة المكان وعظمته فضلا عما كان لها فيه من غرض جنازى (صورة ٥٣) . وليس يخفى أن التماثيل المصرية لم تنحت لينظر إليها من جانب أو من خلف ؛ وإنما لتكون من أمام جدار مما يعقد الصلة بينها وبين العمارة أقوى ما تكون الصلة . وما كانت التماثيل المنحوتة فى الصخر فى معبد أو مقبرة إلا جزءاً لايتجزأ من عمارة كل منهما ، وإلا فماذا عسى أن تكون على سبيل المثال واجهة معبد «أبو سنبل» العظيم (صورة ٣١) بغير ما يبرز منها من تماثيل ضخمة لرمسيس الثانى وما يحف بساقيه من تماثيل أمه وزوجه وبعض بنيه وبناته ؟ ولم يكن المصريون يفرقون بين التماثيل المستقلة والتماثيل المنحوتة فى الصخر بأكثر من أن التماثيل الأخيرة أثبت فى مكانها وأقل عرضة للتلف أو الضياع . لذلك يمكن أن يقال بحق أنه كما كان من شأن التماثيل المصرية أن تقام أمام جدار فقد كان من شأن الواجهات الشاسعة المستقيمة للعمارة الدينية والجنازية أن تقام من أمامها أو تنحت فيها التماثيل الضخمة تدل عليها وتكون جزءاً منها ، وتزيد فى روعتها وجلالتها وتحقق المقصود منها .

وقد جبل المصريون منذ عصور ما قبل الأسرات على زخرفة أوانيهم وأدواتهم وأسلحتهم وما صنعوا من أثاث وتوابيت ؛ وإن كان ذلك فى اعتدال واتزان ، إلا أنه اقتضى عملا وجهداً يزيد على ما كانت تقتضيه الأغراض العملية ؛ وقد رفع ذلك من قيمة ما أنشأوا وأضفى عليه طابعاً فنياً جميلا . كذلك لم يشأ المصريون أن يتركوا ما فى الجدران والسقوف فى المعابد والمقابر من مساحات شاسعة عاطلة فزينوها بالصور والنقوش وبعض العناصر الزخرفية

بما يتفق وأغراضهم الدينية والجنازية ، ويرضى مشاعرهم الفنية أيضاً ، إذ ليس بخفى ما يتجلى فى دقة التصوير وحسن تأليف الصور والزخارف واتساق الألوان من قيمة زخرفية . وفضلا عن ذلك فإن النقوش لتتسق وطراز البناء أتم اتساق وذلك بقلة بروزها أو ضآلة غورها مما يدل على ما كان يجمع بينهما من صلة .

وكانت نقوش معبدى هرم ساحورع والطريق الصاعد تشغل نحوا من عشرة آلاف متر مربع ؛ وليس بعد هذا دليل على ما كان بين النقش والعمارة المصرية من علاقة وطيدة وعلى أهميته لها ؛ وإلا فكيف كانت تبدو المسطحات الشاسعة بغير نقوشها الملونة التى تحليها ؟ وكيف تكون مثلا مقبرة مرروكا ذات القاعات الاثنتى والثلاثين (شكل ١٥٤) ، أو قبر سيتى الأول بدهاليزه وقاعاته المحفورة فى الصخر (شكل ١٧٩) ، أو بهو الأساطين فى معبد الكرنك (شكل ٨٣) ، أو قاعة العمد الكبرى فى معبد « أبو سنبل » العظيم (صورة ٣٢) إذا خلت جدران كل من نقوشها ؟

ويزيد فى تبيان العلاقة بين النقوش والعمارة أن المصريين وإن كانوا قد بدأوا منذ وقت مبكر يكتبون على البردى بخط هيراطيقى ثم بعد ذلك بخط ديموطيقى ، فإنهم ظلوا يحتفظون على مدى تاريخهم الطويل بالخط الهيروغليفى يسجلون به فى الحجر ما شاءوا من نصوص دينية ودعوات وأخبار وما يصاحب الصور والمناظر من عبارات . والخط الهيروغليفى زخرف جميل . علاماته شخوص وأشكال ، كان الفنان يعنى برسمها وتنظيمها وتلوينها بما يتسق وما يحلى الجدران من مناظر حتى ليعتبر أجمل خط خطته يد الانسان .

يضاف إلى هذا كله أن المصريين كانوا يعتقدون أن فى التمثال والصورة ما يفيد صاحبهما فى الآخرة ، وأنه يضار إذا تعرضا للتلف ، وأن روحه تنعم بما يصورلها من شعائر ومناظر على الجدران وما يقدم

لتمثاله وصورته من قربان ويتلى أمامهما من دعاء . لذلك أكثروا من إقامة التماثيل فى المعابد والمقابر ، وحلوا جدرانها بالنقوش والصور فلا يكاد يخلو منها جدار .

نخلص من هذا إلى أنه كان يستحيل من وجهة النظر المصرية أن تستغنى العمارة الدينية والجنازية عن النحت والنقش والتصوير ، وأن التماثيل والنقوش والصور كانت جزءاً من المعابد والمقابر بحيث لايجوز إغفالها إذا أريد تقدير العمارة المصرية على أساس سليم وقصد إلى الاستمتاع بها على نحو صحيح .

هذه الصلة الوثيقة بين الفنون المختلفة هى أساس ما يجمع بينها جميعاً فى كافة أزمنة التاريخ المصرى القديم من صفات مشتركة ، تؤلف بينها وحدة متكاملة فى اتساق فنى جميل . وليس أدل على ذلك من أنه لو أقيمت بعض تماثيل الأسرة الرابعة فى مبانى زوسر لنبا كل منهما عن الآخر ولما كان بينهما ما يجمع بين عمارة زوسر وتماثيله من اتساق وتوافق . ولو حليت بعض مبانى الأسرة الرابعة بنقوش من طراز نقوش الأسرة الثالثة أو الخامسة لفقدت عمارة الأسرة الرابعة كثيراً من جلالها وعظمتها ، وضاعت فخامتها وروعتها . ولو أقيمت فى معبد الوادى للملك خفرع تماثيل من طراز تمثال زوسر أو على غرار تماثيل الأسرة الخامسة لما كان بينهما ما كان بين تماثيل ذلك المعبد وعمارته من تناسق ووحدة فنية .

وعلى هذا النحو لو حليت جدران معبد الدير البحرى بنقوش من طراز نقوش الرعامسة ، أو أقيمت فى أنحائه تماثيل على شاكلة تماثيل رمسيس الثانى لفقد المعبد الاتساق الذى يجمع بينه وبين نقوشه وما كان يحتويه من تماثيل . ولو نقشت المعابد الضخمة من عهد الرعامسة بنقوش دقيقة أنيقة من طراز النقوش من عهد أمنحوتب الثالث افقدت هذه المعابد ما يجمعها بنقوشها من توافق .

وما ريب فى أن ما يتمثل بين عمارة كل زمن وتماثيله ونقوشه وصوره من اتساق وتناسق إنما يرجع إلى روح كل عصر ، وأنه كانت تجمع البنائين والنحاتين والنقاشين والمصورين روابط قوية من نظم وتقاليد ، ومشاعر وأفكار ، ومثل وأهداف ، وصلات وطيدة من جنس وزمان وبيئة . وأنهم كانوا يستلهمون إيحاءات متشابهة تقرب بين أعمالهم ؛ وقد عقد هذا كله الصلة بين العمارة والنحت والنقش والتصوير ، بل انها لتتعاون جميعاً فى تحقيق ما قصد إليه منها من أهداف وغايات فى تكامل وتوافق .

وليست تقام البيوت والمعابد والمقابر إلا لتحقيق ما يراد منها من أغراض وتوفير المكان المناسب لما يحتاج إليه فيها من متاع وأدوات مما يعقد الصلة كذلك بين المبنى والغرض منه وما يودع فيه من أثاث ، وخاصة ما كان يفرد له مكان ثابت كالزوارق والنواويس وموائد القرابين والمسلات والتوابيت وغيرها مما عسى أن يكون له أثره فى تخطيطه أو مظهره ، وهو ما ينبغى أن يكون موضع الاعتبار . وقد ضاع ما كانت تحتويه البيوت والمعابد فى مصر القديمة من أثاث إلا أمثلة قليلة ، على أن ما حفظ منه فى بعض المقابر وما يحلى الجدران من صور إنما ينبىء عما كانت تشتمل عليه القصور والبيوت والمعابد من متاع يتميز بما يتمثل فيه من جمال وحسن نسب يرقيان به الى مستوى فنى رفيع .

والفنون والصناعات إنما هى خير سبيل لتفهم الأمم وما أحرزت من حضارة . والعمارة المصرية شأنها شأن فنون النحت والنقش والتصوير تنطق عن روح المصريين ، بل قد تكون فى بعض الأحيان أوضح بيانا لما كان يختلج فى نفوسهم من مشاعر وأفكار . وقد كان لها عندهم شأن عظيم ، يدل عليه أن من البنائين من رفعوه إلى مصاف الآلهة ، وكفى بذلك تشريفاً للبنائين وفن البناء . وهى مع ذلك تؤلف صفحات مجيدة فى تاريخ الحضارة الإنسانية عامة ، يمكن أن

نترسم فيها بداياتها الأولى على ضفاف النيل ، وأن نتتبع تطوراتها وتوفيقاتها مدى ثلاثة آلاف سنة على الأقل ، وما حققته من أمجاد تشرف الإنسانية وتعلى من شأنها .

وفى الحق لقد أسهم المصريون فى تطور العمارة فى العالم بما يكفل لهم ذكراً مجيداً فى تاريخ البناء ؛ فمنذ ثلاثة آلاف عام من قبل الميلاد عرفوا كيف يبنون العقود والأقباء من اللبن ، وكيف ينشئون القباب . وقد كانوا أول من شيد بالحجر ورفع الأساطين والعمد ، وأقدم من أقام المبانى الضخمة وتوجها بالطنف ، وأنشأ فيها الصفات والأفنية المحاطة بالأعمدة أو الأساطين ، وشيد المعابد المحاطة بالأعمدة . وكانوا أول من عرف الملاقف لتهوية داخل البيوت ، وأعلى البناء طوابق ، وأنشأ طراز البازلكا ، وأقام المدن المنظمة . وقد علموا غيرهم حسن البناء بالحجر النحيت ؛ وعنهم أخذ الإغريق وشعوب البحر الأبيض المتوسط فيما يظن بعض عناصر الأساطين كالتاج النباتى ، والركيزة ، والساق المقناة ، والميزاب فى شكل أسد ، وبعض العناصر الزخرفية .

والعمارة المصرية بعد ذلك معرض حافل بالجمال ، ولا تزال أرضاً بكراً لكل باحث ودارس ، إذ لايزال كثير من مسائلها فى حاجة إلى درس واستقصاء ، فما أجدرها لذلك كله بالاهتمام والتقدير .

مصـــــر ..
فيما قبل التاريخ وفي عهد الأسرات

كانت تنمو فى شواطىء النيل وفيما كان يكتنفه من برك ومناقع فى العصور الأولى من حياة الإنسان أحراج البردى واللوطس والغاب (صورة ١) ؛ تعيش فيها أفراس النهر والتماسيح ، وتحوم فوقها طيور عديدة ، منها ما تغرد أنغاماً تتجاوب لها طيور هنا وهناك ، ومنها ما يفزعها نمس متلصص فتملأ الفضاء بزقزقتها وتحاول أن ترده بأجنحتها عما وضعت من بيض أو أفرخت من صغار[١] .

وكان النيل يجرى عريضاً يغطى مساحات واسعة بما يصل إليه من مياه من جانبيه ؛ فإذا فاض هدرت أمواجه وغمرت مايحف به من أرض ، لا يصده عنها شاطىء أو جسر . فاذا هدأت فورته

(١) P.E. Newberry, Egypt as a Field for Anthropological Research.

انحسرت مياهه عما كانت تحمله من غرين يزكى الأرض ويخصبها . فإذا غاض الماء بزغت قطع من الأرض تعج بالضفادع وأنواع دنيا من الحيوان كأنها خلقت من عدم ؛ ولا تلبث الأرض أن تزدهر بالنبت ، فيوحى ذلك كله بصورة الخليقة فى بدايتها وعودة الحياة بعد موات .

وكانت تنمو فى الوادى أشجار النخيل والدوم والجميز والسنط والأثل والنبق والصفصاف ؛ تجوس خلالها الزراف والفيلة والذئاب والضباع وبنات آوى . وكانت تكثر فى أنحائه الحيات والثعابين ؛ وأشدها خطراً الصل ، إذا هوجم أو آنس خوفاً نصب رأسه ، وانتفخت أوداجه ، ونفث سمه يعمى به الأبصار .

وكان جو مصر أكثر رطوبة منه الآن ؛ ومع ذلك كانت الشمس تمخر محيط السماء فى النهار فى جلال وبهاء ، إذا اعترض أشعتها غيم يحجبها فترة لم تلبث أن تهزمه فيتبدد نتفاً متقطعة . ولا تزال تعبر قبة السماء حتى إذا أوشكت أن تبلغ الأفق تلقاها الغرب بين أحضانه وابتلعها فى جوفه ؛ فيهرع الطير إلى وكره ، وتتردد فى أجواز الفضاء أصداء أصوات حزينة كأنها تودع مغيب الشمس إلى حين .

وكانت تصفق فى أجواء مصر وتدوم جوارح الطير ، منها الصقر يعلو فى أجواز الفضاء فاذا لمح صيداً انقض عليه لايروغ منه ؛ ومنها الرخمة ، وكان يعرف عنها أنها أم رءوم .

فإذا جن الليل سطع القمر بنوره ، وتلألأت فى قبة السماء النجوم الزاهرة ، وخرجت الهوام من جحورها ، والذئاب والضباع من أوجرتها ، تملأ الجو بصفيرها وعوائها ؛ فيكون لليل رهبة ووحشة .

وإذا انجاب ظلام الليل أو كاد ، وعادت الشمس تغمر الأرض

بألوان أشعتها البهيجة ، انتشر الدفء والضياء ، وانقشع الضباب ، وتساقط الندى من على الأشجار ، وتفتحت أكمام الزهر ، وسرت فى الكون الحياة ، وعمته فرحة ونشوة ، يترجم عنها الطير بأغاريده وتصفيق أجنحته ، ويستقبلها السمك بوثباته فوق سطح الماء[1] ، وكأنما صحت الطبيعة بعد سبات ، تخللته مخاوف ومفازع .

وتحف بوادى النيل من الجنوب إلى الشمال هضبتان مرتفعتان ، كانتا تزدهران بالمراعى الخضراء ، ينمو فيها العشب والكلأ ، وتتخللهما وديان عامرة بالشجر وأسراب الوعول والظباء ، والغزلان والأرانب ، تعيش عليها السباع والفهود ، والذئاب والضباع . وكان الإنسان الأول خلال العصر الحجرى القديم يتنقل فيها متتبعاً الصيد حيث يكثر ؛ وقد ترك آلاته وأدواته من الحجر فى أماكن كثيرة ، وخاصة فى الوديان الجافة فى الوقت الحاضر ، وعلى المدرجات التى تكتنف وادى النيل[2] .

وفى أواخر العصر الحجرى القديم أخذت الأمطار تقل ، وبدأت المراعى تجف ، وهرعت جماعات الحيوان إلى وادى النيل حيث العشب والماء وفير ؛ وتبعتها طوائف من الناس تستقر فى أماكن مختلفة فى حواف الوادى وشواطىء بحيرة الفيوم . وكانت تعيش على ما تصيد من صيد البر والبحر ، وما تجمعه من ثمار بعض الشجر . وماتقتلعه من جذور بعض النبات ، ثم أخذت ترعى البقر والأغنام والماعز والخنازير ، تنتفع بلحومها وجلودها وما يدره بعضها من ألبان . وكانت الظروف مهيأة للزراعة ، ذلك لأن فيضان النيل إنما يقع فى أشهر الصيف مما يسمح ببذر الحب فيما تنحسر عنه مياه الفيضان أوائل الشتاء . فلا يلبث الحب أن ينبت بعد قليل ويزدهر دون أن تصوحه حرارة الصيف . وهكذا بدأ ما يعرف

---

(١) انظر نشيد أخناتون — J.B. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, p. 369 ff.

(٢) J. Vandier, Manuel d'archéologie égyptienne, t. I, p. 25 et seq.

بالعصر الحجرى الحديث[1] . وكثرت مع الزمن جماعات الناس التى طفقت تستخلص من الغياض وآجام البردى والغاب قطعاً من الأرض تفلحها للإفادة من نبتها وحصيدها . وكانت تزرع الشعير والقمح والكتان ، وتحفظ الحصيد فى مطامير فى الأرض أو فى قدور كبيرة من فخار . وقد أتاحت لها الحياة الجديدة بما درته من رزق ووفرت من فراغ تطور بعض الصناعات وابتداع صناعات وفنون جديدة ، منها نسج الكتان وصناعة الفخار والحصير .

ومنذ أن عرف سكان مصر المعادن حوالى ٥٠٠٠ ق . م . أخذت صناعاتهم تزدهر وتتقدم ، وأخذوا يتدرجون من حضارة إلى حضارة . ومن الصناعات التى بلغوا بها غاياتها صناعة الآلات من الظران ، حتى لتعد من الصناعات التى بلغ بها المصريون أقصى غاياتها ثم ضاعت من قدرة الإنسان على وجه الاطلاق . ومنها كذلك صناعة الأوانى من الأحجار المختلفة ومنها حجر الجرانيت والديوريت والصخر البلورى والمرو والشست ، وقد أخرجوا منها أعداداً كبيرة تمتاز بجمالها فما تدانيهم فيها أمة أخرى . وفيها اكتسب المصرى القديم خبرة ممتازة فى نحت الأحجار كانت أساساً لما عرف عنه فيما بعد من مهارة فائقة فى قطع الأحجار الضخمة وإقامة المنشآت العظيمة . وفى ذلك العهد كثرت المدن والدويلات على ضفاف النيل ، وعملت عوامل مختلفة فى ضم بعضها إلى بعض عن طريق المصاهرة أو الحرب ، إلى أن تكونت منها جميعاً مملكتان ، مملكة الجنوب فى صعيد مصر تحميها الرخمة ، ومملكة الشمال فى دلتاها يحميها الصل .

وفى أواخر عصور ما قبل الأسرات نشأ من الحروب الداخلية ما أدى فى مطلع العصر التاريخى إلى توحيد القطرين فى مملكة واحدة . بذلك تم ما كانت العوامل الجغرافية والاقتصادية والسياسية والعمرانية

---

(١) نفس المرجع صفحة ٦٢ وما بعدها .

تدفع إليه وتلح فيه ؛ فقد كان النيل يربط بين القرى والمدن التى نشأت حول ضفتيه ، ويقرب بين سكانها ، ويخفف من شدة الفروق بينهم ، ويعقد بين مصالحهم المختلفة . وقد فرض عليهم ،منذ أن بدأوا يستقرون فى رحابه ،التعاون فيما بينهم لدرء أخطار فيضانه عن مواطن إقامتهم والانتفاع بمياهه فى رى الأراضى البعيدة عن شطئانه ؛ فعملوا متعاونين على إقامة الجسور وإنشاء القنوات ، كما تعاونوا فى تشييد الأسوار حول بلدانهم تدفع عنهم شر الطامعين فيما انتجوا من رزق وما أصلحوا من أرض .

وكان سكان مصر على صلة وثيقة بطبيعة بلادهم ، فأثار تفكيرهم وشعورهم مالاحظوه من غرائز وصفات لبعض ما كان يعيش من حولهم من طير وحيوان ، فقدسوا بعضه عن حب وتقدير ، وعبدوا بعضاً آخر خوفاً ورهبة . وكان لعناصر الكون كالشمس والقمر والسماء والأرض أثرها كذلك فى تفكيرهم ومشاعرهم فتمثلوها شخوصاً حكم بعضها مصر قبل أن يتولى حكمها البشر ؛ وصاغوا حولها الأساطير يرويها جيل عن جيل . وأقاموا الهياكل يقربون فيها القرابين لمعبوداتهم ، ويؤدون لها فيها مارسموا من طقوس . وكان يتولى كهانة كل معبود رئيس الجماعة ، وكان لما حفلت به تلك الأيام من أحداث صداه فيما أنشأوا من أساطير .

ولاحظ سكان مصر أن الحياة فى تجدد دائم ؛ فالشمس تغيب لتشرق من جديد ؛ ومياه النيل تغيض لتفيض فى ميعاد موقوت ؛ ونبات الأرض يجف ليزدهر تارة أخرى . وتجلت لهم معانى الاستقرار والدوام فى الصحراء أقوى ما تكون ؛ وكانت رمالها الجافة تحفظ من البلى ما يودع فيها من أجداث ؛ فساعد ذلك فى الإيمان بحياة أخرى خالدة بعد الموت ، تصوروها على شاكلة الحياة الدنيا ، يحتاج الميت فيها إلى مسكن وطعام وشراب .

وفى العهد الفرعونى ، وقد دام نحوا من ثلاثة آلاف عام (٣١٠٠ـ ٣٣٢ ق. م.) ، لم تكن أحوال مصر الطبيعية تختلف كثيراً عما كانت عليه من قبل ؛ فقد ظلت أحراج البردى واللوطس والغاب تنمو فى أكناف النيل وفيما كان يحيط به من برك ومناقع مياه ، حيث أقام المصريون على صيد أفراس النهر والسمك والطير . كما ظلوا يصيدون فى وديان الصحراء الحيوان من السباع والظباء والغزلان والثيران البرية . واستخرجوا النحاس من شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية ، واستغلوا مناجم الذهب وخليط الذهب والفضة (الألكتروم) فى الصحراء الشرقية استغلالا واسعاً ، زاد من ثراء مصر ، ولفت إليها أنظار العالم القديم .

وفى ذلك العهد اختلفت أحوال البلاد السياسية والاقتصادية والعمرانية اختلافاً كبيراً من وقت إلى آخر . فما كاد يتم توحيد المملكتين فى مستهل العصر التاريخى وتتركز السلطة فى يد حكومة قوية تعنى بالمرافق الحيوية وتنهض بشئون الحكم حتى بلغت الصناعات والفنون شأواً بعيداً من التقدم . واستقام فيها لمصر طراز خاص متميز لازمها طوال تاريخها القديم . ويعرف ذلك العهد بالعهد العتيق (٣١٠٠–٢٦٨٠ ق.م.) . ويشمل الأسرتين الأولى والثانية ، وأشهر ملوكهما نعرمر وچروچت وديمو وخعسخم وخع سخموى .

وفى الدولة القديمة (٢٦٨٠–٢١٨٠ق.م) ، عصر بناة الأهرام ، بلغت الحضارة المصرية أولى ذرواتها المجيدة ؛ وأخص ماتتسم به اعتمادها على جهود أبنائها وحدهم ، وعلى مصادر ثروتها الطبيعية فى أغلب الأحيان . وقد بلغ تقديس الملوك إذ ذاك غايته ، وحظيت الملكية بأقصى ما قدر لها فى مصر من سلطان ؛ فشيدت الأهرامات الشاهقة ، وأقامت المعابد فى كثير من البلاد . ثم أصابها الضعف والوهن أواخر ذلك العهد بما أغدقت من بذل وعطاء زاد من سلطة حكام الأقاليم حتى أخذ بعضهم يحكمون أقاليمهم كملوك صغار .

وكان من آثار ضعف الحكومة المركزية أن تعرضت للعدوان مقابر الملوك السابقين . وتشتمل الدولة القديمة على :

الأسرة الثالثة (٢٦٨٠ ــ ٢٦١٠ ق . م .) ، ومن أشهر ملوكها زوسر بانى هرم صقارة المدرج .

والأسرة الرابعة (٢٦١٠ ــ ٢٤٩٠ ق. م.)، ومن ملوكها العظام سنفرو وخوفو وخفرع ومنقرع ، وأعظم آثارهم فى ميدوم ودهشور والجيزة .

والأسرة الخامسة (٢٤٩٠ ــ ٢٣٤٥ ق.م.) ، ومن أهم ملوكها أوسركاف وساحورع ونيوسررع وأوناس ، وتقع أهراماتهم فى أبو صير وصقارة .

والأسرة السادسة (٢٣٤٥ ــ ٢١٨٠ ق. م.) ومن ملوكها ببى الأول وببى الثانى وهرماها فى جنوب صقارة .

وبانهيار السلطة الملكية فى نهاية الدولة القديمة تفككت وحدة البلاد ، وشملتها الفتن وضاعت هيبة الحكم . وتوالت الاعتداءات على المعابد والمقابر ، ونهبت ذخائرها ، وحطمت تماثيلها . وقد حفظت عدة وثائق أدبية تصور ما أصاب المجتمع من نكبات . ولا يخلو من مغزى ماجاء فى النصائح الموجهة للملك مريكارع ألا يبنى قبره مما تهدم من قبور[1] . على أن من الأقاليم ما نهض به حكامه على خير مايستطيعون . ويطلق على ذلك العهد الفترة الوسيطة الأولى (٢١٨٠ ــ ٢٠٥٠ ق. م) .

وتمكن حكام طيبة من توحيد البلاد مرة أخرى ، وكافح ملوك الدولة الوسطى (٢٠٥٠ ــ ١٧٨٠ ق.م.) فى سبيل تدعيم أسباب الحكم وإصلاح مرافق البلاد ، وتحسين وسائل الرى وزيادة رقعة الأرض المزروعة . وازدهرت التجارة مع فلسطين وسورية ،

---

(١) انظر صفحة ٣٧٤

وتدعمت سيادة مصر فى بلاد النوبة حتى الشلال الثانى على أساس مكين ، وأقيمت فيها الحصون القوية وخاصة فى جنوب الشلال الثانى ، وبدأ ذهب هذه البلاد والصحراء الشرقية يتدفق على خزائن فرعون . وساعد ذلك كله على انتشار الرخاء ، فدان للبلاد عهد ثان مجيد ، ازدهرت فيه الفنون والصناعات والآداب . بيد أن الملكية لم تستطع أن تستعيد كل ما كان لها فى عقيدة الشعب إبان الدولة القديمة من قداسة بالغة فزالت الفروق الكبيرة بينها وبينه كثيراً . وازدهرت الحياة فى الأقاليم ، واستطاع حكامها بما استقر فى أيديهم من سلطان حفر مقابر لهم فخمة فى الهضبة بالقرب من مقار حكمهم . وتتألف الدولة الوسطى من :

الأسرة الحادية عشرة (٢٠٥٠ – ١٩٩٠ ق.م.) ، وأعظم ملوكها نب حبت رع منتوحتب .

والأسرة الثانية عشرة (١٩٩٠ – ١٧٨٠ ق.م.) ، وأشهر ملوكها امنمحات الأول وسنوسرت الأول وسنوسرت الثالث وامنمحات الثالث . وتقع أهم منشآتهم فى اللشت واللاهون وهوارة ودهشور والكرنك .

وأعقبت الدولة الوسطى فترة ضعف يطلق عليها الفترة الوسيطة الثانية (١٧٨٠ – ١٥٦٠ ق . م.) : تولى الحكم فيها ملوك ضعاف لم يكن بعضهم ليستقر على العرش حتى يزال عنه ؛ ولم يلبث أن استولى على البلاد الهكسوس . وفى عهدهم انحطت الفنون والصناعات وأهملت الهياكل والمعابد(١) .

ومنذ أن تم طرد الهكسوس من مصر استطاع المصريون بما بذلوا من جهد ونشاط تحقيق عهد مجيد ثالث ، هو الدولة الحديثة

---

(١) ذكرت حاتشبسوت أنها أصلحت ما تهدم منذ أن كان الأسيويون فى حت وعرت (تانيس) فى الدلتا Urkunden IV, 390.

(١٥٦٠ ـ ١٠٨٥ ق . م .) ، تركزت فيه السلطة فى حكومة قوية ، نظمت الجيش وطبقة الموظفين على أساس قوى ، وامتدت فيه أملاك مصر إلى نهر الفرات شرقاً وإلى الشلال الرابع جنوباً ، واشتد اتصالها بما جاورها من شعوب وأقطار ، ومنها جزيرة كريت وجزر بحر إيجه ، وكان لها مركز السيادة بين كافة دول الشرق القديم ، وتنافس الملوك على اكتساب رضاها . واتسعت تجارتها وتدفقت الثروات والخيرات عليها ؛ وانتشر الرخاء بين طبقات الشعب ، وشيد الملوك المعابد العظيمة والقصور الفخمة ، وبنى الأغنياء البيوت الجميلة وأثثوها بالرياش الفاخر ، حتى يمكن أن يقال أنه كان يكتب فى طيبة كل يوم فصل جديد فى تاريخ العمارة . وبذلك كله غدت مصر أعظم الممالك المتحضرة ، وحققت من أسباب الإبداع ما لا مثيل له فى تاريخ العالم .

ومن أهم من تولى العرش من ملوك الأسرة الثامنة عشرة (١٥٦٠ـ ١٣٢٠ق.م .) أحمس الأول وتحوتمس الأول وحاتشبسوت وتحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى وأمنحوتب الثالث . وقد شيدوا الهياكل والمعابد للآلهة فى كثير من أنحاء مصر وبلاد النوبة ، وأغدقوا عليها العطايا والهبات ؛ وحظى أمون رع ، إله طيبة ، بالنصيب الأوفى مما زاد فى قوة كهنته وسلطانهم . وكان ذلك من الأسباب التى حملت أمنحوتب الرابع على أن يقطع صلته بهم ، ويغير اسمه إلى أخناتون ، ويغلق معابد أمون ويمحو اسمه وصوره من الآثار ، وينشىء عاصمة جديدة سماها آخت أتن (العمارنة) ؛ حيث ظل يدعو إلى عبادة إلهه الواحد أتن (قرص الشمس) . وكان لدعوته أثر بالغ فى الدين والفن وفى إدارة البلاد ؛ إذ شغلته عن رعاية أملاك مصر فى آسيا فعمتها الثورات ، وغدت لقمة سائغة للأعداء . وبموت أخناتون عادت البلاد إلى عبادتها القديمة ؛ وراح كهنة أمون ينشدون

أغانى النصر . وأخذ توت عنخ أمون يعيد لأمون أملاكه ، وعمل حورمحب على إصلاح ما عم البلاد من فساد .

ومن أشهر ملوك الأسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠ – ١٢٠٠ ق.م.) سيتى الأول ورمسيس الثانى ومرنبتاح ؛ وفى عهدهم انتعشت الحياة فى البلاد من جديد . وتمكن سيتى الأول ورمسيس الثانى بحروبهما المظفرة أن يستعيدا بعض ما فقدته مصر من أملاك فى آسيا . وأن يقوما بنشاط معمارى لم يشهده العالم بعدهما[١] ، وبذلك ازدهرت الحضارة المصرية فى عهدهما من جديد . وقد شيد رمسيس الثانى عاصمة له جديدة فى شمال شرقى الدلتا سماها بررعمسس (تانيس = صان الحجر) . وحاول الليبيون وشعوب البحر غزو مصر ولكن مرنبتاح هزمهم شر هزيمة .

وفى عهد رمسيس الثالث (١١٩٨ – ١١٦٦ ق. م.) ، ثانى ملوك الأسرة العشرين (١٢٠٠ – ١٠٨٥ ق . م .) تعرضت مصر لغزو خطير من قبل الليبيين وشعوب البحر فهزمهم فى البر والبحر ونجت البلاد من خطر عظيم ومن ذل الغزو . وتولى العرش بعده ملوك ضعاف ساءت فى عهدهم إدارة البلاد وحالتها المالية وفقدت مصر هيبتها فى الخارج ، بينما كان كهنة أمون يزدادون قوة وسلطاناً ، وكان ذلك بداية العصر المتأخر (١٠٨٥ – ٣٣٢ ق . م .) فى تاريخ مصر[٢] .

وتتألف الأسرة الحادية والعشرين (١٠٨٥ – ٩٥٥ ق . م .) من أبناء أسرة كهنة أمون وأسرة أمراء تانيس (صان الحجر) .

---

(١) لم يكتف رمسيس الثانى بما أنشأه من معابد عديدة فى أنحاء مصر وبلاد النوبة وإنما نقش اسمه كذلك على معابد أسلافه ؛ ولم يكن يدور بخلد المصريين أنه كان يشوه بذلك آثار أسلافه ، وإنما كانوا فى أغلب الظن يعتقدون أن ذلك يجدد حياة الأثر بإلحاقه بشهرة ملك حى .

(٢) من الكتاب من يعتبر المدة من بداية الأسرة الحادية والعشرين حتى نهاية الأسرة الرابعة والعشرين (١٠٨٥ – ٧١٥ ق .م .) فترة وسيطة ثالثة .

ومنذ ذاك بدأت طيبة تفقد أهميتها ، على حين كان قواد الجند المرتزقة من الليبيين فى الفيوم ومدن الوجه البحرى يزدادون قوة وسلطانا حتى تولوا العرش فحققوا حينذاك بالسلم مالم يستطيعوا تحقيقه عن طريق الحرب من قبل . وقد تألفت منهم الأسرتان الثانيةو العشرون و الثالثة و العشرون (٩٥٥ - ٧٢٠ ق.م.) ؛ واستطاع ششونق الأول ، مؤسس الأسرة الثانية والعشرين ، غزو فلسطين حوالى ٩٣٠ ق.م. وإخضاعها لسلطان مصر مرة أخرى ، واستأنف أعمال البنيان فى طيبة بعد أن توقف أكثر من قرنين من الزمان ، وجمل بوبسطة فى شرقى الدلتا ، واتخذها عاصمة له . على أن الثورات لم تلبث أن سادت البلاد مما أضاع وحدتها .

ومنذ أن أخذ الضعف يدب فى أوصال مصر إبان الأسرة العشرين كان جنوب مصر والنوبة تحت إشراف كهنة أمون فى طيبة . ولم تلبث أن قامت فى نبت بالقرب من الشلال الرابع حوالى ٧٥٠ ق.م. مملكة نوبية ذات حضارة مصرية تدين بعبادة أمون رع ؛ وكان ملوكها يعتبرون أنفسهم الحماة الحقيقيين للديانة المصرية والحكام الشرعيين لمصر . وقد استطاع الملك بعنخى الاستيلاء على مصر عام ٧٣٠ ق.م. فى غير عناء . وما كاد يغادر مصر حتى اعتلى العرش تف نخت ، حاكم صا الحجر (سايس) ، ويعد مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين (٧٢٠ - ٧١٥ ق. م .) . ولم يلبث أن عاد إلى مصر شاباكا أخو بعنخى واستولى عليها ويعتبر مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين (٧١٥ - ٦٦٣ ق.م.) . وخلفه على العرش شاباتاكا ثم طهرقا على أنهما أثارا حقد ملوك أشور بتأليبهما دويلات فلسطين ضدهم ولم يكونوا من أندادهم . فاستولى أزارهدن ، ملك أشور ، على الوجه البحرى عام ٦٧٠ ق. م. ونهب جيشه منف[1] . وما كاد

(١) H. von Zeissl, Aethiopien und Assyrer in Aegypten.

الجيش الأشورى يعود إلى بلاده حتى عاد طهرقا واستولى على منف عام ٦٦٩ ق.م. ومد سلطانه على الدلتا . بيد أن الأشوريين سرعان ما عادوا واستولوا على مصر ودخلت جيوش أشور بانيبال طيبة ونهبتها .

وفى ٦٦٣ ق.م. استطاع أبسمتيك الأول حاكم صا الحجر طرد الأشوريين من مصر وبه تبدأ الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ ــ ٥٢٥ ق.م.) . وقد استطاع وخلفاؤه أن يعيدوا لمصر شيئاً من عظمتها السابقة (١) ؛ ومن أهمهم نكاو وأحمس الثانى . وفى ٥٢٥ ق.م. غزا الفرس مصر ؛ ومنهم تتألف الأسرة السابعة والعشرون (٥٢٥ ــ ٤٠٤ ق.م.) (٢) . وفى أواخر حكمهم شملت الثورة مصر بأسرها . وتتألف الأسرة الثامنة والعشرين من أمون اردیسو (امرتی) . أمير صا الحجر (٤٠٤ ــ ٣٩٨ ق . م .) .

وخلفه ملوك الأسرة التاسعة والعشرين (٣٩٨ ــ ٣٧٨ ق.م.) ، وكانت عاصمتهم فى منديس (الأمديد) . ثم ملوك الأسرة الثلاثين (٣٧٨ ــ ٣٤١ ق.م.) فى سمنود ؛ ومن أشهرهم نقطانب الأول (٣٧٨ ــ ٣٦٠ ق.م.) . وكان له نشاط معمارى فى كثير من بلاد مصر . ونقطانب الثانى (٣٥٩ ــ ٣٤١ ق.م.) الذى يظهر اسمه على كثير من الآثار .

ولم يلبث أن عاد الفرس إلى حكم مصر مرة ثانية (٣٤١ ــ ٣٣٣ ق.م.) فخربوا المساكن ودنسوا الهياكل ونقلوا تماثيل المعبودات إلى فارس . إلى أن هزمهم الإسكندر المقدونى عام ٣٣٣ ق.م. ثم دخل مصر عام ٣٣٢ ق.م. دون قتال .

---

(١) F.K. Kienitz, Die politische Geschichte Aegyptens vom 7. bis zum 4. Jahrhundert vor der Zeitwende.

(٢) G. Posener, La première domination perse en Egypte.

العمارة المصرية

خصائصها وما أثر فيها من عوامل

لازمت العمارة المصرية طوال تاريخها القديم صفات وخصائص يعين التعرف عليها واستكناه أسبابها على فهمها وحسن تقديرها . وقد كان للظروف الطبيعية ومواد البناء وعقائد المصريين وتصوراتهم وأحوالهم السياسية والاقتصادية وما جبلوا عليه من نشاط وامتازوا به من كفاءة أثرها جميعاً فيما أنشأوا من عمائر .

وتتميز مظاهر الطبيعة فى مصر بقوتها وروعتها وشدة جلائها ووضوحها واستقامة خطوطها ، واستقرار أحوالها مدى الأيام والسنين . فنيلها عظيم فى طوله واتساعه ، يجرى بين شاطئيه فى جلال ، ناشراً الخصب والحياة عن يمين وشمال . وشطئانه مستوية فى أكثر الأحيان ؛ وموجه يعلو ويزيد فى ميعاد معلوم من كل عام ، فإذا فاض وجاوز حده كسر الحواجز والجسور ، وأغرق المزارع والقرى .

والوادى الحصيب يمتد على طول النهر من الجنوب إلى الشمال . تتخلله القنوات فى خطوط مستقيمة . فقد علم الذى خطها عن خبرة وبوحى من بصيرته أن الخط المستقيم أقصر مسافة ، وأحكم فى الحفاظ على ما يجرى فيه من ماء .

والشمس تمخر سماء مصر كأنها ملك عظيم ؛ تغمر الربى والوديان بضوئها الساطع فتبدو الأشياء على حقيقتها السافرة أوضح ماتكون بما لايدع مجالا للبس أو وهم أو خيال .

ومناخ مصر جاف معتدل على مدار العام حتى أنه لا يكاد يكون موضع حديث أو سؤال . والطبيعة فيها سمحة هادئة مستقرة فى سمت ووقار ، لا تكاد تختلف من مكان إلى مكان ؛ فالقرى تتوالى متشابهة ، وخمائل النخيل والشجر تتعاقب . تتخللها الحقول اليانعة بالزرع . تنساب بينها الترع والقنا . وتكتنفها رمال الصحراء ، حيث الفرق كبير بينها وبين الأرض الخصبة التى تجاورها دون فاصل مما دعا المصريين إلى تسمية بلادهم بالأرض السوداء .

وتحف بالوادى هضبتان كأنهما صرحان ممدودان عن يمين وشمال ، تقطعهما وديان جافة كانت تمد النيل بالماء فى عصر الأمطار. وصحارى مصر تروع بجلالها وامتداد آفاقها وثبات أحوالها وما توحى به من معانى الخلود والدوام ، والعظمة والجلال . وقد عزلت المصريين عمن جاورهم إلى حد كبير ، وحمتهم قروناً طويلة من غارات المغيرين ، فأتاحت بذلك للحضارة المصرية أن تتأصل وتزدهر . على أنها حرمتهم من فرص المنافسة مع غيرهم ، فكان ذلك من العوامل القوية التى ساعدت على الاكتفاء بما بلغوه من تقدم وما حققوه من وسائل وخبرات دون أن يعملوا على تطورها .

هذه الطبيعة الجليلة الوقورة ، السافرة الواضحة ، المستقرة ، المستقيمة ، المتشاكلة . لابد أن غمرت قلوب أبنائها وأحاسيسهم ،

وقد كانوا على صلة وثيقة بها ، بمعانى الجلال والوقار ، والقوة والعظمة ، والوضوح والجلاء ، والثبات والاستقرار ، والاعتدال والاستقامة ، فتأثرت بها أفكارهم ، وطبعت عليها نفوسهم ، ووجدت سبيلها إلى أعمالهم الفنية وعلى رأسها جميعاً مبانيهم وعمائرهم . وهاهو ذا ماحفظ من معابدهم وأهراماتهم فى عهد الأسرات تمتد فيها الجدران مصمتة ، لاتتخللها غير فتحات ضيقة[1] ، وتعلو فيها الصروح قوية شاهقة[2] ، وتتعاقب فيها الأفنية والأبهاء والقاعات على محور مستقيم[3] ، واضحة بسيطة ، لا تعقيد فيها ولا إبهام ؛ سطوحها فى الغالب الأعم مستوية[4] ، لا مقبية ولامقببة ، وتتفق ومحيطها أحسن ما يكون الاتفاق ، وتتسق خطوطها الأفقية والرأسية وخطوط الهضبة أتم اتساق . وها هى ذى الأساطين السامقة بطرزها النباتية المختلفة[5] ترفع السقوف مسافات عالية ، وتضفى على المكان روعة وجلالا ووقاراً حتى ليبدو وكأنه جزء من طبيعة الوادى الخصيب . بهذا كله بلغت العمارة المصرية الكمال فى محيطها ، وهو سر عظمتها وما يثير الرضاء بها والإعجاب .

ومصر قليلة الأمطار ، ومن أجل ذلك كانت الأفنية عنصرا هاماً فى العمارة المصرية . وللسبب ذاته غدت سطوح المبانى وخاصة فى العمارة الحجرية طوال العصر الفرعونى مستوية ، وكان لها دور هام فى حياة المصريين فى بيوتهم ، وقد تزود فى المعابد بمآزيب فخمة لتصرف ما قد يهطل من سيول فجأة من حين إلى حين[6] .

---

(١) انظر صفحة ١٤٥ ، ٣٣٢

(٢) انظر صفحة ١٩٣–١٩٤

(٣) انظر صفحة ١٢٤؛ ١٣٧؛ ١٦٤–١٦٥؛ ١٩٢؛ ٤٣١

(٤) انظر صفحة ١٤١

(٥) انظر صفحة ١٠٩ ، ١١٣ ؛ ١٢٤ ، ١٢٥ – ١٢٦ ؛ ١٢٨ ؛ ١٣١ ؛ ١٩٥ – ١٩٦ ؛ ٣٤٩ – ٣٥٢

(٦) انظر صفحة ١٨٠ ؛ ٣٥٣ ؛ ٣٨٣

ولاتقاء حرارة الشمس وضوئها القوى كانت الصفّات فى واجهات المبانى أو حول الأفنية الداخلية عنصراً هاماً لتوفير الظل[1]. وكانت النوافذ فى المعابد فتحات صغيرة فى أعلى الجدران أو فى السقوف مما ترك مساحات معمارية كبيرة للصور والنقوش[2]، فى حين كانت مداخل الأبواب فى المعابد والمقابر كبيرة فخمة: يدخل منها ضوء كاف يضىء مساحات كبيرة؛ ولكنه لا يلبث أن يقل شيئا فشيئاً فيزيد فى روعة المكان[3]. والنقوش غائرة فى السطوح الخارجية والسطوح المعرضة لضوء الشمس بما يقيها العطب ويسمح للأضواء والظلال أن تتلاعب عليها بما يخفف من حدة الضوء الشديد ويضفى على الجدران جمالا[4]؛ وهى دقيقة بارزة فى سطوح الجدران الداخلية بما يكفل لها الوضوح فى الضوء الضعيف الخافت، ويكون لها الأثر الجميل فى النفس.

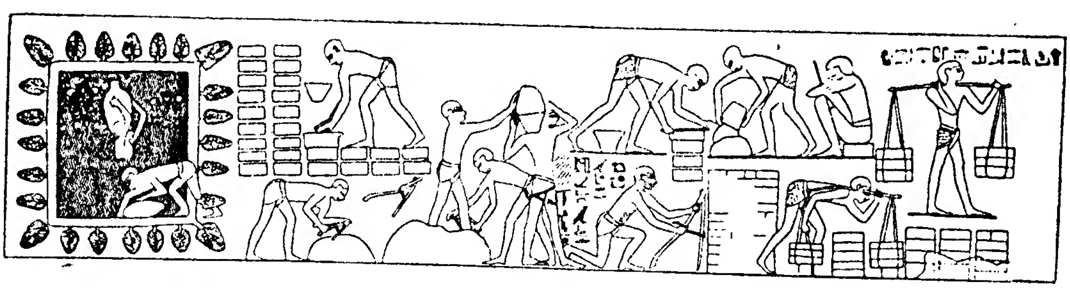
وكان «نسيم الشمال العليل» يلطف من حرارة الجو فى أيام الصيف، لذلك كانت الصفّات وواجهات البيوت تستقبل عادة الشمال، كما كانت تنشأ فى السقوف ملاقف تتلقى الهواء البارد[5]: بما يتفق وأمانى المصرى القديم من أن يتنشق ريح الشمال العليل المضمخ بعبير الآلهة.

ولمواد البناء أثر واضح فى الأشكال المعمارية. حتى إن استبدال مادة بأخرى يقتضى عادة تعديل طراز البناء أو تغيير نسبه؛ ولا يكون البناء جميلا متكاملا إلا إذا كان بين طرازه والمادة التى يبنى بها اتساق. وقد كانت مواد البناء الأولى فى مصر مما كان ينمو فى وادى النيل من أعواد النبات من البردى والغاب والسمار ومن فروع الشجر؛ وقد وجد فيها المصريون مواد سهلة يقيمون منها أكواخهم

(١) انظر صفحة ١٠٣، ١٠٤، ١٩٥، ٤٣٢
(٢) انظر صفحة ٢١٩، ٢٢٣ – ٢٢٤
(٣) انظر صفحة ١٩٤ – ١٩٥، ١٩٦ – ١٩٧
(٤) انظر صفحة ١٩٧ – ١٩٨
(٥) انظر صفحة ١٠٣ – ١٠٤، ١٥٠

البدائية بما كان يوائم حالتهم الثقافية والاقتصادية وما كانوا يملكون من أدوات . وكان من الملامح البارزة للأكواخ آنذاك قلة مساحتها ، واستدارة مخططها وتقوس أعلى مداخلها ، وانحدار سقوفها أو تقبيتها بعقد أطراف أعواد النبات من فوقها ، بما يمكن أن يعد أصلا للسقوف الحدباء والأقباء والقباب(١) . وفى ذلك الزمن البعيد كان من سقوف الأكواخ ما يرفع على فروع الشجر أو فوق حزم من أعواد النبات .

وقد جلب النيل إلى مصر على مدى آلاف السنين طبقة سميكة من الطمى ، صنع منها المصريون منذ أواخر ما قبل الأسرات اللبن ، وذلك بخلطه برمل او تبن أو مادة أخرى ليقوى تماسكه ، وحتى لا يتقلص ويتشقق ويفسد شكله عندما يجف(٢) . وكان يعجن بالماء حتى يصير ازجا ، ومن ثم كانت تملأ به قوالب صغيرة مستطيلة من خشب ، تترك فى الشمس أياماً حتى يجف مابها (شكل ١) .



(شكل ١) صناعة اللبن

وما من ريب فى أن اللبن قد يسر البناء وساعد على سعته واستقامة جوانبه ، كما ساعد على أن يكون المدخل فى بيت الزعيم أو الملك من شكل خاص فخم، يبرزه ويعظم من شأنه بين سائر البيوت والمساكن.

---

(١) انظر صفحة ٩٢

(٢) A. Lucas, Ancient Egyptian Materials and Industries, 3rd ed., p. 62 f.

ومن الصفات البارزة لعمارة المقابر الكبيرة فى بداية الأسرات تكسر سطوح جدرانها الخارجية فى مشكاوات متداخلة (١) ، ساعد البناء باللبن على ازدهارها إن لم يكن قد أدى الى نشأتها (شكل ١٠٦ وصورة ٣٩) . وهكذا كان اللبن ذا أثر لاينكر فى العمارة المصرية ؛ وليس يخلو من مغزى أن اسمه الشائع فى مصر (طوب) وأحد أسمائه فى اللغة الانجليزية (٢) إنما يرجعان إلى اللفظ المصرى القديم .

ومنذ الدولة الوسطى كان يراعى أن يكون طول اللبنة ضعف عرضها لينتفع بها فى البناء طولا وعرضاً بما يكفل تماسك البنيان ومتانته . ولما كان الطمى متوفرا فى كافة أنحاء مصر ولا يحتاج صناعته إلى مهارة كبيرة فإن البناء به رخيص ، ويناسب طقس مصر لقلة المطر فيها ، فضلا عما يتوفر فى البيوت التى تبنى منه من دفء فى الشتاء واعتدال حرارة فى الصيف ، وقدرة على البقاء زمناً طويلا لايتلفه إلا ما تذروه الرياح من رمال يسهل علاج أثره بملاط من طين يجدد من وقت إلى آخر .

ومن اللبن كانت تبنى البيوت والقصور وأسوار المدن وبعض المعابد ، ولكن أكثرها اندثر لوقوعه فى مناطق الأحياء ولأن البناء باللبن لايدوم بطبيعة الحال قدر ما يدوم البناء بالحجر . ومع أن المصريين صنعوا اللبن منذ أواخر ما قبل الأسرات فإنهم لم يستخدموه محروقاً إلا فى العهد المتأخر على عكس غيرهم من الشعوب وخاصة البابليين ، وذلك لوفرة الأحجار المختلفة فى مصر وقلة مواد الحريق بها .

وكان الملاط فى المبانى من اللبن هو الطين ، وهو أصلح المواد

---

(١) انظر صفحة ٢٦٧-٢٦٨

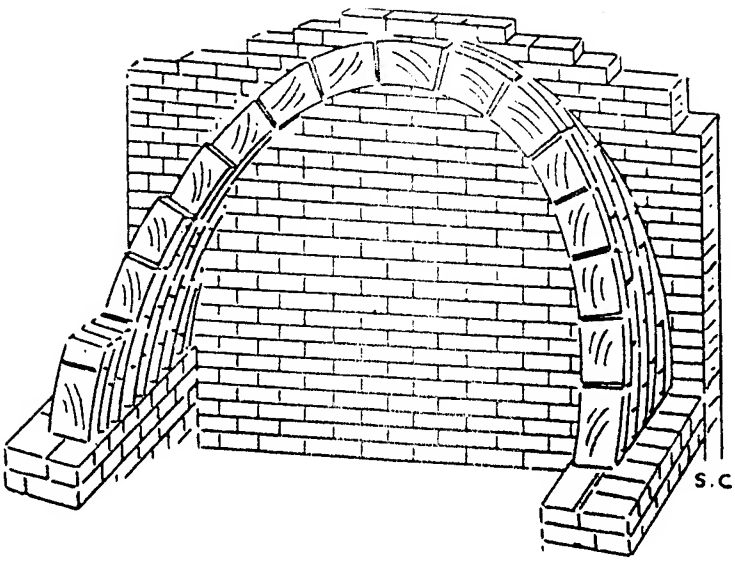
(٢) Adobe

لهذا الغرض ، ولا يزال يستخدم فى المبانى من اللبن حتى الوقت الحاضر . وكانت الجدران من اللبن تطلى أيضا بطلاء من طين ؛ وكان نوعين ، نوع خشن يتكون من طمى النيل العادى ، ونوع جيد يتكون من خليط طبيعى من طين دقيق الحبيبات وحجر جيرى ، ويوجد فى جيوب فى سفح الهضبة ويسمى فى الوقت الحاضر الحيب . ولا يزال يستخدم ظهارة للطلاء من الطين الخشن . وكان المصريون فى كثير من الأحيان يغشون طلاء الطين بطلاء آخر من الجبس لإعداد سطح صالح للتصوير عليه .

ولم تكن أشجار مصر تصلح لتزويد العمارة بما كانت تحتاج إليه من أخشاب ؛ ذلك لأن أشجار الأثل والجميز ، وإن كانت قد استثمرت فى صناعة بعض الأثاث والمراكب ، إلا أنها لا توفر ألواحا طويلة من الخشب . وأشجار النخيل ، وان كانت قد أفادت كثيراً كدعائم للسقوف وفى تسقيف القاعات ، كما هو الحال الآن فى ريف مصر ، فهى لاتيسر اتخاذ ألواح منها . لذلك اضطر المصريون إلى تسقيف القاعات فى وقت مبكر بالأقباء من اللبن[1] ، وذلك ببناء الجدارين الجانبيين بارتفاع واحد وربطهما معاً فى طرفيهما بجدار مرتفع يبنى عليه القبو فى شكل أنصاف دوائر مائلة (شكل ٢) . بيد أن سطح القبو كان يسوى من أعلى بالبناء فلم يكن يرى من خارج القاعات ؛ وبذلك كان القبو مجرد وسيلة اقتصادية ، ولم يكن له شأن يذكر فى العمارة المصرية . ومن الأقباء ما كان مدرّجاً وهو أبسط أنواعها ، ويرجح أنه كان أقدمها ، وفيه يقترب الجداران الجانبيان ، بعد ارتفاع معين ، أحدهما إلى الآخر ، وذلك بجعل كل مدماك من اللبن يبرز قليلا عن سابقه حتى يلتئم الجداران معاً

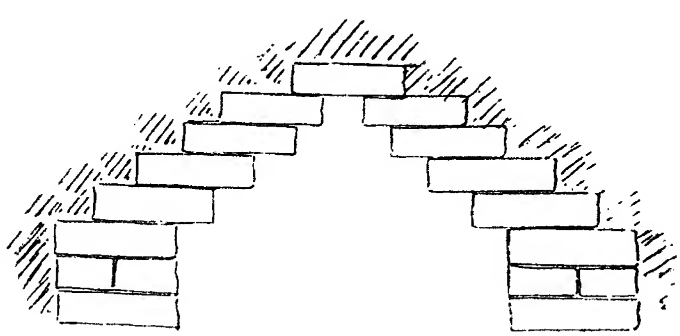
---

(١) Hjalmar Larsen, The Vaults and Domes in Egyptian Architecture of the Early Kingdom, Acta Archaeologica, vol. XXI, (1950), p. 211 ff.



(شكل ٢) بناء قبو من اللبن بالاعتماد على جدار فى طرف البناء

(شكل ٣) ؛ وقد تقترب الجدران الأربعة معاً فيغدو السقف فى شكل قبة (١) ، وكان يستخدم فى بناء الأقباء فى بعض الأحيان نوع خاص رفيع من اللبن . ومن الأقباء ما كان يبنى مزدوجاً ؛ قبواً فوق قبو ، بل منها ما كان يتألف من ثلاث أو أربع أقباء ، يعلو أحدها الآخر (صورة ٢) .



(شكل ٣) قبو مدرج من اللبن

وقد اضطر المصريون منذ بداية الأسرات على الأقل إلى استيراد أخشاب الأرز والصنوبر والسرو من سورية ولبنان ؛ على أن ذلك

(١) H. Junker, Giza V, S. 30 ff., Abb. 2, 3, Taf. III b.

كان بطبيعة الحال فى حدود معينة ؛ على أنه كان له أثر كبير فى تطور الملاحة المصرية . وساعد الخشب بغير شك على استقامة السطوح فى العمارة المصرية ، وإن كان من القاعات ما ظل يسقف بقبو من اللبن . وأقدم ما سجله التاريخ عن استيراد الخشب أن سنفرو أرسل إلى شواطىء شرق البحر الأبيض المتوسط أربعين سفينة لجلب الأخشاب منها ، وهى أول بعثة بحرية معروفة(١) .

وقد شغف المصريون بالخلود فما يعرف من شعوب العالم من تحدث مثلهم عن ملايين السنين وعن الأبدية . وفى كفاحهم ضد الفناء وجدوا فى أحجار الصحراء (٢) ما يتسق وما صبوا إليه من أهداف ، فاستغلوها أكبر استغلال . وكان الملوك يوفدون البعثات إلى أسوان وأماكن مختلفة فى الصحراء الشرقية لجلب الأحجار المختلفة اللازمة للأهرامات والمعابد والأبواب الوهمية والمسلات والنواويس والتماثيل والتوابيت وغيرها ، بما كفل لمنشآتهم البقاء آلاف السنين ، وميز العمارة المصرية على عمارة البلاد الأخرى وخاصة عمارة بابل وأشور ، حتى ليقال بحق أن مصر وطن البناء بالحجر .

وكان الحجر الجيرى حجر البناء الرئيسى فى الدولة القديمة ؛ وهو من الأحجار الرخوة ، ويتوفر بكثرة فى الهضاب التى تكتنف وادى النيل مباشرة فى الشرق والغرب من إسنا إلى القاهرة . ومنه نوع جيد يمتاز بصلابته ودقة حبيباته فى طرة والمعصرة جنوبى القاهرة بإزاء منف ، وفى الجبلين جنوب أرمنت بقليل . ولجودته كانت تكسى به الأهرامات والمصاطب الكبيرة ، وتبنى به الدهاليز والقاعات وخاصة ما كانت جدرانها تنقش بالصور . بيد أن أطول مسافة يمكن تسقيفها بالحجر الجيرى لاتزيد على ثلاثة أمتار ؛ لذلك

---

(١) H. Schaefer, Ein Bruchstueck altaegyptischer Annalen, S. 30.

(٢) K. Sethe, Dite Bau- und Denkmalsteine der Alten Aegypter und ihre Namen ; A. Lucas, op. cit., p. 64 ff.

كانت أكثر القاعات فى الدولة القديمة ضيقة ؛ على أن من الأبهاء فى بعض المعابد والمقابر ما أمكن تسقيفه بأحجار جيرية تعتمد على أعتاب فوق صف أو صفين من الأعمدة أو الأساطين (شكل ١٣١ وصورة ٥٣) . كذلك ساعد الحجر أيضا على استقامة السطوح ؛ بيد أن من سقوف بعض غرف الدفن العريضة وما يتصل بها من ردهات ما هو أحدب ، يتكون من أحجار مائلة يعتمد طرف أحدها على طرف الآخر فى شكل مثلث مما ساعد على توزيع ثقل الجزء العلوى من البناء (شكل ١٢٨ و١٣٧) (١) ؛ ويزيد فى قوة هذا الطراز من السقوف أن يكون من طبقتين أو ثلاث كل منها تعلو الأخرى(٢). ومن السقوف ما كان يبنى من حجر الجير فى شكل عقد مدرج على طريقة بعض الأقباء من اللبن (صورة ٥١)(٣) . ومن هذه السقوف بنوعيها ، الأحدب والقبو المدرج ما كان ينحت سطحه الأسفل فى هيئة قبو كاذب (صورة ١٩ و٢٨)(٤) . وقد ظل المصريون يستخدمون حجر الجير فى بناء المعابد والمقابر حتى أواسط الأسرة الثامنة عشرة ، ثم بعد ذلك فى حدود ضيقة . وكان الكتبة يسجلون على الأحجار بعد قطعها فى محاجرها أسماء فرق الحجارين الذين قطعوها وتاريخ قطعها وأجزاء البناء التى ستبنى فيها وغير ذلك من تفاصيل .

وكان الملاط فى المبانى من الحجر من الجبس ، ولا يعرف أن المصريين قد استخدموا الجير ملاطاً قبل العهد اليونانى وذلك رغم أن الحجر الجيرى متوفر فى مصر ، أكثر من الجبس ، وأسهل منالا ، ولعل ذلك يرجع إلى قلة الوقود فى مصر ، إذ يحتاج حرق الجير إلى درجة حرارة أعلى كثيراً من حرق الجبس . وأنه ليصعب علينا الآن أن نتصور إمكان البناء بغير ملاط يربط بين الأحجار ، ذلك لأننا تعودنا البناء بأحجار صغيرة يقتضى تماسكها ملاطاً بينها .

---

(١) انظر صفحة ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ (٢) انظر صفحة ٣٤١

(٣) انظر صفحة ٢٩٩ ، ٣٠٩ (٤) انظر صفحة ١٩١ ، ٢٣٢

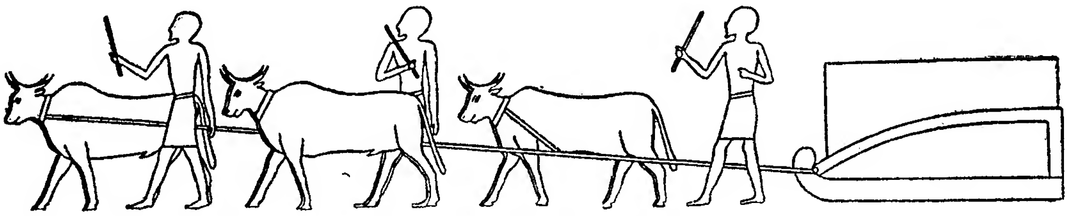
ومع ذلك لم يكن الغرض من ملاط الجبس فى المبانى الحجرية التى شيدها المصريون بكتل كبيرة من الحجر ربط الأحجار بعضها ببعض لأن فى ثقل الأحجار ما يغنى عن ذلك ، وإنما كان لملء الفجوات الدقيقة فى السطوح العليا للأحجار التى تحمل أثقالا كبيرة فى جدران عالية ، ولتوزيع ما يقع عليها من ثقل مما جنبها التشقق وكفل لها كمال التصاق الأحجار بعضها ببعض . وربما كان الغرض منه أيضا تيسير تحريك الأحجار الثقيلة ووضعها فى مكانها من البناء بدقة ، بما كان يقى فى ذات الوقت حوافيها وحوافى الأحجار المجاورة من التلف فى وقت لم تكن تستخدم فيه بكرات أو رافعات. ولتحقيق ذلك كله كان ملاط الجبس يستخدم سائلا بدرجة كبيرة حتى أنه عند جفافه لم يكن يتجاوز أن يكون أكثر من طبقة رقيقة . وكانت الجدران والسقوف تطلى بطلاء الجبس أيضاً ؛ وكان هذا الطلاء يستخدم كذلك فى علاج العيوب فى الجدران وفى تسوية سطوحها قبل نقش الصور والمناظر فيها .

وكانت الأحجار الكبيرة تنقل على زلاقات من خشب . وقد عثر بالقرب من هرم سنوسرت الثانى فى اللاهون وهرم سنوسرت الثالث فى دهشور على ما يدل على استخدامها(١) . ومن النصوص ما يدل على أن أحمس الأول افتتح فى السنة الثانية والعشرين من حكمه محجراً جديداً فى طره للحصول على حجر جيرى أبيض جميل لمعبدى بتاح فى منف وأمون فى طيبة ؛ وتمثل الصورة المجاورة

---

(١) Petrie, Brunton and Murray, Lahun II, p. 12 ; De Morgan, Fouilles à Dahchour, Mars-Juin 1894, pp. 82-83 (Cairo Museum 5460). وكانت التماثيل الكبيرة تنقل أيضاً على زلاقات ، ومما حفظ من صور الدولة الوسطى ما يمثل نقل تمثال من المرمر المصرى لأحد حكام الاقاليم على زلاقة فوق براطيم من الخشب ، يشدها مائة واثنان وسبعون رجلا بينما يصب رجل آخر ماء على براطيم الخشب ليقلل من حرارة الاحتكاك بالأرض . وكانت تستخدم مع الزلاقات فى بعض الأحيان دلافين من خشب ، على أنه لم يعثر إلا على أمثلة قليلة منها . ولا يعنى هذا أن المصريين لم يستخدموا العجلة ، فمن مناظر الأسرة الخامسة ما يمثل سلما مركبا على عجل ، على أنهم لم يستخدموها فى نقل الأحجار .

للنص ثلاثة أزواج من الثيران تجر زلاقة محملة بالحجر . ويسوقها ثلاثة أسيويون (شكل ٤) .



(شكل ٤) زلاقة من بداية الأسرة الثامنة عشرة

ومن المعابد ما كانت تكسى جدرانه وتسقف قاعاته بحجر الجرانيت ، وتنحت منه أعمدته أو أساطينه وعتبه وأطر أبوابه . وكان يؤتى به من أسوان وخاصة من جزيرة إلفنتين ؛ ومنه الأحمر الوردى والأشهب والأسود . ومن نقوش الملك أوناس ما يمثل نقل أساطين وكرانيش من جرانيت أحمر لمعبدى هرمه(١) . بيد أن صعوبة تسوية سطوح الجرانيت لم تشجع كثيراً على استخدامه فى نطاق واسع ، وإن كانت الدولة القديمة أكثر العهود التى استخدم فيها الجرانيت فى المعابد والأهرامات وخاصة للمتاريس وتسقيف القاعات التى يزيد بحرها على ثلاثة أمتار . وكانت تنحت منه أيضاً الأبواب الوهمية والتماثيل والمسلات والنواويس والتوابيت وغيرها .

ولما كان من الممكن اتخاذ أحجار طويلة من الحجر الرملى ، فقد يسر ذلك فى الدولة الحديثة تسقيف مساحات عريضة ، وإقامة قاعات ، وأبهاء واسعة ، ومبانى ضخمة ، مما كان له أثر واضح فى العمارة المصرية . ومن أمثلة ذلك فى معبد الكرنك صحن بهو الأساطين العظيم ، الذى يبلغ عرضه تسعة أمتار (شكل ٨٣) .

(١) S. Hassan, Excavations at Saqqara 1937-38, Annales du Service des Antiquités, 38 (1938), 519.

ويتوفر الحجر الرملى فى التلال الممتدة من وادى حلفا إلى كلابشة فى بلاد النوبة ثم من أسوان إلى إسنا ؛ وكانت أهم محاجره فى جبل السلسلة ، شمالى أسوان بنحو ٧٠ كيلو مترا وذلك بين إدفو وكوم امبو . وقد استخدمه المصريون فى البناء على مدى واسع منذ أواسط الأسرة الثانية عشرة حتى العهد الرومانى . وذلك فى معابد الأقصر والكرنك والرمسيوم ومدينة حابو وغيرها ، كما صنعوا منه أيضاً التوابيت والتماثيل والنصب .

وكان حجر الكورتزيت أحد الأحجار الجميلة التى استخدمها المصريون[١] ؛ وهو حجر رملى صلد متبلور ذو لون يميل الاحمرار ، ويوجد فى الجبل الأحمر شمال شرقى القاهرة بنحو عشرة كيلو مترات ، وفى الجبلين . وقد صنعوا منه عتب بعض الأبواب ، ونحتوا منه بعض غرف الدفن ومن ذلك غرفة دفن الملك امنمحات الثالث[٢] ، كما صنعوا منه بعض التوابيت والتماثيل .

وساعد فى البناء كذلك المرمر المصرى (الكلسيت) ؛ وهو من الأحجار الرخوة ذات اللون الأبيض أو الأبيض الضارب للصفرة ، ويشبه المرمر ولكنه يختلف عنه فى تركيبه ؛ ويتميز بدقة حبيباته وصلاحيته للصقل الجيد . ويوجد فى مصر فى أماكن من الصحراء الشرقية وخاصة بالقرب من حلوان[٣] ، وفى جنوب شرقى العمارنة . وقد استخدمه المصريون فى رصف أرض بعض المعابد وتكسية بعض الجدران وفى بناء بعض الحواسق والمقصورات . وصنعوا منه موائد للقربان ونواويس وأوانى وتماثيل وتوابيت .

ومن الأحجار المساعدة أيضا حجر البازلت ، وهو حجر صلد أسود أو أشهب قاتم ؛ وكان يستخدم فى رصف أرض بعض المعابد

---

(١) سماه المصريون الحجر العجيب انظر K. Sethe, Die Bau- und Denkmalsteine..., S. 28.

(٢) انظر صفحة ٣٨١

(٣) F. Petrie and E. Mackay, Heliopolis, Kafr Ammar and Shurafa, pp. 38-39.

وفى بناء سافلات الجدران . ويظن ان مصدره جبل القطرانى فى الفيوم (١) ، بيد أنه يوجد كذلك فى أبو زعبل وفى شمال غربى أهرامات الجيزة .

وكان قطع الأحجار فى المحاجر واستخدامها فى البناء تقوم به الدولة حتى العصور المتأخرة على الأقل ؛ ومن شأن الأعمال الحكومية أن تلتزم أشكالا وأساليب ثابتة ، مما كان له أثره بصفة عامة فى العمارة المصرية .

ويتميز المصريون بأنهم أقاموا أضخم الأعمال بأبسط الوسائل والأدوات مما يصعب تصوره فى عصر الآلة فى الوقت الحاضر ، حتى لقد ذهب الظن إلى أنهم استخدموا آلات من الصلب فى قطع أحجار الجرانيت . وأن التأكسد قد أتلف هذه الآلات بعد قرون قليلة فلم يبق منها شيء . وينقض هذا ما عثر عليه من أمثلة كثيرة من آلات النحاس ، فلو أن المصريين استخدموا أدوات من الصلب لبقى منها بعض أمثلة بفضل جفاف مناخ مصر وتربة الصحراء ، أو لدلت عليها آثارها فى المعابد والمقابر (٢) .

وقد قيل أيضاً إنهم عرفوا كيف يلينون الجرانيت بوسائل كماوية قبل استخدام الأزميل فيه . على أنه لاشك فى أنهم أفادوا خبرة كبيرة فى نحت الحجر الرخو والصلد على حد سواء وذلك فيما أخرجوا من أعداد لا تحصى من الأوانى الجميلة من مختلف الأحجار فى عصور ما قبل الأسرات وبداية الأسرات ، ومن حفر المقابر فى الصخر فى منطقة منف .

وكانت الأحجار الرخوة ، وهى الحجر الجيرى والرملى والمرمر المصرى ، تفصل فى محاجرها بحفر أخاديد من فوقها ومن حولها

---

(١) Caton Thompson, The Desert Faiyûm, 1934, I, 136.

(٢) A. Lucas, op. cit., p. 269.

وذلك بأزاميل من حجر أو نحاس حتى الدولة الوسطى ، ثم من نحاس أو برنز حتى انتشار استخدام الحديد فى صناعة الآلات منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد . وليس من شك فى أن ازدياد استخدام النحاس فى صناعة الآلات فى بداية الأسرات وصناعتها من البرنز منذ الدولة الوسطى قد يسر قطع الأحجار وقيام العمارة الحجرية وازدهارها . وكان يدق على الأزاميل بمداق من خشب أو حجر . وكانت الأحجار الكبيرة تفصل من أسفل بأسافين من خشب تبل بالماء كى تتمدد فينشق الحجر ؛ أما الأحجار الصغيرة فكانت تفصل بأسافين يدق عليها . وفى العصور المتأخرة كانت الأسافين تتخذ من حديد[1] .

ويغلب على الظن أن كتل الجرانيت كانت تتخذ بادىء الأمر من جلاميد الصخر التى فصلتها العوامل الطبيعية . ومهما يكن من أمر فقد أصبحت الأحجار الصلدة ومنها حجر الجرانيت والكورتزيت تقتطع بأسافين من خشب يبل ، أو بدقها بكرات من الدولريت ، وهو حجر صلد مائل للأخضرار يوجد فى بعض وديان الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر . على أن الأسافين لم تكن تستخدم فى قطع المسلات ، وذلك لما تحدثه من ضغوط غير متساوية لاتقوى المسلات على تحملها لقلة سمكها وطولها ، لذلك كانت تفصل من جوانبها ومن أسفلها بطريق الدق[2] .

وهكذا لم تكن أدوات المصريين وآلاتهم لتعدو أدوات من حجر ونحاس وبرنز وخشب ، وذلك على الرغم من رخاوة النحاس الذى قد يفيد الطرق والتسخين فى تقسيته ، ولكن الطرق مع ذلك يجعل حواف الآلات سريعة القصم ، لذلك قيل أنه كانت للمصريين

(١) S. Clarke, R. Engelbach, Ancient Egyptian Masonry, p. 11 ff.

(٢) R. Engelbach, The Problem of the Obelisks ; S. Clarke, R. Engelbach, op. cit., p. 27.

طريقة خاصة فى تقسية النحاس اندثرت باستخدام الحديد فى العصور المتأخرة(١) ؛ على أن من الكيماويين من أنكر ذلك وعده من قبيل الأساطير (٢) .

ومهما يكن من أمر فإننا لانملك ألا أن نحنى رءوسنا إجلالا وتقديرا أمام تلك المنشآت الماردة التى أقامها المصريون ، خاصة إذا علمنا أنهم لم يستخدموا فيها غير عتل وزلاقات وجسور ، وأن من عمائرهم مابلغت فيه دقة التحام الأحجار بعضها ببعض غاية لاتفوقها غاية فى أحجار منها مايزن خمسة عشر طنا ، وكان ذلك فى عهد خوفو فى أوائل القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد(٣) . ولئن كانت عمائرهم بعد ذلك لم تبلغ هذه الغاية من دقة البنيان ، أو أنها لم تخل من عيوب ، منها ضعف الأساس وضعف الجدران السميكة ، فى الوقت الذى أقاموا فيه المسلات ، فلابد أن كان لذلك أسبابه ، التى قد يكون منها كثرة البناء والحرص على إنجازه فى وقت قصير . وما ينبغى أن ننسى مع ذلك أن مستوى ماء النيل قد كان منخفضاً ، فلم يكن للمياه الباطنية أثرها السيء ، فضلا عن قلة سقوط المطر إذ ذاك . ومهما يكن من شيء فإن النصوص لتدل على أن أعدادا غفيرة من الرجال كانت تعمل فى قطع الأحجار ونقلها وفى أعمال البناء . وكان العمل يجرى فى اتساق ونظام دقيق وربما على نغم الناى فى بعض الأحيان على الأقل .

وقد لازمت البناء بأعواد النبات والبناء باللبن منذ عصور ماقبل الأسرات أشكال وخصائص اقتضتها طبيعة كل منهما ، ومن ثم وجدت سبيلها إلى العمارة فى الحجر لما اكتسبت من قداسة ، ولما كانت تكنى عنه من معان ورموز ؛ وقد توارثها المصريون جيلا

(١) S. Clarke and R. Engelbach, op. cit., p. 25.

(٢) A. Lucas, op. cit., p. 264

(٣) انظر صفحة ٣١٠ - ٣١١

عن جيل بحكم ما جبلوا عليه من استمساك بتقاليدهم القديمة . ومن ذلك الخيرزانة والكورنيش المصرى (شكل ١١٤ وصورة ٢١) . أما الخيرزانة فهى بروز إسطوانى يحف بجدران المعابد والهياكل والأبواب وبأعلاها ؛ وكانت تمثل عليها خطوط متعارضة ومائلة تمثل الأربطة ، إذ ترجع فى أصلها إلى حزم من أعواد النبات ، كانت تقوى بها أركان الأكواخ وأعاليها . وأما الكورنيش المصرى فيتوج جدران المعابد فوق الخيرزانة ؛ وأسفله مستو حتى ليعتبر امتدادا لأعلى الجدار ، ثم لايلبث أن ينحنى إلى أمام فى انحناء رشيق يشبه الانحناء بين رأس الإنسان ورقبته ؛ وينتهى فى أعلاه بشريط مستو . ويحلى الجزء المنحنى ما يبدو أنه يمثل سعف النخل بلون أخضر أو أزرق أو أحمر أو بالألوان الثلاثة معاً . ولذلك يظن أن العنصر الأصلى فى الخيرزانة والكورنيش المصرى كان جريد النخل(١) ، وخاصة لما يمتاز به من مرونة وصلابة معاً . على أن من الأثريين من يرى أنه كان غصون بردى أو سمار أو غاب ، على زعم أن جريد النخل إذا ثبت قائماً لا يكون لأعاليه الشكل المنتظم والمنحنى الذى للكورنيش المصرى ، وإنما ينحنى بعضه إلى خارج وبعضه إلى داخل ، بينما يظل معظمه مستقيما بدرجة كبيرة أو صغيرة (٢) . وينقض ذلك أن الجريد إذا نظم بحيث يكون باطنه إلى داخل وظاهره إلى خارج وفق طبيعته من فوق أشجار النخيل فإنه ينحنى إلى الخارج ، هذا فضلا عما يعرف عن المصرى القديم من ميل شديد للترتيب والتنظيم ، كما أنه لا يخفى أن الجريد لايستقيم له عود .

والخيرزانة والكورنيش المصرى من أبرز ملامح العمارة المصرية ؛ وقد كانت للأولى فائدتها وللثانى حتميته فى المنشآت من أعواد النبات ؛ أما فى العمارة الحجرية فقد أصبحا من عناصر الزخرفة

---

(١) F. Petrie, Arts and Crafts, p. 63 ; Clarke and Engelbach, op. cit., p. 6.

(٢) A. Badawi, Le dessin architectural chez les Anciens Egyptiens, p. 35.

التقليدية ، تحلى بهما الجدران الخارجية الهامة والأبواب لما آنسه فيهما المصرى القديم من رشاقة وجمال ، ولما كانا يكنيان عنه من معنى ؛ وأنهما فى الحق ليتسقان وخطوط العمارة المصرية وجلالها أجمل اتساق . وكانت تحلى بهما أيضاً النصب والنواويس وغيرها . وكان أقدم ما عرف من أمثلتهما قبل الكشف عن مبانى زوسر فى صقارة فى تابوت منقرع الذى غرق فى خليج بسكاى أثناء نقله إلى انجلترا (شكل ٢٠٤) . على أن من مبانى زوسر ما كانت تحليه الخيرزانة والكورنيش المصرى (شكل ١١٤) ؛ ويتميز فيها الكورنيش باستقامة خطوطه ويرجع ذلك فيما يرجح إلى بداية تقليده فى الحجر .

ومنذ الأسرة الرابعة على الأقل استخدم البناء المصرى الأعمدة المربعة ، كل عمود من كتلة واحدة ضخمة من الحجر ، بما يسر إقامة أبهاء واسعة سقوفها بلاطات كبيرة من الحجر يحملها عتب ضخم فوق صف أو أكثر من الأعمدة . والعتب عنصر معمارى هام يربط أعالى الأعمدة بما يزيد فى متانة البنيان ، ويفيد فى نفس الوقت فى حمل أحجار السقف الكبيرة ، ويعتبر فاصلا بين الأجزاء العمودية فى البناء والأجزاء الأفقية . وليس يخلو من طرافة أن من الأشخاص فى الدولة الوسطى من كان ينعت نفسه بأنه « العمود السامق فى إقليم طيبة » أو « عمود بلدته » أو « عمود مصر العليا » أو « عمود أسرته »(١) . ويظن أن العمود يرجع فى أصله الى الأعمدة أو الدعائم التى كانت تترك فى الصخر قائمة فى المحاجر والمقابر الصخرية ليعتمد عليها السقف ؛ بيد أنه لايتحتم ذلك ، إذ قد يؤدى اليه استخدام الأحجار الضخمة فى البناء والرغبة فى متانة المبنى واتساعه (٢) .

---

(١) H. Grapow, Die bildlichen Ausdruecke des Aegyptischen, S. 164.

(٢) يذهب چكييى إلى أن العمود مشتق مباشرة من عضادات الأبواب فى الجدار من الحجر ذى الأبواب المتقاربة ، وأنه نتيجة استخدام الحجر لأول مرة فى البناء G. Jéquier, Manuel d'archéologie égyptienne, p. 151 f. ويضعف هذا أن العمود لم يظهر فى عمارة زوسر فى صقارة وأن الأساطين هى التى ظهرت فيها أولا وان لم تكن قد استقلت بنفسها بعد . عن الأساطين انظر ملحوظة ٢ صفحة ٩٣

ومن أبرز مميزات العمارة المصرية ومفاخرها الأساطين النباتية ؛ وهى تتميز على الأعمدة بأناقة أشكالها وطراوتها ، فضلا عن أنها تضفى على البناء حياة وجمالا . ومن الباحثين من ذهب إلى أنها من ابتداع المصريين أنشأوها إنشاء وحاكوا بها النبات مباشرة (١) ، أى أنها كانت وليدة فكرة لم يسبقها تمهيد يؤدى إليها ، وهو مالا يتفق وما يعرف عن المصريين ، ويدل عليه كثير من العناصر المعمارية . وما من ريب فى أنها ترجع فى أصولها الأولى إلى أزمنة قديمة عندما كان السكان الأولون يدعمون عروش أكواخهم بحزم من أعواد النبات أو بفروع الشجر أو جذوعه . ويغلب على الظن أن منها ما كان يحلى فى أعلاه بزهور أو أوراق الشجر وبخاصة فى الأعياد والحفلات الدينية ، ثم لم يلبث أن غدا ذلك تقليدا مرعياً (٢) .

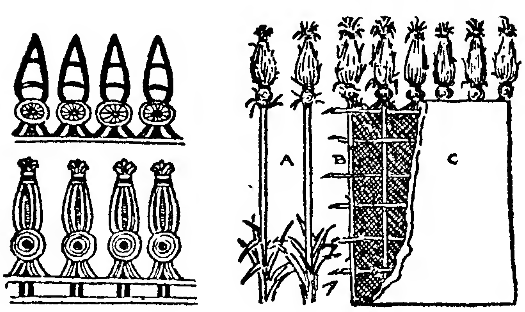
ولا بد أنه كان لاختيار البردى واللوطس والنخيل لتحلية أعالى الأساطين أسباب معينة ، لكثرتها إذ ذاك بين نباتات مصر ، أو لأن المصريين أعجبوا بها أكثر من غيرها لجمال تكوينها وحسن أشكالها ، أو لأن منها ما كانوا يجنون منه فوائد هامة ، أو لأنها كانت تكنى عندهم عن معان تخفى علينا الآن . وقد يؤيد ذلك أن البردى كان رمز الشمال ، وأن الإله الشمس تجلى فى بدء الخليقة على زهرة لوطس . وفى أوائل عهد الأسرات على الأكثر كان من الأساطين فى المعابد والقصور ما ينحت من خشب على هيئة الدعائم الأولى ، ومنها ما كانت أعاليه تنحت فى صورة زهرة ، فكانت بذلك الأساطين الأولى ذات التيجان النباتية المنحوتة . وقد ظلت أساطين

(١) L. Borchardt, Die Aegyptische Pflanzensaeule.

(٢) Foucart, Histoire de l'ordre lotiforme, p. 57 ff. ; S. Clarke, R. Engelbach, op. cit., p. 6. انظر أيضاً صفحة ٦٤ ، ١٥١ – ١٥٢

المظلات الخفيفة فى الحدائق والحقول تنحت من الخشب . (١)
ومنذ الدولة القديمة كانت معظم أساطين المعابد تنحت من الحجر وأهمها أساطين نخيلية وبردية ولوطسية (شكل ١٤١ و ١٤٢ وصورة ٥٧) .

ومن آثار البناء بأعواد النبات كذلك تسقيف بعض المبانى فى الأسرتين الثالثة والرابعة بأحجار نحيتة ، سطوحها السفلى فى شكل أنصاف أساطين ومدهونة بلون أحمر تمثيلا لجذوع النخل التى كانت تسقف بها المبانى من اللبن (صورة ٤٢) . ومنها الشرف فى أعالى الجدران من اللبن أو الحجر ، التى يظن أنها ترجع إلى ثنى أطراف أعواد النبات وعقدها فى شكل أنصاف دوائر (شكل ١٣ و١٤) . ويغلب على الظن أن منها أيضاً عنصرين من عناصر الزخرفة الهامة فى العمارة المصرية فى كافة عصورها ، ويرجع أحدهما إلى عقد الأطراف العليا لأغصان البردى على شكل خاص (شكل ٥) (٢) ؛ ويرجع الآخر فيما يبدو إلى حزم أعالى البردى بعدد من الأربطة ، ويسمى فى بعض الأحيان بعمود أزيريس (صورة ٤٤) . وقد اتخذت منهما الكتابة الهيروغليفية علامتين من علاماتها ، تعنى إحداهما « زخرف» ، وترمز الثانية إلى معنى الدوام .



(شكل ٥) أصل زخرفة « خكر »
وافريزان من مقابر طيبة

وساعد النيل ، وقد كان أهم وسائل المواصلات فى مصر وخاصة

---

(١) L. Klebs, Die Reliefs des alten Reiches, Abb. 53 ; J. Capart, Egyptian Art, tr. from the French by W.R. Dawson, pls. XXXVII and XXXVIII.

(٢) F. Petrie, Egyptian Decorative Art, p. 101 ; G. Jéquier, Manuel d'archéologie égyptienne, p. 100 et seq.

فى زمن الفيضان ، على نقل الأحجار من المحاجر إلى مناطق البناء منذ الأسرة الأولى . ومنذ عصور ما قبل التاريخ كان المصريون يبنون المراكب الكبيرة ومع الزمن تقدموا كثيرا فى بنائها بما جارى ازدياد الطلب على الأحجار الضخمة [١] . ومن أقدم ما سجله التاريخ أن سنفرو بنى مركباً طولها مائة ذراع أى ما يزيد على ٥١ مترا ، وقد جلب من لبنان خشب الأرز على أربعين مركباً ، ولا بد أنها كانت مراكب بحرية . وذكر أونى من الأسرة السادسة أنه بنى فى سبعة عشر يوماً سفينة من خشب السنط لنقل الأحجار طولها ستون ذراعاً وعرضها ثلاثون أى أكثر من ثلاثين مترا طولا وخمسة عشر مترا عرضاً[٢] . وسجل انينى ، مهندس تحوتمس الأول ، أنه نقل المسلتين اللتين أشرف على إقامتهما فى الكرنك فى مركب طولها ١٢٠ ذراعا (٦٣ مترا) وعرضها ٤٠ ذراعا (٢١ مترا) [٣] . ومن السفن ما كان يزيد طوله على ثمانين مترا ؛ ومنها ما كان يستطيع نقل مازنته ألف طن على الأقل من أسوان إلى الأقصر سواء كان ذلك كتلة واحدة أو عددا من الكتل .

ولم يدخر المصريون وسعاً فى إعداد الطرق من المحاجر إلى النيل [٤] ، ومن النيل إلى مناطق العمل ؛ وحيثما كان يصعب ذلك فى الصحراء فى كثير من الأحيان ، كانت تبنى جسور كبيرة فى الوهاد والمنخفضات حيث كانت الأحجار تنقل على زلاقات من خشب يجرها الرجال أو الثيران (شكل ٤) [٥] .

وكان للعقائد الدينية والجنائزية أثرها الواضح كذلك فى بناء المعابد

---

(١) C. Boreux, Etude de nautique égyptienne.

(٢) J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, vol. I, 323.

(٣) نفس المرجع ، الجزء الثانى فقرة ١٠٥

(٤) Caton Thompson, In Antiquity I, 1927, pp. 329, 338-9, pls. VII and VIII ; P. Timme, Tel el Amarna in 1911, pp. 37, 43 ; Clarke and Engelbach, op. cit., p. 23.

(٥) Annales de Service des Antiquités, XI, 263.

والمقابر ؛ فقد كان المصريون من أشد الأمم تديناً وأكثرهم اهتماماً بالحياة الثانية ، وأعظمهم رعاية لموتاهم ، وأحفظهم على تقاليدهم . وقد أقاموا لآلهتهم المعابد الضخمة فى كل مكان ، وابتنوا المقابر الكبيرة ، وأودعوا فيها غالى الرياش . وفى مطلع العصر التاريخى اقترن توحيد القطرين بضم تقاليدهما السياسية معاً ، ولابد أن صاحب ذلك أيضاً ضم تقاليدهما الدينية والجنازية ، وأن ذلك كان له أثره فى عمارة المعابد والمقابر . وكانت معابد الآلهة والمعابد الجنازية مسرحاً لمناسك وشعائر أكثر أيام السنة مما كان له أثره بطبيعة الحال فى تخطيطها وإن خفيت تفاصيل ذلك عنا الآن . وما من ريب فى أن عبادة الشمس وعقيدة أزيريس كان لهما صداهما كذلك . وإن تكرار المشكاوات فى السطوح الخارجية لجدران المقابر فى بداية عهد الأسرات (شكل ١٠٦ وصورة ٣٩) ، واتجاه مداخل الأهرامات فى الدولة القديمة نحو الشمال[١] ، ووقوع معابد الأهرامات فى الشرق منها [٢] ، ومواجهة الأبواب الوهمية للشرق [٣] ، وتدرج ارتفاع أرض المعبد ، وتدرج إنخفاض سقوفه [٤] قد كان بغير شك مما قضت به العقائد والتصورات الدينية والجنازية .

ثم ألم يكن الاهتمام البالغ بوقاية الجثة والعمل على صيانة ما كان يودع معها من ذخائر من أن تمتد إليها يد العبث من بين الأسباب الهامة فى تطور المقبرة ، وفى نشأة الشكل الهرمى فى الدولة القديمة ؛ وفيما ابتدعه البناء من حيل فى إخفاء غرفة الدفن فى الدولة الوسطى ، وفى فصل المقبرة الملكية عن المعبد الجنازى فى الدولة الحديثة ؟ وليس بنكر أن بين طراز كل بناء والغرض منه صلة واضحة ، وأن البنّاء الموهوب هو الذى يوفق بينهما فى مخطط متسق . وقد وفرت المعابد

---

(١) انظر صفحة ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠

(٢) انظر صفحة ٣٠١ ، ٣٠٢ ؛ ٣١٩ ، ٣٢٦ ، ٣٤٣

(٣) انظر صفحة ٢٨٨ ، ٣٧١ — ٣٧٢

(٤) انظر صفحة ١٩٧

والمقابر المصرية الأماكن المناسبة لأداء المناسك والشعائر المختلفة فى مخطط موحد متكامل حقق ماكان يقصد إليه منها .

وقد مرت مصر فى تاريخها القديم بظروف سياسية وتاريخية مختلفة ، صاحبتها أحوال اقتصادية وعمرانية متباينة ، كان لها فى جملتها وتفصيلها آثار عميقة فى الفنون المصرية ومنها العمارة . وقد كانت الفنون المختلفة تزدهر وتبلغ غاية تطورها فى عهود الحكم المستتب والإدارة العادلة ، وتضمحل ولايقوم لها شأن فى عهد الاضمحلال والضعف السياسى . من ذلك ماكان لتوحيد القطرين فى فجر عهد الأسرات من أثر بالغ فى قيام حكم قوى وإدارة منظمة ساعدا على تطور الكتابة الهيروغليفية وازدهار الفنون والصناعات وخلق ملامح العمارة المصرية وطابعها العام . وضخامة البناء وبساطته معاً فى الأسرة الرابعة ، وتواضع منشآت الدولة الوسطى فى أحجامها وموادها ، ورشاقة مبانى الأسرة الثامنة عشرة وأناقتها ، وضخامة البناء فى عهد الرعامسة لم يكن ليتأتى لو لم يتسق وروح كل عصر وأهدافه وظروفه الاقتصادية والسياسية . وقد كان للعاصمة فى العهود المزدهرة أثرها الواضح فى ابتداع الأساليب والطرز الفنية ، ومنها كانت تجد سبيلها فى سهولة إلى عواصم الأقاليم . على أنه كان لذلك أثره السلبى من جهة أخرى ، فلم يتح للأقاليم أن تكون لها خصائص مميزة فى الفنون المختلفة ومنها العمارة ، مما كان يعين على تنوع الطرز واختلاف الوسائل والأساليب .

وكان لأشخاص الملوك أثرهم فى منشآتهم الخاصة وفى معابد الآلهة فى مختلف البلاد ، وكانت تدين لهم بوجودها وما يقفونه عليها من موارد . فقد كانت الآلهة تمنح الملك السلطان والنصر ، وكان عليه لقاء ذلك أن ينشىء لها المعابد ويقيم فيها التماثيل ويزودها بأدوات العبادة ويرتب لها الكهنة ويقف عليها الأملاك ويمنحها الهدايا والعطايا . وكان يستعين فى هذا كله بمنتجات أملاكه ومصنوعات مصانعه

وما يحصل عليه من جزى وغنائم . وكان كلما عظم انتصار الملك وجب عليه أن يعبر عن شكره للآلهة بالهدايا العظيمة والأعياد الكبيرة بما يكفل دوام رضائها عنه . يضاف إلى ذلك أن الملوك كانوا يعتقدون أنهم من نسل الآلهة وأن مصيرهم إليها ، فلم يكونوا يدخرون وسعاً فى كسب رضائها ، وهو ما تنطق عنه عديد النصوص والوثائق .

ولم يقتصر أثر الملوك على كثرة المنشآت وتوفير أسبابها بتحسين مرافق البلاد ، وتنظيم مواردها ، وتدعيم أسباب الرخاء بين طبقات الشعب ، وتوفير الفنانين والأيدى العاملة ، وإنما كان يتعداه إلى طراز البناء وفخامته أيضاً ، إذ كان الملوك أقدر من الأفراد على تحقيق ما يريدون من بناء ، ومنهم من لم ين عن تحسين مبانى الآلهة والموتى وتجميلها . ومن الجبانات ما بنى على طراز موحد متسق ، يدل على إرادة إنشائيه واحدة ، لايمكن أن تكون غير إرادة ملك قوى ذى سلطان واسع (١) . ولم يكن ليتيسر مالطراز البناء فى الأسرة الرابعة من قوة وجلال لولم يكن يعتمد على شخصيات ملكية عظيمة ؛ ولم تكن مبانى رمسيس الثانى لتتسم بالضخامة التى تفوق حد التصور الإنسانى ما لم يكن من ورائها ملك طموح لاحد لطموحه . ومن الملوك من لم يفته أن يتفقد بنفسه العمل فيما أنشأ من منشآت هامة (٢) ، ومنهم من كان يكلف عماله بصنع بعض الأجزاء المعمارية كالأبواب الوهمية ليهديها للمخلصين فى خدمته يقيمونها فى قبورهم ؛ ومنهم من كان يشرف أيضاً بنفسه على صنعها . وإنا لنقرأ فى النصوص المصرية القديمة أن ساحورع أمر بقطع حجرين ونقلهما إلى القصر الملكى

(١) انظر صفحة ٣٢٣ ، ٣٦٣ – ٣٦٤

(٢) من نقوش مقبرة دبحن فى الجيزة ما يدل على أن الملك منقرع كان يشرف على العمل فى هرمه . H. Breasted, op. cit., vol. I, No. 211. وذكر رجال بلاط رمسيس الثانى فى نقوش نصب كوبان أنه مامن أثر أقيم فى صباه إلا وقد أشرف عليه . ولا يكاد يتطرق الشك إلى أنه كان من واجباته إبان اشتراكه فى الحكم مع أبيه الإشراف على إقامة المنشآت انظر : K.C. Seele, The Coregency of Ramses II and the Date of the Great Hypostyle Hall at Karnak, pp. 27, 33.

لينقشا ويصورا تحت إشراف رئيس كهنة منف لقبر أحد الأفراد (١). ونقرأ أيضاً أن من الهدايا الثمينة التي أمرتحوتمس الثالث بصنعها لأهدائها إلى معبد أمون رع فى الكرنك أوان رسم تصميمها بنفسه(٢). وكان الملوك يعتبرون أن من واجبهم المحافظة على الأشكال الفنية التقليدية ، ولذلك نرى أن منهم من ينتقل إلى مكتبة المعبد ليبحث فى سجلاتها عما يجب أن تكون عليه تماثيل الآلهة ، ويأمر بتنفيذ صنعها على نحو ما وجد فى الوثائق القديمة (٣) . مثل هؤلاء الملوك لابد أن عنوا كذلك بطراز ما أنشأوا من معابد ومقابر ، وقد كانوا فى الغالب الأعم يؤدون بأنفسهم شعائر تأسيس المعبد وافتتاحه .

وقد شجع كثير من الملوك المهندسين وأمدوهم بما كانوا يستطيعون توفيره من مواد وأدوات . وقد سجل نخبو فى قبره فى الجيزة أنه أمضى ست سنوات فى الإشراف على العمل فى هرم بيي الأول ، وأن الملك منحه ذهباً وخبزاً وجعة بقدر كبير (٤)، وكانت المكافأة بالذهب حلقاً أو سبائك غاية الجزاء لجمال هذا المعدن النفيس وبريقه الذى ينافس بريق الشمس ، ولأنه خالد لايصدأ ولايتلف . ومن الوثائق ما يسجل حديثاً طويلا خاطب فيه رمسيس الثانى الفنانين والحجارين بما يدل على أنه أنشأ لهم إدارة كبيرة تقوم على توفير ما يحتاجون إليه من طعام وشراب وكساء وعطر (٥) . وأخناتون مثل قائم على ماكان للملكية من أثر عظيم ؛ فقد شيد عاصمة جديدة بمعابدها وقصورها وبيوتها ومقابرها فى سنين معدودات . ولابد أن كانت له مطالبه وتوجيهاته الخاصة فى طراز قصوره ومعابد معبوده الجديد .

---

(١) J.H. Breasted, op. cit., vol. I, 239.

(٢) المرجع نفسه ، الجزء الثانى ، الفقرتان ٥٤٥ و٧٧٥

(٣) المرجع نفسه ، الجزء الأول ، الفقرات ٧٥٥ - ٧٥٩

(٤) D. Dunham, The Biographical Inscription of Nekhebu in Boston and Cairo, J.E.A. 24 (1938), p. 1 ff.

(٥) A. Hamada, A Stela from Manshiyet Es-Sadr, Annales du Service des Antiquités, t. XXXVIII, p. 219 et seq.

وكما أن من الملوك من أصلح ما تهدم من مبانى أسلافه ، فقد كان من الأمراء وعظماء الأفراد من عمل أيضاً على ترميم آثار آبائه وأجداده . ويعتبر خعمواس بن رمسيس الثانى من أقدم حماة الآثار القديمة ، فقد أصلح مقبرة شبسسكاف وهرم ساحورع ومعبد الشمس للملك نيوسررع وهرم أوناس (١) .

والناس على غرار ملوكهم ، فقد كان أفراد الأسرة المالكة أقدر من غيرهم على محاكاة المبانى الملكية ، ثم لا يلبث كبار رجال الدولة أن يتبعوهم . ولا ريب فيما كان للمهندسين المصريين ، وخاصة النابهين منهم ، من أثر أيضاً فيما خططوا من منشآت وما أقاموا من مبانى من حيث طرازها ودقة بنائها وإحكامه (٢) . وكانوا من أحسن الناس تنظيما للعمل والأيدى العاملة ؛ وقد وصفت طريقتهم فى البناء بأنها ، بالنسبة للأدوات التى كانت لديهم ، كانت أحسن طريقة وأكثرها اقتصادا . وتكفى الإشارة إلى أن وظيفة « المشرف على جميع الأعمال الملكية » وهى مبانى الملك ومنشآته المعمارية فى الدولة القديمة ، ووظيفة « المشرف على جميع الأعمال فى الكرنك » فى الدولة الحديثة كانتا من أسمى وظائف الدولة ، وقد حفظ التاريخ اسماء كثيرين ممن شغلوها ، ومنهم من كانوا أيضاً وزراء ؛ وفى الإمكان فى بعض الحالات وإن تكن قليلة جداً التعرف على ما أنشأوا من أعمال .

وأقدمهم جميعا امحوتب (شكل ٦) ، أول مهندس عظيم فى العالم ؛ ومن ألقابه يتضح أنه كان كبير كهنة عين شمس ، وما من شك فى أنه كان له أثر كبير فى مبانى زوسر ، وأنه مهد الطريق لغيره من البنائين الذين أقاموا مجد الدولة القديمة بفضل جهودهم المتواصلة .

(١) E. Drioton et J.P. Lauer, dans Annales de Service des Antiquités égyptiennes, t. X—XVII (1937), p. 201 et seq.

(٢) من كبار البنائين من عمل فى الجيش وفى كهانة المعابد ، ولم يكن المصريون يرون فى ذلك شيئاً غريبا ، إذ كانوا يعتقدون أنهم يخدمون الآلهة والملوك المؤلهين فى أى عمل يقومون به .

وقد عرف المصريون فضله فى كافة عصورهم ، فاعتبروه فى الدولة الوسطى من الحكماء ، وفى الدولة الحديثة حامياً للكتاب ، ثم ألّهوه فى العصر الصاوى وحسبوه ابنا للإله بتاح ، ونسب إليه مانتو ، الكاهن المصرى الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد ، اختراع البناء بالحجر النحيت . على أننا نعلم أنه لم يكن أول من نحت الحجر للبناء ؛ إلا أنه مع ذلك أول من بنى به بناء ضخماً فى مطلع الدولة القديمة ، ابتدع فيه من الأساليب الفنية ما يدين له فن البناء فى مصر بالشىء الكثير .



(شكل ٦) أمحوتب

ومنهم حميونو ابن أخى الملك خوفو ، الذى يظن أنه أشرف على بناء الهرم الأكبر ، وسنوسرت عنخ من عهد الملك سنوسرت الأول . وأنينى من عهد التحامسة(١) ، وهو الذى حفر قبر تحوتمس الأول ، وسننموت (صورة ٣) ، حظى الملكة حاتشبسوت ، الذى شيد معبدها الجنازى ، والذى وصف نفسه بأنه أعظم العظماء فى كافة البلاد ، وأنه ما من شىء منذ بدء الزمن لا يعلمه (٢) . وكان منموزى أحد مهندسى الملك تحوتمس الثالث ؛ ومن نقوشه على تمثاله نعلم أنه قام بالعمل فيما لا يقل عن عشرين معبداً فى الصعيد وفى الوجه البحرى مما يدل على مدى نشاط

---

(١) ذكر انينى عن نفسه أن جلالة الملك اختاره مهندسا لأنه كان رجلا مستقيما ، ذا قلب راض ، وشفتين بارعتين ، وفم رصين عند الكلام عن شئون البيت الملكى Urkunden IV, 63

(٢) كان سننموت من أصل متواضع ويدين بنجاحه فيما يبدو إلى كفاءته وقد كسب رضاء الملكة فجعلته مربيا لابنتها وارثة العرش . وعلى غير المعتاد نقش صورته خلف أبواب بعض المقصورات فى معبد مليكته الجنازى ، كما استطاع أن يحفر قبرا له تحت فنائه ، وذكر عن نفسه أنه شيد مبانى فى الكرنك والأقصر ومعبد موت Urkunden IV, 409

المهندسين المصريين إذ ذاك [١] . وفى عهد الملك أمنحوتب الثالث كان المهندس أمنحوتب بن حابو (صورة ٤) ، الذى عاش نحو ثمانين عاماً ، أبرز الأشخاص وأحظاهم لدى مليكه . وقد افتخر فى نقوشه على أحد تماثيله بأن الملك عينه مشرفاً على جميع الأعمال وأنه لم يقلد عملا تم من قبل ، وأنه كان يعمل حسب رغبته [٢] . وكافأه الملك بأن سمح له بإقامة معبد له على طراز المعابد الملكية غير بعيد من معبده الجنازى فى غربى طيبة (شكل ١٩٩) ، ولابد أنه كانت تؤدى له فيه طقوس تشبه ما كان يؤدى للملوك ، وهو أمر فريد فيما نعلم [٣] . وقد عاشت ذكراه قروناً عديدة ، وكان يعد من الحكماء ، وكانت الأقوال المأثورة عنه شائعة فى العهد البطلمى ، ثم ما لبث أن رفعه المصريون إلى مصاف الآلهة .

أجل لم يكن للبنّاء المصرى فى أغلب الأحيان حرية كبيرة فى أن يستقل بشعوره ووجدانه وتفكيره فى ابتداع طرز معمارية جديدة تختلف كثيرا عما فرضته التقاليد واقتضته العقائد الدينية والجنازية ، وأضفى عليه الزمن قداسة وجلالا ؛ ذلك لأنه كان على أوثق صلة بالبيئة المصرية وما يسودها من تقاليد وعقائد ، فلم يجد ما يدعو إلى أن يغير كثيرا فيما تواترت به الأجيال وحفظته الوثائق وارتضاه المجتمع . ومع ذلك فقد كان للمهندسين المصريين أثرهم فى حدود العقائد والتقاليد السائدة فيما أشرفوا على بنائه ، وإلا لما اختلفت التفاصيل المعمارية وبعض طرز البناء ، ويؤيد ذلك أنه ليس من المعابد ما يشبه معبدا آخر تماماً . وقد كانوا يتمتعون بمركز ممتاز

---

(١) E. Drioton, Fouilles de l'Institut français d'archéologie orientale, IV, 2, p. 55.

(٢) K. Sethe, in Aegyptiaca (1896), p. 106 ff. ; J.H. Breasted, op. cit., II, No. 116 ff.

(٣) وعلى غير المعتاد أيضاً لهصورة كبيرة فى معبدمليكهفىصولب Lepsius, Denkmaeler III, 83-5 كما أن ما حفظ من تابوته يشير إلى أنه كان فى شكله وفى نقوشه يشبه التوابيت الملكية W.R. Dawson, Amenophis the Son of Hapw. Aegyptus, anno 7, p. 124.

فى المجتمع المصرى ، حتى إن منهم من كان أكبر كاهن فى البلاد ؛ ومنهم من كان من الأسرة المالكة ، ومنهم من كان صديق فرعون ومستشاره ، ومنهم من كان أقوى شخصية فى الدولة بعد الملك . وكان المصريون يجلونهم ويعتبرونهم مهبط الحكمة .

ومع ذلك كله فماذا عسى أن تفيد الظروف السياسية والاقتصادية وهمة الملوك ومهارة المهندسين إذا لم يستجب الشعب لمطالب الوقت ، ولم ينشط عن رغبة ويقين واستعداد لأقامة أضخم المنشآت بقطع أحجارها الضخمة ونقلها من محاجرها مسافات بعيدة فى البر والماء أو حفرها فى الجبل فى ظروف قاسية صعبة ؟ لقد كان المصريون شعبا نشيطا ، لا تؤودهم الصعاب ولا تبهظهم المهام العسيرة ؛ وكانوا ذوى جلد وصبر وقوة ملاحظة ؛ وما من ريب فى أنهم أفادوا من التجارب خبرة وحنكة كبيرة . وقد علمتهم ظروف الحياة منذ أن سكنوا وادى النيل التعاون فيما بينهم على استصلاح الأرض وحفر القنوات والذود عن حياضهم وما أثمروا من خير . حتى إن مصر لتدين لهم بقدر ما تدين للنيل العظيم . وقد كانوا ولا يزالون فى كفاح مع الصحراء ، يقتطعون منها جزءا بعد جزء يستصلحونه للزراعة والانتفاع فيه بمياه الفيضان ، ويردونها عما تغير عليه من أرض حتى لا يرتد يباباً بلقعاً . وكانوا يعتقدون فى قداسة ملوكهم وألوهيتهم فقاموا بالمعجز من الأعمال ؛ ولا تزال تبهرنا قدرتهم على نقل الأثقال ، ومنها ما لا يقل وزنه عن ألف طن على بساطة آلاتهم وأدواتهم . وكانوا أشد الناس استمساكا بعاداتهم واعتزازا بتقاليدهم ، طبعتهم على ذلك طبيعة بلادهم المستقرة ، وألقى به فى وعيهم ما أفادوه من سبق فى مضمار الحضارة والتقدم ، وما شعروا به من تفوق وحسن استعداد . لذلك كانت عمائرهم ذات طابع مصرى صميم حتى فى العصور التى اتسعت فيها أملاك مصر فى الخارج ، والتى اشتد فيها اتصالهم بغيرهم من الأمم المجاورة .

وكانوا إلى جانب ذلك كله ذوى أحاسيس فنية راقية وعلى صلة وثيقة بطبيعة بلادهم ، يقدسون مظاهرها الطبيعية ، ويتغنون بها فى أغانيهم وأناشيدهم . وقد وجد ذلك سبيله إلى منشآتهم ، فكانوا منذ أقدم أزمنتهم يزينون دعائم أكواخهم بالزهور والسعف مما كان أصلا للأساطين النباتية كما أسلفنا ؛ وكانوا يتوجون الجواسق والظلات بأكاليل اللوطس والبردى ويعلقونها على الجدران ، وقد وجد ذلك سبيله إلى زخرفة البناء . وعلى جدران البيوت والمقابر وأرض القصور صوروا الخمائل تزخر بصنوف الطير ، ومسايل الماء ينمو فيها النبات وتسبح فيها الأسماك . ووديان الصحراء تضطرب بما فيها من وحش ضار وحيوانات غير ضارية . ومنذ الدولة القديمة على الأقل لم يكن يفوت ذوى اليسار أن ينشئوا الحدائق الغناء فى بيوتهم ، وفيها البحيرات وأحواض الزهور وأشجار الفاكهة(١) . وكان للمعابد من ذلك حظ وافر ، بل منها ما بعثت حاتشبسوت من أجله بعثة خاصة لتجلب له أشجار البخور من بلاد بنت (٢) ؛ ومنها ما جلب اليه تحوتمس الثالث الأشجار والنباتات والطير والحيوان من غربى آسيا (٣) . ومن القبور ما حرص أصحابه على أن تكون فى رحابه بركة وحديقة تأنس بها روحه فى قبره (٤) .

وهكذا كان من العوامل المختلفة ما أثر فى العمارة المصرية ، وأدى إلى أن يكون لها طابع عام تتميز به عن غيرها . وفى حدود هذا الطابع أبدعت ظروف وملابسات طرزا معينة ، لم يكن يتسنى إبداعها فى غيرها من الظروف . فطراز البناء فى عهد زوسر طراز له صفاته وخصائصه ، جاء فى إبانه تماماً ، إذ يمثل مرحلة الانتقال إلى العمارة الحجرية ، أسهمت فى إبداعه مراحل التقدم السابقة ، ووفرة الحجر الجيرى فى مصر ، واستثمار مناجم النحاس فى صناعة

---

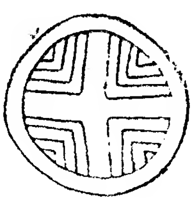
(١) انظر صفحة ١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٩ (٢) انظر صفحة ٤١٠
(٣) انظر صفحة ٢٢٠ (٤) انظر صفحة ٤٣٥ ، ٤٣٨ – ٤٣٩ ، ٤٤٠

الأدوات والآلات على نطاق واسع ؛ كما أسهمت فيه الظروف الاقتصادية التي لابسته ، والأفكار والعقائد السائدة . وشخصية الملك زوسر ومهندسه النابغة ومعاونوه الأكفاء الذين أشرفوا على العمل وأحسنوا تنظيمه ، وأخيراً البناؤون والعمال الذين قاموا به . وكذلك كان طراز البناء في الأسرة الرابعة ، فقد جاء في وقته وظروفه ، ولم يكن له أن يسبق طراز عمارة زوسر إذا قدرنا جميع الظروف والعوامل . ومن الطبيعي إذا تغيرت ظروف هذا الطراز الفني أن يظهر مكانه طراز جديد يوائم المناسبات والظروف الجديدة ، وهو طراز الأسرتين الخامسة والسادسة ، الذي يمت بنسب إلى طراز زوسر . وعلى هذا النحو كان لكل من الدولتين الوسطى والحديثة طرازها الذي يتسق وظروفها وأحوالها ؛ بل لقد كان لكل زمن من أزمنة الدولة الحديثة طرازه الذي هيأته ظروفه وأسبابه .

المدن والحصون

عندما بدأت جماعات العصر الحجرى الحديث تستقر فى حافتى وادى النيل ، تستخلص أجزاء من الأرض تفلحها ، أخذت تنشأ المحلات والقرى . ومن أقدم الأمثلة مرمدة بنى سلامة وتقع شمال غربى القاهرة بنحو خمسين كيلومتراً ، وكانت مساحتها تبلغ نحو ستين فدانا ، وكانت مساكنها تقع على جانب طريق طويل[1] . وفى العمرى شمالى حلوان دلت الحفائر على أن أصحابها من أوائل العصر الحجرى الحديث ، وأنهم أنشأوا قريتهم على أرض أحسنوا إعدادها وتسويتها [2] .

وما زالت بعض القرى تتسع وتكبر لأسباب مختلفة حتى غدت مدناً هامة ؛ وتمثل العلامة الهيروغليفية التى تعبر عن كلمة المدينة دائرة تحيط بطريقين متقاطعين فى مركزها (شكل ٧) .



(شكل ٧)
علامة مدينة فى الخط الهيروغليفى

ويبدو من تخطيط مدن الموتى فى مطلع التاريخ فى أبيدوس (العرابة المدفونة) وصقارة وفى الأسرة الرابعة فى الجيزة ، ومما أنشىء من مدن لأغراض خاصة أنه كانت تتخلل المدن شوارع مستقيمة متعامدة ، بيد أنه كان لازدياد السكان وانتشار العمران أثرها فى

---

(١) H. Junker, Vorberichte ueber die Grabungen der Akademie der Wissenschaften in Wien auf der vorgeschichtlichen Siedlung Merimde-Beni Salame, 1929-1940 ; J. Vandier, Manuel d'archéologie égyptienne, t. I, p. 95 et seq.

(٢) Congrès International de Géographie du Caire, Compte-rendu, t. IV, p. 268 et seq. ; Chronique d'Egypte, No. 41, p. 50 et seq. ; Annales du Service des Antiquités, XLVIII, p. 561 et seq.

ازدحامها بالمساكن وضيق الشوارع وعدم استقامتها . ومهما يكن من أمر فلقد كانت أغلب القرى والمدن وخاصة فى الصعيد تقع بالقرب من النيل مورد الماء للشرب والرى ، والطريق الطبيعى الرئيسى للمواصلات بين البلاد .

ومنذ وقت مبكر حصن المصريون مدنهم الهامة ذوداً عن حياضهم ، وعما أفاءت عليهم الحضارة من خيرات ، من اعتداءات البدو الطامعين فى خير ما كسبوا . وأقدم ما يعرف من مدن محصنة فى مصر مدينة نخن (هيراكونبولس) ، وهى الآن الكوم الأحمر شمالى إدفو بقليل [١] . وفى الكاب على الشاطىء الشرقى للنيل بأزاء هيراكونبولس كانت المدينة القديمة مسورة بسور مزدوج بيضى [٢] . ومن نقوش أواخر ماقبل الأسرات وبداية الأسرات ما يدل على أن من المدن ما كان يحصن بسور سميك مخططه مدور أو مستطيل وله دعامات تدعمه أوأبراج بارزة تتيح للمدافعين عنه مساحة أوسع يستطيعون منها مراقبة كل من يقترب منه وتصويب سهامهم نحو من يحاول نقبه من الأعداء (شكل ٨) . ومن صور هذه المدن ما نقش اسم المدينة بداخل سورها ، ومن فوقه رمز فى صورة طائرأوحيوان ينقض السور ، وقد مثلت الانقاض فى شكل كتل منتظمة ومن حجم واحد مما يدل على أنها كانت من اللبن .



(شكل ٨)
مدينة محصنة

ومنذ مطلع التاريخ ازدهرت فى مصر مدن كثيرة لأسباب سياسية واقتصادية مختلفة ؛ ومنها ما كانت عاصمة للبلاد فى بعض فترات تاريخها الطويل . ومن أسماء المدن ما كان يكتب داخل مايمثل مستطيلا ذا أبراج ، ومن

---

(١) J.E. Quibell, Hierakonpolis II, pl. LXXIII.

(٢) Somers Clarke, El Kab and the Great Wall, Journal of Egyptian Archaeology VII, (1921), p. 54.

ذلك مدينة إثت تاوى (اللشت) عاصمة الأسرة الثانية عشرة . ومن نقوش بعنخى فى الثلث الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد يتضح أن من المدن ما كان محصناً تحيط به الأسوار وأنها أغلقت من دونه أبوابها [1] .

ومن الأسماء القديمة ما لا تزال بعض المدن تحتفظ به فى الوقت الحاضر ، ومنها دمنهور وسمنود وأبو صير وميت رهينة والفيوم وإهناسيا والقوصية والأشمونين وأسيوط ودندرة وأرمنت وأسوان . وليس يخلو من مغزى ما جاء فى النصائح الموجهة للملك مريكارع من عهد الفترة الوسطى الأولى من أن يبنى المدن فى الدلتا وأن اسم الرجل لن يصغر بسبب ما يبنى ، ولن تضار مدينة آهلة بالسكان .

ومن أقدم مدن مصر أون (هليوبولس = عين شمس) ، ويظن أن تأسيسها يرجع إلى ما قبل التاريخ ، وكانت تعتبر المقر المختار للآلهة [2] ، كما كانت معقل عبادة الإله الشمس . وكان المصريون فى أوائل الدولة القديمة يحجون إليها ، فاذا لم يستطيعوا ذلك إبان حياتهم ، كان يحج بأجداثهم إليها بعد مماتهم . وقد ظلت حتى نهاية تاريخ مصر القديم مدينة مقدسة ومركزاً دينياً وعلمياً ذا شهرة عظيمة .

وكان نصيب معبدها من الغنائم والجزى والهدايا فى الدولة الحديثة يلى نصيب معبد أمون رع إله الدولة وملك الآلهة . وقد جاء أن مانتو جمع تاريخه من سجلات معبدها [3] ؛ ووصف هيرودوت كهنتها بأنهم أفقه أهل مصر ؛ وقد كان لهم شهرتهم فى الحكمة والدين والفلك والطب . وكان الرحالة الإغريق يقصدونها ليتعلموا من كهنتها الحكمة ويتعرفوا على ما يخفون من أسرار ؛ وذكر

---

(١) J.H. Breasted, op. cit., vol. IV, 842, 853, 855-859, 861, 864, 867.

(٢) J.H. Breasted, op. cit., vol. I, 504.

(٣) Cambridge Ancient History, VII, p. 260.

استرابو أنه شاهد أطلال دورهم[1] . ولا تزال المسلة القائمة فى المطرية تدل على معبدها القديم ، كما كانت تدل عليه مسلتا لندن ونيويورك .

وتواتر عن مينا [2] أنه شيد مدينة محصنة بالقرب من رأس الدلتا فى مكان استراتيجى هام ، وذلك لإرهاب أهل الشمال إذا سولت لهم نفوسهم الخروج على طاعته ؛ وكان يطلق عليها أول الأمر « الجدار الأبيض » أو « الجدران البيضاء » [3] ، ثم سميت فيما بعد منف [4] . وكان بناؤها عملا هندسيا عظيما اقتضى تجفيف موقعها ببناء جسر كبير فى جنوبها يقيها مياه الفيضان [5] . ويظن أن السور الضخم الذى أحاط به زوسر مبانيه الجنازية فى صقارة [6] صورة فى الحجر للجدران التى حصن بها مينا عاصمته الجديدة إن لم يكن يمثل الجدار الذى كان يحيط بالمبانى الملكية فيها .

وكان فى منف منذ نشأتها أو بعد ذلك بقليل معبد بتاح ؛ وقد أصبح بتاح فى الدولة القديمة الإله الأعظم وازدادت أهمية معبده وأخذ الملوك يزيدون فى مبانيه ويجددون منشآته القديمة[7] . وفيه كان ملوك مصر يتوجون ويحتفلون بأعيادهم اليوبيلية ؛ ولا يزال تمثال رمسيس الضخم من المرمر المصرى فى ميت رهينة يدل على مكانه .

---

(١) Strabo XVII, 29.

(٢) يظن أنه الملك عحا أول ملوك الأسرة الأولى .

(٣) يظن أن القصر الملكى كان إلى الشمال من معبد بتاح وأنه كان على طراز القصر الملكى فى أبيدوس وهيرا كونبولس وأنه كان مطليا بلون أبيض مما دعا إلى تسمية المكان بالجدار الأبيض أو الجدران البيضاء، ومن ثم أصبح هذا اسم يطلق على الإقليم بأكمله .

(٤) يرجع اسم منف إلى اسم مدينة هرم الملك ببى الأول التى كانت تسمى « من نفر » . ومن أسماء منف أيضا « ميزان القطرين » و« حياة القطرين » (عنخ تاوى) ، وكان الاسم الأخير إسما لأحد أجزائها .

(٥) ذكر هيرودوت أن جميع الأرض من الحدود الجنوبية لإقليم منف إلى الشمال كانت غاصة بالماء وأن النيل كان يجرى فى الغرب قريباً من الصحراء الغربية Herodote II, 7, 99 ؛ وقد يكون فى ذلك مسحة من حق خاصة وأنه لم يكشف فى منطقة صقارة عن آثار ترجع إلى ما قبل الأسرات .

(٦) انظر صفحة ٢٧٦ – ٢٧٧

(٧) تقع الآن أرض معبد بتاح تحت مستوى الأرض الزراعية بنحو مترين ونصف .

وقد ازدهرت فيها الحياة والفنون والصناعات قروناً عديدة ؛ وكان لها مذهبها فى نشأة الخليقة ؛ وتصف تعاليمها معبودها بتاح بأنه خالق العالم بفكرة فى قلبه جرت على لسانه ، وأنه جعل لكل شيء مكاناً (١) ؛ وكان بتاح يعتبر راعى الفنون والصنائع . ولم يلبث أن أصبح لمذهب منف أثر عميق فى مذاهب غيرها من مدن مصر .

وفى الدولة الحديثة كانت منف أشبه بعاصمة ثانية للبلاد ؛ وكانت فيها قصور للملوك والأمراء ، تطل على المعابد وأحراج النخيل ؛ كما كانت فيها معابد كثيرة وحدائق عديدة(٢) . وفيها كانت ترابط فرق الجيش الرئيسية ؛ وفى مينائها برونفر تبنى سفن الأسطول المصرى . وكان أولياء العهود يتعلمون فيها الرماية وركوب الخيل ، ويصيدون فى أرباضها حيوان الصحراء ، ويتولون فيها قيادة فرق الجيش (٣) ؛ وكان الموظفون المدنيون يتوقون إلى العمل فيها (٤) . وكانت السفن التجارية تجلب إليها منتجات البلاد الأجنبية ، وتنقل منها ما تصدره مصر إلى الشرق . وكانت فيها متاجر كبيرة وأهراء عظيمة ؛ وكان لآمون طيبة مخازن فيها . وكانت أكثر من طيبة مدينة عالمية يكثر فيها الأجانب والتجار والمهاجرون والرهائن . وكان للأجانب فيها أحياء خاصة ؛ وقد تحدث استرابو عن أجناس مختلطة تسكنها . وقامت فيها إلى جانب المعابد المصرية معابد لبعض الآلهة الأجنبية ، ومنها معبد للإلهة عشترت جنوبى معبد بتاح ،

---

(١) H. Junker, Die Goetterlehre von Memphis, S. 80 f.

(٢) وصفت سيدة منف بأنها رائعة ، سكانها أصحاء ، وأهراؤها تفيض بالشعير والحنطة ، ومروجها يكسوها الكلأ ، وبحيراتها ملأى ببراعم اللوطس ، وأن البدو فيها استقروا وأصبحوا يتضمخون بزيت الزيتون ويزينون أعناقهم ببراعم اللوطس . ووصفت فتياتها بأنهن ناعمات تمايل أيديهن بالأغصان . R.A. Caminos, Late Egyptian Miscellanies, p. 343.

(٣) H.W. Helck, Der Einfluss der Militaerfuehrer in der 18. aegyptischen Dynastie, S. 30 f.

(٤) A. Erman, Aegyptische Literatur, S. 260.

حيث اعتبرت ابنته [١] . وذكر ديودور الصقلى أن محيطها كان فى أيامه ١٥٠ استادا [٢] ، أى أكثر من سبعة وعشرين كيلو متراً ونصف ، وتدل أنقاضها على أن طولها كان أكثر من اثنى عشر كيلو متراً ونصف وعرضها أكثر من ستة كيلو مترات . ولا تزال أهرامات صقارة ومقابرها تشهد بما كان لها من عظيم شأن وتاريخ طويل .

ومنذ أواخر الدولة القديمة غدت أبيدوس (العرابة المدفونة ، غربى البلينا) مقراً جديداً للإله أزيريس ، بل المكان الأول لعبادته فى الوجه القبلى وبذلك أصبحت مدينة مقدسة إلى جانب بوطو وسايس (صا الحجر) وبوزيريس (أبو صير) وأون (هيليوبولس) . وبقيام الدولة الوسطى ازداد شأنها وأصبحت على رأس جميع الأماكن المقدسة فى مصر ، وأصبح كل مصرى يرجو أن يدفن فيها أو يبنى فيها قبراً تذكارياً بجوار قبر الإله أو يقيم نصباً جنازياً فى معبد أزيريس ليكون فى حماية إله الموتى . وكان يحتفل فيها كل عام بأعياد عظيمة تمجيداً لأزيريس ، وتمثل فيها قصص سرية ترمز إلى ما لاقى فى حياته من سوء ونكران [٣] . وكانت جماهير غفيرة من الشعب تؤم هذه الأعياد ؛ وإننا لنعلم أن الملك نفرحتب أشرف شخصياً على تمثيل هذا القصص فى أحد الأعياد [٤] . على أن العصر الذهبى لأبيدوس هو عهد الرعامسة ؛ فقد أقام فيها سيتى الأول قبراً تذكاريا [٥] ومعبداً له وقف عليه هبات عديدة [٦] ومعبدا آخر لأبيه رمسيس الأول ، توجد نقوشه الجميلة فى نيويورك .

---

(١) A. Erman, op. cit., S. 218 f.

(٢) Diodor I, 50.

(٣) H. Schaefer, Die Mysterien des Osiris in Abydos.

(٤) J.H. Breasted, op. cit., vol. I, 753 ff.

(٥) انظر صفحة ٤٠٥

(٦) انظر صفحة ٢٢٩

وشيد رمسيس الثانى بجانب معبد أبيه معبداً لم يبق منه غير الأجزاء السفلى من جدرانه .

وفى الأسرتين الحادية عشرة والثامنة عشرة غدت طيبة عاصمة مصر وتقع على بعد سبعمائة كيلو متر جنوبى منف . وكانت تسمى تارة واست (الصولجان) باسم الإقليم الذى تقع فيه ، وتارة أخرى مدينة أمون أو بلفظ واحد مختصر « المدينة » كناية عن تفردها بين سائر المدن . وقد جاء فى وصفها بأن سائر ما عداها فى ظلها ، وأنه ليس كمثلها تحت الشمس مدينة ، وأنها أميرة البلاد . ووصفها هومر بأنها خزانة ثراء لايحصى ، وأنها ذات مائة باب ، ينطلق من كل باب مائتا فارس شاكى السلاح بخيلهم ومركباتهم . وكانت تقوم فيها المعابد العديدة ذات الصروح الشامخة والمسلات السامقة والتماثيل الضخمة . ومع أنها لم تكن بذات حصون طبيعية ، ولا تشرف على طريق تجارى هام ، ولم تكن ميناء بحرياً أو ميناء هاماً على النيل ، فقد غدت بفضل جهود ملوكها أم المدن جميعا ، وعاصمة العالم . وما من ريب فى أن قربها من بلاد النوبة والسودان قد أفادها اقتصادياً كما حماها بعدها عن آسيا دهراً طويلا من اعتداء يأتيها من قبلها .

وتقصر مدينة الأقصر عن أن تعطى صورة واضحة عن طيبة ذات الأبواب المائة وما كانت عليه من فخامة وسلطان ؛ على أن فيما حفظ من أطلال معابدها ، وما تصوره المناظر على جدران مقابرها ، وما يمكن استنتاجه من بعض النصوص والوثائق ما يساعد على تصور ما كانت عليه فى أزهر أيامها .

كانت طيبة تمتاز بموقعها الجميل فى سهل واسع فسيح خصيب ؛ حيث ترتد الصحراء الشرقية كثيراً إلى الشرق . وكان مجرى النيل ولايزال عريضاً بينها وبين الشاطىء الغربى حيث تقترب هضبة الصحراء الغربية كثيراً من النهر لاتترك سوى شريط من أرض زراعية . وكانت

تقوم على ضفتى النيل المعابد تحيط بها أسوار عالية ، وتتقدمها صروح سامقة ، تزينها أعلام ملونة ، ومن أمامها مسلات شاهقة مصفحة ذراها بالذهب يتلألأ فى أجواز الفضاء . وكانت المعابد أكثر عدداً وأفخم بناء مما تدل عليه أطلالها . وكانت مدينة الأحياء فى الضفة الشرقية حول الكرنك ومعبد الأقصر ، حيث يصل بينهما طريق تحف به تماثيل الكباش ، ويتفرع منه طريق إلى معبد موت زوجة آمون . ويظن أن الأبواب المائة التى وصف بها هومر طيبة لم تكن سوى أبواب المعابد العديدة التى كانت تقوم فى كنفها .

وكانت تحيط بالمعابد بيوت ، منها ما كان من ثلاث طباق ، تتخللها شوارع ضيقة متعرجة . على أنه كانت تشغل الأحياء الجديدة قصور جميلة ذات أبواب فخمة ، تحيط بها حدائق ذات أشجار عالية ، وأحواض من زهور تعبق بروائح ذكية ، وكانت تزدحم بالموظفين والخدم ، وتقف بأبوابها مركبات تجرها خيول مطهمة ، تنقل أصحابها إلى أماكن أعمالهم . ولما كان من الشوارع فى مدينة الموتى فى الجيزة ما يبلغ عرضه نحو ستة أمتار فربما كان الأمر على نحو مشابه فى الشوارع الرئيسية فى الأحياء الجديدة فى طيبة ، ولعل منها ما كان مرصوفا على نحو ما كانت الطرق الصاعدة إلى معابد الأهرامات فى الدولة القديمة . ومن النصوص ما يخاطب فيه رمسيس الثالث الإله أمون بأنه زرع مدينة طيبة بالأشجار والنباتات والأزهار .

وكان من نساء القصور الملكية أميرات أجنبيات ، وفى بيوت الأمراء وكبار رجال الدولة إماء من خارج مصر . وكان ممن يسكن القصور والبيوت الكبيرة بعض أبناء أمراء سوريا وفلسطين ، جاء بهم إلى طيبة ملوك مصر ليتعلموا فى مدارسها ويتعودوا عادات أهلها ليكونوا أقرب إلى مصر وأخلص لها إذا عادوا إلى بلادهم وتولوا شئونها . ولابد أن كانت بالقرب من القصور الملكية مكاتب الحكومة

ودواوينها ، حيث كان يجلس عدد كبير من الكتبة الحاسبين ، يحسبون دخل خزائن الملك من غنائم وجزى وضرائب ، وما خرج منها على المعابد والمنشآت والقصور الملكية وموظفى الدولة .

وكانت معابد طيبة تزخر بالكهنة ذوى الملابس البيضاء على اختلاف طبقاتهم ، ومعهم فتيات ونساء من الأسر الراقية وعلى رأسهن الملكة يغنين ويعزفن أثناء الطقوس الدينية والأعياد الحافلة . وكان لكل معبد مخازنه الممتلئة بخراج أملاكه ومنتجات مصانعه ومايهديه إليه الملك من الغنائم والجزى ؛ بل لقد كان معبد أمون رع فى الكرنك يتلقى الجزية مما وقفه عليه الملك تحوتمس الثالث من مدن فى آسيا .

وكان على النيل فى طيبة أكثر من ميناء يزدحم بالمراكب محملة بالغنائم والأسرى والجزى والمؤن المختلفة من ميتانى وبابل وأشور وسورية وفلسطين وجزر شرقى البحر الأبيض المتوسط وبلاد النوبة . وكان من السفن الفخمة ما تنزل منه وفود أجناس مختلفة بأردية زاهية متنوعة ، بينهم أمراء ووزراء يجلبون الهدايا الثمينة ، ويقدمون فروض الطاعة والولاء لمليك البلاد . وكانت كل ميناء تعج بأصوات العمال وغنائهم وهم يفرغون السفن .

وفى الشاطىء الغربى ، حيث مدينة الموتى ، كانت المعابد الجنازية فى صف على حافة الصحراء ، يشرف عليها من عل معبدا منتوحتب وحاتشبسوت ؛ وتؤدى إليها طرق صاعدة تحف بها الأشجار وتماثيل أبوالهول . وفى أحد الوديان المنعزلة حفرت فى الصخر مقابر الملوك ، أودعت فيها رفاتهم وذخائر ثمانية لم يدفن مثلها فى أى مكان .

بيدأن طيبة لم تكن أيامها كلها رخاء ، وإنما هبت عليها ريح عاتية فى عهد أخناتون ، إذ وجد أنها ليست المكان الصالح الذى يدعو فيه إلى دين جديد وحياة جديدة ، فحطم معبوداتها وأغلق معابدها وحول

أوقافها إلى معبد معبوده آتن . وقد وصف توت عنخ أمون حالة المعابد عند توليه العرش بأنها كانت مهجورة تنمو فيها الحشائش ، وكانت أبهاؤها طرقاً للمارة ، وقد فرت منها الآلهة ولم تنصت لدعوات الداعين (١). على أن الحياة لم تلبث أن عادت تزدهر فى طيبة من جديد بفضل ما أقيم فيها من معابد ومنشآت ، غير أن عهدها الذهبى كان قد انقضى ، وان كانت قد ظلت مدينة مقدسة . وكان أحلك أيامها عندما دخلها الأشوريون والفرس ، إذ خربوا معابدها ، ونهبوا نفائسها . وفى بعض أيام البطالمة عانت الحصار لقيامها بالثورة ضدهم فسلب معابدها وخربها بطليموس التاسع عام ٨٥ ق . م . ، ولم يكفها ذلك كله إذ هدم بعض آثارها زلزال عام ٢٧ ق . م . ، على أن كهنتها ظلوا يحتفظون بمعارف فلسفية وعلمية (٢) .

وأقام الرعامسة حكمهم فى بررعمسس عظيمة الانتصارات (٣) (تانيس (٤) = صان الحجر) ، موطنهم الأصلى ، حيث كانت تسهل مراقبة الحدود الشرقية ، وحيث المناخ أفضل من مناخ الصعيد . وكانت تزدهر من حولها حقول الخضر وكروم العنب ، وقد وصف نبيذها

---

(١) J. Bennett, The Restoration Inscription of Tutankhamun, J.E.A. 25 (1939), p. 8 ff.

(٢) Strabo XVII, 46.

(٣) F. Perie, Tanis, 2 vols. ; P. Montet, Kemi I-VI (1928-36) ; P. Montet, Les nouvelles fouilles de Tanis (1929-32). يظن أن سيتى الأول بدأ فى بناء العاصمة الجديدة وأن رمسيس أكمل بناءها وسماها باسمه . وقد ذهب برجش إلى أن بررعمسس تقع فى تانيس (صان الحجر) H.C. Brugsch, Beitraege zu den Untersuchungen ueber Tanis, Aeg. Z. 1872, 17. ورأى شاباس أن مكانها إنما كان فى الفرما فى نهاية الفرع البليوزى F.J. Chabas, Bibliothèque égyptologique XI, 21-36. ؛ وذهب جاردنر إلى أنها كانت فى الفرما نفسها أو بجانبها A.H. Gardiner, The Delta Residence of the Ramessides, J.E.A., V, 1918, 127-38, 179-200, 242-71. ؛ انظر أيضا A.H. Gardiner, The Geography of Exodus, J.E.A., X (1924), 87-96. وقد أدت الكشوف الأثرية فى صان الحجر بجاردنر إلى أن يغير رأيه A.H. Gardiner, Tanis and Pi-ra'messe, a Retraction, J.E.A. XIX, 122-8.

(٤) ظهر اسم تانيس منذ الأسرة الحادية والعشرين .

بأنه أحلى من العسل . وكانت تقع فى مكان استراتيجى على أحد فروع النيل ، مناسب للتجارة مع آسيا ، وتحميها من جهة البحر بحيرة كبيرة ، وفى جنوبها مساحة كبيرة مستوية تكشف المهاجمين . وقد زينها رمسيس الثانى وشيد فيها المعابد ، وكان معبد أمون فيها أبرز معالمها ، وكان يحتوى على مالايقل عن عشر مسلات ، مسلتان منها أمام كل من الصرحين الأول والثانى ، وأربع مسلات أمام الصرح الثالث ، ومسلتان فى الفناء الخلفى . وكانت الأفنية ، وخاصة الفناء الثانى ، تزدحم بالتماثيل ، وقد جمعها رمسيس من أنحاء مختلفة وبصفة خاصة من منطقة الفيوم (١) . وكانت مخازنها ملأى بالبضائع من سورية وجزر شرقى البحر الأبيض وبلاد بنت . وقد أصبحت مقر تدريب رجال المركبات ونقطة تجمع الجنود ومرسى سفن الجيش ، ومنها كانت السفن تبحر فى بعثاتها وفيها ترسو (٢) . وبذلك غدت أعظم مدن الوجه البحرى ، وراحت تنافس طيبة ، وزادت شهرتها على شهرة منف ، وتغنى بها الكتاب ، وصاغوا لها المدائح (٣) . وأنشأ رمسيس الثالث فيها الحدائق الكبيرة ، وزرع الأزهار على جانبى الطريق المقدس . وكان يحيط بها سور سميك من اللبن تتخلله من الخارج والداخل دخلات وخوارج . وكان باب المدينة يشبه باب رمسيس الثالث فى معبده الجنازى ، مدينة حابو (٤) ؛ وكان له جناله ببرجيه العاليين المشيدين من أحجار مختلفة : جرانيت أسود وحجر جيرى أبيض وحجر رملى أحمر . وكان للسور ثلاثة أبواب أخرى ؛ وكان

---

(١) وجدت فى تانيس أجزاء من مسلات وأبواب وأعتاب وأحجار من جدران تحمل أسماء خوفو وخفرع ونيوسررع وتى وببى الأول وببى الثانى ومعها أساطين نخيلية ولوطسية وبردية وتماثيل من آخر الدولة القديمة والأسرة الثانية عشرة محيت من عليها نقوشها القديمة F. Petrie, Tanis I, Nos. 1, 2 ; Kemi V, 4, 5 ; Montet, Nouvelles Fouilles de Tanis, 60.

(٢) A.H. Gardiner, Late Eg. Misc., p. 28 ; J.E.A. V, 185, 187, 252.

(٣) .E.A. V, 181-2, 186 ; A. Erman, Die Literatur des Aegypter, S. 261 f.

(٤) انظر صفحة ٤٢٥

الباب الشمالى من حجر الجير تحليه تماثيل ضخمة وأسدان رابضان من جرانيت وردى . وكان أمام الباب الشرقى تمثالان مماثلان لأسدين .

وقد كشف فى أرض تانيس عن أنابيب من أوان من الفخار بغير قاع ، أحكم تثبيت كل منها فى الآخر ، لايعرف إذا كانت لمياه الشرب أو لتصريف المياه القذرة ، على أية حال فإنها تدل على عناية براحة السكان وصحتهم .

وكان الليبيون والنوبيون والأسيويون يختلطون فيها مع المصريين ؛ وأقيمت فيها المعابد لبعض الإلهات الأجنبية وعلى رأسها الإلهة عنات ، وكان رمسيس الثانى يرعاها بعنايته وقد سمى باسمها إحدى بناته . وجاء أن من سكانها منشدات تعلمن الإنشاد فى معبد بتاح فى منف .

وقد ازدهرت فى الوجه البحرى مدن أخرى عديدة (١) ، على أنها اندثرت وغدت قصورها وبيوتها أكواما من تراب ، وكانت منها بوبسطة مدينة الإلهة باستت ، وسايس (صاالحجر) ، مدينة الطب ، والأمديد وغيرها . وكانت تحيط بها الحقول والكروم وقد وصفها ديودور الصقلى بأنها كانت فى وقت الفيضان أشبه بجزر وسط بحر عريض . وكان مستواها يعلو مع الزمن إذ كان يسوى ما يهدم من بيوتها ويبنى عليه من جديد . وقد وصف هيرودوت مدينة بوبسطة بأنها كانت من أبهج ما يرى من مدن مصر كلها ، وأن أرضها مرتفعة وأن معبد الإلهة باستت فى وسطها حيث يرى من جميع الجهات ، وأنه لم يرتفع عن المستوى الذى كان عليه يوم أنشىء أولا بينما ارتفعت أرض المدينة ، وكان يؤدى إليه طريق مرصوف بالحجارة لأكثر من نصف كيلو متر وعرضه أربعمائة قدم ، وتكتنفه أشجار عالية (٢) .

---

(١) ذكر أمنحوتب بن حابو أن الملك جمل المدينة التى ولد فيها وهى أتريب وذلك ببناء معبد وحفر بركة فى الشمال وأخرى فى الجنوب تحلى شواطئهما الزهور. L. Borchardt, Statuen und Statuetten, II, 583.

(٢) Herodotus, II, 137, 138.

وهكذا تقع أطلال كثيرة من المدن القديمة على عمق غير قليل تحت مخلفات الأجيال المتعاقبة ، ولما كانت بيوتها وقصورها من اللبن فقد أضرت بها رطوبة الأرض كثيراً . أما ماظل من المدن قريباً من سطح الأرض فقد انتزعت أحجار معابده ليبنى بها من جديد ، ثم دأب الفلاحون على تسميد حقولهم بما تهدم وتحلل من جدران البيوت . لذلك يصعب الكشف فى الدلتا عن آثار ما ازدهر فيها من مدن ؛ بل أنه لايعرف على وجه التحديد مكان كثير مما حفظت النصوص أسماءه من مدنها .

ولم يقتصر الأمر على إنشاء المدن فى الصعيد والوجه البحرى ، وإنما من ملوك مصر من أقام المدن فى النوبة ، ومن ذلك مدينة كاوا التى يظن أن أمنحوتب الثالث أسسها جنوب الشلال الثالث وقد سميت فى عهد أخناتون جم أتن . ويبدو أيضاً أن توت عنخ أمون شيد فى فرس جنوبى أبوسنبل مدينة جديدة أقام فيها معبدا خصصه لعبادته .

ومن المدن ما أنشىء لأغراض معينة أو فى ظروف خاصة ؛ ومن أقدم ما حفظ منها مدينة الكهنة والموظفين فى شرقى مقبرة الملكة خنت كاوس فى الجيزة ؛ وتقع فيها البيوت فى صف ممتد من الشرق إلى الغرب على طول شارع مستقيم [١] . وشيد سنوسرت الثانى بالقرب من هرمه فى اللاهون عند مدخل الفيوم من قبل النيل مدينة صغيرة للموظفين والعمال والصناع الذين كانوا يعملون فى بناء الهرم ، ولتكون بيوتها بعد ذلك مساكن للكهنة الذين يعهد إليهم بأداء الطقوس الجنازية فى معبديه (شكل ٩)[٢] . وقد سماها « حتب سنوسرت » (سنوسرت راض) ، ولم تتعرض بيوتها لتغيير أو يُبن من فوقها ، وذلك لأنها

(١) S. Hassan, Excavations at Giza, vol. IV, p. 35 ff.

(٢) تذكرها المصادر الأجنبية باسم كاهون .



(شكل ٩) مدينة الهرم فى اللاهون

لم تعمر لغير مدة قصيرة ؛ على أن ما نشر عنها للأسف ، وخاصة عن البيوت الصغيرة هزيل ضئيل (١) . وكان طولها أربعمائة متر وعرضها ثلثمائة وخمسين تقريباً ؛ وكان يحيط بها سور مستطيل سميك من اللبن ، ويقسمها جدار مستقيم طويل إلى قسمين . وكان القسم الشرقى أكبر القسمين ؛ وكان فى الشمال منه قصر للملك وبيوت كبيرة لكبار الموظفين على جانبى طريق رئيسى طويل مستقيم طوله ٢٨٠ مترا ويمتد من مدخل المدينة فى الشرق إلى ساحة فى الغرب . وكان القسم الثانى يشغل نحو ربع مساحة المدينة (٢٤٠ × ١٥٠ مترا) ، ويشمل من مائتى إلى مائتى وخمسين بيتا صغيرا . يتخللها شارع رئيسى من الجنوب إلى

---

(١) F. Petrie, Illahun, Kahun, and Gurob, p. 5 ff., pl. XIV ; Erman, Ranke, Aegypten, S. 196 ff.

الشمال عرضه تسعة أمتار ، وتتصل به على زوايا قائمة شوارع جانبية عديدة يبلغ عرض كل منها أربعة أمتار تقريباً .

ومن الأسباب السياسية والدينية ما دعا أخناتون إلى تأسيس عاصمة جديدة ، شيدها على عجل فى شرقى النيل فى مصر الوسطى شمالى طيبة بنحو ٣٢٥ كيلو مترا ، فى سهل واسع وفى أرض بكر لم تكن تشغلها مبان سابقة تؤثر فى تخطيطها ، كما أنه لم يسبق أن عبد فيها إله ، كان يمكن أن تزدحم من حول معبده البيوت ، وذلك لكى يتسنى للعبادة الجديدة والاتجاه الفنى الجديد أن يجدا المكان الذى يزدهران فيه دون عائق من تقاليد موروثة أو آثار قائمة للعقائد القديمة [1] . وقد سماها آخت أتن (مشرق أتن) ، ويطلق عليها الآن خطأ تل العمارنة . ونحت فى الصخر فى الشرق والغرب منها عدة لوحات كبيرة حدد بها حدودها ، وسجل عليها النص الرسمى لتأسيس العاصمة ، وما نوى إقامته فيها من معابد وقصور ومقابر للملك والكهنة والموظفين ؛ ونحت بجانبها تماثيل له ولزوجته وبناته . وأقسم من أمامها أنه لن يزيد فى حدودها ، ولن يغادرها حتى تسودّ البجعة ويبيضّ الغراب وحتى تتحرك الجبال ويفيض الماء إلى أعلى [2] .

ويظن أن أخناتون وضع بنفسه مخطط المدينة وحدد أماكن معابدها وقصورها وشوارعها . وقد عاش فيها السنوات الإحدى عشرة الأخيرة من حياته ، على أنه لم يقدر لها أن تعيش طويلا إذ بنيت وعمرت ثم هجرت فى مدة لا تزيد على خمسة عشر عاماً ، أى حوالى نصف جيل . وبعد موت منشئها عادت العاصمة من جديد إلى طيبة ، وانتقل اليها الملك ومعه الأشراف والموظفون

(١) ذكر اختانون فى نقوش نصب الحدود صراحة أنه أنشأ عاصمته الجديدة فى أرض بكر وأنه تأكد أن مكانها لاينسب إلى أى إله أو إلهة .

(٢) J.H. Breasted, op. cit., II, 949 ff.

والفنانون والصناع وغيرهم . وخربت معابد آخت أتن وقصورها وبيوتها للقضاء على ذكرى المعبود الجديد ، الذى أنشئت من أجله ، وذكرى الملك الذى دعا لعبادته ، ولم تشيد فوق أنقاضها مبان أخرى ، ومن ثم أخذت رمال الصحراء تطمرها . وقد أمكن ترسم أجزائها والتعرف على كثير من تفاصيلها مما يسر تكوين صورة واضحة ليس ما يشبهها فى أى عصر آخر عن إحدى العواصم الكبيرة فى الزمن القديم (١) ، التى كانت تعالج فيها شئون الدولة ، وتختلط فيها شعوب مختلفة ، فضلا عن أنها كانت مسرحاً لمحاولة جريئة فى الدين والفن معاً .

كانت آخت أتن تشغل مساحة كبيرة ، طولها تسعة كيلو مترات تقريباً وعرضها بين ثمنمائة متر وألف وخمسمائة ، وذلك عدا الجزء المزروع غربى النيل الذى كان يمدها بحاجتها من الطعام . ولم يكن يحيط بها سور يحد من المساحة التى تبنى عليها البيوت ، وإن كان يحدها النيل من الغرب والتلال من الشرق فى شكل نصف دائرة . وفيما عدا بيوت العمال التى أفردت لها منطقة خاصة ، كانت تختلط فيها بيوت الأشراف وكبار رجال الدولة والكهنة ورجال الجيش والتجار والفنانون والصناع ، أى طبقات المجتمع المختلفة ، حتى أنه كان يجاور الكاهن الأعلى صانع النعال ، ويجاور الوزير صانع الزجاج .

وكان وسط المدينة أهم أجزائها ، إذ كانت تقع فيه المبانى الحكومية فى مساحة تبلغ نحو كيلو متر مربع . وكانت تجتازه ثلاثة شوارع رئيسية تمتد فى موازاة النيل من الجنوب إلى الشمال ، وتصل بينها شوارع صغيرة من الشرق إلى الغرب تؤدى إلى النهر . وكان أقصى الشوارع الرئيسية إلى الغرب أقربها إلى النيل وأهمها

(١) H.W. Fairman, Town Planning in Pharaonic Egypt, The Town Planning Review, 20 (1949), pp. 32-51.

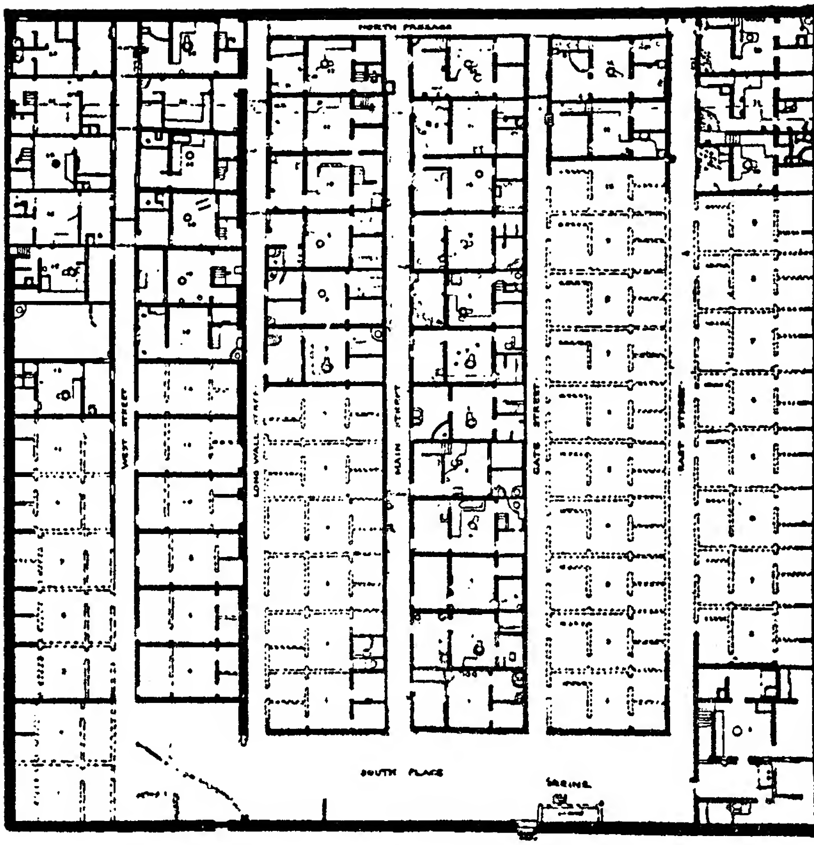
جميعاً ، ولا يزال الفلاحون يسمونه سكة السلطان ، وسماه الحفارون الذين قاموا بالكشف عن المدينة الطريق الملكى . وكان يقع على جانبه الشرقى من الشمال إلى الجنوب معبد أتن العظيم ثم مسكن الملك الخاص ، الذى كان يفصله طريق تكتنفه الأشجار عن معبد أتن الصغير . وكان إلى الشرق مكتب الشئون الخارجية ودار المحفوظات ، التى عثر فيها على رسائل العمارنة الشهيرة[١] ، ثم بيت الحياة « برعنخ » ، حيث كانت النصوص القديمة تجمع وتنسخ وتدرس ، وحيث كانت تعد المؤلفات اللازمة لأداء الطقوس الدينية وتناقش المسائل الفلسفية والدينية ، وحيث كان إلى جانب الكتبة الفنانون والرسامون الذين ينقشون جدران المعابد والمقابر بالنصوص والمناظر[٢] . وكانت فى الجنوب صفوف بيوت الكهنة فمكاتب الموظفين . وكانت على حافة الصحراء ساحة الاستعراض العظيمة وثكنات الشرطة ، حيث كان يتيسر مراقبة كل حركة مريبة . وعلى الجانب الغربى للطريق الملكى كان القصر الملكى الرسمى . وكان فى الشمال والجنوب من المدينة قصران آخران للملك وبيوت الأفراد كبيرها وصغيرها جنباً إلى جنب .

أما حى العمال الذين قاموا بحفر المقابر الصخرية فكان فى شرقى المدينة ، وكان مربعاً تقريباً (٧٠ × ٦٩ مترا) ويحتوى على ٧٤ بيتاً ، ويحيط به سور مرتفع مدخله من الجنوب ، وتتخلله خمسة شوارع مستقيمة ومتوازية ، تجرى من الجنوب إلى الشمال ، على أنها كانت ضيقة لا يكاد عرضها يزيد على متر واحد (شكل ١٠). وفى التلال الشرقية حفرت القبور لكبار الموظفين وأصفياء الملك ؛ وفى واد بعيد حفرت كذلك قبور الأسرة المالكة .

---

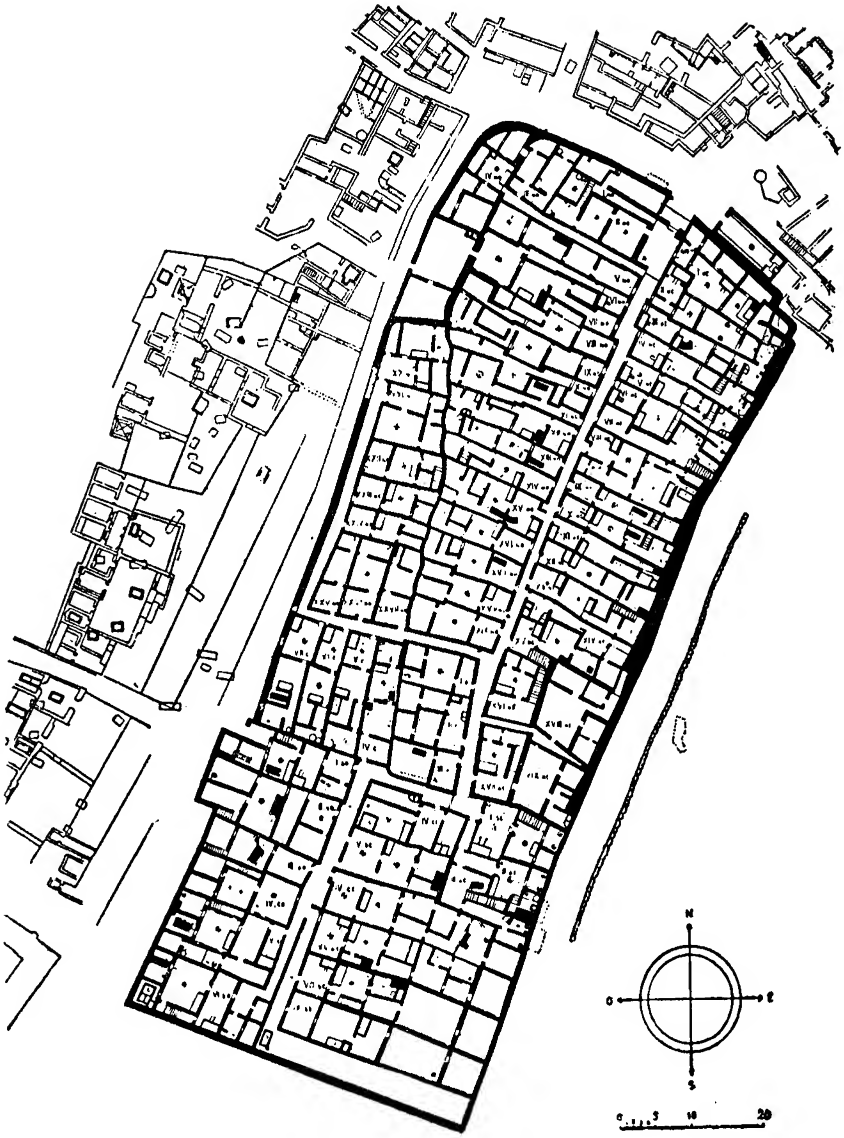
(١) وهى رسائل بالخط المسمارى البابلى تبادلها أمنحوتب الثالث وأخناتون مع ولاة فلسطين وسوريا وملوك الشرق القديم ، وتصور العلاقات المختلفة بينهم جميعاً والحالة السياسية فى الشرق الأدنى وخاصة فى فلسطين وسوريا.

(٢) عبد العزيز صالح ، التربية والتعليم فى مصر القديمة ، ص ٢١٩ ومابعدها.



(شكل ١٠) حى العمال فى تل العمارنة

ولحى العمال هذا ما يشبهه فى قرية دير المدينة فى غربى الأقصر ، وقد أنشئت لسكنى الحجارين والفنانين الذين كانوا يحفرون المقابر الملكية فى وادى الملوك ووادى الملكات . وبلغت شأوها فى عهد الرعامسة (شكل ١١) . وكانت تتألف من قسم مسور وآخر غير مسور . يقع فى الشمال والغرب من القسم الأول . وبيوته أكثر سعة بصفة عامة . ويبلغ عددها نحو خمسين بيتاً . ويبلغ طول القسم المسور ١٣١ مترا وعرضه بين ٤٧ و ٥٠ مترا . ومدخله فى الشمال . وكان يحتوى على سبعين بيتاً . ويقطعه طريق غير تام



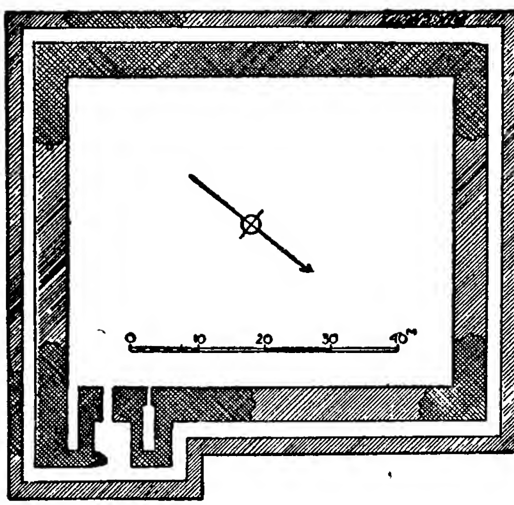
(شكل ١١) قرية دير المدينة

الاستقامة من الشمال إلى الجنوب ، تتصل به طرق جانبية قليلة .
ويبدو أن من مبانيه مدرسة ذات طابع حكومى(١) وهياكل للعبادة ،

(١) Van de Walle, Textes littéraires égyptiens avec une annexe de G. Posener, 1948, p. 16.

كما كان منها على الأقل مركزان للشرطة ، أحدهما عند مدخل الوادى الضيق والآخر عند مخرجه (١) .

وقد عنى ملوك مصر منذ مطلع عهد الأسرات على الأقل بتحصين المدن والحدود الشرقية والغربية والجنوبية ؛ ولا يخلو من مغزى أن منهم من نعت نفسه بأنه « سور مصر العظيم » أو « السور الذى يحمى مصر» أو « الحصن لجميع جيشه » (٢) . ونعت سيتى الأول نفسه بأنه « السور الحديدى لمصر ، شرفه من الصوان ومغاليقه من النحاس »(٣).



(شكل ١٢) حصن هيراكونبولس

ويظن أن حصن هيراكونبولس (الكوم الأحمر) من عهد الأسرة الثانية ، وأنه شيد على حافة الصحراء للدفاع عن المدينة (٤) .

وهو يتألف من سورين أحدهما من داخل الآخر ، والسور الخارجى أقل ارتفاعاً من السور الداخلى ؛ وأقل من نصف سمكه ، ويتميز السور الداخلى بأنه تتخلل سطحه الخارجى دعامات ، ويكتنف مدخله برجان متقاربان بما يمكن من حسن الدفاع عنه (شكل ١٢) .

ومن أقدم ما حفظ من نماذج القلاع وصورها من بداية الأسرات

(١) B. Bruyère, Rapport sur les fouilles de Deir el Médineh, Ins. fr. d'arch. or., Fouilles, t. XVI, p. 34.

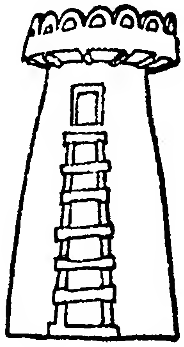
(٢) H. Grapow, op. cit., S. 163 f.

(٣) Ibid., S. 163.

(٤) J.E. Quibell, Hierakonpolis, p. 19 f. ; J. Vandier, op. cit., vol. I, p. 526 et seq.

ما يمثل برجاً بجدران مائلة إلى الداخل تعلوها شرفة ذات شرف على شكل نصف دائرة ؛ وليس للبرج مدخل على مستوى سطح الأرض ، وإنما كان يرتقى بسلم من حبل إلى نافذة فى أعلاه (شكل ١٣) (١) ، ومن آثارزوسر نموذج من هذا القبيل (٢) .

ولم يبق من حصون الدولة القديمة ما يدل عليها ، بيد أنها كانت كثيرة ، وهو ما تشير إليه ألقاب بعض الموظفين(٣) ؛ كما أن من متون الأهرام ما يشير إلى تحصين حدود مصر الشمالية الشرقية وقد كانت معرضة للخطر على الدوام (٤) .



(شكل ١٣) نموذج برج

وتزودنا آثارالدولة الوسطى ورسومها ونصوصها بمعلومات وافرة عن الحصون آنذاك . من ذلك نعلم أن أمنمحات الأول شيد حصنا على الحدود الشمالية الشرقية ليحمى مصر شر غارات البدو من هذه الناحية ، وكان يسمى « جدار الأمير » (٥) . ومن صور مقابر بنى حسن ما يمثل كثيرا من القلاع المصرية بجدران سميكة مائلة فى جزئها الأسفل ، مستقيمة فى جزئها الأعلى ؛ وتنتهى بشرف صغيرة مدورة وتتخللها شرفات ضيقة تسع مدافعا واحدا (شكل ١٤) .

وشيد ملوك الدولة الحديثة عدة حصون فى شرقى الدلتا ، على

(١) F. Petrie, The Royal Tombs II, pl. V ; L. Borchardt, Altaegyptische Festungen, Abb. 9.

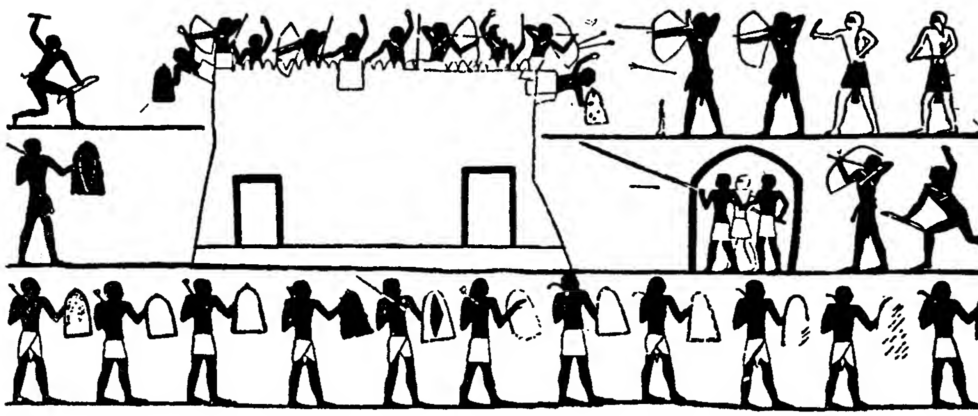
(٢) J. Ph. Lauer, La pyramide à degrés, III, fig. 29.

(٣) H. Kees, Goett. Nachr. phil.-hist. Kl. (1933), 588-9 ; H. Junker, Giza III, 172 f.

(٤) Pyr. 628 b.

(٥) A. Erman, op. cit., S. 42.

أنه لم يبق لها أثر (١) . وإننا لنعلم أن حصن ثارو (سيلى) شرقى القنطرة كان يشرف على مدخل مصر من جهة الشرق وأنه كان مركز خطوط الدفاع عنها من هذه الناحية ، إذ كان فى مكان استراتيجى



(شكل ١٤) مهاجمة حصن من الدولة الوسطى

هام ، حيث تترك البحيرات الواقعة جنوبى شرقى بحيرة المنزلة لساناً ضيقاً من الأرض بينها وبين البحيرات المرة يسمى القنطرة ومنها كان طريق حورس إلى غزة عن طريق العريش . وقد كان كل من رمسيس الأول وسيتى الأول قائد حامية حصن ثارو قبل أن يتوليا العرش . وفى نقوش سيتى الأول فى الكرنك ترى قنطرة على قناة عند ثارو تحميها الحصون (٢) . وتدل يومية أحد موظفى الحدود فى ثارو من عهد الرعامسة على إحكام رقابة كل من يغادر مصر أو يدخلها ، ومراقبة البدو ، الذين كان يسمح لهم بان يرعوا مواشيهم فى شرقى الدلتا ، وتتبع الرقيق الهارب (٣) .

وعلاوة على هذا أقام ملوك مصر فى فلسطين وسورية ولبنان

---

(١) من ذلك ما أنشأه رمسيس الثانى فى تل الرطابة وتل المسخوطة وغيرهما .

(٢) Gardiner, The Ancient Military Road between Egypt and Palestine, J.E.A., VI, 99 f., pl. XI.

(٣) J.H. Breasted, op. cit., III, 629 ff.

الحصون لتكفل سيادة مصر فيها ، ومنها حصن شيده تحوتمس الثالث فى لبنان وسماه « تحوتمس قاهر البرابرة » . ومن الوثائق ما يدل كذلك على أنه كانت تحمى شمال غربى الدلتا سلسلة من الحصون تمتد على ساحل البحر الأبيض (١) .

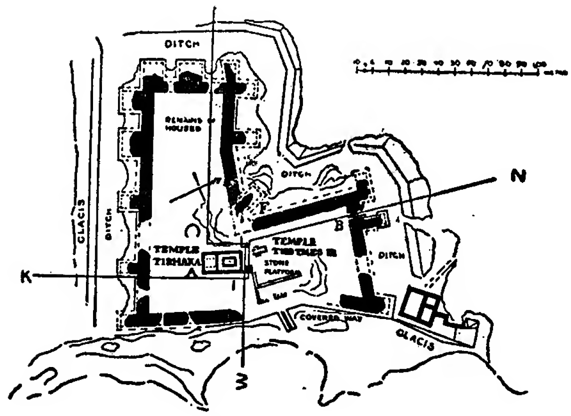
وفى بلاد النوبة أقام ملوك الأسرة الثانية عشرة عددا هاماً من الحصون للدفاع عن الحدود الجنوبية وتأمين طريق التجارة مع السودان وحماية مدخل وادى العلاقى المؤدى إلى مناجم الذهب التى تبعد عن النيل نحو ٦٠ ميلا . وقد جددها ملوك الدولة الحديثة وزادوا فيها وأنشأوا غيرها ؛ ولم يكن الغرض منها حماية الطريق النيلى فحسب وإنما حماية الطرق البرية كذلك . وهى تختلف فيما بينها تبعاً لاختلاف طبيعة الأماكن التى تقوم فيها ، وإمكان الاستفادة مما يوجد من صخر . وكان يعنى بألا يترك من حول أى منها مساحة من الأرض يمكن أن يستقر فيها العدو ؛ وكلها مسورة بجدران مائلة من اللبن تتخلله طبقات من الخشب تشد البناء بعضه إلى بعض . وهى تقوم عادة فوق مكان مرتفع ، ويحيط بأغلبها خندق ، وتعتمد جدرانها على دعامات تبرز من سطوحها الخارجية ، ومن داخلها بيوت لكبار الضباط وحجرات صغيرة للحامية . وأهمها جميعاً حصنا سمنة الغرب وسمنة الشرق (كمة) على جانبى النيل عند الشلال الثانى جنوبى وادى حلفا ، حيث يضيق مجرى النهر وتعترضه صخور تمتد إلى شاطئيه .

وكان حصن سمنة الغرب أول الأمر مستطيلا ثم زيد فيه من أحد جانبيه ، ويحيط به خندق عرضه ٢٦ مترا فى المتوسط ، وتبرز من سطوح جدرانه الخارجية فى الجنوب والغرب والشمال دعامات أو أبراج على مسافات غير منتظمة (شكل ١٥ أ و ب) .

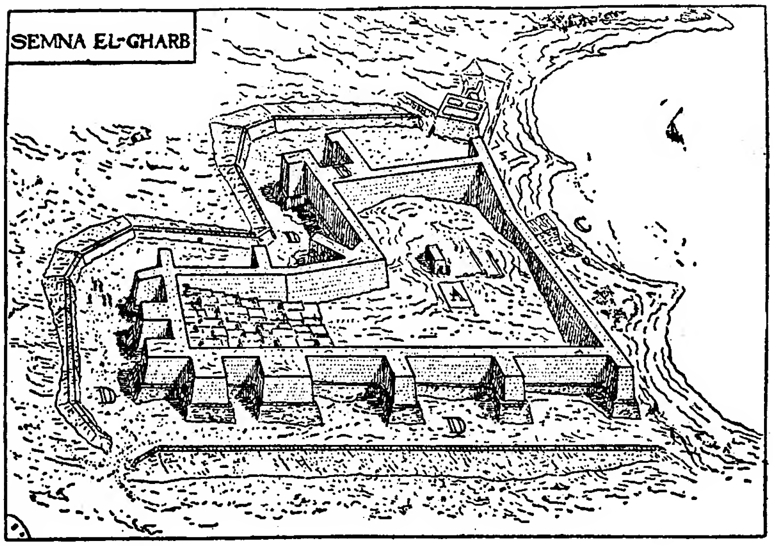
---

(١) J.H. Breasted, op. cit., III, 580, 586.

ويختلف سمك الجدران من ستة إلى ثمانية أمتار ؛ ويظن أن مدخله كان فى الشمال منه .



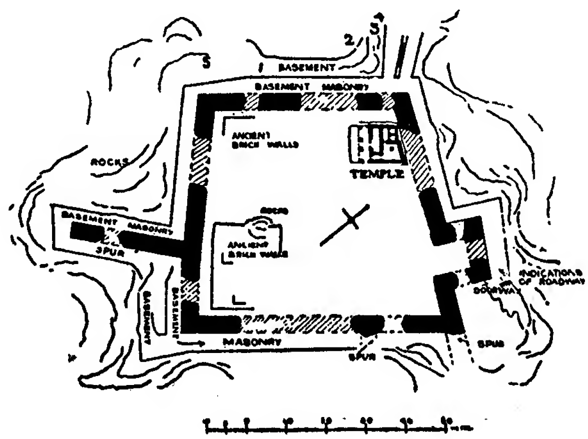
(شكل ١٥ أ) حصن سمنة الغرب — مخطط



(شكل ١٥ ب) حصن سمنة الغرب — منظور

وحصن سمنة الشرق يعلو ربوة عالية تشرف على النيل ، ويخلو جداره من الأبراج أو الدعائم إلا عند مدخله لحمايته ، وبالقرب من زاويته الشمالية الغربية درج يؤدى إلى النيل ويحميه جداران سميكان (شكل ١٦) . وكان فى داخله بالقرب من جداره الشمالى معبد من عهد حاتشبسوت وتحوتمس الثالث.

وكان يجتاز كلا من الحصنين طريق رئيسى تتفرع منه طرق فرعية تقع عليها مكاتب الموظفين الإداريين والحامية ومساكنهم . وكان من خارج كل حصن بيوت غير المصريين وقبور الموتى .



(شكل ١٦) حصن سمنة الشرق

وقد كشفت الحفائر الحديثة فى حصن بوهين جنوب الشلال الثانى مباشرة وبالقرب من وادى حلفا عن حقائق هامة ؛ فقد كان الحصن يضم مدينة وله ميناء على النيل . وكان من حوله خندق عميق ، على جانبه الخارجى جدار من اللبن يعلوه طريق مسقوف يحمى خط الدفاع الأول ؛ وعلى الجانب الداخلى جدار آخر من اللبن تتخلله أبراج مستديرة تشرف على الخندق ؛ وقد نظمت فيها تفاريج ، بحيث كان يمكن أن تسدد منها السهام إلى أى مكان فى الخندق ، وبحيث كان لكل مدافع ثلاث تفاريج فى المكان الواحد . ومن التقارير من أواخر الدولة الوسطى نعلم أنه كان يبلّغ من حصن إلى حصن دخول كل مجموعة صغيرة من الأهالى (١) ، وأن مجموعات من الحراس كانت تخرج لمراقبة المداخل وتتبع آثار الأقدام الحديثة المشكوك فيها .

(١) P.C. Smither, The Semnah Despatches, J.E.A., vol. 31 (1945), 3 ff.

البيوت والقصور

ظل المصريون يبنون بيوتهم وقصورهم باللبن ، بينما أخذوا يشيدون المعابد والمقابر من الحجر أو يحفرونها فى الصخر ؛ ذلك لأنهم حسبوا مساكن الحياة الدنيا مؤقتة زائلة ، بينما كان ينبغى أن تخلد بيوت الآلهة والموتى على الزمن . على أنه لم يبق من بيوت المصريين وقصورهم إلا آثار ضعيفة ، ذلك لأن كل بيت ، ينقض أو يهدم ، كان يستخلص منه اللبن السليم ثم تسوى الأنقاض ليبنى عليها من جديد ؛ لذلك تقوم كثير من القرى والمدن الحالية على أطلال قديمة . وقد عبث الفلاحون بحثا عن السباخ بكثير من أطلال المدن القديمة ، ودمروا ما بقى من بيوتها ومساكنها ، وإن كان من الأكوام فى الحقول وتحت رمال حافة الصحراء ما لا يزال يخفى آثار بيوت من عصور مختلفة .

وإذا كان ما حفظ من مساكن المصريين قليل ، فإن ما كشف عنه منها ، وما تمثله بعض العلامات الهيروغليفية ، وما تتضمنه بعض النصوص من إشارات مقتضبة ، وما حفظ من نماذج ، وما تمثله بعض الصور المصرية القديمة من بيوت وقصور ليعين فى التعرف على خصائص البيت المصرى وصفاته فى بعض الأزمنة . وقد يبدو غريباً أنه ليس من المناظر العديدة التى تصور حياة المصريين وأعمالهم المختلفة على جدران المقابر ما يمثل مساكنهم إلا فى القليل النادر . ولعل ذلك يرجع إلى أن القبر كان يعد البيت الخالد للميت ، فلم يكن مايدعو فى الغالب الأعم إلى تصوير بيت آخر على جدرانه .

ومهما يكن من أمر فقد تطور البيت المصرى مع الزمن واختلف باختلاف الظروف الاقتصادية والاجتماعية والتقدم المادى والثقافى .

فيما قبل عهد الأسرات

كان البيت فى بداية الأمر ، عندما استقر السكان الأول فى وادى النيل ، مأوى بدائياً خفيفاً ، يحمى من الشمس والريح ، ويتخذ مما كانت توفره طبيعة البلاد من مواد يسهل استخدامها وتشكيلها ، وهى البردى والغاب وفروع الشجر ، مما يتفق والأدوات البسيطة التى كانوا يستخدمونها آنذاك . وكان مخططه بيضياً ، ومدخله نحو الجنوب الشرقى ابتغاء اتقاء الرياح الشمالية الغربية .

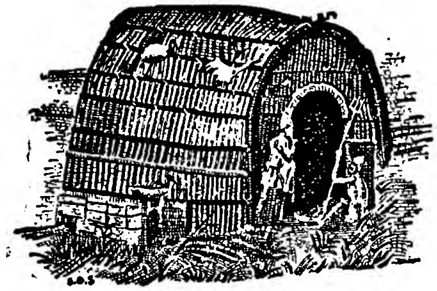
ومن صور السفن العديدة على فخار ما قبل الأسرات ما يمثل قمرات من أعواد النبات على أشكال مختلفة (١) . واعتمادا على أشكالها وما حفظ من رسوم الأكواخ فى بداية الأسرات يبدو أن من الأكواخ حينذاك ما كان يقام من أعواد النبات المضفورة أو الحصير حول قوائم من فروع الشجر ، ومنها ما كان سقفه مقبياً أو فى شكل قبة أو مائلا أو مستوياً . وتعتبر الأكواخ ذات السقوف المقبية أو التى فى شكل قبة أصلا للأقباء والقباب من اللبن أو الحجر فى عهد الأسرات .

ومن رسوم بداية الأسرات ما يشير إلى أن بيت ملك الصعيد فى عصور ما قبل الأسرات كان مبنى ، هيكله من خشب وجدرانه من حصير أو من أعواد النبات المضفورة وسقفه مقبى على شكل خاص . وقد ذكر ديودور الصقلى فى القرن الأول بعد الميلاد أنه يقال عن المصريين فى العصر القديم أنهم كانوا يصنعون بيوتهم من الغاب ، وأن بيوت الرعاة المصريين فى عهده كانت لاتزال كذلك (٢) . وما من ريب فى أن من طبقات الشعب الفقيرة ما ظل

(١) A. Badawi, op. cit., p. 4 et seq.

(٢) وهيب كامل : ديودور الصقلى فى مصر ، فقرة ٤٣

يسكن أكواخاً من نبات مضفور على الطراز القديم حتى العصر اليونانى الرومانى ، وتشهد بذلك مناظر الفسيفساء من ذلك العهد (شكل ١٧). ولا تزال تبنى الخصائص والأكواخ فى الحقول من أعواد بعض النبات حتى الوقت الحاضر .



(شكل ١٧) كوخ من أعواد النبات فى مناظر الفسيفساء

ولم يكن الكوخ يشتمل فيما يبدو إلا على مكان واحد ؛ وتمثل العلامة الهيروغليفية للبيت أو الفناء مكاناً مستطيلا مدخله فى وسط أحد جانبيه الطويلين ؛ ولعل ذلك إنما كان من خصائص الأكواخ من أعواد النبات . على أية حال لا تحمى الأكواخ من أعواد النبات كثيرا من حر أو برد كما أنها لا تدوم طويلا ؛ لذلك منها ما كانت جدرانه تطلى بملاط من طين ، ولا يزال ذلك يتبع فى أسوار الحدائق وحظائر البهائم فى ريف مصر .

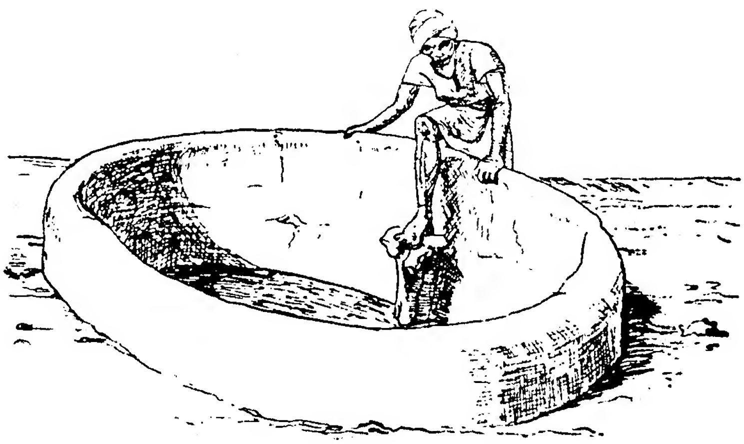
ومن كتل الطين (الطوف) وضغط بعضها فوق بعض وهى طرية ابتنى سكان الوجه البحرى فى أوائل العصر الحجرى الحديث أكواخاً بيضية أو مستديرة غائرة فى الأرض نحو ربع متر بجدران منخفضة يبلغ ارتفاعها نحو نصف متر ، وقطرها فى أوسع مداه متر ونصف تقريباً (شكل ١٨) (١) . وكانت تعرش بغاب أو جريد نخل أو حصير أو فراء حيوان فوق دعامة من أغصان الشجر مثبتة فى الأرض وتعلو الجدار بحيث كان السقف أحدب ذا مسطحين . ويظن أن هذه الدعامة أصل لما يعرف بأسطون الخيمة (شكل ٨٢)(٢) ،

---

(١) H. Junker, Vorberichte ueber... Merimde-Benisalame, 1930, S. 46; 1931, S. 46 ff.; J. Vandier, Manuel d'archéologie égyptienne, t. I, p. 109 ff.

(٢) استخدمنا لفظ أسطون لكل دعامة قطرها مستدير تمييزاً لها عن الأعمدة المربعة ، خاصة وأن من عهود مصر القديمة ما يكاد يقتصر على استخدام طراز واحد منهما ، وان لكل منهما صفاته وخصائصه . ومع أن=

الذى كان له دور هام فى قمرات السفن والظلات ومقصورات الآلهة ، والذى يبدو من صوره أنه كان أول أمره غصن شجرة يثبت فى الأرض من قبل طرفه الرفيع بما كان يسمح بأن تشد

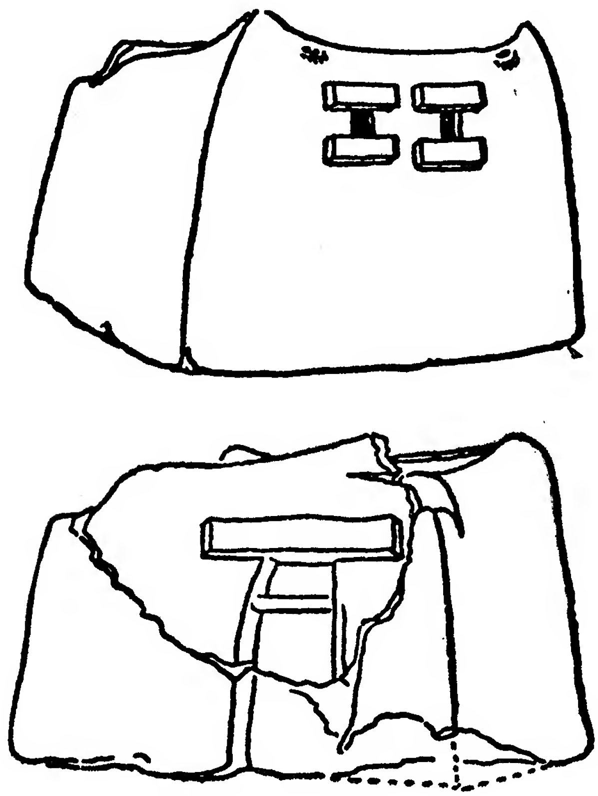


(شكل ١٨) كوخ فى مرمدة بنى سلامة

إلى طرفه الآخر الغليظ الأغصان المستعرضة فى الخيمة . ولم يكن لهذه الأكواخ مدخل ، وإنما كان يثبت على الجدار من الداخل فى بعض الأحيان عظم ساق فرس النهر كدرجة تعين فى الدخول إليه . وكان يحتمى فى هذه الأكواخ فى ليالى البرد

= لفظ عمود يشمل كل دعامة رأسية فى المنشآت كما قرر مجمع اللغة العربية بما يقابل لفظ pillar فى الإنجليزية و pilier فى الفرنسية و pfeiler فى الألمانية ، إلا أنه مع ذلك يحسن قصره فى العمارة على الأعمدة ذات الزوايا القائمة والأضلاع المستقيمة دون غيرها كما هو الحال فى اللغات الأجنبية بالنسبة للألفاظ المذكورة . واستخدام أسطون وأساطين للدعائم ذات القطر المستدير بما يقابل لفظ column فى الإنجليزية و colonne فى الفرنسية و Saeule فى الألمانية . ويقال فى اللغة العربية أساطين اللغة العربية وأساطين العلم والأدب بمعنى الدعائم ، الذين يعتمد عليهم . وقد استخدم ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار فى الكلام على الدعائم المستديرة فى المسجد الأقصى لفظ سارية وسوار ، بيد أنه يبدو أنه استخدم كذلك لفظ أساطين فى هذا المعنى ؛ وهو ما آثرنا استخدامه بدلا من سارية التى استخدمناها للساريات من الخشب حاملة الأعلام فى واجهات الصروح . ومفرد أساطين فى قواميس اللغة العربية إسطوانة ، معرب أستون ، بالفارسية ، ولم نشأ استخدام هذا المفرد لمعناه العام الذى يشمل كل جسم إسطوانى ، ولذلك فإننا نؤثر كذلك لفظ أسطون لكل دعامة مستديرة القطر لخفته فى النطق فضلا عن أنه أقرب للأصل الفارسى ، وإن كان لم يرد فى المصادر العربية .

الشديد ، وكان يثبت فى أرضها إناء من فخار يتجمع فيه ما يتسرب إليها من ماء المطر مما قد يعد أصلا لقنوات وأنابيب الصرف فى معابد الدولة القديمة والدولة الحديثة . على أن الشكل المستدير وإن كان يتفق والبناء من أعواد النبات أو الطين إلا أنه لم يكن له دور يذكر فى العمارة الحجرية فى مختلف عصور مصر القديمة .



(شكل ١٩) نموذج بيت من الصلصال من أواخر ما قبل الأسرات

ومن أواخر ما قبل الأسرات نموذج صغير من صلصال لبيت مستطيل (شكل ١٩) (١) تميل سطوح جدرانه الخارجية قليلا إلى الداخل ، وكان ذلك فيما يعتقد من خصائص البناء بالطين بما يزيده ثباتاً وقوة ، ولم يكن ضرورياً فى البناء باللبن ، وقد ورثته عنه

---

(١) D.R. Mac-Iver, El Amrah and Abydos, p. 42, pl. X.

العمارة الحجرية في المصاطب والصروح وغيرها . وفى أحد جانبي النموذج باب فى أعلاه عتب يعلو لفيفة تمثل حصيرة مطوية . كانت أشبه بستار يطوى ويدلى عند الحاجة . وفى أعلى الجدار الخلفى نافذتان صغيرتان . ويبدو أنه نموذج لبيت من غرفة واحدة . كان يعيش فيها صاحبه ويحفظ فيها ما يملك من أثاث وأدوات . على أية حال لقد أصبح البيت المستطيل الطراز السائد فى العمارة المصرية .

ولم يلبث المصريون أن اصطنعوا من الطين اللبن وقد يسر البناء وساعد على استطالته ، وكان له دور هام فى العمارة المصرية ، ولا تزال البيوت فى قرى مصر تبنى به . ويظن أن الأبواب من الخشب بدأت فى المبانى من اللبن ، وأن وضع الباب بجانب أحد طرفى البناء من خصائص هذه المبانى . على أنه لقلة الأخشاب الصالحة للبناء فى مصر كان من القاعات ما يسقف بقبو من اللبن وقد ظل ذلك حتى العصور المتأخرة ، بل من القاعات فى بيوت بلاد النوبة قبل أن تغرقها مياه السد العالى ما كان سقفه مقبياً . ولا يزال الأمر كذلك فى سقوف بعض البيوت فى أقصى الصعيد .

ومع الزمن لم يعد البيت ذو القاعة الواحدة يحقق مطالب الحياة المتقدمة مما أدى إلى تقسيمه أو إضافة قاعة أو أكثر إليه . وسواء كان مبنى هيراكونبولس (الكوم الأحمر) ذو الجدران المصورة قبرا أو بيتاً أو هيكلا (شكل ١٠٣) [1] ، فإنه يبدو أن من البيوت فى أواخر ما قبل الأسرات على الأقل ما كان يتألف من ردهة وقاعة ، وجدرانه تطلى بطين ثم بطلاء أبيض أو مغرة صفراء .

ويظن أن بيت ملك الوجه البحرى كان من اللبن بسقف مقبى .

---

(١) J.E. Quibell and F.W. Green, Hierakonpolis II, pl. LXVIII ; G. Brunton, The Predynastic Town — Site at Hierakonpolis, Studies presented to L.L. Griffith, pp. 272-276.

وأنه كان يتقدمه فناء يحيط به سور ذو مشكاوات . ومع ذلك لقد ساد السقف المستقيم فى المبانى المصرية ، حيث كان يستمتع من فوقه بنسيم الليل البارد أيام الصيف وخاصة إذا خلا البيت من فناء واسع أو حديقة .

ويبدو أن بيت الزعيم فى أوائل عصور ما قبل الأسرات كان يضم هيكل المعبود ، ولأسباب سياسية أو لغيرها استقل كل منهما عن الآخر بعد ذلك . وإذا صدق الظن فمن الجائز أنه كان لهذا البيت فى الأصل بابان ، أحدهما باب مقصورة المعبود .

بداية عهد الأسرات

لا بد أن أفادت القصور الملكية وبيوت عظماء رجال الدولة فى بداية الأسرات كثيرا مما أحرزته البلاد من تقدم فى الفنون والصناعات ، ومن مهارة فى البناء باللبن ، وهو ماتنبىء عنه المقابر الملكية ومقابر عظماء الأفراد من ذلك العهد . ويغلب على الظن أنه كان للقصر الملكى بابان ورثهما عن بيت الزعيم فيما قبل الأسرات ، ثم أصبحا يكنيان عن أن ساكن القصر ملك الجنوب والشمال . ويزكى هذا مايعرف بواجهة القصر على ما يسمى بنصب المقابر الملكية فى أبيدوس (صورة ٣٧)[١] ؛ وتمثل بابين بين ثلاثة أبراج عالية . ولا يظن أن البابين كانا يقعان جنباً إلى جنب فى واجهة القصر على نحو ما تمثلهما صورهما ، ذلك لأن الباب الواحد خرق فى قوة البناء ومتانته وحسن الدفاع عن سلامة سكانه فكيف ببابين متجاورين ؟ لذلك لابدأن كان احدهما يبعد عن الآخر . ولعل كلا منهما كان بالقرب من أحد طرفى

(١) فى عهد الأسرة الأولى كان الصقر حورس إله الأسرة المالكة ، وكان الاسم الذى يتخذه الملك عند توليه العرش بصفته حورس الحى على الأرض يكتب داخل إطار مستطيل فوق صورة مختصرة لما يسمى واجهة القصر الملكى ، وتعلوه صورة صقر .

واجهة القصر ، غير أنه لضيق المساحة على النصب قرب الفنان المصرى بينهما كعادته فى الحالات المماثلة .

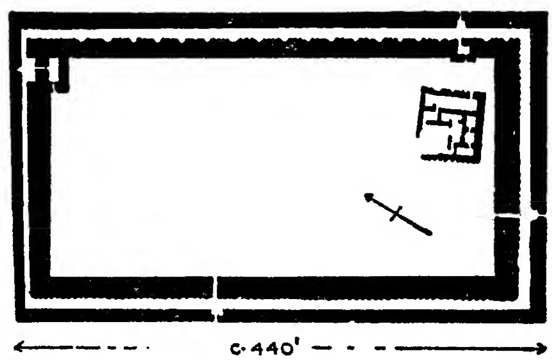
ومما يؤيد أيضاً أنه كان للقصر الملكى بابان ما جاء فى حوليات الملك سنفرو من ذكر بابى الجنوب والشمال (١) ، فضلا عن أنه كان يشار إلى القصر الملكى بالباب المزدوج أو البابين العظيمين ، وفى ذلك ما يدل أيضاً على أن البابين كانا أهم ما يميز القصر الملكى وأفخم عناصره المعمارية . ومهما يكن من أمر لقد كان القصر الملكى أعظم البيوت وأفخمها ؛ يدل على ذلك اسمه فى اللغة المصرية ويعنى « البيت العظيم » ، وقد أصبح يكنى به عن الملك تجنباً من ذكر اسمه على نحو ما كان الأتراك يكنون عن سلطانهم بالباب العالى ، وإليه يرجع لفظ فرعون فى اللغة العربية وما يقابله فى اللغات الأخرى . وكان لكل قصر ملكى إسمه وقد يدل هذا أيضاً على ما كان له من أهمية بين سائر البيوت .

واعتمادا على ما يعرف عن القصور الملكية فى الدولة الحديثة يظن أن القصر الملكى فى بداية الأسرات كان من قسمين : عام يستقبل فيه الملك الأشراف وكبار رجال الدولة ، وخاص يشمل الحريم وقاعة الطعام وقاعات أخرى . ومما حفظ من نقوش ونماذج بعض الأساطين يبدو أن من القاعات ما كانت سقوفها تعتمد على أساطين مقناة من خشب أو على شكل أسطون الخيمة أو ذات تيجان على شكل زهرة اللوطس . وعلى نحو ما يعرف من عمارة المقابر الملكية كانت الجدران تطلى بطلاء أبيض ، ومنها ما كانت تبرز من سطوحها الداخلية دعامات مكسوة بخشب تزينه شرائط من ذهب محلاة برسوم ؛ ومنها ما كان يعلق عليه حصير ملون تحليه رسوم هندسية . وكانت غرفة النوم تقع فى أقصى مكان من البيت

(١) J.H. Breasted, op. cit., I, 148.

وبالقرب منها حمام وكنيف . وكانت أرض القاعات تلوح بالخشب أو ترصف باللبن أو بطين يطلى بطلاء أبيض . ومن القاعات ما كانت توضع تحت أرضها قدور فوهاتها إلى أسفل بما يحول دون رطوبة الأرض . ولا بد أن كان للقصر درج يؤدى إلى السطح .

ومن العلامات الهيروغليفية ما يبدو أنه يمثل قصرا أو برج قصر أو بيتا فى شكل برج من طابقين ، ويتوجه إفريز زخرفى أو شرف ؛ فإذا صح هذا فان من البيوت المصرية ما كان من طابقين منذ بداية الأسرات (١) .



(شكل ٢٠) « شونة الزبيب »

ولا يزال يقوم فى أبيدوس (العرابة المدفونة) بناءان كبيران من اللبن من عهد الأسرة الثانية ، أحدهما أحسن حفظاً من الآخر ، ويطلق عليه « شونة الزبيب » (شكل ٢٠) (٢) . وكان كل منهما فيما يبدو قصرا مؤقتاً ينزل فيه الملك عندما كان يشترك فى أعياد المعبد على نحو ما كان قصر رمسيس الثالث فى معبده الجنازى (مدينة حابو) (٣) . ويحيط بشونة الزبيب سوران أحدهما من داخل الآخر ؛ والسور الداخلى سميك ذو مشكاوات ، ويظن أنه كان

---

(١) A. Badawi, op. cit., p. 44 sq.

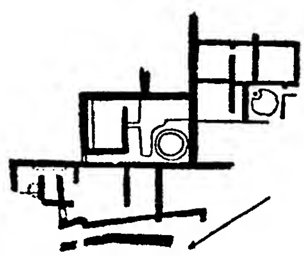
(٢) F. Petrie, Abydos III, pls. V-VIII.

(٣) انظر صفحة ١٢٩

أعلى من السور الخارجى ، حيث كان يمكن للحراس من فوقه القضاء على من يستطيع من الأعداء الوصول إلى ما بين السورين . وفى كل جانب من السور الخارجى مدخل يقابله مدخل آخر فى السور الداخلى ؛ وفى حالتين كان المدخل فى السور الداخلى أشبه بفناء أو ردهة بابها الخارجى لا يقابل بابها الداخلى ، مما ييسر الدفاع عنها ، وقد أصبح طراز هذا المدخل يراعى فى بناء الحصون فيما بعد. ويقع القصر فى أحد أركان الساحة العظيمة التى يحيط بها السوران ، وقد تهدم وكان يشتمل على عدد من الغرف كما كانت تتخلل واجهته مشكاوات بسيطة .

الدولة القديمة

وفى هيراكونبولس كشف أيضاً عن أطلال بعض البيوت من أوائل الدولة القديمة ؛ وكان كل منها يتألف من قاعتين متعاقبتين أو فناء تليه قاعة (شكل ٢١)(١) ، ويبدو أنه يشبه فى تخطيطه علامة هيروغليفية تمثل فيما يظن فناء وقاعة . ولعل من البيوت ما كان يشتمل أيضاً على قاعة رئيسية من خلفها قاعتان أخريان .



(شكل ٢١) مخطط لبيوت فى هيراكونبولس

وفى رحاب هرم صقارة المدرج كشف عن أطلال بيت يتألف من ردهة وثلاث قاعات (شكل ٢٢) (٢) .

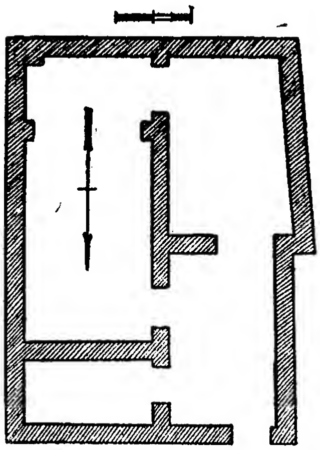
وكانت تلحق بالبيوت صوامع تخزن فيها الحبوب ؛ ومن نماذجها يبدو أن منها ما كان أسطوانى الشكل تماماً ؛ ومنها ما كانت جوانبه مقوسة إلى الداخل قليلا (٣) .

(١) J.E. Quibell, Hierakonpolis II, pl. LXVIII.

(٢) J. Ph. Lauer, La pyramide à degrés, t. I, p. 183.

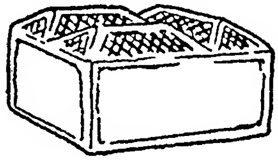
(٣) A. Badawi, op. cit., p. 119.

ويظن أن من مبانى زوسر الملحقة بهرمه فى صقارة ما هو صورة لبعض ما كان له من مبانى فى منف . ومهما يكن من أمر فهى تدل على أن من البيوت والقصور إذ ذاك ما كان يشتمل على صفّات ذات أساطين من خشب ، مقناة أو على شكل غصن البردى أو نبات الوجه القبلى ، وتحتوى على أبهاء طويلة وأخرى مستعرضة تعتمد سقوفها على أساطين من خشب على شكل حزمة الغاب ، وأن من السقوف ما كان من جذوع النخل أو مقبياً من اللبن . ومن القصور ما كان يتوج واجهته الكورنيش المصرى .



(شكل ٢٢) مخطط بيت فى رحاب مبانى زوسر فى صقارة

ومن أوائل الدولة القديمة نموذجان صغيران متشابهان من الحجر الجيرى ، يمثل كل منهما فيما يبدو بيتا بقاعة مستعرضة ومن ورائها قاعتان متجاورتان ، أو ثلاثة بيوت متجاورة (شكل ٢٣) . وسقف كل قاعة أو كل بيت أحدب بما يشبه سقوف كثير من غرف الدفن فى أهرامات الدولة القديمة ، على أنه غريب فى سطوح البيوت المصرية مما دعا إلى القول بأن هذين النموذجين إنما يمثلان مخازن .



(شكل ٢٣) نموذج بيت من حجر الجير فى متحف القاهرة

وقد اندثرت قصور سنفرو وخوفو وخفرع ومنقرع ولم يبق منها أثر يدل عليها ، وهم الذين شيدوا أضخم الأهرام قبورا يدفنون فيها ، وكان عصرهم عصر خلق وإبداع ، بل إنه لا يعرف مكان قصورهم أكانت فى منف أو بالقرب من أهرامهم فى دهشور والجيزة . واندثرت كذلك بيوت عظماء رجال الدولة ، كما أنه ليس

فيما حفظ من صور ومناظر الدولة القديمة ما يمثل شيئاً منها . بيد أن من النصوص ما يذكر أن مثن من بداية الأسرة الرابعة أعطى بيتاً مؤثثاً طوله مائتا ذراع ، أى أكثر من مائة متر ، وعرضه مائتا ذراع (١) ، وبذلك تبلغ مساحته أكثر من عشرة آلاف متر مربع ؛ وكانت تتضمن حديقة كبيرة ذات أشجار جميلة وأعناب وتين ، وفيها بحيرة عظيمة (٢) . وذكر حرخوف الذى جاب بلاد النوبة للكشف عن ربوعها ، والذى جلب للملك بى الثانى قزما ، أنه بنى بيتا وحفر بركة وزرع أشجارا(٣) . وجاء فى قصة خوفو والسحرة أنه كان فى بيت أحد الكهنة بركة وحديقة بها جوسق للنزهة .

لذلك لنا أن نتصور أن القصور الملكية كانت فى الدولة القديمة قصورا كبيرة تحتوى على حدائق غناء وبحيرات أو أحواض ماء كبيرة . وهو ما يشير إليه أيضاً ما يحكى من أن الملك سنفرو ضاق يوماً فاستدعى رئيس القراء الذى أشار عليه بالترويض فى بحيرة القصر فى زورق تجدف فيه فتيات القصر الجميلات ، فإن مرآهن يجدفن ذهاباً وإياباً ومرأى الأحراج الجميلة ، والحقول التى تحيط بالبحيرة وشواطئها البديعة لما يدخل السرور على قلبه(٤) .

ومن النصوص ما يدل على أن القصر الملكى كان يحتوى على حمام (٥) وعلى ما يعرف ببيت الصباح (بردوات) ، حيث كان الملك يأخذ زينته كل صباح وخاصة قبل الخروج إلى الاحتفالات الدينية والرسمية (٦) . ومن القصور ما كان يحتوى على مكتبة

---

(١) Urkunden I, 4.

(٢) كانت الحديقة المكان الذى يأنس إليه المصرى وينعم فيه بنسيم الشمال العليل بجانب البركة ، وكان يتمنى أن ينعم بهما أيضا فى الحياة الآخرة .

(٣) J.H. Breasted, op. cit., I, 328.

(٤) G. Lefebvre, Romans et contes égyptiens, p. 78.

(٥) Mariettes, Mastabas, 308.

(٦) A.M. Blackman, The House of Morning, J.E.A. V, p. 148 ff.

تحتوى كتباً فى الدين والطب (١) . وكان من أجزاء القصور صفّات وأفنية تحيط بها الأعمدة أو الأساطين (٢) ، وأبهاء ترقص فيها الراقصات ؛ وتؤدّى فيها ألعاب مختلفة (٣) . ومما حفظ من ألقاب بعض الموظفين ما يشير إلى أنه كان للأمراء بيوت أو أقسام خاصة من القصر الملكى ينشأون فيها .

الفترة الوسيطة الأولى

من الفترة الوسيطة الأولى نماذج صغيرة من فخار لبيوت تعرف ببيوت الروح (٤) ؛ منها ما يمثل فناء وفى مؤخرته صفّة ذات أسطونين وأكثر ؛ وقد يكون فى الفناء ما يمثل حوض ماء مستطيل تعلوه ظلة تعتمد على أربعة دعائم . ومنها ماله وراء الصفّة قاعة أو أكثر ؛ ومن القاعات مالها ملاقف تتلقى نسيم الشمال البارد . ومن البيوت ما يتألف من فناء تطل عليه ثلاث قاعات بسقوف مقبية ، أو يشتمل على فناء بين قاعتين . ومنها ماله طابقان ، فى كل طابق صفّة ، ويؤدى إلى الصفّة العليا سلم فى جانب من الفناء ؛ وقد يتألف الطابق الثانى من صفتين من ورائهما قاعات . ومع أن هذه النماذج ذات طابع جنازى يدل عليه أن أقدمها مجرد صحاف من الفخار شكلت فيها أنواع مختلفة من القربان ، إلا أنها قد تكون مستوحاة من بيوت الأحياء من الطبقة المتوسطة . وهى بذلك تشير

(١) H. Junker, Giza VIII, 164 ; K. Sethe, Urkunden I, S. 42 f.

(٢) من العلامات الهيروغليفية من ذلك العهد ما يمثل صفة أو واجهة بهو بأسطونين مقنيين ، تعلو كلا منهما ركيزة مربعة أو مدورة. M.A. Murray, Saqqara Mastabas, pl. XXXVIII, 37.

(٣) من مناظر مقابر الدولة القديمة ما يمثل حفلات رقص وموسيقى وألعاب مختلفة مما يشير إلى أن من البيوت الكبيرة ما كان يحتوى على قاعات وأبهاء واسعة . ومن النصوص ما يشير إلى أنه كانت تنشد فى القصور الملكية أناشيا ذات طابع دينى إذ كان المشرفون على أدائها يحملون ألقابا دينية. H. Junker, Giza VII, 37. S. Hassan, Excavations at Giza 1929, p. 67 ; 1930, p. 211.

(٤) F. Petrie, Gizeh and Rifeh, frontispiece and pls. XIV - XIX.

إلى أن من البيوت ما كان من طابقين ، ومنها ما كان لقاعاته ملقف أو أكثر ، ومنها ما كان يحتوى على فناء ذى صفة فى مؤخرته ، ومن الأفنية ما كان يشمل حوض ماء .

الدولة الوسطى

من أهم ما حفظ من آثار الدولة الوسطى نموذجان عثر عليهما فى مقبرة مكت رع فى طيبة من عهد الأسرة الحادية عشرة ؛ يمثل أحدهما صفة (سقيفة) أمام واجهة بيت ، تشرف على حديقة مسورة يتوسطها حوض ماء تحيط به أشجار جميز (صورة ٥)[١] . وتتألف الصفة من صف من أربعة أساطين لوطسية، يليها صف آخر من أساطين بردية ، وفى الجدار الخلفى باب فخم ذو مصراعين يعلوه شباك ، ثم باب صغير للاستعمال اليومى . وفى الاقتصار على تمثيل الحديقة وحوض الماء والصفة دون بقية أجزاء البيت ما يشهد بأنها إنما كانت لتنعم بها الروح وأن القبر بأجزائه كان يقوم مقام البيت للميت[٢] . ويمثل النموذج الثانى مكت رع جالسا فوق منصة تحت ظلة جميلة ذات أربعة أساطين لوطسية ملونة يستعرض قطعان البقر (صورة ٦)[٣] ، وما من ريب فى أنه كان لأصحاب الضياع أمثال هذه الظلة فى حقولهم .

وجاء على لسان أمنمحات الأول فى وصف قصره أنه محلى بالذهب ، وسقوفه من اللازورد (أى زرقاء بلون السماء) ، وأبوابه من النحاس ، ومزاليجها من البرنز .[٤] ومن قصة سنوحى نعلم

---

(١) H.E. Winlock, Excavations at Deir el Bahari, p. 26 f.

(٢) انظر صفحة ٢٥٧

(٣) H.E. Winlock, op. cit., p. 25.

(٤) A. Erman, op. cit., S. 108.

أن باب القصر الملكى كان يسمى الباب المزدوج العظيم (١) ، وأنه كانت تتقدمه تماثيل أبى الهول (٢) . ونعلم كذلك أن قصر أحد أبناء الملك كانت تحلى جدرانه الصور ، وأنه كان يحوى أثاثا فاخرا وقاعة رطبة ، كان يحفظ فيها ماء الشرب والطعام من حرارة الشمس والذباب (٣) . ومن ألقاب بعض الخدم يتضح أن من قاعات البيوت الكبيرة قاعة الخبز وقاعة الفاكهة (٤) .

وكان فى المدينة الصغيرة التى أنشأها سنوسرت الثانى عند هرمه فى اللاهون قصر يقوم على مرتفع (٥) ، ويغلب على الظن أن الملك كان ينزل فيه عند تفقده أعمال البناء فى الهرم . وكان فى الساحة التى تتقدم القصر مبنى يظن أنه كان للحرس الملكى . وقد تهدم كل منهما بيد أن من البيوت الكبيرة لكبار الموظفين ما كان عرضه خمسة وأربعين مترا تقريباً وطواله نحو ستين مترا ؛ وكان يحتوى على سبعين قاعة تؤلف معاً بناء موحدا متسقا . وتختلف البيوت فيما بينها ، على أن منها ما كان يتألف من قسم أوسط وجناحين ومدخله باب صغير يكاد يتوسط الجدار الخارجى ، ويؤدى إلى ردهة صغيرة تطل عليها قاعة البواب ، حيث كان يستطيع مراقبة الداخل والخارج (شكل ٢٤) . وإلى يسار الردهة دهليز يؤدى إلى مرافق البيت . وإلى يمينها ردهة ثانية تؤدى إلى القسم الأوسط ، ويتوسطها أسطون ويخرج منها دهليز طويل يفضى إلى ردهة ثالثة تؤدى إلى فناء فسيح فى شمالى البيت . وفى جنوب الفناء صفة تواجه الشمال

---

(١) G. Lefebvre, op. cit., p. 23.

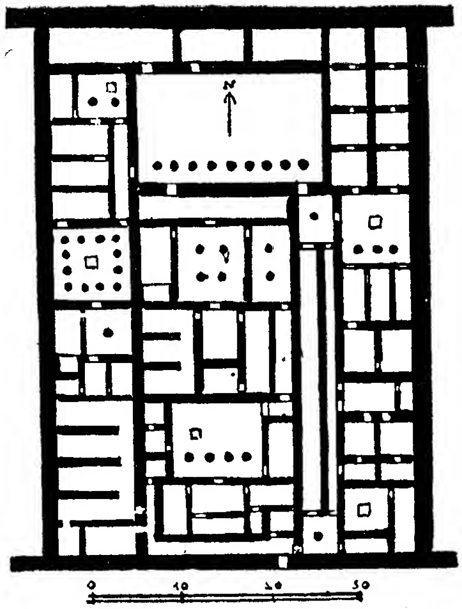
(٢) أو تمثالان على جانبى المدخل.

(٣) G. Lefebvre, op. cit., p. 24.

(٤) A. Erman, H. Ranke, Aegypten und aegyptisches Leben im Altertum, S. 117.

(٥) انظر صفحة ٧٩

ويعتمد سقفها على صف من الأساطين . ومن خلف الصفة مسكن صاحب البيت ؛ ويتألف من ردهة مستعرضة ، ربما كانت قاعة الانتظار ، ومن ورائها قاعة استقبال كبيرة تقع وسط البيت تقريباً وتتوسطها أربعة أساطين ؛ وفى أحد جانبيها غرفة نوم فى مؤخرتها مشكاة تشغلها



(شكل ٢٤) مخطط أحد البيوت الكبيرة فى اللاهون

منصة مبنية لسرير ، وفى الجانب الآخر قاعة ذات أسطونين ربما كانت قاعة استقبال جانبية أو قاعة الطعام ؛ وذلك لأنه يخرج منها دهليز يؤدى إلى المطبخ . وفى جنوب قاعة الاستقبال الكبيرة قاعة مستطيلة على جانب منها دهليز يؤدى إلى الحمام وعلى الجانب الآخر ثلاثة مخازن .

وفى الجناح الأيسر من البيت كانت بيوت الحريم (١) ، وتقع فى مجموعتين تكتنفان فناء مربعاً تحيط به الصفات ، وتتوسطه بئر . وتتألف إحدى المجموعتين من قاعة معيشة مربعة يتوسطها أسطون ،

(١) وبذلك كان جناح الحريم ينفصل عن جناح الرجل. A. Erman, H. Ranke, op. cit., S. 199.

وقاعتين جانبيتين وحمام وغرفة نوم ذات مشكاة لسرير . وتشبه هذه القاعات ما يماثلها فى القسم الخاص بالرجل ، ولذلك يظن أنها كانت لزوجته أو للزوجة الرئيسية ، وتدل على أن الزوجة كانت تتمتع بما كان يتمتع به الزوج من قاعات ، لا يكاد يتميز عليها إلا بالقاعات التى تقتضيها واجباته العامة . وتتألف المجموعة الثانية من قاعات بسيطة وفناء ذى صفة . ويشتمل الجزء الجنوبى من الجناح الأيسر على بقية مرافق البيت .

ويحتوى الجناح الأيمن على دهليز ضيق ومجموعات من القاعات يظن أنها كانت للأبناء المتزوجين والضيوف ، وربما كان بعضها مخازن .

ومن القاعات ما كانت تحلى جدرانها صور ، منها ما قد يمثل مجموعة من قاعات بسقوف مقبية أو مجموعة من أبواب مقبية فى أعلاها ، وتعلوها صورة رجل يقدم له خادم مرآة ومن ورائه مائدتان عليهما أوان من أشكال مختلفة (١) .

وكانت بيوت العمال متلاصقة ، وتقع واجهة كل منها على شارع أو درب ، وهى فى تخطيطها تختلف فيما بينها بعض الشىء ؛ وكان كل منها يحتوى على فناء صغير وقاعة أو قاعتين أو ثلاث . ومن القاعات ما كان سقفها مقبياً .

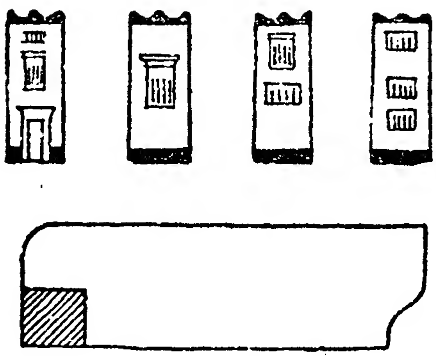
ويبدو من مقابر حكام الأقاليم أن من البيوت الكبيرة ما كانت تتقدمه صفة ، ويحتوى على بهو ذى أساطين أو أعمدة مضلعة . ومن عهد الأسرة الثانية عشرة نموذج من البرشا (شكل ٢٥)(٢) ، يدل على أن من البيوت ما كان فى ركن من فناء مستطيل ، وفى شكل برج من ثلاث طباق يعلوها سطح ذو شرف ، ويتوج بابه

(١) F. Petrie, Illahun, Kahun and Gurob, pl. XVI.

(٢) Ahmad Bey Kamal, Annales du Service des Antiquités, II, p. 31.

الكورنيش المصرى ، وتتخلل نوافذه قضبان . ولابد أنه كان يحتوى على سلم يؤدى إلى الطابقين الثانى والثالث وربما إلى السطح أيضا .

وتمثل مرافق البيوت نماذج مستقلة ، منها ما يمثل صوامع الغلال وأماكن الغزل والنسيج وصناعة الجعة والأثاث(١) .



(شكل ٢٥) نموذج بيت
من الأسرة الثانية عشرة

الدولة الحديثة

وما بقى من أطلال قصور ملوك الدولة الحديثة قليل ؛ ومنه مالم يبحث بحثا دقيقا مما أضاع معرفة كثير من التفاصيل . على أنه ما من شك فى أنها كانت بحيث تتفق وما أصابه العصر من ثراء وما غدا للملكية من سلطان واسع ، وأصبح للملوك من مركز ممتاز بين بلدان الشرق القديم . وكانت منشأة أمنحوتب الثالث فى غربى طيبة جنوبى مدينة حابو تتألف من عدد من المبانى فى مساحة تمتد نحو ثلثمائة متر وتجمعها صفات أساسية مشتركة وإن لم يكن يجمعها معا مخطط موحد ، مما يشير إلى أنها بنيت فى أوقات مختلفة (٢) . وكانت كلها من طابق واحد ، ومنها هيكل أمون فى الشمال ، وبهو الاستقبال فى الوسط ، وأربعة قصور فى الجنوب . وكان فى الجنوب الغربى ،

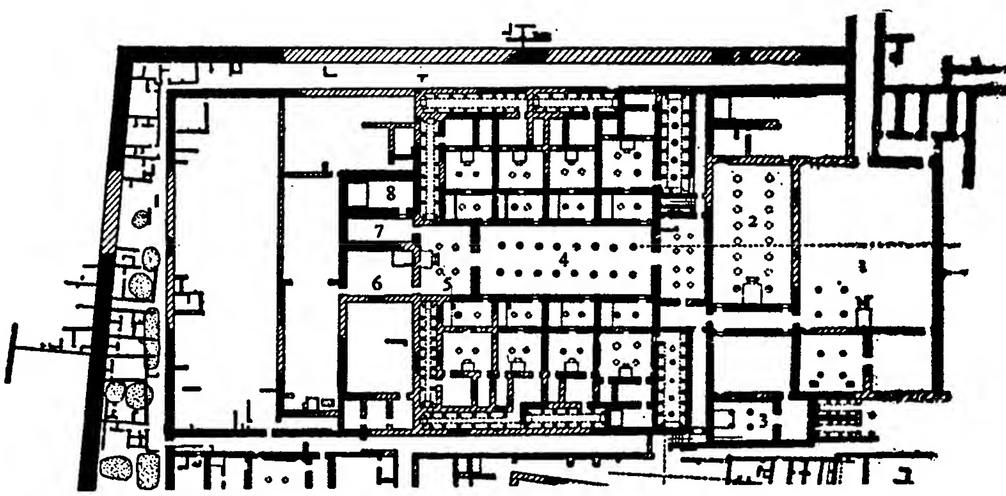
(١) H.E. Winlock, Models of Daily Life in Ancient Egypt.

(٢) W.S. Smith, The Art and Architecture of Ancient Egypt, p. 160 ff.

لا يعرف السبب الحقيق الذى أدى بالملك أمنحوتب الثالث إلى إقامة هذه المبانى على الضفة الغربية لطيبة ، وقد قيل أنه أراد بذلك الابتعاد عن نفوذ كهنة أمون ، بيد أن قصر المسافة بين هذه المبانى والكرنك لا تؤيد هذا الرأى .

فيما يبدو ، مسكن الوزير تحيط به مساكن كبار الموظفين ومكاتبهم ؛ وفى جنوب بهو الاستقبال مساكن عمال القصر ، وفى غربها مجموعة من مساكن الخدم يحيط بها دهليز . وهكذا كانت هذه المبانى أشبه بمدينة ، وكانت جميعها من اللبن ، لم يستخدم فيها الحجر إلا فى قواعد الأساطين الخشبية وعتب الأبواب وأرض الحمامات .

وأهمها جميعاً قصر الملك (شكل ٢٦)[١] ، وكان يؤدى إليه دهليز واسع ، يفضى إلى ثلاثة أبهاء استقبال مختلفة السعة ، فى كل منها منصة للعرش ، كانت تعلوها ظلة من خشب مذهب . ويدل



(شكل ٢٦) قصر امنحوتب الثالث فى غرب طيبة

ما حفظ من صور الظلات من ذلك العهد (شكل ٥٤) على ما كانت عليه الظلة الملكية من فخامة . ولا بد أن كان العرش على شاكلة عرش توت عنخ أمون إن لم يكن يفوقه إذا جاز أن ذلك فى الامكان. وكان يلى الأبهاء مسكن الملك الخاص ؛ ويتألف من ردهة ذات أساطين وبهو عظيم طويل ، لعله كان بهو الولائم ، وكان ذا صفين من الأساطين يقسمان البهو إلى ثلاثة أروقة ، على كل من يمينها ويسارها أربعة

(١) Bulletin of the Metropolitan Museum of Art, Part II, March 1918, pp. 8-14, figs. 4-5.

بيوت لأهم سيدات الحريم على طراز واحد متسق ، كل منها بجانب الآخر ومستقل عنه (١) . وكان من وراء البهو بهو آخر ذو أساطين فى مؤخرته منصة للعرش ، ومن ورائه غرفة نوم تتقدمها ردهة وحمام .

وكان كل بيت من بيوت الحريم يشتمل على ردهة تليها قاعة استقبال ومن ورائها غرفة نوم وقاعة الزينة ثم خزانة للملابس وأدوات البيت . ولم يكن مدخل الردهة يقع على محورها حتى لايرى من يمر ببابها أو يقف عنده ما يكون فى قاعة الاستقبال . ويعتمد سقف الردهة على أسطونين ؛ وفى أحد جانبيها قاعدة من حجر الجير لقدور الماء ، لها مسرب كان يجرى فيه الماء إلى وعاء ثابت فى الأرض . وكانت قاعة الاستقبال قاعة الجلوس الرئيسية ، ويقع بابها على محورها ، ويعتمد سقفها على أسطونين أو أربعة ؛ وأمام وسط جدارها الخلفى منصة لمقعد . وخزانة الملابس دهليز طويل فى مؤخرة البيت أو فى جانبه ، وتتخلل كل جانب من جانبيها الطويلين دعامات كانت تحمل رفاً من خشب وتؤلف فيما بينها خزانات تودع فيها الأشياء الثقيلة ، بينما كانت الملابس توضع فوق الرف .

وكانت تحلى الجدران والسقوف والأرض صور مختلفة ضاعت إلا أجزاء قليلة . وكان من صور الجدران ما يصور الملك جالساً على عرشه فى جلال ، أو يصور إحدى سيدات البلاط تحت إفريز من أزهار ، أو يمثل حيوانات برية فى الصحراء . وكانت تزين دعائم الرفوف فى خزانات الملابس لوحات صغيرة تمثل عجولا تقفز فى أحراج البردى أو قواعد تحمل صحاف الأطعمة . وكان يحلى السقوف رخم طائر أو عريش كرم أو مجموعات متسقة من

(١) يغلب على الظن أن الملكة لم تكن تسكن فى بيوت الحريم وأنه كان لها قصر خاص . انظر
H.A. Evelyn-White, Bulletin of the Metropolitan Museum of Art, X (1915), p. 255.

حمام طائر أو بط أو رسوم حلزونية تتخللها فى بعض الأحيان رءوس ثيران فى اتساق جميل . وكانت تحلى أطر الأبواب والشبابيك زخارف من قاشانى على شكل عناقيد العنب ، وأزهار اللوطس والأقحوان ، وطيور وأسماك وعلامات هيروغليفية تعنى حياة طويلة وصحة وقوة . ومن صور الأرضيات ما كان يمثل بركة مستطيلة تغشاها خطوط متموجة تمثل الماء ينمو فيه النيلوفر ، ويعوم فيه السمك والبط ، وتنمو فى حوافيه النباتات تحوم من فوقها طيور الماء . وهكذا كان أكثر ما يزين جدران القصر وأرضياته صور طبيعية جميلة تدل على حب الطبيعة فى مظاهرها المختلفة . ويغلب على الظن أن تادوخيبا إبنة ملك ميتانى التى تزوجها أمنحوتب الثالث تلقت فى أحد أبهاء هذا القصر هدايا أبيها ، وأنها كافأت الرسل عليها بهدايا أخرى ثمينة . وقد كان لأمنحوتب الثالث مكتبة خاصة تحتوى على كتب أدبية وقصص ، ولعلها كانت جزءا من هذا القصر.

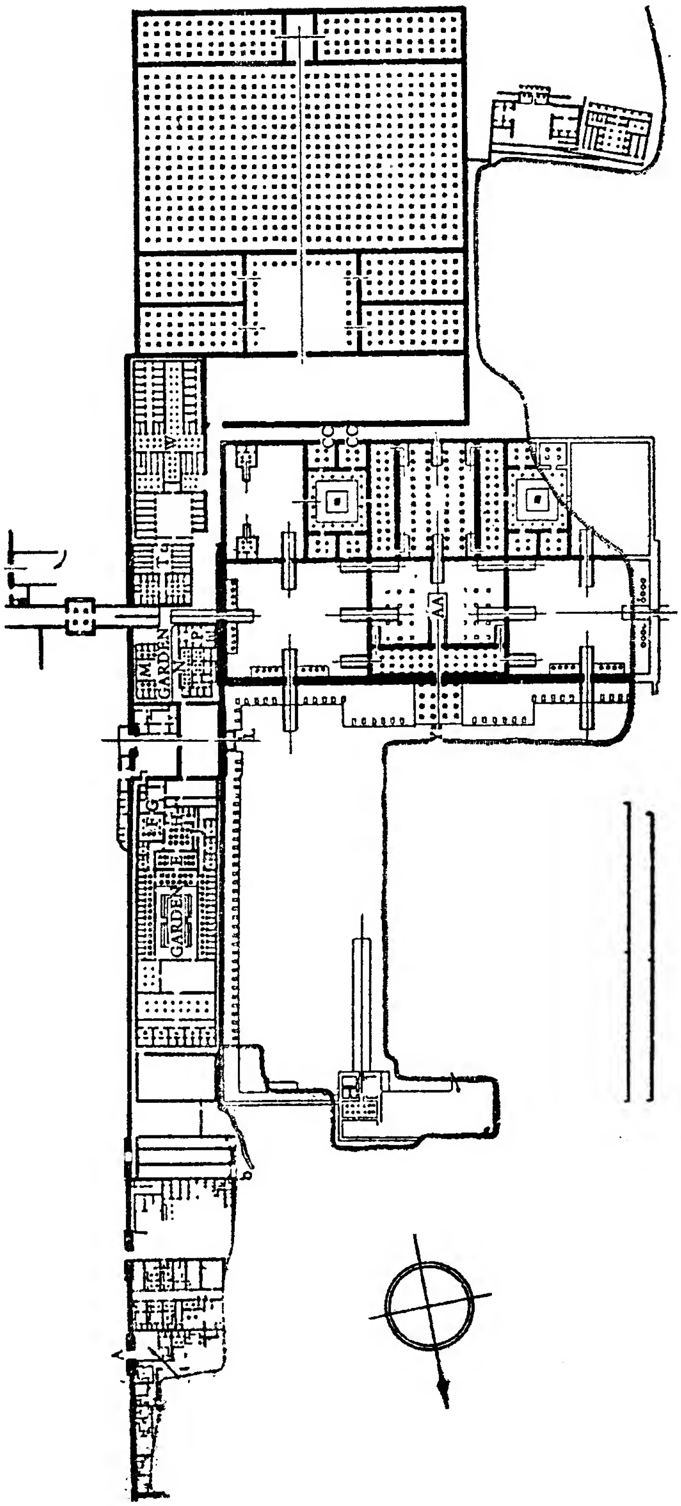
وإلى الشرق من القصر حفر الملك فى أواخر السنة الحادية عشرة من حكمه بحيرة كبيرة ؛ وسجل نبأ ذلك على مجموعة من الجعلان ، وبذلك سبق ما يعرف بالنقود والطوابع التذكارية فى الوقت الحاضر بما يزيد على ثلاثة وثلاثين قرنا . وقد ذكر أن طول البحيرة ٣٧٠٠ ذراع وعرضها ٧٠٠ ذراع وأن حفرها تم فى خمسة عشر يوماً (١). فى هذه البركة كان الملك والملكة تى يتنزهان فى زورق فخم يسمى «لألاء أتن» .

وكان لأمنحوتب الثالث أيضا قصر فى منف ، وآخر فى مدخل الفيوم ، وربما قصر ثالث فى طيبة شرقى النيل .

وفى تل العمارنة كان القصر الملكى الرسمى يشغل مساحة كبيرة على شاطىء النيل ، تمتد من الشمال إلى الجنوب ٨٥٠ مترا (شكل ٢٧)(٢) .

(١) J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, II, 868 f.

(٢) J.D.S. Pendlebury, The City of Akhenaten III, pl. XIV.



(شكل ٢٧) القصر الملكى الرسمى فى تل العمارنة

وقد أمكن الكشف عن أكثر أجزائه . غير أن الحقول لاتزال تخفى مقدمته وجناحه الغربى . وكان يحيط به سور مزدوج ؛ تيسر المسافة بين جداريه لعدد من الحراس حراسته . ويقع مدخله فى الشمال ، ويظن أنه كان فى شكل بوابة كبيرة يكتنفها جوسقان ، ويعتمد سقف كل منهما على عدد من الأساطين . وكان المدخل يؤدى إلى ساحة عظيمة تحيط بها تماثيل كبيرة للملك والملكة تقرب من ضعف الحجم الطبيعى ، وتمثلهما جالسين على طول الجناحين وواقفين على طول الواجهة الداخلية . وكانت تماثيل الملك من حجر الجرانيت أو الكورتزيت ، وتماثيل الملكة من الكورتزيت . وكانت فى مؤخرة الساحة ثلاثة أبواب عالية يؤدى إلى كل منها أحدور صاعد ؛ وتعتبر من ملامح القصر غير العادية . وكان أمام الباب الأوسط الرئيسى جوسق صغير جميل بأساطين نخيلية ضخمة مذهبة ، تحليها رصائع من زجاج يتلألأ فى ضوء الشمس . وكان من وراء كل باب صفة يهبط منها أحدور يؤدى إلى فناء ، تصل بينه وبين كل فناء يجاوره ثلاثة أحادير . وكانت الأفنية الثلاثة تؤلف طريقاً من النيل إلى القنطرة المؤدية إلى مسكن الملك الخاص .

وكان فى جنوبى الفناء الأوسط أحدور صاعد يؤدى إلى بهو عظيم يعتمد سقفه على ثمانية وأربعين أسطوناً فى أربعة صفوف ، وكان يكتنفه بهوان طويلان ، فى كل بهو أربعة وعشرون أسطوناً فى صفين ، ثم بهوان مربعان ؛ تتوسط كل بهو منصة لتمثال أومائدة قربان ، وعن يمينه وشماله أربعة أبهاء صغيرة . وكان يؤدى كل من البهوين المربعين إلى فناء مستطيل يتصل بأحد الأفنية الثلاثة ، ويقوم فيه بناءان متقابلان ، يؤدى إلى كل منهما أحدور . ويتألف كل بناء من بهو ذى أربعة أساطين ، ومن ورائه قاعتان .

وفى أواخر عهد العمارنة أضاف الملك سمنخ كارع إلى القصر بهو التتويج ؛ وكان يشغل مساحة مستطيلة شاسعة ، ويتألف من

ثلاثة أقسام متتالية . وكان القسم الأول يشتمل على فناء تحيط به الأعمدة من ثلاثة جوانب ، وتكتنفه أربعة أبهاء ، فى كل بهو أربعون عمودا . ويشغل القسم الثانى بهو عظيم يعتمد سقفه على اثنين وثلاثين صفاً من الأعمدة، فى كل صف سبعة عشر عمودا . ويتألف القسم الثالث من قاعة فى الوسط يكتنفها بهوان ، فى كل بهو ستة وخمسون عمودا فى أربعة صفوف . وقد عثر بين الأعمدة على قطع من طلاء الجبس محلاة برسوم توحى بأنه كانت تحلى الأعمدة أغصان كروم ممثلة أوراقها فى السقف .

وكانت تشغل الجانب الشرقى من القصر من الشمال إلى الجنوب بيوت الخدم فبيوت الحريم فالمخازن . وكانت بيوت الخدم تقع فى عدة مجموعات تكتنف دهليزا طويلا من الشمال إلى الجنوب ، وكان مدخلها فى الشرق فى شكل صرح يؤدى إلى فناء مستطيل . ويتألف كل بيت من ردهة و قاعة معيشة وغرفة نوم ومرافق ودرج يؤدى إلى السطح .

وكان القسم الشمالى من بيوت الحريم يحيط بحديقة مستطيلة فى مستوى منخفض ، فى طرفها الشمالى حوض ماء ، وفى طرفها الجنوبى بئر ، ويظن أنه كانت تغطيها سقيفة . وكان يحف بجانبي الحديقة شجر ، ويكتنفها رواقان ممتدان ، يعتمد سقف كل منهما على صف من الأساطين فى الوسط وصف من أعمدة فوق سياج منخفض ؛ وكانت تشرف على كل رواق خمس عشرة قاعة صغيرة . وكانت تحلى الأعمدة والسياج صور من أجمل ما حفظ من الزمن القديم من أمثلة الفن الزخرفى على وجه الأطلاق .

وكان فى جنوب الحديقة رواق بصفين من الأساطين ، ومن ورائه أبهاء طليت أرضياتها بطبقة سميكة من الجبس ثم صورت عليها صور غاية فى الإبداع . وكان منها بهو بصفين من الأساطين

احتفظ بصور أرضيته غير أن أثما أتلفها (١) ، وقد نقل ما بقى منها إلى متحف القاهرة (صورة ٧) . ويتوسط الأرضية ممر تحليه صور أسرى مقيدين ، كان الملك يمشى عليها فيكنى ذلك عن انتصاره على أعدائه . وعن يمين ويسار بركة عامرة بأسماك ونباتات مائية ، تحوم فوقها طيور ، وتحف بها غياض البردى ، يرفرف فوقها بط برى ، وتقفز فيها عجول فى صورة طبيعية جميلة . ويطوف بها إطار من باقات الزهر بين قوائم تحمل صحافا ملأى بالأطعمة . وكان يحلى سافلة الجدران منظر خدم يكنسون ويرشون الأرض ويسرعون فى تهيئة الطعام (٢) .

وكان القسم الجنوبى من بيوت الحريم يحيط أيضاً بحديقة تكتنفها قاعات وقصر صغير . وكانت المخازن تتألف من عدة مجموعات ، ويتوسط كل مجموعة دهليز أو فناء ، أو تتقدمها صفة يعتمد سقفها على صفين من الأساطين .

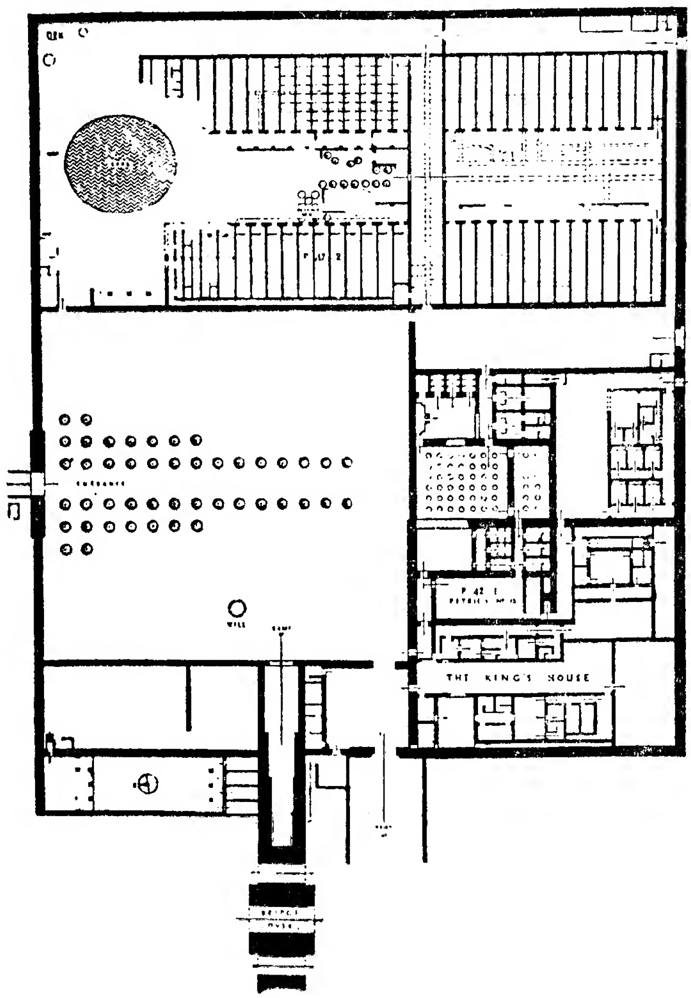
وكانت تصل القصر الملكى بالمسكن الخاص للملك قنطرة فوق الطريق الملكى ، يؤدى إليها من طرفيها أحدوران صاعدان ، ويعلوها جوسق يعتمد سقفه على أربعة أساطين ، وتحلى جدرانه صور أشجار وأزهار . وله نافذتان متقابلتان ، يظن أن الملك كان يتجلى منهما على أتباعه المخلصين (صورة ٨) . وكان قصر الملك يقوم على مرتفع وله حديقة كبيرة على ثلاثة مستويات ؛ بيد أنه لم يكن يزيد على صورة كبيرة لأحد بيوت عظماء رجال الدولة (شكل ٢٨). وكان من أهم أجزائه ردهة ذات صفين من الأساطين وقاعة معيشة كبيرة يعتمد سقفها على ستة صفوف ، فى كل صف سبعة أساطين ؛ وإلى الشرق منها محراب الأسرة ، ويتألف من مذبح من اللبن تؤدى

---

(١) F. Petrie, Tell el Amarna, pp 13-14, pls. II-IV.

(٢) F. Petrie, op. cit., p. 14, pl. V.

إليه بضع درجات ؛ ثم الجزء الخاص بالملك والملكة ويشتمل على غرفة نوم وحمام وقاعات أخرى صغيرة . وكانت غرف نوم الأميرات الصغيرات فى صفين ، فى كل صف ثلاث غرف تشرف على دهليز



(شكل ٢٨) بيت أخناتون فى تل العمارنة

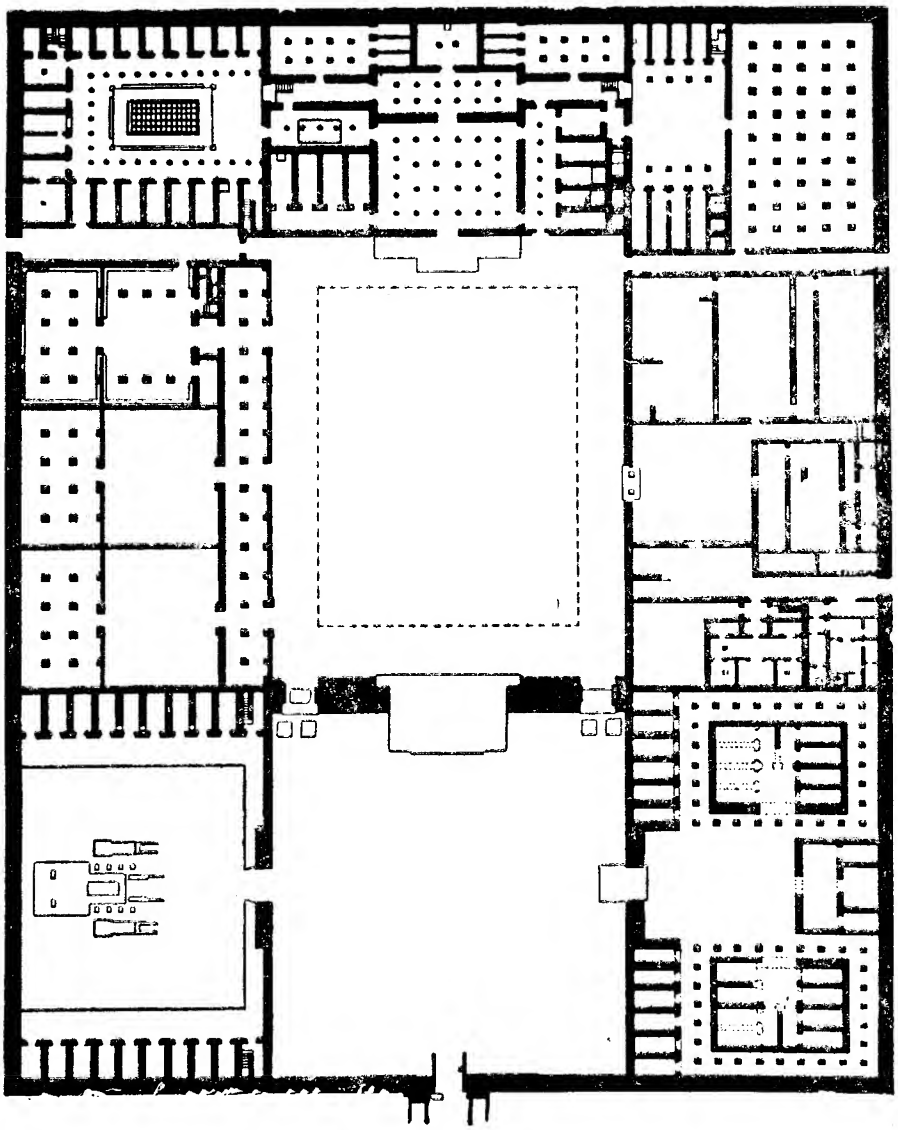
وكانت تحلى السقوف صور بط وطيور مائية أخرى تبسط أجنحتها . ومن صور الجدران ما كان يمثل مواكب من زنوج وليبيين وأسيويين فوق سافلة يحليها نباتا الجنوب والشمال متعاقدان كناية عن توحيد القطرين . وكان أهمها جميعاً صورة الأسرة المالكة ،

وفيها يجلس الملك على مقعد والملكة على حشية على الأرض ، وعلى فخذيها أصغر بناتها ، وبين الملك والملكة ابنتهما الكبيرة تحيط بذراعيها فى حنان أختين لها ، بينما تجلس على حشيتين على الأرض أختان أخريان تربت أحداهما على ذقن الأخرى (١) . وما بقى من هذه الصورة يدل على إبداع بلغ غاية الكمال فى تمثيل التفاصيل الدقيقة وحسن اختيار الألوان الحية للأساطين التى ترفع السقف ، والحشايا التى يجلس عليها بعض أفراد الأسرة المالكة ، ولأوانى الجعة والنبيذ وأغطية الكراسى الوثيرة ، حتى إنه لا يفوق جمالها جمال صورة أخرى . ولا تزال الألوان غضة كأنما نفض الفنان عنها يديه منذ قريب . وتوحى هذه الصورة وغيرها بأن الملك عاش فى هذا البيت مع الملكة وبناته حياة طبيعية لا تكلف فيها .

وفى الشرق كانت المخازن الملكية فى مجموعتين يفصلهما دهليز طويل . وتتألف كل مجموعة من قسمين بينهما فناء واسع تتوسط أحدها الأشجار ، وإلى اليسار بحيرة كبيرة مستديرة . ومن صور المخازن فى إحدى المقابر يتضح أنها كانت تحتوى على أقمشة وقدور نبيذ مختومة وصحاف وأكياس مليئة بمواد نفيسة وأوان من معادن ثمينة من صناعة أجنبية . وكانت الأطعمة من خبز وحبوب وسمك مجفف وتوابل تملأ ما يقرب من نصف المخازن .

وكان فى الشمال من العمارنة قصر آخر ذو طابع فريد ، كان أشبه بحديقة حيوان ، حيث كان الملك والملكة يستمتعان فيه بمشاهدة الحيوانات والطيور المختلفة (شكل ٢٩) . وكان محوره من الغرب إلى الشرق ، ومدخله يواجه النيل ، ويشتمل فى كل من طوله وعرضه على ثلاثة أقسام . وكان من أهم أجزائه ، عدا الهيكل والأبهاء والقاعات ومساكن موظفى القصر ، فناء تشغل معظمه بركة كبيرة

(١) Journal of Egyptian Archaeology, vol. 7 (1921), pl. II.



(شكل ٢٩) القصر الشمالى فى تل العمارنة

كانت تزخر فيما يبدو بأنواع مختلفة من السمك وطيور الماء ؛ وإلى اليسار منها حظيرة تتقدمها صفة وتتألف من ثلاثة أقسام ، فى كل قسم فناء وبهو أعمدة . وكانت تحلى المزاود من الحجر نقوش دقيقة لبقر ووعول وظباء . وكان فى أقصى القصر الى اليسار حديقة يحيط

بها من ثلاث جهات رواق وقاعات صغيرة تحلى جدرانها صور بديعة لطيور فى بيئتها الطبيعية ، ولذلك يظن أنه كانت تحفظ فيها طيور مختلفة . ومن أجمل هذه الصور ما يمثل غيضة بردى ولوطس حافلة بأنواع مختلفة من الطير تحلى ثلاثة جدران ويسود فيها اللون الأخضر مما دعا إلى تسمية المكان بالقاعة الخضراء(١) . فى هذا وغيره ما يكشف عن حب أخناتون للطبيعة وتقديسه الإله أتن لآلائه على الكون ، حتى لقد وصف هذا القصر بأنه تجسيم معارى لأنشودة الشمس التى ألفها الملك .

وفى أقصى المدينة من الجنوب كشف عن أطلال قصر آخر يتألف من قسمين ، يقع أكبرهما فى الشمال ، وكانت تشغله بحيرة كبيرة للنزهة ، لها مرسى مبنى من الحجر فى نهايته باب مزخرف ومحلى بنقوش ملونة ، يؤدى إلى درج يهبط إلى الماء . وكان فى الجانب الشرقى من هذا القسم « بهو الماء » يتوسطه صف واحد من الأعمدة ، نسق حول قواعدها صف من أحواض الماء تحلى حوافيها صور نباتات مائية بألوان زاهية ، تبدو وكأنها تبرز من الماء . وكانت تحلى أرض البهو صور نباتات شتى تأوى إليها أسراب من البط ، وأحراج بردى تقفز فيها العجول . وكان فى جنوب هذا البهو طريق تكتنفه أحواض الزهور ويؤدى إلى جزيرة يحيط بها الماء ، ومن فوقها جوسقان بينهما مقصورة من الحجر . وكان يتقدم القسم الجنوبى من القصر بهو واسع ذو قاعات تقوم فيها أساطين نخيلية مرصعة بالقاشانى . وكان من وراء البهو بحيرة كبيرة وأحواض زهور .

فى هذا القصر كان الملك يستمتع بالطبيعة وما يضفيه المعبود أتن على الأشجار والزهور وسطوح الماء من جمال . وهكذا كان

---

(١) H. Frankfort, The Mural Painting of el Amarnah, pls. II-IX ; N. de G. Davies, Ancient Egyptian Paintings II, pls. 75, 76.

للملك قصران فى شمال المدينة وجنوبها ، كان يستمتع فى أحدهما بمنظر الطير والحيوان ، وفى الآخر بالماء والزهر والشجر ، مما يدل على حب عارم بما فى مظاهر الطبيعة المختلفة من جمال وحسن ، ويتفق وما تفيض به الأنشودة التى تنسب إليه من إحساس مرهف بما يتجلى فى الطبيعة من مفاتن ومحاسن .

وتمتاز قصور العمارنة بزخارفها المختلفة ، ومن ذلك تحلية الأساطين بزخرفة نباتية ، ومنها أساطين تبدو وكأن الكروم تلتف حولها فى شكل طبيعى جميل ، وأخرى سطوحها غير منتظمة كأنها جذوع أشجار ، بينما يتدلى من غيرها بط ، ومن الأساطين النخيلية عراجين البلح . وكانت تحلى أوراق تيجان الأساطين البردية رصائع من قاشانى براق وزجاج ملون . وكان من الجدران ما يرصع بقراميد من القاشانى بألوان مختلفة ؛ منها ما يحليه زهر الأقحوان الأبيض على مسافات منتظمة ؛ ومنها ما تحليه صور أسماك وطيور ماء [1] . ومن السقوف ما كان يحليه ما يمثل عرش كرم تتدلى منه فيما يعتقد عناقيد من أحجام مختلفة من قاشانى أزرق . وفى هذا كله ما يدل على أن عمارة العمارنة كانت تمتاز بألوانها الزاهية البراقة ورصائعها من القاشانى والزجاج . وقد كان فى المدينة مصنعان كبيران للزجاج والقاشانى عدا مصانع أخرى كثيرة .

ولا تكاد تخلو مقبرة من مقابر عظماء الأفراد فى العمارنة من صورة أو أكثر على بعض جدرانها لأحد القصور الملكية ، اعتمد فيها الفنانون المصريون على ذاكرتهم ، ويجمع الرسم الواحد بين المخطط الأفقى والقطاعات والمساقط الرأسية . ولا تلتزم القطاعات فى الرسم الواحد وجهة نظر واحدة من جانب ثابت ، وإنما كثيرا

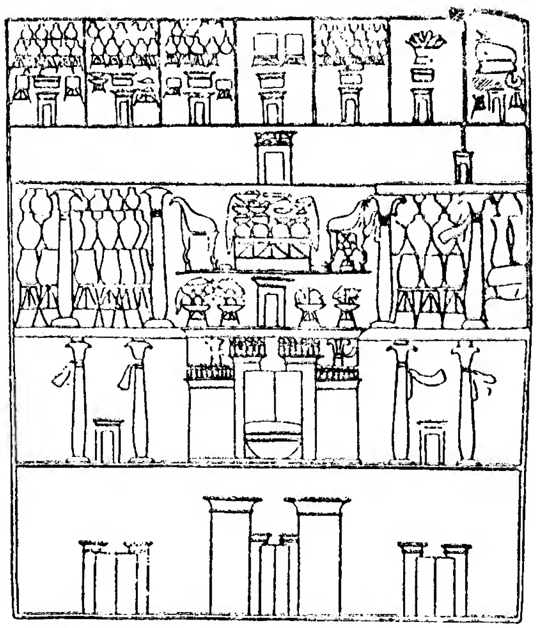
---

(١) H. Frankfort, J.D.S. Pendlebury, The City of Akhenaten, Part II, pl. XXX, 3 ; J.D.S. Pendlebury and others, The City of Akhenaten, Part III, pls. 62, 72, 76.

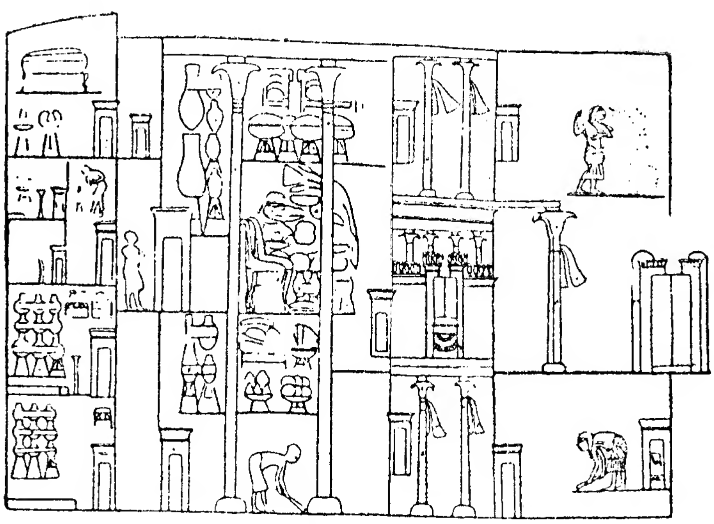
ما يكون لكل عنصر هام قطاع يمتد على المخطط فى مواجهة الناظر (١) . علاوة على ذلك تختلف فيما بينها رسوم المبنى الواحد باختلاف الفنانين ، فمن الأجزاء ما مثله الفنان فى رسم مبسط ؛ ومنها ماتركه لعدم أهميته فى نظره أو رغبة فى إبراز بعض العناصر على غيرها دون تقيد بالعلاقة المكانية . ومن القاعات ما غير أماكنها لضيق مساحة الرسم ، كما أن من الحالات ما يبدو أنه أضاف فيها جزءا يماثل جزءا آخر رغبة فى أن يكون المخطط متماثلا ، أو لغير ذلك من أسباب . لذلك ليس من المستطاع الاعتماد على هذه الرسوم وحدها فى استخلاص مخطط دقيق ؛ بيد أنها تجمع فيما بينها عناصر مشتركة تدل على أن الفنان استوحاها من الأصل بقدر ما وعته ذاكرته ويسرته أساليبه الفنية ، ولم تكن من وحى الخيال . ومع ذلك كله لا يكاد كل رسم يتجاوز كثيرا تعداد قاعات القصر وأجزائه المختلفة . والأبواب من أهم العناصر الممثلة فى هذه الرسوم ، وذلك لأهميتها ، إذ هى عنوان القاعات والأبهاء .

وأهم الرسوم جميعاً وأشهرها رسمان فى مقبرة مرى رع أحد كبار كهنة المعبود أتن ؛ وأحدهما يمثل القصر من أمام (شكل ٣٠) ، والثانى من الجانب (شكل ٣١) . وتقع فى كل منهما القاعات جنباً إلى جنب أو يعلو بعضها بعضاً حسب طريقة الرسم المصرية . ويتفق الرسمان كثيرا فى أجزائهما الرئيسية ، وإن كانت بينهما خلافات طفيفة ترجع إلى طبيعة كل منهما . ويبدو منهما أنه يحيط بالقصر جدار خارجى أحدب فى أعلاه . ويتقدم القصر فناء فسيح يؤدى إليه مدخل رئيسى كبير فى الوسط ومدخلان جانبيان متماثلان . ويتألف المدخل

(١) رسم الفنان المصرى البيوت فى مخطط أفقى يشتمل على الأبواب فى مسقط رأسى على نقيض ما يجرى عليه الرسامون فى الوقت الحاضر اذ يتركون مكان النوافذ والأبواب خال فى المخطط الأفقى ويخصصون لها رسوما مستقلة يمثلونها فيها فى مساقط رأسية . وما من ريب فى أن الرسام المصرى القديم كان يرى فى أسلوبه ما يتفق والمنطق وزخرفة الجدار الذى يحليه برسومه . وليس يخفى أن ترك مكان الأبواب خال فى المخططات الأفقية هو فى حقيقة الأمر صدع فى الخط المرسوم ، وأنه فراغ لاشكل له ولا موضوع .



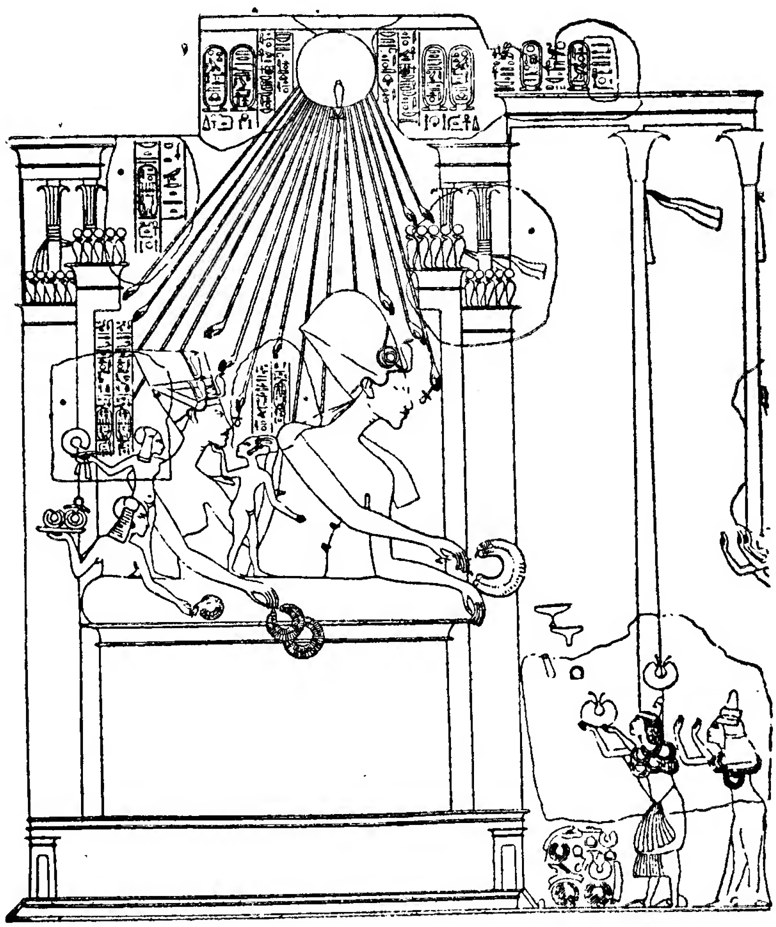
(شكل ٣٠)قصر أخناتون من أمام – من مقبرة مرى رع



(شكل ٣١) قصر أخناتون من الجانب – من مقبرة مرى رع

الرئيسى من عضادتين كبيرتين يبرز فى أعلى كل منهما جزء يتوجه الكورنيش المصرى ، وبينهما عضادتان أخريان يشبهانهما ولكنهما

أقل ارتفاعاً ، ويعتمد عليهما مصراعا الباب ؛ وبذلك كان المدخل مفروقاً فى أعلاه .



(شكل ٣٢) نافذة التجلى

ويتوسط واجهة القصر ما يعرف بنافذة التجلى ، التى كان يشرف منها الملك وحده أو مع الملكة وبناتهما على من يتجمع من الرعية فى فناء القصر لمكافأتهم بالعقود والهدايا النفيسة (شكل ٣٢)(١) . وهى نافذة بين عضادتين يعلوهما عتب مفروق وبينهما مصراعا النافذة

(١) U. Hoelscher, Erscheinungsfenster und Erscheinungsbalken im koeniglichen Palast, Aeg. Z. 67, S. 43 ff.

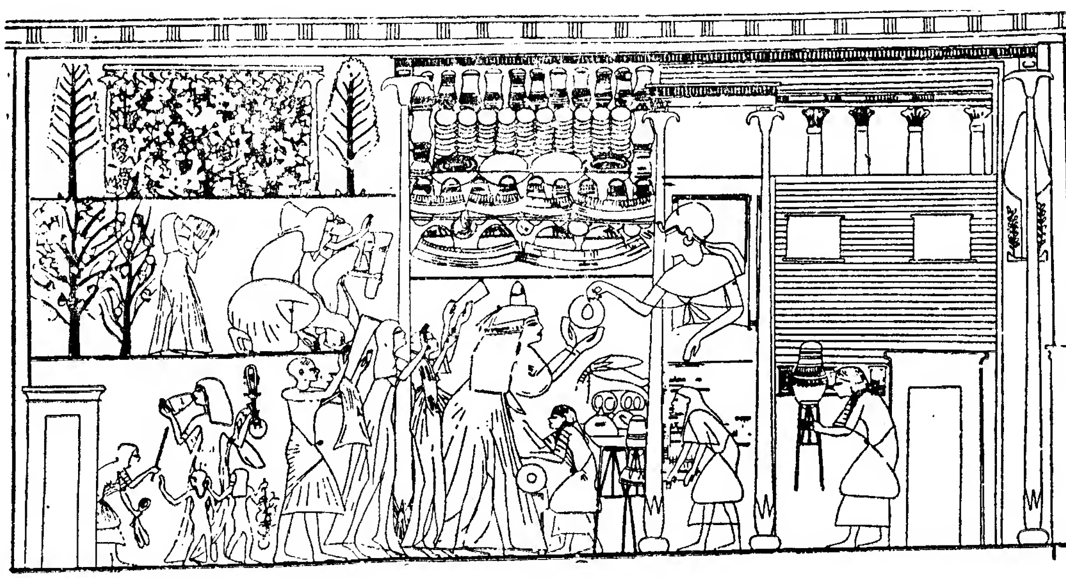
وعلى قاعدتها حشايا ملونة. وتتقدم النافذة صفة من أسطونين وربما من ثمانية أساطين على طول واجهة القصر. وعن يمين نافذة التجلى ويسارها مدخلان.

ويتألف القصر من ثلاثة أقسام متتالية ؛ ويحتوى القسم الأمامى على بهو استقبال ذى أربعة أساطين، رسمها الفنان تارة على جانبى نافذة التجلى، وتارة أخرى من فوقها ومن تحتها. ويكتنف البهو ردهتان، يدل عليهما البابان عن يمين نافذة التجلى ويسارها. ويشتمل القسم الأوسط على بهو ذى أربعة أساطين رسمها الفنان تارة فى اليمين واليسار، واكتفى تارة أخرى برسم أسطونين عاليين. وفى أحد الرسمين كنى الفنان ببابين جانبيين عن قاعتين جانبيتين. ويضم القسم الخلفى دهليزا طويلا تقع عليه ردهة تؤدى إلى غرفة النوم كما تقع عليه غرف الخزين. ويعلو سقف غرفة النوم خط منحنى مما قد يشير إلى أنه كان يعلو بقية السقوف وأنه كان مقبيا ؛ على أنه ربما يمثل ملقفا يتلقى نسيم الشمال. وقد غض الفنان النظر عن تمثيل مرافق غرفة النوم، بينما مثل أكثر غرف الخزين ملأى بالأطعمة وأوانى النبيذ وغيرها كناية عن وفرة الطعام والشراب فى القصر الملكى.

ومن الصور فى مقابر أخرى ما يدل على أن القسم الخلفى من القصر يحتوى على قاعة معيشة مربعة ذات أسطونين أو أربعة، وتكتنفها قاعتان، ومنها ما تعتمد فيه السقوف على أساطين بردية تتدلى منها شرائط، أو على أساطين نخيلية يتدلى منها بط باسط جناحيه. ومن القاعات ما ترجل فيها إحدى نساء الحريم شعر صاحبتها أو تأكل أو تعزف أو ترقص.

ومهما يكن من أمر فليس من اليسير التوفيق بين هذه الرسوم وبين ما كشف عنه من قصور العمارنة، ولعلها إنما تمثل قصرا آخر.

ومن رسوم مقبرة مرى رع أيضا ما يمثل فناءين تحيط بهما الأشجار ،وتتخلل الفناء الأول عدة صروح متتالية وافنية متداخلة . وتحيط به مخازن كثيرة ، بينما تتوسط الفناء الثانى بركة كبيرة تحيط بها الأشجار (صورة ٩ أ) . وليس من اليسير علينا الآن تصور جمال هذا المبنى وفخامته إلا إذا رسم حسب قواعد الرسم المنظور (صورة ٩ ب) .



(شكل ٣٣) بيت حريم الملك آى

ومن صور إحدى مقابر طيبة ما يمثل بيت حريم الملك آى وسط حديقة كرم وأشجار فاكهة (شكل ٣٣) (١) . وتتقدمه صفة يعتمد سقفها على أسطونين برديين سامقين يعلوهما عتب فى شكل الكورنيش المصرى ، وتطل عليها نافذة التجلى من طراز العمارنة بين أسطونين يعلوهما عتب يضاهي عتب الصفة . ويحيط بالنافذة إفريز من مستطيلات ، وتحلى سافلتها شرائط أفقية من ألوان مختلفة ،

(١) N. de G. Davies, The Tomb of Nefer-hotep at Thebes, pl. I.

ويبدو من جانب البيت أنه كان من طابقين تعلوهما سقيفة من أربعة أساطين نخيلية ؛ ومع ذلك قد تكون هذه الأساطين أساطين بهو فى الطابق الثانى رسمها الفنان فى مستوى أعلى لتبيانها كعادته فى بعض الأحيان . ويجمع هذا البيت بين نافذة التجلى من طراز العمارنة وبين طراز بيوت طيبة ذات الطوابق .

قصور الرعامسة

اندثرت قصور سيتى الأول ورمسيس الثانى ، على أن ما كشف عنه فى قصرهما فى قنطير جنوبى تانيس (صان الحجر) يدل على أنه كانت تحلى أطر مداخله وجدران بعض قاعاته ودرجه ومنصات عروشه قراميد من القاشانى عليها صور جميلة لأزهار وطيور فى خمائل ونساء وأسرى [١] . ويبدو أيضا أنه كانت تحلى السقوف والأساطين رسوم وصور مختلفة بألوان زاهية .

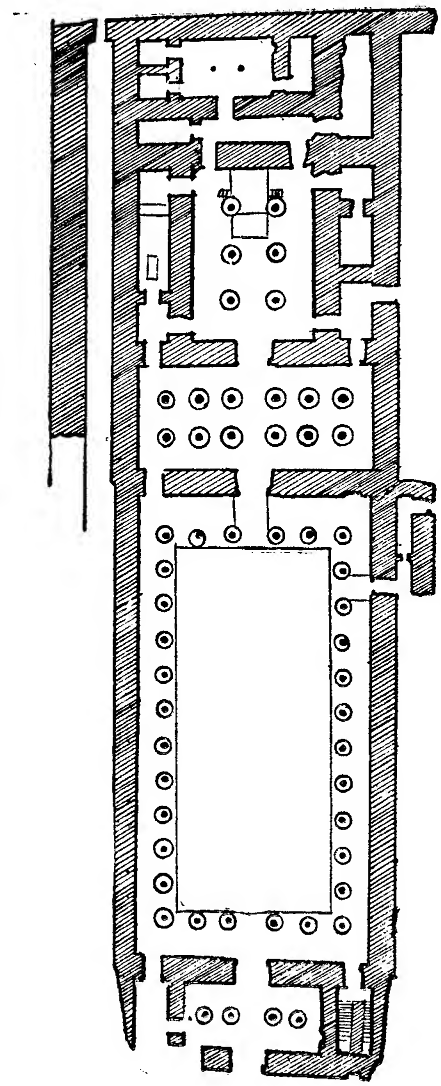
وفى منف كشف عن أطلال قصر للملك مرنبتاح ، يتألف مدخله من ردهة ذات أربعة أساطين فى صف واحد ، تكتنفها قاعتان فى إحديهما درج (شكل ٣٤)[٢] . ومن وراء ذلك فناء عظيم مستطيل (٤٨ × ٢٥ مترا) تحيط به الأساطين . ويشتمل القصر على ثلاثة أقسام ؛ يشغل القسم الأمامى بهو مستعرض يقوم فيه إثنى عشر أسطونا فى صفين . ويشمل القسم الأوسط قاعة عرش وقاعات جانبية ودرج يؤدى إلى السطح ؛ وتمتد قاعة العرش على المحور الأساسى للقصر

---

(١) M. Hamza, Annales du Service des Antiquités XI (1911), 49 ff.; W.C. Hayes, Glazed Tiles from a Palace of Ramses II at Kantir (Metrop. Mus. of Art Papers, No. 3).

(٢) C.S. Fisher, Egyptian Expedition; Memphis, Museum Journal, University of Pennsylvania, 8 (1917), p. 221 ff.; H. Ricke, Der Grundriss des Amarna— wohnhauses, S. 63-8.

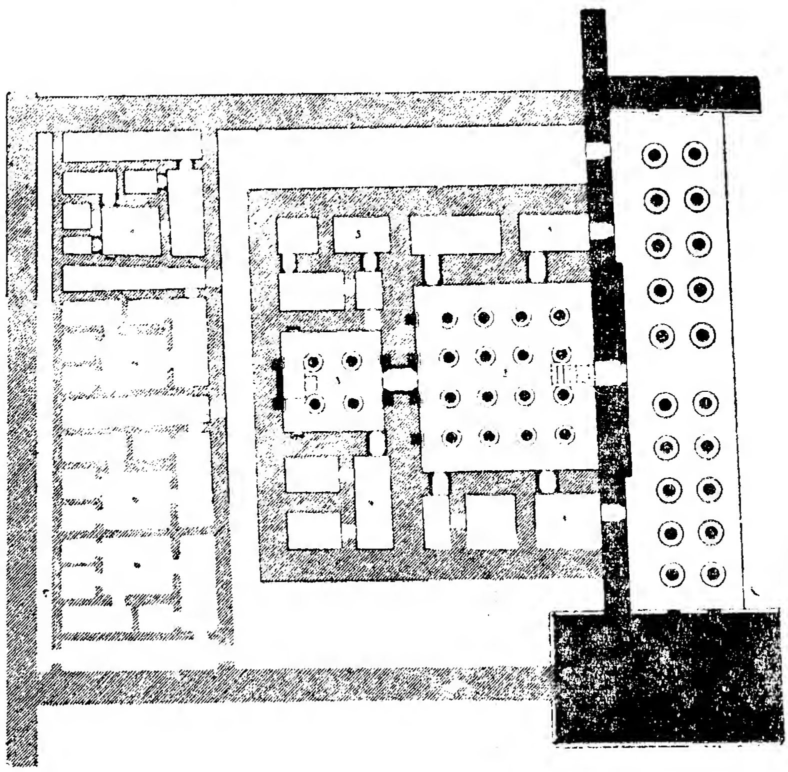
وفيها ستة أساطين فى صفين (صورة ١٠) . ويبدو أن إحدى القاعات الجانبية كانت تؤدى إلى مبنى آخر لعله كان بيت الحريم . وكان القسم الخلفى يحتوى على القاعات الخاصة ، وتشمل قاعة معيشة وغرفة نوم ذات مشكاة للسرير ، وحمام وقاعات أخرى.



(شكل ٣٤) قصر الملك مرنبتاح فى منف

ومن القصور الملكية ما ألحق ببعض المعابد الجنازية فى غربى طيبة ، بيد أن كلا منها كان قصراً صغيراً ينزل فيه الملك مع بعض نسائه إبان

الأعياد والاحتفالات التى كانت تؤدى فى المعبد ، بينما كانت إقامته الدائمة فى البر الشرقى فى طيبة أو فى العاصمة الجديدة بررعمسس فى اقصى الشمال . وبذلك كانت هذه القصور على صلة واضحة بالمعابد الجنازية ، على أنه لاتخفى صلتها بالبيوت ؛ وقد تهدمت جميعها ولم يبق منها غير آثار ضعيفة أمكن بها ترسم تخطيطها .

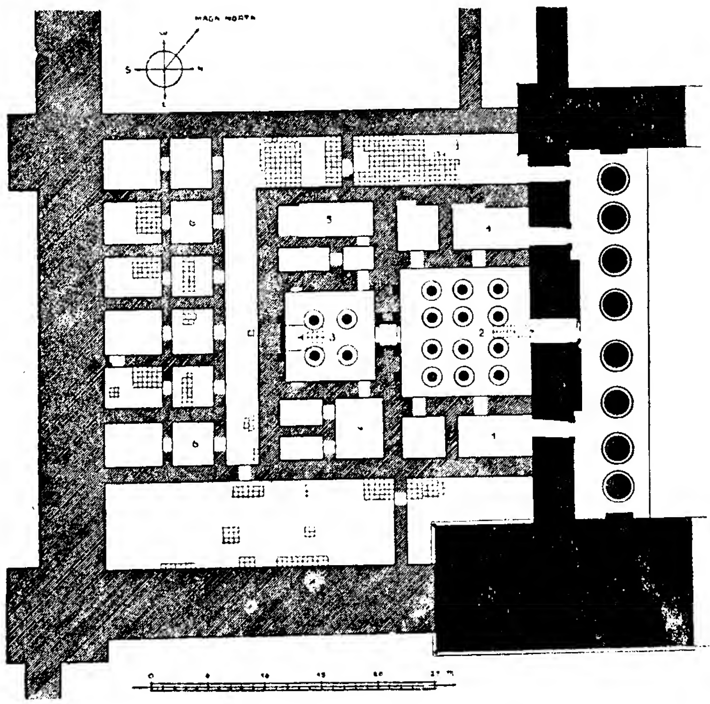


(شكل ٣٥) قصر رمسيس الثانى فى الرمسيوم

وتدل أطلال قصر رمسيس الثانى الذى كان ملحقاً بمعبده الجنازى ، الرمسيوم ، فى غربى طيبة ، على أنه كان يتألف من بهو استقبال ذى ستة عشر أسطونا فى أربعة صفوف ، وفى واجهته نافذة التجلى ، وتليه قاعة العرش تتوسطها أربعة أساطين فى صفين (شكل ٣٥)(١) .

(١) Uvo Hoelscher, The Mortuary Temple of Ramesses II, I, Oriental Institute Publications, vol. 54, p. 71.

وتكتنف بهو الاستقبال وقاعة العرش عشر قاعات جانبية . ومن وراء القصر دهليز مستعرض طويل تشرف عليه أربعة بيوت للحريم يتألف كل منها من دهليز وردهة وخمس قاعات.



(شكل ٣٦) القصر الأول لرمسيس الثالث فى مدينة حابو

وشيد رمسيس الثالث قصرا له بجانب معبده الجنازى ، مدينة حابو ، فى غربى طيبة ، ثم هدمه وأعاد بناءه على نسق مختلف ، وبفضل ما تبقى من آثار القصرين تيسر الإحاطة بكثير من تفاصيلهما . وكان كل منهما من اللبن فيما عدا أطر الأبواب وعتبها والأساطين وقواعدها وعتبها ودعائم الجدران ، فقد كانت كلها من الحجر . ويشبه القصر الأول (شكل ٣٦)[١] فى تخطيطه كثيراً قصر رمسيس الثانى الذى كان ملحقا بمعبده الجنازى (شكل ٣٥) . وكان صف

(١) نفس المرجع صفحة ٣٧ وما بعدها

الأساطين فى جنوب الفناء الأول للمعبد يؤلف صفة ذات تيجان على شكل زهرة بردى يانعة أمام القصر ؛ وكان الجدار الجنوبى للفناء ذاته يكون واجهة القصر ؛ وبذلك كان القصر يواجه الشمال. ويبرز الجزء الأوسط من الواجهة قليلا إلى الأمام تتوسطه نافذة التجلى ، التى يبلغ ارتفاعها عن الأرض نحو مترين ، ولاتزال تزينها نقوش تحتفظ ببعض ألوانها البهيجة (صورة ١١) . ويعلوها صف من صلال من فوقه الشمس المجنحة تتوج ألقاب الملك وأسمائه ، وتكتنفها صورتان تمثلان رمسيس الثالث يقبض بإحدى يديه على شعور أسرى. وكان الملك فى الاحتفالات الدينية والمناسبات المختلفة يقف فى نافذة التجلى معتمداً على حشايا لينة ، يطل على مواكب الاحتفالات ويشاهد ما كان يؤدى فى فناء المعبد من مشاهد ومباريات[١] ، وقد جاء فى نقوشها أنه يبدو منها فى قصره كشمس الصباح . وتبرز أرضية النافذة قليلا معتمدة على ستة رءوس أسرى منحوتة فى الحجر ، وفى كل من يمينها ويسارها سبعة رءوس أخرى ، وبذلك كان الملك يبدو وكأنه يقف على أجساد أعدائه كناية عن انتصاره عليهم . ومن دون ذلك رمز توحيد القطرين يكتنفه عن يمين ويسار جند يتبارون بالعصى مما يسجل بعض ما كان يؤدى فى الفناء من مباريات ويشبه ما يؤديه أهل الصعيد فى حفلاتهم فى الوقت الحاضر .

وكان القسم الأمامى من القصر يشتمل على بهو استقبال كبير ذى إثنى عشر أسطونا نخيليا فى ثلاثة صفوف (صورة ١٢) ؛ وفى مقدمته بضع درجات على محور القصر تؤدى إلى نافذة التجلى ؛ وفى كل من جانبيه ردهة تؤدى إليه . ويحتوى القسم الأوسط على قاعة عرش

---

(١) جاء فى نموذج رسالة على لسان حاكم كوش (النوبة) إلى أحد مرءوسيه يحثه فيها على جمع الجزية ويذكره بذلك اليوم الذى تؤدى فيه وهو يمضى بها أمام الملك فى الشرفة وعظماء رجال الدولة على الجانبين ووفود جميع البلاد ينظرون فى دهشة إلى ما يعرض منها A. Erman, Die Literatur der Aegypter, S. 263 f. ، انظر أيضاً نفس المرجع صفحة ٢٨١

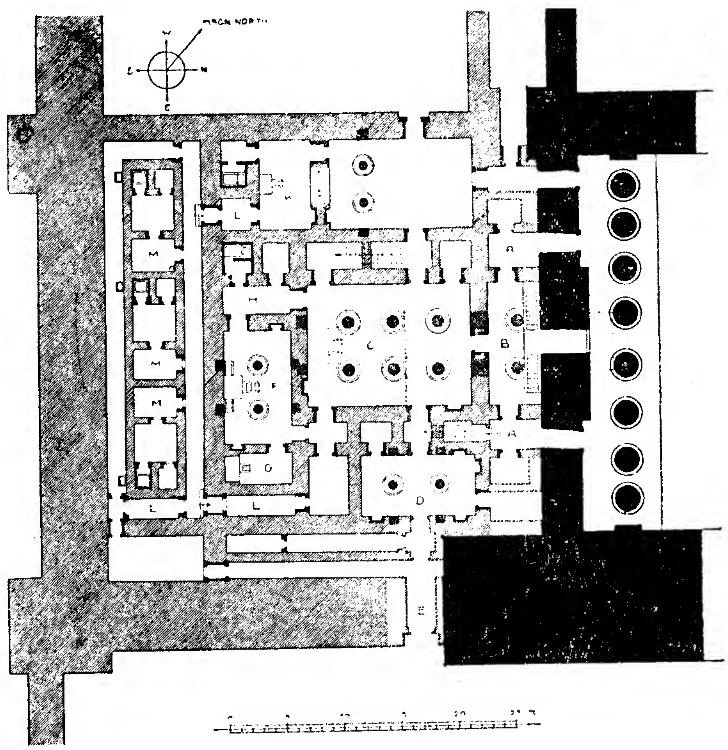
مربعة يعتمد سقفها على أربعة أساطين فى صفين ، ذات تيجان نخيلية فيما يظن ، وفى مؤخرتها منصة تؤدى إليها بضع درجات ، وتحلى جوانبها صور أسرى أسيويين ونوبيين مقيدين . وكان من وراء المنصة باب وهمى مزدوج مقوس أعلاه ومحلى بكثير من الزخارف وعليه صورة الملك فى نقش بارز تمثله وكأنه يخرج من الباب[1] . ويظن أن الملك كان يستقبل خاصة كبار الموظفين ورجال البلاط فى قاعة العرش ، بينما يبقى غيرهم فى قاعة الاستقبال . وكان سقف كل من القاعتين يتكون من عقود متجاورة من اللبن فى امتداد محور القصر من الشمال إلى الجنوب ، وهو المثل الوحيد المعروف فى العمارة المصرية لبهو أساطين بسقف مقبى . وتكتنف قاعة العرش ست قاعات ، منها غرفة نوم الملك فى أقصى الغرب تتقدمها قاعتان صغيرتان . ومن وراء القصر دهليز مستعرض طويل تطل عليه ستة بيوت للحريم ، يتألف كل منها من قاعتين متتاليتين .

ويختلف القصر الجديد (شكل ٣٧ أ و ب) فى تخطيطه عن القصر القديم ، فقد نزعت جدران نافذة التجلى وأقيمت مكانها شرفة من خشب ، ذات أساطين رفيعة ، فوق قاعدة مرتفعة من الحجر تبرز فى صفة فناء المعبد ؛ وكانت تحلى الشرفة فيما يعتقد زخارف مذهبة جميلة ورصائع بألوان مختلفة .

ويتألف القسم الأمامى من القصر الجديد من ردهة ضيقة ذات أسطونين لاتسمح سعتها بالظن بأنها كانت بهو استقبال ، وإنما كانت مدخلا لقاعة العرش وللشرفة ؛ وتكتنفها ردهتان لكل منها قاعة جانبية لحارس . ويشتمل القسم الأوسط على قاعة عرش كبيرة ذات ستة أساطين فى صفين ، وكان سقفها أعلى من سقوف ما يكتنفها من قاعات مما سمح بإقامة شبابيك فى أعلى جدرانها . ويشتمل القسم

(١) عن الباب الوهمي انظر صفحة ٣٧١

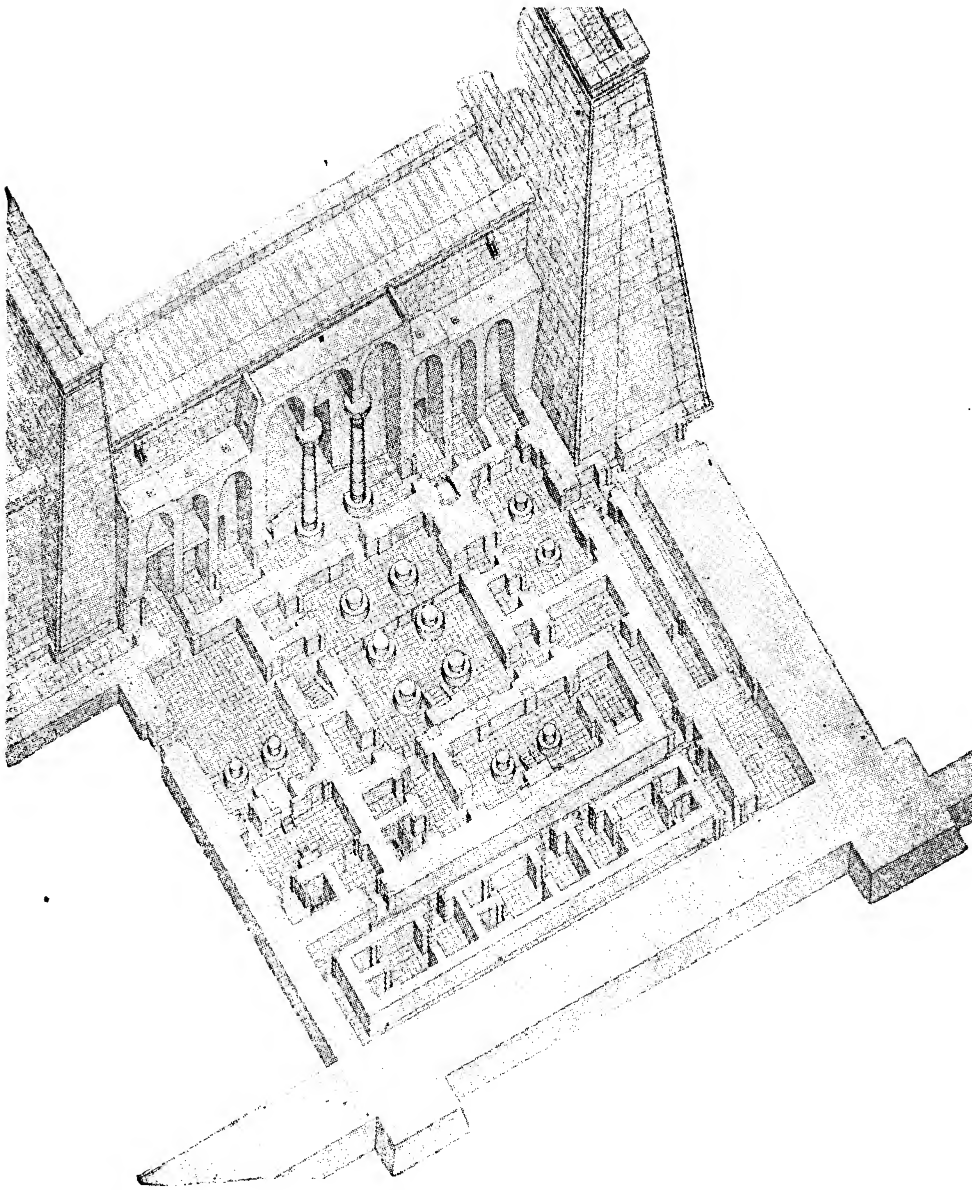
الخلفى على سكن الملك الخاص ؛ ويتألف من قاعة معيشة ذات أسطونين ، وفيها منصة جميلة من المرمر المصرى تؤدى إليها ثلاث درجات ، ومن غرفة نوم ذات مشكاة للسرير . وقاعة الزينة وحمام وكنيف .



(شكل ٣٧ أ) القصر الثانى لرمسيس الثالث فى مدينة حابو

وفى الغرب من قاعة العرش فناء كبير فى مؤخرته صفة ، من ورائها قاعة فيها منصة من المرمر كان الملك يجلس فوقها يحيط به حريمه ، وربما كان ومن يحيط به يشاهدون خلال نافذة كبيرة فى جدار الصفة ما قد يؤدى فى الفناء من رقص وألعاب .

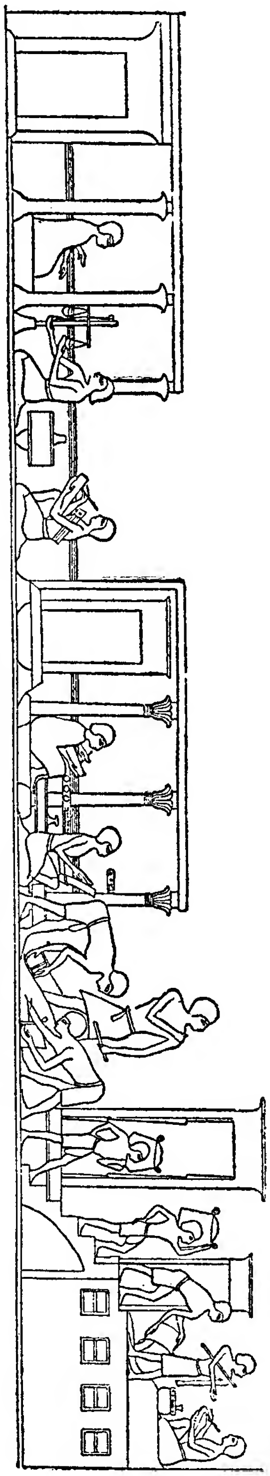
ومن وراء القصر دهليز مستعرض طويل يقع عليه القسم الخاص بالحريم ؛ ويتألف من ثلاثة بيوت ، يحتوى كل منها على ردهة وقاعة معيشة وقاعتين ، إحداهما حمام وكنيف والأخرى قاعة الزينة ، فيما يبدو ، على نحو ما كان فى بيوت الحريم فى قصر أمنحوتب الثالث .



(شكل ٣٧ ب) القصر الثانى لرمسيس الثالث فى مدينة حابو – منظور

وتقع بيوت الحريم الثلاثة جنبا إلى جنب تحيط بها جميعا دهاليز من كل جانب . ويلوح أنه لم يكن للملكة مكان فى هذا القصر . وكانت إلى الغرب من القصر حديقة تتوسطها بئر . ومما عثر عليه من شبابيك يتضح أنها كانت من حجر رملى تتخللها طرر ملكية وصقور

ورموز هيروغليفية (صورة ١٣) . وفيما حفظ من أطر الأبواب الهامـــة ما يدل على أن منها ماكان محلى بزخارف من الجبس مذهبة ، ومنها ماكان مرصعا بقاشانى وزجاج ملون على طراز الفسيفساء ويصور أسرى أسيويين وزنوج ، مثلت ألوان أجسامهم وملابسهم فى صدق[١] . وقد عثر على ما يماثل ذلك فى أطلال قصر آخر لهذا الملك فى تل اليهودية جنوب شرقى شبين القناطر .



(شكل ٣٨) من مكاتب ادارة الاقليم السادس عشر فى الصعيد

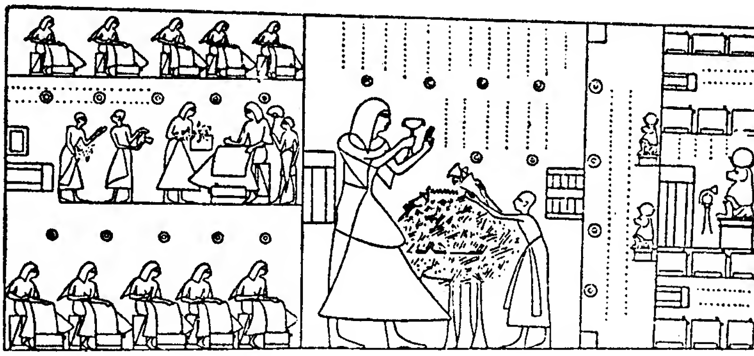
مكاتب الادارة

كانت تقوم فى العاصمة والبلاد الرئيسية مبان عديدة للإدارات الحكومية المختلفة ، بيد أنها اندثرت جميعا ولم يبق منها ما يدل عليها . على أن مما حفظ من رســوم الدولة الوسطى ما يمثل مكتبين من مكاتب إدارة الاقليم السادس عشر من أقاليم الصعيد ؛ أحدهما بيت المال توزن فيه أشياء ثمينة ويسجلها أحد الكتبة ، بينما تكال فى المكتب الآخر الغلال ثم تخزن فى مخازنها (شكل ٣٨) .

ويغلب على الظن أن كل مكتب يتألف من صفة وقاعة اكتفى الفنان برسم بابها . ومن رسوم الدولة الحديثة ما يمثل مبنى وثائق القصر

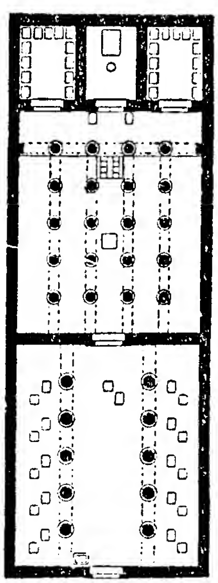
(١) Daressy, Plaquettes émaillées de Medinet Habou, Annales du Service des Antiquités XI (1911), 49 ff. ; U. Hoelscher, Gessodekorationen, Intarsien und Kochelbekleidungen in Medinet Habu, Aeg. Z. 76 (1931), 43-51.

الملكى فى عهد الرعامسة (شكل ٣٩ أ و ب) [١] . وهو يشتمل على قاعة رئيسية ، تدعم سقفها عشرة أساطين فى صفين ، وفيها مقاعد مرتفعة يجلس عليها الكتبة ، وقد نشر كل منهم بردية على نضد أمامه . ويليها بهو تتخلله أربعة صفوف من الأساطين ، ويؤدى منه



(شكل ٣٩ أ) مبنى الوثائق الملكية كما رسمه المصريون

درج يتوسطه أحدور إلى دهليز يتقدمه صف من الأساطين ، وتطل عليه ثلاث قاعات . ويكتنف مدخل القاعة الوسطى تمثالان للأله تحوت فى صورة قرد ، وبداخلها تمثال آخر أكبر حجما ومن أمامه مائدة قربان . أما القاعتان الجانبيتان فتحتويان على صناديق تشتمل على الوثائق .



(شكل ٣٩ ب) مبنى الوثائق الملكية ـ مخطط حديث

وفى حرم المعبد الجنازى لرمسيس الثالث كشف عن مبنيين لأدارة المعبد ويتألف كل منهما من بهوين تحيط بهما قاعات صغيرة .

(١) L. Borchardt, Das Dienstgebaeude des Auswaertigen Amtes Unter den Ramessiden, Aeg. Z. 44, S. 59 ff.

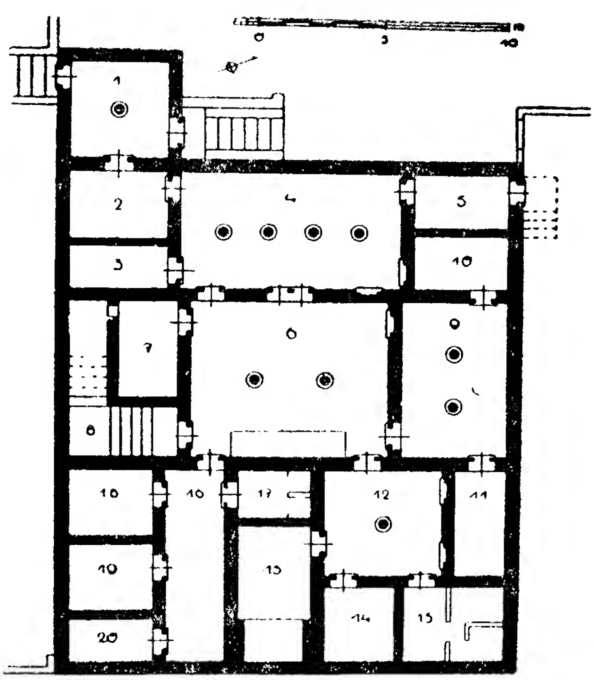
بيوت الأفراد

اندثرت كذلك بيوت الأفراد من عهد الدولة الحديثة فيما عدا ما كشف عنه فى تل العمارنة ودير المدينة ؛ على أن من الصور على جدران بعض المقابر ما يمثل بيوتا مختلفة ، وهى جميعا تعين كثيرا فى التعرف على عمارة البيوت فى ذلك العهد . وقد كانت العمارنة ذات مساحة كبيرة ولم يسبق البناء فيها ، لذلك كان فى الأمكان بناء البيوت حسب رغبة أصحابها : حتى يمكن اعتبار بيت العمارنة البيت المصرى المثالى إلى حد كبير . وهو وإن كان يعرفنا بالبيت المصرى فى عهد أخناتون إلا أنه يمثل أيضا البيت الكبير فى ريف مصر على الأقل قبل عهد العمارنة ، ذلك لأنه لا سبيل إلى الظن بأنه كان فى الأمكان فى عهد العمارنة الوجيز ابتداع طراز للبيت جد مختلف عن الطراز القديم على ما عرف عن المصريين من شدة محافظة على تقاليدهم .

وبيوت العمارنة من طابق واحد ، وذلك لاتساع رقعتها كما ذكرنا وعدم اكتظاظها بالمبانى . وتدل بيوتها على أنها بنيت حسب تخطيط مدروس ونهج متسق . وهى كلها مبنية باللبن ولم يستخدم فيها الحجر إلا قليلا ، وذلك فى أطر الأبواب وعتبها وقواعد الأساطين . وتشغل بيوت عظماء الأفراد مساحات كبيرة مربعة اختاروها فى أحسن المواقع على الشوارع الرئيسية . ويقوم كل منها فى الغالب على قاعدة منخفضة من اللبن ، وواجهته عادة نحو الشمال . وتختلف البيوت الكبيرة فيما بينها من حيث سعتها ونظام قاعاتها ، ومع ذلك فأكثرها من طراز واحد (شكل ٤٠) يتميز بوضوحه وانتظام قاعاته فى وحدة متسقة ترضى حاجيات أصحابها ومطالبهم ، بل إنها لترضى مطالب الانسان الثرى فى العصر الحاضر(١) .

(١) H. Ricke, Der Grundriss des Amarna — wohnhauses.

ويتألف هذا الطراز من ردهة وثلاثة أقسام . وتقع الردهة أمام جانب من واجهة البيت ؛ وهى مربعة تقريبا يؤدى اليها درج أو أحدور يتوسطه درج ؛ وقد يعتمد سقفها على أسطون أو أسطونين إذا كانت من مساحة كبيرة وذلك فى حالات قليلة . وقد تتقدم الردهة سقيفة تظل من يقف بالباب وتميز المدخل الرئيسى . وكان يحيط بالمدخل إطار من حجر نقشت فى أعلاه صورة صاحب البيت ، تمثله راكعا يتلو دعاء قصيرا أمام أسماء الملك والأله أتن ، وعلى العضادتين اسمه وألقابه .



(شكل ٤٠) طراز البيوت الكبيرة فى تل العمارنة

والقسم الأمامى من البيت أقرب أجزائه إلى الشارع ، ويتوسطه بهو استقبال مستعرض تكتنفه قاعات صغيرة ؛ أهمها ردهة ثانية تلى ردهة المدخل وقد يعتمد سقفها على أسطون . وكانت الردهتان تحولان دون النظر إلى ما يجرى فى بهو الاستقبال ؛ بل لقد كان مدخلاهما على غير محور واحد مما كان يجبر الداخل إلى أن يغير اتجاهه . وقد يكون للبيت فى القسم الأمامى منه مدخل أو مدخلان جانبيان آخران ؛ تفصل كلا منهما عن بهو الاستقبال ردهة . وكان بهو الاستقبال بمثابة

المنظرة للضيوف الذين ليس لهم أن يتجاوزوه إلى داخل البيت[1] ؛ وكان يقوم فيه أسطونان أو أربعة أساطين أو ثمانية فى صفين وكان فى كل من طرفيه مدخلان أو مدخل ومشكاة فى صورة باب . وفى وسط جداره الخلفى مدخل يؤدى إلى داخل البيت ، وقد يكتنفه فى بعض الأحيان مدخلان صغيران . وكان الضوء يصل إلى بهو الاستقبال من نوافذ فى الجدار الخارجى ؛ ويظن أنه كانت تحفظ فى بقية القاعات التى تكتنفه الأطعمة لضيافة الضيوف .

ويتوسط القسم الأوسط بهو كبير يتميز باعتدال جوه فى الصيف والشتاء ؛ وكان واسطة البيت وأهم أجزائه ، وهو مربع تقريبا ، ويظن أنه قاعة المعيشة الرئيسية . وكان يعلو مدخله من قبل بهو الأستقبال عتب من حجر الجير عليه صورة صاحب البيت تمثله على نحو صورته على المدخل الرئيسى . ويعتمد سقفه على أسطون واحد أو أسطونين أو أربعة أساطين . وكان عند جداره الرئيسى ، وهو الجدار الخلفى أو الأيسر مصطبة مرتفعة قليلا ، كانت تفرش فيما يعتقد بالحشايا أو السجاد ، وكانت بمثابة أريكة . وكان الجدار من ورائها يشتمل عادة على مشكاة تحليها صورة باب وهمى مزدوج جميل . وكان يتوسط البهو موقد وبجانب أحد الجدران قاعدة مرتفعة لقدور الماء للشرب أو لغسل الأيدى قبل الطعام وقبل التعبد فى المحراب البيتى الذى كان فى هذا البهو أو فى قاعة تتصل به .

وكان المحراب يتألف من منصة من اللبن يحيط بها سياج وتؤدى إليها بضع درجات ، وعليها نصب صغير من حجر منقوش عليه صور أفراد الأسرة المالكة يتعبدون أتن أو فى جلسة عائلية ، قد يمنح الملك فيها كبرى بناته قرطا[2] . وكان للنصب باب

---

(١) كانت قاعة النحت فى بيت المثال تحتمس تتصل بقاعة الاستقبال تيسيرا للزائرين . وقد كشف فيها عن روائع من أعمال النحت منها التمثال النصفى للملكة نفرتيتى .

(٢) Schaefer-Andrae, Die Kunst des alten Orients, II (1942), Taf. XII.

مفروق عتبه ويتوجه عادة الكورنيش المصرى . وقد يضم المحراب تمثالا صغيرا لأحد أفراد الأسرة المالكة .

وكان سقف البهو الأوسط أعلى السقوف مما كان يتيح إقامة شبابيك صغيرة من حجر الجير بالقرب من السقف يدخل منها الضوء والهواء . وكانت تكتنف البهو قاعات صغيرة وسلم متين معتنى ببنائه يؤدى إلى السطح .

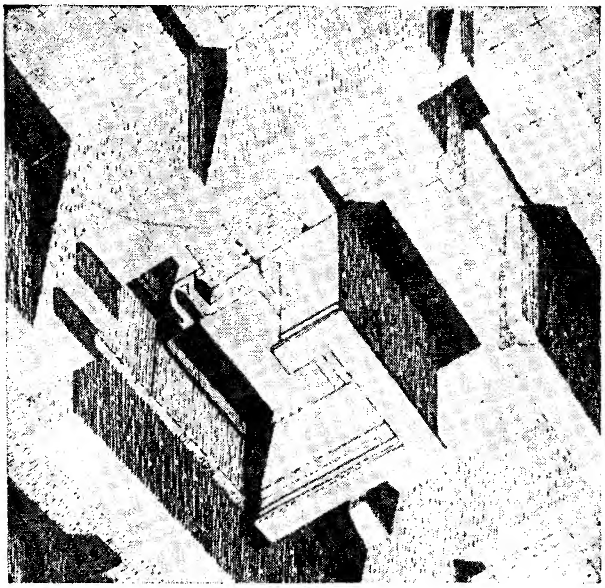
والقسم الثالث من البيت أخص أجزائه ، وقد يفصله عن بقية البيت دهليز مستعرض . ويتألف من قسمين يرتبط أحدهما بالآخر ارتباطا وثيقا ويؤلفان معا وحدة معمارية متسقة من داخل الوحدة الشاملة للبيت جميعه . ويشغل كل من القسمين نصف المساحة الخلفية للبيت ؛ ويشمل أحدهما قاعة المعيشة الخاصة ، ويشمل الآخر غرفة النوم ، ولكل منهما قاعات جانبية . وقاعة المعيشة مربعة تقريبا فى أغلب الأحيان ، يعتمد سقفها على أسطون ، ويظن أن سيدة البيت كانت تقضى فيها معظم النهار ، إذ كانت فى مكان يقيها البرد الشديد فى الشتاء ويحفظ جدرانها من حرارة الشمس فى الصيف[1]. وتتصل بها قاعتان أو ثلاث أو أربع ، كانت تودع فيها حوائج البيت ؛ ومنها ما كانت تنقش عضادتا بابه باسم صاحب البيت أو باسم زوجته . وغرفة النوم أخص قاعات البيت ، وتقع فى الغالب فى الركن الجنوبى الغربى منه ؛ وهى قاعة مستطيلة فى مؤخرتها مشكاة تشغلها منصة مرتفعة قليلا كان يستقر عليها سرير من خشب فوق قواعد صغيرة من حجر . ويظن أن سقف المشكاة كان مقببا وأنه كان يعلو سقف غرفة النوم وربما كان مفتوحا نحو الشمال . وكان

---

(١) يدل على تقدير المصريين للمكان الرطب فى الصيف والدافىء فى الشتاء أن الملك الذى يحمى شعبه كان يوصف بأنه « البيت الرطب الذى يجعل كل شخص ينام حتى مطلع النهار » ، كما كان يوصف بأنه « ركن دافىء جاف فى زمن الشتاء » .

السرير للزوج والزوجة معا ؛ أما بقية أفراد الأسرة فكانوا ينامون فى قاعات جانبية أو فى مبان ملحقة بالبيت .

وتشبه بيوت العمارنة بأقسامها الثلاثة بيوت اللاهون ، غير أنها تختلف عنها فى أنها لا تشتمل على قسم للحريم ، مما يدعو إلى الاعتقاد بأن الزوج كان يقتصر على زوجة واحدة تشاركه قاعاته على خلاف ما كان عليه الأمر فى اللاهون ، حيث كان للزوج جناحه الخاص وللحريم جناحه ؛ ويشير هذا إلى ارتقاء مركز الزوجة فى العمارنة .



(شكل ٤١) حمام فى تل العمارنة ــ منظور

وفى أرض غرفة النوم كانت تودع ذخائر صاحب البيت ، ذلك لأنها كانت آمن مكان فيه . ومن القاعات الملحقة بغرفة النوم قاعة كانت تحفظ فيها الملابس فوق رف من خشب يعتمد على دعامتين من اللبن . ومن مرافق البيت حمام وكانت تغطى أرضه بلاطة من حجر الجير يقف فيها المستحم ويصب الماء على جسده أو يصبه عليه خادم من وراء سياج ساتر غير مرتفع (شكل ٤١) .

وكانت جدران الحمام تكسى بألواح من حجر الجير يحميها من الماء الذى كان يصرف إلى وعاء فى الأرض أو خلال ثقب فى أسفل الجدار . وتجاور الحمام قاعة وجد فيها فى إحدى الحالات لوح من حجر فوق قاعدة من اللبن وفى سطحه العلوى ثلاثة تجاويف فيها آثار دهون ، وبجانبه مقعد من حجر مما يدل على أنه كان يتدهن فيها بعد الاستحمام . وكان الكنيف جزءا من الحمام أو فى قاعة صغيرة ؛ ويشتمل على مرحاض مبنى باللبن أو على مقعد مجوف من خشب أو حجر الجير ، ومن تحته إناء من فخار .

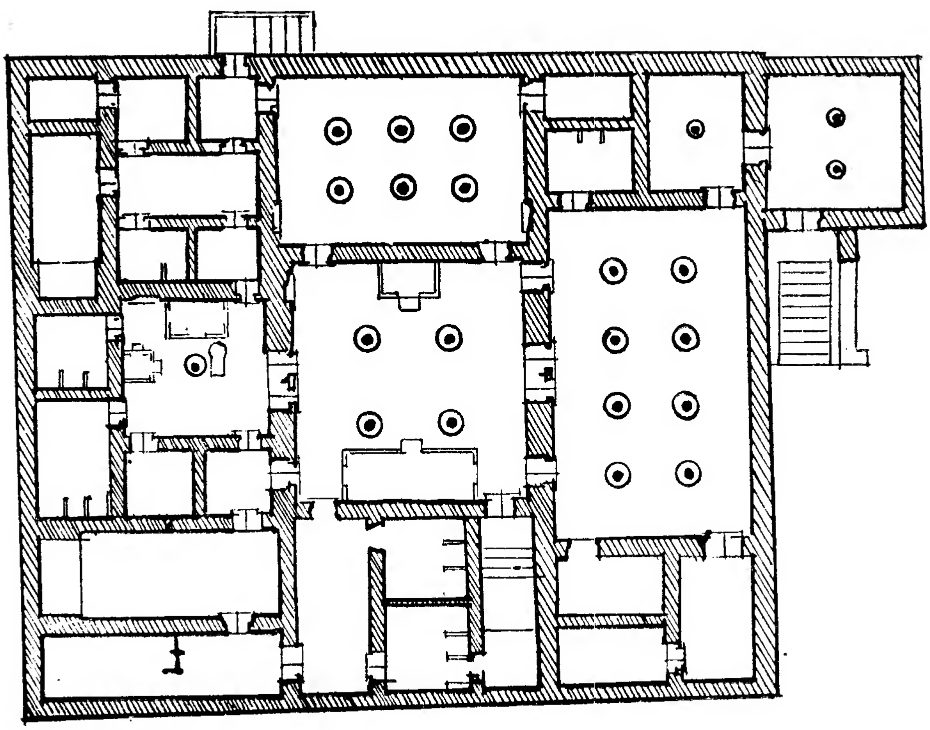
وكانت تعلو سطح بهو الاستقبال فى كثير من البيوت سقيفة ذات أساطين ، كان يتمتع فيها أصحاب البيت بالهواء العليل بعد غروب الشمس أيام الصيف الحارة . وكان السطح مستويا يحيط به سياج على الأرجح .

ومن بيوت رجال البلاط وكبار الموظفين والكهنة ما كان يختلف فى بعض تفاصيله عن الطراز الشائع بما كان يرضى مطالب كل وحاجاته . ومع ذلك فقد التزم كل منها الأقسام الثلاثة التى كان يتألف منها هذا الطراز . بيد أن البيوت التى كان فيها بهو الأستقبال والبهو الأوسط لاستقبال الضيوف وضيافتهم ، كان يتوسط القسم الثالث فيها بهو ثالث ، كان قاعة معيشة للأسرة ، وفيه أسطون أو أكثر وله قاعات ملحقة به . ومن أشهر الأمثلة على ذلك بيت الوزير نخت ، ويتميز بسعة قاعاته وفخامتها (شكل ٤٢ وصورة ١٤)(١) ، وتكتنف قاعة المعيشة فيه غرفتا نوم بمرافقهما ، وقد تكون إحداهما لأم الوزير أو أم زوجته . ويؤدى المدخل الجانبى فى القسم الثالث استثناء إلى بهو جانبى .

---

(١) Journal of Egyptian Archaeology, vol. 8 (1922), pl. XVII.

وكانت أبواب البيوت من خشب ؛ وقد أفادت الأساطين في سعة القاعات ، وكانت من خشب أيضا في هيئة النخيل أو أغصان البردى ، وتقوم على قواعد من حجر الجير ، قطرها ضعف قطر الأسطون عادة . وكانت الأبواب والأساطين تطلى بلون أحمر لامع .



(شكل ٤٢) بيت الوزير نخت فى تل العمارنة

ولم يحفظ من زخارف بيوت الأفراد إلا القليل ، وقد وجد أغلبه في بيوت الطبقة الوسطى ؛ ومنه ما يدل على أن من الزخارف المحبوبة تحلية أعلى الجدران في بهو الأستقبال وقاعة المعيشة بأفاريز الزهر والفاكهة ، تتدلى منها في بعض الأحيان أكاليل من الزهر وأشكال البط(١) . وكانت تحلى أحد جدران غرفة النوم في أحد البيوت غيضة بردى من داخل إطار من الخشب . ويظن أنه لو كانت

(١) H. Frankfort, The Mural Paintings of el-Amarnah, pls. 17, 19, 20.

قد حفظت صور أخرى فى البيوت الكبيرة لكان منها ما يشبه صور الجدران فى القصور الملكية . ومن السقوف ما كانت تحليه رسوم هندسية ووريدات .

وتحيط بالبيت أفنية تحول بينه وبين الشارع وبين البيوت المجاورة ، وتفصل بينه وبين مرافقه ، وكان منها مطبخ وفرن ومساكن الخدم . وإذ كان أصحاب بيوت العمارنة يملكون أراض زراعية فى البر الغربى ، فقد كان من الطبيعى أن تكون من مرافق البيت الصوامع المدورة والمخازن الطويلة الضيقة ، يخزنون فيها حاصلات أراضيهم ؛ وأن تكون منها كذلك الحظائر التى تأوى ما يعتمدون على لحومه وألبانه من ماشية . وتتألف الصوامع عادة من وحدات متجاورة ، وكانت تملأ من فتحات فى أعلاها ، ويؤخذ من مخزونها من فتحات فى أسفلها . وتقع المخازن فى صف أيضا ، ومن أمامها سقيفة ، كان يجلس فيها الكتبة الحاسبون فى صفين بينهما منصة مرصوفة باللبن . وكانت الحظائر مربعة وفى مؤخرتها المزاود بما كان يسمح بملئها من الخارج على نحو الحظائر الحديثة فى الوقت الحاضر . وكان من مرافق البيت أيضا أماكن للنسيج والصياغة وصناعة الجلود .

وتقع حديقة البيت فى مكان مستقل يفصلها عنه جدار . ومن الحدائق ما كان لها مدخل فى شكل صرح على الشارع ، ومدخل آخر صغير من قبل البيت . وكانت عادة من مساحة غير كبيرة لبعدها بعض الشيء عن النيل وانخفاض مستوى المياه الجوفية ، ولما كان يتكلفه نقل كميات كبيرة من الطمى من جهد ومشقة . ولم تكن لكل حديقة بركة على نقيض ما تدل عليه رسوم البيوت على جدران المقابر ، إذ كان مستوى الماء أوطأ من سطح الأرض بنحو ثمانية أمتار ، ولذلك كان يكتفى عادة ببئر فى قاع حفرة

مستديرة يؤدى إليها درج ضيق ، وكانت تفيد منها أيضا البيوت الصغيرة التى كانت تقوم بين البيوت الكبيرة . وكانت الحديقة تحوى أشجارا مختلفة . كل شجرة فى بؤرة من الطمى . وكثيرا ما كان يقوم فوق قاعدة مرتفعة فى مواجهة المدخل الرئيسى للحديقة وبالقرب منه جوسق صغير يؤدى إليه درج أو أحدور يتوسطه درج . وكان الجوسق هيكلا لعبادة آتن ، ويرجع إليه السبب فيما يظن فى بناء مدخل الحديقة المطل على الشارع فى شكل صرح يدخل منه الكهنة ومعهم صاحب البيت . ولم يكن الهيكل يلتزم اتجاها خاصا ، وكانت تحلى جدرانه فى بعض الحالات على الأقل صور أفراد الأسرة المالكة تعبد آتن . وكان يحتوى على مائدة قربان ، وفى جداره الخلفى نصب منقوش بصورة الملك يعبد المعبود الجديد . ومن الحدائق ما كان فى مؤخرتها بناء صغير يتيسر منه الاستمتاع بالنظر إلى الحديقة بأكملها .

فى هذا كله ما ينبئ عما كانت بيوت العمارنة توفره لأصحابها من متعة وراحة ورفاهية ، وما تدل عليه من حسن تخطيط يحقق كل ما يقصد إليه من البيت الجميل .

وكانت بيوت العمال فى صفوف منتظمة بعضها بجانب بعض (شكل ١٠) ؛ وهى من طراز واحد ، ويشغل كل منها مساحة عرضها خمسة أمتار وطولها عشرة ، ويتألف من أربع قاعات : ردهة تليها قاعة معيشة ومن ورائها غرفة نوم ومطبخ . وكان الدرج الذى يؤدى إلى السطح بجانب الردهة فى مقدمة البيت أو بجانب غرفة النوم . وهكذا لم يكن يكفى أفراد الطبقة العاملة بيت ذو قاعة واحدة أو قاعتين . وكان فى الزاوية الجنوبية الشرقية من حى العمال بالقرب من مدخله بيت كبير يظن أنه بيت ملاحظ العمال ، ويتألف من تسع قاعات تتوسطها قاعة المعيشة ، ومنها غرفة نوم ومخازن ودرج يؤدى إلى السطح .

وفى قرية دير المدينة كانت بيوت الفنانين والصناع ورؤساء العمال من اللبن كذلك ، غير أن أطر الأبواب وعتباتها وقواعد الأساطين كانت من حجر رملى أوجيرى [1] . وكان كل بيت يتألف من قاعة استقبال وقاعة معيشة من ورائها درج يؤدى إلى السطح ، ثم غرفة نوم ودهليز يؤدى إلى المطبخ . وتشتمل قاعة المعيشة على مصطبة وفى أحد جدرانها مشكاة صغيرة [2] وسقفها أعلى السقوف وفى أعلى جدرانها شبابيك . وفى كثير من الحالات كان للبيت كهف للخزين يؤدى إليه سلم من قاعة المعيشة .

وتلقى صور البيوت على جدران بعض المقابر فى طيبة وفى بعض البرديات شيئاً من الضوء على بيوت أصحابها . ويبدو أن منها ما يمثل بيوتاً فى المدينة وأخرى فى أرباضها أو فى الريف . ولاكتظاظ المدينة بالمساكن وضيق المساحة التى كانت تبنى عليها البيوت كان الأمر يدعو إلى بنائها من طابقين أو أكثر مما كان يعوض قلة المساحة على نقيض ما كان عليه الأمر فى ضواحى المدينة وفى الريف[3] . وتمثل أغلب الصور البيوت من الخارج ، وهى تدل على أن منها ماكان ينمو من أمامه أو فى أحد جانبيه وأحيانا فى كل منهما بضعة أشجار نخيل وفاكهة ، تعد أثراً من حب أصحابها للحدائق . ومن أشجار الفاكهة ماكان يحيط به سياج من اللبن تحلى سطحه الخارجى مربعات فى شكل رقعة الشطرنج ويتوجه الكورنيش المصرى (شكل ٤٣) [4] . ومن البيوت ماكان يحيط به فيما يبدو سور خارجى ؛ ومنها ماكان من طابقين أو ثلاثة . ويقع الباب الخارجى فى أحد الجانبين القصيرين ،

---

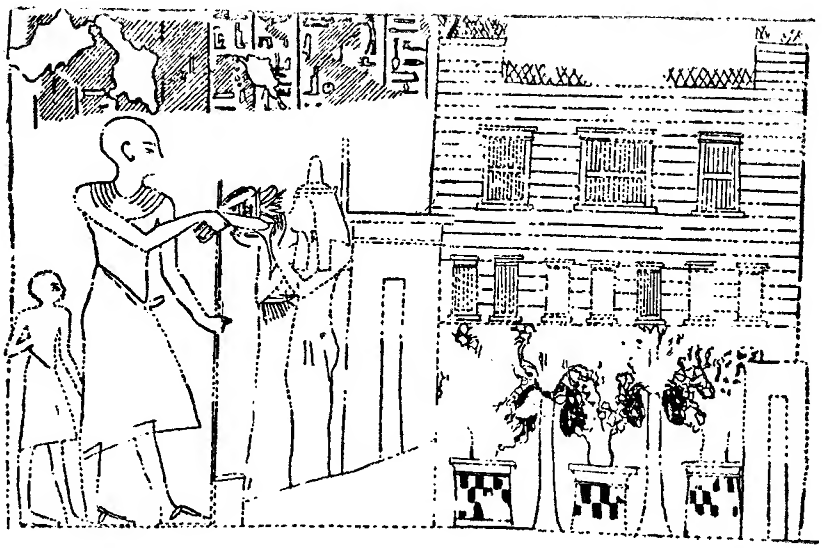
(١) B. Bruyère, Rapport sur les fouilles de Deir el Médineh, p. 6 sq.

(٢) يغلب على الظن أنها كانت أشبه بمحراب صغير .

(٣) لعل تعدد الطوابق وكثرة القاعات مما يشير إلى أن هذه البيوت كانت بيوت أسرات يضم كل منها رب البيت وأبناءه المتزوجين .

(٤) A. Badawi, Le dessin architectural chez les anciens égyptiens, figs. 81, 82.

ويؤدى إليه درج ويتوجه الكورنيش المصرى[1] . وقد يكون للبيوت الكبيرة باب آخر صغير للخدم فى الجانب المقابل للباب الرئيسى . ومن الشبابيك ما كان ضيقاً ، بسيطاً فى الطابق الأول ، وعريضاً فى الطابق الثانى ، وتتخلله قضبان رأسية يعترضها فى الوسط قضيب أفقى ؛ ومنها ما تقتصر فيه القضبان العمودية على جزئه الأسفل ويتوسطه



(شكل ٤٣) بيت فى طيبة — من صور احدى المقابر

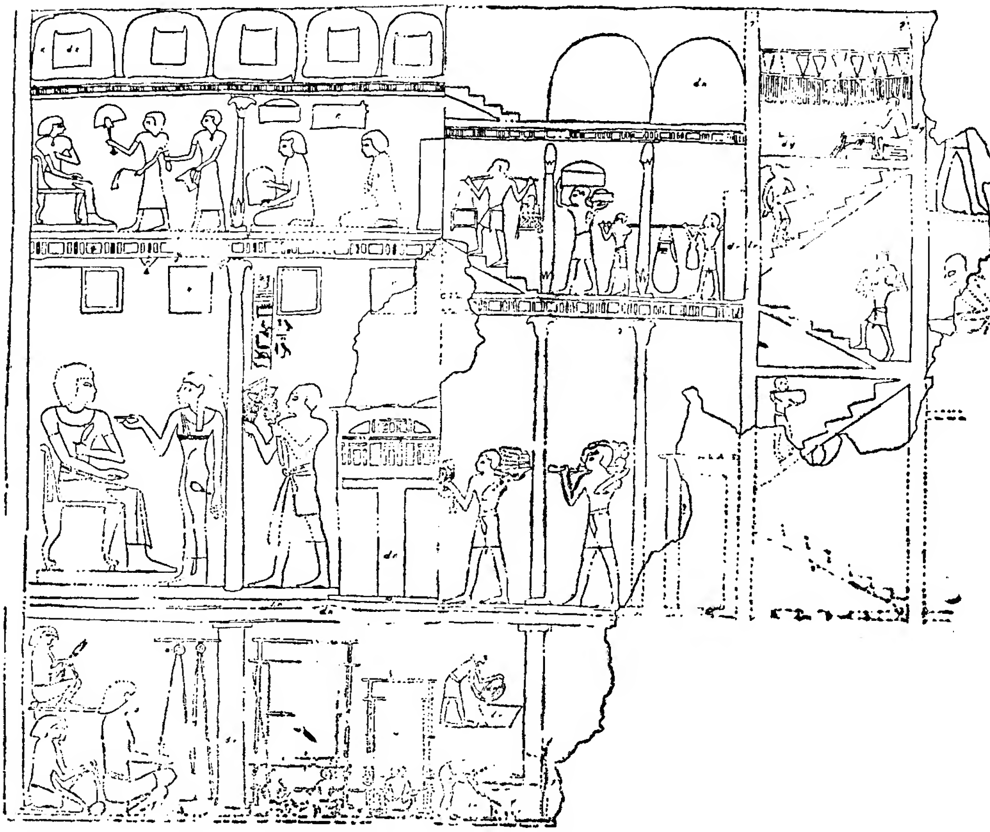
أسطون بردى. وقد يحيط بسطح البيت سور مرتفع أوسياج من غاب أو جريد متشابك . ومن السطوح ما هو على أكثر من مستوى واحد وفيه فى بعض الأحيان صوامع الغلال . وتحلى الواجهة كلها أو معظمها خطوط أفقية بلون أحمر على قاعدة بلون أبيض أو رمادى أو بنفسجى فاتح .

ويبدو من الرسم الذى يمثل بيت جحوتى نفر من الداخل (شكل ٤٤) أنه يتألف من طابق أغلبه تحت سطح الأرض ، يعلوه طابقان آخران والطابق الأرضى قليل الارتفاع ، لايكاد يزيد ارتفاعه على

---

(١) تتقدم واجهة بيت إبوى سقيفة بأساطين بردية ، وإطار الباب من حجر ويعلوه كورنيش . أنظر N. de Garis, Davies, Two Ramesside Tombs at Thebes, 28 f.

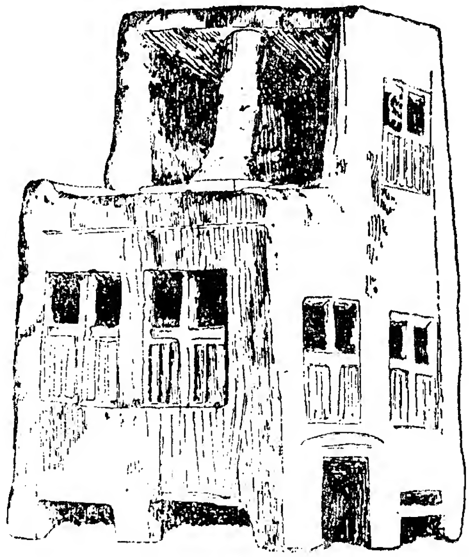
نصف ارتفاع الطابق الثانى إلا قليلا ، و الطابق العلوى أقل الطوابق ارتفاعاً . ويؤدى إلى طوابق البيت ثم إلى السطح درج من داخل البيت مستقل عن بقية أجزائه . ويحتوى الطابق الأرضى على مخازن وقاعات للخدم



(شكل ٤٤) بيت جحوتى نفر من الداخل

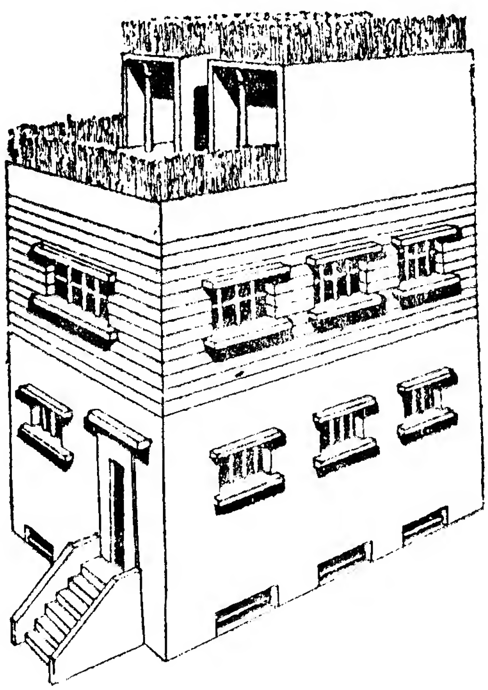
يؤدون فيها أعمالا مختلفة ؛ فمنهم من ينسج الكتان أو يطحن الحب أو غير ذلك من أعمال البيت . ومن قاعات الطابق الأرضى ما يعتمد سقفه على اعمدة سميكة ، بينما تعتمد سقوف الطابقين العلويين على اساطين نحيفة بتيجان بردية ؛ وتحلى عتب الأساطين أو على الأرجح أعالى الجدران شرائط أفقية من مربعات ومستطيلات بألوان مختلفة ، وتقع قاعة المعيشة فى الطابق الثانى ، بعيدة بعض الشىء عن ضوضاء الشارع ورطوبة الأرض . ومن القاعات الرئيسية ماتعلو سقوفها سقوف

غيرها مما يجعل بعض القاعات في الطابق العلوي على مستوى أعلى من مستوى غيرها بحيث يصل بينهما درج قصير. ومن الأبواب الداخلية ما له مصراعان وتعلوه تفاريج. ويدل نموذج في متحف اللوفر (شكل ٤٥)(١) وشواهد أخرى على أنه لم يكن من النادر أن يهبط الطابق الأرضي مسافة تحت سطح الأرض. واعتماداً على هذا النموذج



(شكل ٤٥) نموذج بيت - متحف اللوفر

وقرائن أخرى يبدو أن الشكل ٤٦ يمثل طراز البيوت الذي شاع في مدن الدولة الحديثة.



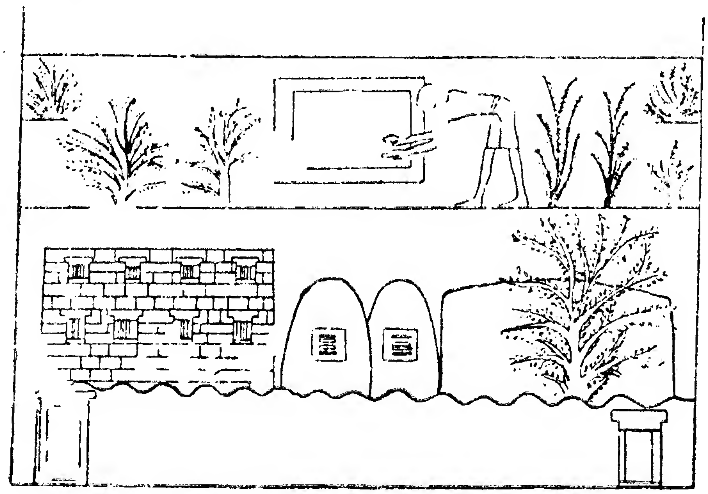
(شكل ٤٦)
طراز بيوت المدن في الدولة الحديثة

ومن البيوت الكبيرة في أرباض طيبة أو في الريف ما كان من طابقين تلحق به بعض المرافق ومنها مخزن وصومعتا غلال، ويحيط به سور مموج في أعلاه مما يشير إلى أنه من طين (شكل ٤٧) (٢)، وللسور

(١) C. Desroches, Un modèle de maison citadine du Nouvel Empire, Revue d'Egyptologie, III, 1938, pl. II ; A. Badawi, op. cit., p. 82 sq.

(٢) A. Badawi, op. cit., p. 84 sq.

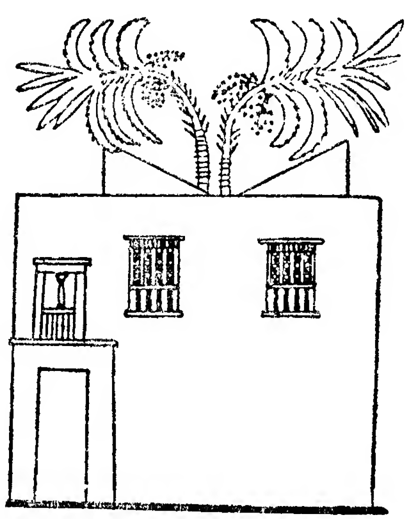
بابان ، أحدهما كبير بإزاء البيت وهو المدخل الرئيسى ، والآخر صغير يؤدى إلى مرافق البيت . وللبيت حديقة نسقت أشجارها فى



(شكل ٤٧) بيت انينى فى الريف

صفوف متوازية . وكان ينمو فى حديقة أنا ثمانية عشر نوعاً من الأشجار منها النخيل والدوم والجميز والتين والأثل والسنط والرمان.

وقد تحتوى الحديقة على جوسق ، يجلس فيه صاحب البيت وزوجه ، وعلى بركة يؤدى إليهـا درج ، وينمو فيها النيلوفر ، وتهوى إليها أنواع مختلفة من الطير ، وفيها زورق للنزهة . ومن الحدائق ما كانت تقوم أمام بابها مسلة .

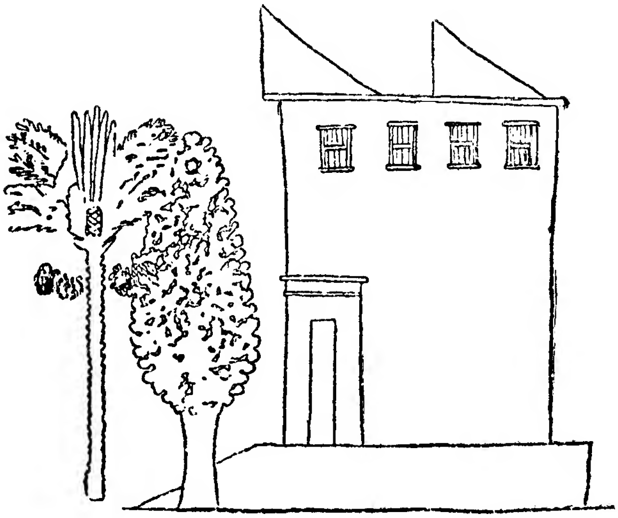


(شكل ٤٨) بيت نب أمون

بيد أن من بيوت الريف ما كان مبنى صغيراً وسط حديقة أو حقل يأوى إليه صاحبه فى زيارة قصيرة . ومثال ذلك بيت نب أمون ، ويقع فى جانب من فناء فسيح يحوى معصرة وكرماً وبركة ومحراباً (شكل ٤٨) (١) .

(١) N. de G. Davies, op. cit., fig. 10 ; A. Badawi, op. cit., p. 86 sq.

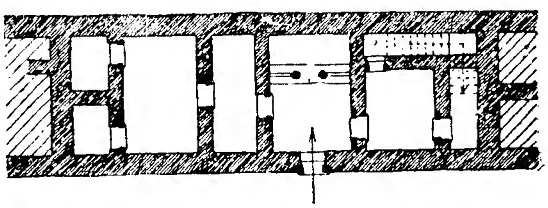
ومنها ما يبدو أنه من طابقين ويقوم على الأرض مباشرة أو فوق قاعدة ، ويؤدى إلى مدخله درج.



(شكل ٤٩) بيت نخت

ومن الشبابيك ما يبدو أنه تغطيه شبكة مزخرفة بألوان مختلفة ؛ وقد بعلو السطح ملقفان يتلقفان نسيم الشمال الذى يرطب داخل البيت (شكل ٤٩)(١).

وفى حرم معبد رمسيس الثالث الجنازى ، مدينة حابو ، كشف عن بيوت الكهنة والموظفين والجند ، وكانت فى صفوف مستقيمة ، ومتشابهة إلى حد كبير ، ومنها ما كان يتألف من فناء فى مؤخرته صفة من أسطونين ، وفى أحد الجانبين ردهة وغرفة معيشة كبيرة وغرفتا نوم ، وفى الجانب الآخر غرفة كبيرة لخزن الحبوب ثم سلم يؤدى إلى السطح أو إلى طابق علوى (شكل ٥٠)



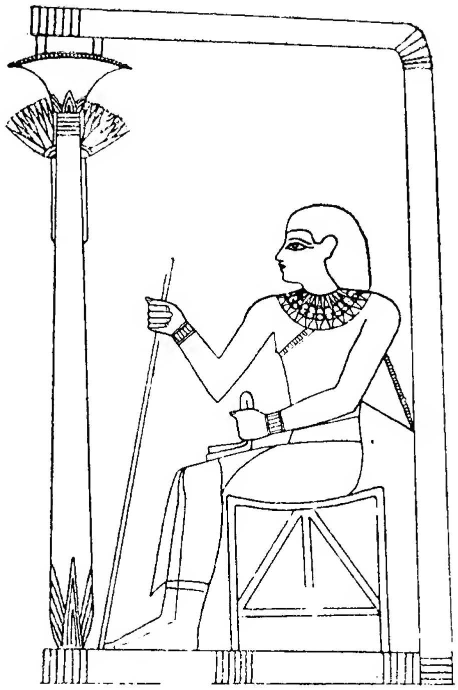
(شكل ٥٠) مخطط بيت فى حرم مدينة حابو

وهكذا يتميز البيت المصرى فى عصوره المختلفة بمخططه المستطيل ، وامتداده إلى الداخل فى أغلب الأحيان ، ووضوح

(١) N. de G. Davies, op. cit., fig. 11 ; A. Badawi, op. cit., p. 87.

أقسامه ، وانتظامها واستقامة قاعاته بما ينم عن روح هندسية تؤثر الترتيب والتنظيم .

ومن رسوم الدولة الحديثة مايمثل ظلات خفيفة بجدران من غصون البردى أو الحصير ، وفى واجهاتها أساطين بتيجان على شكل زهرة بردى يانعة ، وتحليها أزهار اللوطس الطبيعية (شكل ٥١)(١). ومن الأساطين ما له تيجان زهرية يعلو أحدها الآخر ؛ ومن ذلك مثلا أسطون بتاج بردى مقفل يعلوه تاج لوطسى ومن فوقه تاج زنبقى ثم تاج بردى يانع (شكل ٥٢) (٢) . ولا يعرف



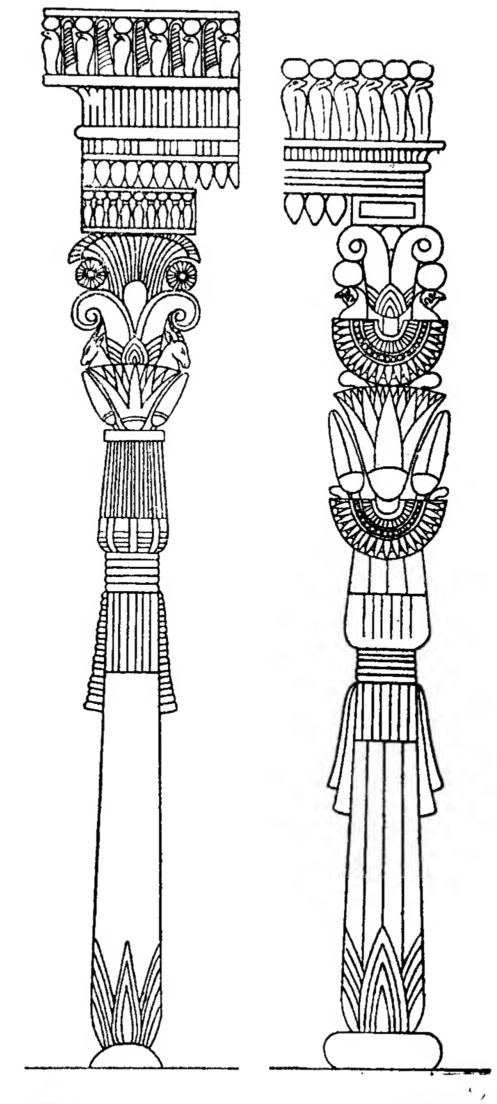
(شكل ٥١) ظلة بأسطون بردى تحليه أزهار اللوطس

إذا كان ذلك يمثل حقاً أسطوناً بهذا العدد من التيجان ، أوأن أغلبها أكاليل من زهر طبيعى ، أو إكليل واحد من أزهار مختلفة منسقة ، وأن الرسام رسم كل نوع فوق الآخر كعادته فى رسم الأشياء المكومة بعضها فوق بعض فى سلة أوعلى مائدة قربان ابتغاء وضوحها وجلاءها أحسن ما تكون . وقد يزكى هذا أن ساق الأسطون يمثل غصناً واحداً أو بضعة غصون بردية ، وأن تاجه الأدنى أو الأعلى فى حالات غير قليلة تاج بردى مقفل أو يانع ، كما يزكيه أيضاً أن من الأساطين مايحليه

(١) N. de G. Davies, The Tomb of Nakht at Thebes, pl. XX.

(٢) Prisse d'Avennes, Histoire de l'art égyptien, t. I, pls. 17-19, 21.

عقد أو عقدان يحيطان به أو معلقان عليه . ومهما يكن من أمر فانه يظن أن الأساطين الحجرية ذات التيجان المركبة فى العصور المتأخرة (١) إنما ترجع إلى أمثال هذه الأساطين .



أثاث القصور والبيوت

ضاع ما كانت تحتويه البيوت والقصور من أثاث ، غير أن فيما حفظ من أثاث المقابر منذ ما قبل الأسرات ، وفيما صور على جدرانها من قطع الأثاث ما يساعد فى التعرف على ما كانت تحتوى عليه من أثاث ورياش . ولا يعترض على ذلك أن ما وجد فى المقابر وصوّر على جدرانها إنما كان لأغراض جنازية فحسب ، فما من ريب فى أن بعض ما عثر عليه على الأقل كان مما استخدمه صاحبه فى حياته .

(شكل ٥٢) أسطونان بتاجين زهريين

وحتى إذا كان الأمر على خلاف ذلك فما من شك أيضاً فى أن جله إن لم يكن كله قد صنع على طراز ما كانت تحتويه القصور والبيوت من أثاث ، كما أن ما صور من قطع الأثاث على جدران القبور إنما يمثل كذلك ما استخدمه المصريون فى قصورهم من فراش وأثاث .

(١) G. Jéquier, Manuel d'archéologie égyptienne, p. 230 sq.

ويلوح مما كشف عنه فى مقابر ما قبل الأسرات أنه كان من أثاث البيوت آنذاك حصير وأسرة عليها حشايا من نسيج أو جلد محشوة بالقش ، وأوان من فخار من أشكال مختلفة ، بعضها عاطل من أى زخرف ، وبعضها تحليه رسوم متنوعة . ومن الأوانى ما كان من عاج أو أحجار مختلفة ، وتمتاز ببساطتها ، وجمال أشكالها ، ودقة صنعها ، وجودة صقلها مما أبرز جمال مادتها ؛ ومنها ما كان على شكل الطير أو الحيوان .

ويدل ما عثر عليه فى مقابر بداية الأسرات وما يحلى أحد جدران مقبرة حسى رع من عهد الأسرة الثالثة على أن من قطع الأثاث إذ ذاك كراسى وأسرة مريحة ، منها ما تحلى طرفى جانبيه زهرة بردى ، وقوائمه من خشب وأحياناً من عاج فى هيئة أسير راكع قيدت ذراعاه خلف ظهره أو على شكل قوائم الثور ، نحتت فى دقة بارعة بما يضفى على الأثاث حيوية لا تضفيها القوائم المستقيمة ، فضلا عما يكنى عنه ذلك من معنى [1]. وقد وجدت القوائم المشكلة على شكل قوائم الحيوان سبيلها إلى كافة عصور مصر القديمة ثم إلى غيرها من البلدان حتى وقتنا الحاضر . وأقدم أنواع المقاعد ما كان بغير سند من الخلف ، على أنه لم يلبث أن أصبح منها ما يزود بسند يعتمد عليه ظهر الجالس . وبعض المقاعد واطىء وبعضها الآخر بارتفاع عادى ؛ وكان للأنواع الجيدة منها قعدات من شرائط متعارضة من جلد ؛ ومنها ما كان يزود بحشية من جلد .

والأسرة واطئة عادة لا يزيد ارتفاعها عن الأرض على ثلاثين سنتيمترا ؛ ومنها ما كانت أطراف جوانبه وأسفل قوائمه مصفحة بنحاس ؛ ومنها ماله قائمان إثنان فحسب عند الرأس ويستقر طرفه الآخر

(١) يكنى المقعد ذو القوائم على شكل أسير عن انتصار الجالس عليه على أعدائه ، كما يكنى المقعد أو السرير ذو القوائم على شكل قوائم الثور عن أن الجالس أو النائم عليه هو الثور القوى . انظر صفحة ١٦٦ – ١٦٧

على الأرض . ومن الأسرة ما كان ينصب تحت ظلة ذات دعائم وأستار .

ومن قطع الأثاث أيضاً صناديق وخزانات مختلفة كانت تحفظ فيها أدوات التجميل والحلى والملابس وقطع اللعب والأوانى ؛ وكان لبعضها قوائم من عاج أو أبنوس ، ومنها ما تحليه رموز هيروغليفية .

ويشهد كثير من قطع الأثاث على مهارة فائقة فى نجارة الخشب ، فمنها ما له سطوح جد ناعمة ، ومن الأجزاء المستديرة ما صنع بدقة بالغة ، ويزيد فى إعجابنا وتقديرنا أن الصانع المصرى استطاع القيام بجميع أعمال النجارة الحديثة على قلة أدواته وبساطتها . ومن الأثاث ما كان يرصع برصائع رشيقة من عاج وخشب وقاشانى ، تحليها زخارف هندسية محفورة ، ومنها ما كان يصفح بصفائح الذهب تحليه رسوم بارزة .

وكان من أثاث البيوت أيضاً مناضد من الخشب أو المرمر المصرى أو حجر الشست ؛ وهى عادة واطئة صغيرة لشخص واحد . ومنه أوان من أشكال شتى ومن أنواع مختلفة من الحجر ، منها المرمر المصرى والشست والديوريت والبازلت والبورفير والصخر البللورى ؛ وكان يقدم فيها الخبز والفاكهة والأطعمة الباردة ، وتحفظ فيها العطور والحبوب وصنوف مختلفة من الطعام والشراب ؛ وبعضها صحاف فاخرة تتميز برقة جدرانها ؛ وتمتاز جميعها بدقة صنعها وجمال أشكالها بما يفوق ماصنعته أية أمة أخرى . ولم يكن الأثرياء وحدهم يمتلكون هذه الأوانى ، وإنما كان لأفراد الطبقة الوسطى نصيب منها ، وخاصة ما كان من المرمر المصرى . ومن الأوانى ما كان أيضا من النحاس ، ومنها صحاف وطاسات وأباريق . وتدل رسوم الحصير على جدران بعض مصاطب بداية الاسرات ، وما يكسو جدران بعض قاعات هرم صقارة المدرج من قراميد صغيرة من القاشانى (١) ، والأبواب الوهمية المحلاة بما يمثل حصيراً ملوناً (٢) ، على أن من جدران

---

(١) أنظر صفحة ٢٨٨ .

(٢) N. de G. Davies, The Mastaba of Ptahhetep and Akhethetep at Saqqarah, vol. I, pl. 20.

القصور وبيوت العظماء ما كان يحليها حصير ملون ، ومن نوافذها ما كانت تتدلى عليه ستائر من حصير ذى زخارف مختلفة وبألوان شائقة .

وفى قبر الملكة حتب حرس ، زوجة الملك سنفرو وأم الملك خوفو ، كشف عما بقى من أثاثها بعد أن عبثت به أيدى اللصوص ؛ وقد تلفت أخشابه ، غير أنه أمكن بفضل أغشية الذهب التى كانت تكسوه والرصائع المختلفة التى كان يزدان بها إنشاؤه من جديد بخشب حديث حسب طرازه القديم (١) . ومن أهمه كرسى مصفح بالذهب فيما عدا الظهر والقعدة ، وقوائمه على شكل أرجل الأسد ، وتحلى كلا من جانبيه ثلاثة أغصان بردى . ومنه كذلك محفة مصفحة حوافيها بالذهب ، ولها حاملان أطرافهما مصفحة بالذهب فى شكل تاج نخيلى ، وظهرها مطعم من أمام ومن خلف بشرائط من خشب أسود مرصع باسم الملكة وألقابها فى خط هيروغليفى جميل من ذهب سميك . وكانت الملكة ترقد على سرير مصفح بذهب سميك ، ذى قوائم على شكل أرجل الأسد ، وله مسند للرأس من خشب مصفح أعلاه بالذهب وأسفله بالفضة ، وموطئ للأقدام مطعم بالقاشانى . وكان للسرير ظلة هيكلها من خشب مصفح بالذهب ، تحليه زخارف تحاكى الحصير ونقوش بديعة تسجل أسماء سنفرو وألقابه . وكان من أثاثها كذلك صندوقان ، أحدهما من فضة محلاة برصائع على شكل ريش ووريدات ، والآخر من خشب مصفح بالذهب . وتمتاز جميع قطع الأثاث ببساطة أشكالها وفخامتها معاً وبموادها الثمينة ، وتدل على ما بلغته صناعة الأثاث وصياغة الذهب والفضة وأعمال التطعيم من دقة وإحكام وحسن ذوق .

وتتمثل فيما حفظ من أثاث الدولة الوسطى وصوره تقاليد أثاث الدولة القديمة . ومع ذلك لقد طرأ تقدم فى شكل الكرسى فى الأسرة الثانية عشرة وذلك بأن أصبح ظهره يميل إلى الوراء

(١) G.A. Reisner, Giza Necropolis II.

بما يكفل راحة الجالس . ومن الأسرة ما ظلت قوائمه على شكل قوائم الثور . ومن قطع الأثاث صناديق صغيرة جميلة للعطور والدهون ، ومن أمثلتها الجميلة صندوق فى متحف متروبولتان ، مصنوع من أجزاء كثيرة صغيرة من خشب الأرز جمعت معاً بمهارة كبيرة وصفحت بقطع من العاج والأبنوس (١) .

وفى الدولة الحديثة كانت المصانع الملكية تخرج أجمل أنواع الأثاث ؛ وكان ملوك مصر يهدون بعضه إلى عظماء رجال الدولة ، وإلى ملوك الشرق القديم مما يدل على ما كان له حينذاك من أهمية وتقدير . فمن رسائل تل العمارنة ما يسجل أن أمنحوتب الثالث أهدى كدشمان خاربى الأول ملك بابل أسرة وكراسى ومواطىء للأقدام من أبنوس محلى بالذهب . وأهدى أخناتون برنا برياش ملك بابل كثيراً من قطع الأثاث منها أسرة وكراسى وصناديق مصفحة بالذهب أو الفضة .

وقد احتفظ كثير من أثاث توت عنخ أمون بالأشكال والزخارف التقليدية التى استقرت فى وقت مبكر من تاريخ مصر القديم ؛ بيد أن منه ما يتمثل فيه أيضاً ما ساد عصر أخناتون من حرية وشغف بالطبيعة . ومن أهم ما احتواه قبره من قطع الأثاث كراسى وأسرة ومواطئ أقدام وصناديق وخزانات وأوانى ومصابيح من أشكال ومواد مختلفة ، تحليها زخارف ورصائع جميلة . ومنها قطع فنية لاتبارى وعلى رأسها العرش الذهبى ، تحليه صورة غاية فى الإبداع من فضة ،وعقيق وقاشانى وزجاج ملون (٢) . ومنها كذلك كرسى الاحتفالات الدينية وهو من أبنوس وعاج وبعضه مصفح بذهب مرصع بأحجار طبيعية وقاشانى وزجاج ملون(٣). وجميع الأسرة ذات

(١) H.S. Baker, Furniture in the Ancient World, p. 114 ff.

(٢) P. Fox, Tutankhamun's Treasure, pl. 9, 10.

(٣) Ibid., pl. 60.

قوائم على شكل قوائم الأسد[1] وأفخمها سرير مصفح بصفائح سميكة من الذهب . ويحلي لوح القدمين رمز توحيد القطرين بين مجموعتين من نبات البردى واللوطس .

وتتميز الصناديق والخزانات كذلك باختلاف طرزها وأحجامها ، فبعضها صغير للحلي والعطور وأدوات الزينة ، وبعضها كبير للملابس وأغطية الأسرة من الكتان [2] . وبعضها بسيط يخلو من أى زخرف ، وبعضها فاخر مذهب أو مطعم بأبنوس وعاج أو بهما وبقاشانى وزجاج ومرمر مصرى . وتحلى بعضها سطور منقوشة من كتابة أو رموز هيروغليفية مذهبة أو محشوة بمادة ملونة . ومنها ما تحليه مناظر صيد أو قتال أو صورة الملكة فى ثياب تشف عن أشكال جسمها الرشيق ، تمثلها وهى تهدى زوجها الشاب باقات من الزهر ، وقد بلغ فيها الفنان غاية الدقة والإبداع .

والأوانى من أشكال وأحجام مختلفة ؛ وهى من المرمر المصرى أو القاشانى الأحمر أو الأزرق أو الزجاج الأبيض أو الأزرق أو الملون ، أو الفضة أو الذهب أو العاج أو الفخار . وتحلى بعضها أو تكتنفه زخارف ورموز متنوعة . ولبعضها قواعد مفرغة فى طراز جميل . ومنها كؤوس وصحاف وأباريق وأوعية للعطر وجرار نبيذ .

ويدل ما حفظ من أثاث الطبقة العليا وصوره على جدران بعض المقابر أنه لم يكن يختلف فى طرازه عن أثاث القصور الملكية ، وإن كان أقل منها زخرفة . وقد كثرت فيه الكراسي ذات المساند حتي ليبدو أنها كانت مما يكني عن أهمية صاحبها . وأغلبها ذات قوائم على شكل قوائم الأسد وبظهر مائل إلى الخلف ومقوس ، وبقعدة من مضفور الحلفاء أو حبالِ الكتان . ومن الكراسي ما كانت

(١) P. Fox, op. cit., pl. 59.

(٢) Ibid., pls. 15, 39, 50.

تحليه شرائط من الأبنوس مرصعة بزخارف صغيرة من العاج ؛ ومنها ما كان من الأبنوس ، تحلى ظهره رموز مفرغة .

وكانت المقاعد بغير المساند أكثر شيوعا من الكراسى ذات المساند ؛ ومن أهمها المقاعد ذات الشُكُل ، ويجمع بعضها بين الأناقة والمتانة . ومنها ما له قعدة مقوسة وقوائم على شكل قوائم الأسد ، أو متقاطعة تنتهى برءوس بط . وكانت الأسرة بقوائم على شكل قوائم الأسد . ومن أسرة يويا وثويا والدى الملكة تى ما هو مصفح فى بعض أجزائه بالذهب أو الفضة ، ومنها ما هو مطعم بخشب ثمين وتحليه صور الإله بس والألهه تاورت اللذين كان يعتقد فيهما أنهما يحميان النائم من الأرواح الشريرة .

وكان من أثاث البيوت أيضاً أوان فاخرة من ذهب وفضة تحليها صور أشخاص وحيوان ونبات ؛ وعلى رأسها جميعاً إبريق من فضة بعروة من ذهب فى شكل ماعز برية فى حجم صغير تقف على رجليها الخلفيتين وكأنها تحاول أن تشرب من الإناء ، وقد أبدع الصانع تشكيل جسدها فى صورة طبيعية حية (١) . ومن الكؤوس والأباريق ما كان يصنع من النحاس تحليه زخارف محفورة تنافس ما كان يصنع منها من الذهب والفضة . ومن القاشانى الأخضر والأزرق كانت تصنع كؤوس فى شكل زهرة اللوطس ، وصحاف تحليها زخارف بلون أسود تمثل زهورا أو بركة يعوم فيها السمك بين أزهار اللوطس . ومن أوانى العطر والزيوت أوان جميلة من زجاج أزرق أو أسود تحليه شرائط متموجة تؤلف أشكالا متنوعة بألوان مختلفة منها الأبيض والأصفر والأزرق ، وهى أقدم أوان زجاجية فى العالم .

ومن ملاعق العطر وأوانيه ما نحت أيضاً من الخشب أو الحجر

(١) G. Steindorff, Die Kunst der Aegypter, 299.

فى أشكال رشيقة (١). ومن الملاعق ما يمثل فتاة تعوم وبين يديها أوزة يؤلف جسمها وعاء العطر ؛ أو وهى فى زورق تجمع اللوطس ؛ أو وهى تضرب على آلة موسيقية فى زورق يتجول بها بين أغصان البردى ؛ أو وهى تضرب على الدف وترقص بين باقات الزهر ؛ أو وهى بين أغصان البردى تنوء بما تحمل على كاهلها . ومنها ما يمثل عجوزاً يحمل إناء كبيراً فوق ظهره ، أو يصور غزالا مقيداً أو كلبا يعدو وفى فمه سمكة إلى غير ذلك من أشكال متنوعة استوحاها الفنان من طبيعة بلاده وظروف الحياة فيها .

ومما كانت تحتويه البيوت أيضاً مرايا من معدن مذهب أو مفضض ، تتراءى فيها صورة الناظر كما تتراءى فى مرايا الزجاج فى الوقت الحاضر ، ومقابضها فى شكل غصن بردى أو فى صورة حتحور إلهة الحب أو فى هيئة فتاة عارية . وكانت المرايا تحفظ فى أغلفة فاخرة ، منها ما هو مغشّى بعاج منقوش بصور ملونة جميلة تدل على ذوق رفيع (٢) .

ولم يكن أثاث الطبقة الوسطى يختلف أيضاً فى طرازه عن طراز أثاث الطبقة الراقية . وقد كشف فى قبر خع فى دير المدينة عن إثنى وثلاثين قطعة تؤلف مجموعة هامة من الأثاث وجدت سبيلها إلى متحف تورين فى إيطاليا (٣) . وأغلبها ملون بألوان تحاكى الأبنوس والعاج وصفائح الذهب والرصائع من الزجاج والقاشانى والأحجار شبه الكريمة . وأكثرها مقاعد وصناديق وخزانات . ومن المقاعد ما كانت قعدته مقوسة من جانبيها أو من جوانبها الأربعة ؛ ومنها ما يطوى وله قوائم متعاقدة فى شكل رءوس البط ومرصعة بعاج وأبنوس ، ومنها ماله قوائم فى شكل قوائم الأسد .

---

(١) G. Steindorff, op. cit., 283-286 ; R. Hamann, Aegyptische Kunst, Abb. 33-42.

(٢) G. Steindorff, op. cit., 287.

(٣) H.S. Baker, op. cit., p. 114 ff.

وتحلى بعض الصناديق والخزانات رسوم هندسية بألوان متنوعة تحاكى الرصائع من المواد المختلفة ؛ ومنها ما تحليه صورة خع يجلس مع زوجته أمام مائدة القربان . ومن قطع الأثاث سريران من الطراز الشائع بقوائم على شكل قوائم الأسد ، وكرسى واحد بعضه بلون أسود تقليداً للأبنوس ، وبعضه بلون أصفر تقليداً لصفائح الذهب ، وتحلى أعلى الظهر أزهار بألوان مختلفة على قاعدة صفراء بما يحاكى رصائع الزجاج والقاشانى والأحجار الكريمة على قاعدة مذهبة ؛ ومن دون ذلك شرائط بلون أبيض وأسود من داخل إطار بهذين اللونين تقليداً لشرائط العاج والأبنوس .

معابد الآلهة

منذ أن بدأ المصريون يفكرون فى مظاهر الطبيعة التى يعيشون فى كنفها والقوى التى ظنوا أنها تحكمها ولها الأثر فى حياتهم ، أخذوا يصنعون لها الرموز والتماثيل ويقيمون لها الهياكل يقدمون لها فيها القربان ويؤدون أمامها المناسك والشعائر . وقد كانت الهياكل أول الأمر بسيطة تتفق وما كانت عليه حياة المصريين فى بداواتهم الأولى ؛ على أن كل تقدم كانوا يحرزونه كان يجد صداه فيما يقيمونه لآلهتهم من منشآت .

وكان ملوك مصر فى عهد الأسرات يعتبرون أنفسهم من نسل الآلهة وأنهم خلفاؤها على الأرض ، وأن من واجبهم أن يقيموا المعابد لعبادتها بما يكفل رضاءها ، ليفيض النيل بالماء ، ويزدهر النبت ، ويسخو المحصول ، وتتكاثر الماشية ، ويتيسر الحصول على النحاس والذهب ، وتوفق البعثات ، وينتصر الملك على أعدائه بما يحقق السلام والرخاء فى البلاد . وكان المصريون إلى جانب ذلك يعتقدون أنهم مدينون بمتع الحياة وما فى بلادهم من خير وجمال للآلهة التى اختارت مصر موطناً وميزتهم على سائر القبائل والشعوب .

لذلك أكثر ملوك مصر فى عهد الأسرات من إقامة الهياكل والمعابد للآلهة فى أنحاء البلاد قربى وزلفى ، يحفظون فيها رموزها وتماثيلها ، ويقدمون لها فيها القرابين ، ويؤدون الطقوس والشعائر ، ويحتفلون فيها بأعيادها ؛ حتى لقد كانت لا تخلو مدينة من معبد أو أكثر تتناسب سعته وأهميته ومالها من شأن . ومع الزمن أخذت المعابد تكثر وتزداد سعة وفخامة وضخامة ، بما كان يتسق وما أصابته

الدولة من يسار ورخاء ، وما أصبح للأمبراطورية المصرية من شأن ، ويتفق وما غدا للآلهة من سلطان على الدولة وما صار للملكية من عز وجاه[1] .

ولم ينس الملوك إقامة المعابد فيما فتحوا من أقطار ، فأنشأوا فى أرجاء بلاد النوبة المعابد العظيمة . بل منها ما كان ينافس معابد مصر كالمعبد الذى شيده أمنحوتب الثالث فى صولب شمالى الشلال الثالث ، ومنها ماليس له مثيل كمعبد أبوسنبل العظيم . بل من المعابد ما شيد فى الصحراء ، فقد شيد سيتى الأول فى وادى عباد شرقى وادى النيل بنحو ٦٦ كيلو متراً معبداً فى الطريق إلى مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية .

وكانت المعابد لتمجيد الآلهة والملوك الذين أقاموها ، فقد كان يعتقد أن الملك صورة الإله على الأرض . وأن أعماله من وحيها وتأييدها ، وفى تخليد أعماله تمجيد للآلهة . لذلك كان الملك يسجل أخبار حملاته وما فتحه من بلاد وأحرزه من غنائم وأسلاب على جدران المعابد تمجيداً لشأنه واعترافاً بما أولاه الإله من نصر . علاوة على هذا كان الملوك يتوجون فى المعابدويحتفلون فيها بأعيادهم اليوبيلية ، وإنا لنعلم أن الملك حورمحب سار من بلده فى مصر الوسطى إلى طيبة حيث توج فى معبدالإله أمون ، وقد جاء أن الآلهة والإلهات ابتهجت لتتويجه . ورفعت المدائح إلى عنان السماء ، وشكرت أمون رع لأنه أتى بمن يحبها . ورغبت إليه بأن يمنحه أعياد رع اليوبيلية وسنوات حورس كملك .

ولم تكن المعابد لعبادة الآلهة فحسب . وإنما منها ما كان أيضاً

(١) جاء فى قصيدة قادش على لسان رمسيس الثانى أنه صنع لأمون رع آثاراً كثيرة جداً ، وملأ معبده بالغنائم ، وشيد له معبداً خالداً ، وأعطاه جميع ثروته ملكاً ثابتاً ، وأهداه جميع البلاد لتثرى قرابينه ، وأنه لم يترك عملا طيباً لم يؤده فى معبده ، فقد شيد له الصروح العظيمة ، وأقام بنفسه سواريها ، وأحضر له المسلات من الفنتين ، وساق إليه السفن فى الأخضر العظيم ، تحمل إليه منتجات البلاد الأجنبية .

لعبادة من أله من الملوك السابقين ، أو لعبادة من شيدوها . ومن أقدم من عبد من الملوك فى بلاد النوبة الملك سنوسرت الثالث . وعبد تحوتمس الثالث فى معبد سارا جنوب أبى سنبل وأمنحوتب الثالث فى صولب ، وسيتى الأول فى أبيدوس . ومن الملكات من أنشىء لها معبد خاص لعبادتها ، فقد أقام امنحوتب الثالث فى سدنجا شمال صولب معبداً تعبد فيه زوجته الملكة تى ، وحفر رمسيس الثانى معبداً فى أبو سنبل تعبد فيه الملكة نفرتارى مع الإلهة حتحور .

وقد اندثرت أغلب الهياكل والمعابد وخاصة ما كان منها فى الوجه البحرى ، فلم يبق مثلا من معبد الشمس فى عين شمس ظاهراً على وجه الأرض غير مسلة قائمة تدل عليه ؛ ولم يبق فى تانيس (صان الحجر) ، عاصمة الرعامسة ، وبوبسطة ، عاصمة الأسرة الثانية والعشرين ، وسايس (صا الحجر) ، عاصمة الأسرة السادسة والعشرين غير أنقاض وأطلال تدل على ما أنشىء فيها من معابد عظيمة . ولم يبق كذلك من معابد منف إلا آثار ضعيفة ، وقد وصف هيرودوت معبد بتاح فيها بأنه معبد ضخم ، وذكر بعض ما أقيم فيها من معابد فى أكثر من موضع فى كتابه . وقد استطاعت بعض المعابد فى صعيد مصر أن تبقى حتى أوائل القرن الماضى ، بيد أن استثمار أحجار أكثرها فى البناء وفى انتاج الكلس قضى عليها . وتحوى الأقصر من المعابد مالا تحويه مدينة أخرى ، ذلك لأن أنقاض القرى المتعاقبة من حول المعابد أخذت تغير عليها حتى غطتها ولم يبق ظاهراً من معالمها غير أعاليها ، وبذلك حفظتها من الدمار إلى أن كشف عنها تدريجاً فى الأزمنة الأخيرة .

وكان الهيكل أو المعبد يسمى « بيت الإله » ، ويغلب على الظن أنه كان فى الأزمنة الأولى مسكن الزعيم أو جزءاً منه ، ومهما يكن من أمر لقد كانت بينهما علاقة يؤيدها أنه كان يطلق عليهما فى الأصل

لفظ واحد . بيد أنه من الطبيعى أن يترتب على مطالب العبادة المحافظة فى المعبد وتطور مطالب الحياة العملية للزعيم أو الحاكم مع الزمن اختلاف بينهما ، حتى وإن ظلت تجمع بينهما صفات مشتركة لم يكن عنها محيص . وها هو ذا معبد الشمس من عهد الأسرة الخامسة(١) ، ومعبد أتن من عهد أخناتون (٢) ، والمعبد المحاط بالأعمدة من عهد الأسرة الثانية عشرة وبداية الدولة الحديثة(٣) لا يجمع بين أحدها والقصر الملكى أو البيت المصرى عامة جامع من تخطيط أو طراز . وإذا كانت الأبهاء تقع فى كل من البيت المصرى وفى الطراز الذى شاع للمعبد فى الدولة الحديثة فى الجزء الأمامى ، والقاعات الخاصة وقدس الأقداس فى مؤخرة كل منهما فإنما ذلك أمر طبيعى ؛ لأن قاعة المعيشة تكون عادة أقرب ما يمكن لمدخل البناء بالقرب من الطريق ، بينما تقع غرفة النوم وما يتصل بها فى داخل البناء أو فى مكان منعزل منه ؛ وما نحسب أن الأمر يختلف عن ذلك كثيراً فى أى زمان ومكان إذا اتسعت رقعة البناء . وما ينبغى أن يكون الأمر على خلاف ذلك فى المعابد ذات الأبهاء والقاعات ، والتى يحرص القائمون عليها أن يكون تمثال الإله أو رمزه فى أبعد مكان عن الأنظار تحوطه الرهبة وتكتنفه الأسرار . ولا يختلف الأمر عن ذلك فى الكنائس والجوامع ؛ حيث يقع قدس الأقداس والمحراب فى أقصى مكان فيها .

وإذا كانت الأجزاء الرئيسية فى المعبد والبيت فى مصر القديمة تقع على محور واحد ؛ فأغلب الظن أنه نتيجة تطور البناء مع الزمن ومحافظة المصريين على تقاليدهم وما كان للمواكب الدينية من شأن

---

(١) انظر صفحة ١٧١ – ١٧٥

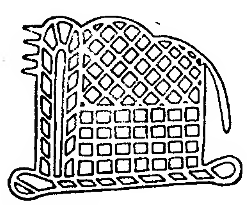
(٢) انظر صفحة ٢٠٥ وما بعدها

(٣) انظر صفحة ١٧٩ وما بعدها

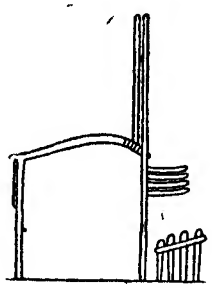
فى العبادة، وأنه ساعد عليه ما أوحت به طبيعة البلاد وما طبعت المصريين عليه بيئتهم التى يسود فيها الخط المستقيم أقوى ما يكون . على أن ذلك كله لايعنى حتما أن العلاقة التى كانت فى الأصل بين البيت والمعبد قد انفصمت عراها مع الزمن ، فما من شك فى أن كلا منهما قدأفاد مما أصابه المصريون من تقدم فنى وحضرى ، وأنه كانت تجمع بينهما طوال تاريخ مصر القديم فى عقيدة المصريين وتصوراتهم فكرة المسكن ، وإنما يجب ألا يغالى فى تقدير هذه العلاقة . وإذا علمنا أن المعبد إنما كان فى خيال المصريين يكنى عن الكون (١) ، وأن البيت لم تكن له هذه الصورة فيما تصوروا أدركنا الفرق بينهما .

قبل عهد الأسرات

لما كانت الهياكل الأولى من مواد سريعة العطب فقد اندثرت بطبيعة الحال ، بيد أن من نقوش بداية الأسرات على البطاقات من الخشب والعاج وعلى الأختام ما يصور أمثلة منها وخاصة هيكل الصعيد وهيكل الشمال . ويبدو أن هيكل الصعيد (شكل ٥٣ أ ، ب) كان من أعواد مضفورة من النباتات أو ذا هيكل من خشب يغطيه الحصير ، وفى أحد جانبيه القصيرين باب فخم مقوس فى أعلاه ، وفى نهاية أحد جانبيه الطويلين باب آخر . ويتميز بما يشبه ثلاثة قرون أو أربعة تبرز فى أعلى واجهته . وبتقوس سطحه على شكل ظهر حيوان . وتدلى ما يشبه ذيلا طويلا فى مؤخرته .



(شكل ٥٣ أ) هيكل الصعيد فى بداية الأسرات



(شكل ٥٣ ب) هيكل الصعيد فى عهد زوسر

ومن الباحثين من ذهب به الظن إلى أن هيكل الصعيد إنما كان

(١) انظر صفحة ١٩٦ – ١٩٧

يمثل فى الأصل خرتيتا إفريقياً ليبعث الرعب فى قلوب الأعداء ، وأنه أصبح يظن فيما بعد أنه يمثل فرس النهر (١) . ومنهم من رأى أنه إنما يمثل حيوان أنوبيس المقدس ، وأنه بذلك كان كوخ أنوبيس(٢). بيد أنه لم يكن للخرتيت أو فرس النهر دور هام فيما يعرف من عقائد المصريين حتى يشيد هيكل على شكله ؛ وكان فرس النهر من الحيوانات التى طاردها المصريون ، ولها أثر سيء فى العقائد المصرية(٣) . ولا يخفى أن كوخ أنوبيس كان ذا طابع جنازى مما يفرق بينه وبين هيكل الصعيد الذى كان المعبد الرسمى لمملكة الجنوب .

ولا يخلو من مغزى أن من نقوش ما قبل الأسرات وبداية الأسرات ما يمثل الزعيم أو الملك فى صورة ثور عات يفتك بعدوه(٤) أو يقتحم حصون الأعداء بقرنيه (٥) . ومن المقابر الملكية فى صقارة ما كشف فوق طوار من حولها عما يقرب من ثلثمائة رأس ثور من الصلصال مشكلة بعناية ومزودة بقرون حقيقية (٦) . ومن تماثيل الملوك وصورهم فى الاحتفالات الدينية ما يمثلهم بذيل ثور طويل ، ومن نعوتهم منذ الدولة الحديثة ما يصفهم بالثور القوى . ومن الكراسى والأسرة فى بداية الأسرات ما كانت تنحت قوائمه فى شكل قوائم الثور بعناية ودقة ؛ مما يدعو إلى الظن بأن ذلك كان فى الأصل للزعيم أو الملك للدلالة على أن الجالس على العرش أو النائم

---

(١) H. Ricke, Bemerkungen zur aegyptischen Baukunst des Alten Reiches, S. 29-31.

(٢) A. Badawi, Le dessin architectural chez les anciens égyptiens, p. 17 sq. ; 46 sq.

(٣) H. Kees, Der Goetterglaube im alten Aegypten, S. 12 ff.

(٤) محمد أنور شكرى ، الفن المصرى القديم منذ أقدم عصوره حتى نهاية الدولة القديمة ، صفحة ٢٧ ، صورة ١٩

(٥) نفس المرجع صفحة ٣٢ ، صورة ٢٢ ب

(٦) W.B. Emery, Great Tombs of the First Dynasty, II, pls. VI, VII.

من أثار بداية الأسرات ما يمثل أبواباً يعلوها فيما يبدو رءوس كباش ، J.E. Quibell, Hierakonpolis I, p. 7, pl. XIV.

فى السرير هو الثور القوى [١] . ومن صور الظلات فوق العرش الملكى فى الدولة الحديثة ما يطل من فوقها ثور مادا قرنيه إلى الأمام كأنه على أهبة الدفاع والهجوم (شكل ٥٤)[٢]. وجاء فى أنشودة النصر للملك تحوتمس الثالث أن أمون رع جعل الأعداء يرون جلالته فى صورة ثور فحل ثابت الجنان ذى قرنين حادين لا يقهر[٣] .



(شكل ٥٤) عرش أمنحوتب الثالث

فإذا تدبرنا هذا كله ثم تذكرنا أنه كان من عادة المصريين فى عصورهم الأولى تغطية أكواخهم بفراء بعض الحيوان [٤] ، وأن الثور البرى كان من أهم ما يصاد من حيوانات الصحراء حتى الدولة الحديثة على الأقل ، كان أدنى إلى الحق أن بيت الزعيم كان يغطيه جلد ثور يكنى عنه ، وأنه سواء كان هيكل الصعيد فى الأصل هو بيت الزعيم أو جزءاً منه ، فقد ورث عنه شكل السطح وأصبح ذلك تقليداً مرعياً . وقد يزكى ذلك أيضاً استدارة الجزء الأمامى من

---

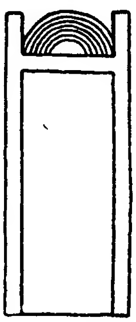
(١) أنظر صفحة ١٥٣

(٢) G. Jéquier, Manuel d'archéologie égyptienne, fig. 93 ; A. Erman, H. Ranke, Aegypten und aegyptisches Leben im Altertum, Abb. 20.

(٣) Urkunden IV, 616 ; A. Erman, Die Literatur der Aegypter, S. 321.

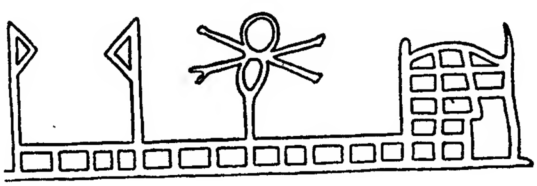
(٤) انظر صفحة ٩٣ .

سطح الهيكل فى بعض صوره وانخفاضه ثم تقوسه فى الوسط واستدارته فى جزئه الخلفى بما يبدو أنه يمثل ظهر ثور برى فى صدق كثير. ومهما يكن من أمر فقد استقر شكل سطح هذا الهيكل على نحو خاص قريب من شكله الأصلى بما يتسق وطبيعة المواد التى أصبح يبنى أويصنع منها شكل (٥٣ ب). ومن النواويس التى كانت تحفظ فيها تماثيل الآلهة وتماثيل بعض الأفراد ما ظل سطحه يتخذ هذا الشكل حتى نهاية التاريخ المصرى القديم (١).



(شكل ٥٥) هيكل الشمال

ويتميز هيكل الشمال بارتفاع جداريه فى طرفيه وبسطحه المقبى (شكل ٥٥) ؛ ومن أشهر أمثلته معبد الإلهة نيت، حامية الشمال (شكل ٥٦)(٢)، ويكتنف مدخله علمان



(شكل ٥٦) معبد الالهة نيت

سامقان مما يعد أصلا للأعلام فى واجهة صروح المعابد فى الدولة الحديثة. ويؤدى المدخل إلى فناء يحيط به سور ذو مشكاوات بسيطة، ويتوسطه رمز الإلهة، وفى مؤخرته مقصورة بسطح مقبى، وفى جوانبها أربعة قوائم تعلو السطح. وقد وجد هذا الشكل سبيله إلى كثير من التوابيت وصناديق الأمعاء من الخشب والحجر طوال عهد الأسرات.

---

(١) M. Anwar Shoukry, Die Privatgrabstatue im Alten Reich, Abb. 66 ; G. Roeder Naos, Nos. 70002, 70008, 70036, 70037, 70038, 70039, 70040, 70043.

(٢) A. Badawi, op. cit., fig. 11.

ومن رسوم بداية الأسرات ما يشير أيضا إلى أن من الهياكل ما كان مخططه مستديراً وجدرانه من أغصان البردى أو الخشب بين أربعة قوائم تعلو السطح الذى كان فى شكل قبة من أعواد مضفورة من النبات(١) . ومن العلامات الهيروغليفية ما يمثل كوخ أنوبيس ويمتاز بواجهته المستطيلة يعلوها الكورنيش المصرى فى صورته الأولى(٢). ومن رسوم الدولة الوسطى وما بعدها ما يمثل هيكل الإله مين ، معبود أخميم وقفط ، وما من ريب فى أنه يرجع إلى العصور التاريخية الأولى على الأقل . وهو كوخ مستدير ضيق ومرتفع ، يعلوه ما يبدو أنه مخروط طويل ، وله باب كبير يحليه الكورنيش المصرى ، وقد تتقدمه سارية يعلوها قرنان بينهما حبل(٣).

يدل هذا كله على تنوع طرز الهياكل والمعابد واختلاف ملامحها المعمارية فى بداية الأسرات. ولابد أن منها ما كان يبنى باللبن ، يدل على ذلك أن من مناسك طقس تأسيس المعبد ما يمثل الملك يصنع لبنة (شكل ١٠٢) ، وأنه كان مما يوضع فى ودائع الأساس فى المعابد المشيدة بالحجر فى عهد الأسرات لبنات(٤) .

بداية الأسرات

كشف على حافة الصحراء فى أبيدوس عن أطلال معبد من عهد بداية الأسرات للإله خنتى إمنتى ، إمام أهل الغرب وإله الموتى ، وكان يتألف من ردهتين متتاليتين ، باب كل منهما منحرف عن محور المعبد ، ثم ردهة مستعرضة ، بابها على محور المعبد ، وتطل عليها

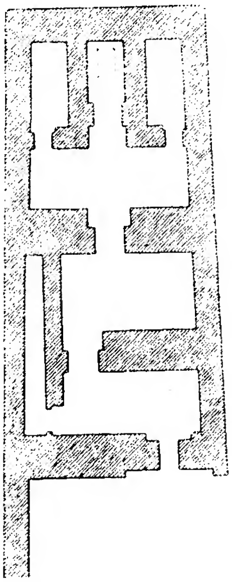
(١) نفس المرجع صفحة ١٦ و الشكلان ٢٠ و ٢١

(٢) M. Murray, Saqqara Mastabas, I, pl. XXXIX, 44.

(٣) A. Badawi, op. cit., p. 159 f.

(٤) F. Petrie, Abydos II, pl. L. ; Von Bissing, Beitraege zur Geschichte der altaegyptischen Baukunst (Bayerische Akademie der Wissenschaften Sitzungsberichte, 1923, S. 10 ff. ; Von Bissing, Aegyptische Kunstgeschichte, Text, S. 32.

مقصورة التمثال تكتنفها قاعتان ؛ وكان بجانب الردهتين سلم يؤدى إلى السطح (شكل ٥٧) . ويظن أنه كان إلى جانب تمثال الإله تمثال الملك الذى أنشأ المعبد ، إذ يبدو أنه كانت تجمع المعبد صلة بالمقابر الملكية فى أبيدوس . ويعتبر طراز هذا المعبد أصلا للمعبد ذى المقصورات الثلاثة فى الدولتين الوسطى والحديثة .



(شكل ٥٧) معبد الاله خنتى أمنتى فى أبيدوس

وفى حوليات حجر بلرمو أن الملك خع سخموى شيد معبداً من الحجر ، وقد عثر له فى هيراكونبولس (الكوم الأحمر) على عضادة باب وقطع من عضادة باب آخر . وكلها من حجر الجرانيت[1] . ونقشت عضادة الباب بصورة من صور الاحتفال بتأسيس المعبد ، تدل على مهارة فى نحت الحجر ونقشه . بيد أنه لا يكاد يتطرق الشك إلى أن جدران المعبد كانت من اللبن . ومن أحجار المعابد من بداية الأسرات أيضاً نجران باب من حجر رملى متبلور فى شكل أسير مقيد الذراعين خلف ظهره [2]. من هذا يتضح أن المصريين بدأوا يستخدمون الحجر لبعض العناصر المعمارية قبل استخدامه فى بناء جدران المعابد.

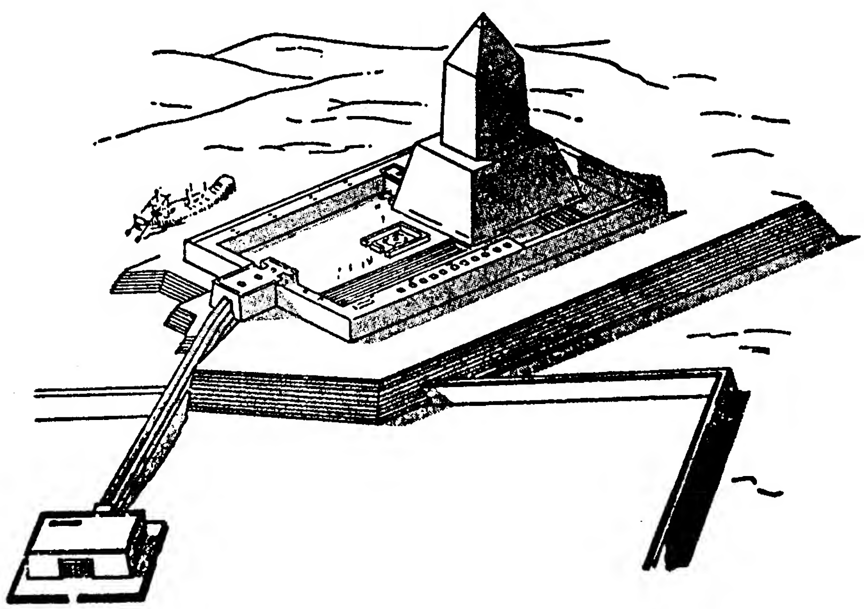
الدولة القديمة

أقام ملوك الدولة القديمة المعابد للآلهة فى كثير من أنحاء مصر ، إلا أنها تهدمت ولم يبق منها غير آثار قليلة ، ويغلب على الظن أن مما

(١) J.E. Quibell, Hierakonpolis I, pl. 2 ; R. Engelbach, A Foundation Scene of the Second Dynasty, J.E.A., XX, pp. 183-4. أنظر أيضاً Bulletin of Metropolitan Museum, Nov. 1935, fig. 11.

(٢) محمد أنور شكرى ، الفن المصرى القديم ، صورة ٣٥ . J.E. Quibell, op. cit., pl. 3.

اندثر منها ما كان يشتمل فى نهايته على ثلاث مقصورات ، وذلك اعتماداً على ما كان عليه الأمر فى عهد بداية الأسرات وبعض معابد الدولتين الوسطى والحديثة. وتدل حوليات حجر بلرمو على أن من معابد الدولة القديمة ما كان يشتمل على مكتبة تحفظ فيها أخبار الملوك.



(شكل ٥٨) معبد الشمس

وشيد أغلب ملوك الأسرة الخامسة المعابد للإله الشمس رع ، وتعرف أسماؤها جميعاً من ألقاب كثير من الكهنة ، بيد أن أهم ما أمكن الكشف عنه هو معبد « بهجة رع »(شكل ٥٨) ، الذى شيده نيوسررع فى أبوجراب شمالى صقارة ، بمناسبة احتفاله بيوبيله الثلاثينى (١) ، ويظن أنه فى مخططه يشبه معبد الشمس فى عين شمس.

---

(١) Borchardt, Von Bissing, Das Re-Heiligtum des Koenigs Ne-Woser-re, 3 Baende ; W. Kaiser, Zu den Sonnenheiligtuemern der 5. Dynastie, M.D.A.I.K., Bd. 14 (1956), S. 106-16 ; E. Winter, Zur Deutung der Sonnenheiligtuemer der 5. Dynastie, Wiener Zeitschrift fuer die Kunde des Morgenlandes, Bd. 54 (1957), S. 222-33. وقد كشف أيضاً عن أطلال معبد الشمس الذى شيده الملك أوسركاف وكان مبنياً بالحجر واللبن وعثر فيه على رأس تمثال من حجر الشست يظن أنها تمثل الإلهة نيت أو الملك = H. Ricke, Grabungsberichte ueber

وهو من طراز خاص يختلف عن طراز سائر الهياكل الأخرى بما يتفق وعبادة الشمس ، التى كانت تؤدى فى وضح النهار ، إذ كان ينبغى أن تغمر الشمس بضوئها المعبد الذى تعبد فيه . وكان للمعبد مبنى على حافة الوادى ، كان بمثابة مدخل فخم يؤدى إلى طريق صاعد يفضى إلى المعبد. وكان مبنى الوادى ينحرف كثيراً عن محور المعبد ويقوم على قاعدة مرتفعة تحميه من مياه الفيضان ، وتتقدم كلا من واجهته وجانبيه صفة يعتمد سقفها على أساطين نخيلية من حجر الجرانيت ؛ ويتوسطه دهليزان متعامدان تكتنفهما قاعتان صغيرتان ودرج يؤدى إلى السطح. وكان الطريق الصاعد يزيد على مائة متر طولا ، وكان مسقوفا يدخل إليه الضوء من فتحات فى السقف على أبعاد منتظمة ؛ ويظن أنه كانت تحلى جدرانه صور ومناظر مختلفة .

وكان المعبد على ربوة تعلو الوادى بنحو ستة عشر متراً ، وقد زيد فيها من ناحيتى الشمال والشرق. وإذ كان الجانب الجنوبى الشرقى منها صخراً غير مهذب فقد سواه البنَّاء على مسطحين ابتغاء وجه الجمال على ما كلفه ذلك من جهد ومشقة دون أن تكون ضرورة تدعو إليه من الناحية العملية . ويقع مدخل المعبد على محوره ، وهو مبنى سميك يعلوه الكورنيش المصرى ويضم ردهة طويلة كانت تحلى جدرانها نقوش فوق سافلة من حجر الجرانيت ، ثم ردهة أخرى مستعرضة تفضى إلى فناء المعبد ، ومنها كان يتيسر للعين أن تحيط بأجزاء المعبد الرئيسية الفخمة ، وأن تنعم بالنسب المتسقة للبناء العظيم من أمامها .

---

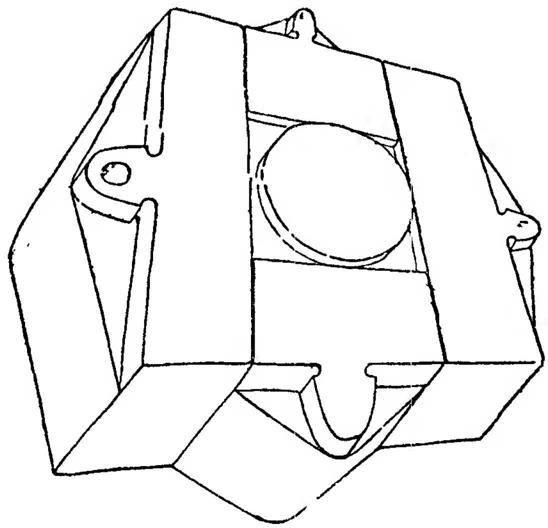
das Sonnenheiligtum des Koenigs Userkaf bei Abusir, Annales du Service des = Antiquités, t. LIV (1956-7), p. 75 ff. ; 305 ff., LV (1958), p. 73 ff.

وكان المعبد يشغل مساحة طولها ١١٠ من الأمتار وعرضها ٨٠ متراً ، يحيط بها جدار مرتفع سميك ، وتقوم فى مؤخرتها قاعدة ضخمة ترتفع لنحو عشرين متراً تقريباً ، ولها جوانب تميل إلى الداخل كثيراً ، ويكسو أسفلها حجر الجرانيت وأعلاها حجر الجير الجيد. وكانت تعلوها مسلة كبيرة ذهب الظن إلى أنها تمثل شعاعاً من أشعة الشمس ، على أنه يرجح أن لها صلة بالحجر المقدس « بنبن » ، وهو حجر مدبب مخروطى الشكل فيما يظن كان يقوم فى قدس الأقداس فى معبد الشمس فى عين شمس ، ويكنى عن الأكمة الأولى التى برزت من الماء الأزلى ، والتى استقر عليها الإله الشمس فى شكل الطائر بلشون كأول إله فى بدء الخليقة ، وبذلك كان من الرموز الشمسية باعتباره المكان الذى تجلى عليه الإله الشمس ، بل لقد كان يرمز إلى الإله الشمس نفسه .

وكانت المسلة ترتفع فى الفضاء لنحو ستة وثلاثين متراً ، وكانت مبنية من حجر الجير يكسوه حجر جيرى جيد ، أحسن صقله ، بحيث كانت سطوحه تتلألأ إذا شملتها الشمس بأشعتها . وكانت ذروتها فيما يرجح من حجر صلد أو مصفحة بنحاس مذهب . وكان أمام قاعدتها مائدة قربان ضخمة ، تتألف من خمس قطع من المرمر المصرى ، القطعة الوسطى منها مستديرة والقطع الأربع الجانبية مستطيلة ، نحت كل منها فى شكل علامة القربان فى الخط الهيروغليفى (١) ، بما يعنى فيما يبدو أن الآله الشمس يتلقى القربان من جميع الجهات

(١) تمثل علامة القربان مائدة من حصير عليها رغيف .

أى من العالم أجمع ، ويكنى فى ذات الوقت عن سلطانه على العالم (شكل ٥٩) (١) .



(شكل ٥٩) مائدة القربان فى معبد الشمس

وكان على يمين الفناء مذبح تعلو أرضه أرض الفناء قليلا ، ويتصل بعشرة أوان كبيرة من المرمر المصرى ، كانت تجرى إليها دماء مايضحى من الحيوان ، وذلك علاوة على مذبح آخر صغير إلى يمين قاعدة المسلة كانت تجرى فيه دماء الأضاحى إلى سبعة أوان من حجر الجير . وكانت إلى اليسار من قاعدة المسلة مقصورة صغيرة بمدخل من حجر الجرانيت ، يحلى جدرانها ما يمثل شعائر تأسيس المعبد والاحتفال باليوبيل الملكى . وكان يكتنف مدخلها حوضان من حجر الجير مغروزان فى الأرض لايبين من كل منهما غير شفته ؛ ويظن أنه كان من المناسك أن يغسل الملك فيهما قدميه . وكان من وراء الحوضين نصبان غير منقوشين من حجر الجرانيت ، كل منهما من ثلاث قطع .

(١) F. W. Von Bissing, Das Re-Heiligtum des Koenigs Ne-woser-re, Bd. I, Abb. 33-34.

وكان على طول كل من الجدارين الشرقى والجنوبى للمعبد دهليز طويل ، وكان الدهليز الشرقى يفضى إلى مجموعة من المخازن شمالى المذبح الكبير ، بينما كان الدهليز الجنوبى ينتهى إلى قاعدة المسلة ، وتحلى جدرانه نقوش جميلة ملونة فوق سافلة من حجر الجرانيت .ومن نقوشه بالقرب من قاعدة المسلة ما يمثل آلهة أقاليم مصر وإلهات الفصول المصرية فى حجم كبير تصاحبها صور شيقة متتابعة تصور أنواع الحبوب والأشجار والنباتات . والطيور تحضن بيضها ، والأسماك تعوم فى الماء ، والحيوانات تتلاقح وتلد ، والرجال يبذرون الحب ، ويقنصون الحيوان ، وكأن ذلك كله أنشودة مصورة تشيد بنعم الإله الشمس ، منشىء الحياة وواهب النعم والخيرات .

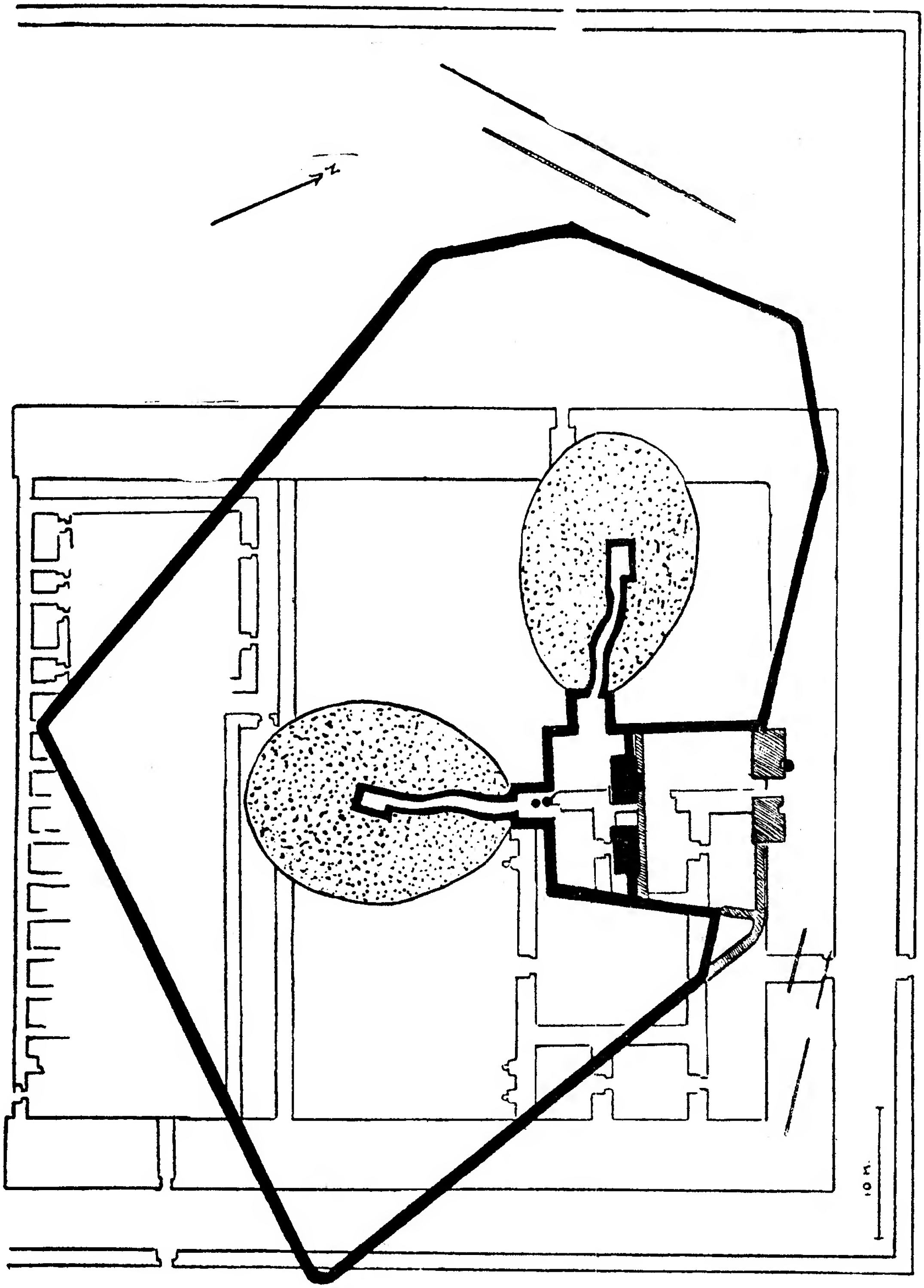
وكان فى جوف قاعدة المسلة أحدور صاعد يوازى جوانبها ، تحلى جدرانه مناظر ملونة تمثل الاحتفال باليوبيل الملكى ، ويؤدى الى سطحها إزاء مشرق الشمس حيث الضوء الشامل بعد ظلام دامس ، وحيث تلقى العين منظراً رائعاً للصحراء والوادى الخصيب.

وقد حفرت فى الصخر خارج المعبد فى جنوبه حفرة كبيرة بنيت فيها باللبن مركب طولها نحو ثلاثين متراً ، تمتد من الشرق إلى الغرب ، ويظن أنها كانت تحتوى على رموز من خشب ، وأنه كانت تؤدى فيها بعض الشعائر الدينية أو أنها كانت ترمز إلى زورق المساء الذى خيل للمصريين أن الإله الشمس يتم فيه كل ليلة رحلته فى العالم الآخر من الغرب إلى الشرق .

الفترة الوسيطة الأولى

كشف فى نجع الميداموود ، شمالى الأقصر ، عن سور من اللبن غير منتظم ، كان يحيط بغابة مقدسة فوق أكمة مصطنعة ، وجد فيها معبد للإله أزيريس من عهد الفترة الوسيطة الأولى (شكل ٦٠)(١).

(١) C. Robichon, A. Varille, Description sommaire du temple primitif de Médamoud ; J. Vandier, Manuel d'archéologie égyptienne, t. II, p. 575 sq.



(شكل ٦٠) معبد أزيريس فى نجع الميدامود

وكان المعبد يتألف فى الأصل من صرح يؤدى إلى فناء فى كل من جنوبه وغربه مدخل يؤدى إلى دهليز ضيق متعرج بسقف مقبى ، وينتهى إلى مقصورة صغيرة . ولم يكن للمدخل باب ويظن أن تعرج الدهليز يرجع إلى الرغبة فى ألا يمتد نظر الواقف عند الباب إلى المقصورة . ويخلو المعبد من أى نقش أو كتابة . ويتفق طرازه الغريب وما يعرف عن طبيعة الإله أزيريس ، إله الموتى ، الذى يختلف كثيرا عن سائر الآلهة الأخرى .

الدولة الوسطى

أقام ملوك الدولة الوسطى المعابد للآلهة فى كثير من البلاد ، غير أنه لم يبق منها سوى آثار قليلة ، ذلك لأن أكثرها هدم فى عهد الهكسوس . وأقيمت مكانه فى الدولة الحديثة معابد جديدة . ومما أمكن الاستدلال عليه فى الكرنك أن معبد الدولة الوسطى فيه كان يشتمل على ثلاث قاعات متتابعة ، وكان فى الأخيرة منها ناووس على قاعدة كبيرة من المرمر المصرى (١) .

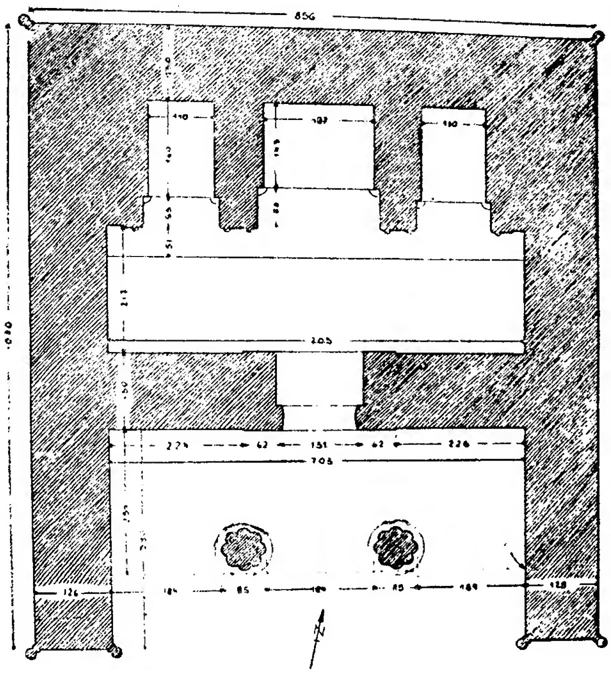
وفى شمال شرقى القاهرة كشف عن أطلال معبد من اللبن من عهد امنمحات الأول فيما يظن . وكان يتألف من فناء وبهو ذى ستة أساطين فى صفين ثم ثلاث مقصورات (٢) .

ولا تزال مسلة المطرية تشهد بما كان لملوك الأسرة الثانية عشرة من منشآت فى معبد الشمس فى عين شمس . وهى إحدى مسلتين أقامهما سنوسرت الأول بمناسبة يوبيله أمام المعبد الذى شيده أبوه ، وهى من حجر الجرانيت الوردى ويبلغ طولها أكثر من عشرين متراً وتزن ١٢١ طنا . وقد ذكر عبد اللطيف البغدادى

(١) J. Vandier, op. cit., t. II, p. 862 sq.

(٢) E. Drioton, P. du Bourguet, Les pharaons à la conquête de l'art, p. 169.

حوالى عام ١٢٠٠ أنه كان على رأسها قلنسوة من نحاس ، وأن المسلة الثانية انصدعت من نصفها وخرت على الأرض ؛ هذا فضلا عما شاهده من تماثيل هائلة عظيمة ومسلات أخرى كثيرة .



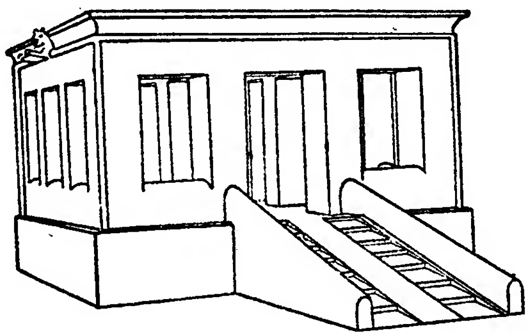
(شكل ٦١) معبد مدينة ماضى

وفى مدينة ماضى فى جنوب غربى الفيوم شيد امنمحات الثالث وأمنمحات الرابع معبداً صغيراً لإلهة الحصاد رننوت وإله التمساح سبك والإله حورس (١) . وكان يتقدم المعبد فيما يظن صرح وفناء ، ويتألف ما بقى منه من صفة ذات أسطونين فى هيئة حزمة بردى ، ثم ردهة مستعرضة تشرف عليها ثلاث مقصورات متجاورات على مستوى أعلى قليلا ، ويحلى واجهاتها الكورنيش المصرى (شكل ٦١ وصورة ١٥) . وقد عثر فى المقصورة الوسطى على ما يمثل الإلهة رننوت جالسة بين الملكين فى مجموعة واحدة من الحجر .

(١) R. Naumann, Der Tempel des Mittleren Reiches in Medinet Madi, Mitteilungen des Deutschen Archaeologischen Instituts, Kairo, 8 (1939), S. 185 ff.

وجاء فى الأثر الأدبى الذى ينسب إلى الملك امنمحات الأول أنه شيد معبداً زخرفه بالذهب ، وسقوفه من اللازورد (أى زرقاء بلون السماء) وأبوابه من نحاس ومزاليجه من برنز لتدوم إلى الأبد(١). ومما حفظ من نصوص ما يسجل أن سنوسرت الأول جمع مستشاريه ورجال البلاط وأعلن اليهم أنه يرغب فى إقامة معبد لأبيه أتوم ليخلد فيه ذكره (٢).

ومن النصوص ما يدل على أن من المعابد ما كان يتضمن مكتبة فقد جاء أن الملك نفرحتب ، أحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة ، شاقه أن يرى كتابات أتوم ، إله عين شمس ، ليتعرف فيها أشكال الآلهة وقرابينها ليصنع للإله أزيريس تمثالا على هيئته . وقد رافقه إليها الأشراف ورجال الحاشية حيث اطلع على وثائق معبد أزيريس (٣).



(شكل ٦٢) جوسق سنوسرت الأول

جواسق اليوبيل

وفى الصرح الثالث فى الكرنك عثر على أحجار جوسق لسنوسرت الأول ، وقد أمكن إعادة بنائه (شكل ٦٢)(٤) ، وهو

(١) A. Erman, Die Literatur der Aegypter, S. 108.

(٢) Ibid., S. 79 ff.

(٣) J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, vol. I, No. 753 ff.

(٤) P. Lacau, H. Chevrier, Une chapelle de Sésostris Ier à Karnak.

من حجر الجير الجيد، ويقوم على قاعدة مستطيلة مرتفعة، وله واجهتان على محور واحد ، يؤدى إلى كل منهما درج يتوسطه أحدور . وتتألف كل واجهة من عمودين فى طرفيها وعمودين فى الوسط بينهما مدخل المعبد ، يعلوه عتب تحليه الشمس المجنحة ، ومن فوقه الكورنيش المصرى . ويشبه الجانبان الواجهتين غير أنهما أكثر طولا وليس بهما مدخل ، ويبرز من وسط الكورنيش ميزاب فى شكل رأس أسد. ويصل الأعمدة معاً سياج منخفض مدور فى أعلاه، يترك بين الأعمدة فراغاً كبيراً . وفى داخل الجوسق أربعة أعمدة فى صفين على امتداد الأعمدة الخارجية . وتحلى جميع الأعمدة صور نقشت بدقة وعناية كبيرة بالتفاصيل .

ويبدو أنه كانت تتوسط الجوسق منصة يعلوها عرشان ، وأن سنوسرت الأول احتفل فيه بيوبيله ، غير أن امنمحات الثالث استبدل بالمنصة قاعدة كبيرة من حجر الجرانيت ، كان الكهنة ينزلون عليها الزورق المقدس ليوم أو أكثر فى الاحتفالات التى كان يخرج فيها تمثال الإله من معبده لزيارة أحد المعبودات الأخرى ، وقد كان ذلك من تقاليد العبادة لكثير من الآلهة المصرية ، إذ لم تكن تماثيلها تستقر على الدوام فى مقصوراتها . على أية حال يتميز جوسق سنوسرت بأناقته ، وحسن نسبه، وبساطة خطوطه ، ويعرف طرازه بطراز المعبد المحاط بالأعمدة .

ويرجع جوسق اليوبيل الملكى إلى الأسرة الأولى على الأقل ، إذ من نقوش الملك نعرمر ما يمثله جالساً بتاج الوجه البحرى فى جوسق فوق منصة عالية ، وسقفه على شكل سقف هيكل الجنوب . ويعتمد فى مقدمته على قائمين من طراز ما يعرف بأسطون الخيمة (شكل ٣)(١).

(١) محمد أنور شكرى : الفن المصرى القديم ، صفحة ٣١ ، شكل ٢٧ .
J.E. Quibell, Hierakonpolis I, pl. XXVI B.

ويسترعى النظر أن الجوسق مفرد غير مزدوج ، مما قد يدعو إلى الظن بأنه كان لعرش واحد ، أو أن الفنان لم يشأ أن يمثل بجانب الملك كرسياً لا يجلس عليه أحد ، أو أنه تقيد إلى حد كبير برسم المنظر من الجانب فحسب (١) . ومهما يكن من أمر فمنذ عهد الملك وديمو أصبح الجوسق يمثل فى الغالب مزدوجاً يؤدى إليه درجان



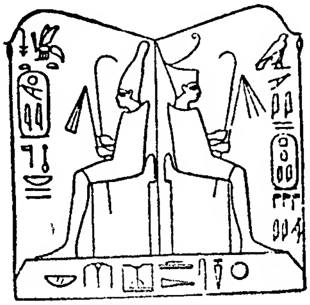
(شكل ٦٣) جوسق الملك نعرمر

متقابلان (شكل ٦٤) (٢) ، وكذلك كانت العلامة التى كانت تخصص معنى لفظ يوبيل فى الخط الهيروغليفى . ولا ينبغى أن يستدل من ذلك على أنهما كانا جوسقين متدابرين حقاً ، إذ تدل منصة زوسر فى الطرف الجنوبى من فناء معبد اليوبيل فى مبانيه فى صقارة

(١) أنظر كذلك F. Petrie, The Royal Tombs of the First Dynasty, vol. I, pl. XV.

(٢) Ibid., pl. XIV, 12. من الحالات ما مثل فيها الجوسق مفرداً وهى قليلة ؛ ومنها ما مثل مزدوجاً يجلس الملك فى أحدهما والكرسى الثانى خال وهو نادر . F.W. Von Bissing, Das Re-Heiligtum des Koenigs Ne-woser-re, II, Taf. 4, 17.

(شكل ١١٣)[١] وما حفظ من جواسق الدولتين الوسطى والحديثة على أن الأمر لم يكن يعدو جوسقاً واحداً ، كان الملك يتجلى فيه تارة بتاج الصعيد وأخرى بتاج الوجه البحرى. وسواء كان العرشان فيه متجاورين على نحو ما كانا فى جوسق زوسر ، أو متدابرين كما يشير إلى ذلك الدرجان المتقابلان فى جوسق سنوسرت الأول وغيره فلم يكن للفنان المصرى إلا أن يرسم كلا منهما من الجانب جنباً إلى جنب خاصة وقد درج على رسم ملوكه وعظماء الرجال من الجانب متجهين إلى اليمين أو إلى اليسار ، ولعل ذلك كان مما دعاه إلى تمثيل الجوسق مرتين .



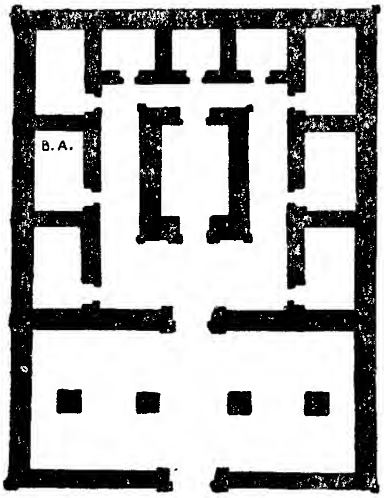
(شكل ٦٤)
جوسق الملك ببى الأول

وفى طود ، جنوبى الأقصر . كشف عن بعض أحجار معبد من عهد الأسرة الحادية عشرة ، عليها نقوش تشير إلى أنه بنى بمناسبة الاحتفال بيوبيل أحد الملوك. وقد هدم فى عهد سنوسرت الأول وأقيم مكانه معبد على طراز المعبد القديم فيما يبدو . وقدر للمعبد الجديد أن يعيش أكثر من ألفى عام إلى أن خربه الحجارون فى القرن الخامس الميلادى وأحالوا أكثر أحجاره إلى كلس . ويبدو مما بقى من أحجاره وما تركه من أثر فى الأرض أنه كان يتألف من ردهة مستعرضة يعتمد سقفها على أربعة أعمدة ، تليها قاعة تتوسطها مقصورة مفتوحة من طرفيها ، كانت تكتنفها أربع قاعات

---

(١) J. Ph. Lauer, La pyramide à degrés, t. II, pl. LV. يغلب على الظن أن الجوسق كان مسقوفاً أو مغطى على نحو ما . وهو ما تزكيه صور الجواسق فى بداية الأسرات وما كشف عنه من جواسق فى الدولتين الوسطى والحديثة .

(شكل ٦٥) (١) . وكانت من وراء ذلك فيما يبدو خمس قاعات أبوابها جميعاً من القاعة الوسطى . وكانت مداخل المعبد وأعمدته من حجر الجرانيت . وقد أخفى كهنته فى أرض احدى القاعات الجانبية ذخيرة طود الشهيرة ، ولحسن الحظ لم تصل إليها أيدى الحجارين ، وتحتوى على مصوغات وسبائك من الذهب و الفضة وخرز وتمائم من لازورد من صناعة أجنبية .



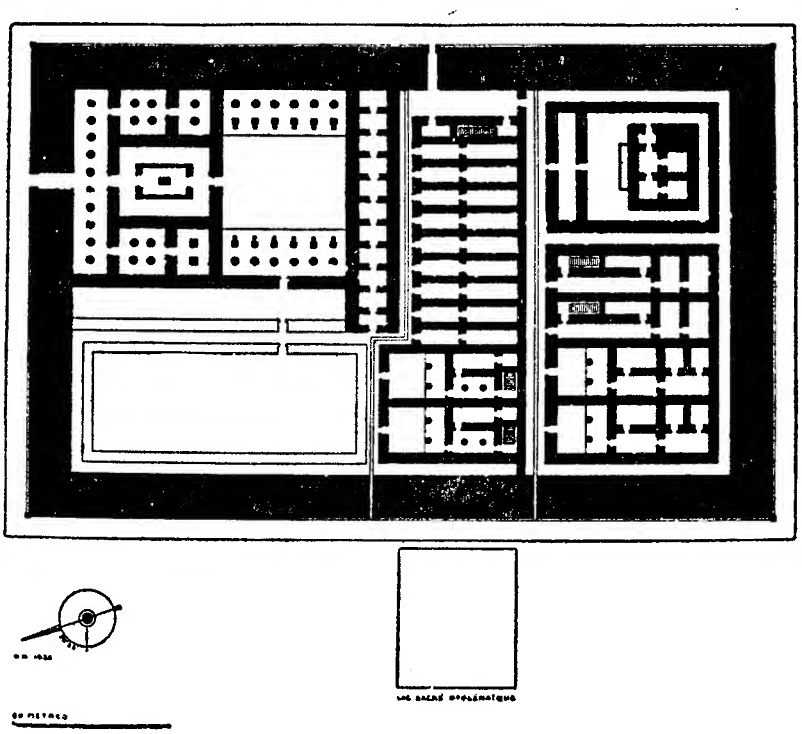
(شكل ٦٥) معبد طود
من عهد الدولة الوسطى

وفى نجع الميدامود كشف فى أساس معبد من العهد البطلمى عن بقايا أساطين وعضادات أبواب وعتب من الحجر لمعبد أقامه فيما يظن سنوسرت الثالث بمناسبة يوبيله ، ويظن أنه كان من اللبن وأساطينه ومداخله من الحجر . ويبدو مما عثر عليه من عناصر معمارية أنه كان يحيط بالمعبد سوران أحدهما من داخل الآخر ، وكان السور الداخلى يضم المعبد وفى غربه مكان فسيح يظن أنه كان فيه قصر للملك ؛ وكانت فى جنوبهما مرافق المعبد من مخازن وصوامع غلال وحظائر وربما أيضاً مساكن للكهنة (شكل ٦٦) (٢) . وكان المعبد يتألف من ردهة مستعرضة يعتمد سقفها على عشرة أساطين ، تليها قاعة وسطى تتوسطها المقصورة ، وهى مستطيلة ومفتوحة من طرفيها ، وتكتنفها أربعة قاعات صغيرة ذات أساطين . وكان من وراء ذلك فناء يظن أنه كانت تكتنفه صفتان بأعمدة أزيرية .

(١) F. Bisson de la Roque, Tod, 1934-1936, pp. 6-16.

(٢) Rapports sur les fouilles de Médamoud, F.I.F.A.O., t. VI, IX.

ويكاد معبدا طود ونجع الميدامود أن يكونا من طراز معمارى واحد يختلف عن طراز جوسق سنوسرت الأول المحاط بالأعمدة . ولا يخلو من مغزى أن جوسق سنوسرت استحال إلى منزل ينزل فيه الزورق المقدس أثناء الاحتفالات الدينية ، كما أنه لا يكاد يتطرق الشك إلى أن معبد طود الذى أعاد بناءه سنوسرت الأول كان للزورق



(شكل ٦٦) معبد نجع الميدامود من الدولة الوسطى

المقدس للإله منتو ، معبود أرمنت . وهكذا استخدم كل من الطرازين المعماريين المختلفين فى الاحتفال باليوبيل الملكى ثم بعد ذلك للزورق المقدس ، وهو ماتدل عليه أيضاً الجواسق والمعابد المحاطة بالأعمدة فى الدولة الحديثة .

وقد أمكن أيضاً جمع أحجار جوسق من المرمر للملك أمنحوتب الأول من الصرح الثالث فى الكرنك (١) . وهو يختلف فى طرازه عن طراز جوسق سنوسرت الأول ويشبه المقصورة فى كل من معبدى طود ونجع الميداموود ، إذ يتألف من قاعة مفتوحة من طرفيها ، ويحليها من الخارج الكورنيش المصرى . ولعلها كانت تتوسط قاعة أخرى كبيرة . وكانت على هذا الطراز أيضا مقصورة الزورق المقدس من حجر الكورتزيت الأحمر التى أقامتها حاتشبسوت فى الكرنك فى المكان الذى تشغله الآن مقصورة الزورق المقدس من عهد الملك فيليب أرهيدى ؛ وكانت تتوسط قاعة كبيرة وتقوم على قاعدة ولها مدخلان متقابلان (٢) . وقد هدمها تحوتمس الثالث وأقام مكانها مقصورة من حجر رملى غير أنه عاد وهدمها وبنى محلها مقصورة من حجر الجرانيت من نفس الطراز (٣) .

ومن أحسن أمثلة طراز المعبد المحاط بالأعمدة معبد صغير لحاتشبسوت فى مدينة حابو ، وقد جعله رمسيس الثالث من داخل حرم معبده الجنازى ؛ ويتألف من درج يؤدى إلى مقصورة مفتوحة من طرفيها من داخل رواق كبير يحيط به من ثلاث جهات صف من أعمدة يجمعها معاً سياج منخفض ، ومن وراء ذلك ست قاعات فى صفين (شكل ٦٧ وصورة ١٦) (٤). ويتوج جدرانه من الخارج الكورنيش المصرى وسقفه على أكثر من مستوى واحد . وقد غير

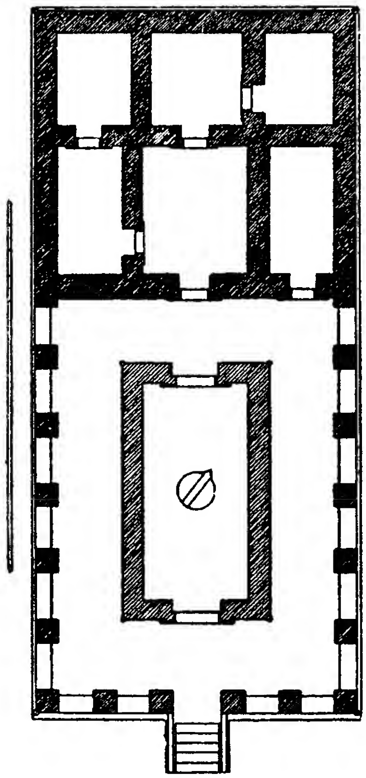
(١) أكمله تحوتمس الأول M. Pillet, Rapport sur les travaux de Karnak, Annales du Service des Antiquités, t. XXIII, p. 113 sq. ; t. —XIV, p. 56 sq. ; Fr. W. von Bissing, Baumeister und Bauten, Studi in Memoria d. I. Rosellini I, S. 149 f.

(٢) J. Vandier, Manuel d'archéologie égyptienne, t. II, p. 799 sq.

(٣) L. Borchardt, Aegyptische Tempel mit Umgang, S. 85 ff.

(٤) U. Hoelscher, The Temples of the Eighteenth Dynasty, p. 166 ff.

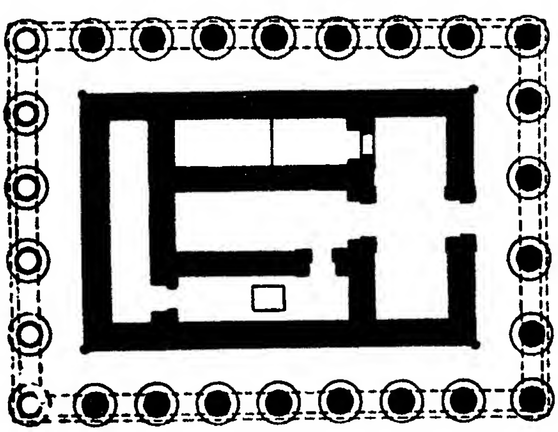
فيه تحوتمس الثالث بعض الشيء ، على أن ذلك لم يغير من طرازه . وفى عصور تالية أضيفت إليه إضافات متتالية أفسدت من جمال مظهره الخارجى.



(شكل ٦٧)
معبد حاتشبسوت وتحوتمس الثالث فى مدينة حابو

وفى بوهين أقامت حاتشبسوت معبداً يتألف من ردهة تليها ثلاث قاعات من ورائها قاعة رابعة ، ومن حولها جميعاً رواق يعتمد سقفه على ستة وعشرين عموداً ذى ستة وعشرين ضلعاً (شكل ٦٨ وصورة ١٧) [١] ، بيد أنه تعرض للتغيير أكثر من مرة .

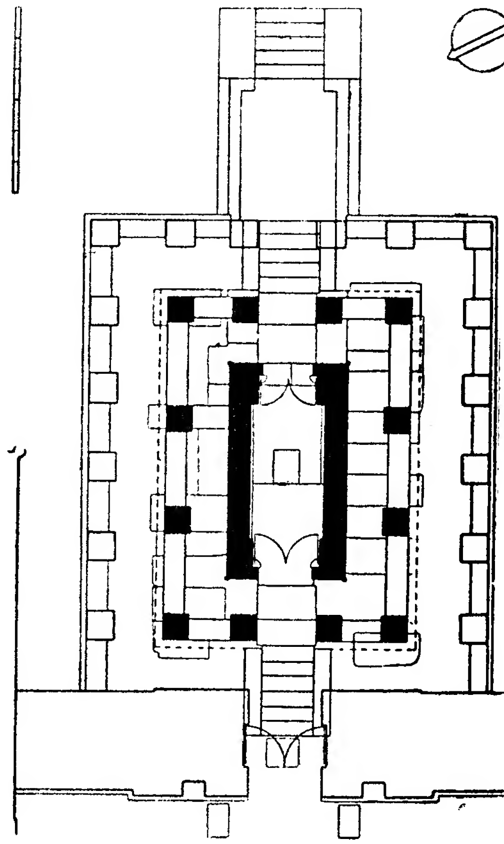
وفيما بين الصرحين السابع والثامن بالقرب من البحيرة المقدسة فى الكرنك أقام تحوتمس الثالث بمناسبة يوبيله الأول جوسقاً صغيراً فوق قاعدة من حجر رملى يتوسطها حجر جرانيت وردى ، ويؤدى إليه درجان متقابلان



(شكل ٦٨) معبد حاتشبسوت فى بوهين

(١) L. Borchardt, op. cit., S. 35 ff., Taf. 12.

(شكل ٦٩) [1]. وكان الجوسق يتألف من جدارين جانبيين ، كل جدار من حجر واحد من المرمر المصرى ، ويعلوهما سقف

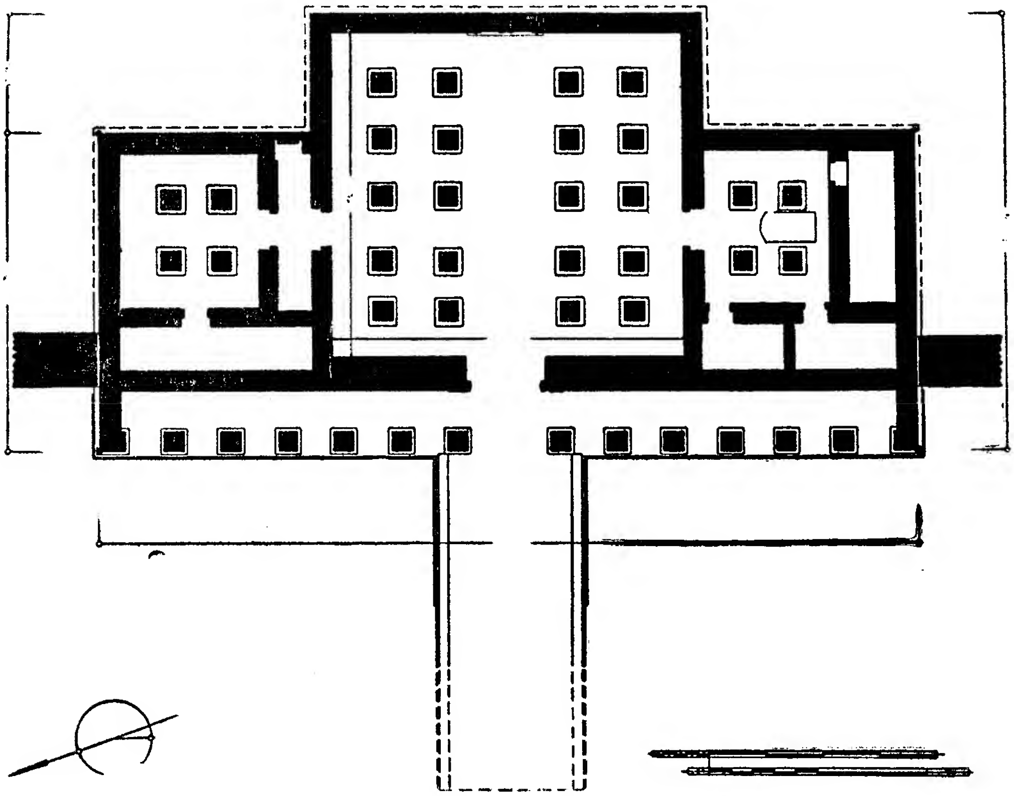


(شكل ٦٩) جوسق تحوتمس الثالث
بين الصرحين السابع والثامن فى الكرنك

من المرمر المصرى كذلك ، وتحيط بهما الأعمدة من الجوانب الأربعة ، ولا بد أن كان لاختلاف لونى الجرانيت والمرمر جماله . ويجمع هذا الجوسق بين طرازى جوسقى سنوسرت الأول وامنحوتب الأول . وبعد أربع سنوات من إنشائه زاد تحوتمس الثالث من سعته بمناسبة الاحتفال بيوبيله الثانى ، وذلك بأن أحاطه بالأعمدة من ثلاثة جوانب . أما الجانب الرابع فكان جزءاً من الجدار الذى

(١) L. Borchardt, op. cit., S. 90 ff., Taf. 19; J. Vandier, op. cit., p. 804.

يصل بين الصرحين ، وكان يتوسطه باب كبير . ولا تدع نقوش هذا الجوسق شكاً فى أنه احتفل فيه باليوبيل على أنه تحول بعد ذلك إلى منزل للزورق المقدس ، إذ لا يزال يوجد فيه جزء من القاعدة التى كان يوضع عليها .



(شكل ٧٠) جوسق امنحوتب الثانى بين الصرحين التاسع والعاشر فى الكرنك

وأقام أمنحوتب الثانى بين صرحى الكرنك التاسع والعاشر بمناسبة يوبيله جوسقاً كان يؤدى إليه درجان متقابلان وتتقدمه صفة ذات اثنى عشر عموداً تفضى إلى بهو ذى عشرين عموداً ، تكتنفه قاعات جانبية (شكل ٧٠) ، وبذلك كان من طراز جديد (١) . وقد هدمه أخناتون ثم أعا د سيتى الأول بناءه لعبادة أمون حيث أغلق أحد مدخليه وأقام فيه نصباً لأمون فى صورة باب وهمى .

(١) L. Borchardt, op. cit., S. 61 ff. ; Abb. 21 ; J. Vandier, op. cit., p. 805 ff.

وكان من أجمل المعابد المحاطة بالأعمدة إن لم يكن أجملها على وجه الإطلاق جوسق أنشأه أمنحوتب الثالث فى جزيرة إلفنتين . ولكنه هدم فى القرن التاسع عشر واستخدمت أحجاره فى بناء أحد القصور . ويبدو من صوره التى سجلتها الحملة الفرنسية (صورة ١٨)(١)، أنه كان يقوم فوق قاعدة مرتفعة ، وأن واجهته كانت تتألف من عمودين بينهما أسطونين برديين يكتنفان المدخل ، وأنه كان فى كل جانب خمسة أعمدة ، ويظن أن الواجهة الخلفية كانت على شاكلة الواجهة الأمامية . وكان يربط الأعمدة والأساطين سياج منخفض يتوجه الكورنيش المصرى . وقد جاء فى وصفه أنه « مثال للبساطة والنقاء » وأن « العين ترتاح إلى ما يسود عناصره المعمارية من اتساق وانسجام » وأن « المصريين بلغوا فيه شوطا بعيداً فى علم النسب » . وشيد رمسيس الثانى فى الفنتين أيضاً معبداً مشابهاً ، لم يبق له أثر فى مكانه (٢) .

يبدو من هذا كله أن الجواسق أو المعابد المحاطة بالأعمدة لم تكن على طراز معمارى واحد . فقد كانت أول الأمر ظلة فوق منصة عالية يعلوها عرش أو عرشان (نعرمر وو ديمو) ؛ وفى عهد زوسر أصبحت المنصة تبنى بالحجر . وفى الدولة الوسطى كان الجوسق رواقاً مسقوفاً تحيط به الأعمدة (سنوسرت الأول) أو بناء تتوسطه مقصورة فى كل من طرفيها مدخل . وتتقدمها ردهة وتكتنفها قاعات (طود والميدامود) . وفى الدولة الحديثة كان قاعة مفتوحة من طرفيها تتوسط قاعة كبيرة (حاتشبسوت وتحوتمس الثالث) . أو قاعة تتوسط رواقا تحيط به الأعمدة (بين الصرحين السابع والثامن فى الكرنك) ؛ وقد يكون من وراء الرواق قاعات أخرى (فى مدنية حابو وبوهين) .

---

(١) L. Borchardt, op. cit., S. 95 ff., Taf. 21.

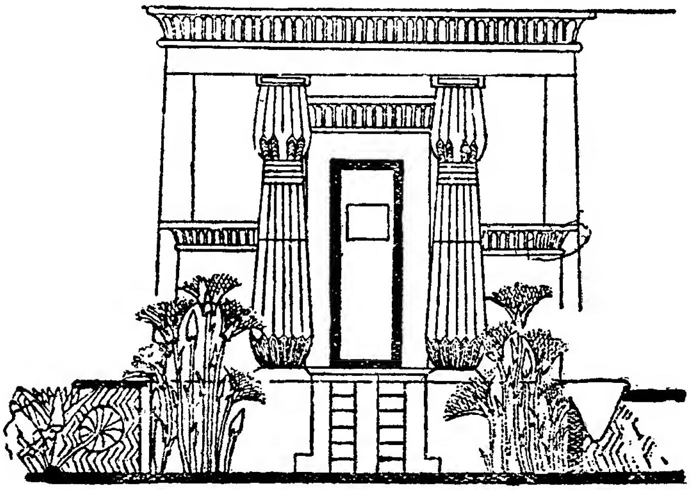
(٢) Ibid., S. 100 f., Taf. 21.

أو بهواً تتقدمه صفة وتكتنفه قاعات (أمنحوتب الثانى)، أو رواقاً تحيط به الأعمدة والأساطين (امنحوتب الثالث) .

ولابد أن كان الجوسق أول الأمر من خشب ، مما قد يدل على أن صلته باليوبيل الملكى أصيلة ؛ ذلك لأنه لم يكن يحتفل بهذا العيد إلا على فترات بعيدة ؛ فلم يكن مايدعو إلى بنائه باللبن أو الحجر. وما من ريب فى أن أهم مادعا إلى بنائه بالحجر فى مبانى زوسر الجنازية فى صقارة أنه قصد إلى أن يحتفل فيه صاحبه بيوبيله فى الآخرة من فترة إلى أخرى على الدوام على نحو ماقصد بغيره من مبانى الهرم المدرج وخاصة ما يعرف ببيتى الجنوب والشمال (١) . ومنذ عهد زوسر كانت الرغبة فى إقامة المبانى الخالدة من الحجر للملوك والآلهة رائد العقائد الدينية والجنازية ؛ كما أنه مما يزيد فى جلال البناء وروعته أن تحلى جدرانه بالصور التى كان يعتقد أن نقشها فى الحجر يكفل تحقيق ما تمثله على الدوام . ولما أصبح الجوسق يبنى بالحجر فقد كان ينتفع به بعد وفاة منشئه مكاناً للزورق المقدس فى زيارات الآلهة فى الأعياد ، وكانت غير قليلة . وقد كان سقف الجوسق فى الأصل يحاكى سقف مقصورة الجنوب . وظلت العلامة الهيروغليفية التى تخصص لفظ يوبيل فى اللغة المصرية تمثل جوسقاً مزدوجا بسقفين على شاكلة سقف مقصورة الجنوب أيضاً ؛ مما قد يشير إلى ماكان بين اليوبيل ومملكة الجنوب من صلة أصيلة . ومع اختلاف الجواسق وما يسمى بالمعابد المحاطة بالأعمدة فيما بينها فلا يخفى أنه تجمعها معاً صفات مشتركة وأغراض واحدة . فكل منها يقوم على قاعدة مرتفعة ويؤدى إليه درج أو درجان متقابلان ؛ وتحيط به الأعمدة أو يتوسط قاعة أو بهواً . وقد سجل رئيس النجارين إبوى فى مقبرته فى غربى طيبة صورة شائقة لجوسق يتألف من رواق ذى سقف عال يحليه

(١) انظر صفحة ٢٨١

الكورنيش المصرى ، ويقوم فى واجهته أسطونان برديين بين عمودين يجمعهما بالأسطونين سياج منخفض ، يتوجه الكورنيش المصرى (شكل ٧١) (١) . وتقوم فى داخل الجوسق مقصورة يتوجها الكورنيش المصرى ولها مدخل عال يغلب على الظن أنه كان يقابله مدخل ثان .



(شكل ٧١) صورة جوسق من مقبرة ابوى

ومن الهياكل الجميلة مقصورة صغيرة أقامها تحوتمس الثالث للإلهة حتحور فى غربى طيبة جنوبى معبد الدير البحرى ؛ تحلى جدرانها صور ملونة بديعة ، وسقفها قبو كاذب تحليه نجوم صفراء فى قاعدة بلون أزرق (صورة ١٩) (٢) . وقد أقام فيها ابنه امنحوتب الثانى تمثالا للإلهة يمثلها فى شكل بقرة بحجم طبيعى وبين قرنيها قرص الشمس ، وكأنها تبرز من غيضة بردى ، وتعد من أروع ما أخرجه المثال المصرى من تماثيل الحيوان ، بل أنها لتفوق سائر ماحفظ من تماثيله فى بلاد الإغريق والرومان .

(١) N. de Garis Davies, Two Ramesside Tombs at Thebes, pl. 28 ; L. Borchardt, op. cit., S. 77.

(٢) E. Naville, The XIth Dynasty Temple, I, pp. 37, 63 ff. , pl. XXVII. وهى محفورة فى الصخر ومكسوة بالحجر الرملى وطولها ثلاثة أمتار وارتفاعها نحو مترين ونصف ، والسقف حجران ملتصقان فى أعلاهما ومنحوتان من أسفل فى شكل قبو .

يتألف الطراز الذى ساد فى بناء معابد الآلهة فى الدولة الحديثة من صرح وفناء وبهو أساطين ومقصورة أو قدس أقداس فى نهاية المعبد ، وكل منها أعظم مساحة مما يليه وذلك عدا قاعات أخرى جانبية . ومن المعابد ماله فناءان ، لكل فناء صرح يتقدمه . ومنها ماله أكثر من بهو أساطين ، كل منها وراء الآخر ، ومنها ماله أكثر من مقصورة واحدة . وتقع جميع أجزاء المعبد الرئيسية على محور واحد بحيث يقسمها طريق فخم مستقيم يبدأ من مدخل المعبد حتى قدس الأقداس ؛ وكان هو الطريق الذى يتخذه الملك إلى مقصورة الإله والذى يتخذه تمثال الإله على أكتاف الكهنة إلى خارج المعبد لاستقبال الملك أو لزيارة بعض الآلهة الأخرى فى معابدها ، وبذلك كان طريق المواكب الدينية . وقد كانت الإحتفالات الدينية وزيارة الآلهة بعضها لبعض من التقاليد الهامة فى الديانة المصرية ، ومما يتفق والمواكب أن يكون طريقها مستقيما من مقصورة الإله حتى خارج المعبد ، خاصة إذا كان من مناسك الاحتفال الخروج بتمثال الإله فى زورق تحف به الكهنة وكبار رجال الدولة . يضاف إلى ذلك أن الخط المستقيم أقوى مايكون فى البيئة المصرية ، وأنه كان له أثره فى شعور المصرى القديم وتصوراته . وقد ساعد هذا التخطيط على اتساع المعبد من أمام بإضافة أبهاء وأفنية وصروح جديدة إليه على نحو ما حدث فى الكرنك بصفة خاصة دون أن يفقده ذلك وحدته المعمارية .

وقد يسرت أسباب الرخاء والتقدم والظروف السياسية فى الدولة الحديثة وما وقفه ملوكها على المعابد من موارد ضخمة توفير الأيدى العاملة فى البناء وإنشاء المعابد الضخمة ، حتى ليعتبر ذلك العهد أعظم عهود الإنشاء والتعمير فى تاريخ مصر القديم . وورث البنّاء من

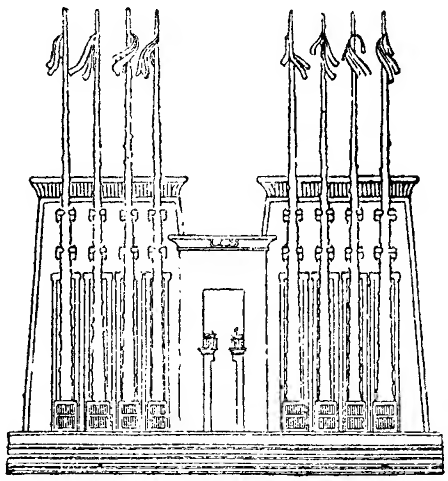
الماضى ذخيرة كبيرة من الأشكال المعمارية استخدمها فى مبانيه فضلا عما ابتدعه من أشكال جديدة تدل على قدرة على الخلق والأبداع تتفق وما أحرزه العصر من تقدم . ويرجع الميل إلى البناء الضخم إلى عهد امنحوتب الثالث ، وهو ما يتجلى فى الصرح الثالث فى الكرنك وفى معبد الأقصر الذى يبلغ ارتفاع بعض أساطينه ستة عشر مترا ، كما يتجلى فى معبده الجنازى فى غربى طيبة الذى قصد به أن يفوق فى السعة والحجم جميع ما سبقه ، ولا يزال تمثالا ممنون يشهدان بذلك .

وتوازى المعابد مجرى النيل أوتتعامد عليه ؛ ومن المعابد ما كانت تتقدمه ميناء على النيل أوعلى قناة تتصل به ، كان يبحر منها تمثال الإله فى أيام الأعياد لزيارة إله معبد آخر ، كما كانت ترسو فيها السفن حاملة إلى المعبود خراج أملاكه وعطايا الملك . ويؤدى إلى المعبد عادة طريق تحف به تماثيل الكباش أو أبى الهول (صورة ٢٠) ، وكان يسمى « طريق الإله » ، ومن شأنه أن يزيد فى إبراز محور المعبد ، ويضفى على المكان رهبة وجلالا . وكان من اليسير جدا أن يخلق الجمع بين رأس إنسان أو رأس كبش وجسم أسد شكلا غريبا ، بيد أن الفنانين المصريين بلغوا الغاية فى التوفيق بين مظهرى الطبيعتين المختلفتين بما كفل لما أبدعوا من تماثيل أعظم الأثر وأفخمه .

وكان المعبد فى الدولة الحديثة يبنى عادة بحجر رملى كبير ، على أن من المعابد ما بنى كله أو بعضه بحجر الجير . وصرح المعبد بناء ضخم ذو برجين عظيمين بقاعدة مستطيلة ، وتميل جدرانهما إلى الداخل بحيث يضيق سمكهما كلما امتدا فى الفضاء ، وتحيط بحافتى كل جدار وأعلاه خيرزانة ، ويتوجه الكورنيش المصرى (شكل ٧٢ وصورة ٢١) . وإذ يعلو الصرح متساميا فى الفضاء فانه يشرف على كل ما يحيط به وعلى ما يمتد من خلفه من أفنية وأبهاء كأنه عليها حارس مكين . وقد وصف فى بعض النصوص المصرية بأنه « ينظر

إلى السماء » وأنه « يناطح السماء »وأنه يمتد فى أجواز الفضاء «كأعمدة السماء » (١) .

وتتيح جدران الصرح مساحات شاسعة للصور والمناظر ، وتحلى واجهته صورة رمزية ضخمة للملك تمثله وهو يقمع رءوس حفنة من الأعداء راكعة فى استسلام ورجاء . وكانت تقوم فى واجهة كل صرح ساريتان أو أكثر (٢) من خشب الأرز أو السرو ، منها ماكان يزيد طوله على ثلاثين مترا . وكانت الساريات تعلو الصرح وتنتهى بأعلام ملونة يلوحها الهواء فى الفضاء علامة المكان المقدس ، وكانت ذرى الساريات تغشى بذهب يلمع فى ضوء الشمس . وتتقدم الصرح وظهورها إلى جداره تماثيل ضخمة للملك ، كل منها من حجر واحد . وفى بعض الأحيان كانت تقوم من أمامه مسلتان يعلوانه ، كل منها من قطعة واحدة من حجر الجرانيت . وكان ذلك كله يزيد فى روعة المعبد وضخامة أثره .



(شكل ٧٢)

صرح من رسم قدماء المصريين

وبين البرجين مدخل عظيم من حجر الجرانيت يعلوه الكورنيش المصرى وتحلى عتبه الشمس المجنحة ، صورة الإله الشمس معبود إدفو . وكان للمدخل باب ضخم من خشب يغشيه برنز وذهب أو

(١) يبلغ عرض الصرح الأول فى الكرنك ١١٣ متراً وسمكه عند قاعدته ١٥ متراً وكان ارتفاعه ٤٠ مترا.

(٢) كان لكل من صروح المعابد الصغيرة ساريتان ، وكان لصروح معظم المعابد أربع ساريات ، على أنه كان لبعض صروح معبد الكرنك ثمان ساريات ، ثم بلغت عشر ساريات فى معبد أتن .

خليط الذهب والفضة (الألكتروم)(١) . وقد وصف آمنحوتب الثالث باب الصرح الذى شيده فى الكرنك ، وهو الصرح الثالث ، بأنه « باب عظيم جدا أمام أمون رع ، سيد عروش القطرين ، مصفح سطحه كله بالذهب ، وصورة الأله فى هيئة كبش مرصعة بلازورد حقيقى ومصفحة بذهب وأحجار ثمينة عديدة ، وليس له مثيل ، وأرضه محلاة بفضة »(٢). وفى أحد البرجين سلم ضيق يؤدى إلى قاعات فى أكثر من طابق ، تضيئها نوافذ ضيقة ثم إلى أعلى الصرح .

وفناء المعبد أوسع مكان فيه ، وقد تقوم فى مؤخرته أو فى كل من جانبيه أوفى جوانبه الأربعة صفة مسقوفة ، كان الغرض منها فيما يبدو حماية ما يحلى الجدران من نقوش ملونة من ماء المطر وأشعة الشمس ، وربما كان يقف فيها من يسمح لهم بمشاهدة الأحتفالات الدينية . وكان الفناء يسمى « ساحة الأعياد » ، حيث كان يحتفل فيه بأعياد دينية مختلفة وبعض مناسك اليوبيل الملكى مثل شعيرة الجرى . ويظن أنه لم يكن يسمح لغير طائفة مختارة من الأفراد الدخول إليه لمشاهدة موكب الأله فى أعياده ؛ بيد أن من الباحثين من يظن أنه كان الجزء العام من المعبد ، الذى كان يسمح للجمهور بالوقوف فيه أيام الأعياد . وقد يحتوى الفناء على مائدة قرابين كبيرة .

وبهو الأساطين قاعة كبيرة تشغل عرض المعبد وتتألف فى المعابد الكبيرة فى الأسرة التاسعة عشرة وما بعدها من ثلاثة أروقة فى الوسط يعلو سقفها سقفى الأروقة التى تكتنفها ، ويعتمد على صفين من

---

(١) من صور مقبرة الوزير رخمارع ما يمثله وهو يشرف على صنع باب من النحاس
N. de G. Davies, The Tomb of Rekh-mi-re at Thebes, vol. II, pl. LII.

(٢) J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, No. 889.

أساطين بردية عالية ذات تيجان على شكل زهرة يانعة تحمل أعتابا ضخمة (شكل ٨٣) . ويعتمد سقفا الأروقة الجانبية على صفوف من أساطين بردية أقل ارتفاعا ذات تيجان على هيئة براعم البردى ، وتشغل الفرق بين سقف الأروقة الثلاثة الوسطى وسقفى الأروقة الجانبية شبابيك يتسرب الضوء والهواء منها ومن فتحات ضيقة فى سقفى الأروقة الجانبية (شكل ٨٥) . وكان البهو المكان الذى يستريح فيه الإله والذى يتجلى فيه لعدد قليل من الكهنة وكبار رجال الدولة الذين يسمح لهم بدخوله . ولذلك كان يسمى « مكان راحة الإله » و « بهو التجلى » . وكان يتوج فيه الملك بعد تطهره . ويتولى ذلك كاهنان يمثلان حورس وتحوت ؛ ولذلك كان يسمى أيضا « بهو التاجين » . وفيما وراء بهو الأساطين لم يكن يسمح لغير الملك ورئيس الكهنة بدخوله . ذلك لأنه كان القسم الخاص للإله .

وقدس الأقداس أو مقصورة الإله قاعة مستطيلة فى نهاية المعبد . كان يحفظ فيها تمثال الإله أو رمزه فى ناووس أو فى زورق على قاعدة فى وسطها . وكان على الملك ورئيس الكهنة قبل أن يتقدم إلى تمثال الإله أن يتطهرا حسب شعيرة خاصة ، وكان على الملك أيضا فى معبد الكرنك أن يؤدى شعيرة « الصعود الملكى » ، التى تفضى به إلى عرش أمون . وكان من طقوس العبادة اليومية أن يخلع عن تمثال الإله رداوءه ، ويكسى برداء جديد ، ويقدم له القربان ويعطر ، مما دعا إلى أن يكون مكانه فى نهاية المعبد فى مكان مهيب بعيدا عن الأنظار . وقد يشتمل المعبد على مقصورات بعدد الآلهة التى تعبد فيه ، وكانت فى الغالب ثلاثة : الأب والأم والأبن . ولا يخلو معبد من قاعات جانبية تكتنف أبهاء الأساطين ، كانت تودع فيها ذخائر الإله وأدوات الطقوس .

والفناء مكشوف يغمره ضوء الشمس طول النهار ؛ وبهو

الأساطين مسقوف وضوؤه قليل ؛ أما قدس الأقداس فيقع فى أظلم مكان فى المعبد . وأرض بهو الأساطين أعلى من أرض الفناء ، بما يتفق وما تذكره النصوص المصرية عن « الصعود إلى المعبد » ؛ على أن سقف قدس الأقداس أوطأ السقوف . ويوحى ذلك كله بأن المعبد يكنى عن العالم وأن قدس الأقداس يمثل الأفق حيث تلتقى السماء بالأرض . ويشير إلى ذلك أنه كان يمثل على سقف كل من بهو الأساطين وقدس الأقداس نجوم زاهرة باللون الأصفر فى قاعدة زرقاء تمثيلا للسماء ؛ كما أن من النصوص ما يصف المعبد بأنه « كالسماء على عمدها » ، « يشرق فيه رع » . وكان معبد أمون فى الكرنك يسمى « السماء على الأرض » ، وكانت أبواب المعبد توصف بأنها « أبواب السماء » أو « أبواب الأفق » ؛ وكانت أركان المعبد الذى يراد بناؤه توصف بأنها أعمدة السماء ؛ وكان قدس الأقداس يسمى « الأفق » . وهكذا ترقى أجزاء المعبد الرئيسية حتى قدس الأقداس مبتعدة عن عالم الحياة الدنيا ومقتربة من عالم الآلهة فى أفق السماء . وتوالى القاعات على أكثر من مستوى ، وتضاؤل الضوء كانا مما يزيد فى رهبة قدس الأقداس فى مكانه المظلم فى أقصى المعبد .

وتحلى السطوح الخارجية للمعبد ، وكذلك السطوح الداخلية للأفنية صور ومناظر فى حجم كبير وفى نقش غائر وبألوان بهيجة تخلد أعمال الملك الحربية ، ومواكب الأعياد العظيمة ، وتضفى على السطوح الكبيرة حياة وبهجة . ومنذ سيتى الأول بدأ الفنانون يحلون هذه السطوح بصور كبيرة للمواقع الحربية بدلا من تسجيلها كتابة ؛ وفيها يقف الملك بقامته المديدة فى مركبته يرمى الأعداء بوابل من السهام وهم يحاولون عبثا الفرار من خطره الداهم ، غير أن سهامه لا تخطئهم فيتساقطون قتلى وجرحى على الأرض . ومن ورائه جنده وبعض أمراء البيت المالك . منهم من يهاجم الحصون ،

ومنهم من يتسلق أسوارها . ولم يكن القصد من هذه المناظر تسجيل الأحداث التاريخية فحسب وإنما كان الغرض منها أيضا أن تكفل النصر للملك على الدوام حتى لكأنها دعاء مكفول الأجابة .

وتخلد الصور على جدران القاعات الداخلية الشعائر الدينية التى كانت تؤدى فى المعبد ، وكان يعتقد أن الملك وحده هو الذى يجوز له أداؤها للآلهة ، ولذلك تمثله الصور وحده وهو يقدم القربان للآلهة ويؤدى لها الشعائر ويتلقى منها النعم والبركات . وتمثل الصور الآلهة ووجوهها إلى خارج المعبد لاستقبال الملك بينما تمثل الملك متجها إلى الداخل . وكان من الزخارف الهامة صورة إله إدفو فى شكل قرص الشمس بجناحين يمتدان عن يمين ويسار كرمز للحماية فوق الأبواب . وكانت النقوش فى داخل المعابد حتى عهد سيتى الأول نقوشا بارزة تمتاز بجمالها وأناقتها ، ومنذ رمسيس الثانى شاع النقش الغائر العميق .

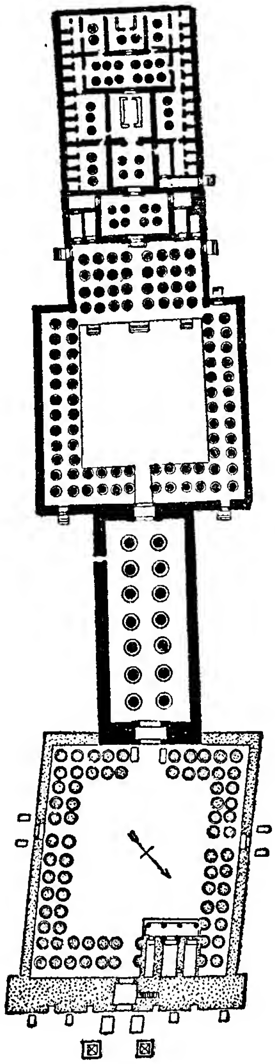
وتعد المعابد المصرية كتبا ضخمة من الحجر تسجل ماقام به الملوك من أعمال وتخلد ما كان يؤدى فيها من مناسك . وإذا كان من شأن الصور الملونة بألوان زاهية على الجدران والأساطين أن تجذب إليها النظر ، فان فى ضخامة البناء وسموق أساطينه ، وفخامة أبوابه المصفحة بالذهب أوخليط الذهب والفضة ، وما يتمثل من هيبة ووقار فى صور الآلهة والملك وما يؤديه لها من شعائر ومناسك ما يصل بروعة المكان إلى أقصى ما كان يستطيع أن يتصوره خيال ، ويسمو إلى ما كان يتفق وعالم القداسة والجلال .

ويحيط بالمعبد سور ضخم من اللبن(١) ، كان يضم أيضا مساكن الكهنة والموظفين ، ومكاتب إدارة المعبد ، ومخازن مختلفة ،

---

(١) يبلغ طول السور الخارجى لمعبد أمون فى الكرنك ٥٥٠ متراً تقريباً وعرضه ٤٨٠ متراً وجملة طوله ٢٢٦٠ متراً وسمكه ١٢ متراً .

ومصانع ، ومخبز ، وحدائق ، وبحيرة مقدسة ، تغذيها مياه الرشح من النيل (١) ، كانت تؤدى عليها احتفالات فى أيام معينة ، ثم مدرسة ومكتبة (٢) فى بعض الأحيان على الأقل ؛ وبذلك كان المعبد أشبه بمدينة صغيرة . ومع أنه كان قبل كل شيء بيت الأله ، فقد كان فى نفس الوقت مركز نشاط اقتصادى وعقلى ، كما كان المركز الذى نشأت فيه التمثيليات الدينية والذى ظل يشرف على أدائها .



(شكل ٧٣)
معبد الأقصر

ومن أهم أمثلة المعابد من هذا القبيل معبد الأقصر الذى شيده أمنحوتب الثالث على ضفة النيل الشرقية فى طيبة مكان معبد قديم وخصصه لعبادة ثالوث طيبة الذى يتألف من أمون رع وموت وإبنهما خنسو ، الإله القمر (شكل ٧٣) . وهو من أحسن المعابد المصرية حفظا وأجملها بناء إن لم يكن أجملها على وجه الإطلاق ، وفيه يتجلى تخطيط المعبد المصرى أوضح ما يكون ، وإن كانت قد أضيفت إليه إضافات وحدثت فيه تغييرات فى عهد رمسيس الثانى والعهدين البطلمى والقبطى ، إلا أنها لم تغير من

---

(١) من ذلك مثلا بحيرة معبد أمون وبحيرة معبد موت وكلاهما فى الكرنك ، وتحيط بحيرة موت بأكثر أجزاء المعبد .

(٢) كشف فى معبد الأقصر عن قاعة كانت خزانة للكتب ، ومن نصوص واجهتها مايسجل أن رمسيس الثانى سعى إليها حيث نشر وثائق دار الحياة وعرف منها خفايا السماء وأسرار الأرض .

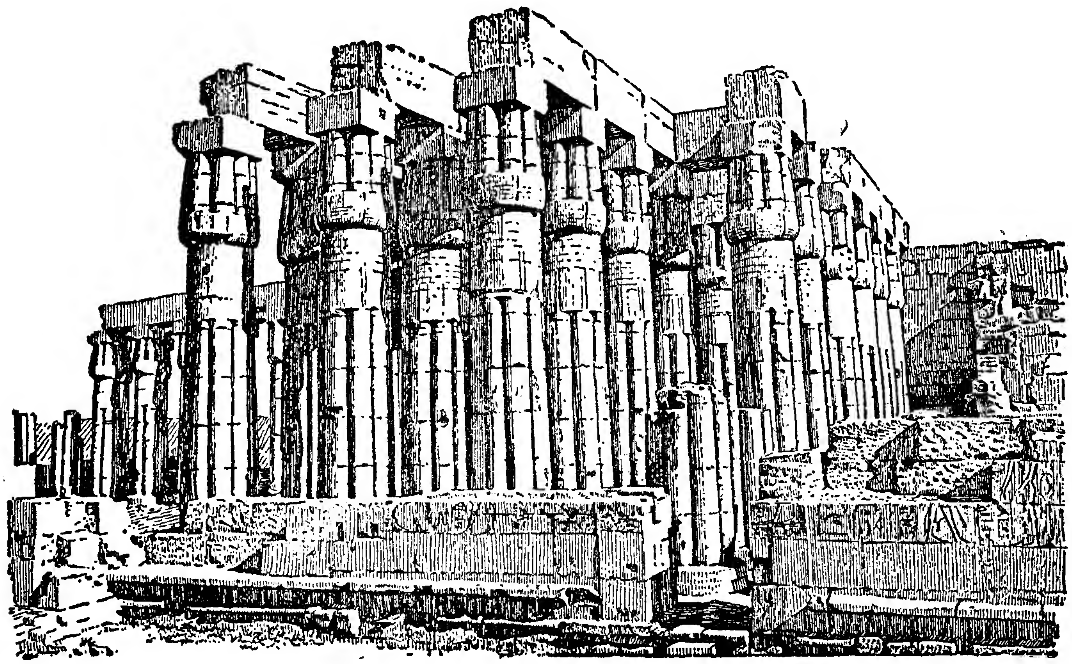
صفاته الرئيسية ، إذ رغم ذلك يؤلف وحدة معمارية واضحة المعالم. ويمتد محوره من الشمال إلى الجنوب ، ويتقدمه رواق فخم يقوم فيه صفان من أساطين عظيمة ، فى كل صف سبعة أساطين (صورة ٢٢) [١]. ويسمو كل أسطون فى أجواز الفضاء إلى ارتفاع ستة عشر مترا تقريبا : وهو بذلك أصغر قليلا من أساطين بهو الكرنك ، ولكنه يفوقها فخامة وجمالا ودقة ؛ ويمثل غصنا واحدا ضخما من البردى ، مثلث المقطع ، ضيق المنبت ، وقد احتفظ بالرباط ذى اللفات الخمسة أسفل تاجه الذى على شكل زهرة بردى يانعة تنحنى خطوطها فى رشاقة وجمال كأنها ناقوس كبير فتحته إلى أعلى ويخفى من فوقه الركيزة. ويزيد هذا الرواق فى إبراز محور المعبد ، وتحلى جدرانه مناظر تمثل الاحتفالات الشائقة فى النيل وفى البر أثناء زيارة أمون إله الكرنك لمعبد الأقصر فى الشهر الثانى من أشهر الفيضان ؛ وكانت تستغرق فى الأسرة الثامنة عشرة خمسة عشر يوما ، وفى عهد الرعامسة أربعة وعشرين وأحيانا سبعة وعشرين يوما.

ويؤدى الرواق إلى فناء فسيح (٥٢ × ٤٨ مترا) ، تحيط به من ثلاثة جوانب ثلاث صفات ، فى كل صفة صفان من أساطين على شكل حزمة بردى مبرعم ، ولكل غصن ضلوع ثلاثة بارزة تمثل غصن البردى فى صدق. ومن وراء الفناء ردهة عريضة تضم إثنين وثلاثين أسطونا برديا فى أربعة صفوف (شكل ٧٤) ، ويليها بهوان صغيران متتاليان فمقصورة الزورق المقدس ، وكانت تتوسطها قاعدة كان يودع عليها زورق أمون معبود الكرنك عند زيارته لمعبد الأقصر كل عام. ومن ورائها بهو مستعرض ذو صفين من الأساطين

---

(١) H. Schaefer, Die angebliche Basilikenhalle des Tempels von Luxor ; Gedanken zur aegyptischen Tempelbaues, Aeg. Z. 61, (1926), 52-5.

البردية ، فى كل صف ستة أساطين ؛ ثم قدس الأقداس ويعتمد سقفه على أربعة أساطين فى صفين ، وكانت فى نهايته قاعدة كبيرة يتوجها الكورنيش المصرى ومن فوقها تمثال كبير للإله أمون [1] .



(شكل ٧٤) أساطين ردهة معبد الأقصر

وتكتنف الجزء الداخلى من المعبد قاعات وأبهاء فى مقدمتها مقصورتا الإلهة موت والإله خنسو ، حيث كان يودع زورقاهما فى العيد السنوى لأمون . ومنها بهو صغير تحلى جدرانه صور تمثل ولادة أمنحوتب الثالث من أبيه الإله أمون وتتويجه ملكا على البلاد .

وتتميز أبهاء المعبد وقاعاته بحسن نسبها ، كما تتميز أساطينه بأناقتها ، ودقة خطوطها ، وحلاوة نسبها ، وصدق محاكاتها للنبات الذى تمثله ، والفرق جد عظيم بينها وبين الأساطين ذات الساق الملساء فى الفناء الكبير الذى أضافه رمسيس الثانى فى مقدمة المعبد .

(١) J. Vandier, op. cit., II, p. 844.

ولا يقع محور هذا الفناء على امتداد محور المعبد وإنما ينحرف قليلا إلى الشرق ، ويبدو أن ذلك يرجع إلى مقصورات ثلاث لتحوتمس الثالث أعاد بناءها رمسيس فى مكانها القديم الذى يعترض امتداد محور المعبد . وتحيط بالفناء الصفات ، يعتمد سقف كل منها على صفين من الأساطين ذات التيجان على شكل براعم البردى ، وتقوم بين الأساطين الأمامية فى النصف الجنوبى من الفناء تماثيل كبيرة لرمسيس من حجر الجرانيت . ومع اختلاف مظهر هذه الأساطين عن أساطين أمنحوتب الثالث إلا أن لها أثرها فى النفس يزيده تأثيرا جامع أبى الحجاج الذى يعلو الركن الشمالى الشرقى من الفناء . وأنه ليرجى الاحتفاظ بهذا الجامع فى مكانه مع التخلية من تحته ، إذ لا يظن أن تعجز عن ذلك وسائل البناء فى الوقت الحاضر .

ويتقدم الفناء صرح عظيم تكتنف مدخله ستة تماثيل ضخمة لرمسيس الثانى ، إثنان منها على يمين ويسار المدخل من جرانيت أسود يمثلانه جالسا ، والأربعة الأخرى من جرانيت وردى تمثله واقفا . ومن أمامها مسلة شاهقة من حجر الجرانيت الوردى ، تحلى أختها الآن ميدان الوفاق ، أعظم ميادين باريس (١) . وكان يصل بين معبد الأقصر ومعبد الكرنك طريق طويل مرصوف يحفه صفان من تماثيل ضخمه يمثل بعضها أسدا برأس إنسان وبعضها الآخر أسدا برأس كبش .

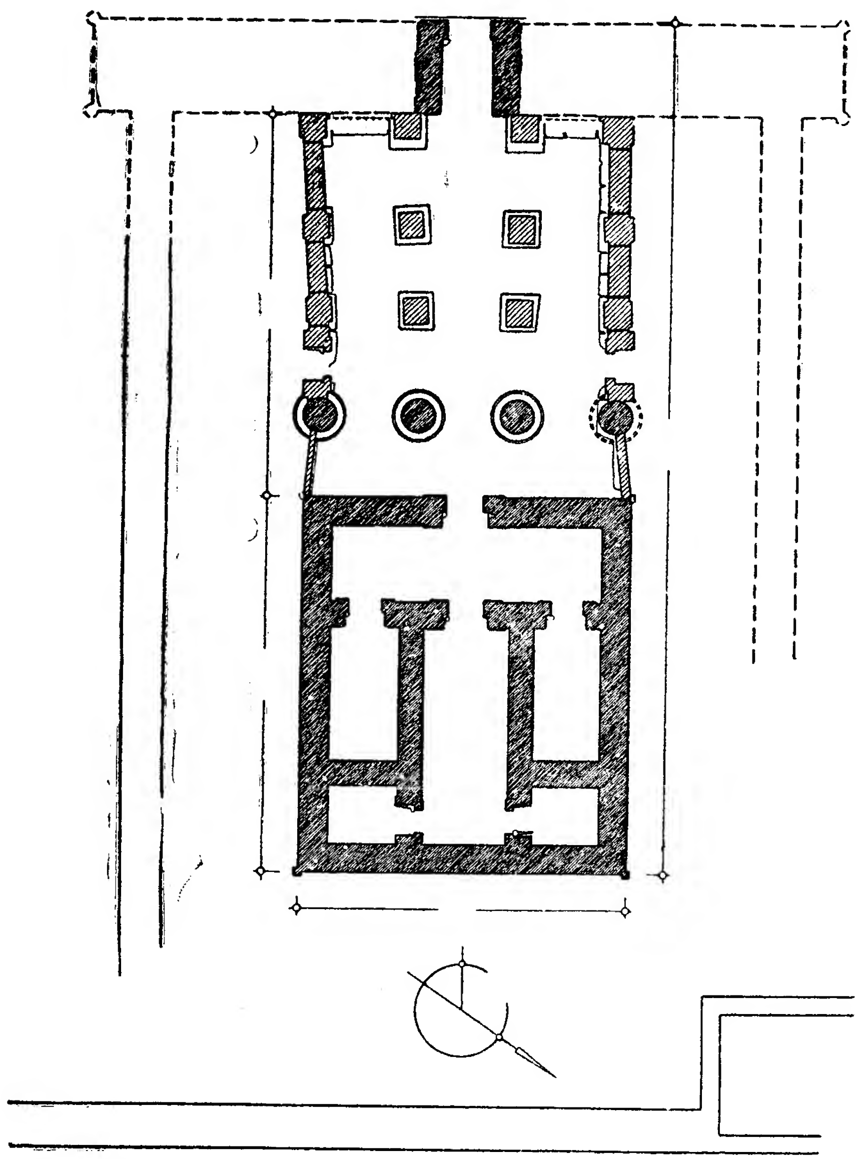
ومن أمثلة هذا الطراز من المعابد فى بلاد النوبة معبد أمدا (شكل ٧٥) (٢) ، وقد سحب(٣) من مكانه إلى مكان مرتفع خلف مكانه

---

(١) أهدى محمد على المسلتين إلى شامبليون الذى أهداهما بدوره إلى الملك لويس فيلب ؛ وقد أمكن نقل إحداهما إلى باريس وظلت الأخرى فى مكانها ، وطولها ٢٢,٨٣ من المتر ، بينما يبلغ طول مسلة باريس ٢٥,٠٣ من المتر . وتقوم كل مسلة على قاعدة تعلو جانبين منها تماثيل قردة .

(٢) M.H. Gauthier, Le temple d'Amada.

(٣) لما كان المعبد مبنياً من حجر منحوت مغشى بطلاء من جبس فقد خيف على نقوشه مما دعا إلى سحبه على قضبان من حديد إلى مكانه الجديد بدلا من فك أحجاره .

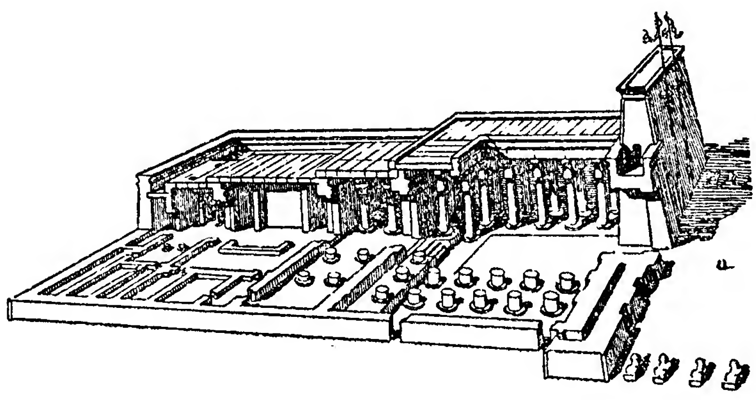


(شكل ٧٥) معبد أمدا

الأصلى حتى لا تغمره مياه السدالعالى . وقد أقامه تحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى لعبادة أمون رع ورع حراختى ؛ وكان يتقدمه صرح من اللبنلم يبق منه غير مدخله من الحجر ، وكان يؤدى إلى فناء فى مؤخرته صفة من أربعة أساطين ، وقد حول تحوتمس الرابع الفناء إلى بهو ، أقام فيه إثنى عشرعمودا فى ثلاثة صفوف . ويفضى

البهو إلى ردهة مستعرضة تؤدى إلى المقصورة على محور المعبد وإلى قاعتين عن يمين ويسار ؛ وفى الجدار الخلفى للمقصورة نص طويل سجل فيه أمنحوتب الثانى انتصاره على الأسيويين . وتكتنف الجزء الداخلى من المقصورة قاعتان صغيرتان يظن أنه كانت تودع فيهما الأوانى والأدوات اللازمة لأداء الطقوس . وتحلى جدران المعبد صور جميلة ، منها ما يمثل طقوس تأسيس المعبد وشعائر التتويج .

وعلى شاكلته أيضا المعبد الذى شيده أمنحوتب الثالث فى صولب شمال الشلال الثالث ، وكان من أكبر المعابد المصرية فى بلاد النوبة(١). وكان يتقدمه طريق تحف به تماثيل الكباش ، يؤدى من الميناء إلى ردهة أمام صرح من خلفه فناء ، تحيط به الصفات . ويفضى الصرح إلى بهو أساطين ، يشتمل على ثمانية وأربعين أسطونا فى ستة صفوف . وكان من وراء ذلك بهو ثان ثم بقية أجزاء المعبد غير أنها تهدمت .

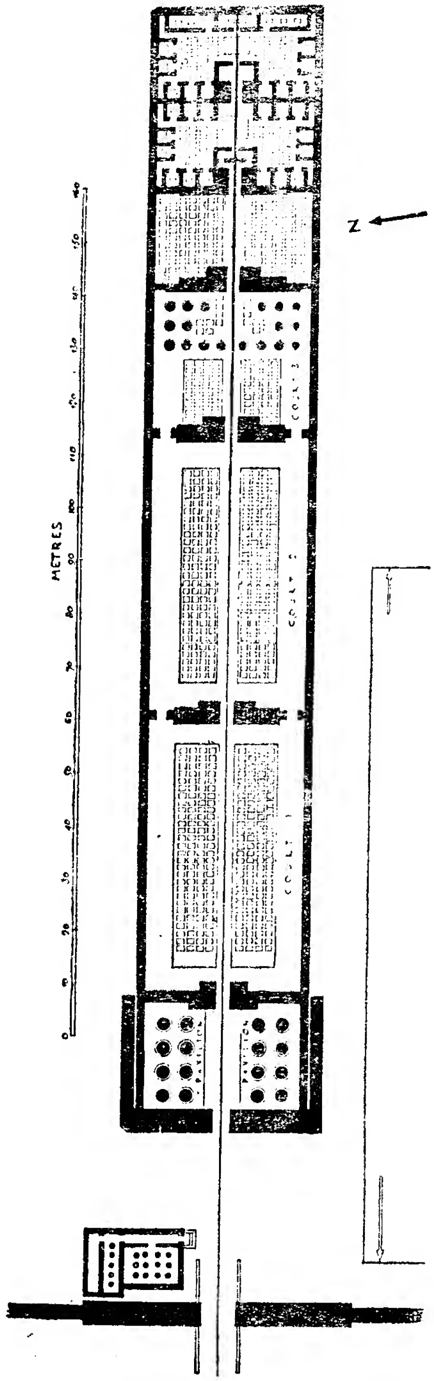


(شكل ٧٦) معبد خنسو

وعلى هذا الطراز أيضا معبد خنسو فى الكرنك ، وقد بدأ بناءه رمسيس الثالث ، وأتمه حريحور أول ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، وأسهم فى تحلية جدرانه ملوك آخرون حتى العهد البطلمى ؛ ومع ذلك يؤلف وحدة معمارية واضحة المعالم (شكل ٧٦) . ويجرى محوره

(١) J. Vandier, op. cit., II, p. 968.

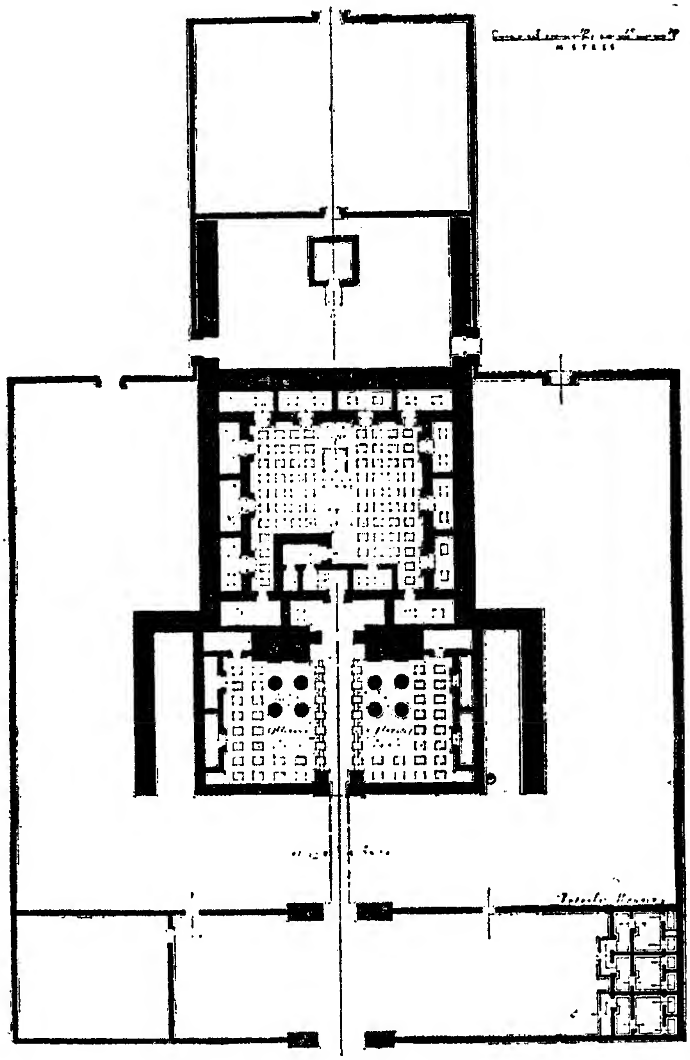
من الجنوب إلى الشمال ، وكان يتقدمه طريق تحف به تماثيل الكباش ؛ ويؤدى إلى صرح تحلى واجهته أربع ساريات ، ويتوسطه مدخل من حجر الجرانيت . ويشتمل على فناء تكتنفه صفتان ، وفى مؤخرته درج يؤدى إلى صفة بمثابة ردهة لبهو الأساطين . ويعتمد سقف بهو الأساطين على ثمانية أساطين فى صفين ، وتعلو الأساطين الأربعة الوسطى الأساطين الجانبية . ومن وراء ذلك مقصورة الزورق المقدس تتوسط قاعة كبيرة مستطيلة ، تكتنفها قاعات ودرج . وفى مؤخرة المعبد قاعة تحيط بها قاعات من ثلاثة جوانب .



(شكل ٧٧) معبد أتن العظيم

معبد أتن العظيم

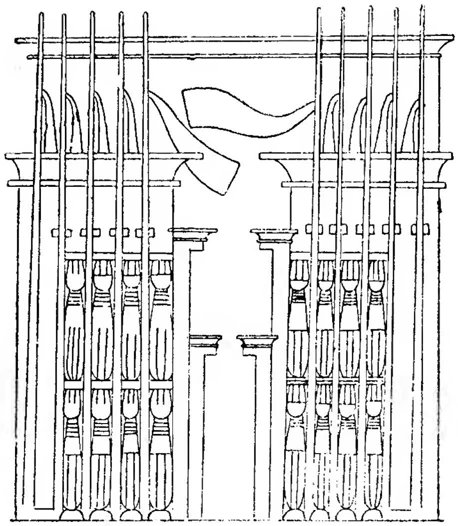
أقام أخناتون فى تل العمارنة معبدين لمعبوده أتن « مبدىء الحياة » ، « الإله الأوحد الفرد » وقد تهدما . على أنه يبدو من آثارهما وصورهما على جدران بعض المقابر أنهما من طراز جديد . وكان المعبد العظيم (شكل ٧٧) من أحجار صغيرة ، ويحيط به سور كبير طوله ثمانمائة متر وعرضه ثلثمائة تقريبا ، ويتوسط جداره الغربى مدخل فى شكل صرح ذى برجين عاليين من



(شكل ٧٨) هيكل معبد أتن العظيم

اللبن مؤزر بحجر فيما يظن . وكان المعبد من . ثلاثة أقسام : بيت الأفراح ، ولقاء أتن ، والهيكل ، وكلها على محور واحد ، وكان بيت الأفراح ولقاء أتن بالقرب من المدخل ، أما الهيكل فكان فى أقصى الشرق من المعبد بحيث يبعد عن لقاء أتن بنحو ٣٢٠ مترا (شكل ٧٨ وصورة ٢٣) . وكان يتقدم بيت الأفراح صرح من اللبن بكساء من حجر الجير ، وفى واجهة

كل من برجيه خمس ساريات عالية ترفرف فى أعلاها الأعلام (شكل ٧٩). وكان عتب المدخل مفروقاً لايحول دون أشعة الشمس، وقد نشأ عن ذلك طراز جميل للمداخل فى المعابد والهياكل فى العمارنة استغنى فيه عن العتب والكورنيش إلا عن جزأين صغيرين فى طرفى أعلى المدخل يثبت



(شكل ٧٩)
صرح معبد أتن كما رسمه المصريون

فى كل منهما نجران من معدن أو حجر صلد يدور فيه العقب الأعلى لكل من مصراعى الباب. ولهذا ما يماثله فى العصر اليونانى الرومانى وخاصة فى مداخل الصروح مما جعل الطريق الأوسط فى بهو الأساطين مكشوفا للنظر بكامل ارتفاعه لايحول دونه حائل. وكان يلى الصرح رواقان يكتنفان ممرا مكشوفا، وفى كل رواق أربعة أساطين فى صفين(١). وفى نهايته مائدة قربان صغيرة من حجر الجير الجيد منقوش عليها صورة الملك والملكة يقدمان القربان لأتن. وكان من وراء كل مائدة درج يهبط إلى قاعات فى كل من برجى الصرح الذى يتقدم القسم الثانى، اقاء أتن.

ويتألف لقاء أتن من أفنية يلى أحدها الآخر، ويقوم بين كل فناء وآخر صرح ذو برجين بينهما مدخل فخم مفروق العتب. ويتوسط الأفنية طريق على محور المعبد، يكتنفه عدد كبير من موائد قرابين

(١) على خلاف ما هو مبين فى شكل ٧٧.

مربعة من الحجر . وتقوم وسط كل من الفناءين الأخيرين ، الخامس والسادس ، مائدة قربان كبيرة بين موائد قرابين عديدة ، وتحيط به قاعات غير مسقوفة ، فى كل قاعة مائدة قربان صغيرة أو أكثر. وكان من خارج جدارى لقاء أتن عدد كبير من موائد القرابين من اللبن ، ويظن أنها كانت لأفراد الشعب يقدمون عليها القربان إخلاصا منهم للإله الجديد.

وكان الهيكل يشغل مساحة طولها نحو مائة متر ، ويتقدمه صرح من ورائه فناء مستطيل فى جانبه الأيمن ثلاثة بيوت صغيرة للكهنة ، ثم صرح ثان يفضى مدخله إلى فناء ثان يتوسطه طريق يظن أنه كانت تحف به الأشجار . ويؤدى الطريق إلى صرح ثالث أومدخل فخم يفضى بدوره إلى فناء ثالث كان يحتوى على موائد قرابين كثيرة ، وتكتنفه بضع قاعات ، وفى مؤخرته رواقان أمام برجى صرحرابع. وكان فى كل من الرواقين تمثالان ضخمان لأخناتون . ويؤدى مدخل الصرح إلى ردهة تفضى إلى ممر متعرج يحول دون رؤية ماكان يؤدى فى قدس الأقداس الذى كان على شاكلة آخر أفنية لقاء أتن ، فناءمكشوفاً تتوسطهمائدة قربان عالية ، وتكتنفه موائد قرابينعديدة ، تحيط بها قاعات مكشوفة . وكان وراء الهيكل دون أن يتصل به فناء كبير تتوسطه مائدة قربان عالية ، كان أختاتون قد أنشأه أول وصوله تل العمارنة .

وهكذا يتميز معبد أتن بكثرة أفنيته وما فيها من موائد قرابين عديدة ، تغمرها الشمس بأشعتها لايحجبها عما يقدم لها عليها شيء ، كما تتميز مداخل صروحها بأعتابها المفروقة . وكانت تحلى الجدران مناظر ونقوش لم يبق منها غير آثار ضعيفة (١). وإذا كانت تجمع هذا

---

(١) E.L.R. Williams, Wall Decorations of the Main Temple of the Sun at el-Amarnah ; Metropolitan Museum Studies, v. 2, p. 135 ff.

المعبد بمعبد الشمس فى عين شمس وفى أبوجراب صلة أكيدة من حيث عبادة الشمس فى أفنية مكشوفة ، فإنه يختلف عنهما فى تخطيطه العام وفى كثير من التفاصيل ، وعلى رأسها المداخل ذات الأعتاب المفروقة ، والأفنية المتعاقبة .

معبد أتن الصغير

وكان المعبد الصغير جنوبى بيت الملك يحيط به سور تدعمه من الخارج دعامات قوية ، وتقوم فيه ثلاثة صروح على محور واحد ؛ وكان هيكله يشبه الهيكل فى المعبد العظيم وكانت فى جنوبه مساكن الكهنة والمخازن ثم البحيرة المقدسة .

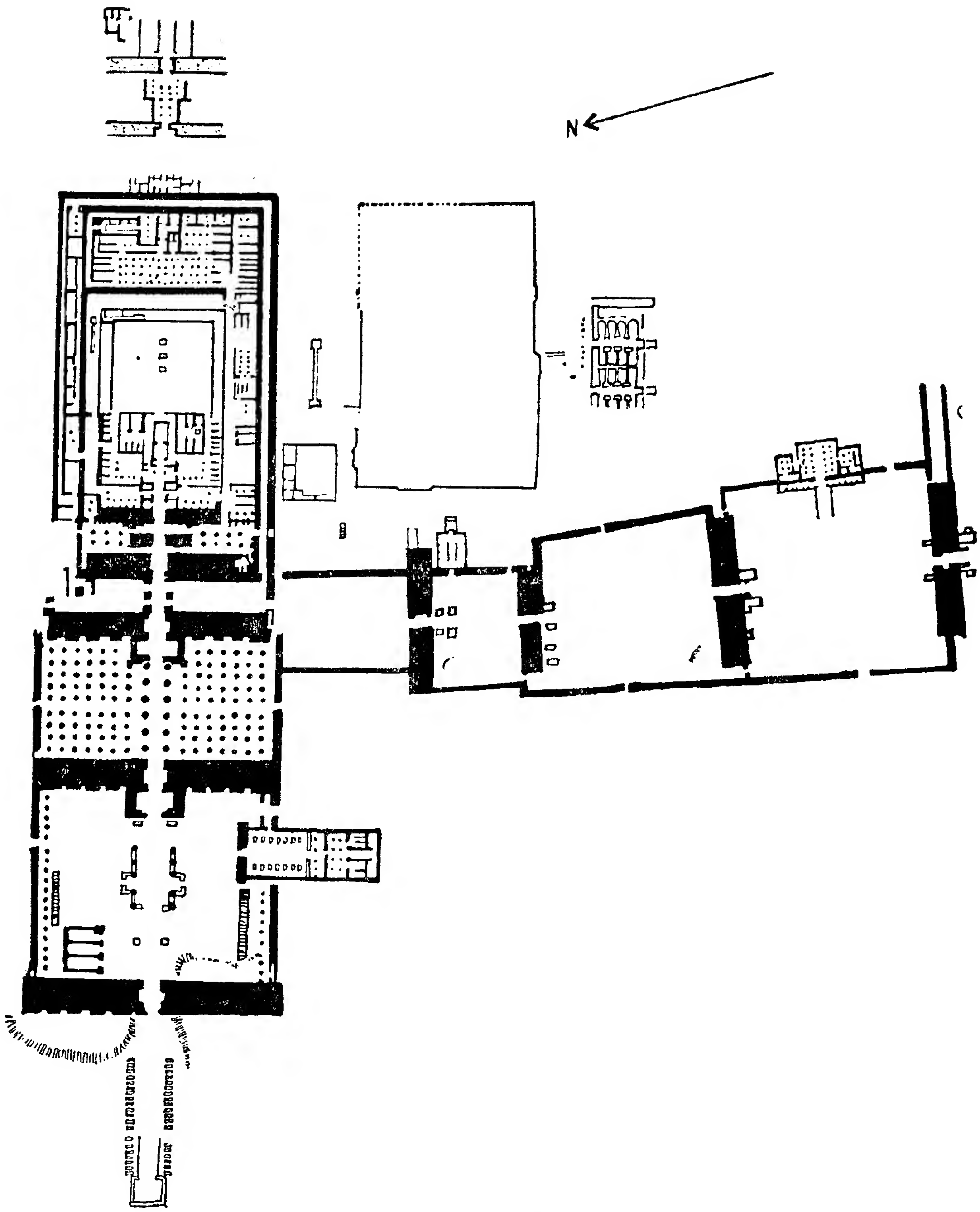
الكرنك

يعد معبد أمون رع فى الكرنك (شكل ٨٠) أعظم معبد فى العالم ، وقد كان فى الدولة الوسطى معبداً صغيراً ، غير أنه منذ أن هب ملوك طيبة يحررون البلاد من ربقة الهكسوس تحت راية إله طيبة (١) ازداد شأن أمون رع ، وغدت تفتح باسمه البلاد (٢) وتقام له المنشآت ، وأخذت تترى على معابده العطايا والهبات ، حتى أصبح ملك الآلهة جميعاً ، وأصبح معبده فى الكرنك يملك الأراضى الواسعة والمصانع المختلفة ، وله السفن تنقل منتجات حقوله ومصنوعاته ، وامتلأت خزائنه بالذهب والفضة ، وشونه ومخازنه بالغلال ، والأخشاب الثمينة ، وحظائره بالبقر والأغنام ، وغدا تحت إمرة

---

(١) جاء فى قصة النزاع بين الملك أبوفس ملك الهكسوس وبين سقننرع ملك طيبة أن الأخير يتخذ أمون رع حامياً له ولا يعتمد على إله آخر غيره . وذكر الملك كامس أنه أبحر فى النيل بأمر أمون ذى الآراء السديدة ليطرد الأسيويين من البلاد .

(٢) ذكر تحوتمس الثالث أن أباه أمون رع أمره بأن يمد سلطانه على البلاد وقد أهداه ثلاثة بلاد مما استولى عليه فى آسيا .



(شكل ٨٠) معبد أمون رع فى الكرنك

كاهنه الأعلى عديد الكهنة والموظفين. وطفق معبد الكرنك يتسع ويكبر مع الزمن يضيف إليه، ويغير فيه أكثر ملوك مصر، وكل منهم ينافس فى البنيان من سبقه تقرباً وزلفى، وعنواناً على التقوى

والورع ، ودليلا على القوة والسلطان ، حتى أصبح تيها من المبانى والمنشآت ، يسجل صفحات عديدة من تاريخ مصر وما كان لها من أمجاد ، وتتراءى فيه مشاهد مختلفة من العمارة المصرية خلال ألفى عام . وهو يشغل أكثر من ٦١ فدانا . ويضم مالا يقل عن عشرين معبداً لآلهة مختلفة ، وكان يجمع أغلبها معاً سور ضخم لاتزال بقاياه ترى من حوله حتى الآن . ولاسبيل هنا إلى وصف أجزائه تفصيلا وإنما نكتفى بأهم ملامحه المعمارية .

من أهم أعمال تحوتمس الأول فى الكرنك الصرحان الرابع والخامس وبينهما بهو كانت أساطينه وسقفه من خشب الأرز . وقد أقيمت فى مشكاوات فى جدران البهو تماثيل كبيرة تمثله فى رداء اليوبيل بالتاج الأبيض فى النصف الجنوبى من البهو وبالتاج الأحمر فى النصف الشمالى . ويعتقد أنه احتفل فيه بيوبيله حيث تلقى من الإلهتين نخبيت وواچيت ، حاميتى الجنوب والشمالى ، أو من الإلهين حورس وتحوت التاجين الأبيض والأحمر . وتعرض البهو لتغييرات مختلفة فى عهدى كل من حاتشبسوت وتحوتمس الثالث ؛ ولعل ذلك كان لحدث وقع فيه وما نشأ بين حاتشبسوت وتحوتمس الثالث من خصومة مريرة . وقد قص تحوتمس أنه لما كان كاهناً بسيطاً كان يقف فى أحد الأعياد العظيمة فى شمال هذا البهو ، بينما كان الكهنة يحملون على أكتافهم تمثال الإله ، «ينشر جماله البهجة والفرح فى السماء والأرض ... ويشع كأنه فى عيون الناس أشعة الشمس فى شروقها » ، وكان الملك يحرق البخور من أمامه ويقدم له القربان . بيد أن أمون رع «أخذ يجول فى البهو ، لايفهم أحد ما يفعل ؛ لقد كان يبحث فى كل مكان » ، ولم يلبث أن وقف أمام الأمير تحوتمس فأكب الأمير بوجهه على الأرض ساجداً ؛ ولكن أمون رفعه وأقامه فى «مكان الملك » ، وعند ذاك أعلن الكهنة وحى أمون وأنه يسند الملك إلى تحوتمس ويتوج ملكا على عرش حورس .

وكان الكرنك يضم فى نواح مختلفة منه عدداً كبيراً من المسلات ، لم يبق منها قائما فى مكانه غير مسلتين سامقتين إحداهما لتحوتمس الأول(١) والأخرى لحاتشبسوت(٢). وقد شاقت المسلات الرومان فنقلوا منها عددا غير قليل ، زينوا بها قصورهم وميادينهم فى روما والقسطنطينية . وفى العصر الحديث نقل من المسلات مايزين أهم الميادين فى باريس ولندن ونيويورك (٣) . والمسلة كتلة واحدة من الجرانيت بجوانب تميل قليلا إلى الداخل بحيث تنتهى ذروتها بهريم مدبب كانت تكسوه صفائح من برنز مذهب ، أو من خليط الذهب والفضة . وتحلى جوانبها نقوش فى خط هيروغليفى جميل تسجل ألقاب من أقامها وأسماءه ؛ وقد تحلى أعلاها أيضا صور يقدم فيها الملك القربان لأمون . وكانت تقام على قاعدة مكعبة من حجر الجرانيت ، يسجل عليها فى بعض الأحيان نص طويل ، أو تقوم على جانبين منها تماثيل قردة تحيي الشمس عند شروقها وعند غروبها .

وكانت المسلة رمزاً مقدساً تقدم له العبادة والقربان (٤) ؛ ويبدو

(١) هى إحدى مسلتين أقامهما الملك أمام الصرح الرابع ، وكان واجهة معبد الكرنك فى عهده ، وذلك بمناسبة احتفاله بعيد اليوبيل الملكى . وهى تميل نحو الغرب وبها شرخ سىء فى وسطها ، وما لم تتخذالوسائل التى تكفل ثباتها فى مكانها على ما فى ذلك من صعوبة فأنها مهددة بالسقوط كما حدث لشقيقتها .

(٢) هى إحدى مسلتين أقامتهما حاتشبوت بين الصرحين الرابع والخامس فى الكرنك فى السنة السادسة عشرة من حكمها احتفالا بيوبيلها ، وتعد فى الوقت الحاضر من أبرز ملامح معبد الكرنك وأهمها . أما المسلة الثانية فقد هوت على الأرض وتهشمت ولا يزال جزء كبير من أعلاها يرى بجانب البحيرة المقدسة .

(٣) على كثرة ما أقام تحوتمس الثالث من مسلات لم يبق منها فى مصر مسلة واحدة ؛ وكان مما أقامه فى الكرنك مسلتان أمام مسلتى تحوتمس الأول ، ومسلتان أمام الصرح السابع ومسلة فى شرق المعبد ، وقد نقلت منها مسلة إلى القسطنطينية وأخرى إلى روما . وأقام تحوتمس الثالث المسلا ت فى معبد عين شمس وقد نقلت مسلتان منها إلى الأسكندرية ، وأهدى محمد على إحديهما إلى انجلترا ، نقلت إلى لندن عام ١٨٧٧ حيث أقيمت على شاطىء التيمس ، وأهديت المسلة الثانية إلى الولايات المتحدة ، ونقلت إليها عام ١٨٨٠ وهى الآن من أشهر معالم نيويورك

(٤) Von Bissing, Le culte de l'obélisque, Recueil de travaux relatifs à la philologie et à l'archéologie égyptiennes et assyriennes, année 24, p. 167 ; année 25, p. 184.

أنه كان مما يقصد إليه منها حماية المعبد ؛ وقد وصفها بليني بأنها «أشعة متحجرة للشمس»[1] . وتتميز المسلة بجمال نسبها ورشاقة شكلها وتساميها فى الفضاء كأنها رسالة من الأرض إلى السماء . وكانت تقام عادة مسلتان متماثلتان أمام المعبد فى أعياد اليوبيل الملكى . وتختلف المسلات كثيراً فيما بينها من حيث أطوالها وأوزانها ، على أنها ازدادت مع الزمن طولا ووزناً . ويبلغ ارتفاع مسلة تحوتمس الأول ٦٠و١٩ من المتر وتزن نحو ١٤٣ طناً ، وترتفع مسلة حاتشبسوت فى الفضاء ٥٠ و٢٩ من المتر وتزن ٣٢٣ طناً تقريباً ،وتفوقها كثيراً مسلة تحوتمس الثالث فى روما إذ يبلغ ارتفاعها ١٥و٣٢ من المتر وتزن نحو٤٥٥طناً. وأطول مسلة معروفة هى مسلة أسوان التى لم يتم فصلها من الصخر لظهور عيب فيها ، وطولها ٧٥و٤١ من المتر ويبلغ وزنها ١١٦٨ طناً ، ولايعرف تاريخها ، ويبدو أنه رؤى فيما بعد استخلاص مسلة صغرى منها طولها ١٠و٣٢ من المتر ، تزن نحو ٥٠٧ أطنان غير أن ذلك لم يتم أيضاً لعيب بدا فيها .

ومن النصوص من عهد حاتشبسوت ما يشير إلى مسلة طولها ١٠٨ ذراعاً أى ٧و٥٦ من المتر . وقد سجلت فى أسفل مسلتها القائمة فى الكرنك فى نص طويل أنها لم تكن تنام الليل من أجل معبد أمون رع وأن تفكيرها هداها إلى إقامة مسلتين من خليط الذهب والفضة ، وأن نحتهما فى الجبل استغرق سبعة شهور ، وأن كلا منهما من قطعة من جرانيت خالد ، ليس فيها شق أو وصلة . وسجل أمنحوتب الثالث على المسلتين اللتين أقامهما فى معبده فى صولب أنه شيد مسلتين عظيمتين كل منهما على جانب ، فإذا أشرق أبوه بينهما فإنه بين أتباعه .

(١) Pliny, Natural History, XXXVI, 14.

وليس فيما خلفه المصريون من نصوص وما كتبه الأغريق والرومان عن مصر ما يشرح فى وضوح وصدق طريقة قطع المسلة . وما من ريب فى أن قطعها ثم نقلها مسافات طويلة فى البر والماء وإقامتها فى مكانها المختار بنجاح تام يدل على كفاءة ممتازة ، وقدرات بارعة ، وثقة تامة فيما اتخذ من وسائل أكيدة حققت ما قصد إليه منها .
ويظن أنه للاهتداء إلى كتلة كبيرة من حجر الجرانيت تخلو من العيب كان الجزء العلوى من الصخر يزال بإيقاد النار من فوقه ثم فصله بأسافين كبيرة أو دقة بمداق مكورة من حجر الدولريت ، كانت كل كرة تزن من تسعة أرطال إلى خمسة عشر رطلا ؛ وكان لكل مدق مقبض يمسك به أكثر من رجل (١) . ومن الجائز جداً أنه كان يصب ماء على الصخر وهو ساخن بما يساعد على تفتته . ولم تكن الأسافين من خشب يبل كما يظن ، وإنما كانت من نحاس ، لأن الجيوب التى كانت تثبت فيها الأسافين تضيق إلى الداخل مما يجعل الأسافين من الخشب تقفز إلى الخارج عندما تتمدد بالماء ، وذلك قبل أن تحدث الشق المطلوب (٢) . ولا بد أن كان العمال كلما بلغوا سطحاً من الصخر فحصوه فحصاً دقيقاً للتأكد من سلامته من كل عيب فاذا لاحظوا شدخاً أو شرخاً كشفوا عنه بالأزاميل أو المداق . وكانت جوانب المسلة تفصل من الصخر بحفر أخاديد من حولها وذلك بتفتيت الصخر بالمداق . ويظن أنها كانت تفصل من أسفلها بدق الصخر كذلك بمداق يدوية على ما فى ذلك من جهد وبطء ؛ وكلما تقدم العمل كانت المسلة تحمل على براطيم من الخشب

---

(١) R. Engelbach, The Problem of the Obelisk.

(٢) أنظر كذلك صفحة ٤٩

وخاصة فى وسطها . فاذا لاح أثناء العمل اختلاف فى اللون أو ما يوهم بأنه شرخ كان يفحص فحصا دقيقا للتأكد من خطورته .

وكما كان قطع المسلة فى محجرها عملا غير هين ، كان نقلها على الأرض وفى الماء إلى مكان إقامتها أمراً شاقاً عسيراً . وما من شك فى أن المصريين كانوا يعتمدون فى ذلك على حساب دقيق لوزنها وطبيعة الأرض التى تنقل عليها ومدى ما يجب التغلب عليه من احتكاك (١) . ولا تزال ترى آثار جسور جسيمة بالقرب من المحاجر تدل على أنه كانت تعد للمسلات جسور طويلة من المحجر حتى شاطىء النيل (٢) . ويظن أنه كانت توضع فى بداية الجسر من قبل المحجر دلافين على براطيم من الخشب ، تغطى برمل ناعم ، فإذا دحرجت المسلة مسافة قصيرة من مكانها من المحجر إلى بداية الجسر فوق الرمل ، يزال الرمل لتستقر على الدلافين ، ثم تدفع عليها فى أناة وصبر حتى تبلغ الشاطىء . وهذه الطريقة أسرع كثيراً من تحريك الأثقال الكبيرة بالعتل ، فضلا عن أن الدلافين تساعد فى تقليل الاحتكاك . ويبدو من نقوش حاتشبسوت فى الدير البحرى أن كلا من مسلتيها تستقر فى المركب على زلاقة ساعدت بغير شك أثناء النقل فى تقليل أثر أية صدمة تلقتها المسلة وفى توزيع ضغط الدلافين من أسفل إلى أعلى على سطحها الأسفل ؛ بيد أن استخدام الزلاقة بين المسلة والدلافين يقتضى ضبطها وتقويمها باستمرار ، ويقظة دائمة من المشرفين على العمل .

---

(١) مما يزيد هذا أيضاً أن الكاتب حورى كتب إلى الكاتب أمنموبى يطلب إليه حساب عدد الرجال اللازمين لنقل مسلة ذكر مقاساتها . A. Erman, Die Literatur der Aegypter, S. 282.

(٢) Clarke and Engelbach, Ancient Egyptian Masonry, p. 23.

فإذا بلغت المسلة نهاية الطريق البرى كانت تنقل فى مركب من أسوان إلى شاطىء المكان الذى يراد إقامتها فيه . ويظن أن المركب كانت ترسو فى قناة صغيرة (١) ، وأنه كان يقام من فوقها وحولها جسر تجر إليه المسلة ، ثم كان يكشف عن المركب والقناة حتى تستقر المسلة فى المكان الذى أعد لها فى المركب (٢) . وتصور نقوش حاتشبسوت سفينة كبيرة تنقل مسلتين ، قاعدة كل منهما نحو قاعدة الأخرى ، وتجرها سبع وعشرون مركباً فى ثلاثة صفوف ، ويقدر عدد الملاحين الذين قاموا بالعمل بثمنمائة وأربعة وستين ملاحاً . وفى طيبة استقبلها الكهنة والأشراف والجند والرماة وبحارة السفن الملكية تتقدمهم الأعلام والبيارق ، ومنهم من كان ينفخ فى البوق وكلهم فى فرح وابتهاج .

وقد ذهب الخيال بعقول كثير من الكتاب فى كافة العصور مذاهب شتى فى طريقة إقامة المسلات . من ذلك ما ذكره بلينى من أن رمسيس أقام مسلة طولها ١٢٠ ذراعاً (٦٣ متراً) وأن مائة وعشرين ألف رجل عملوا فيها ، وأنه عند إقامتها خشى عدم كفاءة الوسائل المستخدمة وقلة احتياط العمال ، فشد ابنه إلى ذروتها كى يكفل حرص العمال على سلامة الأمير سلامة المسلة (٣) .

ولا تعرف الطريقة التى أقام بها المصريون المسلات ، على أنه يظن أنه يمكن إقامة المسلة فى مثل ظروفهم بأن تبنى حول القاعدة ، التى

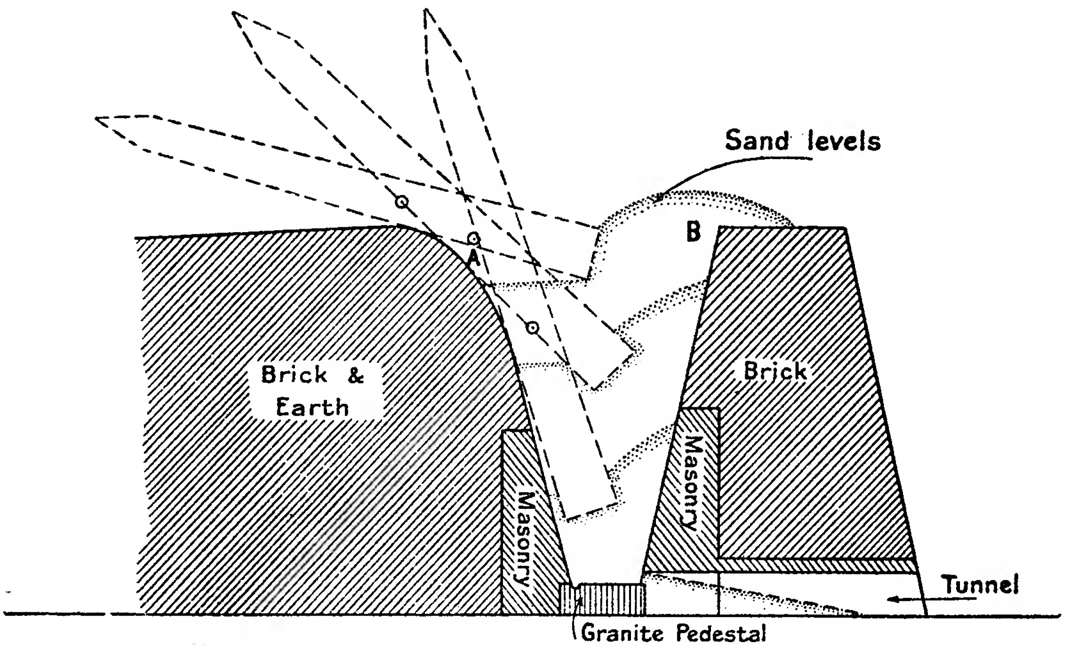
---

(١) من نقوش أحد النصب فى متحف اللوفر ما يفيد أنه بعد أن قطعت المسلة فى المحجر حفرت قناة حتى النيل .

(٢) R. Engelbach, The Aswan Obelisk, p. 33 ff.

(٣) Pliny, op. cit.

يراد إقامتها من فوقها ، بئر مربعة من الحجر بجدران سطوحها الداخلية مائلة إلى الخارج فى شكل مخروط على أن تعلو البئر مركز ثقل المسلة ، وأن تترك فتحة صغيرة فوق قاعدة المسلة تتصل بنفق .



(شكل ٨١) طريقة اقامة المسلة

ثم تحاط البئر ببناء آخر مربع من اللبن ، يؤدى إلى مسطحه العلوى جسر طويل ينتهى بمنحن خفيف ،يفضى إلى داخل البئر ، ويخرج من أحد جوانبه النفق سالف الذكر (شكل ٨١) (١) . فاذا ملئت البئر برمل ناعم وجرّت المسلة على دلافين فوق الجسر وقاعدتها من أمام إلى أن تشرف على المنحنى ، ثم سحب الرمل من النفق تدريجاً راحت المسلة تهبط فى بطء إلى قاعدتها ؛ ومن ثم يمكن أن تشد بالحبال حتى تستقيم فى مكانها تماما . وقد يفيد حشو الفراغ بينها

(١) R. Engelbach, op. cit., p. 38 ff.

وبين الجدار المقابل من البئر بعشب يخفف أثر أية صدمة يمكن أن تحدث . وفى سطح قواعد المسلات مجرى ضيق ، كان الغرض منه فيما يبدو أن يحول دون انحراف المسلة عن المكان الذى ينبغى أن تستقر عليه وأن يحمى حافتها من التلف ، وذلك بأن تتحمل حافته ثقل المسلة بدلا من أن تتحمله حافتها . وربما كان هذا المجرى يحشى بخشب لين يقى معا حافته وحافة المسلة .

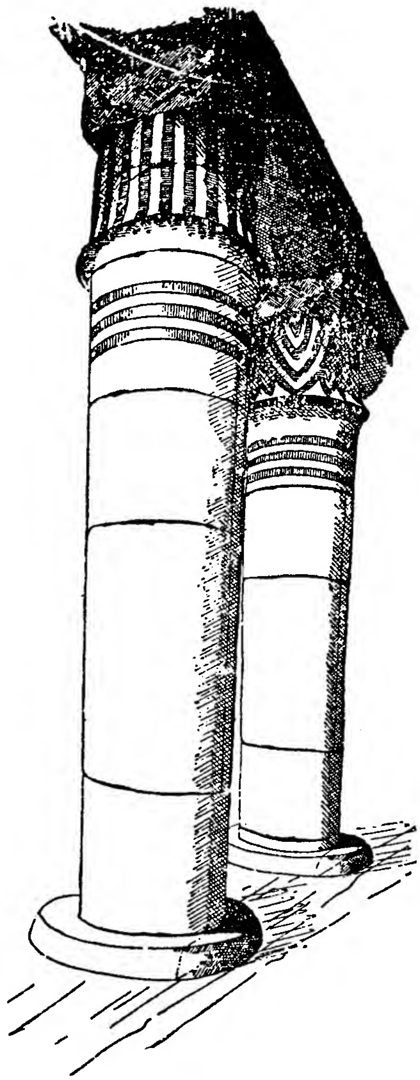
ومهما يكن من أمر فما من ريب فى أن نحت المسلات كتلة واحدة من الصخر ونقلها مسافات طويلة فى البر والماء وإقامتها على قواعدها استلزم من العزم والجهد والعلم والخبرة ما يصعب إيفاؤه حقه من الوصف والتقدير .

معبد بهو الأعياد

ومن منشآت تحوتمس الثالث فى الكرنك معبد فريد فى نوعه ذو طابع[1] خاص شيده فيما يظن فى أوائل حكمه بعد وفاة حاتشبسوت (صورة ٢٤) . ويقع مدخله فى الجنوب من واجهته ، وكان من أمامه عمودان ذوا ستة عشر ضلعاً ، يظن أنهما بقية صفة مسقوفة ، وتمثالان كبيران يمثلان تحوتمس فى رداء اليوبيل . ويتألف المعبد من تسع قاعات فى صف واحد فى الجنوب ، كانت لحفظ القرابين من طعام ودهون وعطور ولباس وعقود ، ومن بهو كبير يطلق عليه بهو الأعياد ، كانت فى جنوبه قاعة صغيرة نقشت جدرانها بأسماء طائفة كبيرة من ملوك مصر ، وهى الآن فى متحف اللوفر ، ثم من ثلاث مقصورات فى الشمال وقاعات أخرى فى الشرق يتوسطها قدس الأقداس ، ومنها ما تعرف بحديقة النبات .

(١) P. Barguet, Le temple d'Amon-Re à Karnak, pp. 171 (n. 2), 297.

وبهو الأعياد بهو كبير مستطيل طوله نحو أربعين متراً ، ويبدو وكأنه سرادق ضخم من الحجر . ويتوسطه صفان من أساطين عالية فى كل صف عشرة أساطين من طراز ما يسمى أسطون الخيمة ، ساقه ملساء وأسطوانية تقريباً ، لا يكاد يزيد سمكها عند قاعدتها على سمكها فى أعلاها إلا قليلا جدا . وتاجه فى هيئة ناقوس فرجته من أسفل ومدور فى أعلاه حيث تستقر عليه ركيزة من فوقها عتب (شكل ٨٢) . وقد طليت الساق بلون أحمر تقليداً للون الخشب ، وتحلى أعلاها أربطة يظن أنها مشتقة من الأساطين النباتية(١) ؛ وعلى التاج خطوط عمودية من ألوان مختلفة ، أو ما يمثل أوراقاً كبيرة مثلثة فى وضع مقلوب . ومع ذلك ينقص هذا الأسطون جمال الأساطين النباتية . ويحيط بصفى الأساطين من جوانبها الأربعة صف من اثنين وثلاثين عموداً مربعاً أقل ارتفاعاً منها ، وبذلك يستوى السقف على مسطحين بينهما فتحات واسعة كان الضوء يدخل منها خلال قضبان من خشب فيما يظن .



(شكل ٨٢)
أسطونان من بهو الأعياد

ويعتبر هذا البهو ذو الأروقة الوسطى العالية الأول من نوعه

---

(١) انظر صفحة ٣٥٢

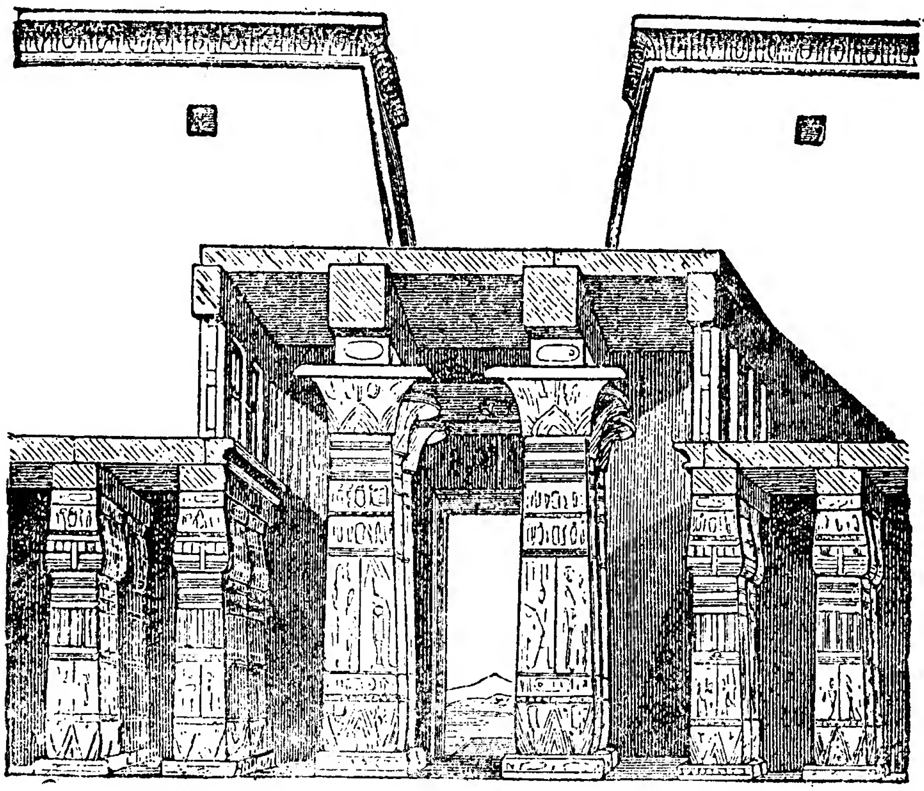
فى العمارة المصرية ، وأقدم أمثلة البازلكا التى شاعت فى معابد الرعامسة ثم وجدت سبيلها إلى خارج مصر . وتحلى السقف نجوم صفراء على قاعدة بلون أزرق .

وما يعرف بحديقة النبات هو قاعة مستطيلة بها صف من أربعة أساطين فى شكل حزمة بردى ، تمتاز بدقة خطوطها ورشاقتها ، وتحلى الجدران صور شائقة لنباتات وطيور وحيوانات جلبها تحوتمس الثالث من سوريا فى السنة الخامسة والعشرين من حكمه إلى إحدى حدائق المعبد بما يجعله أول مؤسس لحديقة حيوان فى العالم .

ولتحوتمس الثالث فى الكرنك أيضاً عمودان من طراز خاص يكتنفان الطريق إلى مقصورة الزورق المقدس ، كل منهما من حجر واحد من الجرانيت الوردى ، وتحلى الوجهين الشمالى والجنوبى من العمود الشمالى ثلاث زهرات بردى ذات أغصان طويلة مستقيمة فى وضع جميل رشيق ، بينما تحليهما فى العمود الجنوبى زهرات نبات الوجه القبلى ولعله الزنبق (صورة ٢٥) . وتحلى الوجهين الآخرين من كل عمود صور تحوتمس الثالث يحتضنه أمون وإلهات أخرى . ويغلب على الظن أنه كان يعتمد عليهما سقف ردهة كانت أمام قاعة الزورق المقدس ، على أن من الباحثين من ذهب إلى أن كلا منهما كان مستقلا بذاته يحمل تمثال إله أو رمزاً مقدساً وهو قليل الاحتمال جداً . وتحيط بقاعة الزورق المقدس جدران منقوشة بأعمال تحوتمس الثالث الحربية وصور هداياه لمعبد أمون ومنها مسلتان وأوان فاخرة من معدن ثمين .

بهو الأساطين العظيم

ومن أشهر أعمال العمارة المصرية بهو الأساطين العظيم فى الكرنك ،

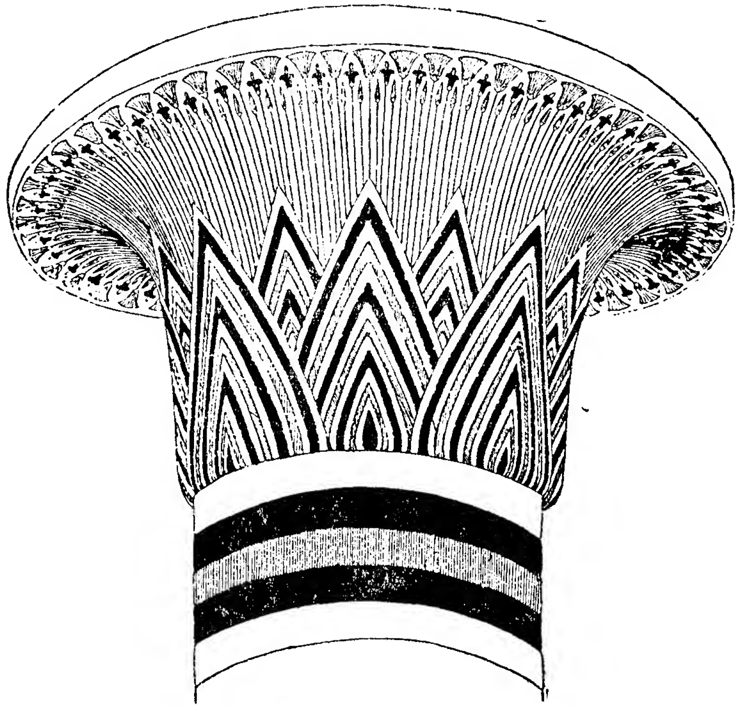


(شكل ٨٣) الجزء الأوسط من بهو الأساطين العظيم فى الكرنك

وهو أعظم بهو ذى أساطين فى العالم ، ومن أفخم ما أنشىء من مبان دينية وكانت تؤدى فيه احتفالات دينية عظيمة لم يسبق لها مثيل . (شكل ٨٣ وصورة ٢٦) (١) . وتبلغ مساحته نحو ٥٤٠٠ متر مربع

(١) أقام الصرح الثالث فى الكرنك الملك أمنحوتب الثالث ، ويبدو أنه أقام أيضاً أمامه صفين من أساطين عظيمة يكتنفهما جداران وذلك على نحو الرواق العظيم الذى يتقدم معبد الأقصر . وأقام حورمحب الصرح الثانى وبذلك نشأ بين الصرحين فناء شاسع بتوسطه رواق عظيم . وفى عهد سيتى الأول أزيل جدارا الرواق وأقيمت الأساطين التى تكتنف صفى الأساطين الضخمة الوسطى ، وبذلك تحول الفناء الشاسع إلى بهو عظيم مسقوف ، وقد سماه سيتى « سيتى حبيب بتاح متألق فى بيت أمون » وذلك ليكون « مكاناً جميلا يستريح فيه أمون ، ملك الآلهة ، ومكاناً يتجلى فيه سيد الالهة فى أوائل الأعياد » . ومات سيتى قبل أن يتم نقش النصف الجنوبى من البهو فأتمه رمسيس الثانى .

(٥٢ × ١٠٣ متر) ، وهى مساحة تسع كاتدرائية نتردام فى باريس . وفيه مائة وأربعة وثلاثون أسطوناً فى ستة عشر صفاً ، منها اثنى عشر أسطوناً فى صفين فى الوسط بساق أسطوانية وتاج على شكل زهرة بردى يانعة (شكل ٨٤) ، ويبلغ ارتفاع كل أسطون بغير الركيزة



(شكل ٨٤) تاج أسطون بردى يانع

١٩و٢٥ من المتر ، وقطره نحو ثلاثة أمتار ونصف ، ومحيطه أكثر من عشرة أمتار ولا يستطيع غير ستة أشخاص أن يحيطوه بأذرعهم معا . ويتألف كل أسطون من أحد عشر أو اثنى عشر طنبورا من الحجر ، كل منها من جزءين غير متساويين ، تصل بينهما خشبات على شكل ذيل الحمام ، ويستقر كل جزء فوق غيره على زاوية قائمة

تقريباً بما ساعد على حسن تماسك أجزاء الأسطون معاً . والتاج ضخم ويتألف من ثلاثة مداميك كبيرة من الحجر ، ويبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار ونصف ، وقطره فى أعلاه خمسة أمتار ونصف ، ويقال إن مائة شخص يستطيعون أن يقفوا عليه . ومن الأعتاب التى تحملها هذه الأساطين ما يزن ستين أو سبعين طناً .

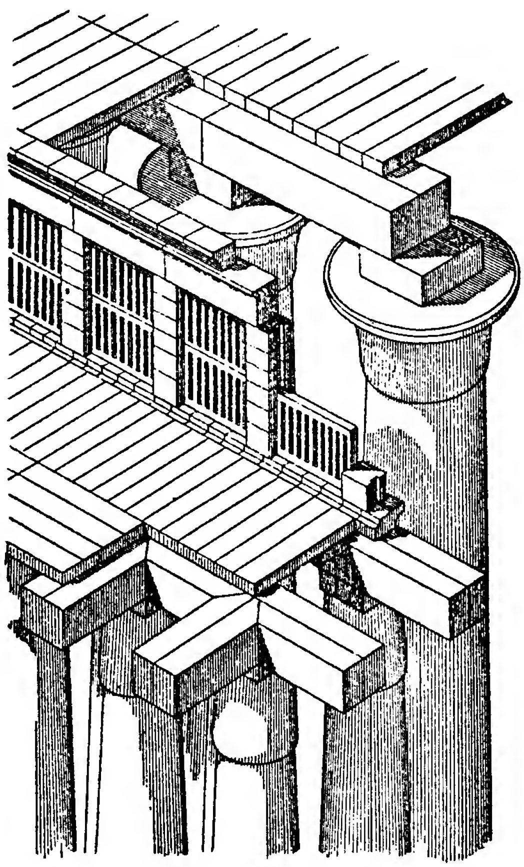
وقد ساد هذا الطراز من الأساطين فى المنشآت الكبيرة ، واحتفظ به فى عهد الرعامسة للأروقة الوسطى فى الأبهاء العظيمة ؛ على أن الساق ابتعدت عن الأصل الطبيعى إذ أصبحت أسطوانية وإن ظلت مخنوقة فى أسفلها [1] ؛ وأصبحت تغطيها كتابات وأسماء ملكية ومناظر دينية . وفى الأسرة العشرين استخدم هذا الطراز من الأساطين أيضا فى صفات الأفنية الكبيرة فى المعابد .

ويبلغ ارتفاع الأساطين الجانبية وعددها مائة واثنان وعشرون أسطوناً نحو ٧٥ و١٤ من المتر بغير الركيزة . ويقرب محيط كل أسطون من ثمانية أمتار ونصف ، وساقه أسطوانية مخنوقه فى أسفلها ، وتاجه على شكل براعم البردى . وبذلك يقع سقف البهو على مستويين ، بحيث يعلو وسطه جانبيه بنحو ثمانية أمتار ، وتتخلل المسافة بين المستويين أعمدة تقوم على أعتاب أساطين أول صف من الأساطين القصيرة فى كل من الجانبين ، وتعتمد عليها وعلى الأساطين الوسطى الضخمة سقوف الأروقة الثلاثة الوسطى . وكانت تشغل الفراغ بين الأعمدة

---

(١) أنظر صفحة ٣٥١ . ولا ريب فى أنه قد ساعد على الشكل الأسطوانى نقش سطح الأسطون بالمناظر والكتابات ؛ كما ساعد عليه أيضاً ضخامته وكثرة عدده فى البهو الواحد وعدد ما كان يقام من معابد تحتوى عليه .

شبابيك كبيرة فخمة من الحجر تسمح لضوء معتدل ينير الطريق الذى يتوسط البهو والذى يبلغ عرضه ستة أمتار (شكل ٨٥) . وتتخلل سقوف الأروقة الجانبية فتحات صغيرة يتسرب منها النور فى جانبى البهو .



(شكل ٨٥) من سقف سطح البهو العظيم فى الكرنك

ويبدو العدد الكبير من الأساطين كأنه غابة ضخمة متحجرة من البردى تشغل النظر ، وتملأ الحس وتحول دون النظرة المنحرفة ، ولعله يشفع فى غلظ الأساطين وقرب بعضها من بعض ارتفاعها

وثقل ما تحمل من أعتاب وأحجار السقف . ومهما يكن من شيء فما من ريب في أن ضخامة هذا البهو وسموق جدرانه وأساطينه ، وما يحليها من مناظر ونقوش بألوان بهيجة كانت تضفى على المكان روعة وجلالا ، وتملأ النفس رهبة وخشوعاً ، وتوحي بعظمة الإله وقدرته. وهي من جهة أخرى تعبر عما كانت تجيش به نفس كل من سيتى الأول ورمسيس الثانى من عظمة ، وعما كانا يريدانه لمصر من قوة . وللإله أمون من جلال يتفق وما كان يعتقد فيه من قدرة . وهي فوق ذلك برهان قائم على استعادة الأرباب القديمة سلطانها واعتراف الأسرة المالكة الجديدة بها .

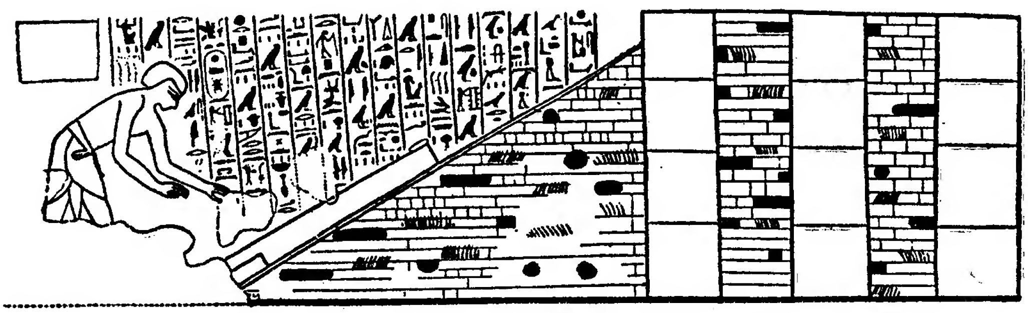
وليس يملك المرء إلا أن يسأل كيف كان يبنى مثل هذا البناء الضخم . ولم يكن لدى المصريين ما لدى البناء في العصر الحديث من آلات وأدوات . لقد كان إذا تم بناء المدماك الأول من الجدران وقواعد الأساطين يملأ ما حول هذه القواعد بطمى النيل وتقام من حول الجدران جسور من اللبن ونقاضة الحجر بعرض كاف لتكون أشبه برصيف ييسر وضع الأحجار في أماكنها من البناء . كما كانت تقام جسور أخرى في أماكن مناسبة تنقل عليها مواد البناء(١). فاذا تم بناء المدماك الثانى وما يقابله من طنابير الأساطين كان يزاد في الطين من حول الأساطين . وتعلى الجسور حول البناء . ويزاد في أطوال ما يؤدى منها إليه . وهكذا حتى يتم البناء . وقد اتبعت هذه الطريقة ذاتها في إعادة بناء أساطين الكرنك وأعتابها في مستهل القرن الحاضر (٢) . والأدلة كثيرة على استخدام المصريين الجسور في بناء المنشآت العالية ، منها بقايا جسور من عهد الدولة القديمة والعصر المتأخر . وصورة من الدولة الحديثة في مقبرة الوزير رخمارع.

---

(١) Clarke and Engelbach, op. cit., pp. 91, 145, fig. 162.

(٢) G. Legrain, Les temples de Karnak, figs. 102-3, 106-7.

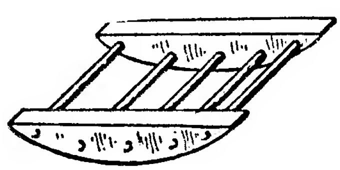
يبدو أنها تمثل بناء من الحجر ملىء باللبن ويؤدى إلى المدماك الرابع منه جسر (شكل ٨٦) ، ثم فقرة فى نموذج خطاب أدبى يسأل فيها كاتبه عن عدد الطوب اللازم لبناء جسر ذكر طوله وعرضه وارتفاعه ونسبة ميله [1] . ولا يعنى هذا أن المصريين لم يستخدموا



(شكل ٨٦) بناء من الحجر يؤدى الى أعلاه جسر

الأساقيل ، فقد استخدموها فعلا فى نحت التماثيل الكبيرة ، وربما استخدموها أيضا فى المبانى المتوسطة ، ولعلهم استخدموها كذلك فى تسوية جدران المنشآت الكبيرة من أعلى إلى أسفل بما كان يكفل استخدام طوائف عديدة من العمال يعملون فى أماكن ومستويات مختلفة بما كان يوفر وقتا كثيرا .

وكانت الأحجار تجر فوق زلاقات على الجسور ثم ترفع منها بالعتل من الخشب . وقد وجدت بين ودائع أثاث المعابد فى الدولة الحديثة نماذج صغيرة من خشب أطلق على كل منها « الهزاز » (شكل ٨٧) . وذهب الرأى إلى أنه نموذج لما كان يستخدم فى رفع الأحجار حينما لم يكن من المتيسر بناء الجسور ،

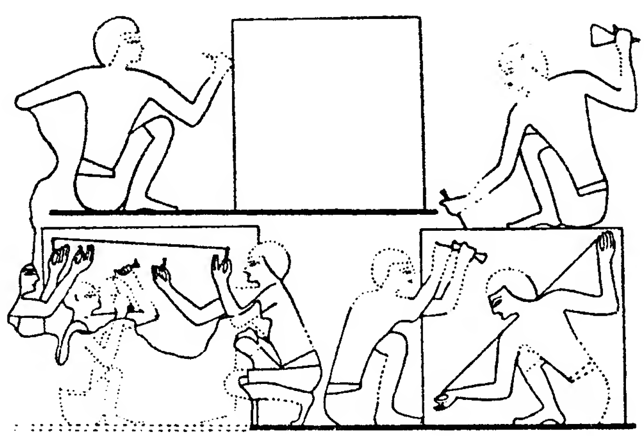


(شكل ٨٧) الهزاز

(١) انظر ملحوظة (١) صفحة ٢١٥

وذلك بوضع الحجر عليه ثم وضع خشبة فى شكل إسفين تحت جانب منه وتحريكه حتى يعلو الخشبة ، ثم وضع خشبة أخرى مماثلة تحت الجانب الآخر وتحريك الهزاز حتى يعلوها ، وبتكرار ذلك مع استخدام خشبات عديدة يرتفع الحجر إلى المستوى المطلوب [١] ، بيد أنه يظن أن هذه الأداة كانت لتحريك الحجر أثناء تهذيبه [٢] .

وتتداخل الأحجار معا فى أركان الجدران بما يساعد على تماسكها ، وكان ذلك يتم بنحت جزء من سطح الحجر اكثر من بقيته بحيث يتشكل فيه جزء من ركن الجدار . وكانت سطوح الجدران تسوى بعد أن يتم البناء ، وكان استواء الحجر يمتحن أولا بأداة تتألف من



(شكل ٨٨) فحص استواء سطح الحجر

قطعتين قصيرتين من الخشب من طول واحد يرتبطان بخيط فى أعلاهما ويمسك بهما على وجه الحجر ثم تحرك قطعة ثالثة مماثلة على الحجر على طول الخيط المشدود ليتبين مدى استواء سطحه وما ينبغى ازالته منه لتسويته تماما (شكل ٨٨) . وكان يمتحن سطح الحجر ثانية للتأكد من تمام استوائه بخيط مشدود . وكان يكتفى إذ ذاك بأزالة

---

(١) F. Petrie, Arts and Crafts in Ancient Egypt, p. 75; M.A. Choisy, L'Art de bâtir chez les Egyptiens, p. 92.

(٢) Clarke and Engelbach, op. cit., pp. 94-5, 102-3.

ما لايزال يرتفع من سطحه بأزميل يطرق عليه بقبضة اليد [1] .

بعد ذلك كان النحاتون والمصورون ينقشون ويلونون المناظر والنصوص فى الجدران من أعلى إلى أسفل فى صفوف متتالية، وكانت الجسور تزال تدريجا .

ومنذ الدولة القديمة من المبانى ما استخدم فى سطح كل حجرين منها قطع من خشب أو نحاس أو رصاص أو حجر بطرفين عريضين على شكل ذيل الحمام ، ولم يكن الغرض منها ربط الأحجار بعضها ببعض وتماسك أجزاء البناء وإنما لكى تمنع تحرك الأحجار وانزلاقها على الملاط إلى أن يجف خاصة إذا كانت الأحجار لاتقع على مسطح واحد . ومن هذه القطع ما كان ينقش بطرة الملك الذى شيد البناء ، ولعل الغرض من ذلك تخليد الأسم فى أماكن يصعب على مغتصب الوصول إليها إلا بهدم البناء [2] .

وهكذا استطاع البناء بأدواته البسيطة ووسائله المحدودة أن ينشىء المنشآت العظيمة التى لا سبيل إلى إقامتها فى الوقت الحاضر بغير بكرات من الصلب ، وروافع ضخمة ، وآلات هندسية دقيقة ، وخبرات تجمعت خلال آلاف السنين .

وقد أقام رمسيس الثانى على جانبى الطريق المؤدى إلى بهو الكرنك العظيم صفين من تماثيل الكباش الضخمة ، يمثل كل منها كبشا بجسد أسد رابضا فوق قاعدة مرتفعة ، وكان الكبش حيوان أمون المقدس ، وأمام الصدر تمثال أزيرى صغير .

جوسق طهرقا

كان يتوسط الفناء الأول فى الكرنك رواق أقامه الملك طهرقا ، أحد ملوك الأسرة الخامسة والعشرين ، فى القرن السابع قبل الميلاد ؛

(١) نفس المرجع صفحة ١٠٥ – ١٠٦

(٢) نفس المرجع صفحة ١١٢ – ١١٤

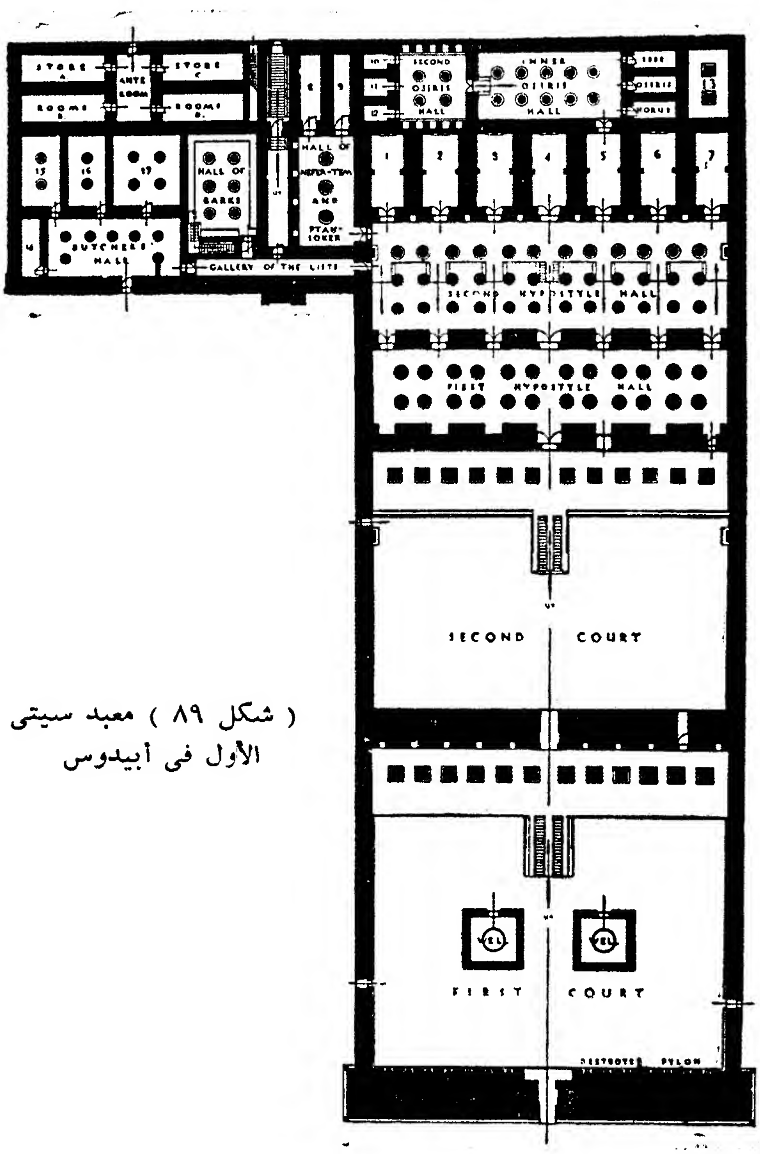
وقد كان فى حقيقة الأمر جوسقا يستقر على قاعدة فى وسطه الزورق المقدس إبان الاحتفالات. وكان يتألف من صفين من الأساطين ، فى كل صف خمسة أساطين فى شكل غصن بردى يجمعها معا جدار جانبى . وقد تهدمت ولم يبق منها غير أسطون واحد فى نهاية الصف الأيمن (صورة ٢٧) ؛ وهو يسمو فى الفضاء لارتفاع ٢١ مترا ؛ ويتألف ساقه من خمسة وعشرين طنبورا من حجر رملى أجيد نحته ؛ والتاج على شكل زهرة بردى يانعة ويتكون من خمسة مداميك . ومع أن هذا الأسطون يبلغ ارتفاع الأساطين الوسطى فى البهو العظيم إلا أن تاجه لا يمتد امتداد تيجانها ، ولا يستطيع أن يتحمل ما تتحمله من أعتاب وأحجار السقف وذلك لصغر أحجاره نسبيا . وقد جمع الأهالى بينه وبين مسلة حاتشبسوت فى أسطورة شعبية تحكى أنه كان مغزل الملكة ساراجوما العملاقة وأن المسلة مسلتها التى كانت تضفر بها الحصير والسلال ، التى كانت تضع فيها صوفها المغزول .

وتقع بحيرة معبد أمون فى الكرنك فى جنوب المعبد ، وهى مستطيلة وجوانبها مبنية بالحجر تتخللها سلالم تفضى إلى سطح الماء . وفى كثير من الأعياد الدينية كان تمثال الأله يتنزه فيها فى زورق محلى بزخارف ثمينة . ومن القصص الشعبى ما يحكى أنه لايزال يظهر على سطحها زورق من ذهب فيه موسيقيون ومغنيات ، وأن أحد الأهالى كان نائما فى المعبد فصحا على موسيقى شجية ، ولما نظر إلى مصدر النغم رأى فى البحيرة زورقا من ذهب ، واذ شاقه رؤياه بدر منه صوت فقطعت سيدة فى الزورق حبل المرساة واختفى الزورق عن النظر ؛ ووجد الرجل عند شاطىء البحيرة مدقا وقضيبا من ذهب خالص.

معبد سيتى فى أبيدوس

هو أحد مفاخر العمارة المصرية ، شيده سيتى الأول فى المدينة المقدسة ، وسماه «بيت ملايين السنين للملك من ماعت رع مبتهج

القلب فى أبيدوس » (١) ؛ على أنه توفى قبل أن يتم بناؤه فأكمله



(شكل ٨٩) معبد سيتى الأول فى أبيدوس

ابنه رمسيس الثانى ليكفل لأبيه حياة مبرورة فى الآخرة ولكى يحظى هو أيضا برضاء الآلهة (شكل ٨٩) (٢) . ومعظم جدرانه وبلاط

---

(١) « من ماعت رع » الاسم الذى اتخذه سيتى عند تتويجه كملك الوجه القبلى والبحرى .

(٢) A.M. Calverley, The Temple of King Sethos I at Abydos, I. كان سيتى الأول من أسرة تعبد الإله ست ، وكان أبوه رمسيس الأول قبل توليه العرش رئيس كهنة هذا الإله . ويدل بناؤه =

الأرض وبعض الأساطين من حجر الجير ، وبعض الجدران وأغلب الأساطين والسقوف من حجر رملي. وكان يتقدمه صرح سامق ذو برجين ، وكان في ظهر كل برج سبع مشكاوات كانت فيها تماثيل للملك في شكل آزيريس . وكان مدخل الصرح يؤدى إلى فناء في مؤخرته صفّة ترتفع عن الأرض ، ويؤدى إليها درجان بين ثلاثة أحادير على المحور الرئيسي للمعبد . وفي جدارها مشكاوات عميقة .

وكان من وراء الصفة فناء ثان في مؤخرته صفة ثانية يحلى واجهتها الكورنيش المصرى ويتخلل جدرانها سبعة أبواب تقابل المقصورات السبعة التي يشتمل عليها المعبد على خلاف سائر المعابد المصرية. وقد سد رمسيس الثاني جميع الأبواب إلا الباب الأوسط ، وسجل على الجدار الخلفي للصفة ما يعرف بنص الأهداء[1]. ويفضى الباب الأوسط ألى بهو الأساطين ؛ وهو بعرض المعبد ويشتمل على سبعة أروقة تقع على محاور المقصورات السبعة وتؤدى إليها . وتتخلل كل رواق أربعة أساطين في صفين ، ويمثل كل أسطون حزمة بردى بساق أسطوانية ملساء محلاة بالصور والنقوش .وفي الجدار الخلفي سبعة أبواب تؤدى إلى بهو ثان على شاكلة البهو الأول غير أنه أكثر عمقا ، إذ تتخلل كلا من أروقته ستة أساطين في صفين ، والأساطين الأربعة الأولى بتيجان بردية ، والأسطونان الأخيران بساقين أسطوانيتين ، ويقومان على مسطح أعلى قليلا يؤدى

= معبداً في أبيدوس يعبد فيه الأله أزيريس ، الذي قتله ست حسب الأسطورة القديمة ، ويمجد فيه ملوك مصر من مينا حتى سيتى الأول ، على الرغبة في كسب ثقة المصريين الذين يمكن أن يكون قد أقلقهم ماضي آبائه .

(١) وهو نص طويل يقع في ١١٦ سطراً سجل فيه رمسيس الثاني الحالة التي ترك عليها أبوه المعبد وما أداه هو فيه من أعمال . وقد ذكر أنه اختار بنفسه رجلا يشرف على أعمال البناء وكلف بالعمل فرقاً من العمال والحجارين والمصورين والرسامين ، وعين كهنة مطهرين وكاهناً لتمثال الأله ليشرف على الطقوس ، ومون المخازن وسجل ممتلكات المعبد وزاد في عدد الكهنة على اختلاف طبقاتهم بما يكفل أداء جميع الأعمال .
H. Gauthier, La grande inscription dédicatoire d'Abydos, Aeg. Z. Bd. 48 (1911), S. 52 ff.

إليه أحد ور . وفى الجدار الخلفى أبواب المقصورات السبعة فى صف واحد ، ويعلو كل باب الكورنيش المصرى . وبين كل باب وآخر مشكاة يزين أعلاها قرص الشمس المجنح ، وكانت تحلى جدرانها نقوش مختلفة ، ويظن أنها كانت تحتوى على تماثيل . واختلاف طراز الأسطونين الأخيرين عن طراز الأساطين الأربعة الأولى يلفت النظر ويدعو إلى التفكير ؛ على أنه ليس من شك فى أنه كان مقصودا وأنه أريد به التمييز بين الأساطين أمام المقصورات السبع وبين أساطين بقية البهو كأنما قصد إلى أن يكون أمام واجهاتها مايشبه الصفة ، ويؤيد ذلك ارتفاع المسطح الذى تقوم عليه .

وكانت المقصورات من الجنوب إلى الشمال لعبادة سيتى وبتاح ورع حراختى وأمون وأزيريس وإيزيس وحورس . وتقع مقصورة أمون ، إله الدولة وملك الآلهة ، فى مكان الشرف فى الوسط . وتتألف كل مقصورة ، فيما عدا مقصورة أزيريس ، من قاعة مستطيلة بسقف على شكل عقد كاذب من الحجر (صورة ٢٨) ، وقد بنى أولا على شكل عقد مدرج ثم نحت سطحه الأسفل حتى ليبدو وكأنه عقد صادق ؛ ولهذا ما يماثله فى معبد الدير البحرى من عهد حاتشبسوت[١] ، وفى مقصورة حتحور من عهد تحوتمس الثالث[٢] (صورة١٩) وفى معبد مدينة حابو من عهد رمسيس الثالث. ويحلى الجدار الخلفى بابان وهميان من داخل إطار واحد ، نقش النحات بينهما أسطونا صغيرا على شكل غصن بردى يلتف حوله صل ؛ وبذلك وفق أحسن ما يكون فى ابتداع عنصر مناسب بين البابين (صورة ٢٩) . ويعلو البابين مستطيل يشغل أعلاه عقد وتتخلله علامة الدوام (عمود أزيريس) وطرات وصور أرواح حارسة ، وتبدو جميعها وكأنه مفرغ بينها على نحو المشربيات .

---

(١) انظر صفحة ٤١٤

(٢) انظر صفحة ١٩١

وفى كل من طرفى العقد صورة لأبى هول رابض تتسق رأسه وظهره مع انحناء العقد[1] ، وتتفق الخطوط المقوسة فى هذا الزخرف أحسن ماتكون وتقوس السقف.

وتؤدى مقصورة أزيريس إلى بهو أساطين خلف المقصورات الثلاثة الوسطى بما كفل لإله أبيدوس مكانا ممتازا فى المعبد لا يقل عن مكان أمون . وعلى يمين البهو ثلاث مقصورات لإيزيس وسيتى وحورس؛ وعلى يساره بهو صغير تطل عليه ثلاث قاعات صغيرة مهدمة .

وعلى غير المعتاد فى المعابد المصرية أضيف إلى يسار الجزء الخلفى من المعبد جناح يؤدى إليه باب فى جنوبى بهو الأساطين الثانى ؛ ويشتمل على عدة قاعات وأبهاء، منها مقصورتان لبتاح سكر ونفرتم، من آلهة منف . ودهليز نقشت على جدرانه أسماء معظم ملوك مصر من مينا إلى سيتى الأول ، تؤلف مايعرف بقائمة أبيدوس [2] ، ومذبح تحيط الأساطين بثلاثة جدران منه ويقع مدخله على فناء كبير خارجى كانت تقاد إليه الضحايا من الحيوان بعيدا عن قاعات المعبد. ومن قاعاته أيضا قاعة قرابين أو زوارق تدور بجدرانها رفوف مشيدة ، ودهليز فى نهايته درج يؤدى إلى خارج المعبد .

وتحلى جدران المعبد نقوش دقيقة تتميز برشاقة خطوطها وجمال تفاصيلها وبهجة ألوانها ، وتمثل شعائر مختلفة يؤديها سيتى لكثير من الآلهة .

ووقف سيتى على هذا المعبد إيراد مناجم الذهب فى البرامية فى الصحراء الشرقية ، وكانت أعظم مناجم الذهب إنتاجا فى وقته ، كما وقف عليه أيضا إيراد الأقاليم التى استولى عليها . ونقش فى الصخر

---

(١) A.M. Calverley, op. cit., II, pls. 9, 17, 34.

(٢) أفادت هذه القائمة كثيرا فى معرفة ملوك مصر وترتيبهم وكان الغرض منها تقديم القرابين للملوك الذين تسجل أسماءهم .

عند نورى شمال الشلال الثالث بقليل نصا طويلا حرم فيه على جميع الادارات والموظفين أن يكلفوا أحدا من خدم المعبد بأى عمل من أعمال السخرة فى الزراعة فى كافة أنحاء البلاد . أو أن يحجزوا أية سفينة للمعبد ، أو أن يفرضوا الضرائب على حمولتها أو يصادروا ما يملك المعبد من ثيران وحمير وخنازير وماعز ؛ وكفل به حماية جميع من يعمل للمعبد فى كافة البلاد من صيادين وصناع وفلاحين وحراس وتجار وعمال مناجم وغيرهم . وفرض عقوبات شديدة على كل من يعصى ذلك ؛ وهى فى المتوسط مائة عصا وخمسة جروح دامية مع رد المتاع المصادر . وفى الحالات الخطيرة دفع ما يساويه مائة مرة وأداء السخرة لفائدة المعبد أو النفى إلى الحدود بعد جدع الأنف وقطع الأذنين فى أكثر الأحيان(١) .

المعابد الصخرية

من ملوك الدولة الحديثة من حفر فى الصخر الهياكل للآلهة ، بيد أنها كانت فى بداية الأمر قليلة وفى مساحة صغيرة عادة (٢) ؛ ومن ذلك هيكل بالقرب من بنى حسن للآلهة باخت من عهد حاتشبسوت وتحوتمس الثالث ، وهياكل إبريم من عهد تحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى ، وهيكل جبل السلسلة على الشاطىء الغربى للنيل بالقرب من إدفو من عهد حورمحب ، ومعبد سيتى الأول فى وادى عباد شرقى إدفو .

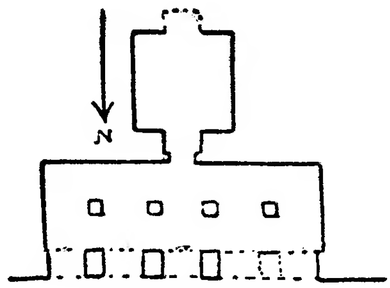
ويتألف هيكل الألهة باخت من صفة ذات أربعة أعمدة ومن ورائها بهو مستعرض ذو أربعة أعمدة فى موازاة أعمدة الصفة ،

(١) F. Ll. Griffith, The Abydos Decree of Seti I at Nauri, J.E.A. XIII (1927), p. 193-208.

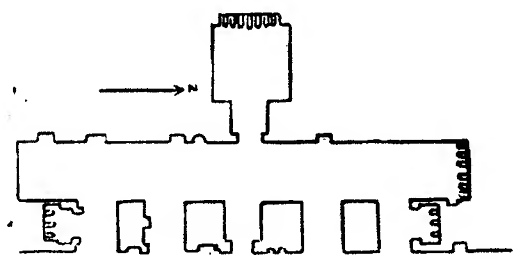
(٢) اكتسب المصريون منذ الأسرة الثالثة على الأقل خبرة كبيرة فى حفر الصخر ، وبلغ ذلك غايته فى المقابر الملكية ذات القاعات والأبهاء الكبيرة فى وادى الملوك فى غربى طيبة .

ثم قاعة عميقة فى جدارها الخلفى مشكاة لتمثال الألهة (شكل ٩٠) .

ويشتمل هيكل جبل السلسلة على ردهة مستعرضة تؤدى إليها خمسة مداخل يعلو كل مدخل الكورنيش المصرى ؛ وتفضى الردهة إلى قدس الأقداس ، نحتت فى جداره الغربى مشكاة فيها سبعة تماثيل (شكل ٩١) . وفى طرفى الواجهة حفر كل من باساور من عهد رمسيس الثانى وبانحسى من عهد مرنبتاح مقصورة صغيرة فى جدارها الخلفى ثلاثة تماثيل . وفى كل من الجدارين الشمالى والغربى من الردهة تماثيل أخرى محفورة فى الصخر .



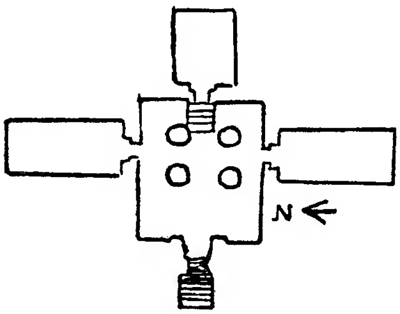
(شكل ٩٠) هيكل الالهة باخت



(شكل ٩١) هيكل جبل السلسلة

وكان فى بلاد النوبة أكثر المعابد الصخرية وأهمها ؛ وقد نقل معظمها من أماكنه الأصلية قبل أن يغمرها مياه السد العالى . ومن هذه المعابد معبد أبو عودة . وهو معبد صغير للملك حورمحب ، كان يقع فى الشاطىء الشرقى للنيل ، جنوبى معبدى ابو سنبل بقليل . وكان يؤدى إليه درج محفور فى الصخر ؛ وكان يتألف من بهو تقوم فيه أربعة أساطين بردية وتكتنفه قاعتان ، وتؤدى منه بضع درجات إلى مقصورة حفرت فى أرضها بئر تؤدى إلى قاعة لا يعرف الغرض منها على وجه التحقيق (شكل ٩٢ وصورة ٣٠) . ومن صور جدرانه ما يمثل حورمحب يقرب لآلهة مختلفة . وفى العهد المسيحى تحول المعبد إلى كنيسة وصورت على الجدران صور بعض القديسين

والملائكة ، وعلى السقف صورة المسيح فى رداء أحمر قان . ولم يتيسر نقل هذا المعبد بكامله واكتفى بانقاذ أهم أجزائه المنقوشة .



(شكل ٩٢) معبد أبو عودة

وتفوق المعابد التى حفرها رمسيس الثانى فى الصخر فى النوبة من حيث سعتها وفخامتها جميع ما سبقها من معابد صخرية ، وهى بيت الوالى (١) وجرف حسين والسبوع والدر ومعبد أبو سنبل ؛ ومنها ما هو محفور بأكمله فى الصخر ، ومنها ما بنى جزوه الأمامى بالحجر وحفر جزوه الخلفى فى الصخر . ويرجع حفر أغلبها فى الصخر إلى قرب حافة الهضبتين إلى مجرى النهر والرغبة فى توفير ما يكتنف النيل من شريط ضيق من الأرض للزراعة ، كما يرجع إلى ما يمكن أن يكون للمعبد الصخرى من جلال وروعة وإلى أنه أخلد على الزمن من المعبد المشيد بالحجر النحيت .

ومعبد بيت الوالى معبد صغير ، بيد أنه أجمل معابد بلاد النوبة بعد معبدى أبو سنبل ؛ وكان يقع فى مستوى مرتفع جنوبى أسوان بنحو ٥٥ كيلو مترا وقد نقل إلى جنوبى السد العالى مباشرة (٢) ؛ وكان لعبادة أمون رع وخنوم (٣) وعنقت (٤) . ويتألف من فناء خارجى وبهو مستعرض ومقصورة (شكل ٩٣) . وتحلى جدران الفناء مناظر ذات تفاصيل شيقة ، تمثل رمسيس يهزم الأسيويين والليبيين

---

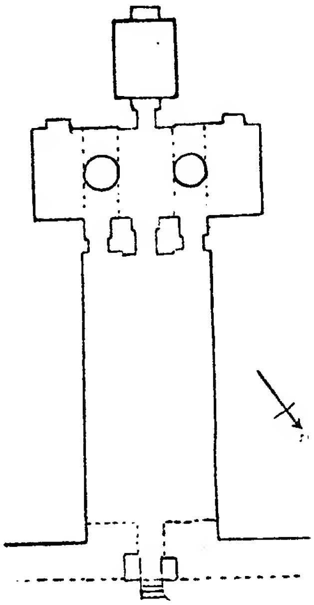
(١) يغلب على الظن أن الإسم الشائع محرف عن بيت الولى .

(٢) R. Roeder, Der Felsentempel von Bet El Wali.

(٣) كان خنوم إله إلفنتين وكان يعتقد انه خلق العالم على دولاب يشبه دولاب الفخارى وقد صوره المصريون برأس كبش وجسم إنسان وجعلوا منه والألهتين عنقت وساتت ثالوثا .

(٤) كانت عنقت إلهة جزيرة سهيل ومنطقة الشلال الأول .

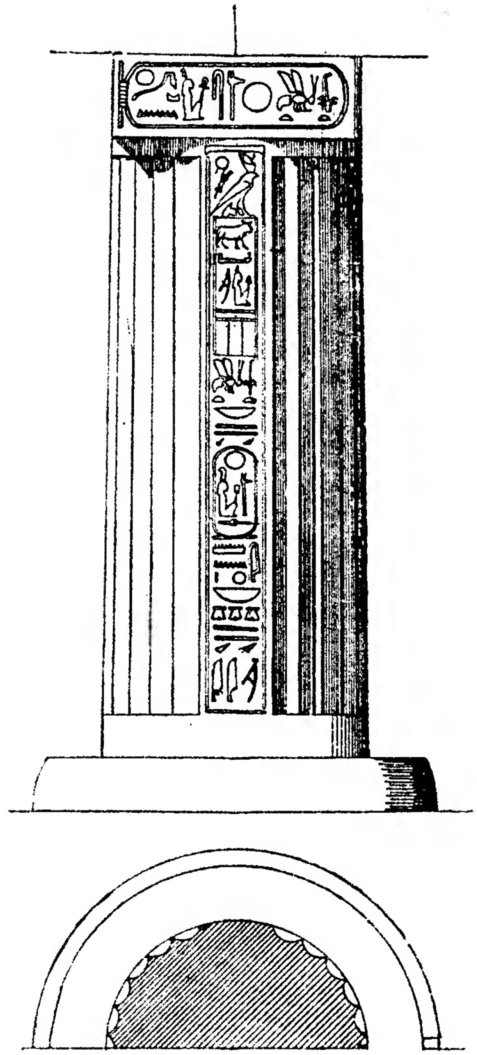
والنوبيين، وحاكم كوش (النوبة) يقدم الجزية من ذهب وجلود حيوان وعاج وكراسى مزخرفة وماشية وغزلان وزراف . وفى الجدار الخلفى للفناء ثلاثة مداخل تؤدى إلى البهو الذى يعتمد سقفه على عمودين قدا فى الصخر ، ولكل عمود أربعة وعشرون ضلعا ، منها أربعة مستوية عريضة تمتد حتى الركيزة ، وفى كل منها سطر طويل من النقوش ، ويعلو بقية الضلوع شريط أملس يقع تحت الركيزة مباشرة (شكل ٩٤) . وفى الجدار الغربى مشكاتان نحتت فى كل منهما ثلاثة تماثيل . وتحلى جدران البهو مناظر مختلفة ، منها ما يمثل رمسيس يقمع تارة نوبيا وتارة أخرى ليبيا . ومنها ما يمثله يؤدى طقوسا لبعض الآلهة . وتحلى جدران المقصورة صور لايزال بعضها يحتفظ بألوانه ؛ وفى الجدار الخلفى مشكاة كبيرة على محور المعبد ، كان منحوتا فى جدارها الخلفى ثلاثة تماثيل جالسة ، أزيلت فى العهد القبطى[1] .



(شكل ٩٣)
معبد بيت الوالى

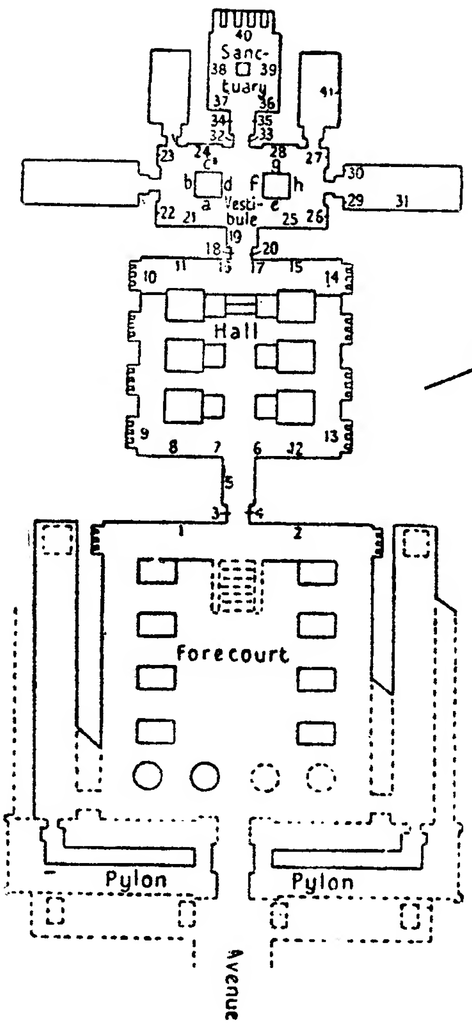
ولم ينقذ معبد جرف حسين بأكمله (شكل٩٥) ، واكتفى بانقاذ بعض أجزائه ، وكان مخصصا لعبادة الأله بتاح ؛ وكان بعضه مبنيا وبعضه محفورا فى الصخر . وكان يتقدمه طريق تحف به تماثيل أبو الهول ويؤدى إلى صرح تكتنف مدخله أربعة تماثيل ضخمة وكان من وراء الصرح فناء محفور فى الصخر تحيط به الصفات

(١) يدل معبد بيت الوالى ونقوشه على أربع فترات تتميز الفترة الأولى بالنقش البارز ، والفترة الثانية بالنقش الغائر ، وفى الفترة الثالثة حفر المدخلان الجانبيان فى الجدار الخلفى للفناء ؛ وفى الفترة الرابعة سد هذان المدخلان ونقشت عليهما نقوش جافية قد تكون فى أواخر عهد رمسيس أو بعد عهده . أنظر R. Roeder, op. cit., S. 154 ff.



(شكل ٩٤)

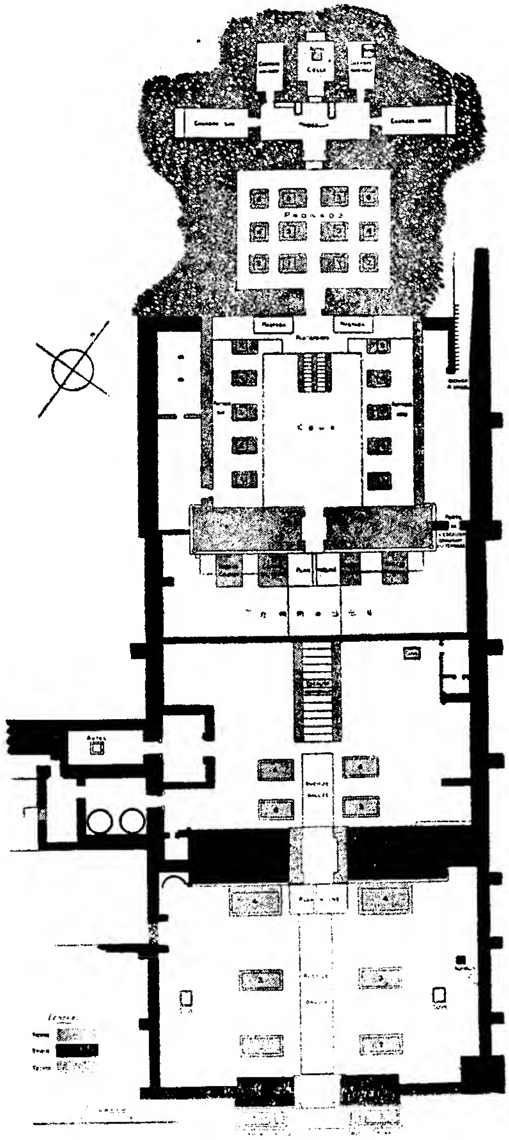
عمود ذو أربعة وعشرين ضلعاً
من معبد بيت الوالى



(شكل ٩٥) معبد جرف حسين

من ثلاثة جوانب ، ويكتنفه دهليزان طويلان ، وفى مؤخرته شرفة ، يؤدى اليها درج ، وفى يمينها ويسارها مشكاتان ، فى كل مشكاة ثلاثة تماثيل . وكان الفناء ينتهى بواجهة فى شكل صرح ثان منحوت فى الصخر يؤدى مدخله إلى ما يمثل فناء آخر منحوتا فى الصخر ، يعتمد سقفه على ستة أعمدة قدت فى الصخر ، وتبرز من واجهاتها تماثيل

ضخمة تمثل رمسيس فى رداء اليوبيل . وكان فى كل من الجدارين الجانبيين أربع مشكاوات ، فى كل مشكاة ثلاثة تماثيل تمثل الملك بين إلهين ، بحيث كانت ترى من خلال الأعمدة . ومن الصور المنقوشة على الجدران مايمثل رمسيس يقدم القربان لآلهة مختلفة ولنفسه كأله . وتلى الفناء شرفة يؤدى اليها درج . وتفضى إلى بهو الأعمدة يتوسطه عمودان . وتكتنفه قاعتان . وكان من وراء البهو قدس الأقداس تكتنفه كذلك قاعتان ، وتتوسطه قاعدة من الصخر كان يستقر عليها الزورق المقدس ، وفى جداره الخلفى مشكاة تبرز منها اربعة تماثيل لبتاح ورمسيس المؤله وبتاح ثنن وحتحور .



(شكل ٩٦) معبد السبوع

وقد نقل معبد السبوع من مكانه إلى مكان مرتفع خلف مكانه القديم جنوبى إسوان بنحو ١٥٠ كيلو مترا (شكل ٩٦) (١) ؛ وكان

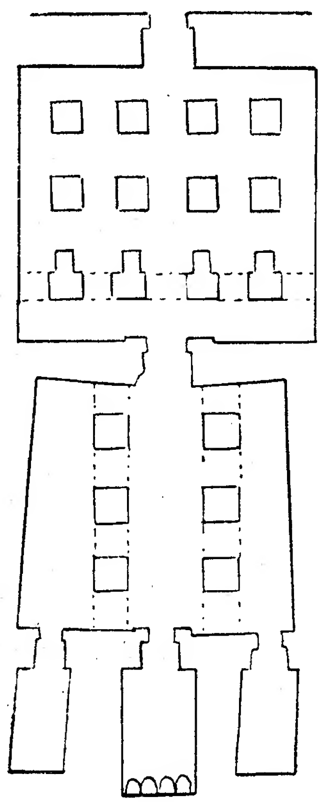
(١) H. Gauthier, Le temple de Ouadi Es-Sebouâ, 2 vols. من نصوص هذا المعبد نص فى السنة الرابعة والأربعين من حكم رمسيس الثانى يشير إلى استخدام اسرى ليبيين فى المعبد .
Bull. Soc. fr. d'Eg. No. 6 (1951)

لعبادة أمون رع ورع حراختى ورمسيس ، ويشبه فى تخطيطه كثيرا معبد جرف حسين . وكان يؤدى إليه مدخل من الحجر فى جدار من اللبن ، يكتنفه تمثالان لأبى الهول وتمثالان للملك . ويتميز بأنه كان يكتنف محور المعبد فى الفناء الأول صفان من ستة تماثيل لأبى الهول بالتاج المزدوج ، وفى الفناء الثانى صفان من أربعة تماثيل لأبى الهول برأس صقر تمثل رع حراختى . وكان بين الفناءين صرح من اللبن ، وفى مؤخرة الفناء الثانى شرفة يؤدى إليها درج ويقوم من فوقها صرح ثان ، يفضى بابه إلى فناء ثالث . يكتنفه صفان من عشرة أعمدة أزيرية . ويليه بهو الأعمدة ويشتمل على اثنى عشر عمودا فى أربعة صفوف . وتبرز من الأعمدة التى تكتنف محور المعبد تماثيل أزيرية . ومن وراء البهو ردهة مستعرضة تكتنفها قاعتان وتطل عليها المقصورة بين قاعتين . وفى الجدار الخلفى للمقصورة مشكاة كانت تبرز منها ثلاثة تماثيل لأمون رع ورمسيس ورع حراختى . وتحلى عضادتى المشكاة صورة رمسيس يقدم الزهور للتماثيل الثلاثة . وقد تحول المعبد إلى كنيسة وصورت صور القديسين فوق النقوش الأصلية ، ومنها صورة القديس بطرس فى ظهر المشكاة بعد أن أزيلت التماثيل منها ، فبدا وكأن رمسيس يقدم له الزهور .

وكان معبد الدر يبعد عن أسوان بنحو ٢٠٠ كيلومترا . وقد خصصه رمسيس لعبادة بتاح وأمون رع ورمسيس المؤله ورع حراختى(١) ، ولابد أن كان يتقدمه صرح وفناء على الأقل . يليهما بهوان وثلاث مقصورات . محفورة فى الصخر فيما عدا سقف البهو الأول فقد كان من حجر منحوت (شكل ٩٧) . ويتخلل هذا البهو اثنى عشر عمودا فى أربعة صفوف . وتبرز من

(١) A.M. Blackman, The Temple of Derr.

واجهات الأعمدة الأخيرة تماثيل أزيرية لرمسيس. ويقوم فى البهو الثانى صفان من الأعمدة ، فى كل صف ثلاثة أعمدة ، ويؤدى البهو إلى ثلاث مقصورات ، أكبرها المقصورة الوسطى وقد نحتت فى جدارها الخلفى أربعة تماثيل لبتاح وأمون ورمسيس الثانى ورع حراختى . وتحلى جدران البهو الأول مناظر حربية ، بينما تحلى جدران بقية أجزاء المعبد صور دينية .

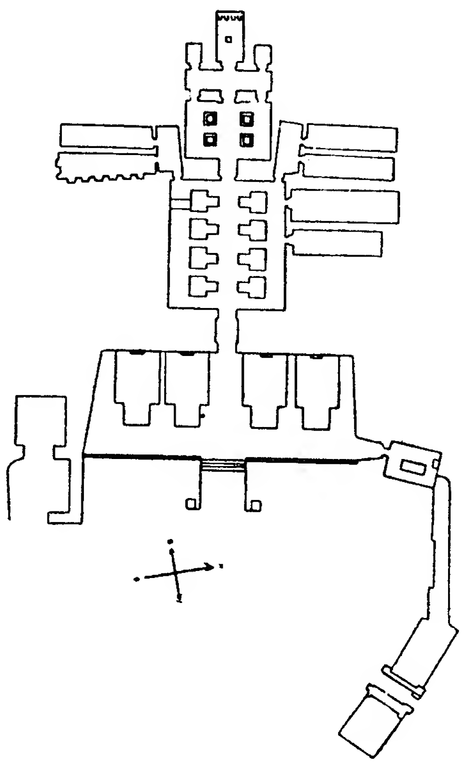


(شكل ٩٧) معبد الدر

ويقع معبدا أبو سنبل جنوبى أسوان بنحو ٢٨٠ كيلو مترا ،وقد نقلا إلى مكان مرتفع خلف مكانهما الأصلى بنحو ٢٠٠ متر . وهما يروعان بقوة عمارتهما وحسن نسبهما وضخامة تماثيلهما وجمال ما يحلى جدرانهما من نقوش بما يدل على أن من أعمال العمارة والنحت والنقش ماظل يحتفظ بمستوى فنى رفيع بعد عهد أخناتون .

ومعبد أبو سنبل العظيم (شكل٩٨) أجمل المعابد الصخرية على وجه الاطلاق، نحته رمسيس الثانى فى جبل مرتفع من الحجر الرملى يشرف على النيل كان يسمى الجبل الطاهر . ويتقدمه فناء فى مؤخرته شرفة مرتفعة يتوجها الكورنيش المصرى ، وتقوم على حافتها تماثيل للصقر حورس وللملك فى صورة أزيريس. وتلى الشرفة واجهة سامقة شماء يبلغ ارتفاعها ٣١مترا تبرز فيها أربعة تماثيل عملاقة ، هى أضخم تماثيل فى العالم (صورة ٣١) . وكانت منحوتة فى الصخر الأصم ،وتمثل رمسيس الثانى جالسا لارتفاع عشرين مترا ، أى ما يقرب من خمسة عشر مثلا من الحجم الطبيعى . ورغم ضخامتها فقد أبدع المثال نحت ملامح الوجه الوسيم ، يفيض

عنه جلال شامخ ، وفى قسماته شباب غض وابتسامة رقيقة [1] ، وكانت مع هذا كله تتسق ومحيطها الطبيعى الضخم العظيم أجمل اتساق . وبجانب سيقانه وفيما بينها تقف أمه وزوجه وطائفة من بنيه وبناته ، قدت تماثيلهم جميعا فى الصخر فى حجم ضعف الحجم الطبيعى تقريبا ، بيد أنها لا تتجاوز ركبتيه ، وبجانبها اسماؤهم وألقابهم فى خط هيروغليفى أنيق . وقد نحتت واجهة المعبد فى الصخر فى شكل صرح يعلوه الكورنيش المصرى



(شكل ٩٨) معبد أبو سنبل العظيم

ومن فوقه صف من أثنين وعشرين قردا ترفع أذرعها تهللا للشمس المشرقة . ويتوسط الواجهة مدخل عظيم يعلوه تمثال الأله الشمس ، رع حراختى ، يبرز فى مشكاة بجسم رجل ورأس صقر يعلوها قرص الشمس ، وبجانب ساقيه علامتان تسجلان معه اسم رمسيس فى صورة مجسمه . وعن يمين ويسار يقدم رمسيس للأله الشمس ولاسمه المجسم تمثالا صغيرا للألهة ماعت ، إلهة الحق والعدالة . وتمثله صورتاه وهو يميل قليلا إلى الأمام فى غير خضوع محتفظا بجلاله ووقاره .

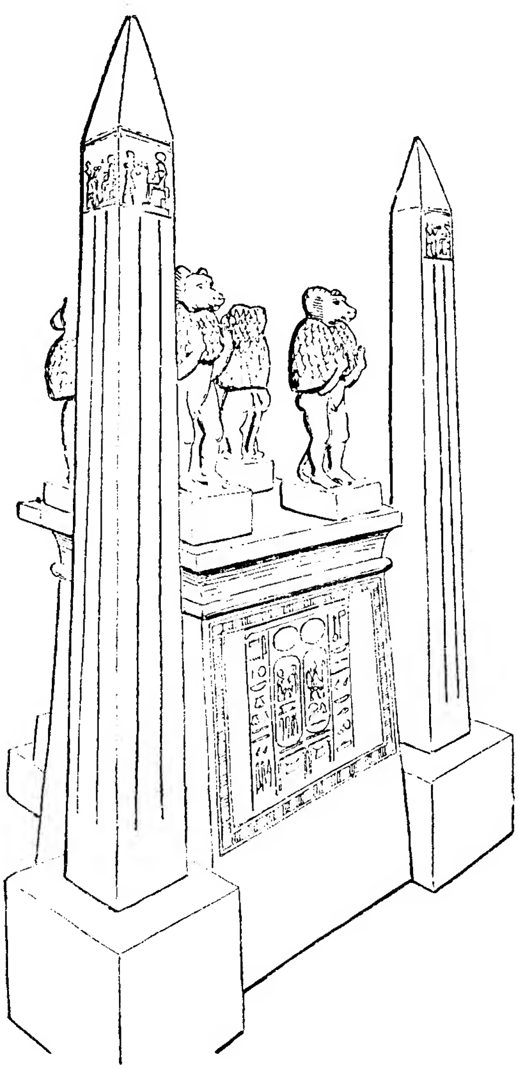
ويغور المعبد فى الصخر ٤٧ مترا من مدخله حتى قدس الأقداس وما يكاد المرء يلج بابه حتى يلفى نفسه فى بهو عظيم ، يروع باتساع أرجائه ، وسموق جدرانه ، وضخامة خطوطه ، عرضه ستة عشر

(١) وذلك رغم رداءة الحجر الرملى وعدم صلاحيته للنحت الدقيق .

مترا وطوله سبعة عشر مترا ونصف وارتفاعه ثمانية أمتار (صورة ٣٢). وهو يقوم مقام الفناء فى المعابد المشيدة ، ويتوسطه صفان من أعمدة جسيمة قدت فى الصخر ، تبرز من واجهاتها تماثيل رائعة لرمسيس واقفا فى ردائه الرسمى ، عاقدا ذراعيه على صدره وفى يديه الصولجان والمذبة ، وعلى رأسه التاج المزدوج فى تماثيل الصف الشمالى ، وتاج الصعيد فى تماثيل الصف الجنوبى . وعلى جدران البهو صور عامرة بالحياة ؛ منها ما يمثل رمسيس فى حجم ضخم يقمع أعداءه فى صورة رمزية تخلد الرغبة فى انتصاره على الدوام ؛ ومنها ما يصور مراحل مختلفة من موقعة قادش فى مساحة شاسعة ، يرى فيها رمسيس وهو يعقد مجلسا حربيا يملى فيه أوامره لقواده ليخرج من المأزق الذى زج به فيه مكر أعدائه ؛ أو وهو فى مركبته الحربية يخترق بها مركبات الأعداء ، فتختل صفوفهم ويوقع بهم الهزيمة . ومنها ما يصوره فى مركبته يسدد السهام إلى أحد الحصون الأسيوية فيسقط من شرفاتها القتلى ، ويلتمس الأحياء العفو والغفران ، فى حين يولى راع الأدبار بماشيته إلى مكان يقيه وطيس القتال ؛ أو وهو يطعن عدوا بعد أن ألقى بآخر على الأرض ؛ أو وهو يقدم الأسرى للآلهة . ومنها كذلك ما يمثله وهو يؤدى طقوسا مختلفة لعدد غير قليل من الآلهة . وكل صورة من هذا كله لوحة فنية بشخوصها وألوانها . ويحلى سقف الرواق الأوسط صور كبيرة لرخم ينشر جناحيه ، بينما تحلى سقف الرواقين الجانبيين نجوم زاهرة فى سماء زرقاء .

وتتخلل بهو العمد أربعة أعمدة فى صفين عن يمين ويسار المحور الرئيسى للمعبد ، وتحليها صور رمسيس مع أحد الآلهة أو الألهات ، تحتضنه أو يقدم لها القربان . وعلى الجدارين الجانبيين يرى رمسيس وهو يحرق البخور تارة أمام زورق أمون رع ، يحمله الكهنة على أكتافهم ، وتارة أخرى أمام زورق رمسيس المؤله ومن ورائه فى كل مرة الملكة نفرتارى تهز المصلصل .

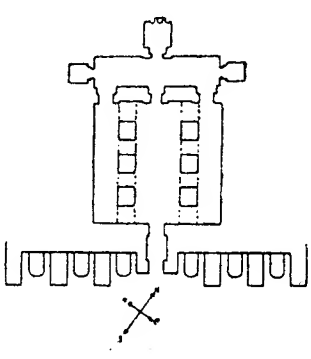
وتلى بهو العمد ردهة مستعرضة، تطل عليها قاعتان تكتنفان قدس الأقداس، تتوسطه قاعدة للزورق المقدس كانت منحوتة فى الصخر ، وفى جداره الخلفى تماثيل أربعة لبتاح وأمون رع ورمسيس ورع حراختى ، وكانت كلها منحوتة فى الصخر الطبيعى. وقد قصد رمسيس من تمثاله بين تماثيل الآلهة إلى أن يكون على قدم المساواة مع آلهة مصر العظام وأن يؤدى له ما يؤدى لها من شعائر . وفى جانبى المعبد قاعات تحلى جدرانها صور تمثل رمسيس يقدم القربان أو يحرق البخور أو يؤدى بعض المناسك لكثير من الآلهة ولنفسه كإله . وعلى يمين الشرفة مقصورة مكشوفة جدارها الشرقى فى شكل برجين وفيها مائدتان كانت تكتنف إحديهما مسلتان وتعلوها أربعة قردة (شكل ٩٩)، وكان على الأخرى ناووس به جعل وقرد .



(شكل ٩٩) مائدة القربان
من مقصورة رع حراختى

والمعبد بضخامته وسموق واجهته كان يتسق أتم اتساق والربوة الشاخصة التى نحت فيها ، والنهر العظيم الذى يشرف عليه ، وينبىء عما كان يملأ نفس رمسيس من طموح وعظمة وكبرياء ، ويدل على حرصه على تخليد ذاته والآلهة بأضخم الآثار . وهو فوق ذلك كله مثل قائم على عبقرية البنائين والفنانين الذين أبدعوه ، ولا يملك المرء إلا أن يسأل كيف تيسر للمصريين أن يحفروا فى الصخر الأصم فى تلك الناحية القاصية ذلك المارد الضخم ، وكيف تسنى لهم توفير الفنانين والعمال ، وتنظيم العمل ، ثم إبداع ما أبدعوه من عمارة ونحت ونقش وتصوير .

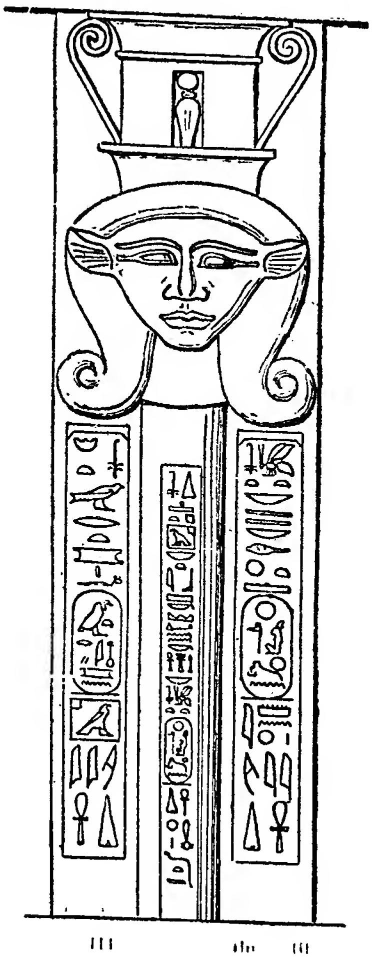
وكان يكفى رمسيس معبد أبو سنبل العظيم ليخلد اسمه على الدوام ، وليذكره التاريخ فيمن يذكرهم من الأعلام ، ولكنه حفر فى شماله وغير بعيد منه معبدا آخر للآلهة حتحور ولزوجته الملكة نفرتارى ، اه فيه من التماثيل والصور حظ وافر . وتحلى واجهة المعبد تماثيل واقفة ، يبلغ كل منها خمسة أمثال الحجم الطبيعى بما يكفل لها فى النفس وقع يختلف عما للتماثيل الجالسة فى واجهة المعبد الكبير (صورة ٣٣) . ويقف كل تمثال فى مشكاة وبجانبه اسم صاحبه وألقابه فى نقش غائر بخط كبير جميل . ويعلو المدخل صف من صلال تشرئب برءوسها ، لتحرس المعبد وترد عنه كل سوء .



(شكل ١٠٠)
معبد أبو سنبل الصغير

ويحتوى المعبد على قاعة عمد وردهة مستعرضة تكتنفها قاعتان ثم قدس الأقداس (شكل ١٠٠) . ويحلى واجهات الأعمدة مصلصل حتحور ، إلهة الحب والغناء والرقص ، ويتألف من مقبض طويل يتوجه رأس حتحور بوجه

امرأة وأذنى بقرة وشعر مستعار غزير ،ومن فوقه هيكل صغير بين قرنين حلزونيين (شكل ١٠١) .



(شكل ١٠١)
عمود حتحورى
من معبد أبو سنبل الصغير

وتحلى بقية جوانب الأعمدة صور للملك والملكةوبعض الآلهة والألهات .

وتحلى الجدران صور مختلفة تمثل الملك والملكة ، معا أو كلا على انفراد ، يقدمان القرابين ومنها الزهور لكثير من الآلهة والألهات . ويسود الصور جميعا لون أصفر ذهبى براق على غير المعتاد فى صور الملك والآلهة ، ويبدو أنه قصد به الكناية عن الألهة حتحور التى كانت تلقب بالذهبية ، وربما كان يعتقد أيضا أن فى غلبة هذا اللون فى معبدها ما يرضيها .

ومن صور قدس الأقداس مايمثل رمسيس الملك يحرق البخور ويصب الطهور لرمسيس المؤله والملكة المؤلهة؛ كما أن منها مايمثل الملكةتحرق البخور أمام الألهتين موت وحتحور . وفى الجدار الخلفى مشكاةفى شكل واجهةمقصورة بين عمودين حتحوريين ، تبرز منها رأس حتحور فى هيئة رأس بقرة تحمى تمثالا للملك .

وما من ريب فى أنه كان يعنى باختيار المكان الذى يحفر فيه المعبد ؛ وكان الحفر من أعلى إلى أسفل يصاحبه فى نفس الوقت نحت التماثيل ونقش المناظر والنصوص وتلوينها جميعا . وكانت الأعمدة والأساطين وأعتابها تنحت فى الصخر من أعلى إلى أسفل

أيضا ، وتدل على ذلك الأساطين التى لم يتم نحتها فى بعض المقابر فى تل العمارنة .

وعلى ضخامة الأثر الذى تتركه فى النقش منشآت رمسيس فى أنحاء البلاد فأن كثرة الأعمال التى قام بها أدت بالضرورة إلى الإسراع فى أداء الكثير منها واستخدام عدد غير قليل من الفنانين والعمال المحليين ذوى الكفاءة المحدودة ، وهو ما يتجلى بصفة خاصة فى بناء الجزء الأمامى من معبد السبوع من حجر رملى ردىء ، وفى نحت تماثيل ونقوش معبدى جرف حسين والدر . ومع امتداد سنوات حكم رمسيس التى بلغت ٦٧ عاما ، أخذت الأعمال السطحية تزداد ، كما أدت كثرة المنشآت إلى ضعف مالية الدولة .

العصر المتأخر

لم يبق من المنشآت الدينية من العصر المتأخر غير آثار ضئيلة ، وأغلبها مقصورات مستطيلة من مساحات صغيرة ، قلما يعتمد سقفها على أساطين ، وتحلى جدرانها من الداخل نقوش غائرة . وهى عادة من داخل أسوار المعابد القديمة مثل الكرنك ، وأكثرها مما أنشأته العابدات المقدسات (١) .

وفى الواحة البحرية وواحة سيوة أطلال مقصورات كثيرة ، منها ما يبلغ فى مساحته مساحة معبد . وأهمها جميعا معبد دارا الأول فى الواحة الخارجة ، وقد أتم نقوشه ملوك الأسرتين التاسعة والعشرين

(١) كانت الملكة بصفتها رئيسة كاهنات أمون رع هى العابدة المقدسة أو العابدة الألهية ، وكانت تسمى أيضاً زوجة أمون واليد الألهية ، ولما أصبحت لأمون أملاك شاسعة فى أنحاء البلاد ، عمل الملك أو سركون الثالث ، أحد ملوك الأسرة الثالثة والعشرين ؛ على أن يكون لأسرته الأشراف عليها فأقام إبنته شبنوبت زوجة للاله ، ولم يلبث أن علا سلطانها على سلطان الكاهن الأعظم . وعندما غزا بعنخى مصر حمل شبنوبت على أن تتبنى أخته أمنرديس ، ثم خلفتها ابنته شبنوبت الثانية ، وقد اضطرها أبسمتيك الأول إلى أن تتبنى ابنته نيتوكريس ، أنظر Sander-Hansen, Das Gottesweib des Amun.

والثلاثين وبعض البطالمة والرومان . ويحيط بالمعبد سور وتتقدمه صفة ، ويتألف من ثلاثة أبهاء ذات أساطين ثم قدس الأقداس(١) .

* * *

يكشف ذلك كله عن اهتمام المصريين بانشاء المعابد للآلهة فى كافة أنحاء البلاد حتى فى أجزائها القاصية . وهى على اختلافها فى التفاصيل تدل على أن البناء المصرى كان يلتزم فى تخطيط المعابد قواعد ثابتة . وإذ كانت العقائد الدينية وما يتصل بها محافظة ، وكان المصريون من أشد الأمم حفاظا على تقاليدهم المتوارثة وخاصة ما كان منها يقترن بعقائدهم الدينية ، لذلك لابد أن كانت القواعد التى راعوها فى بناء المعابد إنما ترجع إلى أزمنة قديمة . ومن النصوص ما يدل حقا على أنه كان يعتمد فى تخطيط المعابد على وثائق قديمة فى سجلات القصر الملكى أو المعابد . ومما يزكى ذلك أنه عندما كان يراد إقامة معبد فى العهد البطلمى كان يرجع إلى « كتاب تأسيس المعابد » الذى كان يعتقد أنه من وضع إمحوتب وأن الآلهة أخذته معها إلى السماء عندما هجرت الأرض غير أن إمحوتب استنزله فى شمال منف .

ومما حفظ من مخططات ونماذج كثيرة للأبواب والأبراج والصروح وغيرها من العناصر المعمارية (صورة ٣٤)(٢) ، يبدو أنه كان يعد للمعبد الذى يراد إنشاؤه مخطط ، وربما أيضا نموذج يتفق بطبيعة الحال والقواعد المتبعة وما أحرزه المجتمع من تقدم ويرضى صاحب الأمر فى البلاد . على أنه لما كان طراز بناء المعبد تقليديا

---

(١) H.E.. Winlock, The Temple of Hibis in El Khargeh Oasis.

(٢) H. Carter, A.H. Gardiner, The Tomb of Ramesses IV and the Turin plan of a royal Tomb, J.E.A., vol. IV, p. 130 ff. ; N. de G. Davies, An Architect's Plan from Thebes, J.E.A., vol. IV, p. 194 ff. ; S.R.K., Glanville, Working Plan for a shrine, J.E.A., vol. XVI, p. 237 ff. ; R. Engelbach, An Architect's Project from Thebes, Annales du Service des Antiquités, XXVII, p. 72 ff. ; Corringe, Egyptian Obelisks, pl. XXXII.

إلى حد كبير لم يكن الأمر يدعو إلى تفاصيل جديدة كثيرة فى مخططه . وكانت المخططات الهامة ترسم عادة على البردى ، ويظن أن ما كان يرسم منها على لخاف من حجر الجير إنما كان للتنفيذ وإرشاد رؤساء العمال . بيد أن هذه المخططات لم تكن تخطط حسب مقاس معلوم ، وإنما كان يغنى عن ذلك رسمها داخل شبكة من المربعات ، مما كان ييسر تكبيرها إلى أى مقاس ، أو كان يكتفى بتسجيل أسماء أجزاء البناء ومقاييسها بالذراع والراحة والأصبع فى خط هيراطيقى .

وفى تل العمارنة أمكن التعرف على ما اتبعه البناء من وسيلة غريبة فى تنفيذ مخطط المعبد(١) . فقد حفرت أولا أخاديد الأساس فى الأرض ثم غشيت بالجبس ورسمت عليه حدود الجدران بحبال مدهونة بلون أسود . وبعد أن وضعت أحجار الأساس غطت الأرض بالرمل إلى المستوى الذى أريد أن تكون عليه أرض المعبد ، ثم غطيت طبقة الرمل بطين استقرت عليه أحجار البناء .

وعند تأسيس المعبد كانت تؤدى شعائر خاصة ؛ ومن النصوص ما ينسب هذه الشعائر إلى إمحوتب ؛ ومنها ما ينسبها إلى خوفو(٢) ؛ ومنها ما يذكر أنها وجدت فى جدار أحد قصور الملك بى الأول . ويبدو من نقوش الملك خع سخموى على عضادة باب من الجرانيت أنها ترجع إلى عهد بداية الأسرات على الأقل (٣) .

ومن نقوش بعض المعابد منذ الدولة القديمة (٤) وخاصة نقوش

(١) J.D.S. Pendlebury, The City of Akhenaten, Part III, p. 6 f.

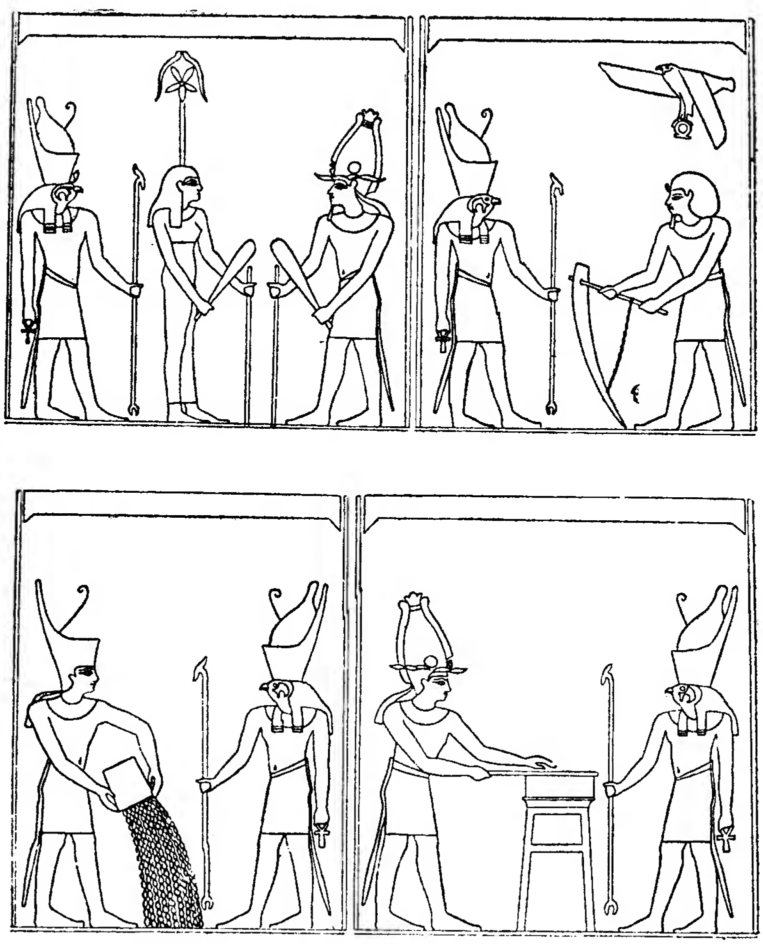
(٢) A. Moret, Du caractère religieux de la royauté pharaonique, p. 131.

(٣) وهى تصور الملك يقبض على عصا غليظة وصولجان وأمامه اثنى عشر شخصاً فى ثلاثة صفوف وإلى اليمين الآلهة سشات تغرس والملك قائماً فى الأرض .

J.E. Quibell, Hierakonpolis, I, pl. II ; R. Engelbach, A Foundation Scene of the Second Dynasty, J.E.A., XX (1934), pp. 183-4.

(٤) Von Bissing und Kees, Untersuchungen zu den Reliefs aus dem Re-Heiligtum des Rathures, S. 3-21.

معبدى ادفو ودندرة من العهد اليونانى الرومانى ، ومن قرطاس من الرق فى برلين يمكن التعرف على المناسك الرئيسية التى كانت تؤدى قبل البدء ببناء المعبد ؛ ومنها يتضح أنها كانت شعائر دينية ، وأن الملك أو من ينوب عنه كان يقوم بأدائها تساعده كهنة وكاهنات يمثلون بعض الآلهة والإلهات (شكل ١٠٢) ، ولابد أن كان يشهد



(شكل ١٠٢) من شعائر تأسيس المعبد

الحفل عظماء رجال الدولة وكبار موظفيها . وكان الملك يخرج من قصره تتقدمه أربعة ألوية ، لواء إبن آوى ولواء الصقر ولواء طيبة ولواء أبو منجل ، فاذا بلغ مكان البناء عمد وكاهنة تمثل الإلهة سشات ، ولعلها كانت الملكة ، إلى تحديد المساحة التى يبنى عليها

المعبد بتثبيت أربع قوائم فى أركانها ، ومن ثم يمد حبل بينها ، ويتتبع الملك حدود المعبد بخد الأرض بمعزق ، ثم كان يلقى رمل الأساس فى الأخدود . وبعد ذلك كانت توضع ودائع الأساس فى كل ركن من أركان المعبد وبعض جوانبه ، وكانت تتألف فى الغالب من لبنة أو أكثر يصنعها الملك بنفسه ، ومن سبائك من الذهب ، وقطع صغيرة من أحجار ثمينة ، وأوان من فخار وقاشانى وحجر ، ونماذج مصغرة من النحاس لما يستخدم فى بناء المعبد من أدوات ، ولوحات منقوشة باسم الملك ، وصحاف لحم وخبز وفاكهة وأدوات فتح الفم(١) . وتشير شعيرة صنع اللبنة فيما يبدو إلى أن طقس تأسيس المعبد يرجع إلى ما قبل البناء بالحجر أى إلى أواخر ما قبل الأسرات وبداية الأسرات . وأخيرا كان الملك يضع أول حجر فى الأساس مستعينا فى ذلك بعتلة . وكان يصاحب أداء هذه الشعائر قراءة صيغ خاصة ، يتلوها الكهنة القراء ، وتقديم الضحايا من الحيوانات .

وبعد أن يتم بناء المعبد كانت تؤدى شعائر افتتاح المعبد وتكريسه ؛ وفيها كان الملك يطهر المعبد بحرق البخور من حوله ، ثم كان « يعطى البيت لسيده » أى يهدى المعبد لصاحبه الذى أنشىء المعبد من أجله ، وذلك برفع يده اليمنى قليلا بينما يمسك بيده الأخرى العصا والدبوس(٢) . ومن المناظر ما يمثل الملك وهو يطرق باب المعبد إثنتا عشرة طرقة بدبوسه ، ولعل ذلك كان لتكريس الباب قبل الدخول فى المعبد . ثم كان الملك يجلب النار إلى المعبد ويطهر الناووس الذى فيه تمثال الأله ، ويمسك بكلتا يديه مصباحا يضىء به قدس الأقداس أربع مرات . ولم يكن بناء المعبد يعتبر أنه قد تم إلا بعد أن تنقش جدرانه بالصور ، وكان الملك يهدى هذه النقوش للأله فى حفل .

(١) H.E. Winlock, Excavations at Deir el Bahari, pp. 52-3, 89, 107.

(٢) J. Vandier, Manuel d'achéologie égyptienne, t. II, p. 661 ff. ; J. Vandier, La religion égyptienne, p. 171 sq.

ومن النصوص مايدل على أن هذه الطقوس كانت تؤدى أيضا عند إضافة مبانى جديدة لمعبد قديم .

أثاث المعبد

كان من أهم ما يحتويه المعبد تماثيل الآلهة ، وأهمها تماثيل صغيرة من مواد ثمينة ، وخاصة الذهب الذى كان يعتبر لحم الآلهة . ومن أروع ما حفظ من تماثيل الدولة القديمة رأس من الذهب لصقر فى متحف القاهرة ، أبدع الصانع صوغه فى دقة بالغة لاتضارع : وفيه يتجلى معدن الذهب أجمل ما يكون ، والعينان طرفا قضيب من السبج أجيد صقلها (صورة ٣٥) . وكان جسم الصقر من نحاس مطروق على قالب من خشب . وفى متحف متروبولتان فى نيويورك تمثال من الذهب للإله أمون (١) . وكان الملك أو من يمثله يؤدى لهذه التماثيل طقوس العبادة ويقدم لها القرابين فى قدس الأقداس ، وكان لايسمح بأن تكون عرضة للأنظار . وفى الأعياد والمناسبات الهامة كان يحمل كل منها فى زورق مقدس للتنزه فى البحيرة المقدسة أو لزيارة المعابد الأخرى وذلك فى حفل بهيج .

على أن من تماثيل الآلهة ما كان من الحجر من حجم كبير وكانت تقام فى بعض أنحاء المعبد ، وقد تبلغ فى بعض الأحيان عددا كبيرا ، ومن ذلك تماثيل الإلهة سخمت من البازلت الأسود ، وكانت تقرب من سمائة تمثال فى فناءى معبد موت فى الكرنك ، ولا يخلو متحف ذو أهمية فى العالم من تمثال لها أو جزء من تمثال ، وتمثلها تماثيلها فى صورة امرأة برأس لبؤة وفى إحدى يديها صولجان وفى الأخرى رمز الحياة . وكثيرا ما يكون تمثال الإله أحد تمثالين أو ثلاثة فى مجموعة من حجر واحد ؛ وقد يتوسط المجموعة تمثال

(١) G. Steindorff, K.C. Seele, When Egypt Ruled the East, fig. 13.

الملك . ومن تماثيل المعبودات ما يمثلها فى شكل حيوان ، ومن أهمها تمثال حتحور فى صورة بقرة (صورة ١٩) ؛ ومنها ما يمثلها بجسم إنسان ورأس حيوان أو فى شكل آدمى كامل . وكانت تماثيل الآلهة والإلهات ذات الرءوس الآدمية تمثل بملامح الملك الحاكم والملكة . وجميع تماثيل الآلهة على اختلافها قطع فنية تمتاز بما يتمثل فيها من جلال ووقار ورصانة وهدوء . وفى المعابد الصخرية كانت تماثيل الآلهة والتماثيل الملكية تنحت فى الصخر .

وكان من تماثيل المعابد أيضا تماثيل للملوك من أحجام وأحجار مختلفة (١) ، تمثلهم واقفين أو جالسين أو راكعين يقدمون القربان بملابسهم وشاراتهم الملكية . وكانت تقام أمام الصروح وفى الأفنية والقاعات والأبهاء ؛ ومنها ما يمثل الملك وحده أو مع الملكة فى حجم صغير بجانب ساقه .

ومن عظماء الأفراد وكبار الكهنة ماسمح لهم بإقامة تماثيل لهم فى أفنية المعبد وبجانب الصروح وفى بعض القاعات ليكونوا فى حرم المعبود ولينعموا برؤية موكبه فى الأعياد والاحتفالات المختلفة ، ولينالوا مما يقدم له فى معبده من قربان . ويظن كذلك أن تماثيل كبار رجال الدولة بجانب صروح المعابد كانت واسطة بين المصريين لدى المعبود ، وأنها تنقل له ما يقدمون من دعوات وتوسلات .

وقد كشف فى أرض أحد أفنية معبد الكرنك عن مخبأ تكدست فيه تماثيل عديدة للآلهة والملوك والأفراد ، وقد أمكن أن ينقذ منها ٧٧٩ تمثالا من الحجر و ١٧٠٠٠ تمثال من البرنز وذلك غير ما كان

---

(١) ومنها ما كان من النحاس كتمثال بيى الأول وابنه ؛ وتمثال بيى يمثله فى حجم أكبر قليلا من الحجم الطبيعى وهو أكبر ما حفظ من تماثيل النحاس على وجه الاطلاق ؛ ومنها ما كان من العاج من حجم صغير كتمثال الملك خوفو الذى عثر عليه فى معبد ابيدوس . انظر محمد أنور شكرى : الفن المصرى القديم ، صور ٨٩ ، ٢١٠ – ٢١٢ .

من تماثيل كثيرة من الخشب أتلفتها رطوبة الأرض (١) . ويظن أنها أخفيت عندما غزا أشوربانيبال مصر ونهب طيبة ، ويعد كثير من التماثيل الحجرية من روائع فن النحت .

وكانت التماثيل الثمينة للآلهة ورموزها تحفظ فى نواويس فوق قواعد مرتفعة . وكانت النواويس فى العهود الزاهرة قطعا فنية تصنع من خشب ثمين يعتنى بنجره ، وتحلى بصفائح الذهب وترصع بأحجار كريمة أو بعجائن زجاجية ملونة ، وهو ماتدل عليه صورها على جدران بعض المعابد . وكانت مربعة تقريبا ، يزيد ارتفاعها كثيرا على طولها وعرضها ، ولها باب ذو مصراعين. وهى تختلف فيما بينها باختلاف أجزائها العليا ، فمنها ما يحليه الكورنيش المصرى وسطحه مستو أو مقبى من أمام ، أو فى شكل قبة يعلوها فى بعض الأحيان رمز مقدس ؛ ومنها ماله أربعة قوائم عالية فى أركانه الأربعة (٢) . وكان الناووس يوصف بأنه السماء ؛ وكان الملك إذا فض خاتم الطين من بابه قيل أنه « يفتح أبواب السماء وأبواب المشرق لسيده » ؛ وكان من نعوت الكاهن الأعلى « الذى يفتح أبواب السماء ليرى من فيها » . وفى العصر المتأخر كان من النواويس ما يصنع من قطعة واحدة من حجر صلد كالجرانيت أو الديوريت أو البازلت (٣) . ومما حفظ من رسوم على البردى مايدل على أن النواويس كانت تصنع طبق مخطط مرسوم .

وكان من أثاث المعابد أيضا موائد قرابين من أحجار مختلفة ، وكانت لها أهميتها فى أداء الطقوس الدينية ، إذ كان يودع عليها ما يقدم للمعبود من صنوف التقدمات المختلفة ، التى كان يعتقد أنه سيفيد منها على نحو ما . ومنها ما كان يقام فى فناء مكشوف فى

---

(١) جاء فى إحدى البرديات أن معبد أمون كان يحتوى على ٥١٦٤ تمثالا للآلهة وأن مجموع تماثيله بلغت ٨٦٤٨٦ تمثالا .

(٢) G. Jéquier, Manuel d'archéologie égyptienne, p. 317 sq.

(٣) G. Roeder, Naos

المعبد (شكل ٥٨ و٥٩)[١] ؛ ومنها ما كانت تكتنفه مسلتان ومن فوقه تماثيل أربعة قرود يحيي اثنان منها الشمس المشرقة ويحيي الآخران شمس المغيب (شكل ٩٩) . ومن موائد القرابين ما كان من معدن ثمين ، فقد ذكرت حاتشبسوت أنها زودت معبد باخت بمائدة قربان من الفضة[٢].

ومن آلهة المعابد ما كان له زورق مقدس يحفظ على قاعدة في مقصورة خاصة أو في قدس الأقداس ؛ وكان أشبه بهيكل صغير ، ويصنع من أجود أخشاب سوريا ويصفح بالذهب ويرصع بالأحجار الثمينة ، ويحلى مقدمه ومؤخره بصورة رأس الإله أو الآلهة أو رأس حيوانه المقدس (صورة ٣٦)[٣] . وكانت تتوسطه قاعدة محلاة بصور الملك ، ومن فوقها ناووس من خشب مذهب ، تغطيه ستارة موشاة ، ومن أمامه تمثال ملك راكع يؤدى طقوس العبادة ثم رموز مقدسة تختلف باختلاف المعبودات ، منها تمثال للملك في هيئة أبي الهول وتمثال صقر ومسلتان كانتا فيما يظن من خشب مصفح بالذهب . وكانت تحيط بالناووس تماثيل ملكية ، منها تمثال يمسك بمجداف ، كناية عن أن الملك هو الذى يجرى زورق الأله في النيل . وكان الكهنة بملابسهم البيضاء يحملون في الأعياد الهامة الزورق على أكتافهم ، وفيه الناووس الذى بداخله تمثال المعبود إلى مركب الأله الراسية في الميناء ؛ وكانت صورة مكبرة للزورق المقدس.

وكان من أثاث المعبد أيضا عقود وخواتم من معادن وأحجار ثمينة ، وأوان وقدور وكؤوس وصحاف من الذهب والفضة والحجر ، وآلات موسيقية وأشياء أخرى كثيرة[٤] .

---

(١) انظر صفحة ١٧٣

(٢) ومن نقوش الملك أحمس الأول ما يسجل أنه أمر بأن تصنع لأبيه أمون رع آثار مختلفة منها نضد وموائد قرابين من الذهب والفضة . J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, II, No. 32.

(٣) G. Foucart, Un temple flottant, le vaisseau d'or d'Amon-Râ, Monument Piot, XXV (1921-1922), pp. 143-169 ; J.H. Breasted, op. cit., II, No. 888.

(٤) انظر J.H. Breasted, op. cit., II, No. 541 ff.

القبور والأهرامات والمعابد الجنائزيّة

ليس من أمم العالم من شغل بالحياة الآخرة ، وعنى بتشييد المقابر والمعابد الجنائزية ، وحلى جدرانها بالنقوش ، وزودها بالتماثيل والأثاث الفاخر كالمصريين فى عهودهم المجيدة . وقد عملوا أكثر من غيرهم على حماية جثث موتاهم وتحنيطها ، إذ كانوا يعتقدون فى الحياة بعد الموت ، وأن الميت يستطيع أن ينعم بالحياة إذا سلم جسده من التالف وزود بما يحتاج إليه من وسائل البقاء ولم تنقصه أسبابه . وكانوا يتصورون كذلك أنه مما يكفل الانتصار على الموت واكتساب حياة خالدة فى الآخرة أداء الطقوس والشعائر الجنازية اللازمة للميت .

وكان قبر الميت يعتبر « بيت الأبدية » ؛ بيد أن ذلك لاينبغى أن يعنى أنه كان صورة لبيوت الأحياء ، بحيث يمكن استنتاج طراز أحدهما من طراز الآخر فى غير حيطة أو حذر (١) ، ذلك لأن مطالب الحياة العملية كانت تختلف من وقت إلى آخر عما كانت تتطلبه العقائد والمناسك الجنائزية ، التى هى بطبيعتها محافظة على عاداتها وتقاليدها القديمة . وما من ريب فى أنه كان لعبادة الشمس وعقيدة أزيريس أثرهما أيضا فى عمارة المقابر دون المساكن مما كان يدعو إلى اختلاف غير يسير بينهما . بل لقد كان لطبيعة المكان الذى تحفر فيه المقابر أثره فى بناء جزأى المقبرة الملكية وبعض مقابر عظماء الأفراد كما يتضح من معابد الوادى ومعابد الأهرامات ومن مقبرتى نب حبت رع منتوحتب وحاتشبسوت ومعبديهما (٢) . وإذا كان من القبور ما كان يحتوى على كنيف فهى قليلة جدا ، وتقتصر على فترة بعينها ، هى الأسرة الثانية ، إزاء الكثرة التى لاتحصى من المقابر ، التى لم تكن تحوى شيئا من ذلك حتى فى الجزء المبنى منها فوق سطح الأرض ، الذى كان مزارا للأهل والأصدقاء . وفى تزويد كثير من المقابر فى الفترة الوسيطة الأولى بما يعرف ببيوت الروح (٣) ، وتصوير بعض البيوت على جدران بعض مقابر الدولة الحديثة مايشير إلى أن المصرى القديم لم يكن يتصور القبور على طراز بيوت الأحياء ، وإلا لما كان ما يدعو إلى تزويد بعضها ببيوت الروح وتصوير بعض البيوت على جدران بعض المقابر . واشتمال بعض مقابر الدولة القديمة والدولة الوسطى على صفات وأبهاء لايدل على أنها فى تفاصيلها صورة لبيوت الأحياء . وليس أدل على الفرق الواضح بين القبر

---

(١) على خلاف ما ذهب إليه شارف فى A. Scharff, Das Grab als Wohnhaus in der aegyptischen Fruehzeit.

(٢) انظر صفحة ٣٧٤ – ٣٧٥ ، ٤٠٩ – ٤١٠

(٣) انظر صفحة ١٠٣

والبيت من الفرق الكبير بين بيوت اللاهون [1] والعمارنة [2] والمقابر [3] من عهديهما .

وإذا كان القبر فى اللغة المصرية يسمى بيت الميت أو بيته الأبدى فما ينبغى أن يستدل من ذلك على أكثر مما يدل عليه ؛ فلقد كان القبر حقا بيت الميت ، يستقر فيه جثمانه ، ويسع ما يودع معه من أثاث ، وتؤدى له فى مقصورته الطقوس الجنائزية . وقد استخدم المصريون لفظ « بيت » فى أغراض كثيرة ، منها « بيت الصباح » [4] ، و « بيت الحياة » [5] ، و « بيت الذهب » لبيت المال ولغرفة التابوت و « بيت الولادة » و « بيت السلاح » و « بيت المرآة » لعلبتها ، و « بيت المر » لصندوق الدهان [6] ، ولايعنى هذا أن كلا منها كان يشبه غيره فى طرازه . ولا يزال المصريون فى الوقت الحاضر يعتبرون القبر بيت الآخرة دون أن تفهم من ذلك أية صلة ببيوت الأحياء ؛ والمساجد بيوت الله دون أن يكون بينها وبين بيوت الأحياء أدنى علاقة . وفضلا عن ذلك لقد كان للقبر فى اللغة المصرية أكثر من لفظ واحد لا يجمعه بلفظ البيت صلة .

ومع ذلك لا ينفى هذا كله أن تكون عمارة البيت قد أثرت فى عمارة القبر ؛ فقد كان لابد للميت من مكان يدفن فيه ويضم أثاثه الجنائزى ، ويقدم له فيه القربان ، وتؤدى فيه الشعائر والطقوس الجنائزية ، وقد اقتضى ذلك أن يشتمل القبر على قاعات تحت سطح الأرض وأخرى فوق سطحها ، يختلف عددها وسعتها وطرازها

(١) انظر صفحة ١٠٥ وما بعدها

(٢) انظر صفحة ١٣٦ وما بعدها

(٣) انظر صفحة ٣٨٧ وما بعدها و ٤٣٩

(٤) انظر صفحة ١٠٢

(٥) انظر صفحة ٨٢

(٦) ومن ذلك أيضاً أن الملك الذى يحمى شعبه كان يوصف بأنه « البيت الرطب الذى يجعل كل شخص ينام حتى مطلع النهار » .

باختلاف الأزمنة وثراء صاحب القبر والعقائد السائدة . ومن الطبيعى أن تجد بعض العناصر المعمارية فى البيوت سبيلها إلى عمارة القبر كالفناء والصفة والبهو ذى الأعمدة أو ذى الأساطين ، بيد أن ذلك لا يعنى حتماً أنه كان صورة للبيت .

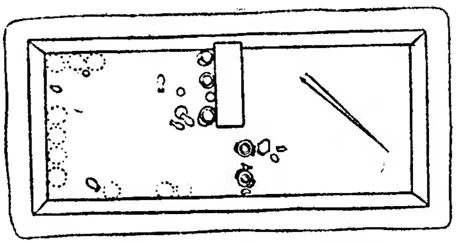
عصور ماقبل الأسرات

يرجع أقدم ما كشف عنه من قبور فى مصر إلى أوائل العصر الحجرى الحديث وبداية استخدام المعادن . وكان المصريون آنذاك يدفنون موتاهم فى حفر صغيرة غير عميقة ، بيضية أو مستديرة بجانب مساكنهم أو بعيدا عنها فى جبانات مستقلة ، وذلك فى حدود ما كانت تيسره أدواتهم البدائية ويتفق وعقائدهم الجنائزية . ومن القبور ما كان الميت يدفن فيه من داخل تقفيصة من خشب ؛ ومنها ما وجد من فوقه على سطح الأرض ركام من حصى وحجر ، علامة عليه يسترشد بها عن مكانه ، وحماية له من أن تذرو الرياح ما أهيل عليه من رمل ، ووقاية للجثة من أن يعبث بها حيوان ضار .

وكان لما أحرزه المصريون من تقدم فى عصور ما قبل الأسرات أثره فى قبورهم ، فمنها ما كان يسقف بفروع الشجر ، ومنها ما أصبح مستطيلا بجدران مستقيمة يغطيها الحصير ؛ ومنها ما كان له كوة فى نهايته يدفن فيها الميت ؛ ومنها ما كان يقسم بحاجز من مضفور أعواد النبات إلى قسمين ، يخصص أحدهما للأثاث الجنائزى مما نشأت عنه القاعات الجانبية .

وقد أتلفت عوامل التعرية الجزء الذى كان يعلو القبر فوق سطح الأرض ، بيد أنه اعتماداً على ما جرى عليه الأمر طوال عهد الأسرات لابد أن كان للقبر مبنى فوقه يعين مكانه ليقدم عنده القربان للميت . وكانت المقابر فى الصعيد تحفر فى حافة الصحراء بعيدا عن

مستوى مياه الفيضان حماية للجثة من رطوبة الأرض . وضنا بالأرض الزراعية من أن تستخدم فيما لايفيد منه الأحياء . ولا يعرف شيء حتى الآن عن مقابر ملوك الصعيد وملوك الوجه البحرى فيما قبل الأسرات ؛ بيد أنه قد يكون مبنى هيراكونبولس (الكوم الأحمر) مقبرة زعيم أو ملك ؛ وهى تحتوى على قاعتين (شكل ١٠٣) . ومن جدرانها ما حلّى بصور ست سفن فى صفين تحيط بها صور مختلفة لأشخاص وحيوان ؛ وقد استخدم المصور فيها عدة ألوان [1] . ويظن أن المقابر الملكية فى الدلتا كانت تقع فى أماكن عالية تقيها شر ماء الفيضان ؛ ومن مناظر الدولة القديمة ما يشير إلى أنها كانت تظللها أشجار النخيل .



(شكل ١٠٣) مبنى هيراكونبولس ذو الجدران المصورة

وكان الميت يدفن على جانبه فى وضع متقلص كالنائم الذى يضم فخذيه إلى بطنه لضعف الغطاء وشدة البرد وضيق المكان . وكان يلف فى حصير أو فراء ، أو يحشر فى وعاء من خوص ؛ ثم أصبح يدفن فى تابوت صغير من صلصال أو فخار أو خشب ، أو تحت غطاء من طين محروق ، مدور أو بيضى . وكان يودع معه من الأثاث ما كان يعتقد بفائدته له ؛ ومنه أدوات صيد وأدوات زينة من أمشاط ودبابيس شعر من عظم وعاج ، وعقود من خرز وأساور من عاج ، وصلايات من حجر الشست على أشكال مختلفة ليصحن عليها دهان ما حول العين وأصباغ الوجه ، وأوان عطر من أحجار مختلفة ، وصحاف وقدور من فخار من أشكال متنوعة ،

---

(١) J.E. Quibell, F.W. Green, Hierakonpolis II, pl. 75.

تحوى طعاما وشرابا ، وأدوات أخرى منها سكاكين ومناجل من الظران (١) . وقد ساعد هذا كله على التعرف على ثقافات العصور الأولى وعقائدها .

بداية الأسرات

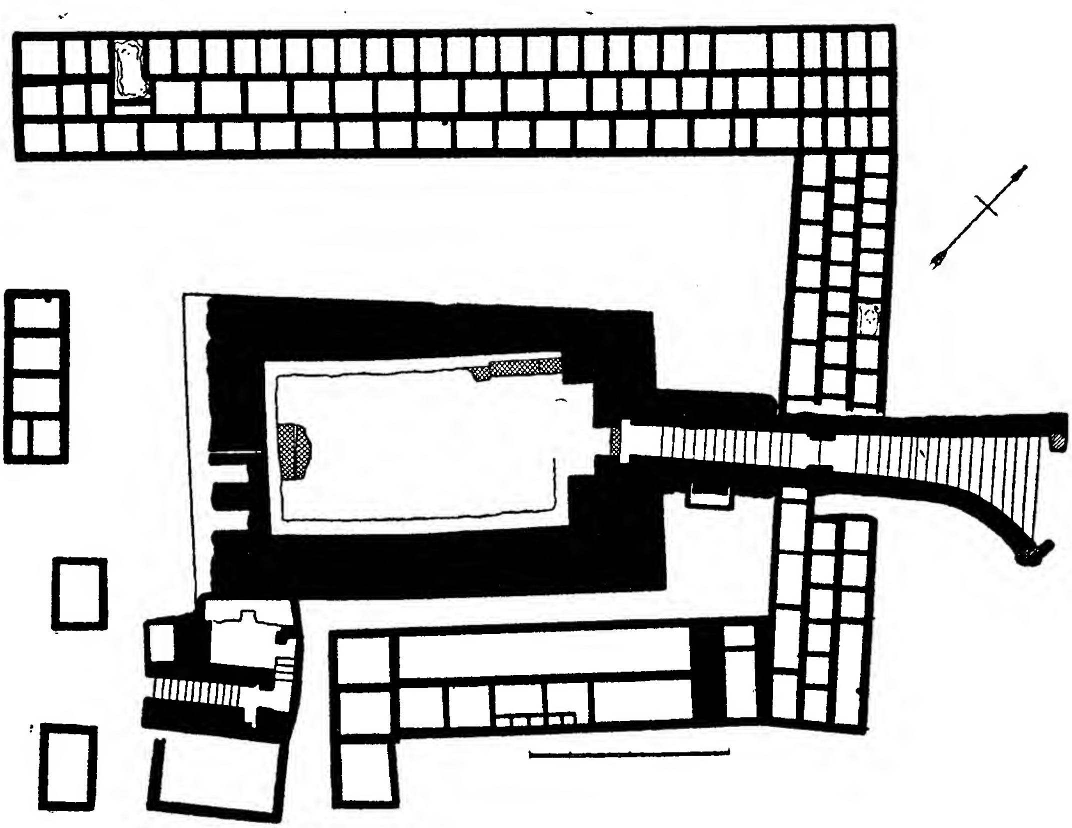
كان لما تجمع فى يد الملكية من سلطان وثراء فى بداية الأسرات ، وما لاقاه البناؤون والصناع من تشجيع ملوكهم أثر كبير فى التقدم الملحوظ فى بناء القبور الملكية مما جعل الفرق كبيراً بينها وبين قبور الأفراد . على أن كل تقدم فى بناء المقبرة الملكية كان لايلبث أن يجد سبيله إلى قبور أفراد الأسرة المالكة وكبار رجال الدولة . ولقد ظل الغرض من القبر طوال العهود المختلفة فى عصر الأسرات أن يوفر للجثة مكانا تستقر فيه وما يودع معها من أثاث ، ويقيها من أن تمتد إليها يد العبث ، وأن يتيح للاحياء مكانا يؤدون فيه للميت طقس القربان وما يتصل به من شعائر .

وكان القبر الملكى فى أبيدوس فى بداية الأمر غرفة كبيرة مستطيلة بجدران سميكة من اللبن تحت سطح الأرض ، تحتوى على غرفة من الخشب لها سقف من الخشب أيضا (٢) . ولم تلبث أن أخذت تزداد اتساعا ويزداد سمك جدرانها ، تبرز منها جدران ساندة ، تكتنف مقاصير صغيرة للأثاث الجنائزى العادى ، وذلك حول الغرفة الخشبية فى الوسط ، التى كانت تدفن فيها الجثة . ولم يكن للقبر الملكى فى بداية الأمر مدخل خاص ، ولكن مالبث أن صار له درج يؤدى إليه من الشمال مما ساعد فى زيادة عمقه (شكل ١٠٤) . وقد رصفت

(١) J. Vandier, Manuel d'archéologie égyptienne, t. I, La préhistoire.

(٢) F. Petrie, The Royal Tombs of the First Dynasty I, and Royal Tombs of the Earliest Dynasties II.

ارض قبر الملك وديمو بحجر الجرانيت (١) . وفى نهاية الأسرة الأولى بلغت مساحة القبر الملكى فى أبيدوس أكثر من عشرة أمثال مساحة آقدم قبر ملكى فيها . وكانت قبور رجال الحاشية والأتباع فى أخاديد طويلة مسورة باللبن ومقسمة إلى قبور صغيرة حول القبر الملكى . وكان الغرض منها أن يظل أصحابها فى العالم الثانى أقرب مايكونون للملك ، يقومون بوظائفهم وأعمالهم له على نحو ما كانوا فى الحياة الدنيا .

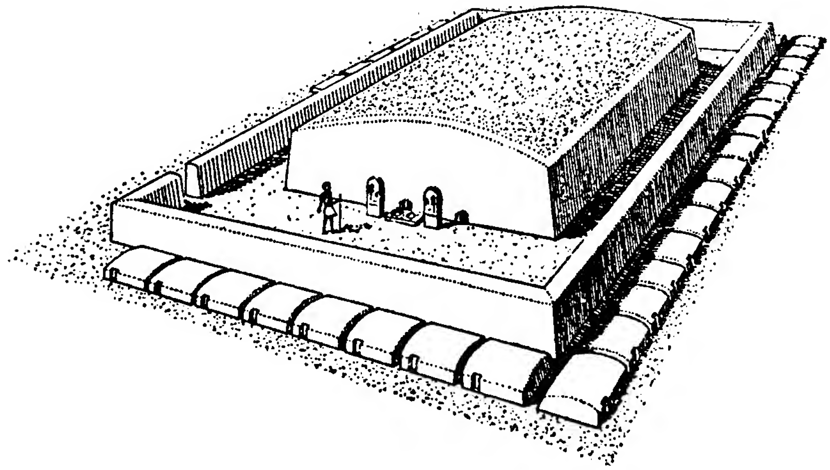


(شكل ١٠٤) قبر الملك وديمو فى أبيدوس

وقد اندثر ماكان يعلو القبور الملكية فى أبيدوس من بناء مما كان مصدر آراء مختلفة ، بيدأنه يغلب على الظن أنه كان على شكل مصطبة

(١) F. Petrie, Royal Tombs II, p. 9, pl. 56 A, 1.

كبيرة من اللبن سطحها مقبى يحيط بها سور (شكل ١٠٥) (١)، والمصطبة اسم أطلقه العمال المصريون أيام مريت على المبنى المستطيل المصمت الذى يعلو قبور الدولة القديمة للشبه بينه وبين مصاطب الفلاحين أمام بيوتهم . ومن أهم ما تبقى من قبور أبيدوس ألواح طويلة من حجر جيرى أو حجر صلد ، تعرف بنصب أبيدوس ،



(شكل ١٠٥) مصطبة مرنيت فى أبيدوس حسب لوير

وهى مقوسة فى أعلاها ، عرضا وسمكا ، ومنقوش على وجه كل منها بخط كبير اسم الملك من داخل مستطيل فوق ما يعرف بواجهة القصر ، تعلوه صورة الصقر حورس ، أو فى حالة واحدة ، حيوان الإله ست ، وظهورها خشنة دائما غير مهذبة . ومن القبور ما عثر له على لوحين متماثلين ، ولذلك يظن أنه كان لكل قبر ملكى لوحان من هذا القبيل (٢). وأهم ما حفظ منها جميعا لوح الملك چت ، وهو الآن أحد ذخائر متحف اللوفر ، ويبلغ ارتفاعه مترين ونصف تقريبا ، وتمتاز نقوشه ببساطتها واتزان خطوطها ووضوح أشكالها وما تنبض به من حيوية ، وماتوحى

(١) H. Ricke, Bemerkungen zur aegyptischen Baukunst des Alten Reiches II, S. 14 ff. ; H. Junker, Giza 12, S. 28 ff. ; J. Ph. Lauer, Histoire monumentale des pyramides d'Egypte, p. 47 sq.

(٢) عثر للملكة مرت نيت بالقرب من قبرها فى جبانة أبيدوس على نصب عليه اسمها .

به من جد شامخ ووقار مطمئن (صورة ٣٧) (١) .

وقد ذهب الرأى فى شأن هذه الألواح مذاهب شتى (٢)، على أنه يلاحظ أنه كانت تسود فى الأكواخ والقمرات والهياكل من أعواد النبات فى الأزمنة القديمة الأولى الأبواب المقوسة فى أعلاها بما يتفق وطبيعة المواد التى كانت تنشأ منها . ومن المداخل لبعض القاعات المبنية باللبن فى مقابر الجيزة من عهد الملك خوفو ماهو مقبى . وليس يخلو من أهمية أن الباب الوهمى فى مقبرة إبونسوت فى دندرة من عهد الأسرة السادسة قد نقشت عليه صورة صاحبه وبجانبها اسمه ومن دونها صورة باب ، وهى ذاتها العناصر الثلاثة المنقوشة على لوحات أبيدوس على اعتبار أن الصقر عليها إنما يمثل الملك أو يكنى عنه ، مما يشير إلى العلاقة الأصيلة بين لوحة أبيدوس والباب الوهمى لا على المزج بين شيئين مختلفين أو تخريج لشىء معتاد كما يذهب ريكى (٣) .

علاوة على هذا تتجلى فى النصب والأبواب الوهمية منذ أواخر الدولة القديمة ملامح مشتركة تعقد الصلة بينهما . ومن الأبواب فى البيوت والقصور والمقابر (صورة ٣٨ وشكل ٤٤ و١٥٧) ؛ ومن الأبواب الوهمية المزدوجة كذلك (صورة ٢٩ شكل ١٥٧) ما يعلوها مستطيل يتخلله عقد بما يوحى بأنها تجمع بين طرازين من الأبواب ؛ أحدهما طراز قديم مقبى فى أعلاه والآخر بعتب مستقيم مما ساد فى المبانى من الحجر . ومن مداخل المقابر فى الدولة الحديثة ما وصف بأنه يجمع فى شكل غريب لا يتفق والحقيقة بين شكل القبر والنصب (٤)،

---

(١) G. Bénédite, La stèle dite du roi Serpent, Fondation Piot, Mon. et Mém. 12 (1905), 5 sq. ؛ محمد أنور شكرى : الفن المصرى القديم ص ٣٥ ومابعدها .

(٢) M.A. Shoukry, The So-called Stelae of Abydos, Mitteilungen des deutschen archaeologischen Instituts, Kairo, Bd. 16, S. 292 ff.

(٣) H. Ricke, op. cit., S. 30 f.

(٤) N.M. de G. Davies, Some Representations of Tombs from the Theban Necropolis, J.E.A., XXIV, 36 ; N. de G. Davies, The Tomb of two Sculptors at Thebes, p. 45. A. Badawi, Le dessin architecturel chez les Anciens Egyptiens, p. 215 sq.

بيد أن الأمر لايعدو ، فيما يبدو ، الجمع بين طرازى بابين أحدهما مستقيم فى أعلاه والأخر مقبي . وقد ظل طراز الأبواب المقبية فى أعلاها يتخذ فى الأكواخ حتى العصر الرومانى كما تدل على ذلك مناظر وادى النيل فى الفسيفساء (شكل ١٧) (١) .

لهذا يبدو أن نصب أبيدوس إنما تمثل أبوابا وهمية ، وأنها كانت تثبت فى واجهات المصاطب من اللبن ، التى كانت تعلو المقابر الملكية ، لترشد الروح إلى قبر صاحبها عند زيارتها جثته ، ولتعين المكان الذى كان يجب تقديم القربان وأداء الطقوس الجنازية أمامه ، شأنها فى ذلك شأن الأبواب الوهمية التى سادت منذ الدولة القديمة فى العمارة الحجرية (٢). ويزكى هذا ازدواج استدارة أعلاها عرضا وسمكا ، وعدم تهذيب ظهرها ، وقلة مساحة السطح الأسفل وضآلة ارتفاع الجزء الذى كان يثبت فى الأرض فى بعض الأحيان مما لايسمح بالظن بأنها كانت تستقل بنفسها قائمة على الأرض أومثبتة فيها .ولعل أيضاً فى تمثيل بابين بين ثلاثة أبراج فيما يعرف بواجهة القصر على هذه الألواح (٣) ماكان يكنى عن حقيقتها والغرض منها .

بذلك يكون لهذه النصب أصل على نحو كثير من العناصر المعمارية . ولايعترض على ذلك نقش أسماء أصحابها عليها ، فليس أنسب منها فى بناء من اللبن ليسجل عليه اسم صاحب القبر ، وقد كان يكتب أيضا على الأجزاء الملونة بلو أحمر تقليدا للخشب فى مشكاوات المصاطب من عهد بداية الأسرات ، كما كانت تنقش أيضاً على الأبواب الوهمية أسماء أصحابها وصورهم ، بل من الأبواب الحقيقية فى الدولة القديمة ماكان ينقش عليه اسم صاحبه . وليس

(١) E. Baldwin Smith, Egyptian Architecture, pls. 1, 7, LXIV, 2.

(٢) ساعد استخدام الخشب والحجر أعتاباً للأبواب فى المبانى من اللبن أو الحجر على استقامة خطوط المداخل والأبواب الوهمية .

(٣) انظر صفحة ٩٧ – ٩٨

أنسب منها أيضا لتعيين المكان الذى يجب أن يقدم فيه القربان وتتلى الأدعية الجنازية لصاحب الاسم المنقوش عليها ، وصورة الصقر من فوقه تمثله وتعرّف بجلال شأنه .

وهكذا كانت «نصب» أبيدوس الباب الذى يرشد الروح إلى مكان دخول القبر ، وكانت فى نفس الوقت تدل على صاحب القبر ، وتعين مكان تقديم القربان وتلاوة الدعوات الجنازية ، وهو الغرض الثانى من المقابر فى مصر القديمة . ويغلب على الظن أن كل نصبين منها كانا يثبتان فى المصطبة الملكية بالقرب من طرفى واجهتها ، وأن هذه الواجهة كانت تمثل واجهة القصر الملكى ببابيه ، وأن هذه المصاطب كانت المثل الأول لمصاطب الأفراد ذات المشكاتين فى طرفى واجهاتها (١) . ولا يضعف هذا أو ينقضه أن نصب أفراد الأسرة المالكة فى مبانى زوسر فى صقارة ونصبا سنفرو فى ميدوم تستقل بنفسها أمام كل من الهرم المدرج وهرم ميدوم ، ذلك لأن هذه النصب إنما تمثل مرحلة تالية اقتضتها زيادة ميل المبانى من الحجر التى تقوم من أمامها(٢) . وفى مبانى زوسر بالذات فصل البنّاء بين ما يمثل مصراعى السرداب وبين السرداب نفسه لضرورة اقتضاها غرض خاص (٣) .

وفى نقادة تقع أعظم مقابر بداية الأسرات(٤) ، وقد تهدم الجزء العلوى منها ، على أنه يتمثل فيما بقى منها الطراز الأول المعروف للمصاطب ذات المشكاوات (شكل ١٠٦) . وهى مصطبة

---

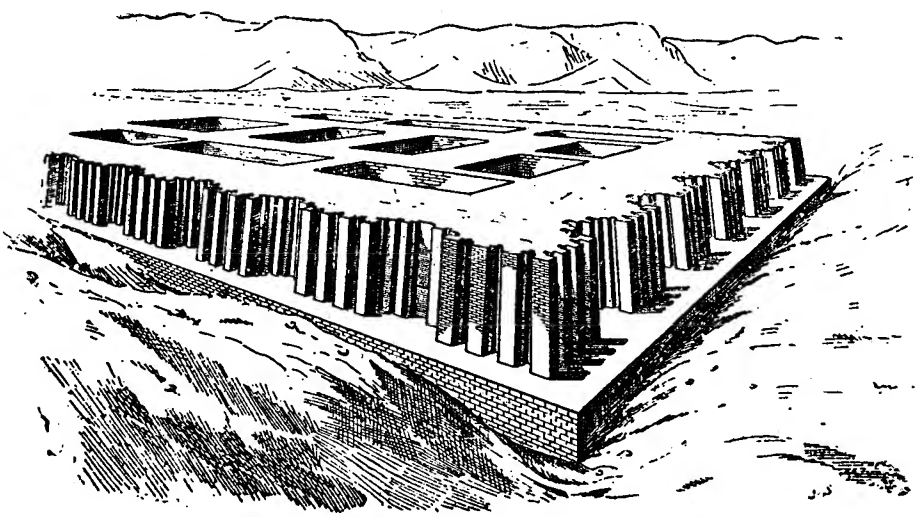
(١) انظر صفحة ٣٥٨

(٢) لم تكن تصل الباب الوهمى فى مقصورة كل من تحوتمس الأول والملكة حاتشبسوت فى الدير البحرى صلة معمارية بالمقبرة ، كما أن الباب الوهمى فى كثير من مقابر الأشراف فى الدولة الحديثة يقع فى الردهة . ومع أن هذه الأمثلة متأخرة إلا أنها تدل على أنه قد يضطر إلى الفصل بين الباب الوهمى والمقبرة .

(٣) انظر صفحة ٢٨٢

(٤) L. Borchardt, Das Grab des Menes, Aeg. Z. 36 (1898), S. 87 ff.

مستطيلة ضخمة من اللبن محورها من الشمال إلى الجنوب ، وتشغل مساحة قدرها ٧٨ و ١٤٢٥ من المتر المربع ، وتميل سطوح جدرانها إلى الداخل قليلا من أسفل إلى أعلى بحيث كانت مساحة سطحها أقل من مساحة قاعدتها . وتحلى السطوح الخارجية لجدرانها ثمان وثلاثون مشكاة مدرجة على أبعاد منتظمة ، وكل مشكاة تماثل غيرها تماما ، وتمثل مدخلا فخما مصمتا . ويظن أنها صورة لأحد مدخلى



(شكل ١٠٦) مصطبة نقاده

القصر الملكى فى فجر التاريخ ، وأن تكرارها فى الجدران الأربعة للمصطبة قصد به أن تكون للروح مداخل عديدة تدخل وتخرج منها أنى شاءت مما فرق بين عمارة المقابر الكبيرة وبين العمارة السكنية ، وكان له أثره أيضا فى طراز كثير من التوابيت (شكل ٢٠٤) والأبواب الوهمية فى جدران بعض مقصورات القربان (صورة ٦٢) ، وفى تحلية جدران غرفة الدفن فى بعض الأحيان(١) . وفضلا عما تكنى عنه هذه المشكاوات ، فهى فى مجموعها تضفى على المبنى الجنازى جمالا بتكسر خطوطه الطويلة ، وتلاعب الأضواء والظلال عليها ، وهى

(١) انظر صفحة ٣٤٢ .

تدل فى ذات الوقت على أن البنائين المصريين بلغوا بالبناء باللبن فى ذلك الوقت السحيق أقصى غاياته .

ومن الباحثين من أرجع هذا الطراز من البناء إلى البناء بأغصان الشجر ؛ ومنهم من رأى أنه يرجع إلى البناء باللبن ؛ ومنهم من نسبه إلى طراز بناء قصور ملوك الوجه البحرى . ومنهم من ذهب إلى أنه يرجع إلى طراز بناء المعابد فى بابل ، ومن الأسباب التى يحتج بها فى ذلك ما يقال من ظهوره فجأة فى بداية الأسرة الأولى ؛ ويكفى للرد على هذا أن الزمن لم يحفظ ما كان يبنى على سطح الأرض فوق مقابر ما قبل الأسرات حتى يمكن أن يعتمد هذا الرأى على أساس صحيح . ومهما يكن من أمر فليست المشكاوات فى المصاطب سوى مدخل متكرر لروح صاحب القبر ؛ عاون فى إبداعها البناء باللبن ؛ وليس يعقل أن الجدار الخارجى للقصور كان يتألف من مداخل متتالية ، إذ من شأنها أن تضعف البناء فضلا عن أنه لم يكن ما يدعو إليها (١) .

وتتميز مصطبة نقادة بأنها تشتمل على خمس غرف فى صف واحد فى طول البناء فوق سطح الأرض ، وكانت الغرفة الوسطى غرفة الدفن ، ويحيط بها جميعا جدار من اللبن بينه وبين جدار المصطبة الخارجى ست عشرة غرفة ، كانت مخازن لأثاث الميت وطعامه . وكان يحيط بالمصطبة سور كبير من اللبن لايبعد عنها كثيرا . وكانت الجدران مغشاة بطلاء من لون أبيض . ولا يعرف على وجه اليقين اسم صاحب هذه المقبرة الفخمة ؛ وقد ذهب الظن أولا إلى أنها مقبرة الملك مينا ، ثم قيل أنها مقبرة الملكة نيت حتب ، التى يظن أنها زوجة الملك عحا ؛ وأخيرا يظن أنها مقبرة الملك نعرمر ، وأنه هو نفسه الملك مينا ، وأن إبنه الملك عحا هو الذى شيدها له .

---

(١) أنظر صفحة ٩٧ – ٩٨

وفى شمال شرقى صقارة كشف عن كثير من القبور الملكية من عهد الأسرة الأولى، وهى أكبر وأفخم كثيرا من المقابر الملكية فى أبيدوس (١) ، ولذلك يظن أن قبور أبيدوس قبور تذكارية ، كانت تحوى أثاثا جنازيا لأصحابها لتكون مزارا لأرواحهم فى جبانة آبائهم فى حرم الأله خنتى إمنتى ، إمام أهل الغرب . وغرف الدفن فى المقابر الملكية فى صقارة أكثر عمقا واتساعا منها فى مقابر أبيدوس ، وبعضها منحوت فى الصخر لقربه من سطح الأرض مما أكسب العمال مهارة فى حفر الصخر منذ وقت مبكر . ومن هذه المقابر ما يشتمل على سبع غرف فى صف واحد ، أكبرها غرفة الدفن فى الوسط. ومن غرف الدفن ما كانت جدرانها تؤزر بالخشب وتحلى دعائم الجدران فيها بشرائط من الذهب، ومنها ما كان يلصق بجدرانه حصير ملون دقيق الصنع ، أو تثبت فيها قراميد من القاشانى تمثل الحصير ، كما أن منها كذلك ما غطيت أرضيتها بألواح رفيعة من الخشب. ومنذ أواسط الأسرة الأولى كانت المقابر الملكية فى صقارة تزود على نحو مقابر أبيدوس بدرج يؤدى إلى غرفة الدفن ، وكان يسد فى معظم القبور بمتاريس غليظة من الحجر على مسافات مختلفة (٢) ، حماية لمحتويات غرفة الدفن من أن يعبث بها اللصوص .

وتعلو كل مقبرة مصطبة ضخمة من اللبن تتخلل سطوحها الخارجية مشكاوات عديدة (صورة ٣٩) ، ويغشيها ملاط من طين ثم طلاء أبيض ، تحليه رسوم هندسية بألوان مختلفة بما يحاكى الحصير. ومن المصاطب مايحيط بها سور أو سوران أحدهما من داخل الآخر ؛ ومنها مالها طوار من حولها صفت عليه رءوس ثيران من صلصال ، مثبتة فيها قرون حقيقية ، بلغ عددها فى أحلى الحالات ما يقرب

(١) W.B. Emery, The Tomb of Hemaka ; The Tomb of Hor-Aha ; Great Tombs of the First Dynasty, vols. I, II, III.

(٢) وهو ما أصبح عليه الأمر أيضاً فيما بعد فى أهرامات الدولة القديمة .

من ثلثمائة رأس (١) ؛ ومنها ما يبدو أنه كان يزرع من حولها بعض الشجر . ومنها ما تحتوى فى داخلها على عدد كبير من المخازن ، وقد وجد بعضها سليما لم تمتد اليه يد اللصوص وفيه عدد كبير من الآلات والأسلحة واللعب والأوانى من المرمر والشست والصخر البلورى والنحاس (٢) . ومن المصاطب ما كشف فى داخلها عن مبنى مدرج فى ثلاثة جوانب منه ، ويبلغ متوسط ارتفاع كل درجة نحو ربع متر (شكل ١٠٧) (٣). ومنها ما وجدت فى شمالها مجموعة من المبانى بسطوح مقبية تمثل فى حجم صغير المخازن أو الشون فيما يظن ؛ ومنها كذلك ما كشف بجوارها عن بناء باللبن فى الأرض فى شكل زورق كبير كان يحتوى على قارب لرحلة الملك فى الآخرة (٤) . وفى شمال المصطبة التى تنسب للملك قاى عا ، آخر ملوك الأسرة الأولى ، ومن داخل سورها الخارجى أمكن الكشف عن معبد جنازى من اللبن يحتوى على دهاليز وغرف عديدة (شكل ١٠٨) (٥) ، وهو بموقعه فى شمال المقبرة وبنظام قاعاته ودهاليزه يشبه المعبد الجنازى فى شمال الهرم المدرج (شكل ١١٦)(٦) ويمكن أن يكون أصلا له. وهكذا يتمثل فى الأسرة الأولى كثير من تقاليد الدولة القديمة .

(١) أنظر صفحة

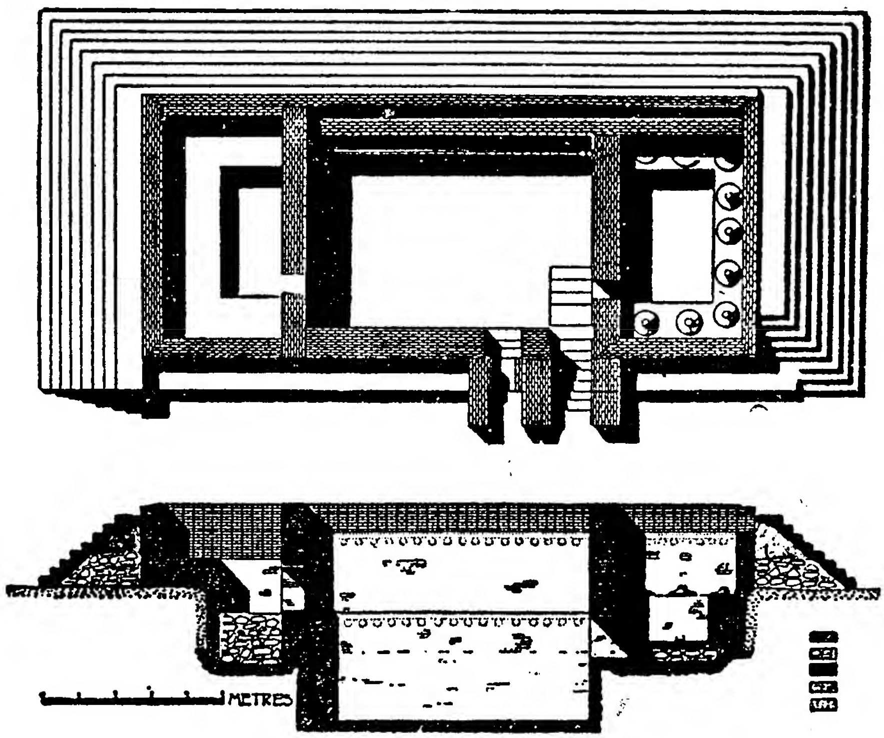
(٢) W.B. Emery, The Tomb of Hemaka, p. 4, pl. I. يبلغ عدد هذه المخازن خمسة وأربعين مخزناً، وقد ذهب الظن إلى أنها إنما كانت لأرواح الموتى الذين فقدوا أثاثهم الجنازى أو استهلكوه ، أو للشياطين الذين يشوقهم الحصول على ما يودع فى القبور من أثاث بما يصرفهم عن الأثاث الجنازى فى غرفة الدفن وملحقاتها H. Ricke, op. cit., I, S. 51 f. وينقض هذا أن أغلب ما وجد فى هذه المخازن إنما كان أسلحة وآلات ولعب وأوانى مما لايسمح بالظن بأن أرواح الموتى الذين ضاع أثاثهم الجنازى ، ومنه الطعام والشراب والكساء ، يمكن أن يعوضهم عنه السلاح والأدوات ، أو أن كرم الملوك وعظماء الأفراد كان يتسع لمنح الأسلحة والآلات لغيرهم دون أن يحتفظوا بها لأنفسهم .

(٣) W.B. Emery, Great Tombs of the First Dynasty, vol. II.

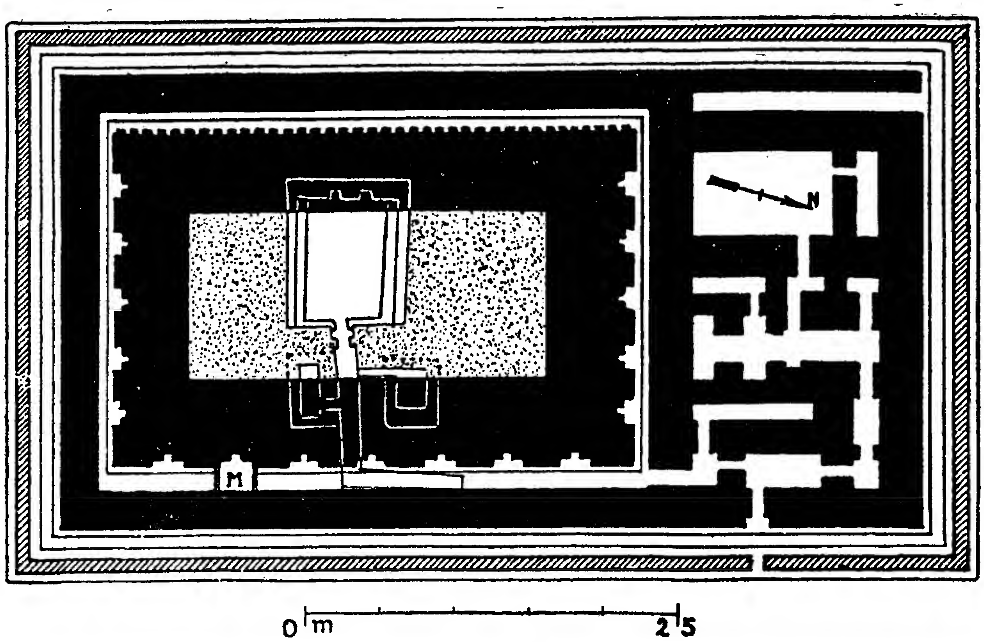
(٤) لهذا ما يماثله بالقرب من أهرامات الدولة القديمة والدولة الوسطى ؛ أنظر صفحة ٣٢٠ ، ٣٢٨

(٥) W.B. Emery, Great Tombs of the First Dynasty, vol. III, pls. 6-8.

(٦) أنظر صفحة ٢٨٣



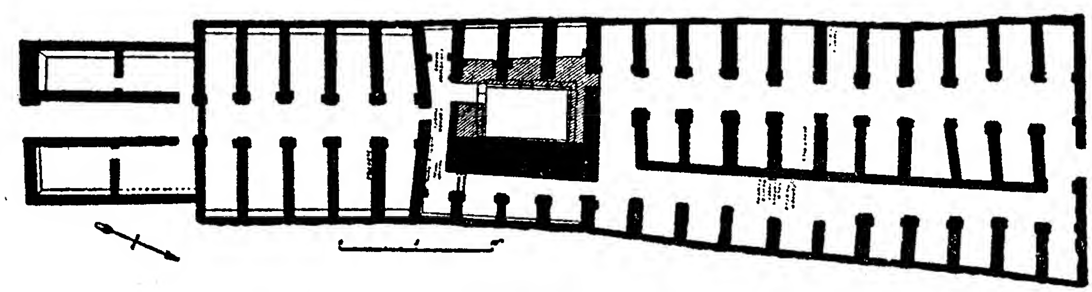
(شكل ١٠٧) مصطبة داخلية مدرجة فى صقارة



(شكل ١٠٨) مصطبة قاى عا ومعبده الجنازى فى صقارة

وفى الشرق من هرم أوناس فى صقارة كشف عن قبرين ملكيين ينسبان لأوائل الأسرة الثانية ؛ ويتألف كل منهما من قاعات عديدة محفورة فى الصخر على جانبى دهليز طويل (صورة ٤٠)[١] .

ويحتوى قبر خع سخموى ، آخر ملوك الأسرة الثانية ، فى أبيدوس على أكثر من خمسين غرفة صغيرة فى صفوف متتالية ؛ تتوسطها جميعا غرفة الدفن ، كسيت جدرانها بأحجار صغيرة منحوتة من حجر الجير مما يعد فاتحة عهد جديد (شكل ١٠٩) .

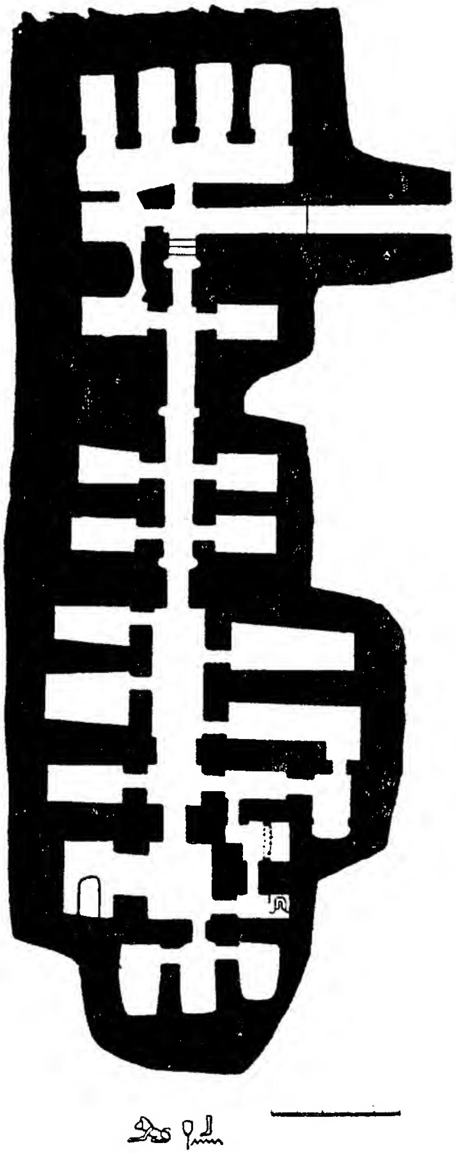


(شكل ١٠٩) قبر خع سـخموى

وفى أقليم منف كانت قبور عظماء الأفراد من الأسرة الأولى حفرا مكشوفة منحوتة فى الصخر ، وكانت تسقف بالخشب أو الحجر ، ويسد مدخلها بمتراس من حجر الجير ، وتعلوها مصاطب تحلى سطوحها الخارجية مشكاوات على نحو المصاطب الملكية ، أو تحلى طرفى واجهتها المطلة على الوادى مشكاتان إثنتان . وفى الأسرة الثانية كان من المشكاوات ما يعلوه لوح من حجر الجير نقشت عليه صورة صاحب المقبرة جالسا أمام مائدة الطعام . ومن المقابر ما كانت غرفة الدفن فيها وما يتصل بها من غرف تنحت بأكملها فى الصخر بحيث تكون سقوفها من الصخر الطبيعى . وفى المقابر الكبيرة يتألف الجزء المحفور فى الصخر من دهليز طويل

(١) J. Ph. Lauer, La pyramide à degrès, t. I, p. 5, fig. 2.

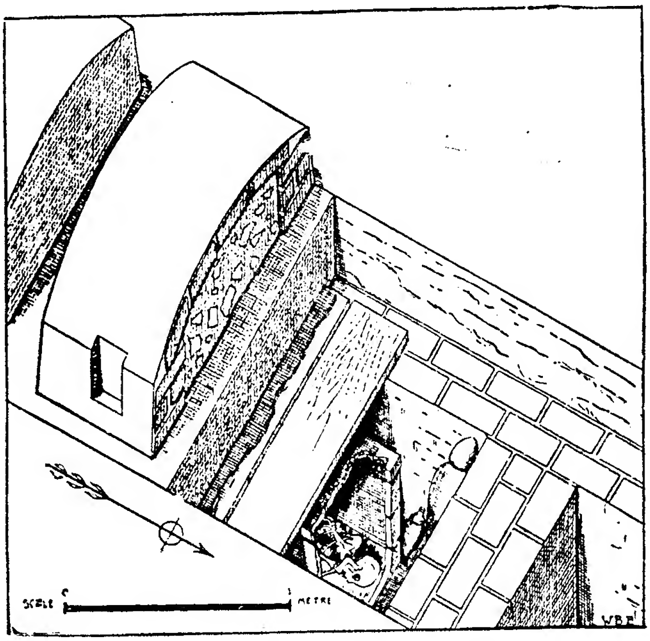
يكتنفه عدد كبير من الغرف ، قد تبلغ فى بعض الأحيان ثمانى عشرة غرفة ، كان يودع فيها ما كان يودع فى المخازن من داخل المصطبة ، ومن هذه الغرف حمام وكنيف بجانب غرفة الدفن فى نهاية القبر (١) (شكل ١١٠). وكان مدخل القبر يسد بمتراس من حجر ضخم ، كما كان الدهليز يسد بمتاريس مماثلة على مسافات مختلفة ؛ ومع ذلك لم تفد هذه المتاريس فى حماية ما كان يودع مع الميت من أثاث إذ اخترق اللصوص طريقهم من حولها إلى ما كان يغريهم الحصول عليه .



(شكل ١١٠) قبر روابن فى صقارة

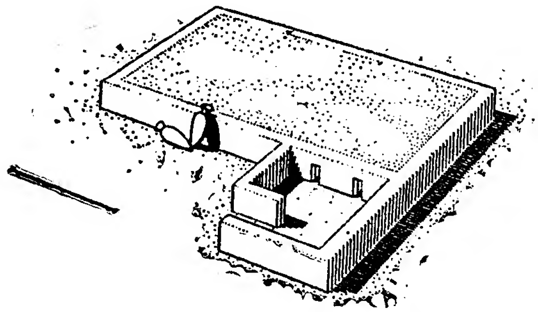
ومن مقابر الأفراد التابعين ما كان يبنى حول مقبرة سيدهم فى أخدود طويل مقسم إلى قبور صغيرة يعلو كلا منها بناء مستطيل من اللبن يملأ برمل وحصى ونقارة حجر ، وسطحه مقبى ، وبالقرب من الطرف الجنوبى من الواجهة الشرقية مشكاة صغيرة (شكل ١١١) . ومن المقابر الصغيرة فى طرخان من الأسرة الأولى ما كان القبر فيها حفرة بيضية أو مستديرة أو مستطيلة يحيط بها فوق سطح

(١) J.E. Quibell, Archaic Mastabas, p. 30, pl. XXX.



(شكل ١١١) مقبرة أحد الأتباع

الأرض جدار منخفض مملوء بالحصى والرمل ، وعند أحد طرفى واجهته الشرقية أو الغربية مقصورة بسيطة مكشوفة ؛ وفى جدار المصطبة من داخل المقصورة فتحتان فى تجاه غرفة الدفن (شكل ١١٢) .



(شكل ١١٢) مصطبة أحد أفراد الطبقة المتوسطة فى طرخان

وفى الصعيد كانت قبور الأفراد تحفر فى الأرض الطفل . ومنها ما كانت جدرانه تكسى باللبن وله غرفة أو غرفتان فى أحد طرفيه أو فى كل منهما للأثاث الجنائزى وذلك عدا غرفة الدفن ؛ وكانت أكبر الغرف وأعمقها فى الأرض . ومن الغرف ما كان

يسقف بقبو مدرج من اللبن ، مما يدل على أن مبادىء القبو كانت معروفة آنذاك وإن كان بحره لم يكن يعدو مسافة صغيرة .

يبدو من ذلك كله أن المصريين لم يستخدموا الحجر فى البناء فى بداية الأسرات إلا فى حدود ضيقة للغاية ، على أن مقابر بداية الأسرات على اختلافها دليل واضح على بزوغ مجتمع منظم من عالم أواخر ما قبل الأسرات الذى كان يضطرب بالخلافات الداخلية ، وهى تبشر بعهد جديد .

الدولة القديمة

أخذ ملوك الدولة القديمة يقيمون أهراماتهم على حافة الهضبة الغربية حيث تطل على الوادى غير بعيد من العاصمة منف ، وبالقرب من النيل أو منطقة فيضانه مما يسر نقل حجر الجير الجيد من طرة فى الضفة الشرقية وحجر الجرانيت من أسوان إلى أماكن بناء الأهرام فى مراكب كبيرة .

مبانى زوسر فى صقارة

وأقدم المبانى الكبيرة من الحجر مجموعة المبانى الجنائزية التى شيدها زوسر فى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد فى صقاره (صورة ٤١)(١) . وهى مبان فريدة من حيث نوعها وطرازها ، ولها من الخصائص المعمارية ما أثار الاهتمام والدهشة عند الكشف عنها ، ودعا إلى مراجعة الآراء القديمة عن نشأة البناء بالحجر فى مصر ، وأدى إلى إضافة فصل جديد هام فى تاريخ العمارة المصرية .

---

(١) F. Quibell, The Step Pyramid, 2 vols. ; J. Ph. Lauer, La pyramide à degrés, 4 vols. ; J. Ph. Lauer, Etudes complémentaires sur les monuments du roi Zoser à Saqqarah ; J. Ph. Lauer, Histoire monumentale des pyramides d'Egypte, t. I, Les pyramides à degrés, pyramides à degrés.

وتشغل مجموعة مبانى زوسر مساحة تزيد على مائة وخمسين ألف متر مربع ، يحيط بها سور عظيم سميك ، ويتوسطها الهرم المدرج ، أبرز معالم صقارة ، وفى الشرق منه بهو المدخل ومعبد اليوبيل والجوسق الملكى وبيتا الجنوب والشمال ، وفى الشمال بيت التمثال والمعبد الجنائزى ، وفى الجدار الجنوبى من السور المقبرة الجنوبية . وتفصل بعضها عن بعض أفنية ، وأهمها فى جنوب الهرم وشرقه وشماله ؛ وتحيط بها مبان تكوّن مسطحات كبيرة وتحتوى على مخازن عديدة ، أهمها على طول الجدار الغربى للسور وفى الشمال. وهى كلها مبنية بحجر صغير من الهضبة الغربية ، وكان يكسوها حجر جيرى جيد من الهضبة الشرقية ، وبعضها مبان حقيقية ، بيد أن أكثرها مبان وهمية مصمتة ، هى صور أو نماذج لمبان حقيقية على نحو ما تمثل الأبواب الوهمية ونماذج الأوانى والآلات أشياء حقيقية ، كان يعتقد أنها ستفيد الميت فى الآخرة كما يفيده الأصل الحقيقى فى الحياة الدنيا . وهى فى مجموعها تدل على مهارة فى التخطيط والبناء ؛ وقد ذهب الرأى إلى أنها فيما عدا الهرم والمقبرة الجنوبية تمثل فى الحجر قصر زوسر فى منف وملحقاته ، وأن الغرض منها أن تيسر له أداء وظيفته كملك فى الآخرة .

ويبلغ طول السور ٩و٥٤٤ من المتر وعرضه ٦و٢٧٧ من المتر أى نحو عشرة أمثال طول مقبرة نقادة وعرضها . وكان ارتفاع السور عشرة أمتار ونصف تقريبا ، وتحلى سطحه الخارجى مشكاوات مدرجة يتخللها فى الجوانب الأربعة على مسافات غير متساوية ما يمثل أربعة عشر برجا مستطيلا ، فى كل منها ما يمثل بابا مصمتا مغلقا ذا مصراعين . ويبدو أن السور إنما يمثل السطح الخارجى للمقابر الملكية ذات المشكاوات فى عهد بداية الأسرات ، وبذلك يضفى على البناء طابعا جنازيا ، وإن كان من الباحثين من ذهب إلى أنه

يمثل الجدار من اللبن الذى كان يحيط بمدينة الجدران البيضاء[١] ، أو الذى كان يحيط بالقصر الملكى . وقد وجدت لهذا السور فى ميت رهينة نسخة معاصرة من المرمر المصرى فيها معظم تفاصيله[٢] .

وفى الجنوب الشرقى من السور باب يؤدى إلى بهو المدخل (صورة ٤٢) ؛ وهو دهليز فخم طوله ٥٤ مترا ويحتوى على صفين من الأساطين فى كل صف عشرون أسطونا ذا نسب رشيقة ، ويعتمد كل أسطون على جدار يصل بينه وبين أحد الجدارين الجانبيين ، وقد نحت فى شكل حزمة غير كاملة من الغاب أو الجريد بما لامثيل له فى العمارة المصرية . ويصغر قطره من أسفل إلى أعلى بما يتفق وشكل حزم النبات ؛ وله تاج غريب ليس ما يشبهه فى المبانى المصرية . ومن الباحثين من ذهب إلى أن هذا التاج إنما يمثل الجزء المورق من الغاب ؛ ومنهم من رأى فيه رباطا من ورق الغاب أو سعف الجريد يحيط بجميع عيدان الحزمة فيما عدا ثلاثة منها ؛ ومنهم من قال أنه مجرد رباط .

وتقوم هذه الأساطين على قواعد مسطحة ، يظن أنها كانت فى المبانى من اللبن لحماية الأطراف السفلى لحزم الغاب أو الجريد من رطوبة الأرض . ويبدو أن هذه الأساطين لاترجع مباشرة إلى الأساطين النباتية وإنما هى صورة فى الحجر لأساطين من الخشب مشتقة من الأساطين النباتية . وليس من شك فى أن البناء المصرى كان على دراية بأقامة الأساطين المستقلة من الخشب ؛ بيد أنه لما كان حديث عهد بالبناء بالحجر ، فأنه لم يكن على ثقة بقيام الأساطين من الحجر بنفسها وقدرتها على حمل أحجار السقف مدة طويلة ،

---

(١) H. Ricke, Bemerkungen zur aegyptischen Baukunst des alten Reiches, I, S. 66.

(٢) J. Ph. Lauer, La pyramide à degrés, t. I, p. 87 ff.

وإذ كان يهدف إلى أن يخلد البناء أمدا طويلا فقد جعلها تعتمد على جدار من ورائها . على أن من الباحثين من رأى أن هذه الأساطين غير المستقلة مقصودة لذاتها وأن البنّاء أرادها كذلك ؛ وأنها إنما تمثل حزما من غاب فى طرف جدران من اللبن تحميه من التلف ، وأن الجدران مقصودة لذاتها لتفصل بين مكان وآخر .

وسقف البهو من حجر ثقيل مدور من أسفله ، يمثل جذوع النخل ، وكان الضوء يتسرب إلى البهو من نوافذ فى أعلى الجدارين الجانبيين . ويظن أن هذا البهو إنما يمثل بهو المدخل الذى كان يؤدى إلى مسكن الملك فى منف . ويفضى البهو إلى ردهة مستطيلة مستعرضة يعتمد سقفها على ثمانية أساطين . يربط كل أسطونين معا جدار بينهما .

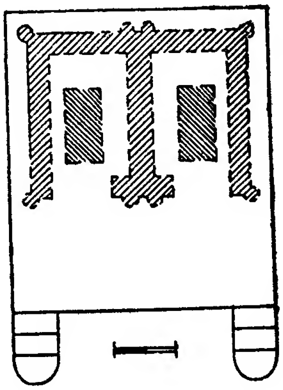
ومعبد اليوبيل أقدم وأكمل بناء من نوعه ، ويتألف من فناء مستطيل فسيح يمتد من الجنوب إلى الشمال ، وتكتنفه فى الشرق والغرب مقصورات مصمتة بواجهات من حجر جيرى جيد أحسن صقله . كانت لأهم ما كان يجتمع فى العيد من آلهة أقاليم الجنوب والشمال . وواجهات المقصورات الشرقية بسيطة مقوسة فى أعلاها ؛ ويحلى الجزء العلوى من واجهات المقصورات الغربية سندان رشيقان بينهما ثلاثة أساطين مقناة غير مستقلة بذاتها (صورة ٤٣) ، ويتميز كل أسطون بسموقه ونحافته وتضاؤل قطره كلما ارتفع ورشاقة نسبه ودقته . ويشبه تاجه ورقتى شجرة متدليتين بينهما مكعب بارز من الحجر ، من تحته ثقب عميق يظن أنه كان مثبتا فيه حامل من خشب يحمل رمزا ، وليس للأسطون قاعدة . ويعلو الواجهة إفريز فى شكل شريط مقوس . ومن المقصورات ما تحيط بواجهتها خيرزانة ويعلوها فيما يبدو الكورنيش المصرى فى مرحلته الأولى فى الحجر . ومنها ما يؤدى إلى مكان مرتفع فى واجهته سلم من حجر

جيرى ، كل درجة منه حجر مركب فى فجوة صغيرة فى الدرجة التى يعتمد عليها . وفى الجزء الأسفل من كل واجهة مدخل يؤدى إلى قاعة صغيرة ، فى الجدار الخلفى منها مشكاة . ومن أمام كل مقصورة دهليز مزدوج مكشوف للسماء ، جدرانه قليلة الأرتفاع ، وهو أشبه بحاجز يستر القاعة الصغيرة ذات المشكاة ، على أن بابه ممثل فى الحجر وكأنه مفتوح . ويبرز من أغلب الجدران التى تفصل دهليزا عن آخر ما يمثل حاجزا من أغصان الشجر تمثل فيما يبدو ما كان يقام من حواجز حقيقية من فروع الشجر أمام هيكل الجنوب .

وقد اختلف الرأى فى أصل الأساطين المقناة ؛ فمن الباحثين من ذهب إلى أنها تمثل نوعا من نبات أجوف الساق . ذات أضلاع إذا كانت خضراء العود ، ومقناة إذا جفت ، وله أوراق مدلاة على نحو ما يبدو فى أعلى الأسطون . ومنهم من قال أنها تمثل حزمة من غاب مشقوق ؛ ومنهم من ذكر أن التقنية كانت نتيجة حتمية لنحت جذوع الشجر بالمنحات المصرى ذى النصل المستدير . ومهما يكن من أمر يلاحظ أن الأساطين المقناة لم تكن شائعة شيوع الأنواع الأخرى من الأساطين ، وأقدم ما يعرف منها نماذج صغيرة فى مقابر بداية الأسرات فى أبيدوس ، ولم يكشف حتى الآن عن أمثلة منها من عهد الدولة القديمة فيما عدا ما وجد منها فى مبانى زوسر ؛ على أن ذلك لايعنى أنه لم يكن لها دور فى القصور والبيوت آنذاك .

وفى بداية فناء معبد اليوبيل من قبل الجنوب قاعدة مرتفعة ، مربعة تقريبا ، يؤدى إليها درجان فى جانبها الشرقى ، وكان يعلوها جوسق يتجلى الملك فيه مرة بتاج الجنوب الأبيض وأخرى بتاج الشمال الأحمر (شكل ١١٣) . على أن معبد اليوبيل لم يشيد ليحتفل فيه الملك وهو على قيد الحياة بيوبيله ، الذى كان يسمى عيد السد ،

وإنما كان مبنى رمزيا ضخما يتيح للملك المتوفى أو لقرينه (الكا)(١) الاحتفال بهذا العيد من فترة إلى أخرى فى الآخرة بما يكفل له حياة أبدية يستمتع فيها بسلطاته الملكية . وليس لهذا المعبد مثيل فى المبانى الجنازية بعد عهد زوسر ، ويبدو أنه استعيض عنه بالصور على جدران بعض الأبهاء والقاعات فى بعض المعابد الجنازية ومعابد الشمس ، تمثل الشعائر الهامة لليوبيل الملكى .



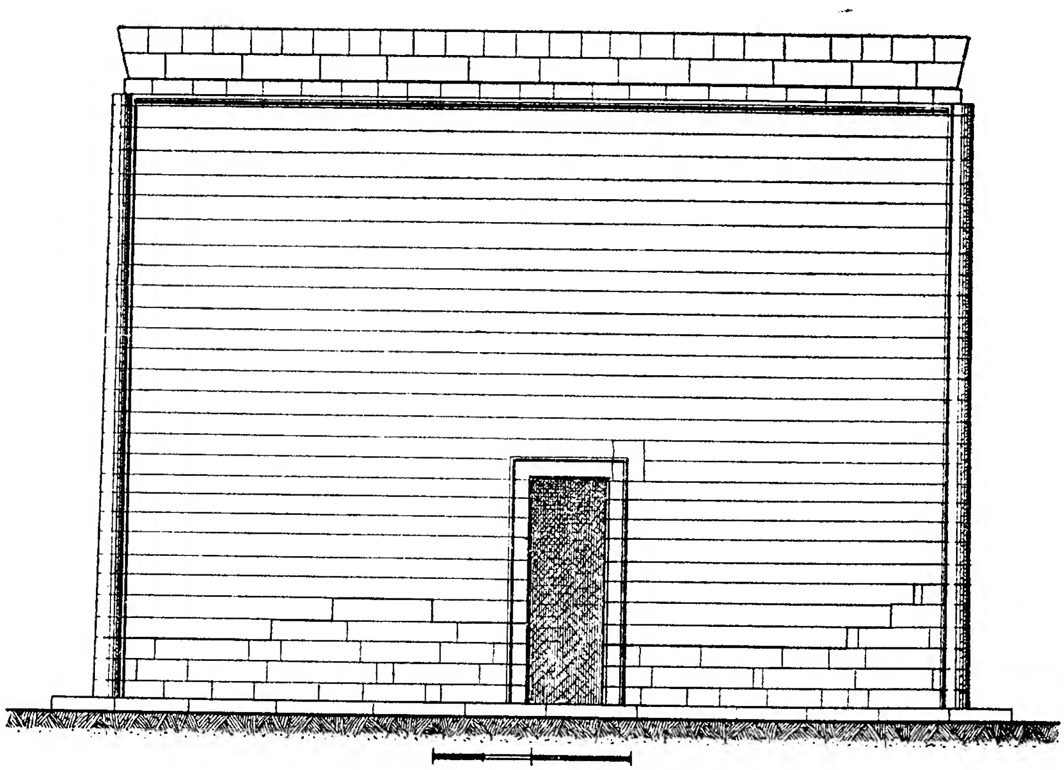
(شكل ١١٣)
قاعدة جوسق اليوبيل
فى مبانى زوسر

والجوسق الملكى مبنى صغير يعتبر جزءا من معبد اليوبيل ، وكانت تحيط بواجهته خيرزانة يعلوها الكورنيش المصرى فى مرحلته الأولى فى الحجر (شكل ١١٤) . وهو يحتوى على ردهة ذات ثلاثة أساطين مقناة غير مستقلة تعتمد على جدران ساندة من ورائها ، ولكل أسطون قاعدة مدورة ، وتعلوه ركيزة . وتؤدى الردهة إلى مقصورة كانت تعلو ثلاثة جوانب منها أعتاب يحلى كلا منها إفريز من العلامة الهيروغليفية التى ترمز إلى الدوام (صورة ٤٤) .

وقد ذهب الظن أول الأمر إلى أن الجوسق الملكى كان ليغير الملك فيه كساءه وتاجه أثناء الاحتفال باليوبيل ؛ ولكن يبدو أنه كانت تؤدى فيه بعض الطقوس أثناء هذا الاحتفال ، وإن كان من الباحثين من سماه قصرجب .

ويصل بين فناء معبد اليوبيل والجوسق الملكى طريق قصير تستدير نهاية جداره الأيمن فى شكل ربع دائرة محكمة الاستدارة بما لا مثيل لها فى العمارة المصرية .

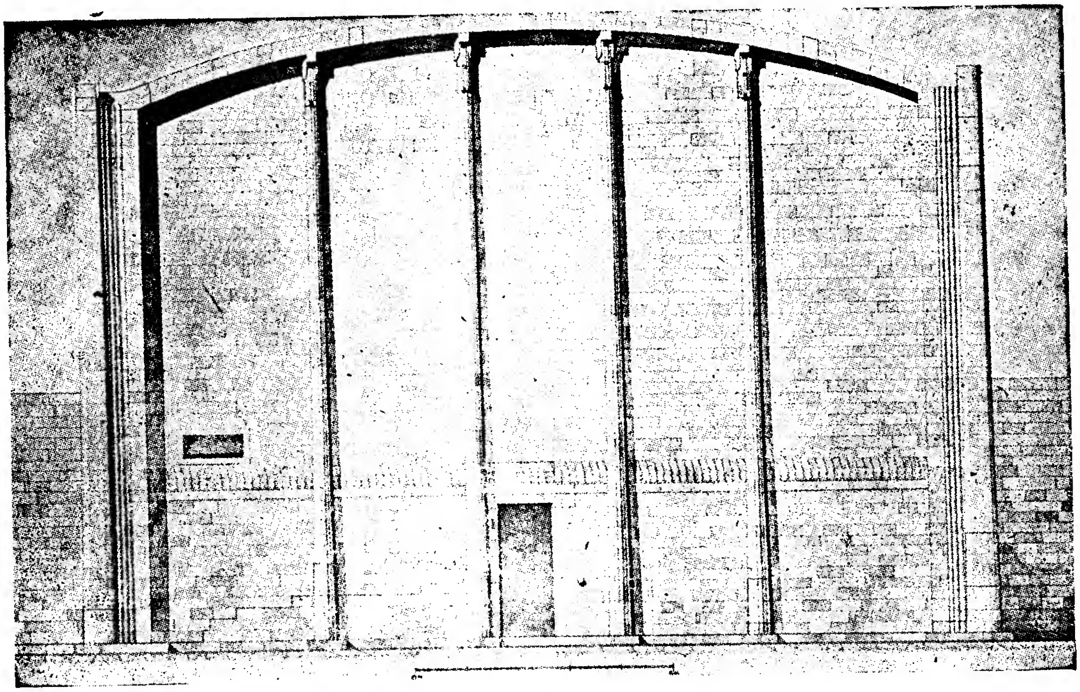
(١) يظن أن القرين (الكا) يشخص مجموعة القوى الحيوية التى تمكن الأنسان وغيره من الحياة .



(شكل ١١٤) واجهة الجوسق الملكى فى مبانى زوسر

وبيتا الجنوب والشمال بناءان مصمتان إلى حد كبير ، يشبه أحدهما الآخر ، ولكل منهما واجهة من حجر جيرى جيد أملس كأنه من رخام ، ويكتنفها سندان بينهما أربعة أساطين مقناة تماثل أساطين المقصورات الغربية فى معبد اليوبيل ، ويعلو المدخل إفريز من الزخرفة ؛ وكانت الواجهة مقوسة فى أعلاها (شكل ١١٥) . وفى كل بيت دهليز ضيق يؤدى إلى مقصورة فى جدرانها مشكاوات صغيرة . وإلى يمين كل منهما جدار كان يحلى واجهته فى بيت الجنوب أسطون صغير فى شكل نبات الجنوب ، وتحلى الجدار الجانبى لواجهة بيت الشمال ثلاثة أساطين جميلة فى شكل غصن بردى بزهرة يانعة ، ويتميز بجمال خطوط تاجه وساقه مثلثة المقطع (صورة ٤٥) . وما من شك فى أن هذه الأساطين تقليد فى الحجر لأساطين

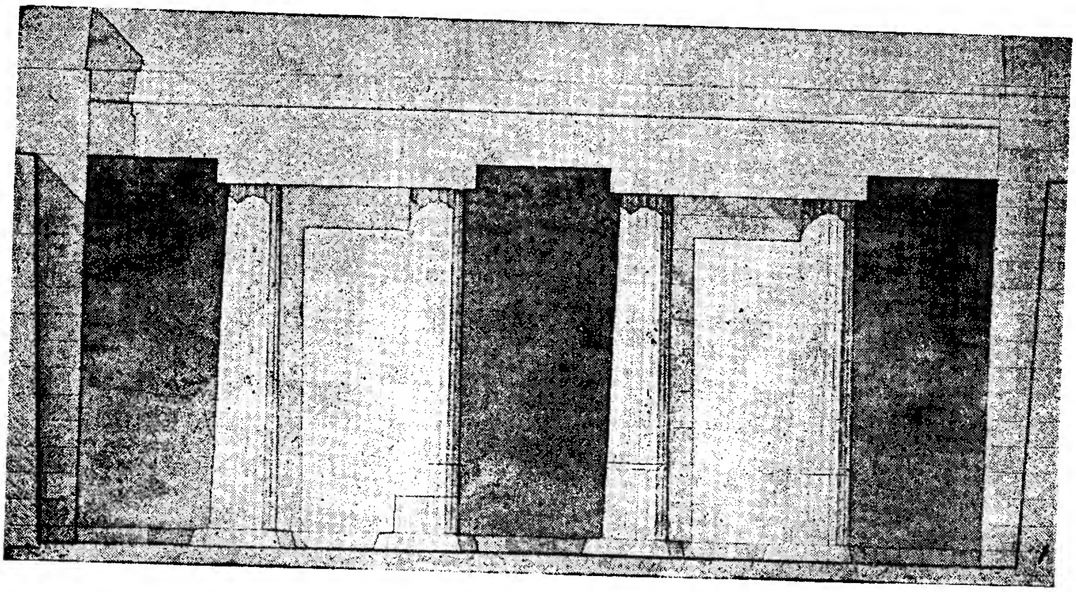
من خشب ؛ وجدير بالذكر أن الأسطون البردى ذا الزهرة اليانعة لم يظهر بعد ذلك فى العمارة الحجرية إلا فى الدولة الحديثة .ويظن أن هذين البيتين إنما يمثلان بهوين أو قاعتى عرش . كان هيكل كل منهما من غاب أو خشب ، وجدرانه من حصير أو أعواد نبات مضفورة ، والجدار الأمامى قليل الأرتفاع بما يسمح بدخول الضوء من فوقه ، وأن الملك فى العصور السالفة كان يقضى فيهما أو يدير شئون القطرين .



(شكل ١١٥) واجهة بيت الجنوب

وبيت التمثال ، ويسمى عادة السرداب ، هو قاعة صغيرة ليس لها باب أو شباك ، شيدها البناء من الحجر الجيرى الجيد فى شكل ناووس ؛ بيد أنه لم يمثل مصراعى الباب على الجدار الأمامى ، وإنما مثلهما على جانبى جدارين يمتدان من أمامها فى الاتجاه الذى يتخذانه لو أنهما كانا مفتوحين حقا ، ويبدو أن القصد من تمثيلهما فى هذا الاتجاه دعوة الروح لزيارة التمثال فى السرداب والتعرف

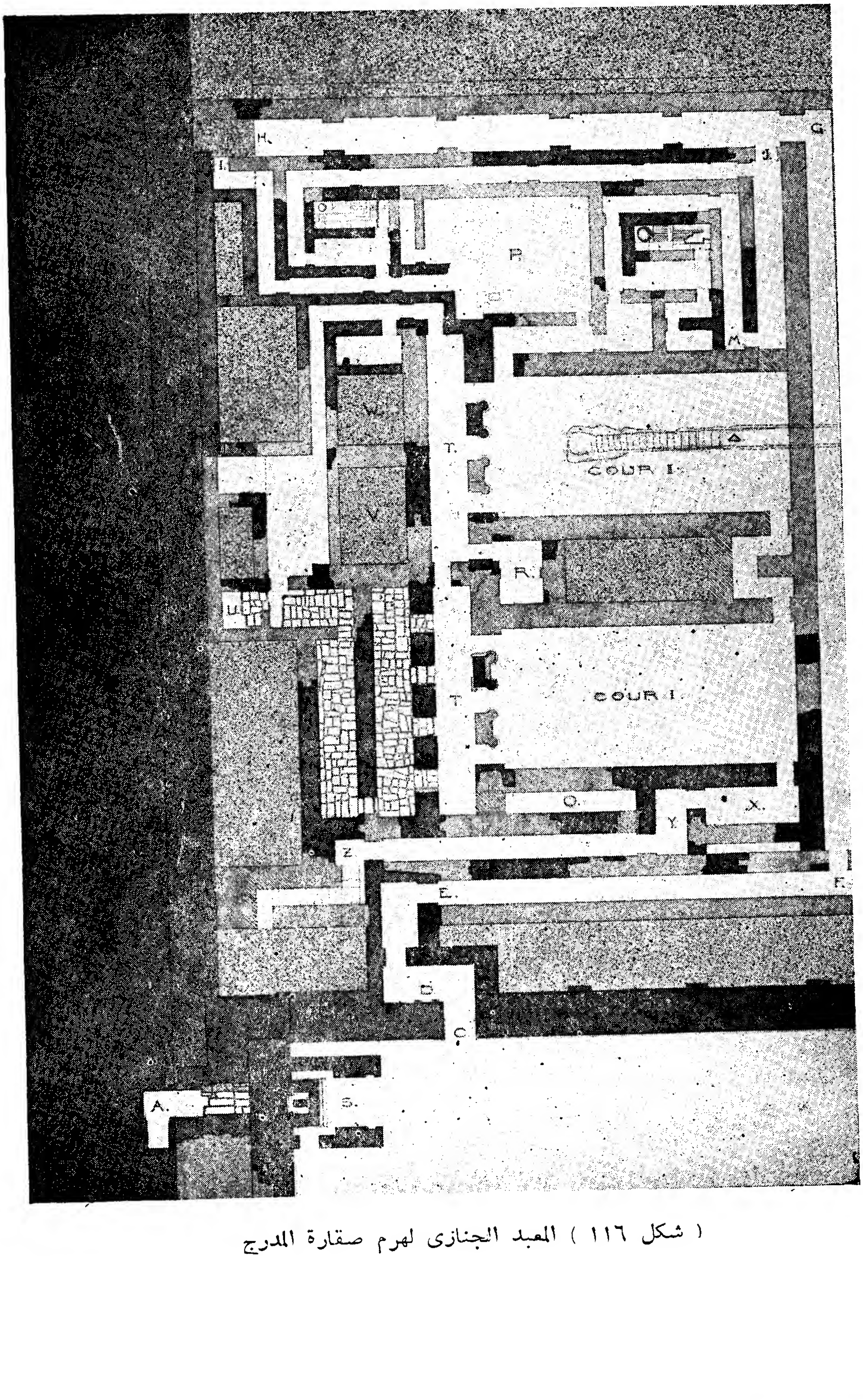
على صاحبها فيه (شكل ١١٦)(١) . وواجهة السرداب نحو الشمال حيث كان يعتقد أن أرواح الملوك بين نجوم الشمال التى لاتغيب ؛ وفيها ثقبان لايقعان أمام عينى التمثال تماما ، ويظن أنهما استحدثا فيما بعد عندما أصبح من المعتاد حرق البخور وأداء بعض الطقوس للتمثال قبل الدخول إلى المعبد . ويقع السرداب خارج المعبد الجنازى ، بحيث إذا تعرفت الروح على تمثال صاحبها فيه ، زلفت إلى المعبد لتنعم بما يقدم لها فيه من قربان ومن ثم تزور الجثة .



(شكل ١١٧) واجهة على أحد فناءى المعبد الجنائزى لزوسر

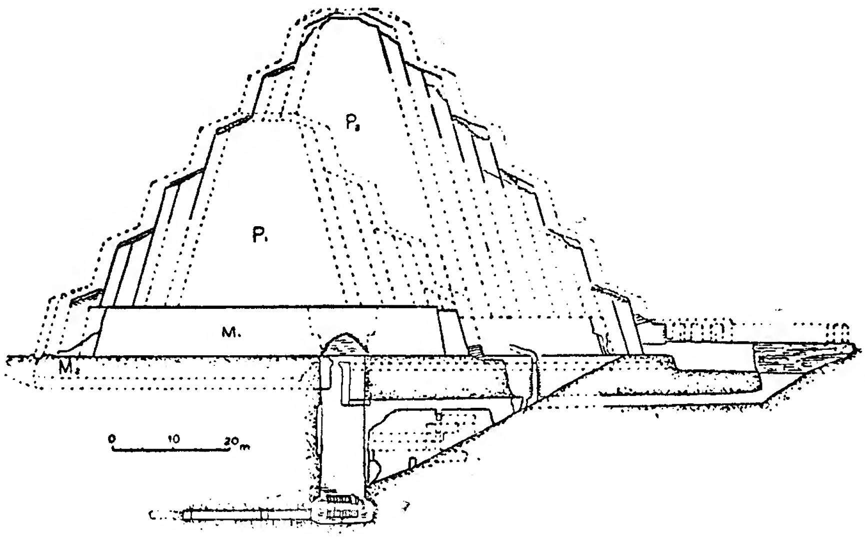
وكان المعبد لتؤدى فيه للملك الشعائر الجنازية وتقدم له فيه القرابين (شكل ١١٦) . وتحيط به من الشرق والشمال والغرب دهاليز طويلة ، ويتوسطه فناءان تشرف على كل منهما واجهة تحليها أربعة أساطين مقناة ، يصل بين كل اثنين منها جدار وفى كل فناء ثلاثة مداخل تؤدى إلى الجزء الداخلى من المعبد (شكل ١١٧) . حيث

(١) M. A. Shoukry, Die Privatgrabstatue im Alten Reich, S. 193 ff.



(شكل ١١٦) المعبد الجنازى لهرم صقارة المدرج

قدس الأقداس الذى يعتمد على الهرم ، وكان فى جداره مشكاتان . وفى الغرب مجموعتان من دهاليز صغيرة ، إحداهما شمالى الأخرى ، وتؤدى كل منهما إلى قاعة غسل . واشتمال المعبد على فناءين ، وقاعتى غسل ومشكاتين فى قدس الأقداس قد يشير إلى أنه كانت تؤدى فيه طقوس مزدوجة لزوسر ، مرة بصفته ملك الجنوب ، وأخرى بصفته ملك الشمال .



(شكل ١١٨) الهرم المدرج فى صقارة ــ مراحل بنائه

ويبدو مما تعرى من بعض أجزاء الهرم المدرج أن بناءه تم على ستة مخططات مختلفة (شكل ١١٨) ؛ فكان حسب المخطط الأول مصطبة مربعة يزيد ارتفاعها قليلا على أربعة أمتار ، وتواجه جوانبها الجهات الأربعة تقريبا ، وطول كل جانب نحو ٦٣ مترا ؛ ونواة المصطبة من حجر جيرى محلى يحيط بها كساء من حجر جيرى جيد يميل قليلا إلى الداخل من أسفل إلى أعلى . وفى المخطط الثانى زيد فى جوانب المصطبة بحيث ظل مسطح القاعدة مربعا طول كل جانب

فيه ٥و٧١ من المتر تقريبا ؛ على أن ارتفاع الجزء المضاف يقل عن ارتفاع المصطبة فى المخطط الأول قليلا . وفى المخطط الثالث أضيفت إلى المصطبة إضافة فى الشرق فغدا مسطحها مستطيلا محوره من الشرق إلى الغرب . وقبل تسوية كساء الأضافة الجديدة بدئ بتنفيذ المخطط الرابع وفيه أصبحت المقبرة هرما ذا أربع درجات مائلة ، ارتفاعه ٤٣ مترا ، وفى شماله معبد جنازى . وقبل أن يتم هذا المخطط زيد فى حجم الهرم من ناحيتى الشمال والغرب فى مخطط خامس لو تم لأصبح الهرم من ست درجات ، ولكن رؤى مرة أخرى زيادة حجمه فى كل من جوانبه حسب مخطط سادس ، أصبحت فيه مساحة قاعدته ١٣١٨٩ مترا (١٠٩×١٢١) وارتفاعه نحو ٦٠ مترا . وتميل أحجار الهرم إلى الداخل ، وفى ذلك اقتصاد فى الحجر وتوفير فى الجهد بتقليل ما يجب نحته منه ليستقيم سطحه الظاهر وميل الهرم . ويشرف الهرم المدرج بدرجاته الستة على الوادى ويرى من بعيد بما فاق كثيرا ما سبقه من مقابر ملكية . ومع أن كساءه من الحجر الجيرى الجيد قد انتزع منه ، إلا أنه لاتزال له متانته التى تحدت القرون والأجيال ، والتى تدل على كفاءة بانيه وجرأته .

وهكذا يتألف الهرم المدرج من إضافات متتالية جانبية ترتكن كل منها على سابقتها ، وهو بذلك ليس مبنى من ست درجات أو مصاطب كل منها فوق الأخرى كما كان يظن ، وإنما هو طراز جديد ، يبرز المقبرة الملكية أحسن ما تكون فوق الهضبة الشاسعة . وقد كسر ارتفاعه العظيم من حدة امتداد السور الطويل من حوله ، وزاد من أثره الجميل فى النفس .

وقد ذهب الرأى إلى أن الهرم المدرج إنما يرجع فى أصله إلى مجموعة الأحجار التى كانت تكوم فوق القبر فيما قبل الأسرات ،

وأنه يدين بشكله إلى تطور المبانى التى كانت تعلو المقابر الملكية فى أبيدوس (١) . وذهب الظن كذلك إلى أنه توفيق مفاجىء اهتدى إليه المهندسون الكهنة بما يتفق والعقائد الدينية والتصورات الجنازية عن حياة الملك فى الآخرة . ومهما يكن من أمر فإن التقدم المعمارى والاقتصادى والرغبة فى أن تخلد المقبرة الملكية على الزمن لتصون جثة الملك على الدوام ، وأن تنم عما أصبح له من قوة وسلطان ، كانت من الأسباب الهامة التى أدت إلى أن تكون على شكل هرم مدرج عظيم . ومع ذلك لقد كان يعتقد أن الملك المتوفى نجم لايفنى ، وأنه يصعد إلى السماء ، وأن السماء تفتح له أبوابها ، والأرض تغدو أحدورا يصعد عليه ، وأنه يرتقى السلم الذى صنعه له أبوه رع . لذلك يبدو أن المصريين تمثلوا الهرم سلما عظيما ، وأنه اقترن فى أذهانهم بالمرتقى الذى يصعد عليه الملك إلى السماء فى مملكة الاله الشمس رع ، خاصة وأن ديانة الشمس أخذت تجد سبيلها إلى الأسرة المالكة منذ الأسرة الثانية على الأقل ؛ وأن زوسر أقام معبدا فى عين شمس مقر عبادة الشمس ، وأن إمحوتب الذى أشرف على مبانى زوسر كان رئيس كهنة عين شمس . بذلك لم يكن للملك أن يمضى حياته الأبدية فى العالم السفلى ، وإنما كان الإله الشمس يستقبله على أنه ند له يمخر معه قبة السماء . وليس يمنع ذلك من أن تعود روحه إلى قبره لتنعم بما يقدم لها من قربان ويؤدى من طقوس .

ويؤدى من أرض المعبد الجنازى إلى غرفة الدفن أحدور لايلبث أن يغدو نفقا فى الصخر . وتقع غرفة الدفن فى نهاية بئر مربعة كبيرة طول كل جانب منها ٧ أمتار وعمقها ٢٨ مترا من سطح الأرض تحت بناء الهرم (شكل ١١٨) . وجدران غرفة الدفن

---

(١) G.A. Reisner, The Development of the Egyptian Tomb down to the Accession of Cheops, p. 307 ff.

وسقفها من حجر الجرانيت المنحوت بعناية كبيرة ، ومدخلها فتحة أسطوانية فى سقفها ، تسدها كتلة كبيرة من حجر الجرانيت تزن نحو ثلاثة أطنان ونصف. وفى مستوى غرفة الدفن وبالقرب من جوانب البئر دهاليز طويلة محفورة فى الصخر تؤدى ثلاثة منها إلى عدة مخازن ، ويؤدى الدهليز الرابع إلى عدة قاعات ، منها أربع قاعات تكسو جدرانها قراميد صغيرة من القاشانى الأزرق تمثل حصيرا دقيق الصنع (صورة ٤٦) . وقد ركبت القراميد فى أخاديد محفورة فى الجدار بين شرائط رفيعة تمثل الحبال التى يحاك بها الحصير ؛ وشدت القراميد فى أماكنها بخيوط من ألياف نباتية خلال ثقوب فى الشرائط لتمسكها فى مكانها حتى يجف الملاط (١) .

وفى إحدى الجدران ثلاثة أبواب وهمية تواجه الشرق وتحليها نقوش غاية فى الدقة ، تمثل زوسر يؤدى بعض طقوس اليوبيل (٢) ، وتحلى أطر الأبواب نقوش دقيقة تسجل اسمه وألقابه . وتحت العتب العلوى لكل من هذه الأبواب لفيفة تكسوها قراميد من القاشانى الأزرق تمثل حصيرة مطوية ، كانت فى البيوت ترخى أو تطوى كستار للباب ، وقد ظلت تقليدا ثابتا فى الأبواب الوهمية (صورة ٤٦) . وتعلو كل باب نافذتان وهميتان صغيرتان يحيط بكل منهما إطار منقوش بدقة فى الحجر فى شكل الحصير .

ويضم الجزء الذى أضيف إلى المقبرة فى المخطط الثالث إحدى عشر بئرا عميقة ، يؤدى كل منها إلى دهليز طويل يمتد من الشرق إلى الغرب ، وكانت جدران خمسة دهاليز وسقوفها وربما أرضها أيضا مكسوة بألواح من الخشب ، وقد دفن فيها بعض أفراد الأسرة المالكة ؛ وكان أمام كل بئر نصبان . أما بقية الدهاليز فكانت مخازن ،

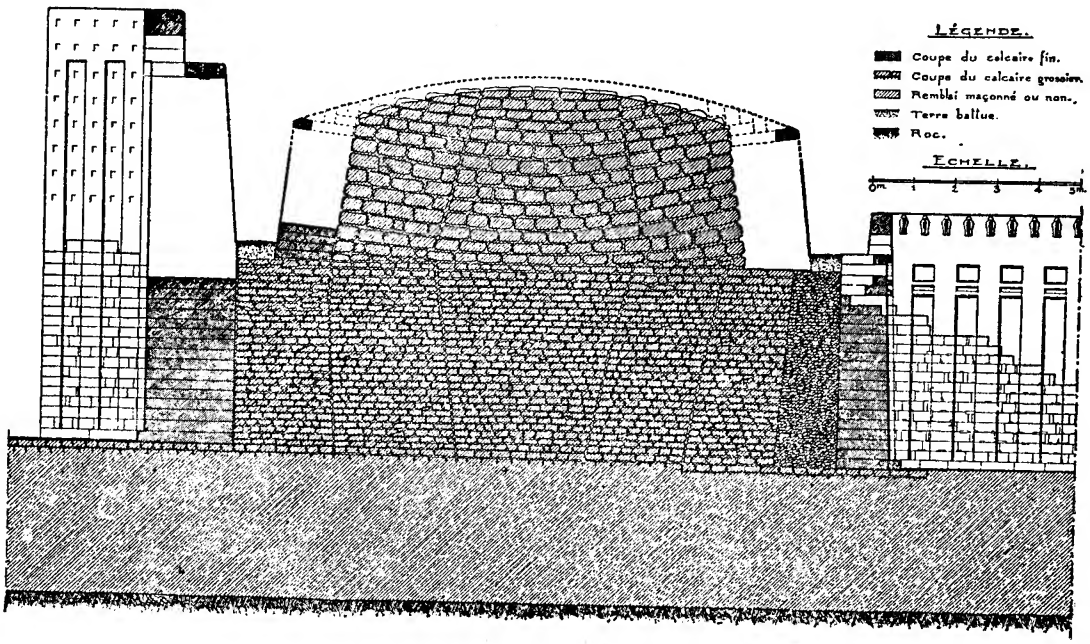
---

(١) نقل إلى المتحف المصرى مثال منها .

(٢) محمد أنور شكرى : الفن المصرى القديم ، ص ٨٢

وكان دهليزان منها مليئين بأكداس مكدسة من الأوانى من أحجار مختلفة وجد معظمها مهشما .

وتقع المقبرة الجنوبية فى جوف الجدار الجنوبى للسور وهى على شكل تابوت ضخم بجانبين مائلين إلى الداخل وسطح مقبى (شكل ١١٩) . ولها درج طويل يؤدى إلى بئر فى نهايتها غرفة دفن



(شكل ١١٩) المقبرة الجنوبية لهرم صقارة المدرج

صغيرة مربعة من حجر الجرانيت ، تقع فى شرقها وغربها دهاليز وغرف على نحو ما يقع تحت الهرم المدرج ، وتكسو جدران بعض القاعات قراميد صغيرة من القاشانى الأزرق تمثل ستائر الحصير على الجدران . وفى أحد الجدران ثلاث مشكاوات فى شكل أبواب تواجه الشرق وتحليها نقوش دقيقة تمثل الملك يؤدى أيضا بعض طقوس اليوبيل . ولهذه المقبرة مقصورة فوق سطح الأرض تحلى جداريها الشمالى والشرقى من الخارج مشكاوات يعلوها إفريز

من الصلال على نحو ما أصبح يتوج أى مبنى ملكى أو مقصورات الآلهة (صورة ٤٧) .

وقد ذهب الرأى مذاهب مختلفة فى الغرض من هذه المقبرة ؛ منها أنها مخبأ أو مقبرة مؤقتة أو لقرين الملك . ومنها أيضا أنه دفنت فيها مشيمة الملك ؛ أو أن لها علاقة باليوبيل الملكى الذى كان من مناسكه موت الملك موتا رمزيا . ومنها كذلك أنها كانت لدفن أمعاء الملك ، وكانت تستخرج من الجثة عند تحنيطها وتحفظ فى أوان أربعة من داخل صندوق ؛ أو لتحفظ فيها تيجان الملك أو تمثال له . بيد أنه يرجح أنها قبر تذكارى جنوب هرم الملك على نحو قبور أبيدوس ؛ وبذلك يكون زوسر قد جمع فى مكان واحد بين قبرين ، كان أحدهما فى الأصل فى صقارة والآخر فى أبيدوس . وأنا لنعلم أن من ملوك مصر بعد ذلك من له قبران ، ومنهم سنفرو (١) وسنوسرت الثالث (٢) وأمنمحات الثالث (٣) .

وفى المسطح الواقع غربى الهرم المدرج دهاليز ممتدة من الجنوب إلى الشمال ؛ ومنها دهليزان يفضيان إلى مايقرب من أربعمائة غرفة على شكل أسنان المشط ، بيد أنه لم يتم الكشف عنها كشفا يجلو حقيقتها .

وتتميز مبانى زوسر بصغر حجم أحجارها بالنسبة لأحجار مبانى الأسرة الرابعة ، واستخدام الحجر طولا وعرضا على نحو مايستخدم اللبن ، وتكسر الجدران فى السور والهرم ، وتقوس أعلى واجهات معظم المقصورات وتقبية سطوحها . وتتميز كذلك بزخرفة بعض الجدران كما يتجلى فى الجوسق الملكى وبيتى الجنوب والشمال وبعض القاعات تحت الهرم المدرج وفى المقبرة الجنوبية ؛

(١) له قبران فى دهشور أنظر صفحة ٢٩٧-٢٩٨

(٢) له قبر فى دهشور وآخر فى أبيدوس .

(٣) له قبران فى هوارة ودهشور .

وباستخدام الأساطين المقناة أو فى شكل حزمة الغاب أو غصن البردى أو نبات الصعيد ، وعدم استقلالها بنفسها فضلاً عن نحافتها واستطالتها ورشاقتها وجمال نسبها . وهذه كلها خصائص تتسق معا وترتبط أشد ارتباط بالمنشآت من أعواد النبات ومن اللبن فيما تقدم من أزمنة . ولا يخلو من مغزى أن تقنية الأساطين تظهر فى مبانى زوسر قبل ظهورها فى الأساطين الدورية فى بلاد الأغريق بعشرات القرون (١) ، وإن كانت نسب أساطين صقارة وتيجانها تختلف عنها فى الأساطين الدورية .

واعتماد كل أسطون فى مبانى زوسر على واجهة أو جدار يصل بينه وبين الجدار الأصلى أو يربط بينه وبين أسطون آخر ، وبناؤه فى مداميك ، فى كل مدماك عدد من الأحجار بدلاً من بنائه من طنابير كل طنبور من حجر واحد أو حجرين ، لما يدل على أن البنّاء لم يكن يثق بعد فى أن الأساطين المستقلة المبنية بالأحجار الصغيرة تستطيع أن تحمل أحجار السقف أمدا طويلا ، خاصة وقد حاكى فيها نحافة الأساطين من الخشب واستطالها ، ولعل هذا كان مما دعا البنّاء فى الأسرة الرابعة إلى استخدام الأحجار الضخمة فى البناء . ومهما يكن من أمر فقد تيسر للبنّاء فى عهد زوسر بما أقام من أساطين غير مستقلة إنشاء الأبهاء الطويلة والعريضة فى المبانى من الحجر ، وإن كانت تعترضها جدران من جانب واحد ، كما فى الجوسق الملكى ، أو من جانبين ، كما فى بهو المدخل ، أو تتخللها ، كما فى الردهة التى يؤدى إليها بهو المدخل .

وأغلب مبانى زوسر مصمتة ، تكاد تقتصر على واجهات تحاكى واجهات بعض القصور والهياكل ، وتسند الحشو من ورائها.

---

(١) تنسب الأساطين الدورية إلى فريق من الأغريق يطلق عليهم الدوريون ، نزلوا فى جزء من شاطئ آسيا الصغرى وبعض المناطق فى بلاد اليونان ، وكان لهم طراز خاص من الأساطين تاجه بسيط فى شكل بلاطة وساقه مقناة . انظر صفحة ٣٩٠-٣٩١

ومن أبرز خصائص هذه المبانى أن الأبواب ، ويبلغ عددها نحو مائة باب ، ممثلة فى الحجر كأنها مغلقة أو مفتوحة ،وتحاكى الأبواب من الخشب ذات المصراع الواحد أو المصراعين . وليس من شك فى أنه كان يعتقد أنها تفى بتحقيق الغرض منها فى عالم الحياة الأخرى ، بل أن فى تمثيل أغلبها مفتوحا أو نصف مفتوح على الدوام دعوة للروح لتأخذ سبيلها إلى هذه المبانى لتستمتع بما يؤدى لها فيها من شعائر أو بما تكنى عنه من معان وأغراض ؛ على أن الروح لم يكن ليصدها عن طريقها باب مغلق . وفى تسقيف الأبهاء و القاعات بالحجر فى شكل جذوع النخل بدلا من تسقيفها بالخشب الذى يتلف بعد فترة قصيرة أو طويلة مايدل على الرغبة فى أن يخلد البناء على الزمن فضلا عما له من روعة وجمال .

وهكذا تتمثل فى مبانى زوسر منذ أكثر من سبعة وأربعين قرنا ولأول مرة فى تاريخ العالم على وجه الاطلاق عمارة ضخمة من الحجر توحى بالوقار والجلال ، وقد حاكى البنّاء فيها كثيرا من خصائص المنشآت من اللبن وأعواد النبات على نحو ما حاكى الأغريق بعد قرون عديدة فى مبانيهم الأولى من الحجر كثيرا من خصائص المنشآت من الخشب . وهى تدل على طراز معمارى خاص يمثل مرحلة الانتقال إلى البناء بالحجر ، اجتمعت فيه لأول مرة فى العمارة الحجرية مجموعة من العناصر المعمارية والزخرفية تميزت بها العمارة المصرية طوال تاريخها ، منها الكورنيش المصرى والخيرزانة والأساطين النباتية ، وهى أقدم مايعرف من أساطين ؛ بيد أنها كانت فى مرحلة أولى من التطور فى البناء بالحجر ، إذ لم تبلغ غاية تطورها إلا فى الأسرة الخامسة . ومذ ذاك غدت الأساطين من الخصائص المميزة للعمارة المصرية ، حتى لتعتبر مصر أصل العمارة ذات الأساطين . ومن العناصر الزخرفية الرمزية الصل وعلامتا الدوام وخكر . ويرجع الفضل الأول فى ذلك كله إلى إمحوتب ، الذى وإن لم يكن أول من بنى بالحجر ،

إلا أنه أول من بنى به مبانى ذات طابع فنى واضح وإن كان لم يتحرر كثيرا من طراز المنشآت الأولى من أعواد النبات واللبن .

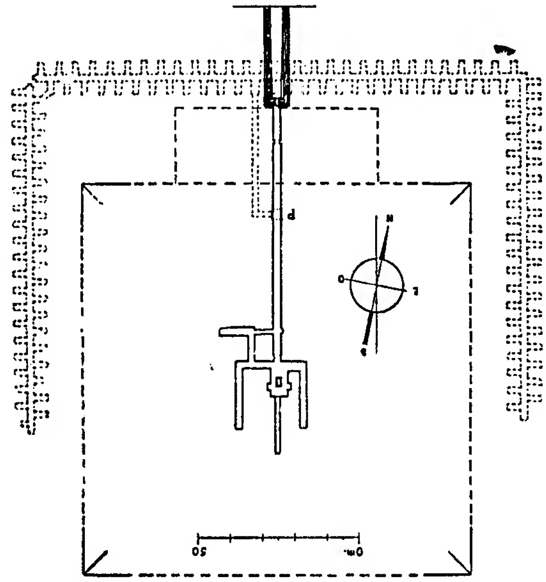
وكانت تقوم فى بعض الغرف والدهاليز وفى المشكاوات فى كثير من الجدران تماثيل كبيرة للملك وحده أو مع بعض أفراد الأسرة المالكة ، وتماثيل صغيرة لآلهة مختلفة . وأهم ماحفظ منها تمثال لزوسر من الحجر الجيرى الجيد ، وجد فى سردابه؛ وهو يمثله جالسا فى حجم طبيعى وقد نحيف فاره ، ملتحفا بعباءة طويلة حابكة وعلى رأسه صماد فوق شعر مستعار كثيف .

هرم سخم خت

منذ الأسرة الثالثة أصبحت المقبرة الملكية تبنى فى الدولة القديمة بالحجر ، وظلت تبنى فى الأسرة الثالثة فى شكل هرم مدرج ؛ ومن ذلك مقبرة الملك سخم خت التى كشف عنها فى جنوب غربى هرم زوسر(١) ، والتى يظن انه لوتم بناؤها لكانت من سبع درجات ، وقد انتزعت منها احجارها ولم يبق منها غير جزء صغير من نواتها لايكاد يتجاوز ارتفاعه سبعة أمتار وطول كل ضلع منها مائة وعشرون مترا . ويؤدى إلى غرفة الدفن فيها أحدور لايلبث أن يغدو نفقا مستقيما فى الصخر . وغرفة الدفن محفورة فى الصخر على عمق ٢٥ مترا من سطح الأرض تكتنفها غرفتان فى الشرق والغرب ؛ وقد وجد فيها تابوت من قطعة واحدة من المرمر ، لم يعثر فيه على شىء عند الكشف عنه . وتحيط بغرفة الدفن دهاليز عمياء ،وعلى مسافة غير قصيرة يحيط بها من ثلاث جهات دهليز طويل يكتنفه مائة واثنان وثلاثون مخزنا محفورا فى الصخر (شكل ١٢٠) . وقد أعد للمعبد الجنازى مكان فى شمال المقبرة . ويحيط بالهرم سور ضخم على

(١) M.Z. Goneim, Die verschollene Pyramide ; — Horus Sekhem-Khet, The Unfinished Step Pyramid at Saqqara, vol. I.

شاكلة سور زوسر ، وتكاد تكون أحجاره ضعف حجم أحجار هذا السور .

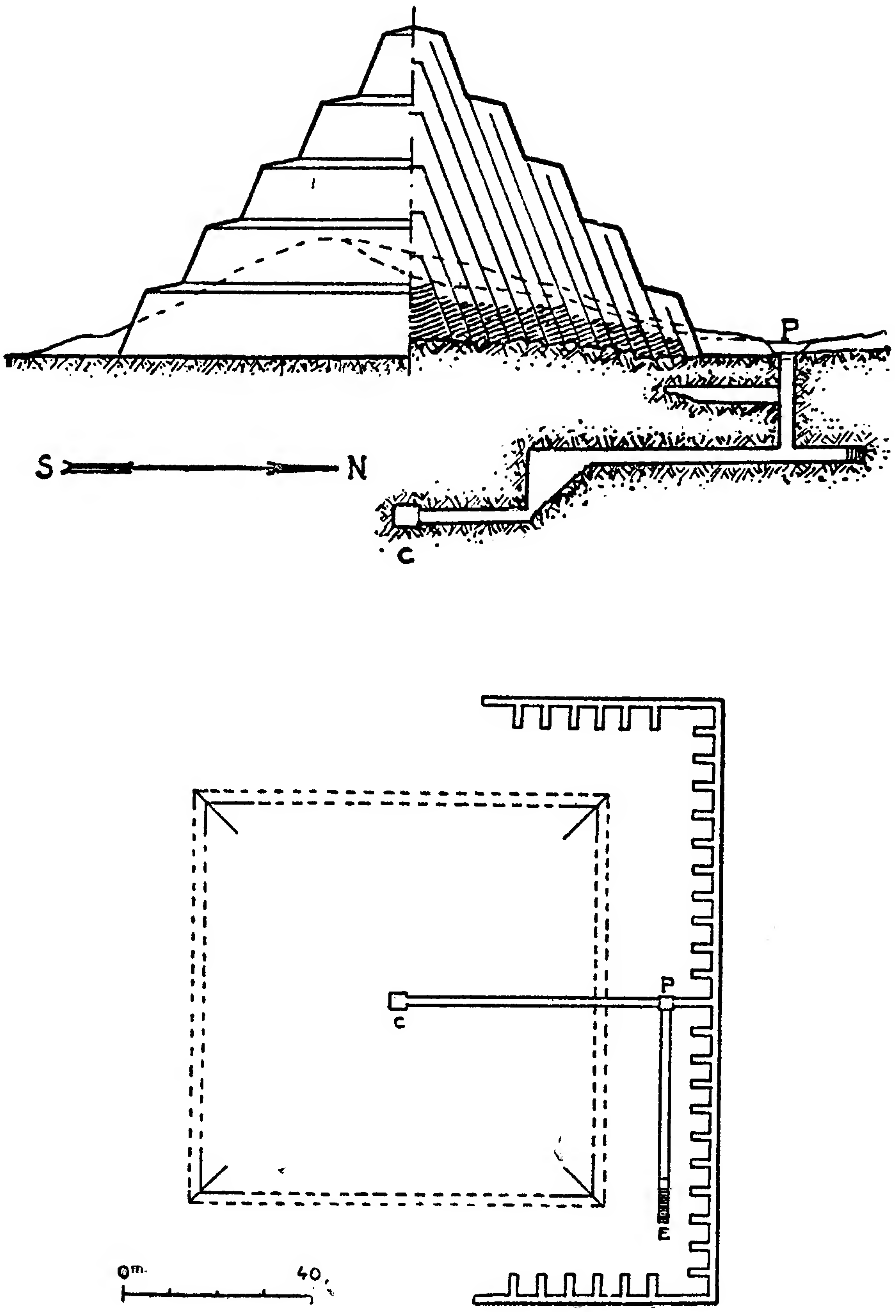


(شكل ١٢٠) مخطط هرم الملك سخم خت

الهرم المدرج فى زاوية العريان

يتألف ما يسمى بالهرم المدرج فى زاوية العريان شمالى الجيزة من نواة وأربع عشرة إضافة بقاعدة مربعة طول ضلعها ٨٤ مترا ؛ ويظن أنه لو تم بناؤه لكان من ست أو سبع درجات أيضا . (شكل ١٢١)[١] . ويؤدى إلى غرفة الدفن نفق فى الأرض من الشرق إلى الغرب موازيا للجانب الشمالى من قاعدة الهرم حتى يلتقى ببئر تقع على امتداد محور الهرم من الجنوب إلى الشمال ، ويخرج من قاع البئر دهليزان ، يتجه أحدهما إلى الجنوب إلى أن يتصل بدرج يؤدى بدوره إلى دهليز ينتهى إلى غرفة الدفن تحت مركز الهرم ، ويتجه الدهليز الثانى نحو الشمال ، ثم لايلبث أن يؤدى إلى دهليز

(١) J. Ph. Lauer, Histoire monumentale des pyramides d'Egypte, t. I, p. 206 sq.

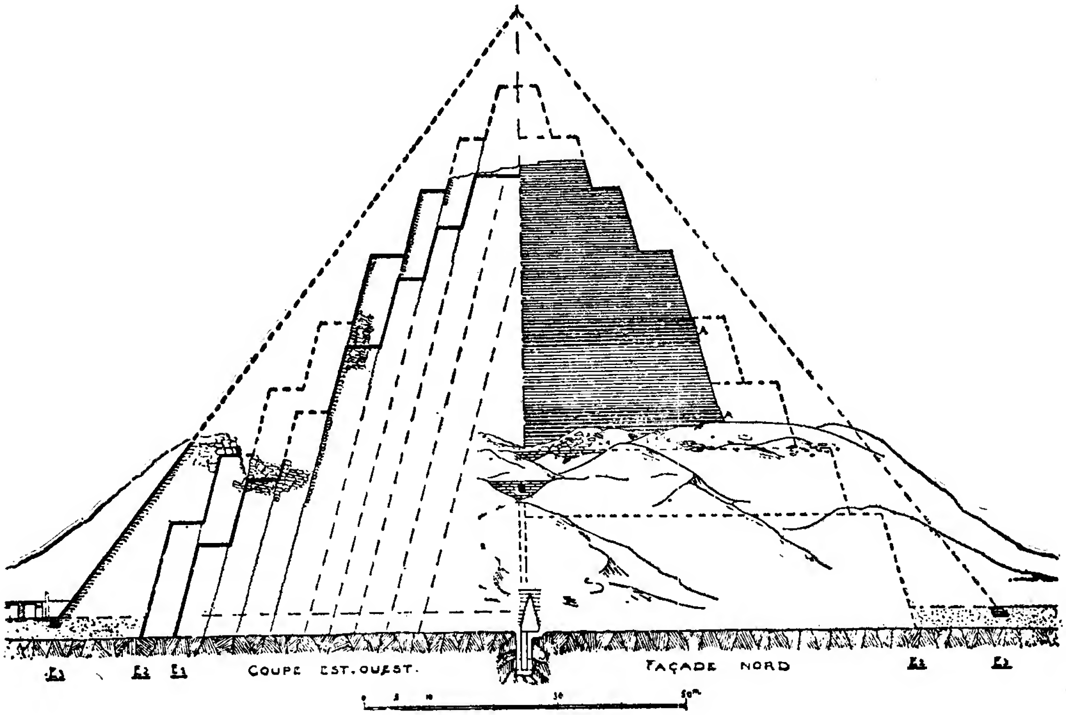


(شكل ١٢١) الهرم المدرج فى زاوية العريان ـ قطاع ومخطط

طويل يمتد من الشرق إلى الغرب ، ومن ثم ينحرف طرفاه إلى الجنوب ، ويشرف عليه إثنان وثلاثون مخزنا .

هرم ميدوم

بلغ طراز الهرم المدرج غايته فى هرم ميدوم جنوبى صقارة بنحو ٥٠ كيلو مترا [١] ؛ وتبلغ مساحة قاعدته ٢٠٨٨٠ مترا مربعا ، أى بما يزيد على مساحة قاعدة هرم زوسر بنحو الثلث(شكل ١٢٢).



(شكل ١٢٢) هرم ميدوم

ويظن أنه كان فى الأصل مصطبة مستطيلة ، بيدأنه لايبعدأن يكون البنّاء قد استفاد مما حققه إمحوتب فى هرم زوسر ، فانشأه بادئ بدء هرما مدرجا ؛ على أنه لاسبيل إلى التحقق من ذلك . ومهما يكن من أمر فقد كان هرما ذا سبع درجات يقوم على مساحة مربعة طول ضلعها نحو ١١٠ أمتار ، وارتفاعه ٦٧ مترا . وتتألف كل درجة من نواة من حجر محلى يكسوها حجر جيرى جيد ، أحسن تسوية

(١) L. Borchardt, Die Entstehung der Pyramiden.

سطحه الظاهر . ثم زيد فى حجمه بتعلية الدرجات وإضافة درجة جديدة اليها فأصبح هرما ذا ثمانى درجات . وقد ظلت أهرامات الدولة القديمة تبنى بمثل هذه الأضافات الجانبية بحيث يقل ارتفاع كل إضافة عن سابقتها ، ويظن أن المصريين اعتبروا ذلك مما يساعد فى متانة البناء(١) ، إن لم يكن يرجع إلى شدة محافظتهم على تقاليدهم .

الهرم المنحنى

اقتربت المقبرة الملكية فى بداية الأسرة الرابعة من الشكل الهرمى الكامل ، وذلك فيما يسمى بالهرم المنحنى (صورة ٤٨)(٢) ، الذى بناه سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة فى دهشور جنوبى صقارة بقليل ، وتبلغ مساحة قاعدته ٣٥٤٠٠ متر مربع ، وطول قاعدته ٦و١٨٨ من المتر وارتفاعه ٤٠و٩٩ من المتر وزاوية قاعدته ٣١َ ٥٤° وتنكسر جوانبه بالقرب من منتصفه بزاوية أصغر من زاوية القاعدة بحيث تصبح ٢١َ ٤٣° ، وهو بذلك الهرم الوحيد بزاويتين (٣) . ويظن أن هذا الانكسار يرجع إلى الرغبة فى الاسراع فى إنجاز البناء بتقليل الارتفاع الذى كان يراد أن يكون عليه ، وقد يؤيد هذا أنه لاتتمثل فى بناء الجزء العلوى من الهرم العناية التى يدل عليها بناء الجزء الأسفل . ومع ذلك ربما كان السبب الحقيقى هو الرغبة فى تقليل ثقل الأحجار فوق القاعات الداخلية ، عندما بدت تظهر فى جدرانها شقوق أثناء البناء ، ولعل ذلك كان أيضا من الأسباب التى دعت سنفرو إلى ابتناء هرم آخر إلى الشمال منه . على أن من الأثريين من ذهب إلى أن هذا الانكسار إنما يعبر عن ازدواج الملكية

---

(١) F. Petrie, The Building of a Pyramid. Ancient Egypt XV (1930), p. 33 ff.

(٢) يسمى أيضا الهرم الكاذب والهرم شبه المعين .

(٣) G.A. Reisner, The Development of the Egyptian Tomb down to the Accession of Cheops, p. 197 ff. ; A. Fakhry, The Monuments of Sneferu at Dahshur, 2 vols.

فى مصر باعتبار أن الملك إنما كان ملك الجنوب وملك الشمال ، وبذلك رأى أن يسمى الهرم بالهرم المزدوج[1] . بيد أنه لايفهم كيف اقتصر هذا التعبير على هذا الهرم وحده دون غيره مع أن ازدواج الملكية ظل قائما طوال عهد الأسرات واستطاع المصريون أن يعبروا عنه بوسائل شتى تمسكوا بها طوال تاريخهم . ومن الباحثين من رأى أيضا أن الغرفة الثانية فى الهرم إنما كانت لتحفظ فيها أوانى الأحشاء ، وأن ازدواج انكسار جوانب الهرم انما تقابل ازدواج غرفة الدفن للجثة وللأحشاء[2] ، وهو مالا يزكيه شكل الأهرامات فيما بعد . ومهما يكن من أمر فإنه يلاحظ أن الأحجار فى هذا الهرم لم تبن فى مستوى أفقى ، وإنما تميل إلى الداخل على نحو أحجار هرم زوسر .

الهرم الأحمر

لم يكتف سنفرو بالهرم المنحنى إذ أقام فى الشمال منه هرما ثانيا — يسمى الهرم الأحمر ، بقاعدة مربعة وجوانب مثلثة مائلة تلتقى معا فى أجواز الفضاء ، وبذلك اكتمل للمقبرة الملكية الشكل الهرمى (صورة ٤٩)[3] ، وتبلغ مساحة قاعدة الهرم ٤٨٤٠٠ متر مربع ومساحة كل جانب منه نحو خمسة أفدنة وارتفاعه ٤و١٠٤ من المتر وزاوية ميله ١١" ٣٦' ٤٣° . وقد بنيت أحجار مداميكه على مستوى أفقى ، وهو ما أصبح يتبع فى بناء الأهرامات فى العصور التالية . ويبدو أنه فى عهد سنفرو ملئت درجات هرم ميدوم وكسيت بكساء من حجر جيرى جيد ، فغدا بذلك هرما كاملا بزاوية ميل قدرها ٥١° .

(١) A. Varille, A propos des pyramides de Snefrou.

(٢) E. Drioton, P. de Bourgeut, Les pharaons à la conquête de l'art, p. 83 sq.

(٣) G.A. Reisner, op. cit., p. 199 f. ; J. Vandier, Manuel d'archéologie égyptienne, t. II, p. 25 sq.

لكل من هرم ميدوم وهرمى سنفرو فى دهشور مدخل فى الجانب الشمالى من الهرم ، يؤدى إلى دهليز منحدر ينتهى بردهة أو أكثر ثم غرفة دفن ،وهى تقع دائما فى مستوى أعلى من الدهليز أو الردهة رغبة فى إخفاء مكانها . وسقفها فى شكل قبو مدرج ، وفيه تبرز أحجار كل مدماك فى الجدران الأربعة إلى الداخل قليلا حتى تتلاقى فى أعلى مدماك أو تقترب بحيث يمكن أن يغطيها حجر واحد مما أتاح بناء قاعات عريضة ، إذ فى تسقيف ماتزيد سعته من القاعات على ثلاثة أمتار بحجر جيرى مالا يكفل سلامة السقف . وهذه أقدم أقباء مدرجة فى الحجر فى العمارة المصرية ، ويرجع طرازها إلى تسقيف غرف الدفن فى المقابر الملكية فى بداية الأسرات بقبو مدرج من اللبن . وفضلا عما للقبو المدرج من أهمية معمارية فانه من الناحية الفنية يتميز فى الهرم المنحنى بفخامته ورشاقة خطوطه ، وهو من التوفيقات غير العادية فى العمارة المصرية فى ذلك الزمن البعيد . ولهذا الهرم مدخل ثان فى الجانب الغربى منه يؤدى إلى غرفة دفن ثانية سقفها قبو مدرج أيضا .

وتدل هذه الأهرامات كذلك على تقدم ملحوظ فى البناء بالأحجار الكبيرة وعلى احتيال فى إخفاء غرفة الدفن ، وزيادة ملحوظة فى مساحة قاعدة الهرم ، إذ تزيد مساحة قاعدة الهرم الأحمر فى دهشور كثيرا على ثلاثة أمثال مساحة قاعدة هرم صقارة المدرج . ومع ذلك لقد غدت المبانى التى تلحق بالمقبرة الملكية أقل عددا ومساحة مما كانت عليه فى عهد زوسر ، وأصبحت تتألف فى جوهرها من هرم صغير جانبى أو أكثر ، ومعبد جنازى ، ومعبد عند حافة الوادى ، يسمى عادة معبد الوادى ، وطريق صاعد يصل بين المعبدين . وقد تصل النيل بمعبد الوادى قناة تيسر نقل الأحجار

اليه من الهضبة الغربية أو من أسوان . والأهرامات الجانبية الصغيرة منها ما هو للملكات ، ومنها ما يرجح أنه كان ذا غرض طقسى(١) .

وقد اختفت أكثر معابد الوادى بسبب استثمار أحجارها فى البناء وفيضان النيل وارتفاع مستوى مائه واتساع رقعة الأراضى الزراعية . وكان معبد الوادى لترسو عنده السفينة التى تنقل جثة الملك ، وليؤدى له فيه مناسك الغسل والتحنيط(٢) وفتح الفم(٣) وطقوس الدفن ، ثم ليكون بعد ذلك مكان استقبال الوافدين وحملة القرابين . وهو فى نفس الوقت مدخل ضخم يعين المدخل إلى المعبد الجنازى . وكان يكتنف الطريق الصاعد جداران من حجر جيرى جيد يحجبان النظر عن الموكب الجنازى بعد تحنيط الجثة . ويقع معبد الهرم أو المعبد الجنازى فى منتصف الجانب الشرقى للهرم تجاه الشمس المشرقة حيث كانت تؤدى للملك الراحل فى أقرب مكان لجثته الشعائر الجنازية كل يوم وفى الأعياد والمناسبات المختلفة ، وكان يعتقد أنها تكفل له الخلود فى الآخرة . ولقد قيل أن أجزاء المقبرة الملكية نشأت نتيجة للضرورات المعمارية ، فقد كان لابد للأحجار المجلوبة من أماكن بعيدة من مرسى تصل إليها على الشاطىء الغربى ، وكان لابد أيضا من طريق تنقل عليه إلى مكان البناء ؛ على أن ذلك لايكفى لأن يكون السبب الأساسى لأقامة المعبدين

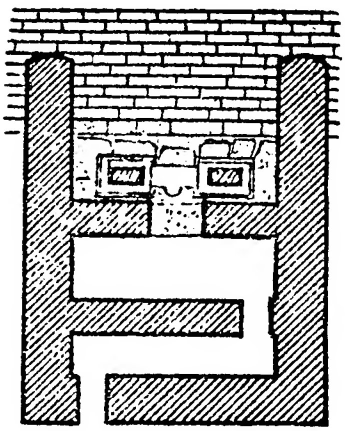
(١) H. Ricke, op. cit., II, 125 f.

(٢) من الباحثين من يظن أن الغسل والتحنيط كانا يؤديان فى معبد الوادى ، ومنهم من يرى أنهما كانا يؤديان فى مكان آخر ، وأن ما كان يؤدى فى معبد الوادى إنما كانت طقوسا تمثلهما . وكان التحنيط يستغرق وقتا طويلا ، ومن النقوش ما يدل على أن تحنيط الملكة مرسى عنخ الثالثة زوجة الملك خفرع استغرق ٢٧٠ يوماً .

(٣) كان طقس فتح الفم يقتضى رش الجثة بالماء وإطلاق البخور من حولها وتقديم الأضحيات من أمامها ومس فمها بأدوات مختلفة ومسحه باللبن ثم كساءها بالأردية الملكية وذلك لمنح الجثة قوى الإنسان الحى ، ومنها السمع والبصر والشم . وكان هذا الطقس يؤدى كذلك للتمثال . T.J.C. Baly, Notes on the Ritual of the Opening of the Mouth, JE.A., XVI, 1930, p. 173 ff.

خاصة وأن المعبد الجنازى يرجع أصلا إلى تقاليدجنازية قديمة تقضى بتقديم القربان فى أقرب مكان للقبر وأنه كان لزوسر معبده الجنازى ولم يكن له فيما يعرف معبد للوادى أو طريق صاعد .

وكان يحيط بهرم ميدوم سور سميك سطحه الخارجى يخلو من المشكاوات ، ويضم معبده الجنازى الذى يقع عند وسط الجانب الشرقى للهرم (شكل ١٢٣) ، وهو معبد جد صغير ، يتألف من ردهتين متوازيتين ، مدخلاهما فى طرفين غير متقابلين من الجدارين اللذين يقعان فيهما . وتؤدى الردهتان إلى فناء صغير مكشوف يتوسطه نصبان من حجر الجير مقوسان فى أعلاهما ،



(شكل ١٢٣)
المعبد الجنازى لهرم ميدوم

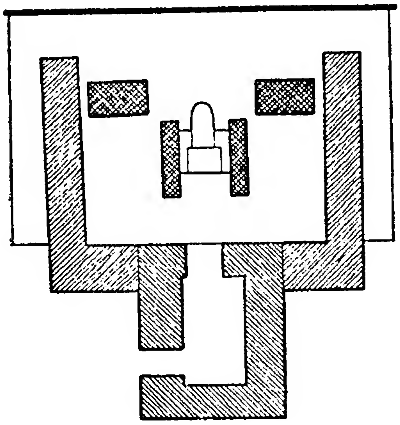
ويزيد طول كل منهما على أربعة أمتار ، وبينهما مائدة قربان من حجر الجير فى شكل العلامة الهيروغليفية التى تعنى قربان (١) . وكان الكهنة يؤدون المناسك الجنازية فى المعبد ووجوههم إلى الغرب نحو عالم الموتى حيث يرقد الملك المتوفى . ولا يزيد ارتفاع الجدران كثيرا على مترين ونصف ؛ وهى من حجر جيرى جيد ، وتميل سطوحها الخارجية قليلا إلى الداخل بما يجعل للمعبد طابع رشيق أنيق . وكان يؤدى إليه من الوادى طريق صاعد فخم طوله أكثر قليلا من ٢١٠ أمتار ، يحف به جداران ، أعلاهما محدب ، وأرضه مرصوفة بالحجر . ويقع فى بداية الطريق الصاعد معبد الوادى ، على أنه

---

(١) A. Rowe, Excavations of the Eckley B. Coxe Jr. Expedition at Meydoum, 1929-30. The Museum Journal 22, No. 1.

لم يتيسر ترسم أثر جدرانه في الأرض لرطوبتها الشديدة بسبب ارتفاع مستوى ماء النيل .

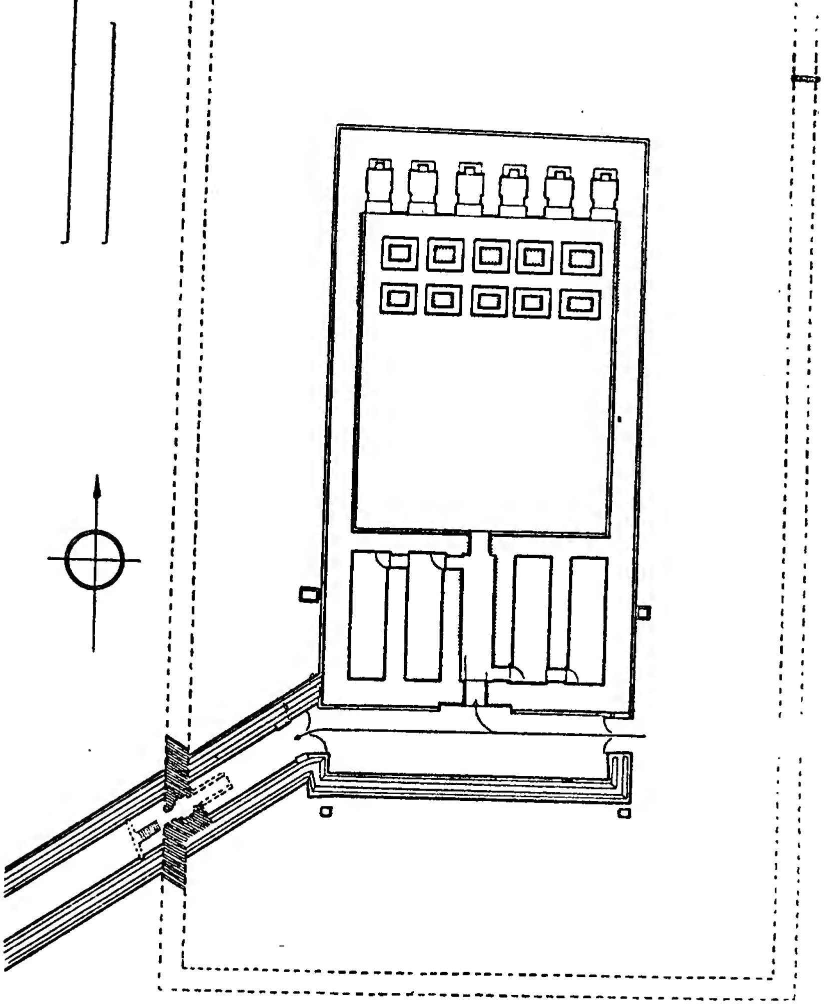
ويقع المعبد الجنازى للهرم المنحنى فى وسط جانبه الشرقى كذلك (شكل ١٢٤) ، وكان فى الأصل بسيطا للغاية ، إذ كان مجرد فناء مكشوف يضم نصبين كبيرين من الحجر مقوسين فى أعلاهما ، وكان طول كل منهما نحو تسعة أمتار ، وقد نقشت واجهة كل منهما بأسماء الملك وألقابه(١) . وكانت من أمامهما مائدة قربان من ثلاثة قطع من الحجر الجيرى فى شكل العلامة الهيروغليفية لكلمة قربان ، وقد ثبت فيها حجر من المرمر المصرى يعين المكان الذى يوضع عليه القربان ؛ وفيما بعد أحيط هذا الفناء بجدار من اللبن تتقدمه ردهة .



(شكل ١٢٤)
المعبد الجنازى للهرم المنحنى

وكان الطريق الصاعد غير مسقوف ويشبه الطريق الصاعد لهرم ميدوم إلا أنه كان أكثر منه طولا (٦٠٠ متر تقريبا) ، وقد غطيت أرضه بالطين فوق طبقة من نقارة الحجر الجيرى . وعلى مسافة غير قصيرة من الأرض المزروعة كشف عن معبد الوادى (شكل ١٢٥) ، وهو بناء مستطيل بسيط من حجر جيرى جيد ، ويمتد محوره من الجنوب إلى الشمال ، ويتقدم مدخله فناء يتصل جداره الخارجى بالجدار الجنوبى للطريق الصاعد . ويقوم عند طرفى الفناء من الخارج نصبان كبيران منقوشان باسماء الملك وألقابه . وكان المعبد يتألف من دهليز يكتنف كل جانب منه قاعتان ،

(١) H. Ricke, in A. Fakhry, op. cit., p. 98 f.



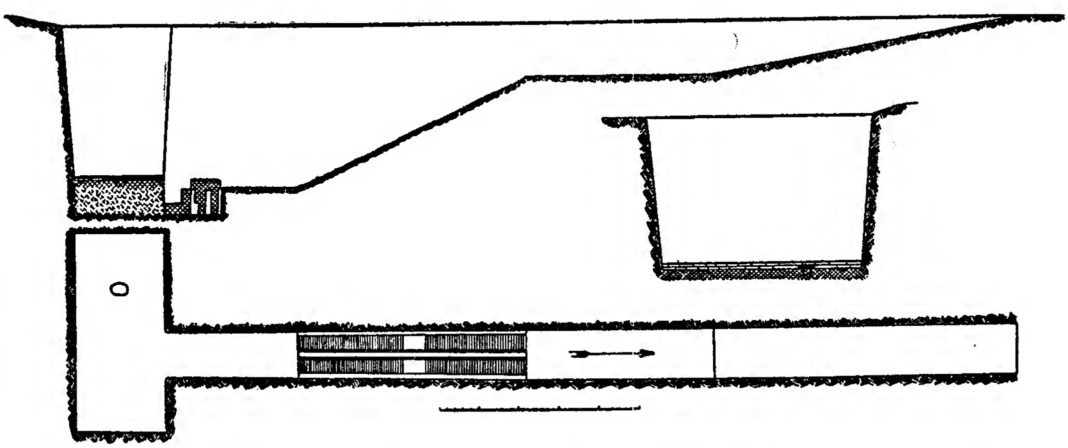
(شكل ١٢٥) معبد الوادى للهرم المنحنى

ومن وراء ذلك فناء مكشوف فى مؤخرته صفة بصفين من الأعمدة ؛ فى كل صف خمسة أعمدة ، كل منها من كتلة واحدة من الحجر الجيرى ، وله قاعدة مربعة . وتطل على الصفة ست مقصورات متماثلة تقع فى صف واحد ، وكان الجدار الخلفى لكل منها من كتلة واحدة من الحجر ، تتوسطها مشكاة ، نحت فى ثلاثة منها على الأقل تمثال أكبر من الحجم الطبيعى للملك سنفرو . وحول كل مشكاة نقوش مختلفة (١) . وكانت تحلى جدران الردهة صور شخوص الضياع الملكية تحمل القرابين للمعبد ، بينما كانت تحلى الأعمدة صور مختلفة ، منها ما يصور الملك يؤدى شعائر اليوبيل الملكى أو طقس تأسيس المعبد .

(١) Ibid., p. 106 ff.

الهرم الناقص فى زاوية العريان

لايعرف على وجه أكيد إسم صاحب هذا الهرم[1]، كما لايعرف تاريخه وإن كان يغلب على الظن أنه من الأسرة الثالثة أو الرابعة . ويبدو أن العمل ما كاد يبدأ فى بناء الهرم حتى توقف لسبب غير واضح ، على أن الجزء الذى تم حفره فى الصخر لغرفة الدفن يتميز بضخامته وروعته معا (شكل ١٢٦) . ويتألف من أخدود



(شكل ١٢٦) الهرم الناقص فى زاوية العريان

طويل مكشوف محفور فى الصخر يؤدى من الشمال إلى الجنوب إلى قاع بئر واسعة[2] . ويبلغ طول الأخدود أكبر من ١٠٦ أمتار ، وعرضه أكثر من ٦ أمتار ؛ وهو فى بدايته أخدود طويل لأكثر من ٣٧ مترا ، يسير بعدها فى اتجاه مستقيم لأكثر من ٢٣ مترا ، ويتحول بعدها إلى درجين يتوسطهما أحدور لأكثر من ٢٩ مترا ، ثم يستقيم لأكثر من ٩ أمتار ؛ وعند ذاك يهبط عموديا لما يزيد على ثلاثة أمتار يستقيم بعدها لمسافة ٧ أمتار إلى أن يصل إلى قاع البئر على عمق ٢٥ مترا من سطح الأرض . والبئر مستطيلة

(١) ينسب أحياناً للملك نفر كارع و أحياناً أخرى للملك نب كا ولم يحفظ التاريخ من أخبارهما شىء يذكر .

(٢) G.A. Reisner, op. cit., p. 151 f.

(٢٥ × ٧ و١٠ من الأمتار) ، وقد رصف وسط قاعها بحجر الجرانيت تحيط به أحجار جيرية . وأفرغ للتابوت مكان بالقرب من وسط قاع البئر ، وهو من الجرانيت وبيضى الشكل على غير المعتاد .

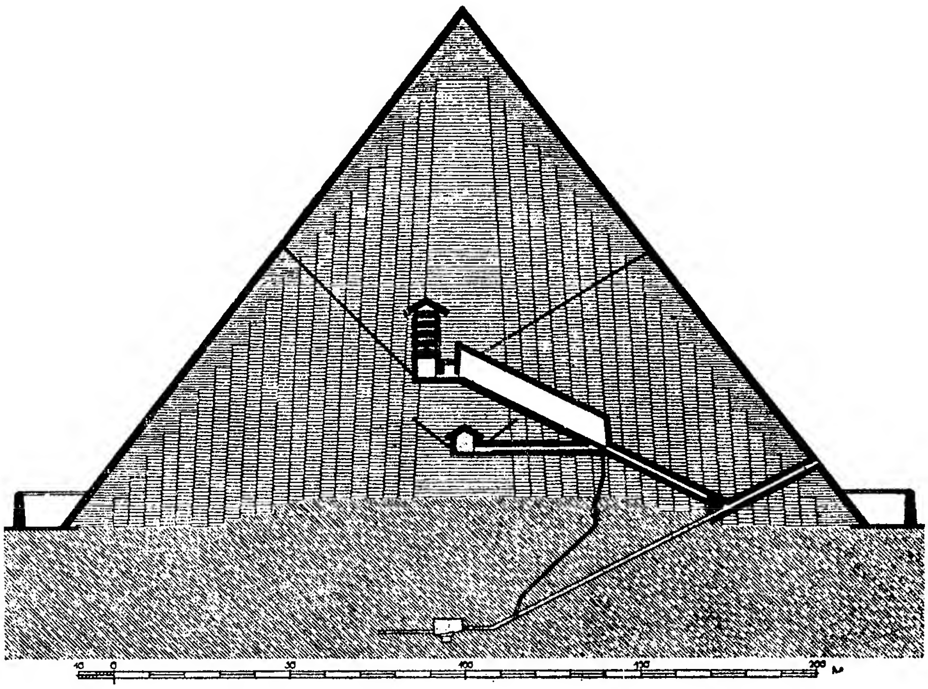
أهرامات الجيزة

هى أعظم ما خلفه القدماء من آثار ومن أبدع أعمال العمارة فى جميع الأزمنة ، وقد عدها الأغريق من عجائب العالم السبعة ؛ ويذكر عنها ديودور الصقلى أن الآراء اتفقت على أن عظم شأن الأهرام لايرجع إلى ضخامة بنائها وباهظ تكاليفها فحسب ، وإنما لدقة بنائها أيضا ؛ ومهندسوها أولى بالأعجاب فيما يقال من الملوك الذين دبروا نفقاتها (١) ، ولاتزال تجذب إليها من كل صوب الأفئدة والأنظار . وهى لاتدل على قدرة المصريين وكفاءتهم الفنية فحسب ، وإنما تنم أيضا عن عظمة بناتها ، وما كان لهم من سلطان وموارد، وقد وصفها عبد اللطيف البغدادى بأنها « صبرت على ممر الزمان ، بل على ممرها صبر الزمان » . وينسب إلى نابليون بونابرت أنه قال: ان أهرامات الجيزة الثلاثة تحتوى من الأحجار ما يكفى لبناء سور حول فرنسا جميعها ، ارتفاعه ثلاثة أمتار ، وعرضه ثلاثين سنتيمترا.

وهى تؤلف معا مجموعة متناسقة فريدة (صورة ٥٠) ، كما تؤلف مع ما يحيط بها من أهرامات صغيرة ومقابر أفراد الأسرة المالكة وعظماء رجال الدولة مدينة كبيرة للموتى . وكان لكل منها اسمه ، فكان الهرم الأكبر يسمى « مشرق خوفو » ، والهرم الثانى « خفرع عظيم » ، والهرم الثالث « منقرع مقدس » . وقد اختار خوفو لهرمه أحسن موقع فى الهضبة الغربية شمالى منف ، حيث يشرف

(١) وهيب كامل : ديودور الصقلى فى مصر ، فقرة ٦٤ .

على الوادى الخصيب من عل لمسافات بعيدة بما يدل على اختيار مقصود ؛ ثم تبعه خفرع فاختار لهرمه مكانا فى الجنوب الغربى من هرم خوفو فى موقع يبعد قليلا عن حافة الهضبة ، وأخيرا أقام منقرع هرمه فى مكان أقل ارتفاعا ، ويبعد مسافة غير قصيرة عن حافة الهضبة .



(شكل ١٢٧) الهرم الأكبر

الهرم الأكبر

هو أكبر الأهرامات وأحكمها بناء ، ليس يشبهه بناء آخر فيما يتركه فى النفس من أثر ضخم على بساطة خطوطه وخلوها من كل زخرف (شكل ١٢٧) . وليس يملك الأنسان وهو يرنو بنظره إليه ويجول به فى جوانبه إلا أن يهوله سموقه ، وعظم مسطحاته ، وقوة رسوخه ، وحسن نسبه ، وما يدل عليه بناؤه من جهد وعمل . وما يكاد يخلص من الدهشة والاستغراب حتى يملكه العجب بما يدل

عليه من كفاءة وعلم وخبرة وإرادة وسلطان ، فيحنى رأسه إجلالا وتقديرا لقدرة الأنسان .

وهو فضلا عن ذلك يؤلف والهضبة التى يقوم عليها وحدة متسقة . وما من ريب فى أنه بشكله الراسخ على حافة الهضبة الشاسعة يمثل أقوى تمثيل ما أراده المصريون من أن يكون موطن الخلود لمليكهم المؤله . وكان طول كل جانب من قاعقدته ٢٣٠ مترا تقريبا ، وكان يسمو فى الفضاء مائة وستة وأربعين مترا ونصف المتر ، وزاوية ميل جوانبه ٥٢°. وقد ظل أربعين قرنا أعلى بناء فى العالم حتى أواخر القرون الوسطى عندما بنيت بعض الكاتدرائيات التى تعلوه قليلا . وكانت مساحة قاعدته حوالى ٥٣٠٠٠ متر مربع أو ما يقرب من ١٣ فدانا ؛ وهى مساحة تسع كاتدرائيات فلورنسا وميلان والقديس بطرس فى روما والقديس بولس ووستمنستر أبى فى لندن .

وبينما اتخذت أحجاره الداخلية من الهضبة نفسها ، ولم يكن ما يدعو إلى العناية بتسويتها ، كان يكسوه كساء من الحجر الجيرى الجيد ، أحسن صقله ؛ بيد أنه انتزع منه ، ولم تبق منه سوى أحجار قليلة عند قاعدته . وما يرى منه الآن هى الأحجار الساندة التى كانت تعتمد عليها أحجار الكساء ، ويغلب على الظن أنه كان يعلوه هريم من حجر الجرانيت .

وقد بنى حول نواة بارزة من الصخر لاتسمح بحساب صحيح لما استخدم فى بنائه من أحجار ، ومع ذلك يقدر مجموع عدد أحجاره بنحو مليونين وثلثمائة ألف حجر ، ومتوسط وزن الحجر الواحد طنان ونصف(١) . ولقد قيل أنه إذا صنع من الأحجار مكعبات طول

(١) إذا علمنا أن أحجار هذا الهرم لم تكن تزن فى المحاجر أقل من سبعة ملايين من الأطنان ، يحتاج نقلها فى الوقت الحاضر إلى سبعة آلاف قطار ، حمولة كل قطار ألف طن ، أدركنا ضخامة الأعمال التى اقتضاها هرم خوفو وحده ومدى ما احتاجت إليه من تنظيم دقيق للعمل والعمال .

كل ضلع منها قدم ثم وضعت جنبا إلى جنب فان طولها يغطى ثلثى محيط الكرة الأرضية . ويقل ارتفاع الأحجار كلما ارتفعت فى البناء ، فارتفاع أحجار المدماك الأول متر ونصف ، وارتفاع أحجار المدماك الثانى متر وربع ، ويتراوح ارتفاع معظم الأحجار بعد ذلك بين تسعين وخمسة وسبعين سنتيمترا ، وارتفاعها بالقرب من القمة نحو خمسة وخمسين سنتيمترا . وما من ريب فى أنه أريد باستخدام الأحجار الضخمة وضخامة الهرم أن تخلد المقبرة الملكية على الزمن وأن تدل على عظمة صاحبها وقداسته بما يتسق وما أصبح له من سلطان واسع عريض وما صار له فى العقائد الدينية من جلال مهيب .

ويقع مدخل الهرم فى الجانب الشمالى منه على ارتفاع ١٧ مترا تقريبا ، وقد أحكم غلقه بأحكام ومهارة كبيرة بعد دفن الملك (١) . ويؤدى المدخل إلى دهليز هابط يمضى فى بناء الهرم نفسه ثم فى الصخر مسافة طويلة إلى أن يفضى إلى غرفة لم يكمل حفرها بما يدل على أنه غض النظر عن أن تكون غرفة الدفن ، مما دعا إلى شق دهليز صاعد فى نواة الهرم قبيل اختراق الدهليز الهابط للصخر . ويمضى الدهليز الصاعد مسافة فى بناء الهرم ثم يستقيم مسافة أخرى غير قصيرة إلى أن يؤدى إلى ما يسمى خطأ بغرفة الملكة . وتقع على محور الهرم وعلى ارتفاع عشرين مترا تقريبا من سطح الأرض ، وسقفها أحدب . على أن من القرائن ما يدل على أنها بدورها تركت قبل أن يتم العمل فيها ، مما يشير إلى تغيير جديد فى مخطط الهرم اقتضى امتداد الدهليز الصاعد فى بناء الهرم وذلك فى شكل فخم عظيم يعد من أعظم مفاخر العمارة المصرية . ويبلغ طول الدهليز ستة وأربعين مترا ونصف ، وارتفاعه ثمانية أمتار ونصف وعرضه أكثر قليلا من مترين (صورة ٥١) ، وجدرانه من حجر جيرى جيد ، يدل صقله ودقة تلاحم

(١) من النصوص ما يذكر أن خوفو عناه أمر غلق الهرم وأنه كان يبحث على الدوام عن مغاليق معبد تحوت ليصنع لهرمه ما يماثلها . A. Erman, Die Literatur der Aegypter, S. 72.

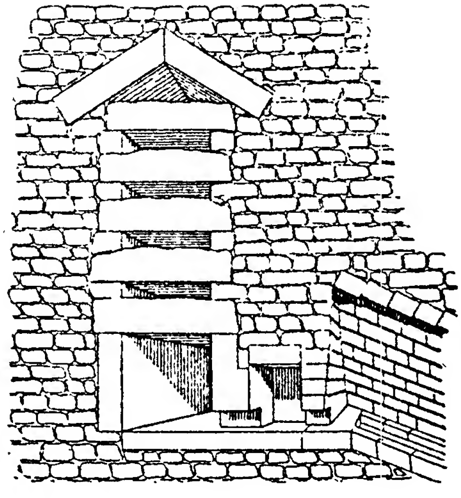
الأحجار على مهارة فى البناء بلغت حد الكمال . ويتوسط الدهليز درج عرضه أكثر قليلا من متر ، يكتنفه طواران عرض كل منهما متر وارتفاعه ستون سنتيمترا . والسقف سامق فى شكل قبو مدرج لايشبهه شيء فى اثره الضخم ، ويتألف من سبعة مداميك ، ببرز كل منها قليلا عما هو دونه إلى أن تتعامد حافتا المدماك السابع مع حافتى الطوارين وتبلغ المسافة بين الجانبين نفس المسافة التى يشغلها الدرج ؛ وعندئذ تغطيها أحجار السقف العالية ؛ وبذلك لايزيد بروز كل مدماك على سابقه عن سبعة سنتيمترات .

وينتهى الدهليز الصاعد بدهليز مستقيم قصير وضيق ، لايلبث أن يفضى إلى ردهة بسقف مرتفع وجدران من حجر الجرانيت ، وفى جانبيها أربعة أخاديد عريضة يظن أن ثلاثة منها أعدت لتعلق فيها المتاريس من حجر الجرانيت يسد بها الطريق إلى غرفة الدفن بعد أن تودع جثة الملك مقرها الأخير ومعها ذخائره النفيسة (١) .

ومن وراء الردهة ما يسمى غرفة الملك وتقع على ارتفاع ٢٨ و٤٢ من المتر فوق سطح الأرض ، وطولها نحو عشرة أمتار ونصف وعرضها خمسة أمتار وربع تقريبا وارتفاعها ٨٢و٥ من المتر . وجدرانها وسقفها من أحجار ضخمة من حجر الجرانيت الوردى ؛ وأحجار السقف تسعة ، ويبلغ طول كل حجر نحو ٦٤و٥ من المتر . ولايزال تابوت الملك بجانب الجدار الغربى ، وهو من قطعة واحدة من حجر الجرانيت ويخلو من أى زخرف . وقد أدرك المصريون ضرورة تخفيف ضغط البناء الثقيل عن غرفة الدفن فجعلوا من فوقها أربع غرف صغيرة ، ارتفاع كل منها متر واحد ، وكل منها فوق الأخرى ، ومن فوقها غرفة خامسة سقفها أحدب من أحجار ضخمة من الحجر الجيرى ، يميل كل زوج

(١) L. Borchardt, Einiges zur dritten Bauperiode der grossen Pyramide bei Giza, S. 14 ff. ; J. Vandier, op. cit., t. II, p. 36.

منها احدهما على الآخر بما يخفف ثقل مائة متر تقريبا من الحجر عن غرفة الدفن (شكل ١٢٨) .



(شكل ١٢٨) غرف تقليل الضغط عن سقف غرفة الدفن

ولا يعتمد إعجاز الهرم وروعته على ضخامته وضخامة أحجاره فحسب ، ومنها ما جلب من أماكن بعيدة ، ورفع إلى مستويات عالية ، وإنما بلغت دقة تسوية قاعدته وبناء كسائه وقاعاته الداخلية ما لم يبلغه بناء آخر . فقد دل فحص بلاط أرض الهرم تحت أحجار الكساء على أنها تستقر على مسطح يكاد يكون تام الأستواء ؛ وإن كان مسطح أرض الهرم كله يميل من الركن الجنوبى الشرقى إلى الركن الشمالى الغربى بما لايزيد على سنتيمتر ونصف ؛ ويرجع ذلك فيما يعتقد إلى هبوب نسيم خفيف من الشمال الغربى أثناء اختبار السطوح المسواة ، التى كان يعتمد عليها فيما يظن فى تسوية السطح بأكمله (١) . ومما حفظ من أحجار الكساء فى الجانب الشمالى من الهرم ما يزن خمسة عشر طنا ، وقد سويت بدقة فائقة وضم بعضها إلى بعض بحيث لايكاد يرى ما بينها من عرانيس ، وهى أدق من أية

(١) C. Clarke, R. Engelbach, op. cit., p. 62.

عرانيس أخرى فى كافة العمارة المصرية بل فى أى مكان آخر فى العالم (١) . وقد ذكر هيرودوت أن الهرم مبنى من حجر مصقول ملصق بعضه ببعض بدقة فائقة (٢) ؛ وذكر عبد اللطيف البغدادى أن الحجر وضع فى الهرم « بهندام ليس فى الامكان أصح منه بحيث لاتجد بينهما مدخل أبرة ولا خلل شعرة ،وبينهما طين كأنه الورقة »٤. ولاحظ فلندرز بترى أن الدقة فى استقامة حوافى ماتبقى من أحجار الكساء تعادل فى الوقت الحاضر دقة الحوافى المستقيمة فى العدسات ذات الطول المماثل ، وأن متوسط اتساع العرنوس ربع ملليمتر(٣).

وكانت سطوح الهرم مستوية وجوانبه مستقيمة ولا يزيد طول جانبه الشرقى عن جانبه الغربى على ٣ر٤ من السنتيمترات ،ولا طول جانبه الجنوبى عن جانبه الشمالى على ٢١ سنتيمترا وذلك بالرغم من وجود نواة من الصخر الطبيعى وسط قاعدة الهرم تعوق أى قياس مباشر (٤) . وتكاد جوانب الهرم تواجه الجهات الأصلية تماما بانحراف طفيف يتبين فيما يلى :

الجانب الشمالى	٢٨" ٢'	جنوب غرب
« الجنوبى	٥٧" ١'	« «
« الغربى	٣٠" ٢'	شمال غرب
« الشرقى	٣٠" ٥'	« «

وبذلك لايزيد أقصى انحراف عن ٣٠" ٥' أى أقل من $\frac{1}{12}$ من الدرجة (٥) . وتكاد الزوايا الأربعة تكون زوايا قائمة تماما وهى على النحو التالى (٦) :

(١) نفس المرجع صفحة ١٠٩

(٢) وهيب كامل : هيرودوت فى مصر ، فقرة ١٢٤

(٣) F. Petrie, The Pyramids and Temples of Gizeh, 1885, p. 13.

(٤) C. Clarke, R. Engelbach, op. cit., p. 65 f.

(٥) نفس المرجع صفحة ٦٨ (٦) نفس المرجع صفحة ٦٦

الزاوية الشمالية الشرقية	٢''	٣'	٩٠°
« الجنوبية الشرقية	٣٣''	٣'	٩٠°
« « الغربية	٣٣''		٩٠°
« الشمالية الغربية	٢''		٩٠°

وبلغ من دقة تسوية جدران ما يسمى غرفة الملكة وسقفها الأحدب ما يخيل للرائى أنه فى حجرة محفورة فى الصخر . ومع ذلك كله يفوق الدهليز العظيم وغرفة الملك غرفة الملكة فخامة ودقة بناء ؛ فقد حقق فيهما البناء كمالا فنيا يثير الأعجاب والتقدير . ويدل هذا كله على أن فن البناء بلغ فى عهد خوفو ذروة التفوق والأتقان مما كان ولا يزال مثار الأعجاب والدهشة لدى السائحين والمؤرخين والفنيين على حد سواء . وهو يدل كذلك على أن الهرم بنى على أسس هندسية عملية وهو لا يزال قائما رغم الزمن ورغم تعريته من كسائه.

وقد كان يعنى باختيار المكان الذى يقام عليه الهرم ، بحيث يخلو من الشقوق والعيوب ، ويكون قريبا من العاصمة والنيل ، ليتسنى إشراف الملك على البناء وليسهل نقل الأحجار إليه . وبعد اختيار المكان الصالح كانت طبقة الرمال والحصى تزال منه ليبنى الهرم على أساس ثابت مكين . ثم كان الصخر يسوى ، ولا يعرف على وجه التحقيق كيف كانت المساحة الشاسعة تسوى بدقة لاتبارى ، غير أنه يظن أن المصريين وقد خبروا منذ زمن بعيد تسوية حقولهم لأمكان ريها ، قد علموا أن سطح الماء الساكن يكون على مستوى واحد دائما فاستفادوا من ذلك فى تسوية بعض أجزاء من المساحة التى يراد إنشاء الهرم عليها (١) ، وذلك بغمرها بالماء وتسوية أرضها على عمق واحد تحت مستوى الماء ، ثم بعد ذلك كان يمكن تسوية بقية

(١) ولا يزال الماء يستخدم فيما يعرف بميزان الماء فى فحص المستويات الأفقية .

المساحة (١) ؛ بيد أنه لم يكن ما يدعو إلى تسويتها جميعا ، وإنما قد يكتفى بتسوية حاشية قاعدة الهرم ، ويترك مرتفع من الصخر فى الوسط يبنى من حوله .

وكان الموقع يمسح بدقة بما يكفل أن تكون قاعدة الهرم أقرب ما يمكن إلى المربع ، وأن تواجه جوانبه الجهات الأصلية . وقد حفظت تماثيل بعض المساحين من الدولة الحديثة تمثلهم راكعين وبين يدى كل منهم لفافة مدورة من الحبال . وكانت وحدة القياس الطولى الذراع الملكى ويساوى نحو إثنين وخمسين سنتيمترا ، ويحتوى على سبع راحات أو ثمانية وعشرين أصبعا . وكانت الحبال التى يقاس بها تصنع من ليف النخيل أو الكتان ، وكل منها يتمدد بالاستعمال ، ومع ذلك فأنه مما يدهش أن الفرق بين أطول وأقصر جانبين من الهرم الكبير لا يزيد كما أسلفنا على ٢١ سنتيمترا فى طول قدره ٢٣٠ مترا تقريبا ، وهو خطأ بسيط خاصة إذا قدرنا صعوبة قياس القطرين لمراجعة مربع القاعدة بسبب النواة من الصخر البارزة فى وسطها . ويظن أنه لتحديد الجهات الأصلية كان يحدد الشمال الحقيقى برصد أحد النجوم فى شمال السماء ثم تنصيف الزاوية الحادثة بين مكان شروقه والمكان الذى رصد منه ومكان غروبه ، وذلك بأداتين كان المصريون يسمونهما « جريدة مراقبة الساعات » و « المرشد » ؛ والأولى قضيب من جريد محزوز فى طرفه السميك ، والأخرى قضيب مستقيم من عاج ، معقوق أحد طرفيه ، وبه ثقب يتدلى منه خيط معلق به ثقل (شاقول) .

وبينما كانت أرض الهرم تسوى وتحدد اتجاهاتها الأصلية كانت طوائف عديدة من العمال تعمل فى قطع الأحجار سواء فى الهضبة ذاتها أو فى محاجر طرة فى الجانب الآخر من النيل او فى محاجر

(١) C. Clarke, R. Engelbach, op. cit., p. 62.

الجرانيت فى أسوان . وكانت طوائف أخرى تعمل فى إعداد الطرق من المحاجر إلى النيل ، ومن النيل إلى مكان الهرم ، بينما كانت جماعات غيرها تنشىء المراسى ، وأخرى تنقل ما تم قطعه من أحجار على زلاقات من خشب فى البر ، وعلى مراكب كبيرة فى الماء (١) . وكان لكل طائفة اسمها ،وقد وجدت أسماء بعض الطوائف مكتوبة على كثير من الأحجار ، ولعل الغرض من ذلك إنما كان تبيان عمل كل طائفة .

وعندما كانت الأحجار تبلغ موقع الهرم كان يتلقاها البناؤون فيسوونها من أسفل ومن الجانبين ، ثم كانوا يضعونها فى دقة وعناية فى أماكنها من البناء ، ومن ثم ينحتون سطوحها العليا . فاذا أتموا رصف أرض الهرم وبناء المدماك الأول كان لابد من جر الأحجار على جسور صاعدة تعتمد على جوانب ما تم بناؤه ، وذلك على مستويات يعلو بعضها بعضا كلما تقدم البناء حتى يبلغ ذروته . وقد وجدت آثار بعض هذه الجسور فى ميدوم وأبو جراب واللشت وأخيرا فى هرم سخم خت فى صقارة . وكان نجاح ذلك كله يقتضى بطبيعة الحال تنظيما دقيقا للعمل ورعاية العمال .

ويبدو مما تهدم من أجزاء بعض الأهرامات أن الهرم كان يبنى من نواة وسطى تتضمن الغرف الداخلية ، تضاف إليها فى جوانبها الأربعة إضافات جانبية تميل بزاوية قدرها ٧٠° ، باطنها من حجر جيرى محلى ووجوهها الظاهرة من حجر جيرى جيد أحسن بناؤه ، على أن وجه الحجر لم يكن يسوى على عكس ما جرى عليه الأمر فى هرم زوسر المدرج وهرم ميدوم وبذلك استغنى البنّاء عن عمل غير مجد فى بناء الهرم . ويقل ارتفاع كل إضافة عن ارتفاع سابقتها

---

(١) أشار هيرودوت إلى ذلك إذ قال أن من المصريين من كان يجر إلى النيل الحجر المستخرج من المحاجر فى صحراء العرب ، وكانت طوائف أخرى تتلقى هذه الأحجار وتنقلها فى المراكب عبر النهر إلى الهضبة الليبية . وهيب كامل ، هيرودوت فى مصر ، فقرة ١٢٤ .

مما كان ينشأ عنه مبنى مدرج (شكل ١٣٧) . ويظن أنه كان يتم بناء الدهاليز والغرف الداخلية فى الهرم قبل بناء المداميك التى تحيط بها ، وأن التابوت والمتاريس كانت تأخذ مكانها قبل أن يتم بناء جدران الأماكن التى كانت توضع فيها . فاذا تم بناء نواة الهرم وما كان يضاف إليها من إضافات مدرجة نقل إلى أعلى الهرم الهريم ، وكان عادة من حجر الجرانيت ، ويبرز من وسط قاعدته ما يشبه القرص ليستقر فى وسط المدماك الأخير ؛ ويستدل من بعض النصوص على أن بعض هذه الهريمات على الأقل كانت تصفح بالذهب . وأخيرا كان الفراغ الذى يعلو الدرجات يبنى بحجر جيرى جيد ليكون جدارا ساندا للكساء الخارجى للهرم . وكان الكساء يبنى أيضا بحجر جيرى جيد ،يعنى البناؤون بتسوية سطحه الظاهر من أعلى إلى أسفل ، إذ كانت أحجار الكساء توضع فى أماكنها بأوجه جافية غير مهذبة حماية لها من أن تتعرض للتلف أثناء العمل (١) . وترى الأضافات المتتالية فى هرم ميدوم والأهرامات الصغيرة بالقرب من هرمى خوفو ومنقرع وفى أهرامات أبو صير .

وكان الحجر الجيرى يسوى بأزاميل من نحاس يطرق عليها بمداق من خشب ؛ وإذا كان الحجر الجيرى قاسيا كان يستعان فى صقله بمصاقل من حجر صلد ؛ أما الأحجار الصلدة فكانت تسوى بسحقها بكرات من الكورتزيت ، وتصقل بمصاقل من حجر الجرانيت أو البازلت أو الكورتزيت ، وربما كان يستعان فى ذلك بمسحوق للصقل ؛ ومهما يكن من أمر فقد كان صقل الجرانيت من أشق الأعمال . ومع ذلك كله لايعرف كيف سوى المصريون المساحات الشاسعة التى تؤلف أوجه الهرم ، وكيف جعلوا هذه الأوجه تتلاقى فى دقة وأحكام دون انحراف أو إعوجاج .

---

(١) يدل على ذلك كثير من أحجار الجرانيت المكسو بها الهرم الثالث .

وقد ذكر هيرودوت أن الهرم الأكبر بنى أولا على هيئة سلالم ، يسميها البعض درجات والبعض الآخر هياكل ، وأن الأحجار الأخرى رفعت بواسطة آلات من ألواح خشب قصيرة ، وأن هذه الآلات كانت بعدد الدرجات أو أنها كانت آلة واحدة يسهل نقلها من درجة إلى أخرى ، وأن الجزء الأعلى من الهرم أكمل أولا ثم أكملت بعد ذلك الأجزاء التالية حتى الأجزاء السفلى القريبة من الأرض (١) . وذكر أيضا أن مائة ألف عامل عملوا باستمرار فى بنائه (٢) ، وأنهم كانوا يستبدلون بغيرهم كل ثلاثة شهور ، وأن الطريق الصاعد بنى فى عشر سنين ، بينما احتاج بناء الهرم إلى عشرين سنة .

ومن الباحثين من ذهب إلى أن الآلة التى ذكرها هيرودوت هى «الهزاز» الذى عثر على نماذج منه بين ودائع أثاث المعابد فى الدولة الحديثة (٣). بيد أنه يعترض على ذلك بأنه لم يعثر على نموذج له من عهد الدولة القديمة ، كما أن ما عثر عليه منها لا يسمح بتصور حجمه الحقيقى وقدرته على حمل أحجار ثقيلة ثم رفعها إلى مستويات عالية . ومنهم من ذهب إلى أن إقامة جسور ينقل عليها الحجر إلى مستويات عالية يقتضى عملا يعادل بناء الهرم ذاته ، ورأى أن المصريين استخدموا آلة كالشادوف تتألف من قضيب من الخشب يتحرك على عمود تسنده دعامات مناسبة ، ويوثق الحجر فى أحد طرفى القضيب وتربط فى الطرف الثانى حبال يشدها رجال حتى يبلغ الحجر المدماك التالى ؛ ويتكرر ذلك من مدماك إلى آخر حتى يبلغ الحجر المستوى الذى يراد إقامته عليه . على أن الأعمال التى تقتضيها الجسور لا يمكن أن تزيد على خمس ما يقتضيه بناء الهرم

(١) وهيب كامل ، هيرودوت فى مصر ، فقرة ١٢٥ .

(٢) Herodotus, II, 124.

(٣) انظر صفحة ٢٢٦-٢٢٧

من عمل ، بل قد تقل عن ذلك كثيرا . علاوة على هذا تقتضى الآلة المذكورة أطوالا كبيرة من الخشب خلافا لما ذكره هيرودوت ، ثم لابد من استخدام عدد كبير منها على قلة الأخشاب الصالحة لهذا الغرض فى مصر ، فضلا عما يقتضيه تشغيلها من جهد ووقت خاصة فى المستويات العالية .

ومع هذا كله ليس هناك ما يشير إلى استخدام شيء فى بناء الهرم غير جسور صاعدة وزلاقات وعتل من خشب . وقد كشف فعلا عن آثار بعض الجسور فى بعض منشآت الدولة القديمة كما سلفت الاشارة إلى ذلك . ولا يخلو من مغزى أن ديودور الصقلى ذكر أن بناء الهرم كان يتم بإقامة تلال من التراب[١] ؛ ويبدو أن المقصود من ذلك هى الجسور التى كانت تنقل عليها الأحجار . وكان العتل يساعد فى إنزال الأحجار من الزلاقات وفى تحريكها إلى الأماكن التى يراد وضعها فيها ، وتدل على ذلك نقر صغيرة فى الأحجار الكبيرة كانت لتستقر فيها أطراف العتل ، كما تدل عليه أيضا نتوءات بارزة فى أحجار الجرانيت فى كساء الهرم الثالث ، وفى بعض أغطية التوابيت لتحريكها منها ، ثم كانت تزال عند تسوية الحجر وصقله[٢] .

وليس فى الإمكان تصور إتمام بناء الجزء الأعلى من الهرم قبل بقية أجزائه ؛ لأن ذلك يعنى أن توضع أحجار الجزء الأعلى من الكساء ثم تدفع من تحتها بقية الأحجار حجرا حجرا من أعلى إلى أسفل ، وهو أمر مستحيل بسبب سمك الأحجار وثقلها . ولعل هيرودوت كان يقصد تسوية سطح الكساء ، الذى كان لابد أن يؤدى من أعلى إلى أسفل ، والذى كان يقتضى مسطحات يعمل

---

(١) وهيب كامل ، ديودور الصقلى فى مصر ، فقرة ٦٣ .

(٢) C. Clarke, R. Engelbach, op. cit., pp. 86, 88, 110, fig. 99.

عليها العمال ليتم العمل بعناية ودقة وفى أمان دون مشقة . وهى ذات الجسور المؤقتة من اللبن حول الهرم أثناء بنائه تعلو بعلوه وبعرض كاف يسمح بوضع أحجار الكساء فى أماكنها ، ثم تزال تدريجا من أعلى إلى أسفل[1] .

ولا يعرف على وجه التحقيق كثيرا من تفاصيل بناء الهرم ؛ ومن الباحثين من ذهب إلى أن الهرم لم يكن يبنى دفعة واحدة حسب تخطيط واحد ، وإنما كان الملك يعمد أول الأمر إلى ابتناء هرم من حجم متواضع ليتم فى حياته ، فاذا امتد به الأجل أضاف إليه إضافات متتالية تزيد من حجمه ، ومن ذلك الهرم الأكبر الذى يظن أنه بنى حسب ثلاث مخططات أعقب كل منها الآخر ، وكان الغرض فى كل مرة أن يكون أضخم مما كان وأن تزداد سعة غرفة الدفن . ويؤكد آخرون أنه إنما كان يبنى منذ البداية بحجمه الكامل وأن ما تشتمل عليه بعض الأهرامات من إضافات مائلة متوازية إنما كانت لتساعد فى متانة البناء وربط أجزائه وأنها كانت تقليدا متوارثا . وبذلك لم يكن ما يدعو إلى تكرار إقامة الجسور على اختلافها مما كان يقتضى جهدا ووقتا كثيرا ، وإن كان ذلك لم يغن عن جسور ثانوية . ومهما يكن من أمر فليس من شك فى أن حجم الهرم إنما يعتمد على عوامل مختلفة منها شخصية الملك ، وما كان ينعم به من قوة وسلطان وثراء ، وما توفر له من إمكانيات فنية وبنائين عظام .

والشكل الهرمى للمقبرة الملكية ، وإن كان نتيجة تطور معمارى يمكن ترسمه ، إلا أنه قد صاحبته عقائد وأفكار ساعدت على تحقيقه أو على الأقل اقترنت به فى أذهان المصريين . لقد كان

---

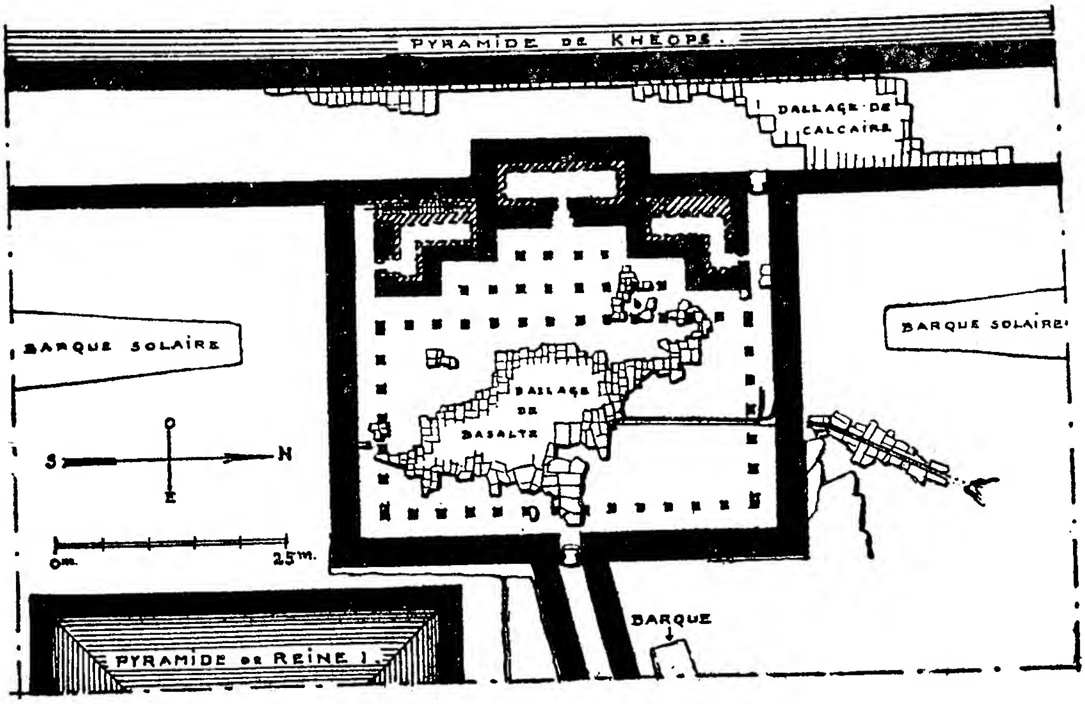
(١) U. Hoelscher, Das Grabdenkmal des Koenigs Chephren, S. 71 ff. ; L. Borchardt, Die Entstehung der Pyramide, Taf. 4.

الهرم يشرف على مدينة الموتى كما كان يشرف على مدينة الأحياء وعلى الوادى إلى مسافات بعيدة ؛ وكان أعلى شىء فى محيطه ، تتلألأ فى ذروته أشعة الشمس . ويبدو أنه اقترن فى تصور المصريين بالحجر المقدس بنبن ، الذى كان يرمز إلى الأكمة الأولى التى استقر عليها الأله الشمس ؛ وهكذا يكون الملك المتوفى قد دفن فى أبرز مكان على الأرض ، وفى الأكمة الأولى ، التى برز عليها الإله الشمس فى وقت أخذت فيه عقيدة الشمس تتغلغل فى الديانة الرسمية . ولا يخلو من مغزى أن كلامن هرمى سنفرو فى دهشور كان يسمى « تجلى سنفرو » . وكان هرم خوفو يسمى « مشرق خوفو » . وقد جاء فى متون الأهرام أن الملك المتوفى يصعد إلى السماء على أشعة الشمس ، وإذ كانت أشعة الشمس كثيرا ما تبدو خلال السحاب فى هيئة مثلث من خيوط من ذهب تتصل بالأرض ، فإنه لا يبعد أن يكون المصريون قد تمثلوا أيضاً جوانب الهرم المائلة أشعة للشمس ترقى بالملك المتوفى إلى السماء (١) .

وكان يحيط بالهرم الأكبر سور عظيم من حجر الجير ، مستقيم الخطوط ، خال من المشكاوات ، أحدب فى أعلاه . وكان للهرم معبد جنازى فى شرقه ، لم يبق منه غير أجزاء من أرضية فخمة من حجر البازلت . وتدل آثاره على أنه كان معبدا مستطيلا ، ويظن أنه كان يتألف من فناء تحيط به الأعمدة ، وبهو مدرج يؤدى إلى مقصورة القربان أو إلى مشكاوات خمسة (شكل ١٢٩) (٢) . وكان يؤدى إليه طريق صاعد وصفه هيرودوت بأنه عمل لا يقل

(١) A. Moret, The Nile and Egyptian Civilisation, p. 175 ; A. Moret, L'influence de décor solaire sur la pyramide, Mélanges Maspero, L'Orient ancien, 1935-8, p. 603 sq. ; L. Speleers, La signification des pyramides, Mém. d el'Inst. fr. d'ar. or., t. 66, p. 603 sq. ; E. Drioton, Les Sphinx et les pyramides de Gizeh.

(٢) J. Ph. Lauer, Le temple funéraire de Khéops à la grande pyramide de Guizeh, Ann. du Serv. des Antiq. ég., 46 (1947), p. 245 sq. ; J. Ph. Lauer, Note complémentaire sur le temple funéraire de Khéops, Ann. du Serv. des Antiq. ég., 49 (1949), p. 111 sq.



(شكل ١٢٩) المعبد الجنازى للهرم الأكبر

كثيرا عن بناء الهرم[1] . وكان من تحت الطريق نفق ، هو أقدم نفق من نوعه ، وكان يصل بين الشمال والجنوب دون الاضطرار إلى الالتفاف من وراء الهرم . أما معبد الوادى فيظن أن أطلاله لاتزال مطمورة تحت بعض بيوت قرية نزلة السمان . وفى الصخر شرقى الهرم وجنوبه خمسة تجاويف عظيمة ، كل منها على شكل مركب ، كانت تغطيها أحجار كبيرة من الحجر الجيرى ، وقد كشف فى أحد التجويفين فى جنوبى الهرم عن مركب كبيرة مفككة من الخشب ، ولم يكشف بعد عما فى التجويف الآخر . وكانت هذه المراكب ليستخدمها الملك فى الآخرة ، وتجمعها بمراكب بداية الأسرات ونماذج المراكب من عهد الدولة الوسطى وما بعدها علاقة وطيدة .

(١) وهيب كامل ، هيرودوت فى مصر ، فقرة ١٢٤

وفى الجنوب الشرقى من الهرم ثلاثة أهرامات صغيرة فى صف واحد ؛ وكان لكل هرم مقصورة فى شرقه فيها باب وهمى (١) . ويحيط بالهرم من الشرق والجنوب والغرب عدد كبير من المصاطب لأفراد الأسرة المالكة وكبار رجال الدولة فى صفوف منتظمة تتوازى مع جوانب الهرم ، وكلها تزيد فى عظمة الهرم وأهميته فى مكانه (٢) . ومن هؤلاء الأفراد أميرات وأمراء ووزراء وقضاة وقواد وكهنة ومهندسون وفنانون ورؤساء كتبة ، يحيطون بمليكهم فى مماته كما كانوا يحيطون به فى حياته ليكونوا منه فى العالم الثانى كما كانوا فى عالم الحياة الدنيا .

وقد تم بناء الهرم الأكبر وما يتصل به من معابد وأهرام ومقابر فى عهد خوفو ؛ وهى وما أنشأه من معابد فى أنحاء البلاد علم ناهض على قوة شخصيته وما أوتى من قوة وسلطان ، وبرهان قائم على ما بلغته مصر فى مدة حكمه من تقدم وما استقام لها من حضارة وثراء ، وما حظيت به من حكم موطد حازم ، وما كان لها من موظفين أكفاء ، ومهندسين ممتازين ، وعمال مهرة مدربين ، تفانوا جميعا فى خدمة ملكيهم عن إيمان راسخ وعقيدة قوية فى ألوهيته وقداسته .

وقد تردد فى العصور المتأخرة أن خوفو ساق المصريين إلى البؤس ، وأنه أغلق المعابد ، ومنع المصريين من أن يقدموا الأضاحى ، وجعلهم يعملون من أجله ؛ وأن خفرع انتهج نهج خوفو ، وأن المصريين عانوا كثيرا فى عهديهما ، وأنهم لا يحبون ذكر إسميهما لكرههم لهما ؛ وأن منقرع لم يرض عن أعمال خوفو ، ففتح المعابد ، وترك الناس ، وقد طحنهم البؤس ، يعودون إلى أعمالهم ، ويقدمون

(١) ينسب ثالث الأهرامات من الشمال إلى الملكة حنوتسن ؛ وفى الأسرة الحادية والعشرين ظن أنها الآلهة ايزيس وأطلق عليها « إيزيس سيدة الأهرامات » .

(٢) انظر صفحة ٣٦٤

أضاحيهم (١) . وما من ريب فى أن هذه الرواية إنما كانت وليدة عصور الضعف ، ووهن العقيدة فى قداسة الملوك ؛ فقد هال هرما خوفو وخفرع تصور الناس آنذاك . فخالوا أنهما نتيجة عسف وظلم ، ولم يدروا أن شعبا مقهورا على أمره . كارها لحكامه . لايستطيع أن يقيم عملا جليلا وخاصة بهذا القدر من الضخامة والجلال والكمال الفنى . ويكفى لدحض ما نسب إلى كل من خوفو وخفرع ما وجد من آثارهما فى بعض معابد الآلهة (٢) . وكما أن الهرم الأكبر كان مثار أوهام وادعاءات فى عصور الضعف من تاريخ مصر ، فلا يزال مبعث أضاليل وأوهام من نوع آخر عند كثير من الناس فى العصر الحديث . تأبى أخيلتهم إلا أن ترى أنه بنى ليخلد بمقاييسه وزواياه وأركانه وأجزائه أسرارا فى الفلك والرياضة والدين ، ويسجل أهم أحداث الماضى والحاضر والمستقبل .

ووجه الحق فى ذلك هو أن ملك مصر كان يعتبر إلها على قدم المساواة والآلهة الأخرى ؛ وأنه يمثلهم على سطح الأرض ؛ وأنه فى مماته يحكم الآلهة والبشر ؛ وأن جسده مقدس ؛ وكان المصريون شديدى الأيمان بقداسته ، وانه روح الدولة وقوامها . وكان لخوفو وخفرع فوق ذلك من قوة الشخصية وحسن الأدارة ما رفع من شأنهما لدى الشعب وزاد فى تقديسهما . وكانت خزائن الدولة مليئة مما كان يسمح بصرف الكساء والطعام على أعداد جمة من الفنانين والعمال فى وقت ساد فيه الأمن والسلام فى البلاد . وقد توفر آنذاك من البنائين والفنانين والعمال المدربين عدد وافر اكتسبوا خبرة ممتازة فيما أنشأوا من قبل من منشآت . وكان النيل يغمر الحقول ثلاثة شهور طوال كل عام ، ولم يكن للفلاحين والعمال خلالها من

---

(١) وهيب كامل : هيرودوت فى مصر ، فقرات ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ؛ وهيب كامل ، ديودور الصقلى فى مصر ، فقرة ٦٤ و W.G. Waddel, Manetho, pp. 46, 48.

(٢) من ذلك تمثال خوفو من العاج الذى عثر عليه فى معبد أبيدوس .

عمل يذكر . هذه العوامل مجتمعة ساعدت خوفو وخفرع فى أن ينشئا هرميهما ، وقد تفانى العمال والفنانون عن عقيدة وإيمان فى بناء كل منهما باعتباره عملا دينيا وسياسيا معا ، فيه ما يحفظ على الدولة نظامها وقوامها .

بيد أنه لايخلو من مغزى أن مقابر أفراد الأسرة المالكة وعظماء رجال الدولة فى عهد خوفو خلت من الأبواب الوهمية والنقوش والتماثيل إلا من لوحة القربان [١] ، وأن خفرع سمح بها للخاصة من أفراد البيت المالك ، ولم يسمح لغيرهم من أفراد الأسرة المالكة إلا بما يعرف بالرءوس البديلة أو الاحتياطية ، على أن يقيموها تحت سطح الأرض فى مدخل غرفة الدفن ، وأنه فى عهد منقرع أتيح لكثير من الأفراد أن ينقشوا جدران مقابرهم بالمناظر وأن يقيموا فيها الأبواب الوهمية والتماثيل . ومن ذلك يبدو أن خوفو لابد أن حرم على الأفراد إطلاقا إقامة تماثيل لهم فى مقابرهم حتى لاتؤدى لها الطقوس التى كانت تؤدى لتماثيل الآلهة والملوك ، والتى كانوا قد بدأوا يؤدونها لتماثيلهم فى عهد سنفرو على الأقل ، ليصون للآلهة قداستها ، ويحول دون ابتذال شعائرها وطقوسها ، وليمنع محاكاة الأفراد للملك فيما اتخذ من عادات وتقاليد كأله ، حتى يظل الفرق بينهم وبينه كبيرا [٢] .

وقد وقف خفرع من ذلك موقفا وسطا ، فأجاز الأبواب الوهمية والنقوش والتماثيل لكبار أفراد الأسرة المالكة واكتفى بأن يسمح لمن لايمتون إليه بصلة القرابة الوثيقة بما يعرف بالرءوس البديلة أو الاحتياطية ، على ألا يقيموها بحيث يمكن أداء الطقوس لها ، وحرمها على غيرهم . ثم جاء منقرع فأباحها لمن يستطيع توفيرها فى

---

(١) انظر صفحة ٣٦٤

(٢) M.A. Shoukry, Die Privatgrabstatue im Alten Reich, S. 41 f. ، محمد أنور شكرى ، الفن المصرى القديم ، صفحة ٩٦ وما بعدها .

مقبرته . ويبدو أن الأجيال المتأخرة أساءت فهم ذلك وانحرفت به عن حقيقته ، وساعد على ذلك ضخامة هرمى خوفو وخفرع ، فصورت عصور الضعف السياسى والفنى أنهما لايتأتيان بغير عسف وظلم . ومن هذا القبيل أيضا ما وصف به بلينى الأهرام من أنها عرض أحمق للثراء الملكى (١) ، إذ كانت تنقصه العقيدة التى كان يدين بها المصريون ، وفاته العلم بأحوالهم وظروفهم ، وما يمثله الهرم الأكبر من دقة تخطيط ، وإحكام بناء ، ومهارة فائقة ، وعمل دقيق منظم .

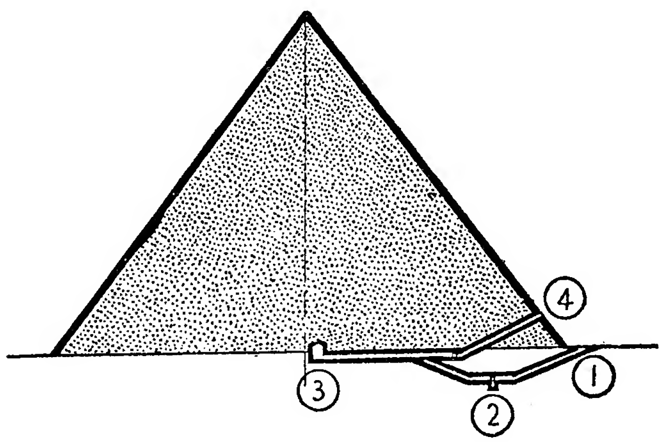
ومن قبيل الافتراء على خوفو أيضا ما قيل لهيرودوت من أن خوفو بلغ من سوء الخلق أقصى حد ، إذ أنه بعد أن نفدت ذخائره واحتاج للمال وضع ابنته فى ماخور لتحصل له على قدر من المال فحصلت له عليه ، بيد أنها رغبت فى ذات الوقت أن يكون لها أثر خاص بها ، فكانت تطلب من كل رجل يزورها أن يهدى إليها حجرا ، وأنها شيدت من هذه الأحجار الهرم الذى يقع وسط الأهرامات الثلاثة بجانب الهرم الأكبر (٢) . وذكر هيرودوت كذلك عن منقرع ان وحيا جاءه من بوطو بأنه لن يعيش غير ست سنوات وأنه سيموت فى السنة السابعة ، فغضب كثيرا وأرسل إلى الوحى يعتب على الأله بأن أباه وعمه عاشا زمنا طويلا مع أنهما أغلقا المعابد ولم يذكرا الآلهة وأنه وهو التقى يوشك أن يموت سريعا . فأجاب الوحى بأن حياته اختصرت لأنه قضى على مصر أن تشقى مدة مائة وخمسين عاما ، وقد أدرك سلفاه ذلك ولم يدركه هو . فلما عرف أن نهايته قد تقررت ، أخذ يشرب ويمجن بالنهار والليل ، ويقصد مسارح اللهو حيثما وجدت ليجعل من السنوات الست إثنتى عشرة سنة ، بما يثبت للوحى كذبه (٢) .

(١) Pliny, Natural History, Book XXXVI, Chap. XII.

(٢) وهيب كامل ، هيرودوت فى مصر ، فقرة ١٢٦ (٣) نفس المرجع ، فقرة ١٣٣

هرم خفرع

وهرم الجيزة الثانى (شكل ١٣٠) أصغر قليلا من الهرم الأكبر ، إذ كان ارتفاعه فى الأصل ١٤٣٫٥ من المتر وطول كل جانب من قاعدته نحو ٢١٥ مترا ؛ وقد بنى فوق جزء من الهضبة يعلو أرض الهرم الأكبر ، ولذلك يبدو أعلى منه ارتفاعا(١) . وكان الجزء الذى أختير ليبنى عليه مرتفعا كثيرا فى الشمال والغرب ومنخفضا فى الجنوب فسوى بازالة كتل كبيرة من الحجر من الجزء المرتفع أفادت فى تعلية المستوى المنخفض وفى بناء نواة الهرم . ولا يزال



(شكل ١٣٠) هرم خفرع

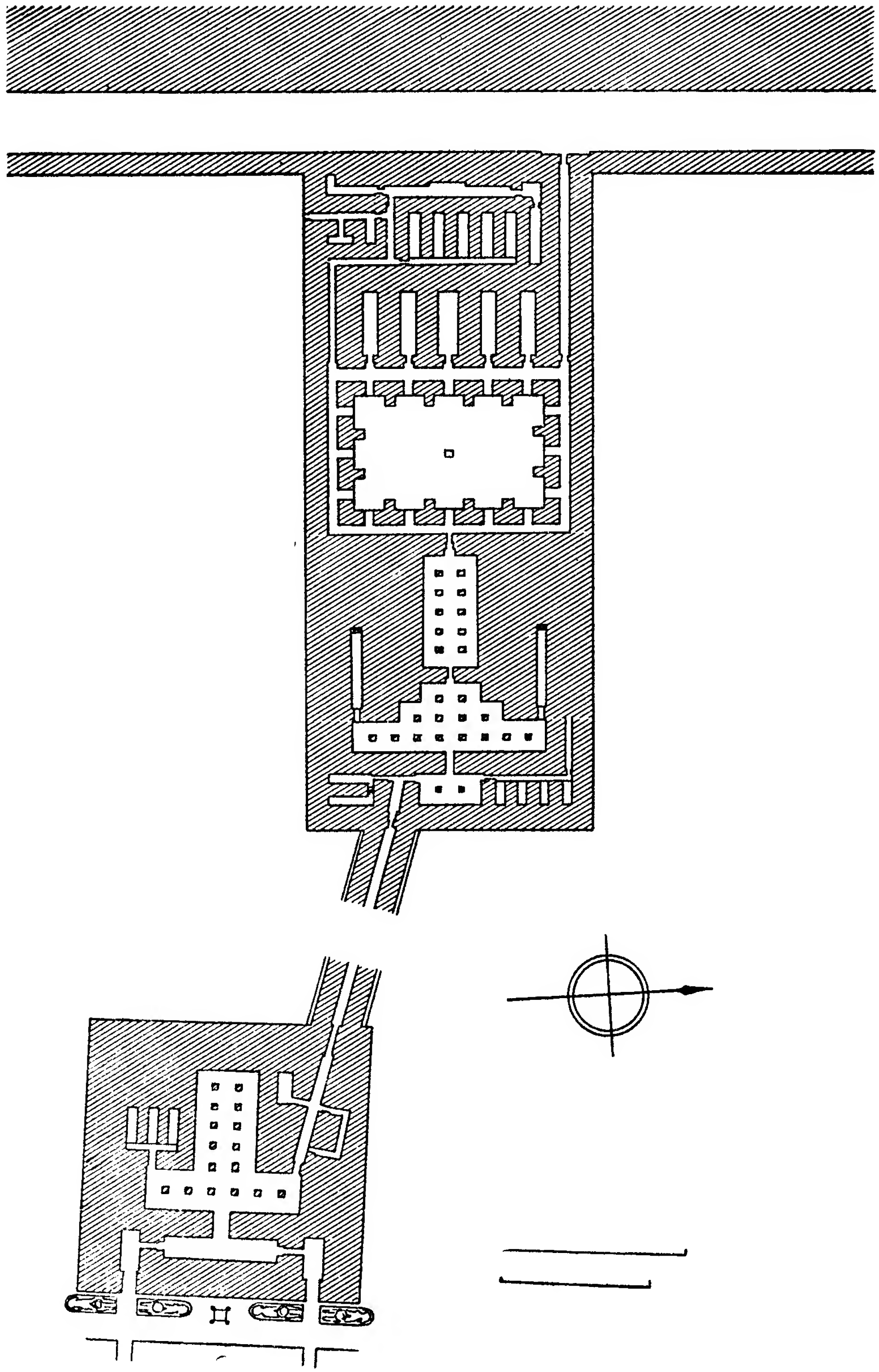
الهرم يحتفظ بالقرب من ذروته بجزء من كسائه من الحجر الجيرى الجيد ؛ وكان يكسو أسفله مدماك على الأقل من حجر الجرانيت ؛ ويظن أن الهريم ، الذى كان يعلوه ، كان من الجرانيت أيضا . وله مدخلان فى الشمال ، أحدهما فى أرض الفناء يؤدى إلى أحدور فدهليز ثم إلى غرفة دفن وكلها محفورة فى الصخر ، والثانى فى جانب الهرم على ارتفاع خمسة عشر مترا من سطح الأرض ، ويؤدى إلى دهليز هابط ،سقفه وجدرانه من حجر الجرانيت ، وبذلك ازداد

(١) U. Hoelscher, Das Grabdenkkcal des Koenigs Chephren, S. 30 ff.; 59 ff.

استخدام الجرانيت فى بناء الهرم . ولا يلبث الدهليز أن يستقيم إلى أن ينتهى إلى غرفة دفن جدرانها محفورة فى الصخر ومكسوة بحجر جيرى وسقفها أحدب فى بناء الهرم . وفى أرض غرفة الدفن بالقرب من الجدار الغربى خفض به تابوت جميل من حجر الجرانيت المصقول . وغرفة الدفن هذه لاحقة على غرفة الدفن الأولى ويصل بينهما أحدور . وكان فى جنوب الهرم هرم صغير .

وفى شرق الهرم المعبد الجنازى ، ويشغل مساحة كبيرة تزيد كثيرا على مساحة معبد هرم خوفو ، وتبلغ ثلاثة أمثال مساحة معبد الوادى ، ويبدو أنه كان أفخم منه كثيرا (شكل ١٣١) . وقد استخدمت فى بنائه أحجار جيرية محلية ضخمة تكسوها أحجار عظيمة من الجرانيت أو الحجر الجيرى الجيد ، ومن جدرانه الداخلية ما كان من جرانيت أو مرمر مصرى ، وكانت أرضه من الجرانيت والمرمر المصرى كذلك (١) . ويقع مدخله إلى الجنوب من محوره الرئيسى ويؤدى إلى دهليز بعرض المعبد ، فى جنوبه قاعتان من حجر الجرانيت وفى شماله أربع قاعات جدرانها وأرضها من المرمر المصرى . وتتوسط الدهليز ردهة ذات عمودين ، يخرج منها دهليز ضيق على محور المعبد يفضى إلى بهو ذى أعمدة من حجر الجرانيت ، عريض ومدرج فى جزئه الأمامى ، ضيق فى جزئه الخلفى ، وفى طرفى جزئه الأمامى سردابان عميقان . ويؤدى بهو الأعمدة إلى فناء واسع بعرض المعبد محوره الطويل من الشمال إلى الجنوب ، ويحيط به

(١) U. Hoelscher, op. cit. ; H. Ricke, Bemerkungen zur aegyptischen Baukunst des Alten Reiches II, S. 47 ff. من أحجاره حجران ، طول أحدهما ١٣٫٤٠ من المتر وطول الآخر ١٢٫١٠ من المتر وحجم الأول حوالى ٧٢ متراً مكعباً ، ويزن ١٨٠ طناً . ومن الأحجار ما تبلغ أبعاده ٦٫٢٠ × ٦٫٨٠ × ٤ أمتار وبذلك يبلغ حجمه ١٧٠ متراً مكعباً ، وقد كان يزن ٤٢٥ طنا على الأقل أى بحوزنة مسلة حاتشبسوت (أى حمولة ٣٠ عربة من عربات السكة الحديد حمولة كل منها ١٥ طناً) . U. Hoelscher, op. cit., S. 52 .



(شكل ١٣١) معبدا هرم خفرع

دهليز يؤدى إليه ستة عشر مدخلا ، بينها تماثيل واقفة أو جالسة للملك ، وكل منها فى مشكاة فيما يظن . وتلى الفناء خمس مشكاوات عميقة فى صف واحد ، كان فى كل منها تمثال للملك ، وربما كان يصاحب كل تمثال رمز دينى مختلف . وهنا ينتهى القسم الأول من المعبد ويعرف بالمعبد العام .

ويؤدى إلى القسم الثانى ، وهو المعبد الخاص ، مدخل ضيق فى أقصى جنوب الدهليز الذى تشرف عليه المشكاوات الخمسة ، ويفضى بدوره إلى دهليز طويل يمتد من الشرق إلى الغرب ثم من الجنوب إلى الشمال حيث تشرف عليه خمسة مخازن كانت تحفظ فيها أدوات الطقوس الجنازية . ويخرج منه دهليز آخر يؤدى إلى قدس الأقداس فى نهاية المعبد ، وكانت فى جداره الغربى ، أى أقرب ما يكون للهرم مشكاة عريضة تقع على محور المعبد والهرم ، ويظن أنه كان فيها باب وهمى ومن أمامه مائدة قربان (١) . وكان سقف المعبد على مستويات مختلفة ، بحيث كان سقف قدس الأقداس أوطأ السقوف جميعها . وفى شمال المعبد وجنوبه خمس مراكب كبيرة محفورة فى الصخر ، كانت تضم بغير شك مراكب من الخشب .

وكان يؤدى إلى المعبد الجنازى طريق صاعد يبلغ طوله نحو ٥٠٠ متر ، وهو يتجه من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى لوقوعه بين وهدين ، وكان مرصوفا ، وكان جداراه من حجر جيرى جيد ، مستقيم فى الداخل ومائل فى الخارج ، ولا يزال جزء صغير منهما قائما فى بدايته .

---

(١) يرى ريكى أنه يجب ألا يفصل الباب الوهمى عن المقبرة فاصل ؛ على أنه يلاحظ أن الباب الوهمى يرجع فى أصله إلى المشكاوات فى جدران المصاطب ، فإذا صح أن سور الهرم المدرج يمثل الجدار الخارجى للمصاطب الملكية فى صقارة ، فيكون إمحوتب فيما يبدو أول من فصل الباب الوهمى فى صورة مشكاة عن المقبرة . ومن جهة أخرى إذا كانت نصب أبيدوس تمثل أبوابا متوسطة فى أعلاها ، فيكون إمحوتب وغيره قد فصل بين الباب فى شكل نصب وبين المقبرة فى هرم زوسر وهرم ميدوم والهرم المنحنى فى دهشور .

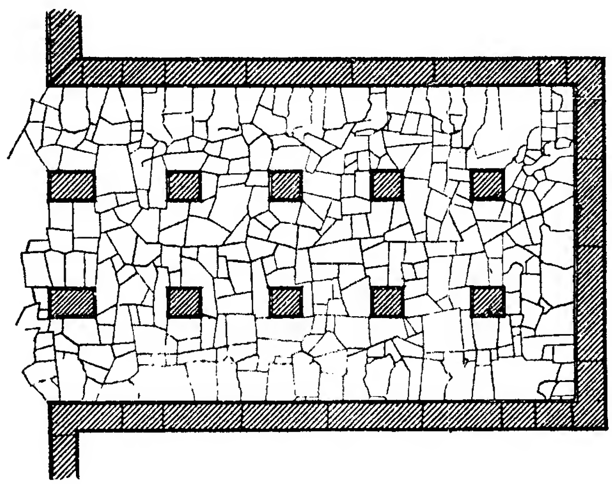
ومعبد الوادى بناء فخم ، جدرانه الخارجية من أحجار جيرية محلية ضخمة ، تكسوها من الخارج والداخل أحجار كبيرة من حجر الجرانيت ، وجدرانه الداخلية من حجر الجرانيت أيضا (١) ، وكان سقفه كذلك ؛ وتميل سطوح جدرانه الخارجية قليلا إلى الداخل . وكانت تتقدمه شرفة ، يؤدى اليها أحدوران بينهما حوض ماء . وكان أمام وسط واجهته ناووس من حجر به تمثال ، يظن أنه أدى من أمامه طقس « اهداء البيت لسيده » (صورة ٥٢) . وللمعبد مدخلان ضخمان فى طرفى واجهته بما يوحى بأن الغرض من بعدهما عن محور المعبد صيانة ما يؤدى فيه من مناسك عن الأنظار ، وكان يكتنف كل مدخل تمثالان لأبو الهول . ويؤدى المدخلان إلى صدفتين سامقتين ، فردهة مستعرضة ، ثم بهو أعمدة مدخله على محور المعبد . والبهو عريض فى مقدمته ، ممتد فى جزئه الخلفى ، ويشتمل على ستة عشر عمودا ، كل عمود من كتلة واحدة ضخمة من حجر الجرانيت ، وارتفاعه أربعة أمثال عرضه ، وليست له قاعدة . وتعتمد على الأعمدة مباشرة أعتاب ضخمة من حجر الجرانيت ، تصل بين سطوحها العليا فوق منتصف الأعمدة قطع من نحاس على شكل ذيل الحمام . وتتسق ضخامة الأعمدة أحسن ما يكون وضخامة أحجار الجدران .

وفى الجنوب الغربى من بهو الأعمدة دهليز صغير يطل عليه طابقان ، فى كل طابق ثلاث قاعات عميقة ، جدرانها فى الطابق الأسفل من حجر الجرانيت وفى الطابق العلوى من المرمر المصرى . وفى الشمال الغربى دهليز صاعد على يمينه أحدور يصعد إلى سطح المعبد ، وعلى يساره قاعة ، جدرانها من الجرانيت والمرمر المصرى .

---

(١) من أحجار الجرانيت فى الواجهة ما تبلغ أبعاده ٩,٣×١,٧×٢,١٥ من المتر ؛ ومنها كذلك حجر يبلغ طوله ٥,٤٥ من المتر ويزن نحو ٤٢ طناً ؛ وبذلك لا يمكن أن تحمله سوى ثلاث عربات من عربات السكة الحديد حمولة كل منها ١٥ طناً . انظر U. Hoelscher, op. cit., p. 40.

وأرض المعبد مرصوفة ببلاط غير منتظم من المرمر المصرى ركب معا بمهارة كبيرة (شكل ١٣٢) . وكان سقف الجزء الأمامى من المعبد أعلى السقوف ، وسقف الجزء الأمامى من البهو أعلى من سقف جزئه الخلفى بما سمح بنوافذ صغيرة فى أعلى الجدار الخلفى فى الجزء العريض من البهو ، وبذلك كان سقف المعبد يهبط تدريجا من الأمام إلى الخلف .



(شكل ١٣٢) من أرضية معبد الوادى لهرم خفرع

ويلاحظ أن أحجار الجرانيت الضخمة فى الجدران غير مستطيلة ، وجوانبها مائلة ، ومع ذلك لقد أحكم التحامها معا . وكثيرا ماتختلف ارتفاعات أحجار المدماك الواحد ، ويبدو أن سبب ذلك اختلاف أشكال الأحجار قبل نحتها والرغبة فى تقليل ما يمكن الاستغناء عنه من كل منها ، خاصة وأنه كان يؤتى بها من جلاميد الصخر ولم تكن تقتطع من محجر حسب مقاييس معلومة على عكس ما كان عليه الأمر فى الأحجار الرخوة كالحجر الجيرى والحجر الرملى .

وتخلو جميع سطوح الجدران والأعمدة من أى نقش أو زخرف ، فيما عدا ألقاب الملك واسمه على جانبى المدخلين ، بما يبرز ضخامة البناء . وقد أجيد صقل السطوح الظاهرة من حجر الجرانيت والمرمر المصرى حتى لتبدو وكأنها مرايا أو سطوح من زجاج ،

بما يحول دون الظن بأنه كان فى النية نقشها . وكانت تحف بجدران البهو ثلاثة وعشرون تمثالا للملك من أحجار جميلة من الديوريت المرقط والمرمر المصرى ذى اللون الأصفر والشست الأخضر القاتم . وكان كل منها على مسافة من غيره ، ولا تزال أماكنها واضحة للعيان . وكانت ملاسة الجدران من خلفها مما يزيد فى إبرازها وقوة تأثيرها . وكان ينحدر من المنافذ العالية ضوء قليل يتلألأ على السطوح المصقولة للجدران والأعمدة ، ثم ينعكس على التماثيل ذات الألوان المختلفة فتكون للمعبد روعة وجلال (صورة ٥٣) .

وعلى ذلك كان لهذا المعبد بحسن تخطيطه ، وقوة خطوطه المستقيمة ، واتساق نسبه ، وضخامة أحجاره ، وجودة أنواعها ، واختلاف ألوانها ، ودقة صقلها ، وقلة الضوء فيه ، وتلاعب ما يتسرب منه على السطوح الناعمة المصقولة أروع الأثر فى النفس ، مما يدل على إحساس فنى مرهف ، وحسن ذوق ، وشعور دقيق بالألوان ، فضلا عما يدل عليه من مهارة ممتازة فى البناء . وقد كان بهذا كله قمينا بأن يكفل لمهندسه الخلود لو حفظ لنا اسمه ، على أنه خلد بعمله عهده وعبقرية المصريين فى فن البناء .

يدل هذا كله على أنه يتجلى فى مبانى خوفو وخفرع طراز معمارى يتميز بقوته وصرامته وما يوحى به من جلال وعظمة ووقار ؛ وقد بلغت فيه استقامة الخطوط ، وسعة المسطحات ، وبساطة البناء ، وعطله من أى زخرف (١) ، وضخامة ما يتركه من أثر فى النفس

(١) لا يعنى هذا أن خوفو وخفرع جنحا إلى عدم تحلية الجدران إطلاقاً ببعض النقوش والصور ، وهو أمر غير معقول ، ينفيه نقش ألقاب خفرع واسمه على مدخل معبد الوادى ، وما عثر عليه من كسر قليلة منقوشة فى معبده الجنازى ، كما ينفيه كذلك ما وجد من نقوش لخوفو وخفرع فى تل بسطة والاشت ولبعض أفراد الأسرة المالكة وعظماء رجال الدولة فى مقابرهم فى الجيزة . بيد أنه لا ينكر من جهة أخرى أنه لو كانت جدران معابد خوفو وخفرع بالقرب من هرميهما محلاة بصور ونقوش كثيرة لبقى منها قطع عديدة ولو صغيرة كما بقى لسنفرو فى معبد الوادى فى دهشور . وصقل الجدران والأعمدة من أحجار الجرانيت والمرمر فى معبد الوادى لخفرع أقوى شاهد على عطلها من كل زخرف .

أقصى ما بلغته فى أى طراز آخر فى أى زمان أو مكان . فخطوط الهرم مستقيمة حيثما تكون ؛ وهى فى القاعدة تتحد مع الخطوط الأفقية للهضبة ، وفى الجوانب تتحد مع الخطوط المائلة لسفح الهضبة ، وتمتد مصعدة نحو السماء ؛ ومسطحاته شاسعة ، يتوه فيها النظر ، وتتفق وأبعاد الهضبة العظيمة التى يقوم عليها . وتزيد فى إبراز الهرم فى مكانه مصاطب أفراد الأسرة المالكة ورجال الدولة ، صفت من حوله فى صفوف مستقيمة ، توازى خطوط قاعدة الهرم ، وتفصلها شوارع مستقيمة ، تتوازى وتتعامد معها . وليس من شك فى أنه طراز محكم مقصود لذاته ، بدليل اختلافه اختلافا واضحا عن طراز البناء فى عهد زوسر ، فضلا عن أنه يتسق أحسن اتساق وضخامة الأحجار التى استخدمها ، بما يدل على أن البناء فى عهدى خوفو وخفرع جنح عن تقليد المبانى باللبن وأعواد النبات ، وأنه عرف أن للحجر خصائصه ، وأن أثره يبلغ أقصى ما يكون باستخدام الأحجار الضخمة وحسن صقلها ، وأنه لاينبغى تحليته بزخرف يثقل عليه إذا أريد أن يكون له أثره الكامل . وقد سبقته مقدمات فى عهد سنفرو ، ولكنها لم تبلغ من القوة وضخامة الأثر وشدة التركيز بمثل ما بلغته فى عهد هذين الملكين .

أبو الهول العظيم

ويقترن بأهرامات الجيزة تمثال أبو الهول العظيم ، ذلك المارد الرابض على حافة الصحراء ؛ وقد كان فى الأصل صخرة تخلفت فى المحجر الذى اقتطع منه خوفو أحجار نواة هرمه ، فنحتها مثال مبدع فى هيئة أسد رابض طوله ٧٥ مترا برأس ملك بملامح وجه خفرع فكان أبو الهول العظيم (صورة ٥٤) . وقد تلفت بعض أجزاء من الوجه ، وامحت الألوان أو كادت ، ومع ذلك لايزال فى ملامحه كبرياء وعظمة ، واطمئنان وهدوء ، وفى نظرته استعلاء

وغموض . وهو يرنو بناظريه عبر الوادى الخصيب نحو الشرق البعيد ، حيث تشرق الشمس كل صباح ، ويحرس من ورائه جبانة الجيزة العظيمة .

ويرجع تمثيل الملك فى صورة أسد إلى عصور ما قبل التاريخ ، عندما كان الزعيم يمثل فى صورة حيوان ، وخاصة فى صورة ثور وحشى أو أسد لقوتهما وشدة بطشهما . ويبدو أن الحركة الفكرية ، التى أدت فى مطلع العصر التاريخى إلى تمثيل الآلهة بجسم رجل أو امرأة ورأس حيوان ، كان لها أثرها أيضا فى تمثيل الملك بجسم أسد ورأس انسان . وقد ساعد غطاء الرأس على التوفيق بين طبيعتى الإنسان والحيوان ، حتى ليقع فى وهم الناظر أنه أمام كائن طبيعى ، يمكن أن تدب فيه الحياة .

على أن أصل أبو الهول العظيم غاب عن الأفهام ، وهال بحجمه كل من رآه ، وراعت سماته الأنظار والقلوب ، فوقع فى الخيال أن له بالأله الشمس صلة ، وأنه حرماخس ، شمس المشرق ، وخبرى ، شمس الصباح ، وأتوم ، شمس المغيب ؛ بل هو خبرى رع أتوم ، أى الشمس فى أوقاتها المختلفة ، فى الصباح والظهيرة والأصيل . ولعله يرجع إلى ذلك أن أخناتون لم يصبه بسوء وهو الذى محا صور الآلهة ، وأتلف تماثيلها من أجل معبوده آتن . وراح الملوك يعبدونه ويقربون له ، وذاع اسمه فهرع الناس يحجون إليه أفرادا وجماعات ، يدعونه ويبتهلون إليه ، ويقيمون فى حرمه النصب ، ينقشون عليها صورته ومن ورائها فى بعض الأحيان هرمان ومن دونها صورهم ، ويقدمون له التقدمات حتى نهاية الوثنية فى القرن الرابع بعد الميلاد .

وإذا كان أبو الهول فى خفض من الهضبة فكثيرا ما كانت تغمره الرمال السافية ؛ ومن ذلك ما يسجله نصب كبير من حجر

الجرانيت (١) ، يقوم من أمامه بين مخلبيه ، من أن تحوتمس الرابع وهو أمير كان يصيد الحيوان فى صحراء الجيزة ، وأنه فى ظهيرة يوم حار جلس يستريح فى ظل أبو الهول ، فأخذته سنة من نوم ، رأى فيها أبو الهول يحدثه بذات فمه ويعده بالملك وتاجى مصر ويطلب إليه أن يزيل عنه الرمال التى أضنت أعضاءه . واستيقظ الأمير ووعى ماقاله له أبو الهول . على أن الجزء الأسفل من النصب تالف وبذلك ضاع مايقرب من نصف النص . بيد أنه مامن ريب فى أن تحوتمس أزال عنه الرمال حتى استطاع أن يقيم هذا النصب فى مكانه .

وقد مضى على أبو الهول أكثر من ستة وأربعين قرنا وهو شامخ برأسه ، تمضى من دونه مواكب الزمن وهو شاخص ساكن كأن شيئا من أحداث الزمن ووقائع الأيام لايعنيه . ولا يزال الزوار من كل حدب يجتلون فيه معانى القوة والجلال ، ويستلهمونه أحاديث الزمن . ويستمعون فيه إلى أصداء الماضى وهمساته (٢) .

هرم الجيزة الثالث

هو أصغر كثيرا من سابقيه ، إذ يشغل مساحة أقل من ربع مساحة قاعدة الهرم الأكبر ، وكان ارتفاعه حوالى ٦٧ مترا (٣) ،

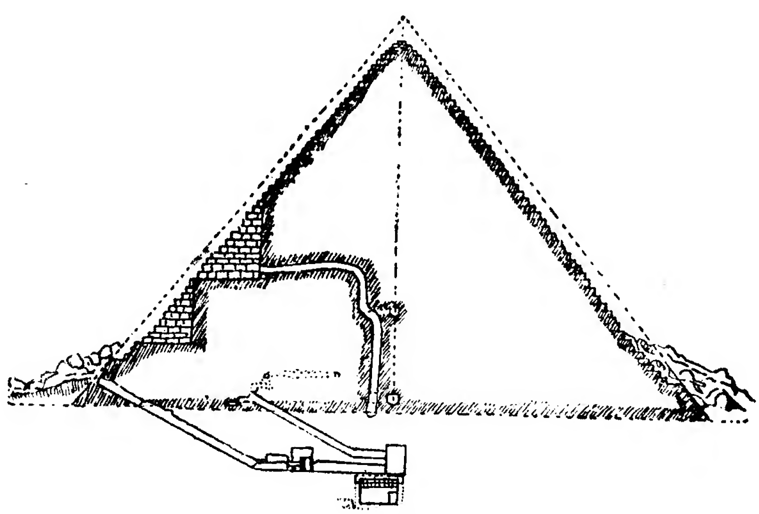
---

(١) أصل هذا النصب عتب من معبد الوادى للملك خفرع J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, II, No. 810 ff.

(٢) سئل عبد اللطيف البغدادى عن أعجب ما رأى فقال : تناسب وجه أبى الهول ، فإن أعضاء وجهه كالأنف والعين والأذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة ، فإن أنف الطفل مثلا مناسب له ، وهو حسن به حتى لو كان ذلك الأنف لرجل كان مشوهاً به . كذلك لو كان أنف الرجل للصبى لتشوهت صورته ، وعلى هذا سائر الأعضاء . فكل عضو ينبغى أن يكون على مقدار وهيئة بالقياس إلى تلك الصورة وعلى نسبتها ، فإن لم توجد المناسبة تشوهت الصورة . والعجب من مصوره كيف قدر أن يحفظ نظام التناسب فى الأعضاء مع عظمها وأنه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه وينقله .

(٣) ارتفاعه الآن حوالى ٦٢ متراً .

أى أقل من نصف ارتفاع كل من هرمى خوفو وخفرع ، ولا يزيد حجمه على عشر حجم هرم خوفو (شكل ١٣٣) (١) . وهو بهذا كله أقرب إلى التصور الأنسانى من زميليه ، مما كان سببا فى تصور صاحبه فى العصور المتأخرة ملكا عادلا . ويكسو ما يقرب من ثلثه الأسفل ستة عشر مدماكا من حجر الجرانيت لم تتم تسويتها ، ويظن أنه كان فى النية تكسية بقيته بالجرانيت ، ولكن اكتفى بتكسيتها بحجر جيرى جيد . ومهما يكن من أمر فقد ازداد استخدام الجرانيت فى البناء كثيرا .

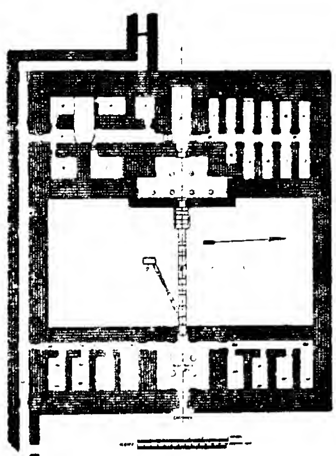


(شكل ١٣٣) هرم منقرع

ويبدو أن مخطط الهرم غير أكثر من مرة ؛ فقد كان المدخل فى المخطط الأول يؤدى إلى أحدور محفور فى الصخر يفضى إلى دهليز مستقيم ثم إلى غرفة الدفن . وفى المخطط الثانى أعد مدخل جديد فى الجانب الشمالى من الهرم أثناء زيادة حجمه ؛ وهو يؤدى

(١) طول قاعدته مائة وثمانية أمتار وزاوية ميله ٥١ درجة .

إلى أحدور جزوءه الأمامى فى الهرم ومكسو بالجرانيت ، وجزوءه الأخير محفور فى الصخر ، ويؤدى إلى ردهة ، تحلى جدرانها واجهة القصر ، ثم إلى دهليز مستقيم تتخلله ثلاثة متاريس لسد الطريق إلى غرفة دفن تقع أسفل غرفة الدفن فى المخطط الأول ويكونان معا غرفة واحدة . وقد أعد فى جدارها الغربى مكان للتابوت ؛ بيد أنه روئى فى المخطط الأخير حفر أحدور فى وسط أرض غرفة الدفن ، فى نهايته على اليمين درج يهبط إلى قاعة مستطيلة ذات مشكاوات عميقة . ويؤدى الأحدور إلى دهليز قصير يفضى إلى غرفة الدفن الأخيرة ، وهى مستطيلة ، جدرانها وسقفها من الجرانيت ، وكان السقف أحدب ثم نحت سطحه الأسفل بحيث يبدو وكأنه قبو حقيقى . وفى جنوب الهرم ثلاثة أهرامات صغيرة .



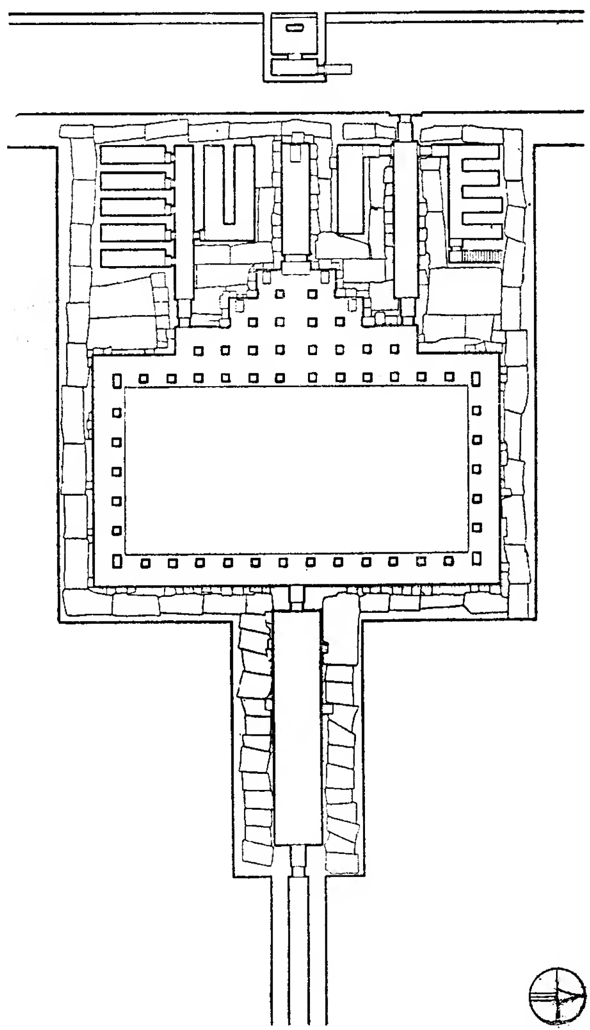
(شكل ١٣٤)
معبد الوادى لهرم منقرع

وقد بنى الملك منقرع أساس معبديه والطريق الصاعد وبعض جدران المعبد الجنازى بحجر جيرى وبدأ رصف بعض أرض المعبد الجنازى وتكسية بعض جدرانه بحجر الجرانيت ولكنه مات قبل أن يتم العمل فأكمله الملك شبسسكاف بحجر جيرى ولبن[1] . ويقع مدخل معبد الوادى وسط واجهته (شكل ١٣٤)، وكان يؤدى

---

(١) G.A. Reisner, Mycerinus, The Temples of the Third Pyramid at Giza.

إلى ردهة ذات أربعة أساطين من الخشب ، تكتنفها قاعات عن يمين ويسار ويليها فناء ، تتخلل جدرانه مشكاوات ، وفى نهايته صفة مزدوجة ذات ستة أساطين من الخشب . وتفضى الصفة إلى قاعة طويلة تكتنفها عدة مخازن .

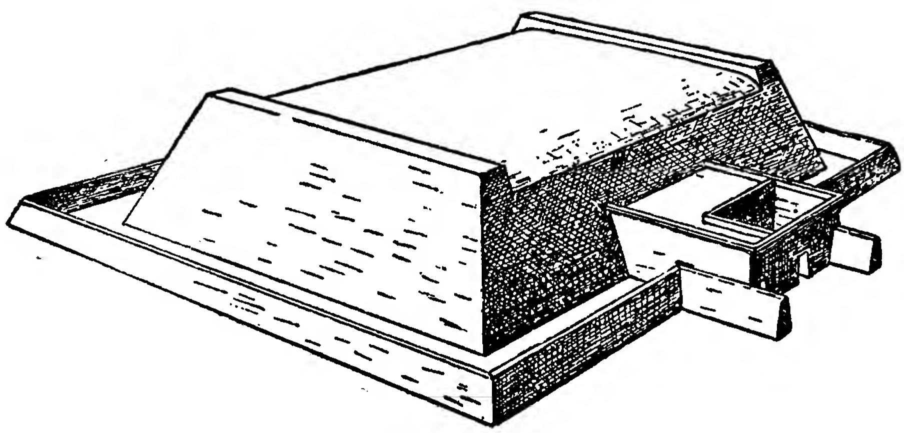


(شكل ١٣٥) المعبد الجنازى لهرم منقرع

ويتألف المعبد الجنازى (شكل ١٣٥) من ردهة طويلة تمتد على المحور الأساسى للمعبد ، وتؤدى إلى فناء كبير محوره من الشمال إلى الجنوب ، تكتنفه أعمدة وتحلى جدرانه مشكاوات ؛ وفى مؤخرته صفة

مدرجة ذات أعمدة وتفضى إلى قدس الأقداس ، وهو قاعة طويلة تمتد على محور المعبد . وفى الشمال والجنوب قاعات يظن أنها كانت مخازن . ومن خلف المعبد الجنازى مقصورة قربان أرضها مرصوفة بحجر الجرانيت (١).

وتتمثل فى معابد أهرامات الجيزة عناصر معمارية أساسية متشابهة ، منها الفناء المحاط بالأعمدة والصفة ، على أنها تختلف فيما بينها اختلافا غير يسير ، مما يدل على ما كان يتمتع به البناؤون من حرية فى حدود ما كانت تفرضه العقائد والتقاليد .



(شكل ١٣٦) مصطبة فرعون

مصطبة فرعون

بنى الملك شبسسكاف مقبرته جنوبى صقارة فى شكل تابوت مستطيل ضخم بسطح مقبى وجدران تميل إلى الداخل وطرفين يعلوان السطح المقبى ، وهى تعرف الآن بمصطبة فرعون (شكل ١٣٦) (٢) . ونواتها من حجر جيرى محلى ، يكسو أسفله حجر الجرانيت وأعلاه حجر جيرى جيد . ويقع مدخلها فى شمالها ويؤدى

(١) يغلب على الظن أنه تحيط بالمعبد الجنازى مراكب جنازية محفورة فى الصخر تخفيها الأتربة والأنقاض وأنه سوف يكشف عنها يوماً ما .

(٢) G. Jéquier, Mastabet Faroun.

إلى دهليز هابط ، لا يلبث أن يستقيم ، حيث تتخلل جانبيه ثلاثة أخاديد لمتاريس من حجر الجرانيت . ويفضى إلى ردهة جدرانها من حجر الجرانيت وسقفها أحدب ، وإلى يمينها غرفة الدفن ، جدرانها وسقفها من الجرانيت ، والسقف فى شكل قبو كاذب . وإلى اليسار بضعة مخازن . وقد ذهب الرأى فى تعليل تخلى شبسسكاف عن الشكل الهرمى للمقبرة إلى أنه وجد فى ازدياد قوة كهنة رع مايهدد سلطانه واستقلاله فاختار لمقبرته مكانا بعيدا عن عين شمس وبناها على طراز مختلف .

وكان فى شرقى المصطبة معبدجنازى صغير يحتوى على مقصورة للقربان ، فى جدارها الخلفى باب وهمى على محور المعبد . وكان يصل بين المعبد الجنازى ومعبد الوادى طريق جدرانه من اللبن .

مقبرة خنت كاوس

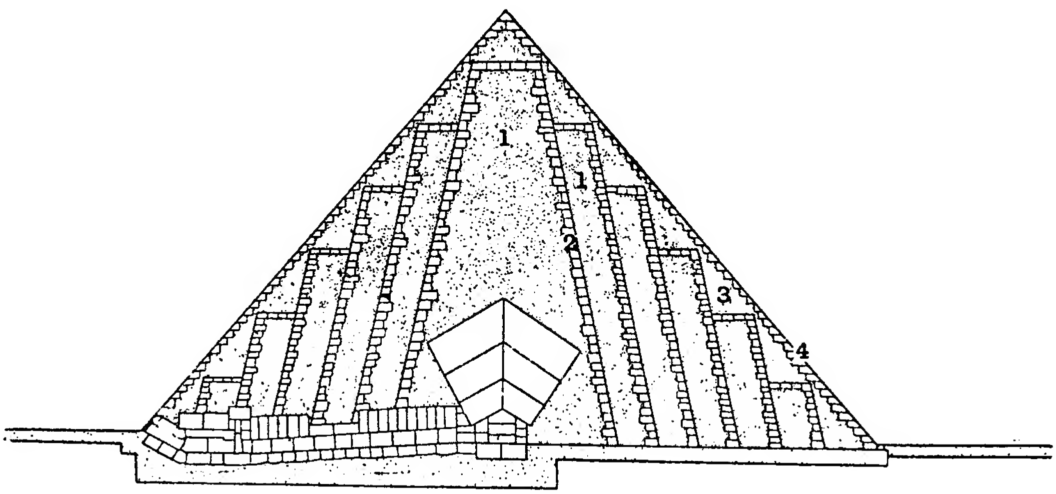
ولا يختلف شكل مقبرة الملكة خنت كاوس ، التى يظن أنها الصلة بين الأسرتين الرابعة والخامسة ، عن مقبرة شبسسكاف ؛ على أنها شيدتها بالقرب من أهرامات الجيزة فوق قاعدة من الصخر كستها بحجر جيرى جيد ، وكانت فى شكل تابوت مستطيل على الأرجح (١) . ومعبدها الجنازى صغير يشتمل على ثلاث قاعات محفورة فى الجنوب الشرقى من القاعدة ، وكان يكسو جدرانها حجر الجرانيت . ومدخل القبر أحدور فى أرض قدس الأقداس يؤدى إلى ردهة بها بابان وهميان ؛ وإلى الغرب منها غرفة الدفن وفى شرقها أربع قاعات صغيرة . وفى الجنوب الغربى من المقبرة حفرة كبيرة فى الصخر فى شكل مركب تمتد من الشرق إلى الغرب .

---

(١) S. Hassan, Excavations at Giza, vol. IV.

أهرامات ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة

عاد ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة إلى بناء مقابرهم فى شكل هرم ، بيد أنها صغيرة الحجم ، حتى أن منها ما لا يزيد ارتفاعه على تسعة عشر مترا (١) ؛ ويرجع ذلك إلى أسباب اقتصادية حالت دون استخدام أعداد غفيرة من العمال ، وإلى ضعف الملوك ووهن



(شكل ١٣٧) قطاع فى أحد أهرامات الأسرة الخامسة

العقيدة فى ألوهيتهم (٢) . ولا تتجلى فى أهرامات ذلك العهد دقة بناء أهرامات الأسرة الرابعة مما عرضها للتلف وكشف عن الاضافات الجانبية التى كانت تضاف إلى نواة الهرم وقت بنائه (شكل ١٣٧) .

وتقع مداخل الأهرامات فى الشمال منها ، وهى عادة فوق سطح الأرض (٣) ؛ وكان المدخل يسد بعد الدفن بكتلة كبيرة من حجر الجرانيت . ويؤدى المدخل إلى دهليز هابط يساعد فى إنزال

(١) هو هرم أوناس .

(٢) ذهب انجلباك إلى أن ذلك يرجع إلى نقص فى عدد السكان بسبب انتشار طاعون أو مجاعة مما قلل الأيدى العاملة اللازمة للبناء (Annales du Serv. des Antiq., XLII, p. 210 f.) . على أنه إذا صح هذا بالنسبة لعهد أوناس فى آخر الأسرة الخامسة فإنه لا سبيل إلى الأخذ به فيما سبقه من عهود ملوك هذه الأسرة .

(٣) يقع مدخل هرم أوناس فى حرم الهرم فى الشمال تحت الأحجار المرصوفة .

التابوت والمتاريس التى كانت تسد الطريق إلى غرفة الدفن . ويفضى الدهليز الهابط إلى دهليز مستقيم ينتهى بغرفة الدفن أو بردهة تقع على يمينها ، أى فى الغرب منها ، غرفة الدفن . وكان يعد فى سقف الدهليز المستقيم المؤدى إلى غرفة الدفن وفى جانبيه أخدودان أو ثلاثة أخاديد تضم متراسين أو ثلاثة من حجر الجرانيت أكثر عرضا من الدهليز ، ثم كانت المتاريس تدلّى بعد الدفن لسد الطريق إلى غرفة التابوت .

ويظن أن الغرض من الردهة هو تمكين حملة التابوت من الاستدارة به لادخاله فى غرفة الدفن . وسقف الردهة وغرفة الدفن أحدب [1] ، ويتكون عادة من ثلاث طبقات من كتل ضخمة من الحجر الجيرى ، كل طبقة من وراء الأخرى ، وأحجار الطبقة الخلفية أطول الأحجار ، وهى بذلك تخفف ثقل البناء عن غرفة الدفن بنقله إلى الجوانب .

ومنذ عهد أوناس كانت جدران الردهة ومعظم جدران غرفة الدفن ، فيما عدا الجدار الغربى ، وفى كثير من الأحيان جدران الدهليز المستقيم ، تنقش بما يعرف بمتون الأهرام فى سطور رأسية فى خط هيروغليفى بلون أزرق مائل للاخضرار . وكان يخطها أولا كتبة بمغرة حمراء ، ثم يعيد رسمها رساموت بعناية بلون أسود ، وأخيرا يحفرها نقاشون [2] . وهى أقدم ما يعرف فى العالم من

---

(١) اتخذ سقف غرفة الدفن الأشكال التالية :

(ا) قبومدرج كما فى هرم ميدوم وهرمى سنفرو فى دهشور ؛

(ب) سقف مستو كما فيما يسمى بغرفة الملك فى هرم خوفو ؛

(ج) سقف أحدب كما فيما يسمى بغرفة الملكة فى هرم خوفو وغرفة الدفن فى كل من هرمى خفرع ومنقرع وأهرامات الاسرتين الخامسة والسادسة ؛

(د) قبوكاذب كما فى إحدى غرف الدفن فى هرم منقرع وفى غرفة الدفن فى مصطبة فرعون .

(٢) G. Maspero, Les inscriptions des pyramides de Sakkara ; K. Sethe, Die altaegyptischen Pyramidentexte ; L. Speleers, Les textes des pyramides égyptiennes ; S.A.B. Mercer, The Pyramid Texts in Translation and Commentary.

تسجيل للعقائد الدينية وتصوير للحياة بعد الموت ، وتتضمن رقى وأناشيد ودعوات عديدة ترجع إلى أزمنة ومراكز دينية مختلفة ، تتيح النظر فى تفكير المصريين وتصوراتهم وعقائدهم طوال أجيال عديدة . وفيها يمكن أيضا ترسم ما تركه توحيد القطرين من أثر فى العقائد والتصورات ، وما بذل من محاولات للجمع بين عبادة الشمس وديانة أزيريس .

ويغلب على الظن أن القراء كانوا يتلون بعض هذه المتون على الأقل أثناء الدفن ، وأنها كانت فى الأصل تكتب على قراطيس بردى أو من الجلد وتوضع فى تابوت الملك . وكان الغرض منها أن توفر للملك طعامه وشرابه فلايجوع ولا يعطش ، وخاصة إذا امتنع تقديم القربان أو قل فى معبده . وهى إلى جانب ذلك تؤكد للملك المتوفى أنه حى لايموت ، وأنه أعيدت له قواه وحواسه ، وأنه طاهر يخلو من كل سوء ، وجسده لن يفنى وأنه مزود بقوى السحر ، وأنه يصعد على سلم إلى السماء أو على جناح طائر أو على دخان البخور ، وأن الآلهة تستقبله وتبتهج لصعوده ، وأنه يغدو إلها ويتولى القضاء بين الآلهة ، ويصاحب الشمس رع ، ويتخذ مجلسه على العرش فى زورق الصباح والمساء ، وأنه لن يضره ثعبان أو عدو . وقد كتبت بحيث يستطيع الملك قراءتها وهو فى تابوته ، ظنا بأن تلاوتها أو مجرد كتابتها يكفل تحقيق ما تتضمنه بفضل ما للكلمة مكتوبة أو مقروءة من قوة سحرية .

وتمتاز غرفة الدفن فى هرم أوناس بأن جدارها الغربى ونصف جداريها الشمالى والجنوبى ، وهى الأجزاء من الجدران المحيطة بالتابوت ، من المرمر المصرى تحليه واجهة القصر والباب الوهمى . ولهذا ما يماثله أيضا فى غرفة الدفن فى هرم ببى الثانى . ومنذ أوناس أصبح سقف غرفة الدفن وأحيانا سقف الردهة أيضا يحلى بنجوم ذات خمسة أشعة بلون أبيض أو أصفر فى قاعدة زرقاء ، كما أصبح

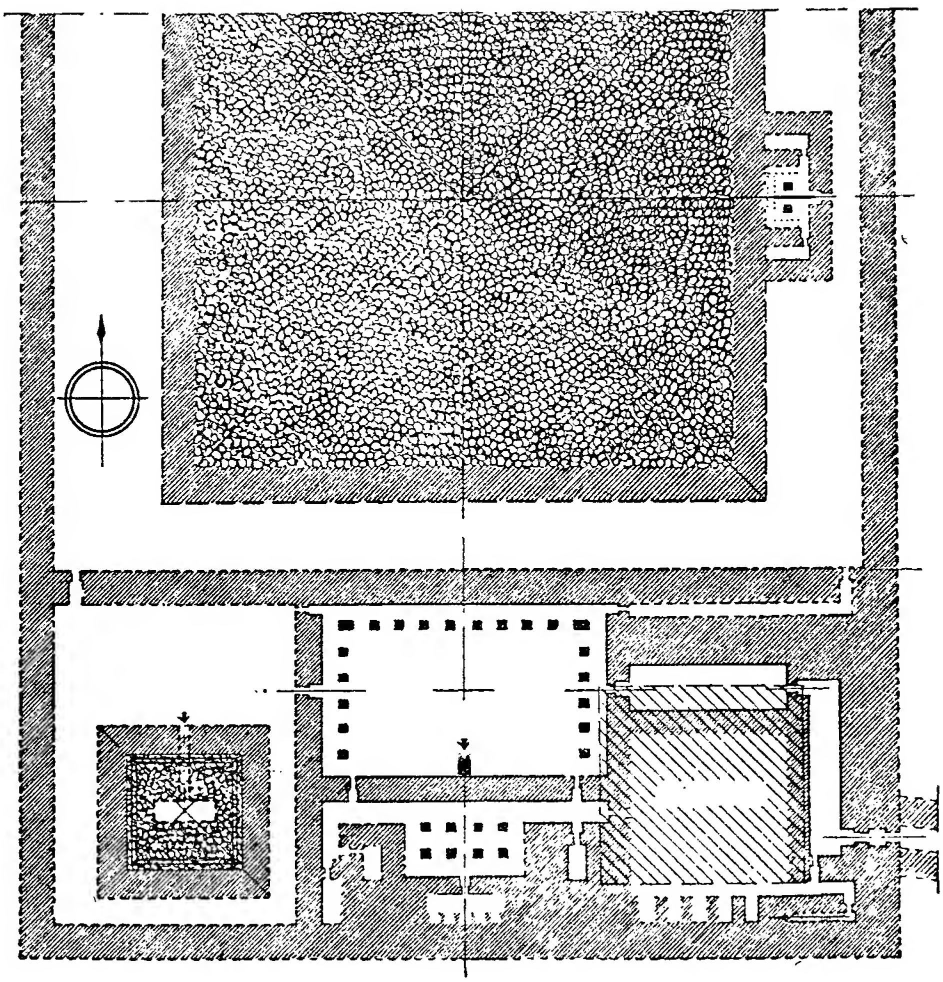
يضاف إلى يسار الردهة قاعة منخفضة ذات ثلاث مشكاوات يظن انه كانت تحفظ فيها بعض التماثيل .

وفى الجنوب الشرقى من هرم كل من ساحورع ونيوسررع وأوناس هرم صغير يقع مدخله فى شماله ويؤدى إلى أحدور يفضى إلى قاعة . وقد ذهب الظن أول الأمر إلى أنه هرم الملكة ، على أنه لما تبين وجود مثل هذا الهرم فى الجنوب الشرقى من هرمى نيت وإبوت زوجتى بى الثانى ، وأن من غرف الدفن فى الأهرامات الكبيرة ما عثر فيه على صندوق الأمعاء مما ينفى أن الهرم الصغير كان ليدفن فيه هذا الصندوق ، لذلك يظن أن الغرض منه طقسى ، خاصة وأنه عثر فى قاعة هرم الملكة نيت على عدد كبير من كسر الفخار (١) .

وتجمع عمارة معابد الوادى والمعابد الجنازية فى الأسرتين الخامسة والسادسة صفات عامة مشتركة ؛ ومع ذلك فهى تختلف فيما بينها فى كثير من التفاصيل. وقد ظل مكان معبد الوادى والمعبد الجنازى فى الشرق من الهرم تجاه الوادى ، الذى يفد منه حملة القرابين ، وذلك فيما عدا الجزء الأمامى من المعبد الجنازى للملك أوسركاف ، أول ملوك الأسرة الخامسة ، إذ يقع أكثره فى جنوب الهرم لارتفاع الصخر كثيرا فى شرقه (٢) ، وقد أتلفته كثيرا المقابر فى العهد الصاوى (شكل ١٣٨) . وكان يشتمل فى مقدمته على ردهتين وخمسة مخازن ودرج . وتؤدى الردهتان إلى فناء تحيط به الأعمدة من حجر الجرانيت من ثلاث جهات ، وأرضه من حجر البازلت .

(١) G. Jéquier, Les pyramides des reines Neit et Apouit, p .10 sq.

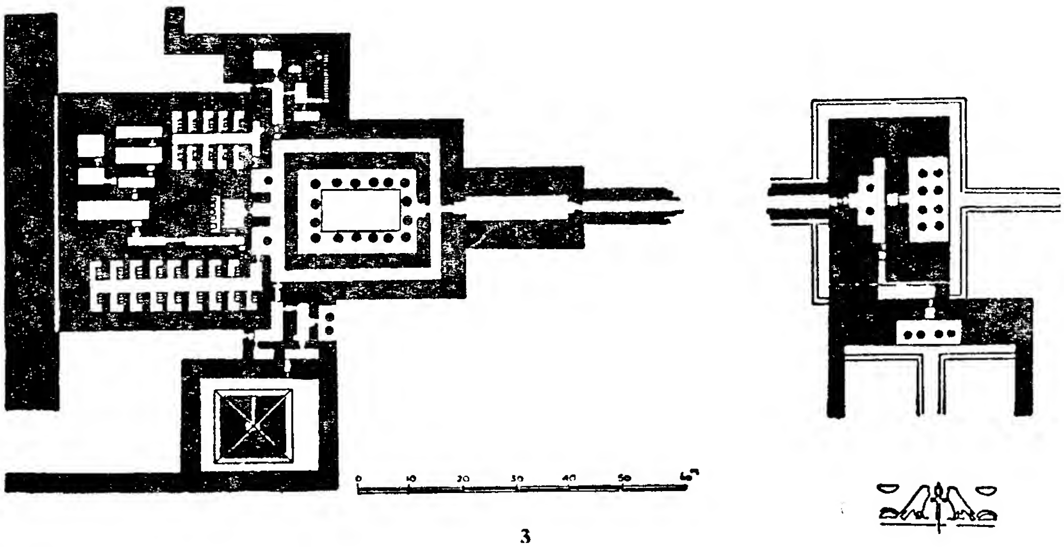
(٢) J. Ph. Lauer, Le temple haut de la pyramide du roi Ouserkaf à Saqqarah, Ann. du Serv. des Antiq. ég., LIII, p. 119 sq. ومن الباحثين من يرى أن مقدام المعبد بنى جنوب الهرم عن قصد لتغمر الشمس بأشعتها طوال النهار مايقدم لها من قربان على مائدة القربان فى الفناء المكشوف ، بدلا من أن يقع عليه ظل الهرم إذا كانت فى شرقه وانحسرت الشمس عن سمته . على أنه يضعف هذا الرأى أنها حالة فريدة وأن المقصود من القرابين أن يفيد منها صاحب المعبد وإن كانت تقدم له ولآلهة أخرى معه .



(شكل ١٣٨) المعبد الجنازى لهرم أوسركاف

وكان يتوسط الجدار الجنوبى للفناء تمثال ضخم للملك من حجر الجرانيت الوردى ووجهه إلى الهرم كأنه ينظر اليه . وكانت فى جنوب الفناء صفة أو بهو أعمدة صغير من ورائه خمس مشكاوات . وكان فى الشرق من الهرم بقية المعبد ، وكانت تتألف من مقصورة من حجر الجرانيت يعلوه الحجر الجيرى ، وكانت أرضها مرصوفة بحجر بازلت أسود ، ويقوم فيها نصبان أو عمودان ؛ وكانت تكتنفها قاعتان ضيقتان ، أرضهما مرصوفة بالحجر الجيرى .

وكان لمعبد الوادى للملك ساحورع ، (شكل ١٣٩ وصورة ٥٥)(١) مرسى فى شرقه وآخر فى جنوبه ؛ وتطل على كل منهما صفة . والصفة الشرقية أكبر الصفتين ؛ وكانت أرضها من بازلت مصقول ، وأسفل الجدران من جرانيت يعلوه حجر جيرى منقوش بصور



3

(شكل ١٣٩) معبدا هرم الملك ساحورع

بألوان زاهية ، والسقف من حجر جيرى محلى بنجوم صفراء فى قاعدة زرقاء ، ويعتمد على ثمانية أساطين نخيلية ، كل أسطون من حجر واحد من الجرانيت . أما الصفة الجنوبية ، فكانت من حجر جيرى وأساطينها الأربعة اسطوانية لا تاج لها . وكانت الصفتان تؤديان إلى بهو صغير عريض فى مقدمته يعتمد سقفه على أسطونين ، وتحلى جدرانه المناظر الملونة .

وقد أصبح الطريق الصاعد يسقف لحماية ما غدا ينقش على جدرانه من الداخل من نقوش ملونة ؛ وكانت الأجزاء السفلى من السطوح الداخلية للجدران تكسى فى بعض الأحيان بحجر البازلت .

ويمتاز المعبد الجنازى للملك ساحورع باتزان أجزائه ، ويتألف

(١) L. Borchardt, Das Grabdenkmal des Koenigs Sahu-re, 2 vols.

من الأجزاء الخمسة الرئيسية : ردهة وفناء مكشوف وخمس مشكاوات ومخازن وقدس الأقداس . وكانت الردهة طويلة تمتد على المحور الأساسى للمعبد على عكس ما كانت عليه فى معبد خفرع الجنازى ، وعلى نحو ما غدت عليه فى معبد منقرع الجنازى . وكانت أرضها من حجر جيرى وأسفل جدرانها من جرانيت . وكان الفناء يمتد على محور المعبد أى من الشرق إلى الغرب ، وقد أصبح ذلك قاعدة فيما بعد ، وكانت أرضه من حجر البازلت المصقول ، وتحيط به الصفات ذات الأساطين النخيلية من حجر الجرانيت لتحمى نقوش الجدران (صورة ٥٦) . وكان أسفل الجدران من بازلت يعلوه حجر جيرى جيد تحليه مناظر ملونة . وكانت فى الركن الشمالى الغربى مائدة قربان من المرمر المصرى تغمرها أشعة الشمس المشرقة أطول وقت ممكن من النهار . ويحيط بالفناء دهليز طويل ، كانت أرضه مرصوفة أيضا بحجر البازلت وجدرانه محلاة بالصور . وكانت الردهة وأغلب الفناء من خارج السور الذى كان يحيط بالهرم .

ويؤدى الركن الشمالى الغربى من الدهليز إلى درج ، يفضى إلى سطح المعبد ، وإلى الساحة الشمالية للهرم ؛ ويؤدى الركن الجنوبى الغربى إلى الساحة الجنوبية للهرم وإلى الهرم الملحق وإلى خارج المعبد . وفى الجانب الغربى من الدهليز ردهتان فى صف واحد ، فى كل ردهة أسطون من حجر الجرانيت يمثل حزمة من أغصان البردى ، وتؤدى كل منهما إلى مجموعة مخازن من طابقين . ويتوسط الردهتين دهليز قصير يؤدى إلى قاعة فى جدارها الخلفى مشكاوات التماثيل الخمسة ، وفى جنوبها مدخل دهليزين يؤديان إلى قدس الأقداس . وكان فى الجدار الخلفى من قدس الأقداس باب وهمى من حجر الجرانيت ومن أمامه مائدة قربان من المرمر المصرى .

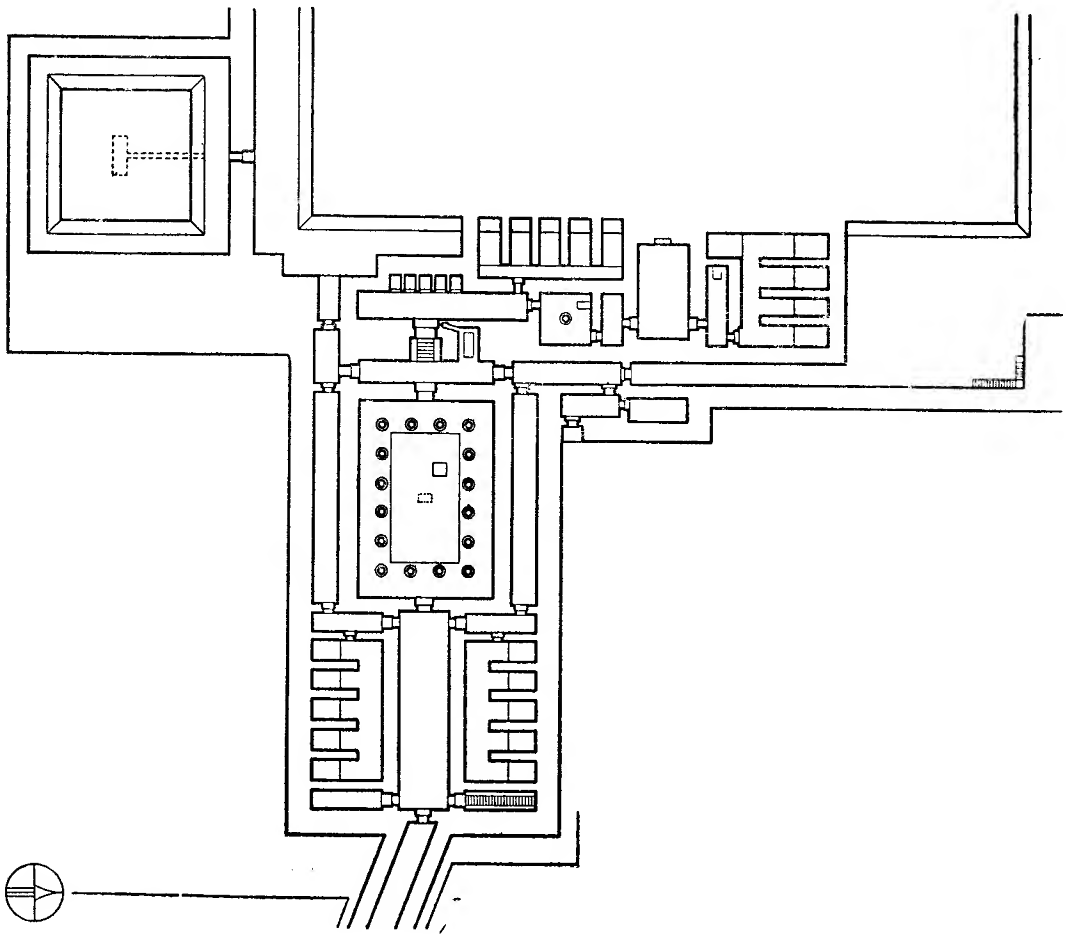
ومنذ عهد الملك ساحورع غدا قدس الأقداس فسيحا مما قد يدل على زيادة القربان وعدد القائمين بتقديمه من الكهنة ، ولا يخلو من مغزى أنه فى شمال وجنوب القسم الخاص من معبد ساحورع الجنازى ٢٧ مخزنا ، وكل مخزن من طابقين مما ضاعف عددها . وقد ظل قدس الأقداس فى نهاية المعبد فى أقرب مكان للهرم ، وفى جداره الغربى الباب الوهمى .

وقد مات الملك نفر إير كارع قبل أن يكمل بناء هرمه ومعبديه (١) ، فأكمل نيوسررع الهرم وأتم المعبد الجنازى باللبن ونحت أساطينه من الخشب فى شكل حزمة من أغصان اللوطس المبرعم ، واغتصب لنفسه معبد الوادى والطريق الصاعد بعد أن أكملهما .

ويشبه معبد الوادى فى خطوطه العامة معبد ساحورع ؛ وهو يقوم فوق مرتفع يؤدى إليه أحدور ، كان بمثابة مرسى وقت الفيضان . ويؤدى الأحدور إلى شرفة تطل عليها صفة يعتمد سقفها على ثمانية أساطين بردية من الجرانيت فى صفين ، وأرضها من البازلت وسقفها من الحجر الجيرى الجيد ، وجدرانها من الجرانيت . وتفضى الصفة إلى قاعة مرصوفة أرضها بحجر البازلت وأسفل جدرانها من الجرانيت ، وفى جدارها الخلفى ثلاث مشكاوات ، المشكاة الوسطى أكبرها حجما ، وكان لكل منها باب من خشب ذو مصراعين . وتكتنف قاعة المشكاوات قاعتان تؤدى إحداها إلى الطريق الصاعد ، وتؤدى الأخرى إلى قاعة فى الجنوب وصفة فى الغرب ذات أربعة أساطين فى صف واحد ؛ ويظن أنه كان يجاورها درج يؤدى إلى السطح . وكانت جدران الطريق الصاعد تتألف من نواة يكسوها من الخارج حجر جيرى ومن الداخل حجر بازلت

(١) L. Borchardt, Das Grabdenkmal des Koenigs Nefer-ir-ke-re.

يعلوه حجر جيرى جيد تحليه صور جميلة ، وكان السقف من حجر الجير ملون بلون أزرق ومحلى بنجوم صفراء .



(شكل ١٤٠) معبد نيوسررع الجنازى

ويقع معبد نيو سررع الجنازى على غير المعتاد على محورين (١) ، يمتد أولهما من الشرق إلى الغرب تجاه الجزء الجنوبى من واجهة الهرم الشرقية ؛ ويشتمل هذا الجزء من المعبد على دهليز طويل تكتنفه المخازن ، ومن ورائه الفناء المكشوف تحيط به الصفات ذات الأساطين البردية من الجرانيت ، وأرضه من البازلت (شكل ١٤٠) . ويمتد المحور الثانى فى موازاة الجزء الأوسط من واجهة

(١) L. Borchardt, Das Grabdenkmal des Koenigs Ne-user-re.

الهرم الشرقية ، ويشمل مشكاوات التماثيل الخمسة وقدس الأقداس[1] وبضعة مخازن . ويبدو أن بناء الجزء الأمامى من المعبد قبال الجزء الجنوبى من واجهة الهرم الشرقية إنما يرجع إلى الرغبة فى تقصير المسافة بينه وبين الطريق الصاعد المغتصب ، إن لم يكن لقله المساحة الصالحة للبناء على محور الهرم أو لوجود قبر قديم فيها .

وهكذا كانت الصفات والردهات والقاعات فى معابد الأهرام ترصف فى الغالب بحجر بازلت أسود مصقول ، وكان يكسو أسفل الجدران حجر البازلت أوحجر الجرانيت يعلوه حجر جيرى جيد تنقش فيه المناظر المختلفة بألوان زاهية ، وتحلى السقوف نجوم بلون أصفر أو أبيض ، غائرة أو بارزة فى أرضية زرقاء . وتعتبر الصفات والأفنية المحاطة بالأساطين النباتية ، ومن حولها الدهاليز من أجمل العناصر المعمارية فى عمارة الأسرة الخامسة ، وتتميز بحسن نسبها فيما بينها . وقد كان ذلك كله فيما يعتقد من أثر عبادة الشمس ، فحلت محل الرصانة والجدية والبساطة فى مبانى الأسرة الرابعة البهجة والانطلاق والزخرفة والعودة إلى الطبيعة فى منشآت الأسرة الخامسة .

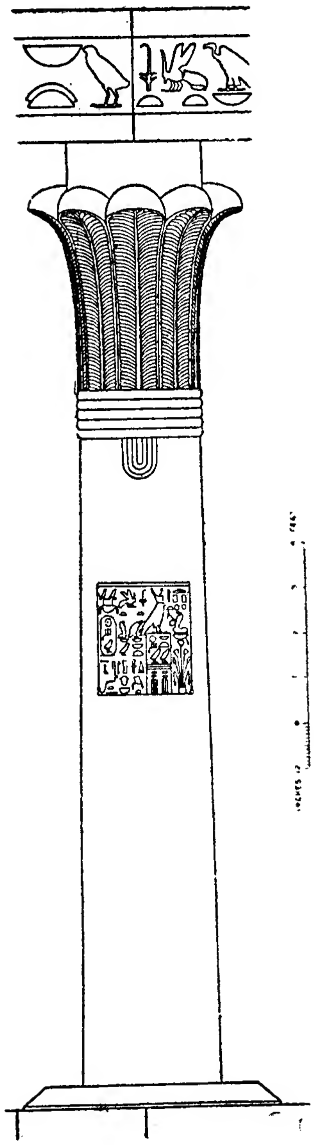
وكانت تسود فى كل من معبد الوادى والمعبد الجنازى الأساطين على شكل النخيل أو فى هيئة حزمة من أغصان البردى أو اللوطس أو فى شكل إسطوانة مدورة ملساء[2] . وتتميز كلها بجمال نسبها ، ورشاقتها ، وإحكام نحتها ، وكمال أشكالها . مما يشير إلى أنه لابد أن كان لها ماض غير قصير فى القصور والبيوت وربما فى معابد الآلهة أيضا . وتبدو الأساطين النباتية كنبات يبرز من الأرض السوداء نحو السماء ذات النجوم اللامعة ، وكأن المعبد بذلك صورة

---

(١) وجد فى جداره الغربى أساس باب وهمى من الجرانيت .

(٢) L. Borchardt, Die aegyptische Pflanzensaeule ; U. Wilken, Die Bedeutung der aegyptischen Pflanzensaeulen, Ae. Z. 39 (1901), S. 66 ff. ; A. Koester, Zur aegyptischen Pflanzensaeule, Ae. Z. 39, S. 138 ff. ; Von Bissing, Aegyptisch Kuntgeschichte, S. 74 ff.

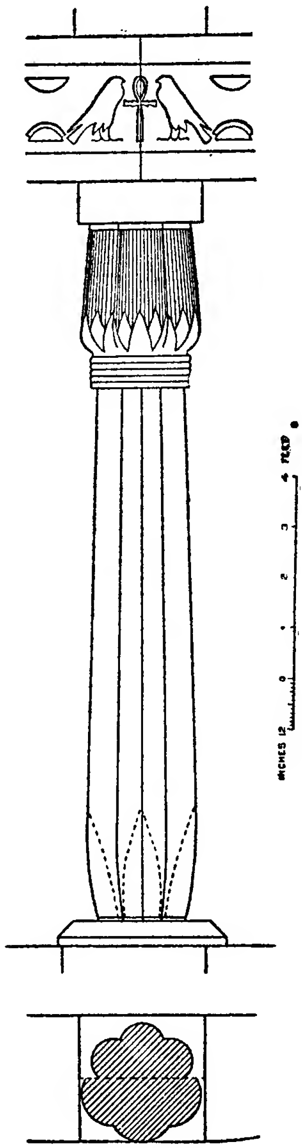
للعالم ، أرضه الأرض الخصبة السوداء ، ينمو فيها النخيل أو البردى أو اللوطس ، وسقفه السماء بنجومها الزاهية ، مما كان يضفى على المكان مظهر الطبيعة ويشيع فيه روحها ونفحاتها . وتنم الأساطين وطراز البناء السائد فى الأسرة الخامسة عن روح بهيجة متخففة من تقاليد الأسرة الرابعة . وسواء كانت الأساطين على اختلاف طرزها من عمل مدرسة واحدة للبنائين أو مدارس مختلفة فهى تنم فى نفس الوقت عن حب المصريين للزهور ، وقد كانوا يتحلون بها ويصنعون على أشكالها حليهم ويزينون بها بيوتهم وأوانيهم . وكانت أغلب الأساطين تنحت إذ ذاك من حجر الجرانيت الوردى ، وكان كل أسطون من كتلة واحدة من الحجر . ومنها ما يزيد ارتفاعه على ثلاثة أمتار ونصف ، وتكاد تكون استدارته كاملة إلى حد كبير . وما من شك فى أنه كان لتنوع طرز الأساطين فى المبنى الواحد فى بعض الأحيان أثر جميل فى النفس .



(شكل ١٤١)
أسطون نخيلى

وتعتبر الأساطين النخيلية أجمل ما أخرجته العمارة المصرية (شكل ١٤١) ، وتتميز بسيقانها الأسطوانية الملساء التى يقل قطرها قليلا من أسفل إلى أعلى ، ويتوجها السعف يعلو مستقيما ثم يتقوس

قليلا فى أعلاه ، ومن فوقه ركيزة قليلة السماك لا تكاد تبين .



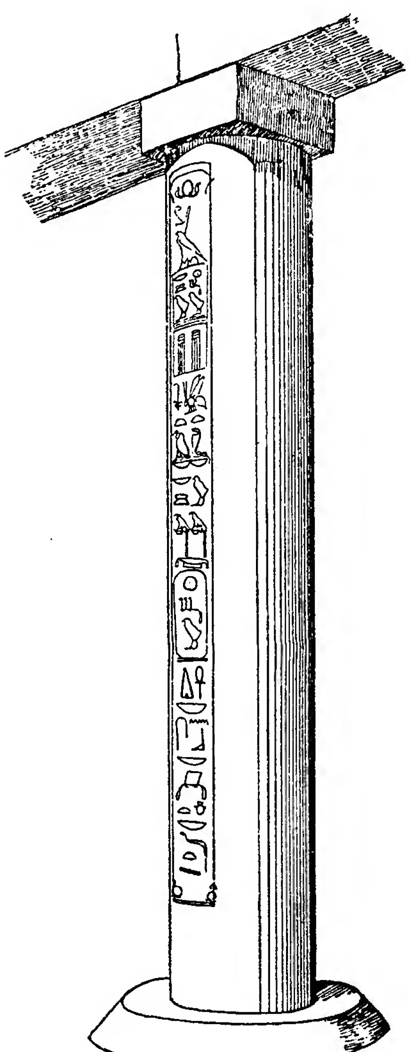
(شكل ١٤٢)
أسطون من حزمة بردى

على أن أهم الأساطين النباتية فى العمارة المصرية وأكثرها انتشارا هى الأساطين على هيئة حزمة البردى ؛ ويمثل كل أسطون مجموعة من أغصان البردى ، تقوم على قاعدة مدورة ، وكل غصن فيها مثلث الشكل حسب طبيعته (شكل ١٤٢) . وهى تضيق كثيرا عند المنبت حيث تحليها أوراق مثلثة ، ثم ما تكاد الساق تغلظ حتى يصغر قطرها تدريجا ، وتنتهى ببراعم متضامة لم تتفتح بعد ؛ وتحيط بالبراعم أوراق مثلثة أخرى لا تبلغ ثلث ارتفاعها ، وتمثل الكأس التى تحيط بالزهر .

وتمثل الأساطين اللوطسية فى العمارة المصرية أيضا مجموعة من أغصـــان اللوطس ذات براعم متضامة [1] ، وكل غصن فيها مدور ويوازى غيره ، ويصغر قطره تدريجا من أسفل إلى اعلى ؛ وتتخلل براعم اللوطس براعم أخرى صغيرة (صورة ٥٧) . وكثيرا ما يختلط

(١) تظهر الأساطين اللوطسية ذات التيجان فى شكل زهرات يانعة فى المناظر على جدران المقابر فحسب ، مما يدل على استخدامها فى ظلات الحدائق والحقول ، وأنها كانت تنحت من الخشب .

الأمر بين الأساطين على هيئة حزمة البردى والأساطين اللوطسية ، على أن أوراق كأس اللوطس طويلة تمتد حتى ذروة البراعم ، على خلاف أوراق البردى ، التى لا تكاد تبلغ ثلث ارتفاع البراعم ، وساق اللوطس مدورة بينما ساق البردى مثلثة ، فضلا عن أنها تضيق عند منبتها ، وتغطيها أوراق مثلثة .



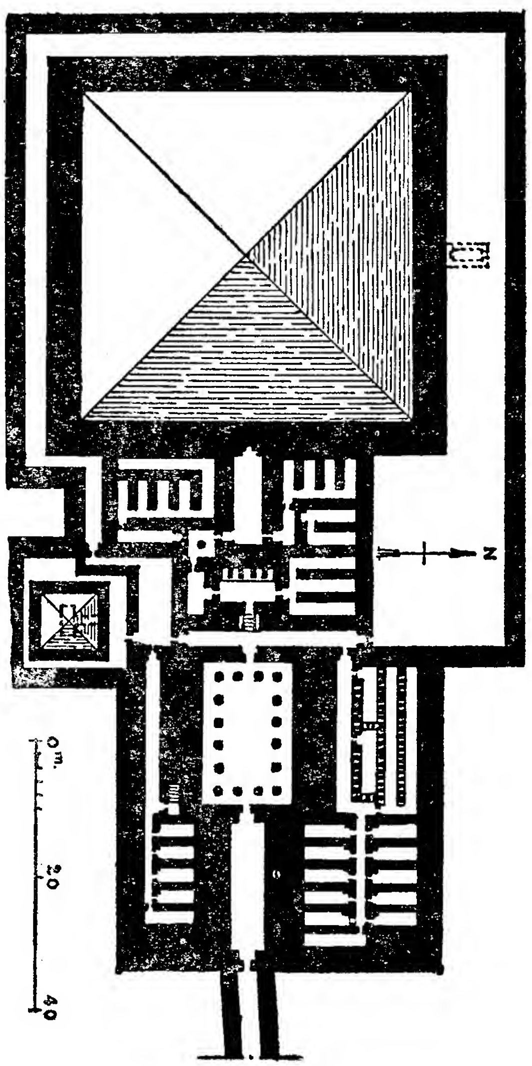
(شكل ١٤٣)
أسطون من معبد سارحورع

ويجمع جريد النخيل وأغصان البردى واللوطس فى أعلى الساق رباط من خمس لفائف متتالية ، يتدلى طرفه فى شكل نصف دائرة فى الأساطين النخيلية . ويشير هذا الرباط إلى أن هذه الأساطين على اختلاف طرزها انما ترجع فى أصلها إلى زخرفة الدعائم الأولى من فروع الشجر وأعواد النبات بسعف النخيل وزهور البردى واللوطس فى الحفلات والأعياد ، وقد وجد ذلك سبيله إلى العمارة الحجرية .

ويرجع الأسطون الأسطوانى فيما يغلب على الظن إلى فروع الشجر التى كانت تعتمد عليها العرُش فى عصور ما قبل الأسرات وبداية الأسرات . ويتألف عادة من ساق اسطوانية تقوم على قاعدة مدورة منخفضة (شكل ١٤٣) .

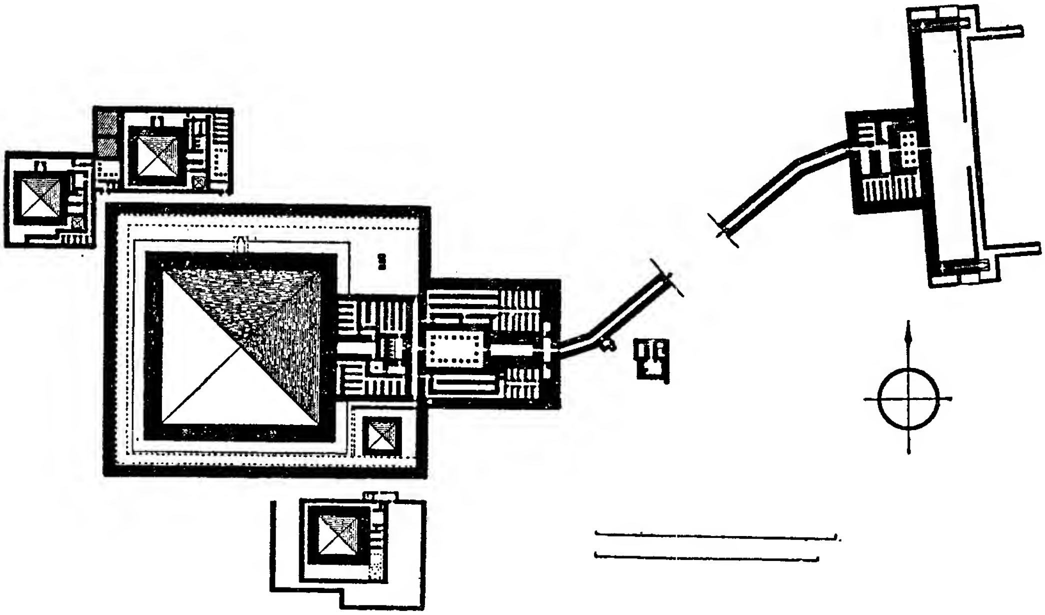
وكان ما يسقط من ماء المطر على المعبد يجرى فى مسارب محفورة فى سطحه تؤدى إلى مآزيب بارزة منحوتة فى شكل رءوس سباع بما كان يحول دون سيل الماء على الجدار . وما كان يسقط منه فى فناء المعبد كان يجرى فى مسارب محفورة فى سطح البلاط ثم إلى فتحات فى أسفل الجدران الخارجية . أما ما كان يستخدم فى الطقوس من ماء فكانت تتلقاه أحواض من حجر مصفح بنحاس ، تتصل بأنابيب من نحاس تحت أرض المعبد تصرفها إلى مكان بعيد فى الوادى ، وكانت أنابيب النحاس فى معبد ساحورع تبلغ نحو ثلثمائة متر على الأقل طولا .

ويمثل المعبد الجنازى للملك أوناس مرحلة وسطى بين معابد الأسرتين الخامسة والسادسة . فقد احتفظ فيه بالفناء الجميل ذى الأساطين النخيلية من حجر الجرانيت ، بيد أنه صرف النظر فيه عن الدهليز الذى يحيط به وعن تكسية أسفل الجدران بحجر الجرانيت ورصفت أرضه بالمرمر المصرى أو حجر الجير (شكل ١٤٤) .



(شكل ١٤٤) المعبد الجنازى لهرم أوناس

ويسود في معابد أهرام الأسرة السادسة استخدام المرمر المصرى بدلا من حجر البازلت والجرانيت ، بيد أنه كانت تحيط بمعظم المداخل حلوق من حجر الجرانيت . ولمعبدى هرم ببي الثانى أهمية خاصة من حيث تخطيطهما ولأنهما آخرا معابد الدولة القديمة . وفيهما عاد البناء إلى استخدام الأعمدة بدلا من الأساطين (١) . وكانت تتقدم معبد الوادى شرفة كبيرة تحدها من الشمال والغرب والجنوب جدران مرتفعة سميكة ، ويؤدى إليها في كل من طرفيها أحدوران على زاوية قائمة (شكل ١٤٥) . وكان المعبد يحتوى على بهو أعمدة وعدة مخازن .



(شكل ١٤٥) معبدا هرم ببى الثانى

وكان الجزء الأمامى من المعبد الجنازى يقع خارج السور الذى يحيط بالهرم ، ويشتمل على دهليز قصير ثم ردهة ممتدة على محور المعبد وفناء تحيط به الأعمدة ، وفى الشمال والجنوب منهما مخازن عديدة . وكان كل عمود من أعمدة الفناء من كتلة واحدة من حجر

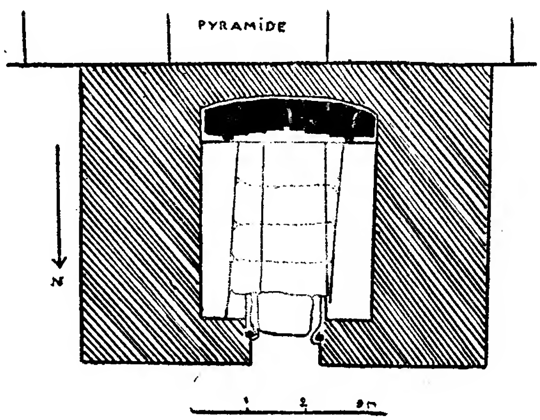
(١) G. Jéquier, Le monument funéraire de Pepi II, 3 vols.

الكورتزيت ، وكانت أرضه مرصوفة بالحجر الجيرى . ويقع الجزء الثانى من المعبد من داخل سور الهرم ، ويحتوى على مشكاوات التماثيل الخمسة ، ومن ورائها سرداب . ثم قدس الأقداس [1]، وتكتنفها جميعا مخازن كثيرة . وهكذا اقترب السرداب فى المعبد الجنازى من قدس الأقداس بعد أن كان من خارج معبد زوسر ، ثم فى مقدمة معبد خفرع الجنازى . وكان سقف قدس الأقداس مقببا ومحلى بنجوم صفراء .

وتتميز معابد الأسرتين الخامسة والسادسة بكثرة مايحليها من مناظر منقوشة . كانت تشغل مساحات شاسعة من جدرانها ؛ وتقدر مساحة الجدران المنقوشة فى معبدى ساحورع والطريق الصاعد بنحو عشرة آلاف متر مربع لم يبق منها غير قطع متفرقة تقرب من مائة وخمسين مترا مربعا ، مما يورث الأسى على فقدان ثروة فنية عظيمة فى هذه الحالة وحالات أخرى عديدة . وتمتاز النقوش وخاصة فى النصف الأول من الأسرة الخامسة بدقتها وحلاوة خطوطها وجمال ألوانها واختلاف موضوعاتها. فمنها مايمثل : الملك يصعق أعداءه أو فى صورة أسد برأس طائر يطأ أعداءه . والألهة سشات . ربة الكتابة والحساب . تسجل عدد الأسرى والغنائم . والآلهة تقود أسرى مصفدين . ومنها ما يصور الملك ترضعه إحدى الألهات ، أو وهو يستقبل مواكب الآلهة وشخوص بعض المظاهر الطبيعية وهى تقدم العطايا . أو شخوص الضياع الموقوفة على المعبد تجاب المنتجات المختلفة حتى إذا أهملت الأجيال التالية تقديم القربان

(١) كان قدس الأقداس أكبر قاعات المعبد إذ كان طوله ١٥,٧ من المتر وعرضه ٢٣,٥ من المتر .

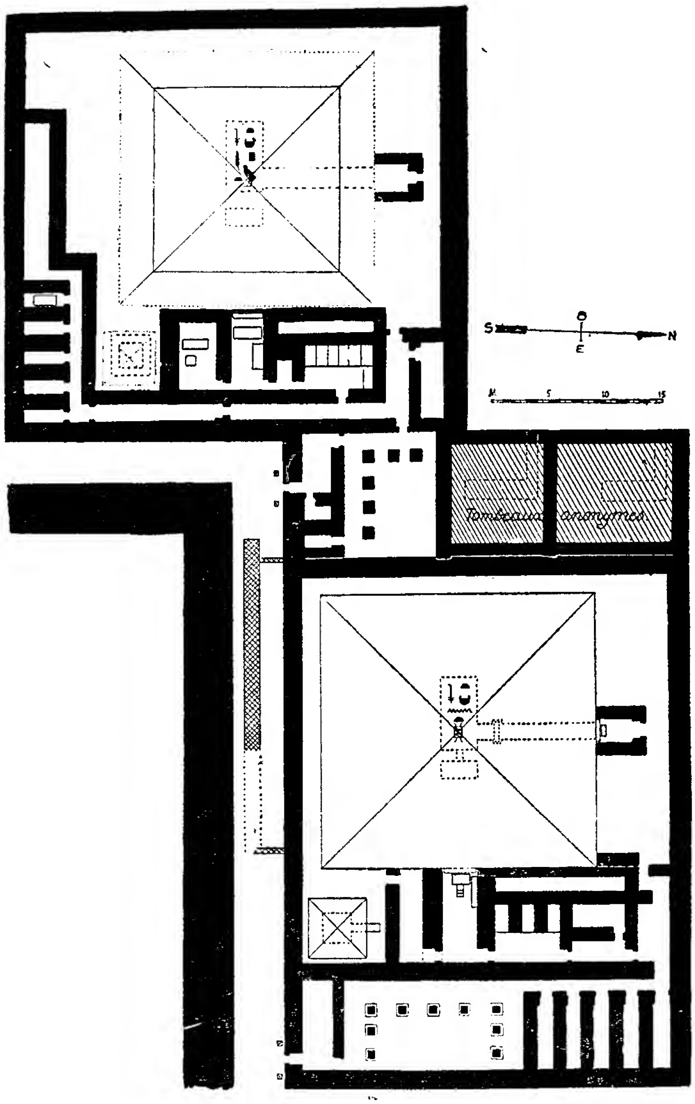
كان فى هذه الصور ما يكفل للملك ألا يجوع أو يعطش . أو وهو يصطاد السمك أو الطير أوحيوان الصحراء ؛ أو وهو يشاهد إقلاع إثنى عشرة سفينة بحرية إلى إحدى موانئ شرق البحر الأبيض المتوسط ثم وهى عائدة تحمل منتجات آسيا وبعض الأسيويين . ومنها ما يمثل حصاد القمح وجمع التين والعنب وعسل النحل وصناعة الحلى والأوانى من الذهب والفضة وتبادل السلع والمتاجر فى أحد الأسواق ، ونقل أعتاب وأساطين نخيلية من حجر الجرانيت فى سفن كبيرة . وكانت هذه المناظر تضفى على المكان بهجة ، وإليها يرجع الفضل فى ازدهار فن النقش فى الدولة القديمة .



(شكل ١٤٦) المقصورة الشمالية لهرم تتى

وكانت تقوم فى شمال هرم كل من أوناس وتتى وببى الثانى وخاصة فوق مدخل الهرم . مقصورة صغيرة بجدارها الخلفى باب وهمى ، وتحلى جدرانها صور تقديم القربان ويظن أنها ترجع فى أصلها إلى معبد زوسر فى شمال هرمه (شكل ١٤٦) .

وكان من خارج سور هرم الملك بي الثاني ثلاث أهرامات صغيرة لثلاث ملكات ، وكان لكل هرم معبد جنازى وهرم ملحق ، وكلها من داخل سور يحيط بها (شكل ١٤٧) . ويقع معبد الملكة



(شكل ١٤٧) هرما الملكتين نيت وابوت ومعبداهما

نيت في الشرق من هرمها ، وكان يتقدم مدخله مسلتان صغيرتان ؛ ويتألف المعبد من ردهة وفناء مكشوف تحيط به الأعمدة من ثلاثة جوانب . وكان يخرج من الفناء دهليز ، تقع على يمينه خمسة

مخازن ، ويؤدى إلى القسم الثانى من المعبد ، ويتألف من قاعتين ، تشتمل إحداهما على ثلاث مشكاوات للتماثيل ، ومن وراء القاعتين سرداب ، ويليهما قدس الأقداس ويقع على محور الهرم . وبذلك كان معبد الملكة صورة مصغرة للعناصر المعمارية الرئيسية التى كان يحتوى عليها المعبد الجنازى للملك . وكان هرمها كذلك أيضا ، إذ كانت تقوم أمام مدخله فى الشمال مقصورة قربان صغيرة ، يشغل جدارها الخلفى باب وهمى ، يسد مدخل الهرم ، ومن أمامه مائدة قربان . ويؤدى مدخل الهرم إلى أحدور لايلبث أن يستقيم ، حيث كان يعترضه متراس من كتلة واحدة من الجرانيت ، يسد الطريق إلى غرفة الدفن التى تحلى جدرانها متون الأهرام . وعلى يسار غرفة الدفن دهليز قصير يؤدى إلى سرداب .

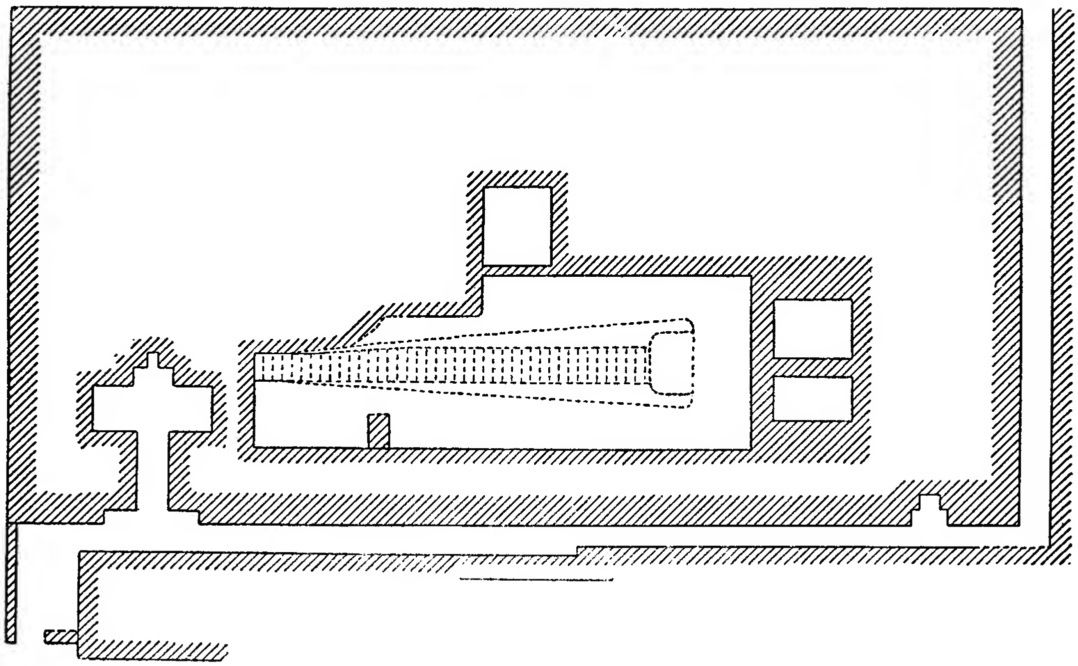
مقابر الأفراد فى الدولة القديمة

من عظماء رجال الدولة من كانوا يدفنون فى الجبانة الملكية ؛ على أن مقابرهم كانت قليلة حتى أواخر الأسرة الرابعة ؛ ثم أخذ عددها يزداد فى الأسرتين الخامسة والسادسة على مقابر أفراد الأسرة الثالثة ، ويرجع ذلك إلى نمو الطبقة المتوسطة وارتفاع شأنها.

وقد ظلت مقابر الأفراد فى الأسرة الثالثة مصاطب تبنى باللبن ، وكانت تملأ عادة بالأنقاض ؛ على أن المصاطب الكبيرة وهى قليلة كانت تبنى بأكملها باللبن . ومن المصاطب ما كانت تحلى جوانبها الأربعة مشكاوات على شكل واجهة القصر ، ومنها ما يقتصر فيها ذلك على واجهتها ، أو يكتفى فيها بمشكاتين بالقرب من طرفيها ، والمشكاة الجنوبية أكبر من المشكاة الشمالية ؛ وكان المكان الرئيسى لتقديم القربان أمام المشكاة الجنوبية ، وكانت تسقف فى بعض الحالات لحمايتها (١). ومن المشكاوات الرئيسية فى جنوب واجهة

(١) G.A. Reisner, The Development of the Egyptian Tomb down to the Accession of Cheops, p. 154 ff., 167 ff., 184 ff.

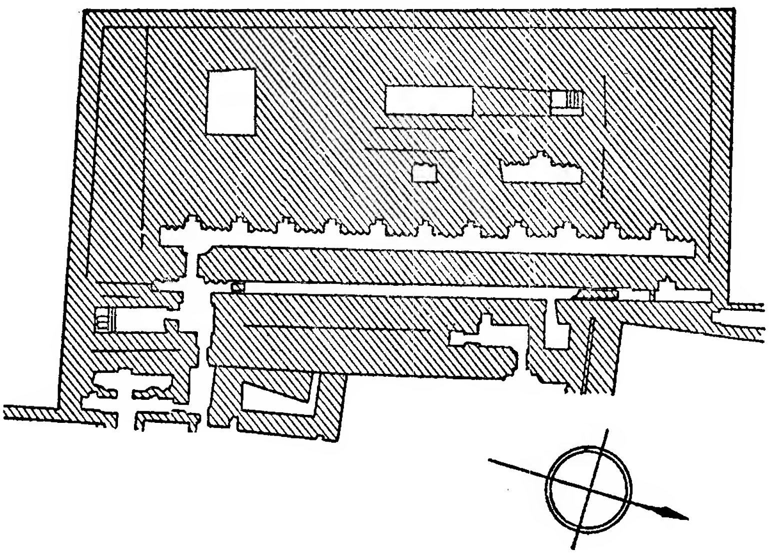
المصطبة ما كانت تعلوها لوحة من الحجر الجيرى منقوشة بصورة صاحب المقبرة جالسا أمام مائدة القربان وبجانبها إسمه وألقابه وأسماء بعض الأطعمة وقائمة القربان . ومن المشكاوات ما أخذ يزداد عمقا واتساعا فى بناء المصطبة حتى غدا مقصورة مسقوفة



(شكل ١٤٨) مصطبة بمقصورة على شكل الصليب

على شكل الصليب (شكل ١٤٨) ؛ وهكذا بدأت المقصورات الداخلية فى مقابر الدولة القديمة . ومن المصاطب ما ظل الجزء المخصص للدفن فيها يتألف من عدد كبير من القاعات ؛ على أن منها ما أصبح يشتمل على غرفة أو غرفتين ، يؤدى إليهما درج عميق فى الأرض الطفل فى الصعيد ، ودرج وبئر أو بئر فقط فى الأرض الصخرية فى أقليم منف ؛ وقد يشير هذا إلى قلة ما كان يودع فى بعض الحالات مع الميت من أثاث جنازى اعتمادا على ما كان يقدم له من قربان ويؤدى من طقوس أمام المشكاة الجنوبية أو فى مقصورة القربان .

وأشهر مقابر الأفراد فى الأسرة الثالثة مقبرة حسى رع فى صقارة من عهد الملك زوسر (شكل ١٤٩) ، وواجهتها الأصلية ذات مشكاوات ، وكانت تحليها رسوم هندسية تمثل حصيرا من ألوان مختلفة معلقا على الجدار (صورة ٥٨) (١) . وكان فى ظهر كل مشكاة لوح من خشب منقوش بصورة صاحب المقبرة واقفا أوجالسا أمام مائدة القربان فى نقش بديع دقيق . والمقصورة دهليز



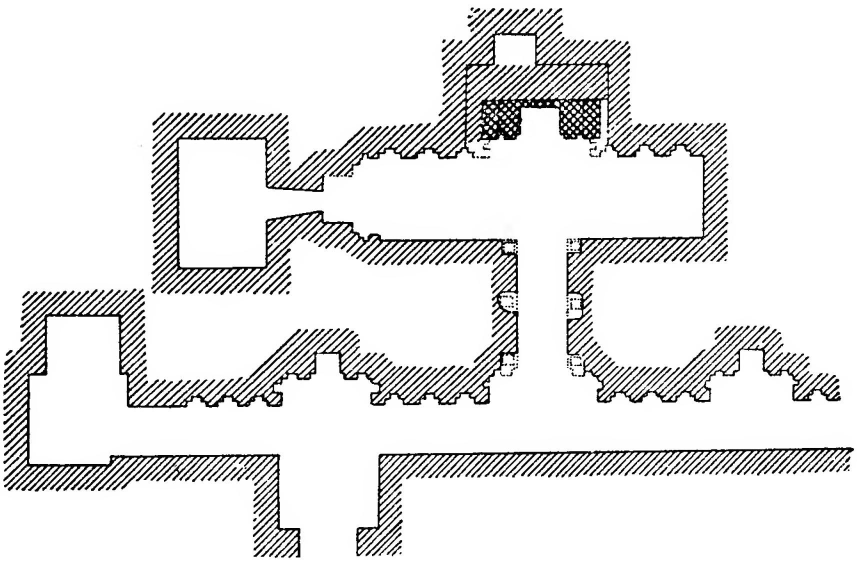
(شكل ١٤٩) مصطبة حسى رع فى صقارة

يمتد على طول واجهة المصطبة ، وكان جدارها الشرقى مغشى بطلاء من طين يعلوه طلاء أبيض وصف بأنه عمل دقيق مدهش ، وأنه ليس فى استواء السطح من طرف إلى طرف أدنى خطأ . وقد صورت عليه بألوان مختلفة قطع الأثاث التى أودعت مع الميت ، أو التى يرجى أن تكون من أثاثه علاوة على ما ضمه قبره ، أو تقوم مقام مايتلف منه أو يسرق . وقد زيد فى بناء المقبرة مرتين على الأقل ، وزودت بسرداب للتماثيل على يسار المدخل مباشرة ، وبذلك كان

(١) محمد أنور شكرى : الفن المصرى القديم ص ٨٤ . J.E. Quibell, The Tomb of Hesy.

تمثال الميت أو تماثيله إذ ذاك أقرب ما تكون للعالم الخارجى ، ليتيسر للروح أن تتعرف فيها على صاحبها .

وفى أواخر الأسرة الثالثة وعهد الملك سنفرو ظلت المصاطب تبنى باللبن ، غير أن مشكاوات القربان والمقصورات التى على شكل صليب كانت تكسى بحجر جيرى جيد وتنقش بالمناظر ؛ ومنذ أن أصبحت مشكاة القربان تكسى بالحجر اتخذت شكل ما يسمى بالباب الوهمى . ومن المصاطب ما هو مزدوج ، يشتمل فى كل من طرفيه على بئر تؤدى إلى غرفة الدفن ، وكانت غرفة الدفن الشمالية تخصص للزوجة .



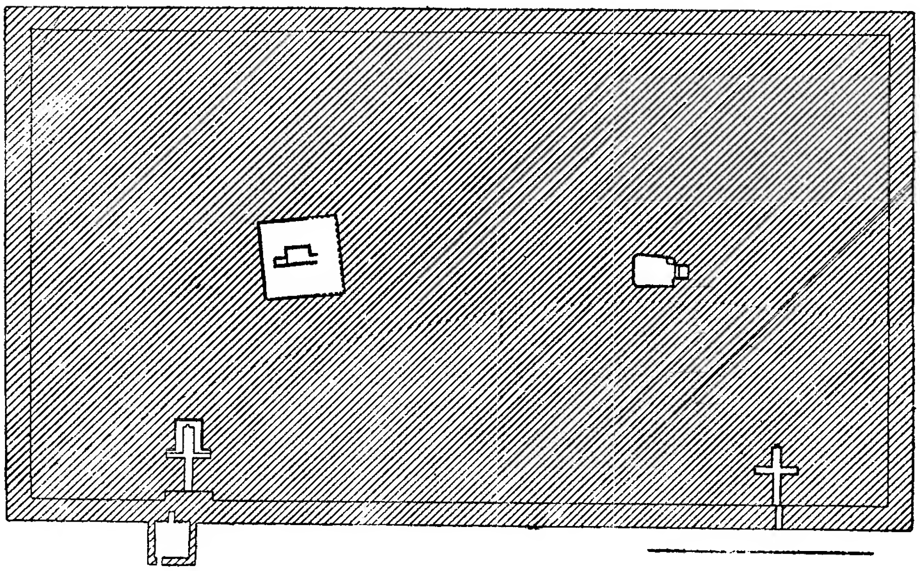
(شكل ١٥٠) مقصورة خع باو سكر

ومن أشهر مصاطب صقارة من ذلك العهد مصطبة خع باوسكر وزوجته ، ويكسو الحجر الجزء الداخلى من مشكاتى الزوج والزوجة ، أما بقيتهما فمن اللبن . وكان فى جنوب مقصورة القربان الرئيسية سرداب ، فى جداره الأمامى شق كانت الأدعية تتلى من أمامه ويدخل منه عبير البخور إلى التمثال (شكل ١٥٠) (١) .

(١) A. Mariette, Les mastabas de l'ancien empire, A 2 ; G.A. Reisener, The Development of the Egyptian Tomb, pp. 203, 267-69 ; M.A. Shoukry, Die Privatgrabstatue im Alten Reich, S. 205.

وكانت مصطبة مثن تشتمل على مقصورة مشيدة بأكملها من الحجر ، وهى الآن فى متحف برلين ، ويتوسط جدارها الغربى الباب الوهمى يعلوه منظر مائدة القربان ، وسقفها من الحجر يحاكى جذوع النخل . وكان فى شمال المقصورة سرداب وجد فيه تمثال صاحب المقبرة من حجر الجرانيت[1] .

ومن المصاطب ما أصبح فيها السرداب خلف مقصورة القربان ، بحيث صار التمثال من وراء المكان الرئيسى الذى كانت تقدم أمامه القرابين ، ويحرق البخور ، وتتلى الدعوات الجنائزية ، وبذلك غدا من أهم الأغراض من إقامة تماثيل المقابر أداء الطقوس لها .

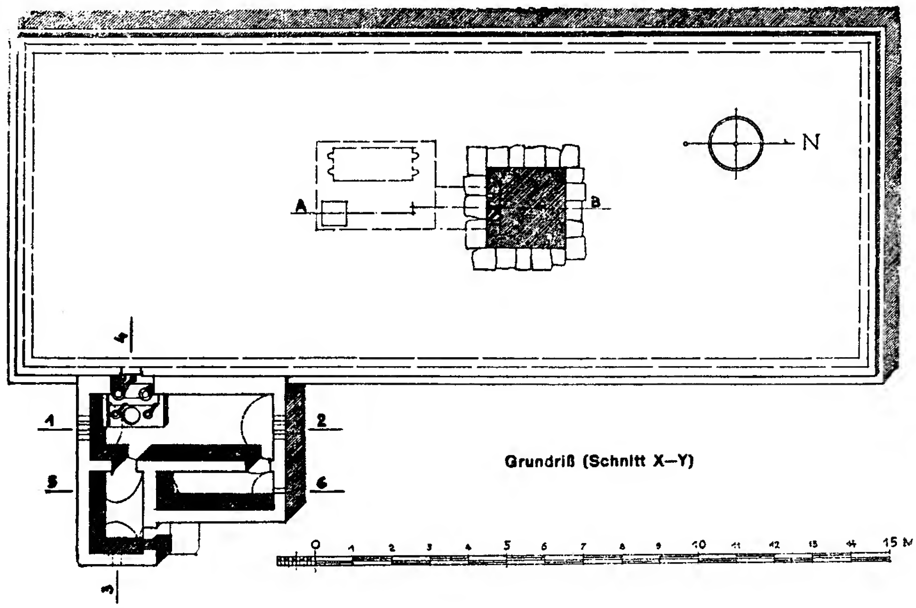


(شكل ١٥١) مصطبة نفرماعت وزوجته

وأفخم المقابر من ذلك العهد مصطبة الأمير نفرماعت إبن الملك سنفرو (شكل ١٥١) ، ومصطبة رع حتب وزوجته نفرت . وكانت مقصورة القربان فى كل منهما على شكل صليب ومكسوة بالحجر ، وفى الجدار الغربى منها باب وهمى . وتحلى الجدران مناظر ملونة

(١) C.R. Lepsius, Denkmaeler aus Aegypten und Aethiopien, Textband, S. 142.

جميلة فى صفوف متعاقبة . بيد أن مدخل المقصورة سد بالحجر مما أتلف بعض النقوش ، وأحيطت المصطبة بأضافة من اللبن ، ثم أضيفت إليها غرفة قربان بسيطة من اللبن كذلك ، وما من ريب فى أن ذلك إنما كان لما فرضه خوفو من قواعد فى بناء مقابر الأفراد ، قضت بعدم أقامة التماثيل والأبواب الوهمية فيها وعدم نقش جدرانها بالصور والمناظر (١) .



(شكل ١٥٢) طراز مصاطب الجيزة من عهد خوفو

وفى عهد خوفو بنيت مصاطب أفراد الأسرة المالكة وكبار رجال الدولة من حول هرم مليكهم ليكونوا فى صحبته وخدمته فى الآخرة كما كانوا فى الحياة الدنيا . ويتميز كل منها بأنها بناء ضخم مستطيل مشيد بأحجار كبيرة من الحجر الجيرى ، تميل جدرانها قليلا إلى الداخل ، وتخلو من المشكاوات . وكانت الطقوس الدينية تؤدى فى مبنى من اللبن مغشى بطلاء أبيض ، يقوم أمام الجزء الجنوبى من واجهة المصطبة (شكل ١٥٢) ؛ وقد يحتوى على ردهة

(١) M.A. Shoukry, op. cit., S. 27 ff.

وغرفة قربان ، وسقف كل منهما مقبي من أسفل مستو من أعلى . وكانت فى الجدار الغربى من المقصورة لوحة منقوش عليها صورة صاحب المقبرة جالسا أمام مائدة القربان ، ومن أمامها كانت تؤدى الشعائر الجنائزية ، وكان يغطى هذه اللوحة فى بعض الأحيان حجر من أمامها مما يفسر حسن حالتها وبقاء اللون عليها (١) . وكانت غرفة القربان تخلو من النقوش ومن الباب الوهمى .

وتؤدى من سطح المصطبة بئر عمودية إلى غرفة الدفن ، حفرت فى الصخر على عمق كبير ، ويكسو جدرانها حجر جيرى جيد مرقط بما يحاكى حجر الجرانيت الوردى . وفى الزاوية الجنوبية الشرقية من غرفة الدفن حفرة فى شكل صندوق ، كانت تحفظ فيها فيما يعتقد أحشاء الميت وكانت تغطى بلوح من الحجر الجيرى . وكان مدخل غرفة التابوت يسد بعد الدفن بصفوف من أحجار يوضع فى أعلاها من أمام فى بعض مقابر الأمراء والأميرات رأس بحجم طبيعى من الحجر الجيرى الجيد يعرف بالرأس البديل أو الاحتياطى ، ثم كانت فتحة المدخل تسد بحجر واحد كبير .

وقد بنيت المصاطب فى شرق الهرم وجنوبه وغربه فى صفوف منتظمة تفصلها شوارع توازى قاعدة الهرم وتتعامد عليها ، ويبلغ متوسط عرضها ستة أمتار . وينم ذلك كله عن طراز موحد فرضته إرادة عالية كان لها من القوة والسلطان ما استطاعت به أن تحول بين أفراد الأسرة المالكة وكبار رجال الدولة وما بدأوا يتخذونه من تقاليد فى مقابرهم تشبه ما كان يؤدى من مناسك فى معابد الآلهة والملوك .

ومن المصاطب الهامة فى شرقى الهرم الأكبر مصطبة الأمير حميونو ابن أخى الملك خوفو وابن عم الملك خفرع ، ومن ألقابه

---

(١) H. Junker, Giza I, S. 173, Taf. XXVI a, b.

ما يشير إلى أنه كان يشرف على جميع أعمال عمه الانشائية (١) .
وهى مصطبة عظيمة تزيد مساحتها على ثلث فدان ، وقد بناها على الطراز المعمارى الذى فرضه خوفو ، ولكنه استطاع فى عهد ابن عمه خفرع أن يحدث فيها بالقرب من طرفى واجهتها بابين وهميين من وراء كل منهما سرداب ، وأن يبنى أمامهما بالحجر الجيرى دهليزا طويلا يقوم مقام مقصورة القربان. وقد عثر فى السرداب الشمالى على تمثال له مهشم يمثله شخصاً ممتلىء البدن فى ملامح وجهه نبل وجد وحزم تنم عن شخصية قوية ، أبدعها المثال فى طراز فخم جليل ، بسيط واضح .

وفى عهد الملك منقرع عادت غرفة القربان تبنى من جديد فى بناء المصطبة ، وفى جدارها الغربى باب أو بابان وهميان ؛ وغدت جدرانها تنقش بالصور ، وأصبحت تقام فيها التماثيل أو تودع فى سراديب ؛ بيد أن ذلك كان فى حدود ضيقة أول الأمر .

وحفر كثير من أفراد الأسرة المالكة مقابرهم فى الصخر فى هضبة الجيزة بالقرب من الأهرامات الثلاثة ؛ ولقد قيل أنها أقل تكلفة من المصاطب المبنية . على أن ذلك لا يمكن أن يكون السبب فى إيثار المقابر المحفورة فى الصخر فى أكثر الأحيان على الأقل ؛ ذلك لأن من أصحابها ملكات وأمراء وأميرات ، وإنما لأنها أبقى على الزمن بما يتفق وما كان يصبو إليه أصحابها من خلود . وكانت واجهة المقبرة الصخرية تسوى بحيث تميل قليلا إلى الداخل على نحو جدران المصاطب ؛ ومن الواجهات ما كانت تكسى بالحجر الجيرى . وتتألف المقبرة الصخرية عادة من غرفة أو أكثر ومقصورة القربان ، وكلها محفورة فى الصخر . ومن الغرف ما تركت فيه أعمدة من الصخر تحمل السقف ، ومنها ما نحتت فى جدارنه التماثيل . وكانت الجدران تحلى بالنقوش فى كثير من الأحيان .

---

(١) نفس المرجع صفحة ١٥٠ و ١٥٢

وتؤدى بئر فى أرض مقصورة القربان أو أحدى الغرف إلى غرفة الدفن .

ومن أشهر المقابر الصخرية مقبرة الملكة مرسى عنخ الثالثة ، حفيدة خوفو وزوجة الملك خفرع ؛ وتقع فى الشرق من الهرم الأكبر ، وتحتوى على ثلاث قاعات محفورة فى الصخر . وقد نحتت فى الجدار الشمالى من القاعة الشمالية عشرة تماثيل لصاحبة المقبرة وأمها (صورة ٥٩) ؛ وفى الجدار الغربى من مقصورة القربان أربعة تماثيل تكتنف الباب الوهمى(١). وتحلى الجدران صور مختلفة تمثل الملكة وبعض أفراد أسرتها وحملة القرابين وأعمالا مختلفة ، منها نحت التماثيل وصقل التابوت ونقل الأثاث الجنائزى .

وفى الأسرة الخامسة زاد عدد الغرف التى كانت تبنى داخل المصطبة ، وساعد ذلك على كثرة المناظر الملونة التى تحلى الجدران . ومن المصاطب ما كانت تتقدمه صفة . ومنها ما كانت تزود بفناء تكتنفه أو تحيط به الأعمدة . وتتألف مقبرة انسدچركاى فى غرب الهرم الأكبر من فناء فى مؤخرته صفة لها مسارب فى سطحها لتصريف ماء المطر . ومن ورائها مقصورة قربان فى شكل بهو أعمدة (٢) . وتمتاز مقبرة بتاح شبسس . زوج إبنة الملك نيوسررع . فى أبو صير ، بأنها تشتمل على بهو ذى أساطين فى شكل حزمة من اللوطس . وعلى ثلاث مشكاوات للتماثيل بما يحاكى بعض الشىء المعابد الجنائزية (٣) . بذلك اختلفت مقابر الأفراد وتنوعت حتى إنه لايكاد يكون منها ما يشبه غيره ؛ وفى ذلك ما يدل على التحرر من الطراز المعمارى الذى ساد فى عهدى خوفو وخفرع . وكان ذلك على حساب

---

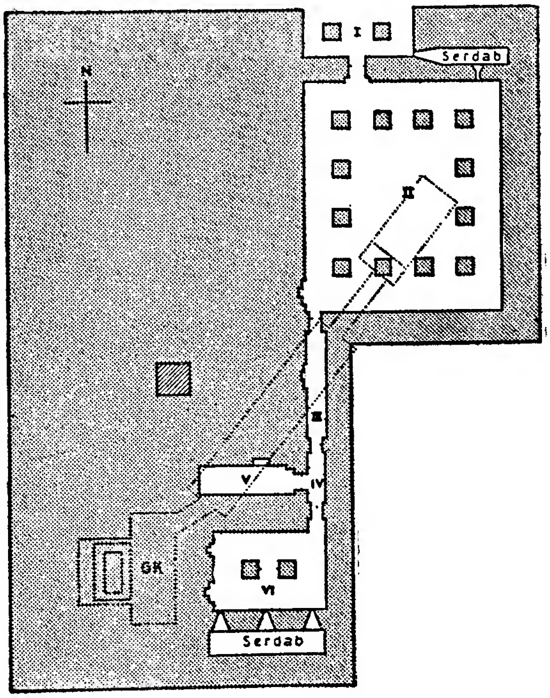
(١) M.A. Shoukry, op. cit., S. 244, Abb. 76, 77.

(٢) H. Junker, Giza II, S. 105 ff.

(٣) M.A. Shoukry, op. cit., S. 229.

غرفة الدفن . إذ كان يكتفى بتسوية جدرانها بدلا من تكسيتها بحجر جيرى جيد .

ومن أهم مقابر الأسرة الخامسة فى صقارة مقبرة تى ومقبرة بتاح حتب وآخت حتب . وتتقدم مقبرة تى صفة صغيرة تؤدى إلى فناء كبير محاط بالأعمدة . يطل عليه سرداب يتصل بالعالم الخارجى بشق قصير (شكل ١٥٣) (١) . ويؤدى دهليز ضيق طويل إلى



(شكل ١٥٣) مصطبة تى فى صقارة

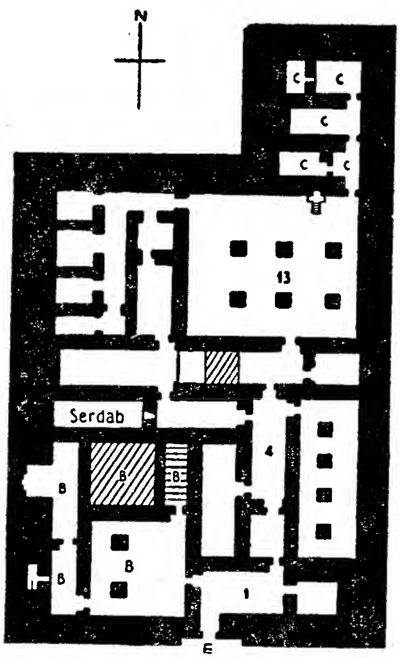
مقصورة القربان ، التى يعتمد سقفها على عمودين . وفى جنوبها سرداب ثان . وفى أرض الفناء درج يؤدى إلى أحدور ثم إلى غرفة الدفن . وأهم ما تشتمل عليه مقبرة بتاح حتب وآخت حتب بهو أعمدة ومقصورة لكل منهما (٢) . وفى منطقة أهرام الجيزة مقبرة رع ور ،

(١) G. Steindorff, Das Grab des Ti.

(٢) N. de G. Davies, The Mastaba of Ptahhetep and Akhethetep, 2 vols.

أحد كبار رجال الدولة فى عهد الملك نفر إير كارع ؛ وتتألف من جزء كبير مبنى وجزء آخر محفور فى الصخر ؛ وتحتوى على ما لا يقل عن ٢٥ سردابا[١] . ومن المقابر ما كانت تتضمن قاعة كبيرة تحيط بها من ثلاث جهات غرف صغيرة للتماثيل ، ويحلى أحد جدرانها ما يعرف بواجهة القصر ، وقد نقش فى الجدار المقابل ما يمثل أبوابا حقيقية (صورة ٦٠)[٢] . ويتقدم مقبرة سنب غربى الهرم الأكبر بناء مربع من اللبن تعلوه قبة هى أقدم قبة معروفة فى مصر[٣] ؛ وهكذا اهتدى المصرى القديم فى وقت مبكر إلى بناء القباب ؛ على أنه لم يقدر أن يكون لها أثر يذكر فى العمارة المصرية . وإلى جانب المصاطب التى كانت تبنى بالحجر فقد ظل بعضها يبنى باللبن اقتصادا فى التكاليف .

وفى الأسرة السادسة كان من مقابر الأغنياء ما قضت كثرة القاعات فيها على صموت المصطبة ، ومن ذلك مقبرة مرروكا فى صقارة وتشتمل على ٢١ غرفة للرجل و ٦ غرف للزوجة و ٥ غرف للابن ؛ وتتضمن بهو أعمدة كبير فى أحد جدرانه مشكاة يقف فيها تمثال لصاحب المقبرة ومن أمامه مائدة قرابين يؤدى إليها درج (شكل ١٥٤) . وهكذا تعتمد سقوف الأبهاء فى بعض المقابر على



(شكل ١٥٤) مقبرة مرروكا

(١) S. Hassan, Excavations at Giza, 1929-1930, p. 1 ff.

(٢) H. Junker, Giza III, S. 187 ff.

(٣) H. Junker, Giza V, S. 30 ff. ; XII, S. 40 ; Hj. Larsen, True Vaults and Domes in Eg. Architecture of the Early Kingdom, Acta Archaeologica 21 (1950), S. 211 ff.

أعمدة ، إذ تكاد الأساطين النباتية تقتصر على معابد الملوك الملحقة بأهراماتهم . ومن الأعمدة ما هو من كتلة واحدة من الحجر ، ومنها ما هو من عدة أحجار مكعبة ، بعضها فوق بعض ، وارتفاعه أربعة أو خمسة أمثال سمكه ، ويقوم مباشرة على بلاط الأرض أو فوق قاعدة صغيرة بحافة منحوتة ،ولا تعلوه ركيزة ؛ وبذلك لايفصله عن العتب فاصل ، وتحليه صورة صاحب المقبرة أو إسمه وألقابه أو زهرة لوطس(١) .

وكانت أطر الأبواب تبنى بالحجر حتى فى المقابر المبنية باللبن ؛ وكان ينقش على عتب الباب وخديه اسم صاحب القبر وألقابه وأحيانا صورته . ومن أجمل ما حفظ من أبواب المقابر من عهد الأسرة الخامسة مصراع باب من لوح واحد من الخشب لشخص يدعى كامحست ؛ وللباب عقبان علوى وسفلى ، وتعترض ظهره سبع عوارض أفقية من الخشب ، ولكنها كانت دون أن تقيه التقوس . وتحلى واجهته صورة كبيرة منقوشة لصاحبه فى نقش غائر دقيق ، ومن خلف ساقه اسم النحات . وهو مثل نادر من أمثلة تسجيل الفنانين والصناع أسماءهم على أعمالهم ، ولم يكن ذلك لضعف فى شخصياتهم ، وإنما لأنه لم يكن لأسم آخر أن يسجل بجانب صورة صاحب المقبرة ، حتى لا يختلط الأمر على الروح عند التعرف على صورة صاحبها ، خاصة وأن الصور لم تكن صورا شخصية محضة تمثل ملامح أصحابها بدقة ، وإنما كانت تمثل الصورة التى يرجى أن يكونوا عليها فى الآخرة (٢) .

ومنذ أواخر الأسرة الرابعة أخذ حكام الأقاليم وكبار الموظفين فى الصعيد يحفرون مقابرهم فى الجبل فى أقاليمهم وذلك لندرة

(١) C.R. Lepsius, op. cit., I, pl. LVII ; G. Jéquier, Manuel d'archéologie égyptienne, p. 157.

(٢) محمد أنور شكرى ، الفن المصرى القديم ، ص ٨٠ وما بعدها .

المساحات المسطحة فى الهضبتين اللتين تكتنفان الصعيد. وقد اتخذت هذه المقابر فى بداية الأمر المظهر الخارجى للمصاطب المبنية(١) ؛ ومن ذلك تكسية الواجهة بكساء من حجر نحيت يميل إلى الداخل قليلا ، يخفى رداءة الصخر ويحاكى واجهة المصطبة. وليس من المقابر الصخرية ما يشبه غيره تماما ؛ بيد أنها فى مجموعها قليلة القاعات وبسيطة فى مخططها. ومنها ما حفرت التماثيل فيها فى الصخر ، وتقع عادة فى مشكاة فى الجدار الخلفى للمقصورة على محور المقبرة. ومن المقابر الصخرية فى أسوان من عهد الأسرة السادسة ماسوى الجبل من أمامه فى شكل مسطح مسور يؤدى إليه درج يتوسطه أحدور صاعد لجر التابوت عليه. ومن أهمها مقبرة سابنى الذى قتل فى إحدى البعثات فى بلاد النوبة فجلب ابنه جثته ودفنها بجوار قبره ؛ وتتألف من بهو استقبال محفور فى الصخر يعتمد سقفه على ثمانية عشر أسطونا مستديرا منحوتة فى الصخر. ويتوسط مؤخرة البهو درج يؤدى إلى مقصورة صغيرة محفورة فى الصخر. فى جدارها الخلفى الباب الوهمى لصاحب المقبرة.

وفى بداية الأسرة الرابعة كانت جدران مقصورة القربان تحلى بالمناظر الملونة. منها ما يمثل حرث الأرض وصيد السمك والطير وحيوان الصحراء وصناعة القوارب ، وتقديم القربان من شراب وطعام. ومن أبدع ما حفظ من هذه الصور ست أوزات من نوعين مختلفين ، أحكم الفنان تصويرها حسب ألوانها الطبيعية وصفاتها الجوهرية على طلاء رقيق أشهب فوق طلاء من طين وتبن(٢).

وفى الأسرة الخامسة والسادسة أخذت المناظر تكثر وتتنوع ، وتتابع جنبا إلى جنب. وتتوالى فى صفوف متعاقبة ، تمثل صاحب

(١) H. Brunner, Die Anlagen der aegyptischen Felsgraeber bis zum Mittleren Reich.

(٢) N. M. de G. Davies, Ancient Egyptian Paintings, vol. I, pl. I.

المقبرة في حجم كبير يتناول طعامه وهو يستمتع بالموسيقى والرقص والغناء ، أو وهو يصيد الحيوان أو الطير أو الأسماك ، أو وهو يشرف على ما يؤدى أمامه من أعمال مختلفة ، منها ما يصور الزراع يكدسون الحبوب ويكيلونها ، والنجارين يصنعون قطع الأثاث ، والمثالين ينحتون التماثيل ، والصاغة يصوغون الحلى ، بينما يزن أحد الكتبة الذهب . ومن هذه المناظر والصور ما يعلوه إفريز يتخلله خط متكسر وخطوط رأسية قصيرة ، أو إفريز من مثلثات قصيرة على هيئة أسنان المشط . ومنها ما يمتد في أسفله شريط بلون أحمر بين خطين بلون أسود . وقد يحيط بكل جدار منقوش أو مصور من أعلى ومن الجانبين إطار مؤلف من مربعات أو مستطيلات بألوان مختلفة تفصلها في بعض الأحيان خطوط ؛ وقد شاع هذا الأطار حتى نهاية العصر الفرعونى وخاصة فى المقابر حتى ليسمى بالأطار المصرى .

وتضفى المناظر الملونة ، منقوشة أو مصورة ، على المكان بهجة وجمالا وسط البيئة الصحراوية المنعزلة عن الحياة . وفى أواخر الدولة القديمة وجدت بعض هذه المناظر سبيلها إلى غرفة الدفن ، حتى إذا تعرضت المناظر فى الجزء المبنى فوق سطح الأرض للتلف أو الضياع كان فيما تصوره الجدران المحيطة بالميت من طعام وشراب وكساء ما يسد حاجته منها .

ومن أهم العناصر المعمارية فى مقابر الدولة القديمة ما يعرف بالباب الوهمى ؛ وهو صورة فى الحجر أو الخشب لباب حقيقى ، كان واسطة الاتصال بين الجزء العلوى من المقبرة ، حيث كانت تقدم القرابين وتؤدى الطقوس الجنائزية ، وبين غرفة الدفن ، حيث جثة الميت . وكان يعتقد أن الميت يخرج منه ليتلقى ما يقدم له من قربان أمامه ثم يعود فيدخل منه إلى قبره ؛ كما أنه باب للروح يرشدها إلى الطريق الذى يمكنها أن تزور جثمان صاحبها عن سبيله ، وإلى المكان الذى يمكن أن تنعم فيه بما يقدم لها من قربان أمامه

(صورة ٦١) . وقد يثبت فى واجهة المصطبة أو فى الجدار الغربى لمقصورة القربان ؛ ويتوسطه أخدود ضيق يمثل فتحة الباب ، ويخلو فى أغلب الأحيان من أى نقش أو حلية ؛ بيد أنه قد يمثل عليه صاحبه . ويعلو الأخدود لفيفة تمثل حصيرة مطوية ، ينقش عليها ألقاب الميت وإسمه ؛ ومن فوقها لوحة بين عتبين ، عليها صورة الميت مع زوجته فى كثير من الأحيان أمام مائدة القربان عليها أطعمة مختلفة . وعلى كل من العتبين ألقاب الميت واسمه . يسبقهما فى كثير من الأحيان على العتب العلوى تعويذه القربان . وتكتنف الباب عضادتان أو أربع أو ست عضادات ، عليها تعاويذ وألقاب الميت وصورته واقفا متجها تارة إلى خارج الباب بما يكنى عن خروجه من قبره ، وتارة آخرى ووجهه إلى داخل الباب بما يومىء إلى أنه يدخل قبره . وقد تنقش على العضادات أيضا صور بعض أفراد الأسرة وحملة القرابين مقبلين لزيارة فقيدهم وتقديم القربان له . وأكثر الأبواب الوهمية من الحجر الجيرى ، على أن منها ما هو من حجر الجرانيت ركب فى أعلاه لوح من الحجر الجيرى عليه منظر مائدة الطعام ؛ ومنها ما هو من ألواح من الخشب يجمعها معا سيور من جلد .

ومن الأبواب الوهمية فى الأسرتين الرابعة والخامسة أبواب فاخرة محلاة على طراز واجهة القصر ؛ وتتألف من صورة باب ذى مصراع واحد يكتنفه عدد من المشكاوات البسيطة أو المزدوجة (صورة ٦٢) ، وتخفف من حدة الخطوط الرأسية عناصر زخرفية فى صفوف أفقية ، تكوّن والخطوط الرأسية وحدة متسقة تدل على حسن ذوق وقدرة على الإبداع ؛ ومن أجمل الأمثلة بابان وهميان فى متحف القاهرة . ويغلب على الظن أن الأفراد اتخذوا الأبواب الوهمية الفاخرة عن الملوك ، إذ يظن أن المعابد الجنائزية كانت تحوى منذ بداية الأسرة الرابعة أبوابا وهمية فاخرة .

ومنذ أواسط الأسرة الخامسة من الأبواب الوهمية ما تحيط به خيرزانة ، ويتوجه الكورنيش المصرى ، وتحليه زخارف تحاكى الحصير الملون ، وتتألف من مستطيلات ومربعات أو من خطوط متموجة ، متوازية ومضادة أو متقاطعة ، تنشىء فيما بينها معينات أو مسدسات بألوان مختلفة . ومنها ما يبرز من وسطه أو من كل من جانبيه تمثال صاحب المقبرة ، كما أن منها ما يبرز من أسفله تمثال نصفى لصاحبه يمثله وكأنه يصعد من قبره ، باسطا يديه ليتاقى فيهما القربان (١) . وفى أواخر الأسرة السادسة والفترة الوسيطة الأولى كان يمثل على بعض الأبواب الوهمية مصراعان ومزلاج وعينان ؛ على أن من الأبواب ما اختفت من عليه صورة الباب أو صغرت كثيرا ، وبرزت عليه صورة الميت وحده أو مع زوجه ، وبذلك غدا الباب الوهمى أشبه بنصب . وتعتبر الدولة القديمة العصر الذى ساد فيه الباب الوهمى ، إذ لا يظهر إلا قليلا فى مقابر الدولة الوسطى وأقل من ذلك فى مقابر الدولة الحديثة حيث شاعت النصب . ويبدو أن الباب الوهمى أصبح فى الدولة الحديثة والعصر المتأخر من العناصر الزخرفية فى العمارة .

وفى الأسرتين الخامسة والسادسة كانت تكتنف بعض مداخل مقصورات القربان مسلتان صغيرتان جدا عليهما فى بعض الأحيان اسم صاحب المقبرة .

الفترة الوسيطة الأولى

لا يعرف شىء ذو بال عن العمارة الجنائزية فى الفترة الوسيطة الأولى ، غير أنه يبدو من هرم الملك إيبى ، أحد ملوك الأسرة السابعة أو الثامنة فيما يظن ، فى صقارة ، أنه يختلف فى بنائه عن

(١) M.A. Shoukry, op. cit., Abb. 67, 68, 79.

أهرامات الدولة القديمة ، فبدلا من الأضافات الجانبية المائلة كان الهرم فيما يظهر يتألف من نواة من حجر صغير الحجم . يحيط بها جدار من حجر مبنى بملاط من طين ، وربما كان يكسوه كساء من حجر جيرى جيد ؛ وكان مدخله فى الشمال ، وتغطى جدران غرفة الدفن متون الأهرام[١] . وهو مع ذلك هرم صغير لايزيد حجمه على حجم هرم الملكة نيت ، ولم يكمل بناوءه ، وتنقصه المبانى الملحقة بأهرامات الدولة القديمة . ويدل ذلك على فقر وضعف فى السلطان تعرضت له الملكية منذ أواخر الأسرة السادسة ، فاعتدى على ما أنشىء من أهرامات ، وخربت معابدها ، وحطمت تماثيلها ،وهو ما تشير إليه أيضا النصائح الموجهة للملك مريكارع وقد جاء فيها : لا تضر أثر غيرك ... لاتبنى قبرك مما تهدم[٢] .

وإذ كانت تلك الفترة عهد اضطراب وفتن داخلية فقد اعتمد حكام الأقاليم على أنفسهم فى رعاية شئون أقاليمهم وضبط أحوالها . وكان مما يودعونه مقابرهم تماثيل جند ، ومن ذلك مجموعتان من الخشب لحاكم أسيوط ، تتألف كل منها من أربعين جندياً ، وتمثل إحداهما فرقة مصرية مزودة بحراب ذات أسنة من البرنز وفى أيدى الجند تروس من ألوان مختلفة ؛ وتمثل الأخرى فرقة من الرماة سلاحهم أقواس وسهام بأسنة من الظران .

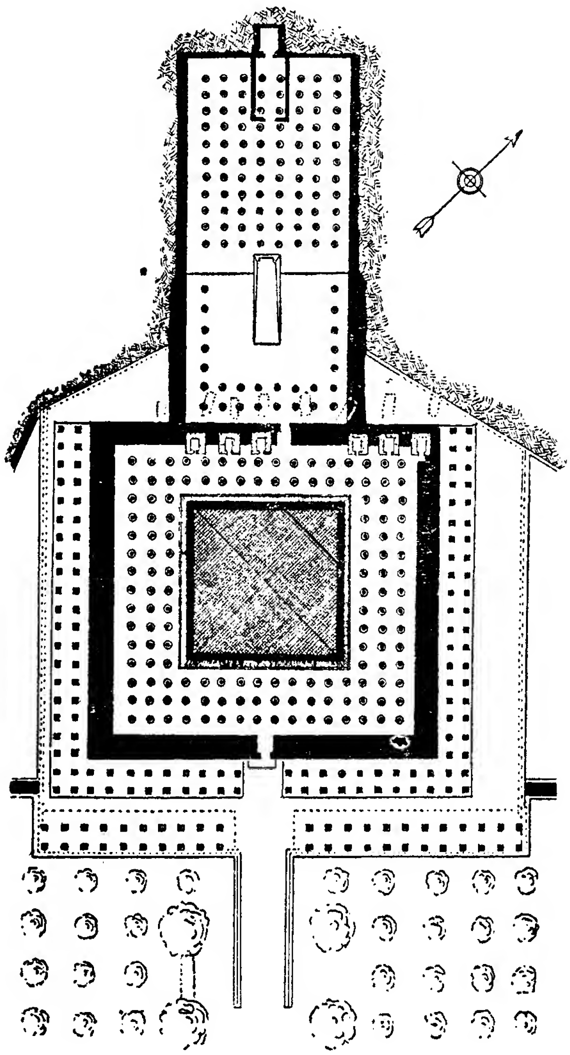
الدولة الوسطى

ومنذ أن استطاع ملوك الدولة الوسطى توحيد البلاد من جديد وإقامة حكم قوى رشيد استعادت البلاد قدرتها على الخلق والأبداع . وتمثل مقبرة الملك نب حبت رع منتوحتب فى غربى طيبة فترة

(١) G. Jéquier, La pyramide d'Aba.

(٢) J.A. Wilson, The Instruction for King Meri-Ka-Re, in Ancient Near Eastern Texts, p. 416.

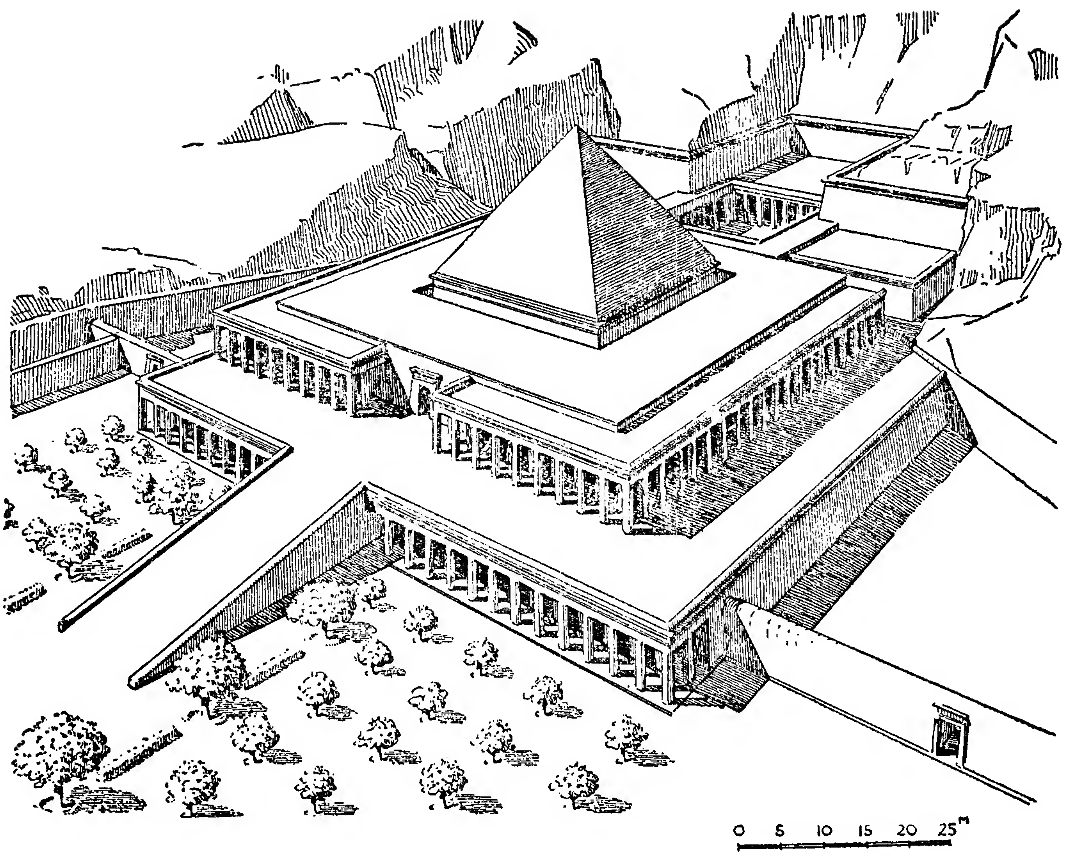
تطور وازدهار فى العمارة فى بداية الأسرة الحادية عشرة ؛ وهى تقع فى مكان يشرف عليه جبل عال مما دعا إلى بنائها على طراز مبتكر ، يدل على حسن تفكير وذوق فنى جميل ؛ ويختلف اختلافا واضحا عن طراز المقبرة الملكية فى الدولة القديمة وإن كان يتألف من عناصرها التقليدية(1) . وكان لها معبد على حافة الصحراء ؛ يخرج منه طريق صاعد عريض غير مسقوف ؛ رصفت أرضه باللبن وغشيت بملاط من طين ويكتنفه جداران من الحجر الجيرى ، ويبلغ طوله نحو ١٢٠٠ متر وعرضه ٣٥ مترا ؛ وكانت تتخلله تماثيل واقفة للملك من الحجر الرملى ، تمثله برداء اليوبيل .



(شكل ١٥٥) مخطط المعبد الجنازى لهرم الملك نب حبت رع منتوحتب

ولما كان المكان الذى اختير للمقبرة يقع فى حضن جبل سامق ؛ من شأنه أن يؤثر فى منظر المعبد الجنازى والهرم تأثيرا سيئا إن ظلا

(1) E. Naville, The XIth Dynasty Temple at Deir el-Bahari, 3 vols. ; H.E. Winlock, Excavations at Deir el-Bahri, 1911-1931 ; H.E. Winlock, The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, p. 38 ff.



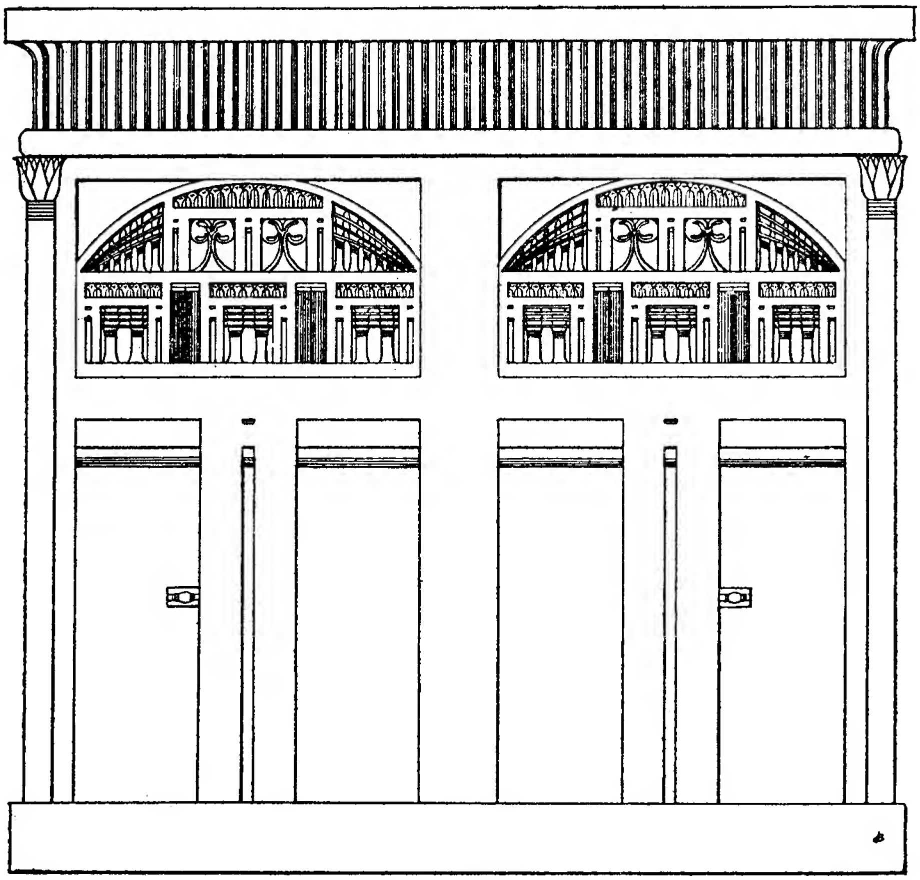
(شكل ١٥٦) منظور المعبد الجنازى للملك نب حبت رع منتوحتب

على طرازها القديم ، فقد جعل البنّاء منهما وحدة معمارية فى مسطحين كبيرين يلى أحدهما الآخر ويعلوه (شكل ١٥٥ و ١٥٦) . ويشغل المسطح الأول فناء فسيح ، فى مؤخرته صفتان عريضتان ، فى كل صفة صفان من أعمدة مربعة ، وبين الصفتين أحدور صاعد يؤدى إلى المسطح الثانى . وكان يكتنف الأحدور صفان من شجر الجميز ، فى كل صف أربعة أشجار ، وتحت كل شجرة تمثال جالس للملك ؛ وعن يمين ويسار صفوف من أشجار الأثل تكوّن أجمة[1] .

وتتوسط المسطح الثانى قاعدة مرتفعة كان يقوم فوقها هرم

(١) عثر على مخطط قديم لهذه الأجمة ، انظر : H.E. Winlock, Excavations at Deir el-Bahri, p. 50, fig. 5.

مسمط ، ويحيط بها بهو يتخلله ١٤٠ عمودا مثمنا . وكان يقوم أمام البهو وفى كل من جانبيه رواق يحتوى على صفين من أعمدة مربعة ، وكان فى مؤخرة البهو ست مقصورات تعلو قبور بعض نساء البيت المالك . وكان يتوج جدران كل مقصورة الكورنيش المصرى ،



(شكل ١٥٧) بابان وهميان فى مقصورة الأميرة عشايت

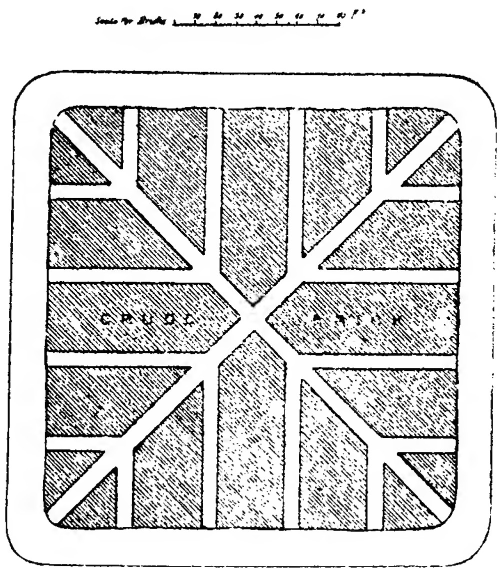
ويبرز من كل من أركانها الأربعة أسطون لوطسى ، ويحلى كل جدار من الداخل ، فيما عدا جدار المدخل ، بابان وهميان (شكل ١٥٧) . وكان من وراء المقصورات فناء ثان تحيط بثلاثة جوانب منه ثلاث صفات بأعمدة مثمنة ، ويليه بهو يشتمل على ثمانين عموداً مثمناً فى عشرة صفوف ، وفى جداره الخلفى قدس الأقداس محفور فى الصخر .

وفى أرض الفناء الأول مدخل دهليز هابط طوله ١٥٠ مترا ، محفور فى الصخر بسقف مقبى . ويؤدى إلى غرفة سقفها مقبى أيضا ، تقع على عمق كبير تحت الهرم ، وقد وجد فيها تمثال من الحجر الرملى للملك بتاج الوجه البحرى ورداء اليوبيل ، ملفوف فى كتان رقيق ، وتابوت من خشب ، ويبدو أنها كانت قبرا تذكاريا ذا علاقة باليوبيل الملكى . وتؤدى بئر من أرض هذه الغرفة إلى قاعة أخرى وجدت فيها أوان وثلاثة نماذج قوارب . وفى أرض الفناء الثانى مدخل دهليز آخر محفور فى الصخر ، وسقفه مقبى وطوله نحو ١٥٠ مترا ، ويؤدى إلى قاعة على عمق كبير تحت الجبل ، جدرانها مكسوة بحجر الجرانيت وسقفها أحدب . وقد وجد فيها ناووس من المرمر المصرى كان غطاؤه من حجر الجرانيت .

وهكذا احتفظ البناء بالشكل الهرمى للمقبرة الملكية ، ووفق فى إبرازها فى مكانها أمام الجبل المرتفع ، إذ كان يرتقى إليها من مسطح إلى مسطح ، تتقدمهما الأعمدة فى مستويين ، حيث تتكسر عليها الأضواء والظلال مما لا بد أن كان له وقع جميل فى النفس . ولعل مما ساعده على ما أحدثه من تعديل فى الطراز التقليدى للمقبرة الملكية فى عهد الدولة القديمة ما تعرضت له من إتلاف وإهمال فى الفترة الوسيطة الأولى ؛ على أن اهتداءه إلى الطراز الجديد الذى يوائم الموقع الجبلى وخاصة فى أعقاب تلك الفترة المظلمة التى انحطت فيها الفنون والصناعات ليدل على أصالته ونبوغه . ولا يخلو من مغزى أن الأعمدة فى الصفتين فى مؤخرة المسطح الأول كانت مربعة ، وكذلك كانت الأعمدة التى تحيط بالجوانب الثلاثة الأمامية من البهو فى المسطح الثانى ، بينما كانت أعمدة الجزء الخلفى من المعبد (البهوين والفناء بينهما) مثمنة ، وهو تدرج مقصود فيما يبدو ، فضلا عن أن الأعمدة المربعة ، وهى أول ما يرى من المعبد ، تتسق

والجبل المحيط . ومهما يكن من أمر فقد كانت تتقدم المعبد أجمة تخفف خضرة أشجارها كثيرا من جدب المكان ووحشته .

وأهرامات الأسرة الثانية عشرة أكبر من أهرامات النصف الثانى من الدولة القديمة ، فمنها ما يزيد طول ضلع قاعدته المربعة قليلا على مائة متر ، ويبلغ ارتفاعه من ٦٠ إلى ١٠٠ متر وزاويه ميله ٥٥ درجة . ويختلف أغلبها فى بنائه عن أهرامات الدولة القديمة، إذ بدلا من بنائها من نواة وإضافات جانبية مائلة ، يتألف كل منها



(شكل ١٥٨)
قطاع فى أحد أهرامات الأسرة الثانية عشرة

من عدد من الجدران من الحجر أو اللبن ، تمتد من مركز الهرم إلى أركانه الأربعة وإلى وسط كل جانب ، وقد تتفرع منها جدران أخرى (شكل ١٥٨) . وكان الفراغ بين الجدران يملأ بالأنقاض والرمل أو باللبن ، ثم كان الهرم يحاط بعد ذلك بكساء من الحجر الجيرى الجيد . وقد يرجع هذا الطراز من البناء إلى الرغبة فى الانتهاء من بناء الهرم فى أقصر وقت ممكن ؛ وربما أدى إليه أيضا ما ثبت

من أن طراز بناء أهرامات الدولة القديمة لم يقها النهب والعطب. ومنذ سنوسرت الثالث كانت نواة الهرم تبنى بأكملها بمداميك أفقية من اللبن دون استخدام جدران ساندة. وكان يعلو الهرم هريم من كتلة واحدة من حجر مصقول من الجرانيت أو البزلت؛ وفى المتحف المصرى هريم لأمنمحات الثالث من جرانيت أشهب وعليه نقوش بخط هيروغليفى جميل. على أن كساء أهرامات الدولة الوسطى قد زال، ولذلك ليس لها ما لأهرامات الدولة القديمة من فخامة وروعة.

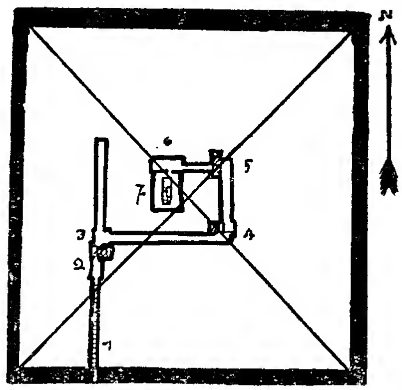
وكان مدخل الهرم أول الأمر فى الجانب الشمالى منه على نحو ما كان فى الدولة القديمة، ومنذ سنوسرت الثانى أخذ البنّاء يغير مكانه رغبة فى إخفائه عن لصوص المقابر فجعله فى الجنوب أو الغرب أو الشرق من الهرم. على أن ذلك لم يفد شيئا، فقد نهب اللصوص ما كان يودع فى الأهرامات من نفائس، وغطت الأنقاض المدخل فى بعض الأحيان مما اقتضى المنقبين من علماء الآثار وقتا طويلا وجهدا كبيرا قبل الاهتداء إلى مكان غرفة الدفن. ولا تختلف أهرامات الأسرة الثانية عشرة فى غرفها ودهاليزها كثيرا عن أهرامات الدولة القديمة[1]؛ غير أنها تختلف عنها فيما اتخذ فيها من وسائل لتأمين غرفة الدفن وصيانة ما كان يودع فيها من ذخائر. فلم يكتف بناؤوها بالمتاريس التى استخدمها بناؤو الدولة القديمة، وإنما عمدوا أول الأمر إلى سد الدهليز المؤدى إلى غرفة الدفن بكامل طوله تقريبا بأحجار الجرانيت التى يبلغ طول كل حجر منها

---

(١) يشتمل هرم كل من أمنمحات الأول وسنوسرت الأول على دهليز منحدر يؤدى إلى بئر تفضى بدورها إلى غرفة الدفن؛ وقد سد مدخل دهليز هرم سنوسرت الأول بحجرين من الجرانيت طولهما أحد عشر متراً وعشرة أمتار على التوالى. ويحيط بهرم سنوسرت الثانى فى اللاهون خندق محفور فى الصخر يظن أنه كان مملوءاً برمل يمتص ما كان يمكن أن يسقط على الهرم من مطر. وكان يحف بالسور المحيط بالهرم صف من الشجر فى الجنوب والشرق والغرب.

من ثلاثة إلى خمسة أمتار ، وإقامة بئر من وراء ذلك ، وتغيير المكان التقليدى لمدخل الهرم .

وفى هرم أمنمحات الثالث فى هوارة (شكل ١٥٩) عمد البنّاء إلى حيل أخرى مختلفة لتضليل اللصوص (١) ، منها كثرة الدهاليز والغرف ، وبعضها لا يؤدى إلى شىء ، أو يقع فى مستوى أعلى ومدخله فى السقف ، تخفيه كتلة من الحجر تزن عشرين طنا . ومنها كذلك ملء نصف الردهة المقابل لمدخل غرفة الدفن بالأحجار مع أنه ليس وراءها غير جدار صلد . وعلاوة على ذلك فقد حفرت فى كل من طرفى الردهة بئر كاذبة وملئت بالحجر لإغراء اللصوص بأنها الطريق إلى غرفة الدفن ، وإضاعة وقتهم عبثا حتى إذا أعياهم البحث فقدوا الأمل فى العثور على مكان الدفن وما يحتويه من ذخائر . وفضلا عن هذا كله فان غرفة الدفن قطعة واحدة من حجر الكورتزيت تزن نحو ١١٠ أطنان ولا مدخل لها (٢) ، وقد نحتت بمهارة فائقة ، وأحكم صقلها . وكان السقف من ثلاثة أحجار كبيرة من حجر الكورتزيت أيضا ، ومن فوقه غرفتان لتخفيف الثقل عنها ، وسقف الغرفة السفلى مسطح ، وسقف العليا أحدب من الحجر الجيرى ، يزن كل حجر منه نحو خمسين طنا . ويعلو السقف الأحدب عقد ضخم من اللبن يحمل ثقل الهرم . ومن القاعات ما سقف أولا بسقف أحدب ثم نحت سطحه الأسفل



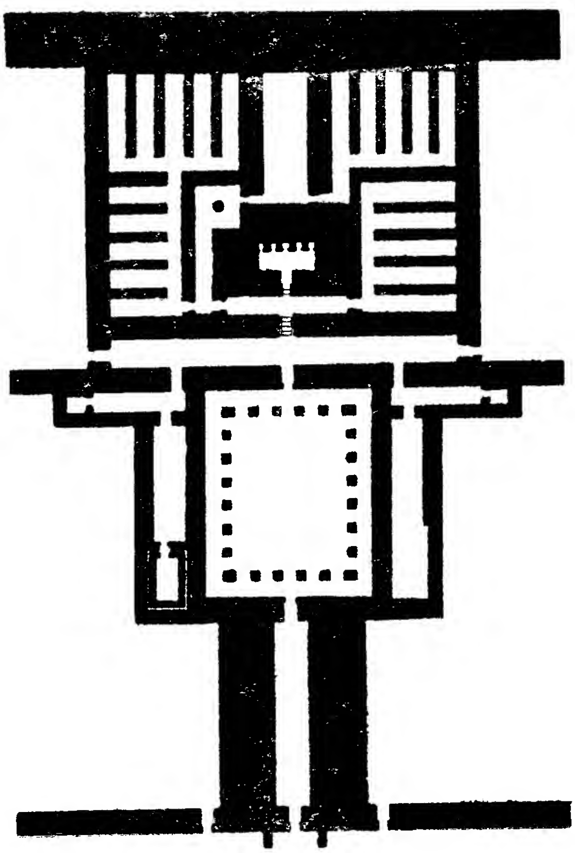
(شكل ١٥٩)
مخطط هرم أمنمحات الثالث فى هوارة

(١) F. Petrie, Kahun, Gurob and Hawara, p. 5 ff.

(٢) ويبلغ طولها من الداخل ٧ أمتار وعرضها مترين ونصف وسمكها حوالى ٥٥ سنتيمترا .

على شكل عقد كاذب ؛ وقد أحكم البنّاء التقاء الأجزاء العليا من الأحجار بمهارة كبيرة بما كفل تحاشى انزلاقها . ورغم هذا كله لم تنج ذخائر غرفة الدفن من السرقة .

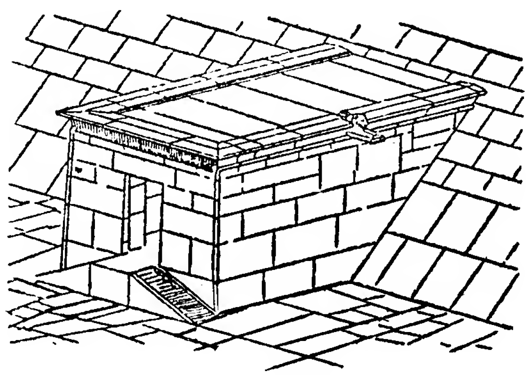
ولا يعرف شيء ذو قيمة عن معبد الوادى والطريق الصاعد لأغلب أهرامات الأسرة الثانية عشرة . وتقع المعابد الجنازية فى الشرق من الأهرامات فيما عدا المعبد الجنازى لأمنمحات الثالث فى هواره ، إذ يقع فى جنوب هرمه . وهو ما سماه الأغريق «التيه» . وكان يؤدى إلى المعبد الجنازى لهرم الملك سنوسرت الأول فى اللشت طريق صاعد مسقوف رقش أسفل جداريه بنقط من لون أحمر وأسود بما يحاكى لون الجرانيت ، وحليت بقية الجدارين بمناظر ملونة . وكانت تقوم فى مشكاوات فى الجانبين تماثيل للملك تمثله واقفا فى هيئة أزيريس بتاج الجنوب أو الشمال . ويبعد كل منها عن الآخر بعشرة أمتار تقريبا ؛ ولعل البنّاء ترسم فى ذلك الطريق الصاعدلمقبرة الملك نب حبت رع منتوحتب فى غربى طيبة(١) .



(شكل ١٦٠)
المعبد الجنازى لهرم سنوسرت الأول

(١) J. Vandier, Manuel d'archéologie égyptienne, t. II, p. 171 sq.

ويشبه المعبد الجنازى معبد بيى الثانى كثيرا . وكانت تقوم على جانبى دهليز المدخل تماثيل أزيرية ، وتحف بالفناء المحاط بالأعمدة تماثيل جالسة للملك ، على نحو ما كانت تحيط بالفناء فى معبد خفرع الجنازى (شكل ١٦٠) . وقد وجد منها عشرة تماثيل بحجم طبيعى ، يكاد كل منها يكون نسخة مشابهة تماما للآخر ؛ وهى تمثل الملك شابا وديعا حلو السمات ترتسم على صفحة وجهه ابتسامة هادئة . وكانت فى الزاوية الشمالية الغربية من الفناء مائدة قربان من حجر الجرانيت . وكان من وراء الفناء مشكاوات التماثيل الخمسة وقدس الأقداس والمخازن ، على نحو يشبه كثيرا ما كان عليه الأمر فى المعابد الجنازية فى الأسرتين الخامسة والسادسة . وكانت



(شكل ١٦١)

المقصورة الشمالية لهرم سنوسرت الأول

تحلى جدران المعبد صور ملونة . وكانت فى شمال الهرم مقصورة قربان يتوجها الكورنيش المصرى ، ولها ميزاب من الحجر الجيرى فى شكل رأس أسد . وبابها فى الشمال يؤدى إليه درجان متقابلان (شكل ١٦١) [١] . وكانت تحلى جدرانها من الداخل نقوش وفى

(١) W.C. Hayes, The Entrance Chapel of the Pyramid of Sen-Wosret I, Bulletin of the Metropolitan Museum of Art (1934), Sect. II, p. 9 ff.

جدارها الجنوبي باب وهى من المرمر المصرى ، ومن أمامه مائدة قربان من جرانيت أشهب . وكان بلاط الأرض يخفى المدخل إلى الهرم . وكان يحيط بالهرم والجزء الخلفى من المعبد الجنازى ومقصورة القربان الشمالية سور من الحجر الجيرى تحليه على مسافات منتظمة لوحات منقوشة بالاسم الحورى للملك يعلوه الصقر وعلى رأسه التاج المزدوج ، ومن دونه واجهة القصر فى نقش دقيق جميل . وكان من حول ذلك كله سور آخر من اللبن يحيط بعدد من أهرامات صغيرة لأفراد الأسرة المالكة وبالجزء الأمامى من المعبد الجنازى . وكان لكل هرم صغير مقصورة فى الشمال ومعبد صغير فى الشرق .

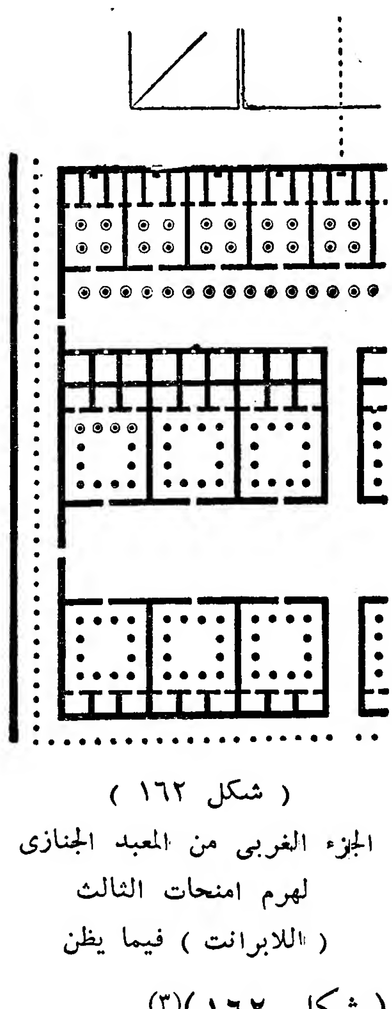
وكان معبد أمنمحات الثالث الجنازى فى هوارة يشغل مايزيد على ٧٠٠٠٠ متر مربع (٣٠٠ × ٢٤٠ مترا) ، وقد عده الأغريق من عجائب مصر ، على أن أحجاره انتزعت منه ، ولم يبق منها غير أكداس من الأنقاض تغطى الأرض . وقد رآه هيرودوت وذكر عنه أنه يجل عن الوصف ، وأنه يفضل الهرم ، وأنه اثنى عشر بهوا مسقوفا ، أبوابها متقابلة . وأن به ثلاثة آلاف غرفة نصفها تحت الأرض ، ونصفها الآخر فوقها ، وأن الغرف العليا تفوق ما أخرجه الإنسان من آثار ، وسقوفها كلها من الحجر مثل الأسوار المحلاة بالصور المحفورة ، وتحيط بكل بهو أعمدة من حجر أبيض متسقة أشد الاتساق [1] .

ووصفه ديودور بأنه لا يدعو للعجب بسبب اتساعه وإنما لدقة صناعته التى لا تحاكى ، وأن من يلجه لا يجد طريقه إلى الخارج فى سهولة ، وأنه مربع الشكل طول كل ضلع فيه ستاد واحد (٣ر١٨٥ من المتر) ، ومزين بالزخارف وسائر الأعمال الفنية ،

(١) وهيب **كامل** : هيرودوت فى مصر ، الفقرة ١٤٨

وأن به بهوا تحيط به الأعمدة ، أربعون منها فى كل جانب ، وسقفه منحوت من حجر واحد مزخرف بصور ورسوم مختلفة [1] .

وذكر استرابو أنه يضارع الهرم ، وأنه قصر كبير مؤلف من قصور كثيرة بعدد أقاليم مصر فى الزمن القديم ، وهو عدد الأبهاء المحاطة بالأعمدة ، وكلها فى صف واحد ، وأمام المداخل أقبية طويلة متعددة يتصل أحدها بالآخر بطرق متعرجة ، وأن كهنة كل إقليم وكاهناته كانوا يوجّهون إلى البهو المخصص لاقليمهم لتقديم القرابين للآلهة وإقامة العدل فى المسائل الهامة[2] .



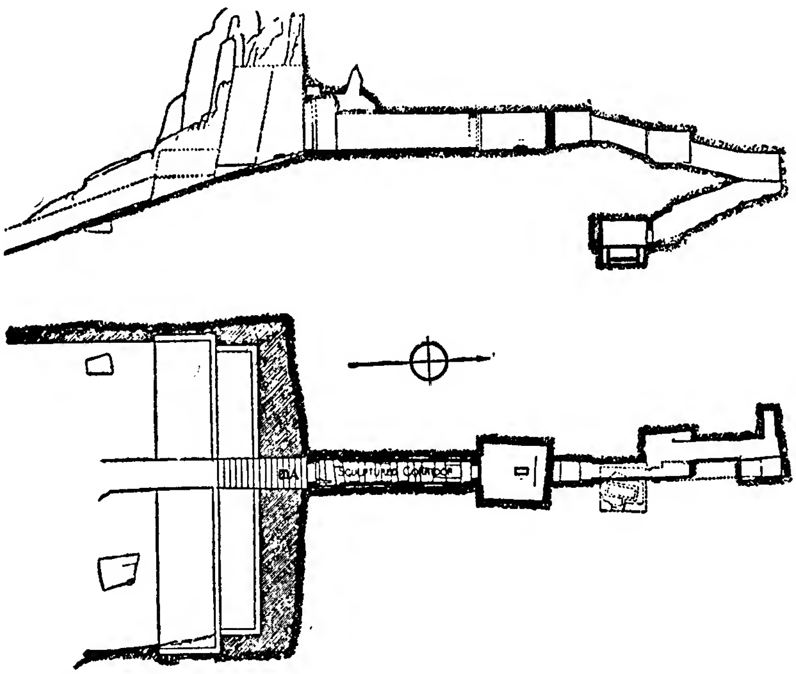
(شكل ١٦٢)
الجزء الغربى من المعبد الجنازى لهرم امنحات الثالث (اللابرانت) فيما يظن

من ذلك يتضح أن هذا المعبد لم يكن على شاكلة المعابد الجنازية الأخرى ، ولعله كان يحتوى على ثلاثة صفوف من عدد كبير من الأفنية ، تحيط بها الأساطين ، ويفضى كل منها إلى ثلاث أوست قاعات ، ويحيط بها جميعا دهليز يعتمد سقفه على صف من الأساطين على نحو ما ذهب إليه بترى (شكل ١٦٢)[3] .

(١) وهيب كامل : ديودور الصقلى فى مصر ، الفقرتان ٦١ و ٦٦
(٢) وهيب كامل : استرابون فى مصر ، الفقرة ٣٧
(٣) F. Petrie, G.A. Wainwright, E. Mackay, The Labyrinth, Gerzeh and Mazghuneh, p. 29.

مقابر الأفراد

تقع مقابر كبار موظفى الدولة من عهد الملك نب حبت رع منتوحتب فى شمال وجنوب مقبرة مليكهم فى غربى طيبة . وكان كل منها يتألف من مدخل عندسفح الجبل ، ومن ورائه مقصورة صغيرة بها تمثال لصاحب المقبرة ، كانت تتيح لأهل الميت تقديم القربان من أمامه مما كان يكفيهم مئونة الصعود إلى المقصورة الرئيسية (١) . وكان المدخل يؤدى إلى طريق صاعد بين جدارين،



(شكل ١٦٣) طراز مقابر الأفراد فى الأسرة الحادية عشرة

يزيد عرضه على عشرين مترا ، ويفضى بدوره إلى فناء قد يحتوى على صفة توفر الظل للأهل والأصدقاء فى الحفلات الجنازية . وقد يكسو الجدار الخلفى الصخرى جدار من اللبن ، على أنه يتوسطه باب يؤدى إلى دهليز ثم مقصورة القربان ، وكل منهما محفور فى الصخر (شكل ١٦٣) . وكانت تكسو جدرانهما ألواح

(١) G. Steindorff, W. Wolf, Die Thebanische Graeberwelt, S. 24 f.

من الحجر الجيرى الجيد ، تحليها صور ملونة ؛ بينما كانت تكسو السقف والأرض ألواح من الحجر الرملى . وفى أرض المقصورة مدخل أحدور يؤدى إلى غرفة الدفن ، كسيت جدرانها بالحجر الجيرى وصور عليها أثاث الميت ، ومنه ملابسه وأدوات زينته وأسلحته وطعامه من فاكهة وخضر ولحم وخبز ، وبجانبها نصوص جنازية بخط هيراطيقى . ومن هذا القبيل غرفة دفن حورحتب الجميلة ، التى أمكن نقلها إلى متحف القاهرة .

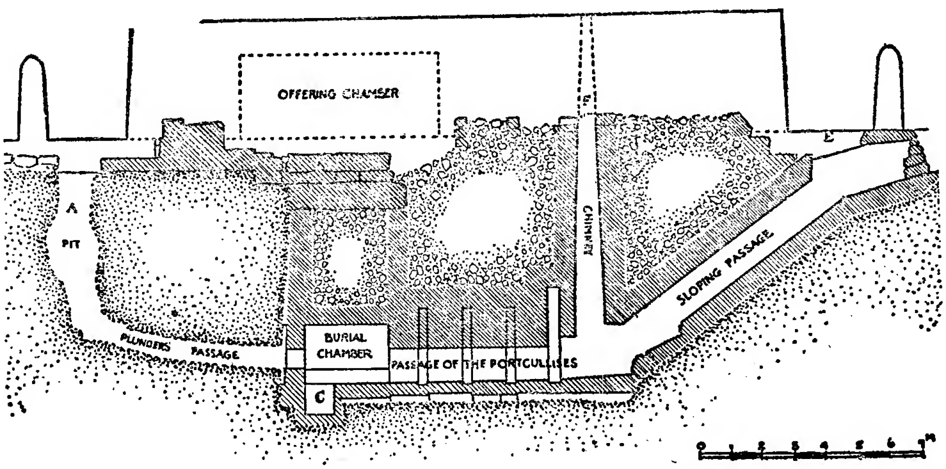
ومن هذه المقابر أيضا مقبرة مكت رع المشرف على قصر الملك نب حبت رع ؛ وتتألف من طريق صاعد بين جدارين من اللبن ، عرضه ٢٣ مترا تقريبا وطوله ٧٣ مترا ؛ وينتهى الطريق بصفة ذات ثمانية أعمدة مثمنة ، لونت بلون حجر الجرانيت (١) . ويتوسط الجدار الخلفى للصفة المدخل إلى دهليز عال ، يزيد طوله على عشرين مترا ، ويؤدى إلى مقصورة مربعة . وكان يكسو جدران الصفة والدهليز ومقصورة القربان حجر جيرى أبيض منقوش بالصور والمناظر . وفى وسط أرض المقصورة المدخل إلى غرفة الدفن . ويتوسط أرض الدهليز مدخل إلى غرفة صغيرة جانبية محفورة فى الصخر ، وجدت مملوءة بمجموعة كبيرة من نماذج من الخشب لكثير من الصناعات والأعمال المختلفة .

ولا يختلف طراز مقابر الأفراد حول هرمى أمنمحات الأول وسنوسرت الأول فى اللشت وحول هرم أمنمحات الثالث فى دهشور عن طراز المصطبة فى أوائل الدولة القديمة (٢) . ومن كبار رجال الحاشية من أقام فى شمال مصطبته مائدة قربان تقابل مقصورة القربان فى شمال الهرم . ومن أهم المقابر بجوار هرم سنوسرت الأول مصطبة سنوسرت عنخ ، مثّال الملك وبنّائه ؛ وكان يكسوها حجر

(١) H.E. Winlock, Excavations at Deir el Bahri, 1911-1931, p. 17 ff.

(٢) De Morgan, Fouilles à Dahchour, 1895, I, pl. 6.

جيرى جيد تحليه مشكاوات على طراز مقابر بداية الأسرات ، ويحيط بها سور من الحجر الجيرى. وقد تهدمت المصطبة ومقصورة القربان . ويؤدى إلى غرفة الدفن دهليز هابط من الشمال ينتهى



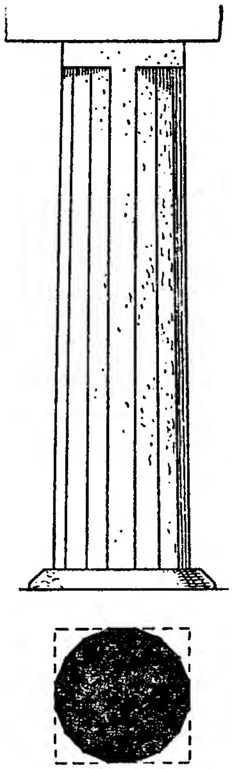
(شكل ١٦٤) مقبرة سنوسرت عنخ

فى قاع بئر ضيقة فى أعلاها ، كانت مملوءة بالحصى والحجارة ، حتى إذا حاول اللصوص نقبها من أسفل إنهارت عليهم الرمال والحجارة . ومن وراء ذلك دهليز أفقى تتخلله أربعة متاريس ، ويفضى إلى غرفة الدفن ، التى يحلى جدرانها جزء كبير من متون الأهرام وصورة باب وهمى (شكل ١٦٤)(١). ومع ذلك لقد جاء فى قصة سنوحى أنه أقيم له هرم من الحجر فى منطقة الأهرامات وأن رئيس الرسامين رسم صوره ، ونقشها رئيس النقاشين .

وبلغت أقاليم الصعيد غاية ازدهارها فى النصف الأول من الأسرة الثانية عشرة ؛ وقد حفر حكامها مقابرهم فى أماكن ممتازة فى سفح الهضبة حيث تشرف على النيل والحقول الخضراء . ومن أشهر مقابر ذلك العهد مقابر بنى حسن والبرشا وأسيوط وقاو الكبير

(١) A. Lansing, Bulletin of the Metropolitan Museum of Art, Sect. I, p. 9 ff.

وأسوان . وكان يؤدى إلى مقابر بنى حسن طريق صاعد [1]، ويتقدم المقبرة فناء ، بعضه مبنى وبعضه محفور فى وجه الجبل فى شكل صفة (صورة ٦٣) ، ويليه مقصورة قربان . وتمتاز الصفة بجمالها وبساطتها معا ، وتشتمل على عمودين مثمنين أوذوى ستة عشر ضلعا (شكل١٦٥ أ) ، وتعلو كلا منهما ركيزة يعتمد عليها العتب الذى يجمعهما معا [2] . ومقصورة القربان محفورة فى الصخر وتحتوى على أربعة أعمدة ذات ستة عشر ضلعا مقبى [3] فى صفين يقسمانها إلى ثلاثة أروقة ، وفى جدارها الخلفى وعلى محور المقبرة مشكاة نحت فيها تمثال لصاحب المقبرة ومعه فى بعض الأحيان تمثال زوجته (صورة٦٤) ، وهما يقومان مقام السرداب فى مصاطب الدولة القديمة . وتمتد أعتاب الأعمدة موازية محور المقبرة الرئيسى بدلا من أن تتعامد عليه . وسقف الرواق الأوسط مقبى قليلا ويتفق محوره



(شكل ١٦٥ أ)
عمود ذو ستة عشر ضلعا

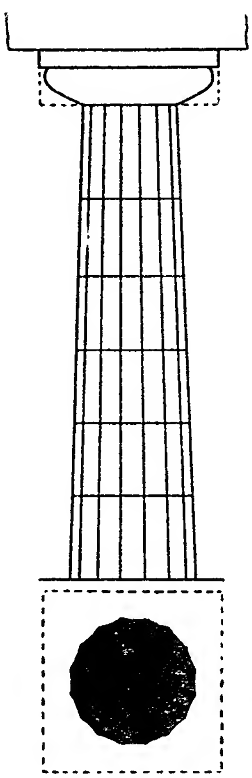
(١) كان من مقابر البرشا ماله مقصورة عند بداية الطريق الصاعد .

(٢) P.E. Newberry, Beni Hasan, 4 vols.

(٣) إن شيوع الأعمدة المثمنة وذات الستة عشر ضلعاً فى الدولة الوسطى واستخدام أعمدة نصفها الأمامى نصف عمود مربع ونصفها الخلفى نصف عمود ذى ستة عشر ضلعاً علاوة على الأعمدة ذات الستة عشر ضلعاً فى معبد حاتشبسوت الجنازى (الدير البحرى) ليدعوإلى التفرقة بينها وبين الأساطين المقناة فى مبانى زوسر مما دعانا إلى تسميتها أعمدة وإن كان منها ما قنيت أضلاعه وذلك رغم أن جميع المصادر الأفرنجية تعتبرها من قبيل الأساطين فيما عدا جان كابار . ويزكينا فى هذا أن الأعمدة المثمنة والأعمدة ذات الستة عشر ضلعاً مرحلتان تاليتان فيما يبدو فى مصر على الأقل للعمود المربع ، وتؤيد ذلك الأعمدة التى يجمع العمود الواحد منها بين نصف عمود مربع ونصف عمود ذى ستة عشر ضلعاً . وإن كان لم يظهر إلا فى معبد حاتشبسوت . وقد ترجع تقنية بعض الأعمدة إلى تقليد الأساطين المقناة من الخشب فى القصور والبيوت آنذاك ، وإن لم يحفظ منها شىء ، وهو أولى بالاحتمال ، أو يكون البناء قد ابتدعها أو حاكى فيها الأساطين المقناة فى مبانى زوسر ، وهوأمر بعيد الاحتمال .

الرئيسى واتجاه أعتاب الأساطين مما يزيد فى توكيد محور المقبرة . وتحلى الجدران صور متنوعة ، يمثل بعضها موضوعات جديدة كصور الغزل والنسج وصناعة السكاكين من الظران ؛ وتحلى السقوف رسوم هندسية تمثل الحصير . وقد سجل أحد الحكام أن أبواب قبره كانت من خشب الأرز ، وارتفاعها سبع أذرع ، أى ما يزيد على ثلاثة أمتار ونصف.

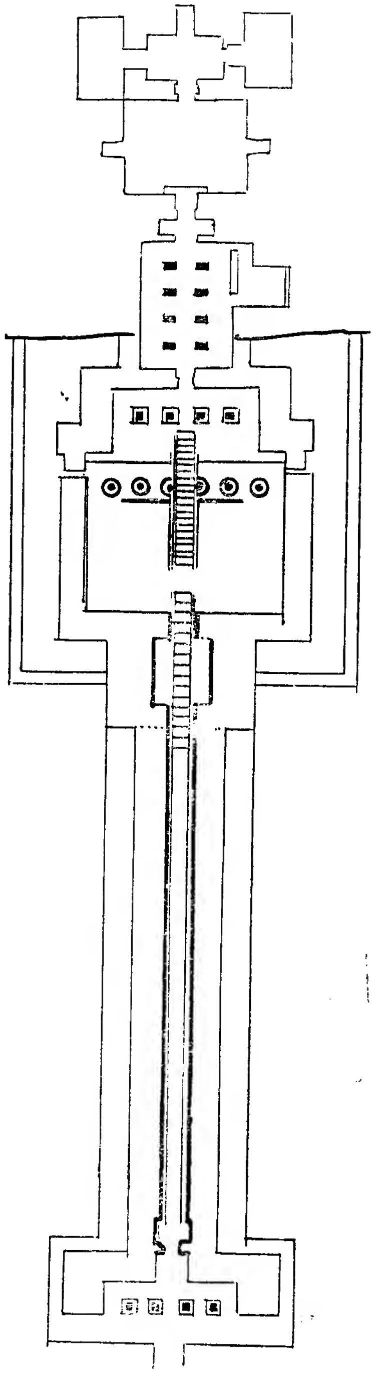
ويظن أن الأعمدة المثمنة والأعمدة ذات الستة عشر ضلعا مرحلتان فى تطور العمود المربع ، وذلك بنحت زواياه أو زوايا العمود المثمن(١). وقد شاعت الأعمدة ذات الأضلاع فى الدولة الوسطى ، على أن منها ما أصبحت أضلاعه تقنى قليلا . ومن الأضلاع ما ظل مستويا ونقش فيه سطر رأسى من الكتابة الهيروغليفية ؛ ولم يلبث أن اتسع عرض الضلع المنقوش على حساب سائر الأضلاع الأخرى المقناة . وتضفى الأضلاع سواء كانت مستوية أو مقناة على العمود جمالا يزيده تكسر الأضواء والظلال عليه. وقد سمى شمبليون الأعمدة ذات الستة عشر ضلعا مقنى أساطين برتودورية أى السابقة على الأساطين الدورية فى بلاد الاغريق ، وذلك للمشابهة الكبيرة بينهما . على أن العمود المصرى يقوم على قاعدة وليس له تاج وإنما تعلوه ركيزة تبرز عن العمود فى الأركان الأربعة فقط ، ومن أضلاعه ما هو مستو غير مقنى ويحمل سطرا من نقوش .ويمتاز الأسطون الدورى بأنه ليس له قاعدة وإنما يبرز من الأرض مباشرة ، وأن قطره يتضاءل بشكل ملحوظ من أسفل إلى أعلى ، وأن تاجه يبرز كثيرا عن


(شكل ١٦٥ ب)
عمود دورى

(١) أنظر : S. Clarke, R. Engelbach, Ancient Egyptian Masonry, p. 136 f.

ساقه (شكل ١٦٥ ب)[1] . ولا سبيل إلى القول على وجه التحقيق بأن الاغريق أخذوا طراز هذا الأسطون عن مصر ، على أنه لا ينكر أنهم فى زياراتهم لمصر فى العصر الصاوى قد شاهدوه فى المعابد والمقابر ، وأن الفن الاغريقى تأثر فى بدايته بالفن المصرى .

وكانت مقابر حكام قاو الكبير من طراز مبدع يذكّر بمعابد أهرام الدولة القديمة ومعبد نب حبت رع منتوحتب ، إذ كانت تتألف مما يقابل معبد الوادى والطريق الصاعد والمعبد الجنازى (شكل ١٦٦ وصورة ٦٥)[2] . وكان يكسو جدران الطريق الصاعد من الداخل حجر جيرى منقوش ، وفى السقف فتحات على مسافات منتظمة يدخل منها النور . ويقع المعبد الجنازى على مسطحين ، يشغل المسطح الأول فناء فى مؤخرته صفة ، أو تحيط به الأعمدة المضلعة ، وتحلى جدرانه صور عن حياة الحاكم . وتشغل المسطح الثانى صفة ، قد يتقدمها فناء مكشوف ، ويليها بهو أعمدة محفور فى الصخر يدخل الضوء إليه من كوة عالية فى آخره ؛ ويلى ذلك القسم الخاص من

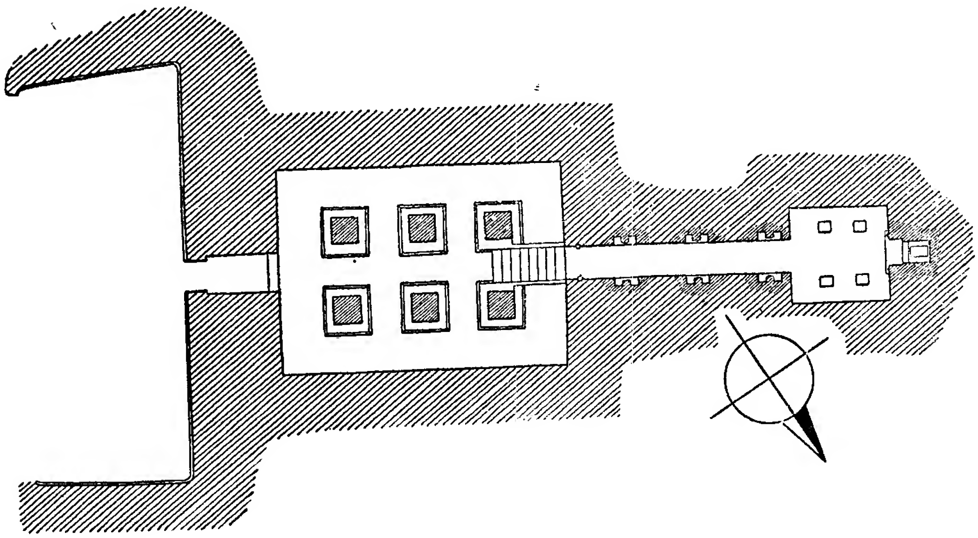


(شكل ١٦٦) مخطط مقبرة واح كا الأول فى قاو

(١) نفس المرجع صفحة ١٣٧

(٢) H. Steckeweh, Die Fuerstengraeber von Qaw.

المعبد ، وهو محفور فى الصخر أيضا ، ويتألف من قاعة مستعرضة كبيرة تؤدى إلى المقصورة ، وتكتنفها قاعتان . وكانت القاعة المستعرضة تضم عدة تماثيل وتحلى سقفها المقبي قليلا رسوم جميلة ،



(شكل ١٦٧) مقبرة سارنبوت الثانى

منها رسوم حلزونية ونخيلات . وكان فى المقصورة التمثال الرئيسى ؛ وفى أرض كل من القاعتين الجانبيتين مدخل دهليز هابط إلى غرفة دفن صاحب المقبرة أو زوجته .

ومن مقابر أسوان ما يعد بحق من أفخم المقابر المصرية على وجه الإطلاق إذ تمتاز بجمال موقعها ، وجلال نسبها ، ووضوح أجزائها المعمارية ، وحسن تنظيمها ، وبهجة ألوان صورها (١) . وهى تقع فى مكان مرتفع تشرف منه على منظر رائع من النيل ، ويؤدى إلى كل منها درج طويل يتوسطه أحدور كان ليجر عليه التابوت . وعلى رأسها جميعا مقبرة سارنبوت الثانى (شكل ١٦٧ وصورة ٦٦) ،

(١) H.W. Mueller, Die Felsengraeber der Fuersten von Elephantine aus der Zeit des Mittleren Reiches.

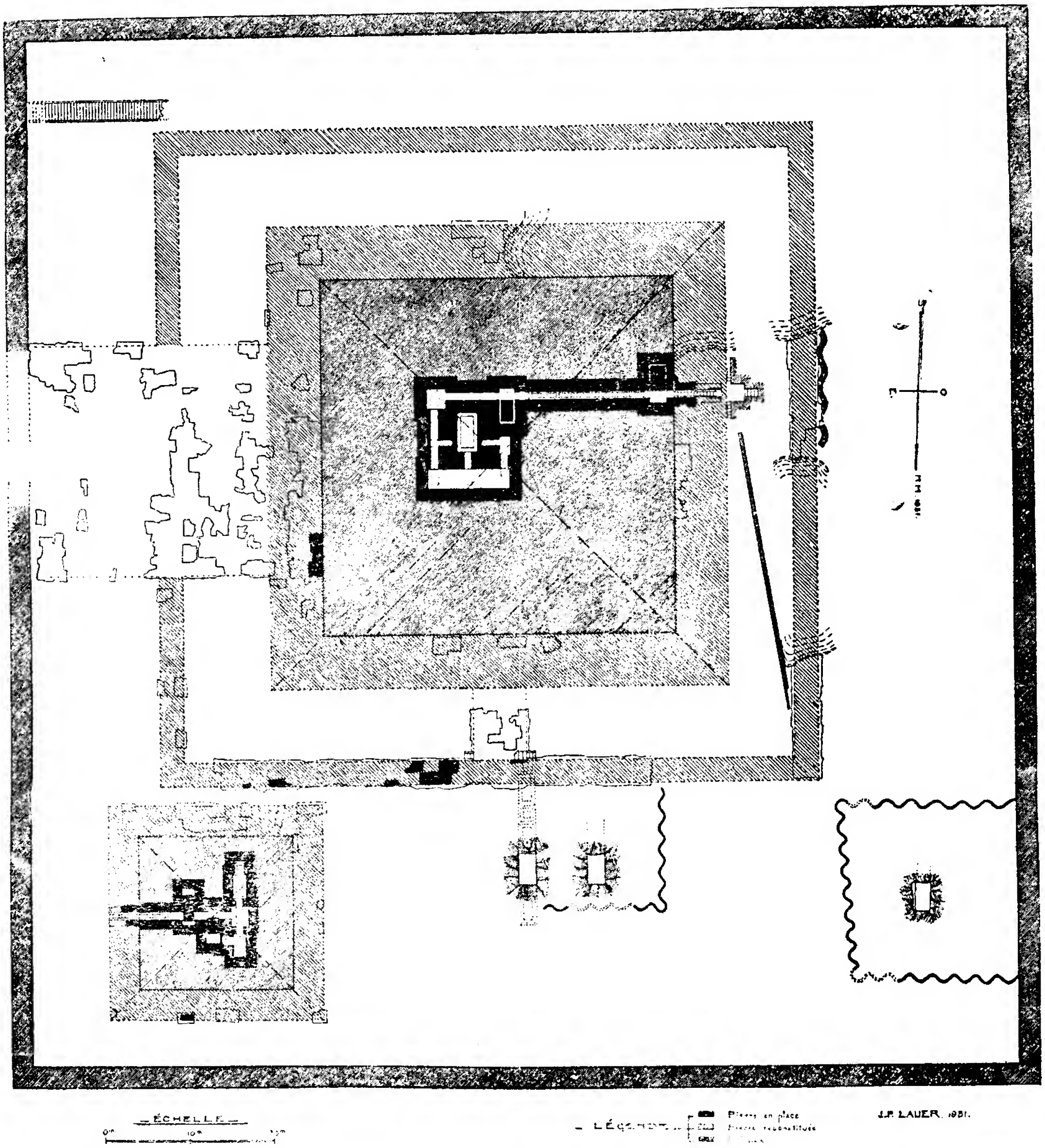
وتشتمل على قاعة يتوسطها صفان من الأعمدة يكتنفان محور المقبرة ؛ وبين العمودين الأخيرين درج يؤدى إلى دهليز طويل بسقف مقبي قليلا ، وفى كل من جانبيه ثلاث مشكاوات يبرز من كل منها تمثال أزيرى لصاحب المقبرة بما يذكّر بالطريق الصاعد إلى المعبد الجنازى لسنوسرت الأول . ويؤدى الدهليز إلى مقصورة القربان وفيها أربعة أعمدة فى صفين ، ويعلو الرواق الأوسط سقف مقبي قليلا ؛ وهو يقود النظر إلى مشكاة يحلى مدخلها الكورنيش المصرى وفيها درجتان تؤديان إلى قاعدة كان عليها تمثال صاحب المقبرة . وفى الجدار الخلفى للمشكاة لوحة عليها صورة صاحب المقبرة يجلس إلى مائدة القربان . وهكذا يتصاعد النظر من مدخل المقبرة عبر الأعمدة وتماثيل صاحب المقبرة على الجانبين إلى أقدس مكان فيها .

الفترة الوسيطة الثانية

من عهد الفترة الوسيطة الثانية ؛ هرم الملك خنجر الثانى فى جنوب صقارة بالقرب من «مصطبة فرعون» وهو مبنى باللبن فى مداميك أفقية ، وكان يكسوه كساء من الحجر الجيرى الجيد ، وكان طول ضلع قاعدته ٥٢٫٥٠ من المتر ، وزاوية ميل جوانبه ٥٥ درجة ، ويظن أن ارتفاعه كان حوالى ٣٧٫٣٥ من المتر (١) . وكان يحيط به سور خارجى من اللبن ، ومن داخله سور آخر من الحجر الجيرى الجيد تحليه المشكاوات . ومدخله فى الغرب منه ، تؤدى إليه بئر مستطيلة سمحت سعتها بادخال التابوت وقطع الأثاث الجنازى ذات الحجم الكبير ؛ ثم ملئت بعد الدفن بالأحجار ورصف أعلاها بالحجر على نحو بقية أرض الفناء بين الهرم والسور الداخلى .

ويؤدى مدخل الهرم إلى دهليز طويل يتألف من أربعة أقسام على مستويات مختلفة ، تقع ثلاثة منها فى اتجاه واحد من الغرب إلى

(١) G. Jéquier, Deux pyramides du Moyen Empire, p. 1 sq.



(شكل ١٦٨) هرم خنجر الثانى فى صقارة

الشرق، ويمتد القسم الأخير من الجنوب إلى الشمال (شكل ١٦٨) . ويشتمل كل من القسمين الأول و الثانى على أحدور يتوسطه درج يؤدى إلى صدفة فى جانبها آخدود ، فيه متراس كبير من حجر الكورتزيت ، كان ليسد به الطريق إلى غرفة الدفن بعد دفن جثمان الملك . ويقع القسم الثانى فى مستوى يعلو القسم الأول ، ومدخله

فى الجدار الخلفى للقسم الأول على ارتفاع ممر ونصف من أرضه ، وكان فى نهايته باب من خشب ، ومن ورائه مزاس ثان لايزال فى أخدوده . ويسير القسم الثالث فى اتجاه أفقى ، وفى نهايته بئر سدت بعد الدفن لتخفى مدخل القسم الرابع . ويمضى هذا القسم فى مستوى منخفض إلى أن ينتهى فى الطرف الشرقى من أرض ردهة واسعة مستطيلة تمتد من الشرق إلى الغرب شمال غرفة الدفن . وفى وسط أرض الردهة مدخل دهليز قصير يمتد من الشمال إلى الجنوب ويؤدى إلى غرفة دفن جدرانها وأرضها من قطعة واحدة من حجر الكورتزيت الصلد ، تزن نحو ستين طنا ، وقد خصص فيها مكان للتابوت ، وآخر لصندوق الأحشاء ، وثالث لأهم قطع الأثاث الجنازى . ويعلو غرفة الدفن سقف مسطح من كتلتين كبيرتين من حجر الكورتزيت من فوقهما سقف أحدب من كتلتين من حجر الجير يعلوه قبو من اللبن .

وقد أمكن إدخال غرفة الدفن إلى مكانها بجرها على أحدور مؤقت إلى حفرة كبيرة عميقة حفرت فى الأرض أولا ثم بنيت فى بقية الحفرة والأحدور المؤقت الردهة وأقسام الدهليز كل فى المستوى الخاص به ، ومن ثم أنزل المتراسان فى الأخدودين الخاصين بهما حتى وقت الدفن . وبعد ذلك بنيت الأقباء من اللبن فوق السقوف المسطحة ، ثم ملىء ما فوقها وما حولها ليكون قاعدة لنواة الهرم . وإذا كانت غرفة الدفن من كتلة واحدة من الحجر لامدخل لها إلا من السقف فقد عمد البنّاء إلى طريقة مبتكرة بأن رفع كتلة السقف القريبة من الردهة فوق قائمين من حجر الجرانيت يعتمدان على رمل كثيف داخل بئرين مبنيتين بالحجر بارتفاع الجدار . وبعد أن وضع التابوت وصندوق الأحشاء والأثاث الجنازى كل فى مكانه نزع حجر من أسفل كل من البئرين ، فانساب الرمل تدريجا وهبط القائمان ومعهما كتلة السقف حتى استقرت فى مكانها .

وكان فى الشمال من الهرم مقصورة قربان ، وجد بين أحجارها تمثال صغير لصاحب الهرم وأجزاء من باب وهمى وهريم من جرانيت مصقول تحلى أعلى جوانبه الأربعة الشمس المجنحة ، ترخى جناحيها كأنها تحمى جثة الملك من داخل الهرم .

وإلى الغرب من هرم خنجر هرم آخر لا يعرف اسم صاحبه ، وتشبه دهاليزه وغرفه دهاليز وغرف هرم خنجر ، وغرفة الدفن فيه من كتلة واحدة من حجر الكورتزيت تزن حوالى ١٥٠ طنا(١).

ومن النصوص ما يسجل أن الملك نفرحتب الأول أحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة عين حدود المكان المقدس المخصص للإله وبواوت فى جبانة أبيدوس غربى معبد الأله خنتى أمنتى ، وقضى بمعاقبة كل من يعتدى على هذه الأرض المقدسة ببناء قبر له فيها ، أو يكون كاهنا للموتى بغير تصريح ، وبأن يقاضى كل شريف يبنى قبره هناك ، وأن يطبق عليه قانون الجبانة (٢) . ومن ذلك يبدو أن مقابر الأفراد أخذت تمتد داخل حرم المعبد وأن الملك عمل على أن يحول دون ذلك ، وأنه كان لمدينة الموتى قانون ينظم توزيع أماكن الدفن .

الدولة الحديثة

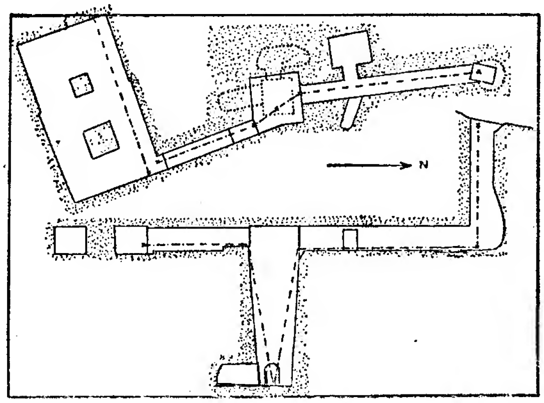
تعرضت مقابر ملوك الأسرة السابعة عشرة فى ذراع أبو النجا غربى طيبة للنهب والسلب والكشف الأثرى السيء مما ضيع معالمها المعمارية . على أنه يبدو أنها كانت أهرامات صغيرة مصمتة من اللبن ، وكانت مقصورة القربان محفورة فى الصخر أسفل الهرم أو مبنية عند الجانب الشرقى منه ، ويؤدى منها درج إلى غرفة الدفن (٣) .

(١) نفس المرجع صفحة ٥٥ وما بعدها .

(٢) J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, I, No. 766 ff.

(٣) H.E. Winlock, The Tombs of the Kings of the Seventeenth Dynasty, J.E.A., vol. X (1924), p. 217 ff. ; G. Steindorff, W. Wolf, op. cit., S. 30 ff.

ولا يعرف مكان قبر الملك أحمس ، أول ملوك الدولة الحديثة ، وإن كان يغلب على الظن أنه لابد أن يكون قريبا من مقابر ملوك الأسرة السابعة عشرة ، وربما كان يعلوه هرم على شاكلة هذه المقابر ، على أنه لايبعد أن يكون أول من حفر مقبرة صخرية على طراز ما اتبعه خلفاؤه من بعده . وقد بنى فى أبيدوس مقبرة تذكارية فى شكل هرم لنفسه (١) ، وأخرى لجدته تتى شرى التى كان لها قبر فى طيبة (٢) . وكان قبرها التذكارى من اللبن ، ووجد فى مقصورتها نصب كبير مقوس من أعلاه ومحلى بنقوش جميلة ، وقد سجل عليه أحمس فى حديثه مع الملكة أحمس نفرتارى أنه يرغب فى أن يبنى لجدته هرما ومقصورة فى الأرض المقدسة بجوار معبده الجنازى ، وأن تحفر بركتها وتزرع أشجارها ، وتعين قرابينها من الخبز ، وتزود بالناس والأرض الصالحة للزراعة ، وتخصص لها الماشية ، وتقوم الكهنة على رعايتها وأداء الطقوس فيها .



(شكل ١٦٩) قبر أمنحوتب الأول

ويقع قبر أمنحوتب الأول (شكل ١٦٩) فى أكمة تشرف على ذراع أبو النجا فى غربى طيبة ، ويتألف من بئر محفورة فى الصخر تؤدى فى جانب منها إلى دهليز يفضى إلى قاعة دفن كبيرة ، يتوسطها

(١) J. Vandier, Manuel d'archéologie égyptienne, t. II, p. 218 sq.

(٢) E.R. Ayrton, Abydos III, pl. 52 ; Urkunden IV, 26.

عمودان ؛ وفى الجانب الآخر من البئر دهليز ثان تكتنفه قاعة ومشكاة عميقة ، ويفضى إلى بئر كبيرة تؤدى إلى قاعتين يظن أنهما كانا لتضليل اللصوص[١] . وكان المعبد الجنازى يقع غير بعيد ، على أنه لم يبق منه غير آثار ضعيفة ؛ وبذلك يظن أن أمنحوتب الأول كان أول من فصل معبده الجنازى عن مقبرته .

ومهما يكن من أمر فلقد وجد الملوك أن الأهرامات الضخمة ، التى كان من أخص أهدافها وقاية الجثة وما كان يودع فيها من ذخائر من أن يعبث بها اللصوص ، لم تحل دون نهبها ، كما أن الحيل المختلفة التى ركن إليها ملوك الدولة الوسطى لم تحقق الغرض منها ، لأن بروز المقبرة الملكية فى شكل هرم وقيام المعبد الجنازى بالقرب منها كانا يدلان على مكان الجثة وذخائرها ، لذلك رؤى فصل المقبرة عن المعبد الجنازى وحفرها فى مكان خفى بعيد . وكان تحوتمس الأول أول من اختار لمقبرته مكانا فى واد قصى منعزل خلف الجبل المطل على النيل فى غربى طيبة ، حيث يشرف جبل عال تبدو قمته كأنها هرم طبيعى ، تضفى على المكان روعة وجلالا . وقد سجل المهندس إنينى الذى حفر قبر مليكه الرغبة فى إخفاء المقبرة بقوله « أشرفت على حفر القبر المنعزل لجلالة الملك دون أن يسمع أو يرى أحد » . وقد ضمت أرض وادى الملوك من الذخائر ما لم تضمه بقعة أخرى من الأرض ، بيد أنها لم تكفل أيضا سلامة ما أودع فيها من نفائس إلا قليلا[٢] . وأهم ماحفظته

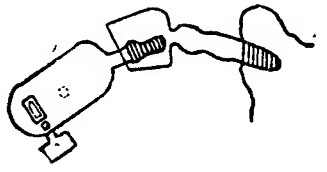
---

(١) H. Carter, Report on the Tomb of Zoser-Ka-Ra Amenhotep I, discovered by the Earl of Carnarvon, Jour. of Eg. Arch. III (1916), p. 147 ff. ذهب پيت إلى أن هذا القبر أولى به أن يكون قبر الملكة أحمس نفرتارى أم أمنحوتب الأول ، T.E. Peet, Great Tomb Robberies of the Twentieth Dynasty, I, p. 43.

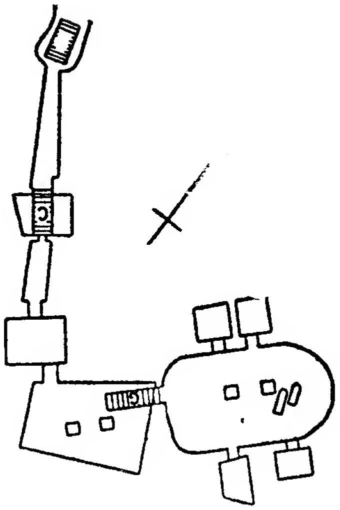
(٢) من هذه المقابر ما كان من المشاهد الهامة التى كان يزورها الأغريق والرومان .

هو أثاث قبر توت عنخ أمون ، وقاه من مصير غيره أن رمسيس السادس حفر قبره من فوقه فردمت أنقاضه مدخله إلى ارتفاع كبير .

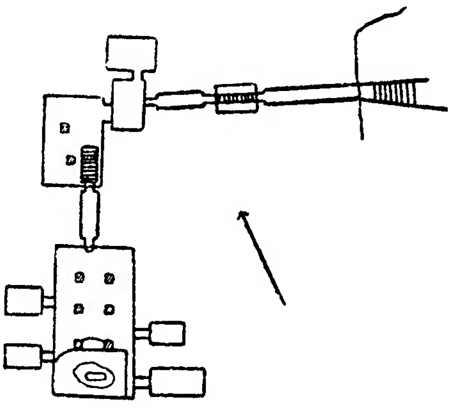
وكان القبر الملكى أول الأمر بسيطا لايختلف كثيرا عن مقابر الأفراد ؛ وكان مدخله صغيرا فى سطح الجبل إذا سد لايبين . ويتألف من درج وأحدور وردهة يخرج منها على زاوية منفرجة درج إلى غرفة دفن بيضية الشكل يتوسطها عمود من الصخر ولها غرفة جانبية (شكل ١٧٠) . ولم يلبث أن استطال الجزء الأول من المقبرة وأصبح يتألف فى مقبرة تحوتمس الثالث من درج ودهليز ثم درج ودهليز آخرين يؤديان إلى بئر لتضليل اللصوص ؛ وغدا الجزء الثانى على زاوية قائمة من الجزء الأول ، ويشتمل على ردهة ذات عمودين ودرج وغرفة دفن يقوم فيها عمودان من الصخر وتحلى سقفها النجوم وتكتنفها أربع قاعات صغيرة للأثاث الجنائزى (شكل ١٧١) . وفى عهد أمنحوتب الثانى (شكل ١٧٢) . غدت جميع الغرف مستطيلة وأضيفت إلى قاع البئر غرفة إمعانا فى تضليل اللصوص ،



(شكل ١٧٠) قبر تحوتمس الأول

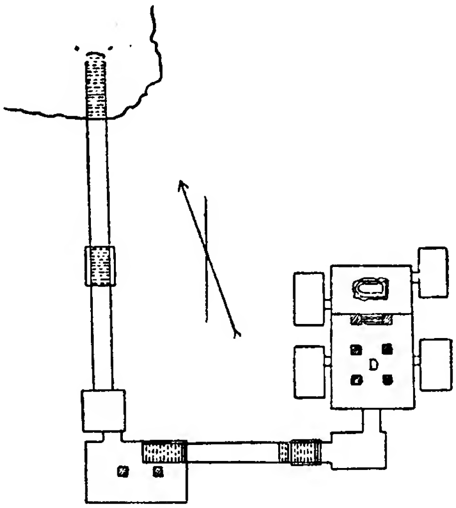


(شكل ١٧١) قبر تحوتمس الثالث



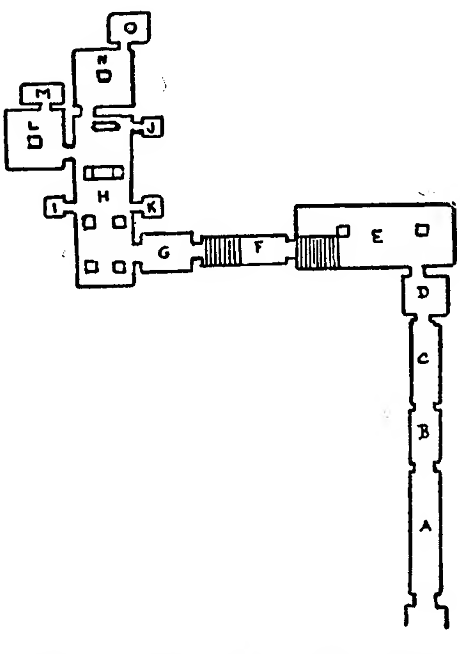
(شكل ١٧٢) قبر امنحوتب الثانى

وإلى الدرج المؤدى إلى غرفة الدفن أحدور ، وأصبح الجزء الأمامى من غرفة الدفن يشتمل على ستة أعمدة فى صفين ، وبين العمودين الأخيرين درج يؤدى إلى مستوى منخفض فيه التابوت ، وبذلك يعد قبره أول قبر ملكى فخم فى وادى الملوك



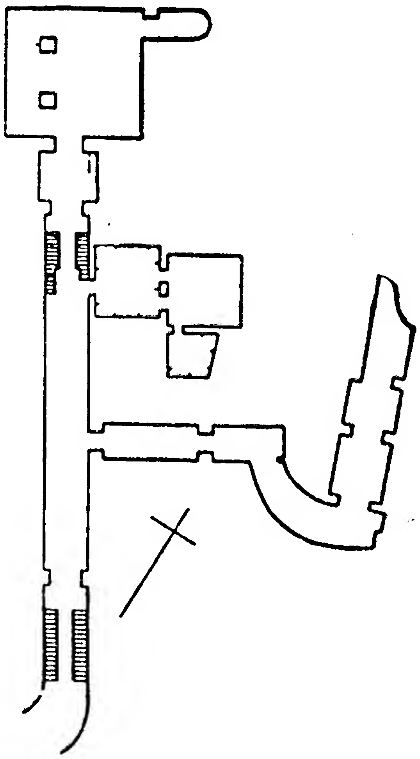
(شكل ١٧٣) قبر تحوتمس الرابع

وفى عهد كل من تحوتمس الرابع وأمنحوتب الثالث أصبح محور المقبرة ينحرف مرتين ، إذ أضيفت إلى الجزء الثانى من المقبرة صدفة تخرج منها غرفة الدفن على زاوية قائمة بحيث توازى الجزء الأول من القبر أو امتداده (شكل ١٧٣ و ١٧٤) . على أن أخناتون جعل مقبرته فى تل العمارنة على محور واحد ، لتواجه جميع أجزائها الشمس عند شروقها فيما يعتقد بما يتفق وعقيدته الدينية الجديدة . وهى تتألف أيضا من درج وأحدور ودرج



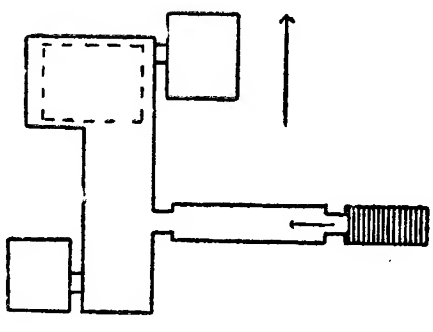
(شكل ١٧٤) قبر امنحوتب الثالث

وردهة وغرفة دفن بها عمودان من الصخر وغرفة ملحقة جانبية(شكل ١٧٥) [١] . وتتصل بالأحدور مجموعتان من الغرف ، تشتمل المجموعة الأولى على ست غرف كل منها وراء الأخرى فى صف غير مستقيم ؛ وتشتمل المجموعة الثانية على ثلاث غرف ، وقد دفنت فيها الأميرة مكت أتن إبنة اخناتون ، ولذلك يغلب على الظن أن المجموعة الأولى كانت أيضا مقابر لبعض أفراد الأسرة المالكة.



(شكل ١٧٥) قبر أخناتون

وقبر توت عنخ أمون أصغر المقابر الملكية جميعا ، حتى إنه لا يوحى بأنه قبر ملكى ، ولعل ذلك يرجع إلى وفاته ولما يبلغ العشرين من عمره[٢] ؛ ويتألف من درج وأحدور وردهة فى شمالها غرفة التابوت ، ولكل من الردهة وغرفة التابوت غرفة جانبية(شكل ١٧٦) .

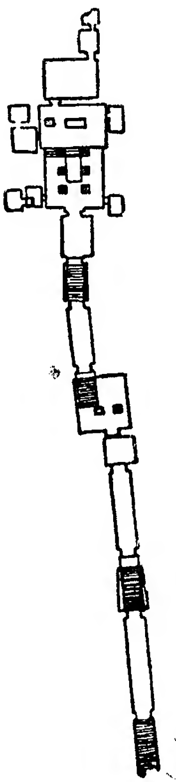


(شكل ١٧٦) قبر توت عنخ أمون

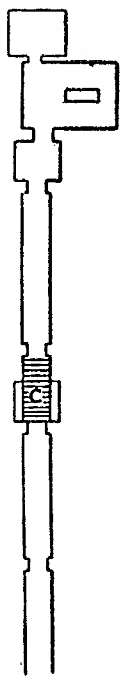
(١) U. Bouriant, G. Legrain, G. Jéquier, Monuments pour servir à l'étude du culte d'Atonou en Egypte, t. I, Les tombes de Khouitatonou.

(٢) H. Carter, The Tomb of Tut-Ankh-Amen. من الباحثين من يظن أن الملك آى اغتصب قبر توت عنخ أمون وحفر له هذا القبر الصغير .

وكان لقبر أخناتون أثره ، إذ غدت أجزاء المقبرة فى مقبرة الملك آى (شكل ١٧٧) وفى معظم مقابر الرعامسة (شكل ١٨١) على استقامة واحدة . بيد أن الجزء الثانى فى مقبرة كل من حور محب (شكل ١٧٨) وسيتى الأول (شكل ١٧٩) ورمسيس الثالث (شكل ١٨٠) يقع فى موازاة امتداد الجزء الأول[١] ؛ ويبدو أن الغرض من ذلك إنما هو توكيد تخصيص الجزء الأول من القبر للشمس وتخصيص الجزء الثانى لعالم الحياة الثانية بعد الموت ، وهو ما تدل عليه النصوص الدينية وصور الآلهة على جدران كل من القسمين .



(شكل ١٧٨)
قبر حور محب



(شكل ١٧٧)
قبر آى

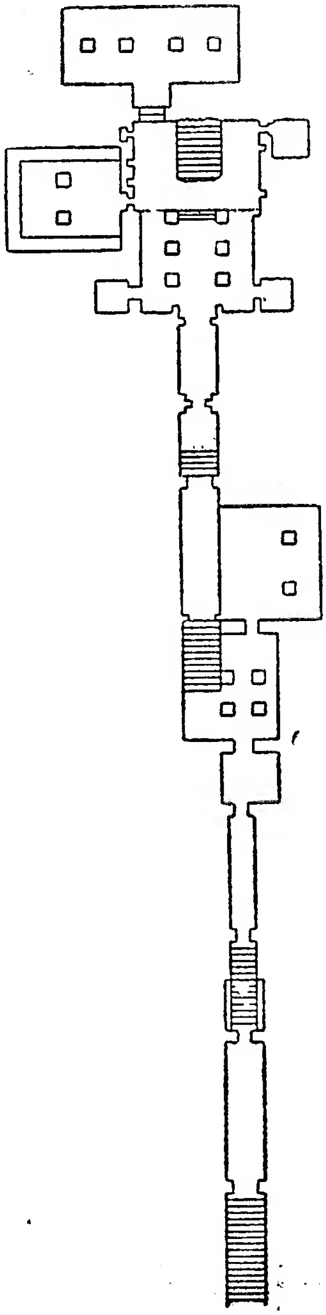
ومنذ عهد تحوتمس الأول أخذت المقابر الملكية تتسع وتمتد موغلة فى باطن الأرض ، وتزداد روعة وفخامة بما يتسق وما أصبح للملك من سلطان واسع وما اجتمع بين يديه من ثراء وافر ؛ وقد بلغت غايتها فى عهد الرعامسة إذ أصبحت تحتوى على كثير من الدهاليز والدرج والقاعات

---

(١) يقع الجزء الأخير من القسم الثانى من مقبرة رمسيس الثانى عمودياً على بقية المقبرة .

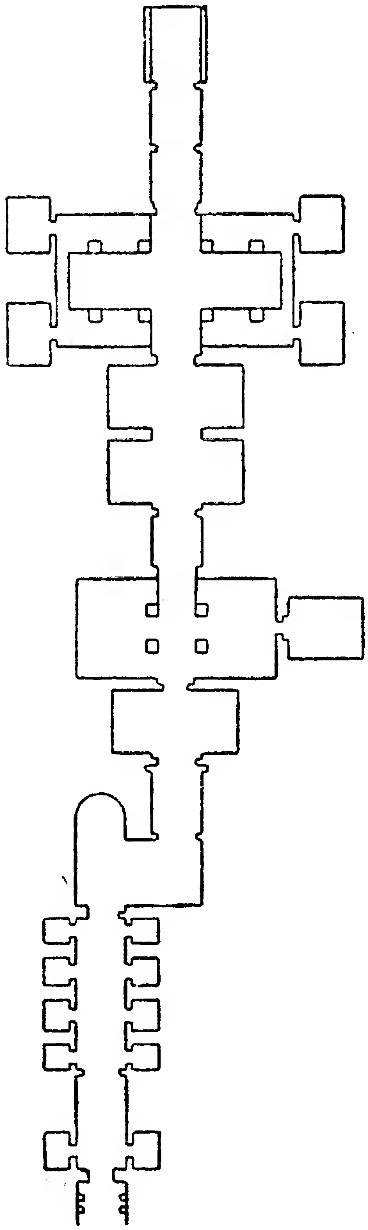
كل منها يتبع الآخر ؛ ومع ذلك ليس من المقابر الملكية مايشبه غيره تماما . ولم يكن الاعتماد فى هذه المقابر على اختلافها على إبداع البناء قدر ما كان على مهارة الحجار على عكس ما كان عليه الأمر فى البيوت والمعابد . وكانت غرفة الدفن تسمى « القاعة الذهبية » ؛ ولعل هذه التسمية ترجع إلى المقصورات المصفحة بالذهب التى كانت تحيط بالتابوت . وتحلى الجدران صور تمثل الملك والآلهة ، ومناظر ونصوص من كتب دينية مختلفة ، منها أنشودة الشمس وكتاب ما فى العالم السفلى ، وبقرة السماء ، والأبواب ، وما يعرف بكتاب الموتى . ومن هذه الكتب ما يمثل رحلة الشمس فى ظلام الليل فى العالم الثانى ، وهى تمضى بين شياطين ومخلوقات غريبة تهددها ولكنها لاتنال منها مأربا .

ومقبرة سيتى الأول أعظم المقابر الملكية من حيث طرازها ونقوشها معا (شكل ١٧٩) ؛ وهى تمتد فى جوف الصخر نحو ١٠٠ متر . ويشتمل الجزء الأول منها على درج وأحدور ثم درج وأحدور ومن وراء ذلك



(شكل ١٧٩) قبر سيتى الأول

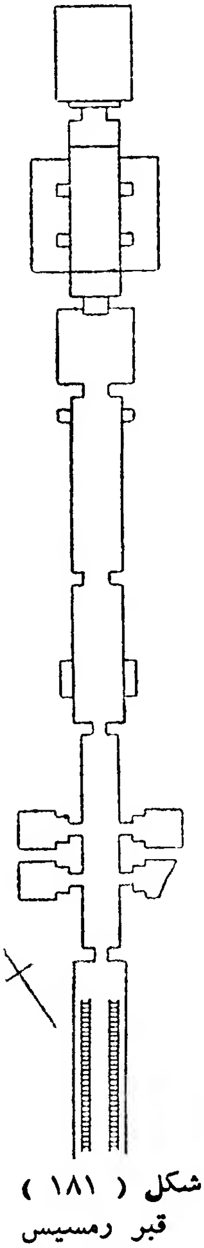
ردهة ، فى أرضها بئر تفضى إلى غرفة عند قاعها ؛ ويلى الردهة بهوان أحدهما خلف الآخر . ويمتد الجزء الثانى فى موازاة امتداد الجزء الأول ، ويشتمل على درج وأحدور ثم درج وأحدور يفضى إلى غرفة الدفن . وتشتمل غرفة الدفن فى جزئها الأمامى على بهو أعمدة وفى مؤخرتها خفض سقفه قبو عظيم محلى برسوم فلكية تمثل أبراج السماء (صورة ٦٧)، وقد وجد فيه تابوت من المرمر المصرى ؛ وتحف بغرفة الدفن خمس غرف جانبية . وتحلى الجدران نصوص وصور دينية مختلفة ، منها ما يمثل مسير زورق الإله الشمس فى ساعات الليل الأثنى عشرة فى العالم السفلى ؛ والنقوش بألوان زاهية تضارع فى دقتها نقوش معبد سيتى فى أبيدوس.



(شكل ١٨٠)
قبر رمسيس الثالث

وفى أبيدوس حيث كان المصريون يحجون لزيارة قبر أزيريس ، إله الموتى أقام سيتى الأول قبرا تذكاريا يعد من الأعمال الفريدة فى العمارة المصرية

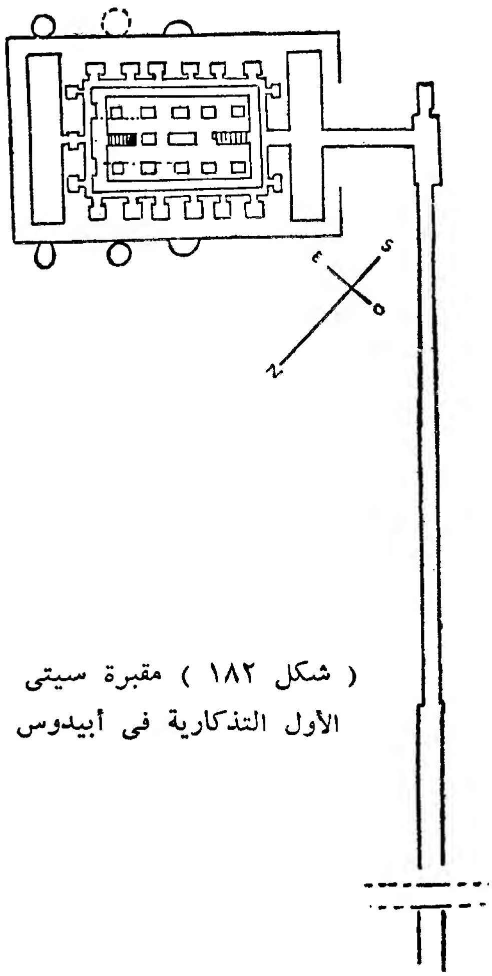
(شكل ١٨٢)[1] . وكانت تحيط به الأشجار ؛ ويشتمل على دهليز طويل منحدر يبلغ طوله نحو ١١٠ أمتار ، وسقفه مقبى ، وجدرانه منقوشة بنصوص دينية . ويفضى الدهليز بعد أن ينحرف على زاوية قائمة إلى ردهة مستعرضة ثم إلى بهو يتوسطه مسطح مرتفع ، يؤدى إليه درجان متقابلان ، وتحيط به قناة ، وكأنه بذلك جزيرة وسط الماء . وتكتنف المسطح أعمدة ضخمة من حجر الجرانيت ، ارتفاعها ضعف عرضها ، وعرضها أكبر من سمكها ويساوى فى نفس الوقت الفراغ بين كل عمودين ؛ وجميع جوانبها حسنة الصقل وتخلو من أى زخرف ، وليس لها قواعد ، وإنما تعتمد مباشرة على بلاط الأرض . وتتوسط المسطح حفرتان ، أحداهما كبيرة مستطيلة ، والأخرى صغيرة مربعة ، يظن أنهما كانا لتابوت وصندوق أحشاء ، بما يتفق وما تواتر عن قبر أزيريس من أنه كان وسط جزيرة . ويخلو البهو من النقوش والصور ، وتتخلل جدرانه عدة مشكاوات ؛ ومن ورائه قاعة كبيرة لم يكن لها مدخل يؤدى إليها ، وهى أشبه بتابوت ضخم ، وسقفها أحدب ولا يزال يحتفظ



شكل (١٨١)
قبر رمسيس التاسع

(١) H. Frankfort, The Cenotaph of Seti I at Abydos, 2 vols.

بمناظره الدينية الشائقة . ولم يكن سيتى أول من ابتنى قبرا تذكاريا فى أبيدوس، ولكنه كان أول من ابتناه على شكل قبر أزيريس ويتميز بفخامة أحجاره وأعمدته ، واستقامة خطوطه ، وأغلبه مشيد بحجر رملى يكسوه حجر جيرى،أما الأعمدة وأعتابها فمن حجر الجرانيت[1] .



(شكل ١٨٢) مقبرة سيتى
الأول التذكارية فى أبيدوس

---

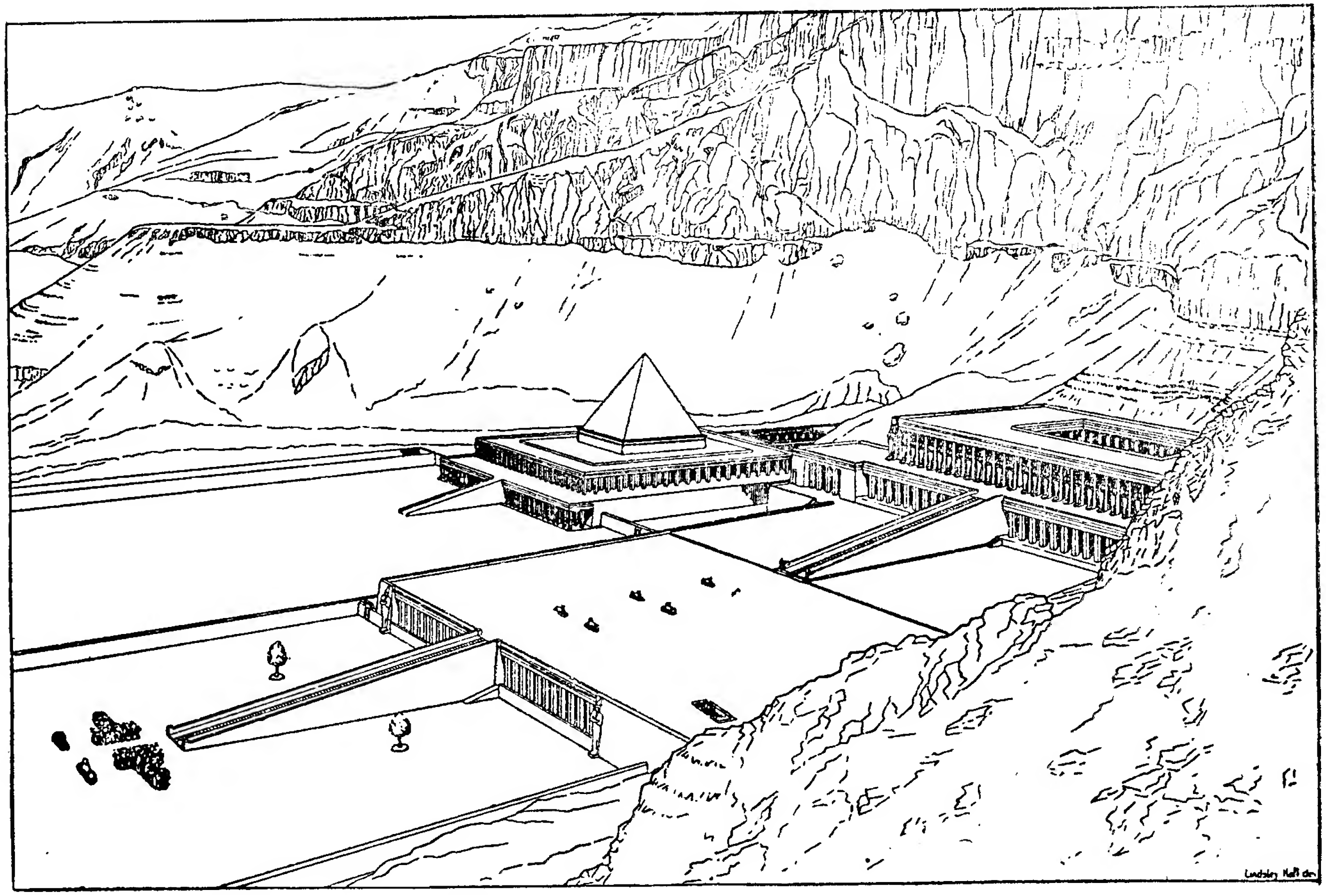
(١) يقع هذا القبر التذكارى من وراء معبد سيتى الأول فى أبيدوس ويحيط بهما سور واحد يعقد الصلة بينهما مما دعا إلى الرأى بأنها تشبه الصلة بين الهرم والمعبد الجنازى فى الدولة القديمة وأنه قصد به أن يكون قبرا تذكارياً لمقصورة سيتى الأول فى معبده . وقد وصفه استرابو ، انظر وهيب كامل : استرابون فى مصر ، فقرة ٤٢

المعابد الجنازية

تقع المعابد الجنازية لملوك الدولة الحديثة على حافة الصحراء بالقرب من الحقول الناضرة فى الغرب من طيبة، وكان كل منها بجانب الآخر فى صف طويل من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى فى مسافة طولها نحو ثلاثة كيلو مترات؛ ويفصلها عن المقابر الملكية الجبل المشرف على الوادى، بيد أنه كانت تجمعهما معا وحدة فكرية. وأقدمها فيما يظن معبد أمنحوتب الأول شيده فى مكان يقع بأزاء الكرنك، ثم استمر ملوك الأسرة الثامنة عشرة يبنون معابدهم الجنازية كل منها فى جنوب الآخر. وفى الأسرة التاسعة عشرة بدأ الملوك يبنون معابدهم مرة أخرى من الشمال إلى الجنوب بين المعابد القديمة أو من أمامها. وشيد رمسيس الثالث معبده الجنازى بعد أقصى المعابد فى الجنوب. وهكذا اجتمع فى منطقة واحدة عدد كبير من المعابد لم يجتمع مثله فى مكان آخر من العالم. أجل لم يقدر لجميع هذه المعابد أن تظل عامرة سليمة، بل من الملوك من بنى معبده من أحجار معابد أسلافه، بيد أن منها ما ظل باقيا وكان ولا يزال يجذب إليه الأنظار.

ولم تكن المعابد الجنازية لعبادة من أنشأها فحسب، وإنما منها ما خصصت فيه مقصورة أو أكثر لعبادة ملك سابق، كما أنه كان يعبد فيها جميعا إله الدولة وملك الآلهة أمون رع وبعض الآلهة العظيمة الأخرى وخاصة رع حراختى وأزيريس. وكان الملك يعتبر إلها بعد مماته، بل منهم من أله فى حياته؛ لهذا لاغرابة فى أن كانت المعابد الجنازية تشبه فى تخطيطها معابد الآلهة. وأهمها جميعا معبد حاتشبسوت (الدير البحرى)، ومعبد سيتى الأول فى القرنة، ومعبد رمسيس الثانى (الرمسيوم)، ومعبد رمسيس الثالث (مدينة حابو).

ومعبد حاتشبسوت (الدير البحرى) من أوائل المعابد الجنازية فى الدولة الحديثة، شيدته الملكة شمال معبد نب حبت رع منتوحتب



(شكل ۱۸۳) معبدا حاتشبسوت ومنتوحتب

فى حضن جبل شامخ (شكل ١٨٣)(١)، يقع بينه وبين مدخل مقبرتها فى سفحه الخلفى . وقد كان الغرض أن تكون غرفة الدفن تحت معبدها الجنازى ، غير أن رداءة الصخر أدت إلى انحراف دهاليزها التى يبلغ طولها فى جوف الصخر ٢١٣ مترا وعمقها ٩٧ مترا ، فابتعدت بذلك غرفة الدفن عن المكان الذى قصد إلى أن تكون فيه . والمعبد من أبدع ما شيد من عمائر ، وما من أحد يشاهده رغم ما تعرضت له تماثيله ونقوشه من تحطيم وإتلاف إلا وتعظم لديه فخامته ونقاوة خطوطه واتساقها ويلازم خاطره جمال تخطيطه . وهو لهذا يعد أحسن ما يمثل حضارة الدولة الحديثة وخير مايدل على حاتشبسوت وعهدها وعلى المهندس الموهوب الذى شيده لها (٢) . ولا تقتصر أهميته على الناحية الفنية فحسب ، وإنما تتجاوزها إلى الناحيتين التاريخية والدينية.

وقد نحا فيه مهندسه سننموت ، حظى الملكة ، منحى طراز معبد نب حبت رع منتوحتب ، غير أنه شيده على ثلاثة مسطحات كبيرة يعلو أحدها الآخر ويليه ، واستبعد منه الهرم فجاء أمثل طراز ، وتؤلف مسطحاته الأفقية وما يتقدمها من دعائم رأسية مع الخطوط الرأسية الشامخة للمحيط الطبيعى الذى يكتنفه وحدة متسقة ، حتى ليبدو وكأنه جزء من محيطه العظيم ، تزاوجت فيه عمارته والطبيعة الجليلة من حوله على أحسن وجه بما لايتاح إلا للموهوبين من عظماء البنائين (صورة ٦٨) . وليس يخفى أنه كلما ازداد جلال المكان كلما صعب ابتداع الأشكال العظيمة التى تتفق وجلاله . ويزيد فى تقدير كفاءة مهندسه ونبوغه أن جميع عناصر المعبد عناصر معمارية معروفة من قبل فى العمارة المصرية ، وأنه جمع بينها فى نسق فريد بلغ حد الكمال الفنى فى الوسط الطبيعى الذى

(١) E. Naville, Deir el Bahari, 6 vols. ; H.E. Winlock, Excavations at Deir el Bahri ; M. Werbrouk, Le temple de Hatschepsut à Deir el Bahri.

(٢) P. Gilbert, Le classicisme de l'architecture égyptienne, p. 60 sq. ; H. Ricke, Bemerkungen zur aegyptischen Baukunst des Alten Reiches I, S. 16 ff.

يقوم فيه . إلى جانب هذا تبدو أغلب أجزاء المعبد للنظر من خارج المعبد ، على نقيض الأمر فى المعابد الأخرى ؛ وبذلك يتيسر للناظر إدراك وحدة المعبد الفنية إدراكا حسيا قويا . وقد أعجبت الملكة بطرازه ووصفته بأنه فردوس أمون ، وان مسطحاته مسطحات أشجار المر فى پنت ، التى كان يعتقد أنها موطن الآلهة(١) . على أن ماريت حسبه من طراز غريب على مصر لطرافة طرازه واختلافه عن طرز المعابد المصرية (٢) .

وكان له بالقرب من حافة الوادى معبد لاستقبال الوافدين ، كان من مسطحين متتاليين بما يتفق وطبيعة الأرض التى شيد عليها ، ويعتبران كمقدمة للمسطحات الثلاثة التى يتألف منها المعبد فى حضن الجبل . وكان يخرج منه طريق صاعد يكتنفه أكثر من مائتى تمثال من الحجر الرملى ، تمثل الملكة فى صورة أبو الهول(٣) ، وينتهى إلى مدخل عظيم فى بداية المسطح الأول ، يقع على محور المعبد الجنازى وتتقدمه شجرتان باسقتان . ويشغل المسطح الأول فناء فسيح يحده جدار منخفض من الحجر الجيرى مدور فى أعلاه ، وكانت تتخلله تماثيل أبو الهول ، ومنها تماثيل ضخمة كانت تكتنف الطريق الممتد على محور المعبد. وكان فى مؤخرة الفناء حوضان للماء ينمو فيهما البردى ، وتحف بهما الأزهار ، وقد وجدت فى قاعيهما عصى رماية من القاشانى تشير إلى أنه كانت تؤدى فيهما شعيرة صيد رمزى. ويظن أنه زرعت فى هذا الفناء أشجار المر التى جلبتها حاتشبسوت من بلاد پنت .

وينتهى الفناء بصفتين جميلتين ، عرض كل منهما ٢٥ مترا ، ويتوج واجهتها الكورنيش المصرى ويسند جدارها الخلفى الجانب

(١) لا يعرف مكان پنت على وجه التحقيق ، ولكن يظن أنها كانت جزءاً من ساحل الصومال ، وكان المصريون يجلبون منها البخور والذهب والعاج والأبنوس ومتاجر أخرى ، وقد أرسلت حاتشبسوت إليها بعثة جلبت إليها كثيراً من منتجاتها ومنها أشجار المر التى زرعتها فى معبدها الجنازى .

(٢) F.J. Chabas, Notice biographique, Bibliothèque égyptologique, t. IX, p. CXXXIX.

(٣) Description de l'Egypte, Antiquité, pl. 38.

الأمامى للمسطح الثانى ، وبذلك تحقق الصفتان غرضين ، أحدهما زخرفى والثانى عملى نفعى ، وليس أفضل منهما وأجمل فى هذه الحالة . وفى كل صفة صفان من الأعمدة ؛ وأعمدة الصف الأول من طراز خاص لم يسبق له مثيل وليس ما يماثله فيما تلى من عصور ، إذ نصفها الأمامى فى شكل نصف عمود مربع ، ونصفها الخلفى فى شكل نصف عمود ذى ستة عشر ضلعا (١) ، بما يهيىء الانتقال إلى أعمدة الصف الثانى ذات الستة عشر ضلعا . ويحلى واجهة كل عمود صورة صقر بحجم عظيم يعلو اسم الملكة فى خط هيروغليفى كبير . وعلى يمين الصفة اليمنى تمثال ضخم للملكة يمثلها فى هيئة أزيريس ، طوله نحو سبعة أمتار ونصف ، ولا بد أن كان له ما يناظره على يسار الصفة اليسرى . ويسند المسطح الثانى من ناحية الجنوب جدار ، يحليه ما يعرف بواجهة القصر .

ويفصل الصفتين أحدور صاعد عريض ، يبلغ عرضه عشرة أمتار تقريبا ويتوسطه درج ، ويحف به سياجان مقوس أعلاهما ، ويحلى بدايتهما من الداخل نقش جميل يمثل أسدا عظيما يحمى إسم الملكة ويحرس المدخل . ويؤدى الأحدور إلى المسطح الثانى ، حيث كان يتوسطه طريق تكتنفه تماثيل ضخمة من حجر الجرانيت تمثل الملكة فى صورة أبو الهول ، وكان بذلك امتدادا للطريق وسط المسطح الأول . وفى مؤخرة المسطح صفة الولادة على اليمين وصفة بعثة پنت على اليسار ، ويحلى واجهة كل منهما الكورنيش المصرى ؛ وفى كل منهما صفان من أعمدة مربعة .

وإلى يمين صفة الولادة هيكل أنوبيس ، يحلى واجهته الكورنيش المصرى ، ويتألف من صفة من أجمل ما أنشأه المصريون من صفات ، يفتن منظرها النظر والفكر معا ، وتشتمل على ثلاثة صفوف من الأعمدة ، فى كل صف أربعة أعمدة ذات ستة عشر ضلعا مقنى ،

---

(١) وهى أعمدة رشيقة ارتفاعها خمسة أمثال عرضها تقريباً. Naville, Deir el Bahari, VI, p. 20.

تتقاسم المكان وتشغله على أكمل وجه وتؤلف معا مجموعة فخمة متزنة . وتحلى السقف نجوم بلون أصفر زاه تنتثر فى قاعدة بلون أزرق قاتم . وعلى الجدران نقوش بألوان زاهية ، منها ما يمثل حاتشبسوت تجلس تحت ظلة ملكية ، تلعق أطراف أصابعها بقرة حتحور . ويتوسط الجدار الغربى باب يؤدى إلى ردهة صغيرة ، على يمينها قدس الأقداس ، وسقف كل منهما مقبى . وفى أقصى يمين المسطح جدار يسند الجبل وتتقدمه صفة بأعمدة ذات ستة عشر ضاعا مقناة ؛ وهى أعمدة رشيقة أقرب شبها بالأساطين الدورية من أعمدة بنى حسن ؛ وما من شك فى أن هذه الصفة خير ستار للجبل (صورة ٦٩) .

وإلى يسار صفة بعثة پنت هيكل حتحور ، إلهة الحب والسرور ، ويتميز هو أيضا بفخامته وجماله ، على أنه يختلف فى تخطيطه عن هيكل أنوبيس . ويتألف من جزأين ، أغلب الجزء الأول مبنى وبقيته منحوتة فى الصخر ، والجزء الثانى محفور بأكمله فى الصخر . وتقوم فى واجهة الجزء الأول أربعة أعمدة ، يتوج الجانبين المتقابلين من العمودين الأوسطين ، اللذين يكتنفان المحور الرئيسى ، رأس حتحور فى صورة وجه امرأة بقرنى بقرة فى نقش بارز ؛ وهكذا تتسق واجهات هذه الأعمدة وواجهات الصفات بما يكفل للمعبد الجنازى وحدة معمارية متناسقة . ومن وراء الواجهة ردهة ثم بهو ؛ وتشتمل الردهة على صفين من الأعمدة ، فى كل صف عمودان مربعان فى الوسط تكتنفهما أربعة أعمدة ذات ستة عشر ضلعا . ويتوج الجانبين المتقابلين للأعمدة التى تكتنف محور الهيكل والوجهين الأمامى والخلفى لكل عمود آخر وجه حتحور . ويفصل الردهة عن البهو جداران صغيران عن يمين وعن يسار بينهما صف من أربعة أعمدة من ذات الستة عشر ضلعا تماثل أعمدة الردهة . ويحتوى البهو على صفين من الأعمدة ذات الستة عشر

ضلعا مقبى . ويؤدى إلى الجزء الثانى درج على محور الهيكل ، ويتألف من قاعتين وقدس الأقداس . والقاعة الأولى عريضة يعتمد سقفها على عمودين من ذات الستة عشر ضلعا وتكتنفها أربع قاعات صغيرة ؛ والقاعة الثانية طويلة تكتنفها أربع مشكاوات . وتؤدى القاعتان إلى قدس الأقداس وكان سقفه مقبيا ، وتكتنفه مشكاتان . ومن المناظر الجميلة على جدرانه مايمثل بقرة حتحور تخرج من ناووسها .

ويؤدى إلى المسطح الثالث أحدور صاعد ثان على محور المعبد ، يحف به سياجان واطئان . فى مقدمة كل منهما صقر ينشر جناحيه يحمى بهما ثعبانا ضخما يتثنى جسده على السطح العلوى لكل سياج . ويشرف هذا المسطح من عل ومن بعيد على منظر شائق للحقول اليانعة بالخضرة ، تتخللها أشجار النخيل ، ومن ورائها النيل تتلألأ على سطحه الفضى أشعة الشمس بالنهار وضوء القمر أو النجوم الزاهية بالليل . وكانت تتقدمه صفة عريضة فى مقدمتها صف من الأعمدة يبرز من واجهة كل عمود تمثال ضخم للملكة فى صورة أزيريس ، طوله نحو خمسة أمتار ونصف ، وكان بذلك أقل طولا من تمثالى طرفى الصفتين فى المسطح الأسفل . على أن التمثالين فى أقصى الطرفين كانا أكبر حجما من غيرهما . وكان من وراء الأعمدة الأزيريه صف من أعمدة أخرى ذات ستة عشر ضلعا .

ويتوسط الجدار الخلفى للصفة مدخل ضخم من حجر الجرانيت الوردى ، يمتاز بجمال نقوشه الهيروغليفية وكمال نحتها . ويؤدى إلى بهو فسيح (٤٠ × ٢٦ مترا تقريبا) ، أثبتت أعمال الترميم الأخيرة أن سقفه كان يعتمد على أعمدة ذات ستة عشر ضلعا . ويعتمد جداره الخلفى على الجبل ويتوجه الكورنيش المصرى ، ويتوسطه المدخل إلى قدس الأقداس ، ويقع على محور المعبد . وفى كل من جانبيه أربع مشكاوات كبيرة تتخللها خمس مشكاوات صغيرة ، كان فى كل منها تمثال للملكة . وكانت تحلى الجدران نقوش جميلة

منها ما يصور زورق أمون المقدس والزورق الملكي وزوارق أخرى ، وكهنة ، وحملة أعلام وبيارق فى الاحتفال «بالعيد الجميل للوادى الغربى» ، وكان عيدا عظيما يزور فيه تمثال أمون فى احتفال رسمى مهيب المعابد الجنازية فى غربى طيبة .

وتؤدى إلى قدس الأقداس ردهة محفورة فى الصخر يكسو جدرانها حجر جيرى جيد تحليه النقوش وسقفها مقبى ، وفى كل من جداريها الجانبيين مشكاتان . وقدس الأقداس محفور كذلك فى الصخر ويكسو جدرانه حجر جيرى جيد وسقفه مقبى كذلك وفى كل من جانبيه قاعة صغيرة . وفى العهد البطلمى أقيمت أمام مدخل الردهة صفة وحفرت وراء قدس الأقداس قاعة صغيرة نقشت جدرانها بصور بعض الآلهة ومن بينها صورتا إمحوتب ، مهندس زوسر ، وأمنحوتب بن حابو ، مهندس أمنحوتب الثالث ، والفرق جد كبير بين نقوش هذه القاعة وبين نقوش حاتشبسوت .

وفى يمين البهو ويساره هياكل للأله الشمس رع حراختى ، وأنوبيس وأمون مين ومقصورتان لتحوتمس الأول وحاتشبسوت لكل منهما سقف مقبى ، وتحلى الجدران صور ملونة جميلة . وتمثل الصور على جدران مقصورة حاتشبسوت تقديم القرابين المختلفة من فاكهة وخضر وخبز وطير وحيوان وثياب وأزهار فى نقش دقيق فى خطوطه وبألوان جميلة مما يضفى على هذه الصور المادية طابعا جليلا فخما ، وفى الجدار الغربى باب وهمى عظيم من حجر الجرانيت . ويمثل السقف المقبى السماء ، وهو مقسم إلى جزأين ، فى كل جزء إثنا عشر قسما ، والأقسام التى على اليسار لساعات النهار ، والأقسام التى على اليمين لساعات الليل . وهكذا كان المعبد لعبادة آلهة مختلفة ، ولتؤدى فيه الطقوس الجنازية لحاتشبسوت ولأبيها تحوتمس الأول .

وجميع الأعمدة الأمامية للمعبد مربعة أو ذات ستة عشر ضلعا أو نصفها الأمامى نصف مربع ونصفها الخلفى ذو ثمانية أضلاع بما

يتفق أحسن ما يكون وخطوط الجبل والمعبد معا (١) . وليس من أعمدة المعبد أسطون نباتى واحد ، ولعل ذلك يرجع إلى الرغبة فى أن يكون هناك تناسق بين خطوط المعبد وخطوط الطبيعة المحيطة والمعبد المجاور ، والشعور بعدم الاتساق بين الأساطين البردية أو اللوطسية وأشجار المر الباسقة فى مكان واحد . ولعله لايخلو من مغزى أنه كان يكتنف الصفتين فى المسطح الأول تمثالان كبيران لحاتشبسوت عن يمين ويسار ، ويكتنف الصفتين فى المسطح الثانى هيكلان ، وتبرز من أعمدة المسطح الثالث تماثيل كبيرة للملكة بما يوحى بتدرج مرسوم وأنه قصد إلى أن تتوج المسطحات الثلاثة تماثيل الملكة . ومهما يكن من أمر فليس يخفى ما بين المسطحات من اتساق عام يجعل منها جميعا وحدة معمارية متسقة ، وإن كان لكل مسطح طابعه الخاص ، كما لا يخفى كذلك حسن ترتيب القاعات فى مجموعات متناسقة تكتنف المسطحين الثانى والثالث .

ومعظم المعبد من حجر جيرى جيد أحسن نحته ؛ وتحلى جميع جدرانه نقوش دينية وتاريخية لايزيد بروزها عن ملليمتر أو ملليمترين ، ومن أهمها ما يمثل نقل مسلتين فى النيل من أسوان إلى طيبة ، والبعثة التى أوفدتها الملكة إلى بلاد پنت وما جلبته من منتجات هذه البلاد النائية . ومنها ما يصور دعوى حاتشبسوت من أنها إبنة أمون رع وذلك فى صور متتابعة تصور كبير الآلهة وهو يبدى رغبته للآلهة فى أن تكون له إبنة تتولى عرش مصر ، وزيارته لأمها الملكة أحمس ، وحسن استقبال الملكة إياه ، ثم ولادتها ورضاعتها

(١) يشتمل المعبد على معظم العناصر الرئيسية للطراز الذى شاع فى الدولة الحديثة للمعبد ، إذ يتألف من فناءين وبهو أعمدة وقدس الأقداس . ويدل النخلى عن الصرح فى مقدمة المعبد وبين الفناءين على اختيار مقصود للصفات فى نهاية كل مسطح ليكون بينها وبين الجبل اتساق بما يقلل من وطأة ارتفاعه . ولابد أن يكون اختيار الأعمدة المربعة والأعمدة ذات الستة عشر ضلعاً مقصوداً أيضاً .

وتقديمها لآلهة الجنوب والشمال ملكة على البلاد [١]؛ وكلها صور جميلة فى ألوان زاهية تضفى على المكان الموحش فى الصحراء جمالا وبهجة ، وتعد من غرر فن النقش فى الدولة الحديثة . وحسب حاتشبسوت هذا المعبد يخلد ذكراها بعمارته الفخمة ونقوشه الجميلة البهيجة .

وكان معبد تحوتمس الثالث الجنازى فى الشمال من الرمسيوم، ومعبد تحوتمس الرابع فى جنوبه ، وقد تهدما ولم يتركا غير آثار ضعيفة تدل عليهما ؛ ومنها يتضح أن كلا منهما كان على ثلاثة مسطحات يتلو كل منها الآخر . على أن أحدا منهما لم يبلغ ما بلغه معبد حاتشبسوت من فخامة وروعة ولعل ذلك راجع إلى بعد مكانهما عن سفح الهضبة بما لم يسمح بأقامة مسطحات مرتفعة تتدرج مع ارتفاع الجبل .

وكان معبد أمنحوتب الثالث من أعظم المعابد الجنازية وأفخمها . بيد أنه تهدم ولم يبق منه قائما فى مكانه غير تمثالين ضخمين من حجر الكورتزيت [٢] . كانا أمام الصرح ، ويمثلانه جالسا لارتفاع أكثر من عشرين مترا ، ويزن كل منهما أكثر من سبعمائة طن . وما من ريب فى أن قطع هذين التمثالين من محجرهما فى الجبل الأحمر بالقرب من عين شمس ، ونحتهما بأدوات بسيطة ، ونقلهما مسافة تزيد على ٤٣٥ ميلا إلى طيبة . وإقامتهما أمام المعبد ، ثم إكمال نحتهما ليدل على مهارة ممتازة وقدرة فائقة تثير ان الدهشة والأعجاب معا . وعلى أحد التمثالين عبارات باللغة الاغريقية نقشها الزوار فى العهد الرومانى الذين جاءوا ليسمعوا الصوت الموسيقى الذى كان

---

(١) من نقوش المعبد أيضاً ما يصور حاتشبسوت فى صورة أبو الهول يطأ بأقدامه تسع أعداء من أجناس وشعوب مختلفة ، تمثلهم صورهم فى أوضاع متعددة تكنى عن شدة التنكيل بهم . ومن الثابت أن عهد حاتشبسوت عهد سلام وأن مصر لم تشترك مدة حكمها فى حرب ما ، مما يدل على أن مثل هذا النقش إنما هو صورة رمزية .

(٢) L. Lucas, Ancient Egyptian Materials and Industries, 3rd ed., p. 477.

ينبعث عنه كل صباح . وقد كان الأغريق والرومان يعتقدون أن التمثالين أقيما للبطل ممنون بن تيتون والألهة الفجر . وتحكى أسطورته أن أباه ملك مصر وإثيوبيا أرسله لمساعدة أهل طروادة فقتل أنتيلوخ ابن نستور ، غير أن أشيل قتله ، فأخذت أمه الفجر تبكيه بدموعها ، التى هى ندى كل صباح ، وهو يحييها بصوته . ويظن أن الصوت الذى كان يخرج منه إنما كان من أثر الندى وأشعة الشمس الأولى على الحجر الرملى للتمثال الذى أتلفه أحد الزلازل ، وقد امتنع الصوت عندما رمم التمثال فى عهد سبتميوس سفرس . وقد وصف أمنحوتب الثالث المعبد بأنه معبد عظيم خالد إلى الأبد وأنه من حجر رملى ، ومصفح بالذهب وأرضه محلاة بالفضة ، ويحلى جميع أبوابه خليط الذهب والفضة ، ومن أمامه ساريات أعلام مصفحة بخليط الذهب والفضة ، وله بحيرة تمتلىء بماء النيل العظيم ، ومخازنه تحوى كل شيء طيب لايحصى له عدد (١) .

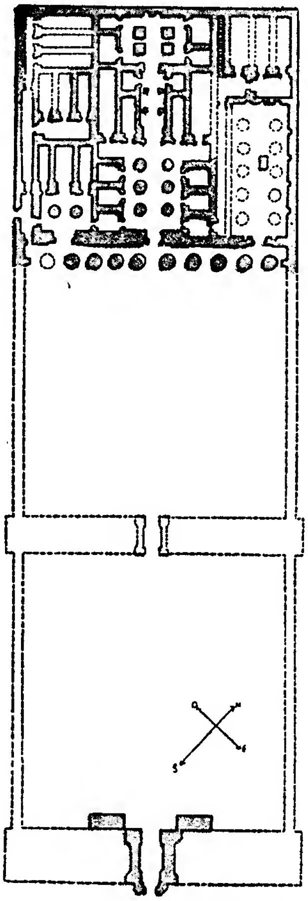
وكان لسيتى الأول معبد صغير فى الشمال من الرمسيوم ، بناه قبل أن يبنى معبده الجنازى فى القرنة ؛ ويتألف من قسمين متوازيين ، لكل منهما درج يؤدى إلى فناء مشترك ، ومن ورائه بهوان ثم ثلاث مقصورات ، يظن أنها كانت لعبادة رمسيس الأول وأمون رع وسيتى الأول (شكل ١٨٥) .

وكان لمعبد سيتى فى القرنة صرحان من وراء كل منهما فناء كبير ؛ وتلى الفناء الثانى صفة يعتمد سقفها على صف من عشرة أساطين بردية ، وفى مؤخرتها ثلاثة مداخل رئيسية تؤدى إلى أقسام المعبد الثلاثة (شكل ١٨٤) . وكان القسم الأوسط لعبادة أمون رع وسيتى ، والقسم الجنوبى لعبادة أمون رع ورمسيس الأول ، والقسم الشمالى لعبادة رع حراختى فيما يغلب على الظن . ويتألف القسم

---

(١) J.H. Breasted, op. cit., II, No. 883 ff.

الأوسط من بهو أساطين وردهة مستعرضة ومقصورة للزورق المقدس تليها قاعة بأربعة أعمدة ، وتكتنفها جميعا قاعات جانبية . وقد جاء عن أبوابه أنها كانت من «خشب الأرز الحقيقى ومصفحة بذهب آسيا ، عالية وكبيرة »[1] .

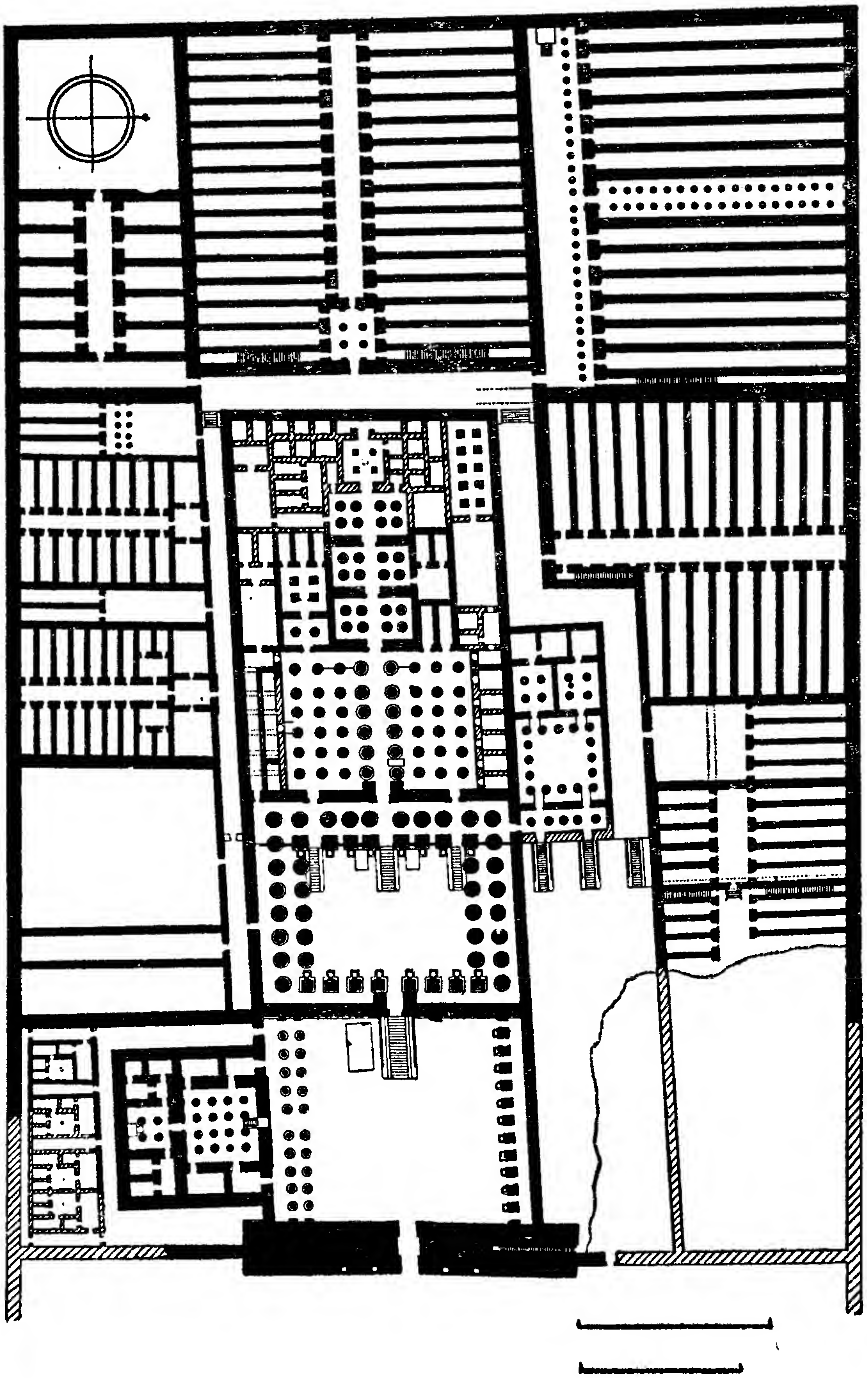


(شكل ١٨٤) المعبد الجنازى للملك سيتى الأول (القرنة)

ومن أجل مبانى رمسيس الثانى معبده الجنازى « الرمسيوم » ، وتدل أطلاله على أنه قصد أن يبز به أمجاد أسلافه وكل مجد يمكن أن يرنو إليه أحد من خلفائه (شكل ١٨٥) . وقد كان مثار الأعجاب فى الزمن القديم[2] ، ولا يزال رغم تهدمه . ويحيط به سور ضخم من اللبن طوله ٢٦٠ مترا تقريبا ، وعرضه نحو ١٧٠ مترا ، بيد أن جدران المعبد لاتوازى جدران السور ، ذلك لأنه بنى بحذاء المعبد الصغير لسيتى الأول . ويغلب على الظن أنه كانت تتقدمه شرفة تطل على مرسى على قناة تتصل بالنيل ، ثم بوابة ضخمة تؤدى إلى فناء فسيح أمام الصرح الأول المهدم الآن . وكان الصرح بناء ضخما عرضه نحو سبعين مترا ، وكانت فى واجهتى برجيه أربع ساريات تعاوها أعلام ترفرف فى الفضاء . وتحلى واجهته الداخلية مناظر موقعة قادش الشهيرة ، التى أبدى فيها رمسيس من الجرأة والشجاعة ما أنقذه والبلاد من هزيمة فادحة . والفناء الأول مهدم كذلك ،

(١) نفس المرجع ، المجلد الثالث ، الفقرة ٢١٧

(٢) ظنه الأغريق قبراً ، انظر وهيب كامل : ديودور الصقلى فى مصر صفحة ٩٢ وما بعدها .



(شكل ١٨٥) المعبد الجنازى لرمسيس الثانى (الرمسيوم)

على أن ما بقي من أطلاله يدل على ما كان له من روعة ؛ فقد كان إلى اليسار منه رواق من صفين من الأساطين كان بمثابة صفة أمام قصر صغير لرمسيس(١)، والى اليمين رواق بأعمدة ازيرية . وفي مؤخرة الفناء درج يؤدى إلى مدخل الصرح الثانى ، وإلى اليسار منه بقايا تمثال ضخم مهشم كان من كتلة واحدة من حجر الجرانيت ؛ وكان يمثل رمسيس جالسا لارتفاع سبعة عشر مترا على الأقل ، ويقدر وزنه بنحو ألف طن ، ويظن أنه كان له صنو إلى يمين الدرج .

والصرح الثانى أصغر قليلا من الصرح الأول ، وتحلي واجهته الداخلية مناظر قتال مع الحيتيين ، ومشاهد مختلفة من عيد الأله مين . ويشغل الفناء الثانى مسطحا يعلو كثيرا مسطح الفناء الأول ؛ وهو أقل مساحة منه ، غير أنه أعظم فخامة ، إذ تحيط به الأروقة من كل جانب . ويتألف كل من الرواقين الجانبيين من صفين من الأساطين البردية ، بينما أعمدة الرواق الأمامى والصف الأمامى من الرواق الخلفى أعمدة أزيرية تمتاز تماثيلها باتساقها وحسن نسبها وإن كانت تنقصها رءوسها (صورة ٧٠) .

وقد شاع طراز الأعمدة الأزيرية فى عهد الرعامسة فى الأفنية المكشوفة وما يقوم مقامها فى المعابد الصخرية ثم اختفت بعد ذلك . وهى أعمدة تبرز من واجهاتها بارتفاعها تماثيل كبيرة تمثل الملك واقفا فى شكل أزيريس بردائه وشاراته التقليدية ، وقدماه جنبا إلى جنب وذراعاه على صدره ، لا يبين منه غير وجهه ويديه ، تقبضان على الصولجان والمذبة(٢) ، وقد يمثل الملك بنقبة قصيرة وقدمه اليسرى تتقدم خطوة إلى الأمام ، بيد أن ذلك لا يغير كثيرا فى الخطوط العامة . وتستقل التماثيل عن الأعتاب (٣) وبذلك لا تؤدى غرضا معماريا على نقيض الأعمدة الحاملة المخلقة على شكل الانسان .

(١) انظر صفحة ١٢٨

(٢) G. Jéquier, Manuel d'archéologgie égyptienne, p. 158 sq.

(٣) فى بعض الأحيان يعتمد التاج على العتب .

وهى مع ذلك تؤلف والعمود وحدة واحدة سواء قد الاثنان من حجر واحد أو من أحجار مختلفة يعلو بعضها بعضا .

ومن وراء الأعمدة الأزيرية فى الرواق الخلفى صف ثان من الأساطين البردية ، بما يجعله أشبه بصفة أمام بهو الأساطين ، تؤدى إليها ثلاثة سلالم ؛ وكان يكتنف السلم الأوسط تمثالان كبيران ، لا تزال رأس أحدهما على الأرض ، وهى من جرانيت أشهب . ويشغل مقدمة المسطح الثالث بهو الأساطين ، وهو بهو فخم تبلغ مساحته نحو ١٢٠٠ متر مربع ، ويعتمد سقفه على ثمانية وأربعين أسطونا فى ستة صفوف . وسقف الأروقة الثلاثة الوسطى أعلى من سقف الأروقة الجانبية وكانت بين المستويين شبابيك يدخل منها النور . ويتوج الأساطين التى تكتنف الرواق الأوسط تيجان بردى يانع ، بينما تتوج بقية الأساطين تيجان براعم البردى . ويحلى سقف الأروقة الوسطى رخم ينشر جناحيه ، بينما تزين سقوف الأروقة الجانبية نجوم بلون أصفر فى قاعدة زرقاء . وبهو الأساطين بهذا كله صورة مصغرة من بهو الأساطين العظيم فى الكرنك ؛ وتليه أبهاء أخرى صغيرة ، وتحلى سقف أحدها صور فلكية (١) ؛ ومن وراء ذلك قدس الأقداس وفيه أربعة أعمدة فى صفين . وتقع جميع الأبهاء وقدس الأقداس على المحور الأساسى للمعبد ، وتكتنف كلا منها قاعات صغيرة ؛ منها ما كانت مقصورات لبعض الآلهة ، أو فيها زوارقها المقدسة ؛ ومنها ما كان خزائن تحفظ فيها نفائس المعبد .

وتحيط بالمعبد دهاليز ومخازن عديدة من اللبن بسقوف مقبية

(١) يبدو أن هذا البهو كان مكتبة ، وكانت تحلى جانبى مدخله صورة الألهة سشات ، إلهة الكتابة والحساب ، وصورة الأله تحوت ، رب المعرفة ، ومعهما رمسيس الثانى يحمل أداة الكتابة . Jour. of Eg. Arch. XXIV, 177 ; J. Capart, L'exaltation du livre, Chronique d'Egypte, 1946, p. 25 sq.

وفيها عناصر معمارية من الحجر ؛ وهى تشغل مساحة أكبر كثيرا من مساحة المعبد ذاته ، وتؤلف عدة مجموعات ، تشمل كل مجموعة دهليزا أو أكثر يقع عليه عدد من المخازن المستطيلة كل منها بجوار الآخر ، حيث كانت تخزن الحبوب والزيوت وقدور النبيذ والجعة والثياب والجلود وغيرها مما كان يحتاج اليه فى تقديم القربان للملك المتوفى والآلهة التى تعبد معه فى معبده الجنازى ، وفى رواتب الكهنة والصناع والخدم . ومن الدهاليز الكبيرة ما كان يشتمل على عدد من الأساطين فى أحد جانبيه ومنصة فى نهايته مما يسمح بالظن بأنه كان مكتب المشرف على مخازن المعبد ؛ ومنها ما كان يحتوى على صفين من الأساطين ، ويظن أنه كان مكان الكتبة والموظفين وربما المحفوظات أيضا . ومن الأفنية ما كانت تذبح فيه الضحايا .

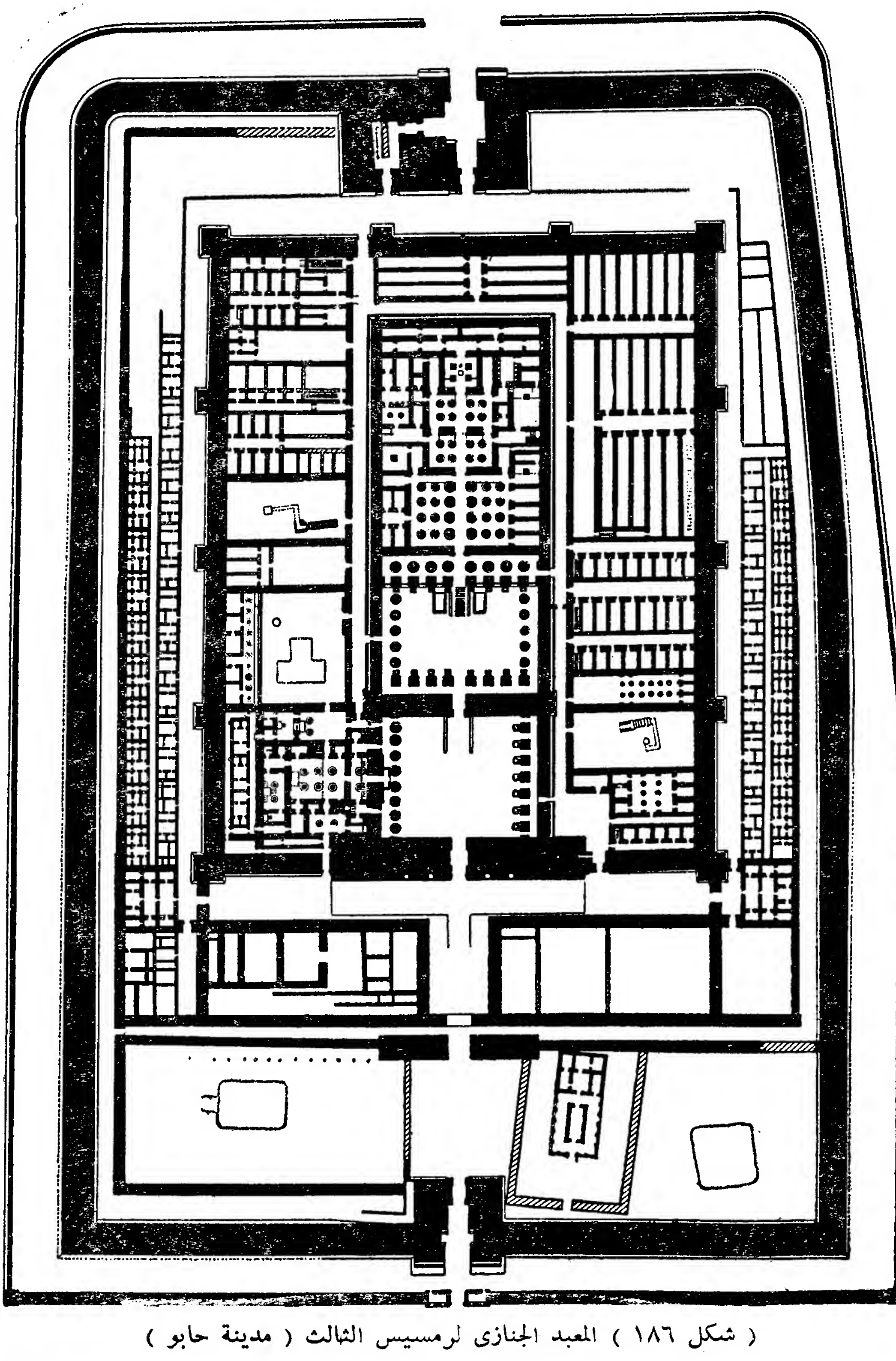
ومعبد رمسيس الثالث الجنازى ، مدينة حابو ، هو أكبر ما حفظ من المعابد الجنازية ، كما أنه المعبد الوحيد المحصن ، وتبلغ مساحته نحوا من ٦٤٠٠٠ متر مربع (٢٠٠ × ٣٢٠ مترا) ، أى أكثر من خمسة عشر فدانا (شكل ١٨٦) (١) . وقد بنى على فترتين ، تم فى الفترة الأولى بناء المعبد وملحقاته والسور الداخلى ، وفى الفترة الثانية تم بناء السور الخارجى ببوابتيه الضخمتين المحصنتين فى الشرق والغرب ، ومساكن الكهنة والموظفين بين السورين فى الشمال والجنوب ، والمرسى أمام البوابة الشرقية ، وبذلك اشتمل حرم المعبد على معبد حاتشبسوت وتحوتمس الثالث المحاط بالأعمدة(٢) .

وكانت تطل على المرسى شرفة تميل جدرانها إلى الداخل قليلا ،

---

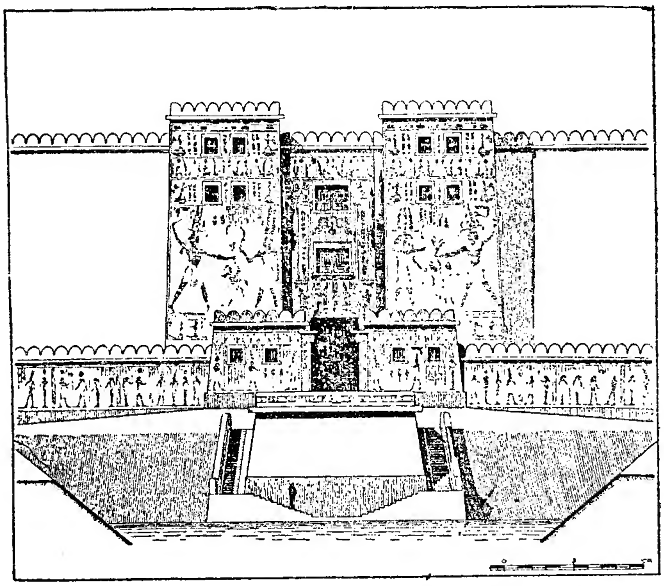
(١) The University of Chicago Oriental Institute Publications, vols. 21 (1934), 41 (1939), 54 (1941), 55 (1951), 66 (1952) = Medinet Habu I-V ; U. Hoelscher, Medinet Habu, Morgenland, Heft 24 وكان المعبد فى نفس الوقت مركز إدارة منطقة غربى طيبة T.E. Peet, The Great Tomb-Robberies of the Twentieth Dynasty, vol. I, p. 84.

(٢) انظر صفحة ١٨٥



(شكل ١٨٦) المعبد الجنازى لرمسيس الثالث (مدينة حابو)

ويحليها الكورنيش المصرى ويحيط بها سياج (شكل ١٨٧) . ولم تكن الشرفة لغرض عملى ، وإنما كانت لتحقيق غرض جمالى ودينى ، إذ كان الكهنة والمنشدات يستطيعون الاجتماع فيها لاستقبال موكب السفن المزينة الوافدة من معبد الكرنك أو الأقصر فى صحبة الزورق المقدس للأله أمون رع وتحيته بالأناشيد والبخور . وكان يكتنف الشرفة درجان يؤديان إلى المرسى ، التى كانت تشرف على حوض عريض ترسو فيه السفن فى نهاية قناة تتصل بالنيل .

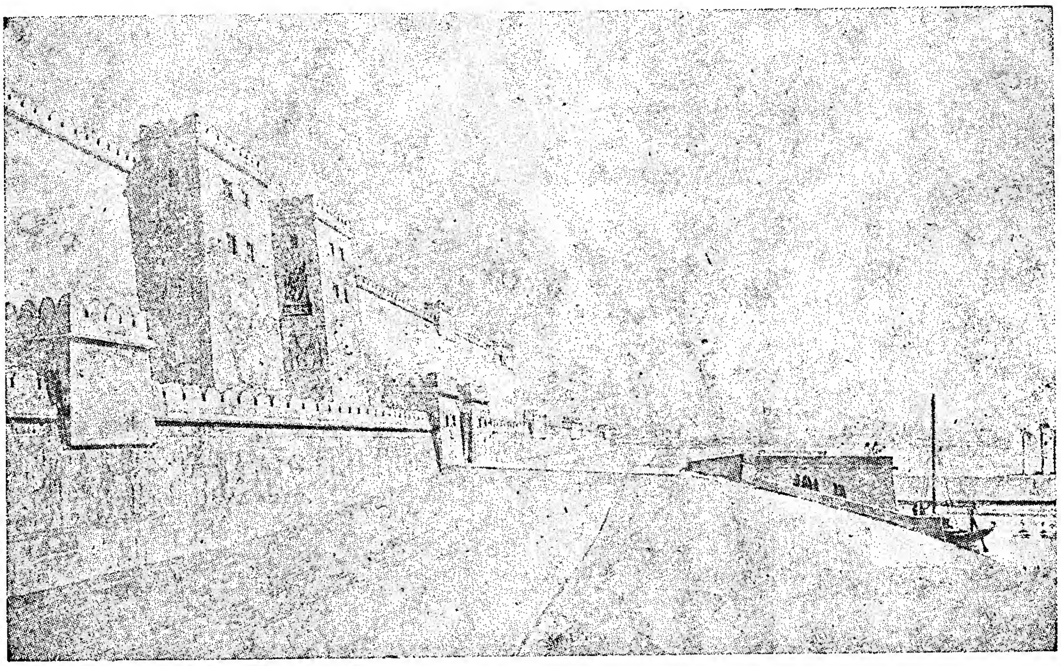


(شكل ١٨٧) مرسى السفن أمام مدينة حابو

ويقوم من حول السور الخارجى للمعبد سياج منخفض كان الغرض منه حماية أسفل السور الخارجى من أن ينقبه معتد . وجزوءه الأمامى مبنى بالحجر تتخلله أبراج صغيرة وتعلوه شرف ؛ أما بقية أجزائه فمن اللبن . ويقع مدخله على المحور الرئيسى للمعبد ، وتكتنفه قاعتان للحراس .

والسور الخارجى وإن كان من اللبن ، إلا أنه عمل ضخم فى حد ذاته ، ويبلغ سمكه عند قاعدته عشرة أمتار ونصف ،وكان

ارتفاعه أكثر من ثمانية عشر مترا عدا ثلاثة أمتار هى أساسه فى الأرض . ويغلب على الظن أنه كان مزودا بأبراج على مسافات معينة أسوة بالسياج الذى يتقدمه وأنه كانت تتوجه شرف . وهو مستطيل تقريبا غير أن الجزء الغربى من جداره الشمالى ينحرف قليلا إلى الجنوب ليتحاشى معبد آى وحورمحب الجنائزى . ويتوسط



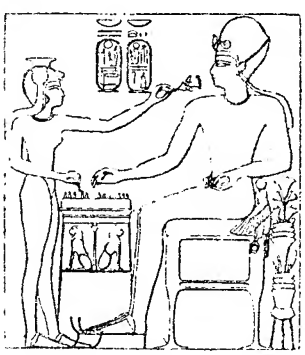
(شكل ١٨٨) الواجهة الشرقية لمدينة حابو

جداريه الشرقى والغربى مدخلان عظيمان فى بناءين ضخمين يقعان على محور المعبد ، ويشبه كل منهما الآخر ، على أن البناء الغربى كان أكبر حجما لاشتماله على مبنى لسلم كبير ، كان يؤدى إلى سطح السور . وكان البناء الشرقى (شكل ١٨٨) مبنى مستطيلا من اللبن يكسوه حجر رملى ، وتبرز مقدمته عن السور نحو مترين ، وتبدو كأنها ذات جناحين فى شكل برجين ، وكان ارتفاعها اثنين وعشرين مترا ، وبذلك كانت تعلو السور بنحو أربعة أمتار(١) . والطابق

(١) U. Hoelscher, Das hohe Tor von Medinet Habu.

الأول مصمت يخلو من القاعات والدهاليز ،ويتوسطه ممر مكشوف فى جزئه الأمامى ، يختلف عرضه من مكان إلى آخر . ويكتنف جزأه العريض تمثالان للألهة سخمت بجسم امرأة ورأس لبؤة ، ويبرز من كل من جانبيه على ارتفاع من الأرض رفرف تحمله أربعة رءوس منحوتة لأسرى ، ويظن أنه كانت من فوقه بعض التماثيل . ويضيق الممر بعد ذلك تدريجا إلى أن ينتهى بمدخل ضخم يتصل من فوقه الجناحان فى الطابق الثانى .

وقد اندثر البناء باللبن وبقى الكساء من الحجر متساميا فى أجواز الفضاء ، تحلى واجهته نقوش تمثل رمسيس الثالث يصعق أعداءه أو يقودهم أسرى إلى آلهة مختلفة . ويعد هذا المبنى من الآثار العظيمة فى مصر ؛ وكان فى الجنوب منه أحدور صاعد يؤدى إلى الطابق الثانى ،حيث تقتصر القاعات فيه على النصف الغربى من المبنى فحسب. وفيه درج يؤدى إلى الطابق الثالث الذى كان يشتمل أيضا على درج يؤدى إلى السطح ، وكانت فيه قاعتان فى أعلى الجناحين . وتحلى جدران القاعات صور لا يعرف لها مثيل فى الفن المصرى ، تمثل الملك مع نساء من حريمه تخففن كثيرا من ملابسهن ، منهن من تقدم إليه الزهور أو الفاكهة أو تلعب معه النرد (شكل ١٨٩) ، ومنهن من يربت فى لطف تحت ذقنها ، مما يدل على أن هذه القاعات إنما كانت ليمضى فيها الملك ساعات لهو ومتعة ليس للملكة مكان فيها ، ومن نوافذها النسيحة كان يمكن الاستمتاع بمشاهدة سهل طيبة الخصيب .



(شكل ١٨٩) رمسيس الثالث يلعب النرد مع احدى نساء حريمه

ويؤدى المدخل الضخم إلى فناء شاسع بين السور الخارجى والسور الداخلى ، على أنه كان يقسمه صرح صغير من اللبن لم تبق

منه غير آثار ضعيفة تدل عليه . وكان فى الركن الشمالى الشرقى البحيرة المقدسة ،وفى الركن الجنوبى الشرقى حديقة يتوسطها حوض ماء . ويظن أنه كانت فى القسم الغربى من الفناء حظائر الخيل والمركبات الملكية . وكان بين السورين فى الشمال والجنوب من المعبد مبنيان للأدارة ، وعدد كبير من مساكن الكهنة والموظفين والجند فى صفوف مستقيمة . وبذلك كان ما يحيط بالمعبد أشبه بقرية أو مدينة صغيرة .

وكان السور الداخلى مستطيلا تماما ؛ وكان يرتفع لنحو إثنى عشر مترا ، وتتخلله أبراج يبعد كل منها عن الآخر ٤١ مترا تقريبا ؛ وهى مسافة تكفل إصابة محققة بالسهام إذا تيسر لمعتد أو أكثر اختراق مدخل السور الخارجى . وكان يحيط بمساحة تزيد على ٢٢٥٠٠ متر مربع (١٣٥ × ١٦٨ مترا) ، يشغلها المعبد ومن حوله المخازن والقصر . والمعبد ، وهو بيت القصيد فى هذه المبانى جميعها ، مشيد بأكمله بالحجر الرملى ، ويقع صرحه الأول وسط الجدار الشرقى من السور الداخلى ، ويبلغ ارتفاعه ٤٥و٢٤ من المتر وعرضه ٦٨ مترا إلا قليلا ، وهو أحد المبانى الضخمة فى مصر ، وكانت تقوم فى واجهته أربع ساريات ، وتحليها صورة الملك يصعق أعداءه أمام أمون وحراختى ونص طويل يسجل انتصاره على شعوب البحر الأبيض . وفى جنوب واجهته الخلفية درج يؤدى إلى مسطح يعلو مدخل الصرح ، ومن ثم يتفرع إلى فرعين يتجه أحدهما إلى الجناح الأيمن والآخر إلى الجناح الأيسر .

ويؤدى مدخل المعبد إلى فناءين فسيحين بينهما صرح ثان أقل عرضا من الصرح الأول وارتفاعه ستة عشر مترا . وتكتنف الفناء الأول صفتان ، يعتمد سقف الصفة اليمنى على أعمدة تبرز من واجهاتها تماثيل ضخمة لرمسيس الثالث فى لباسه الرسمى وبجانب ساقيه تمثالان صغيران لبعض أفراد أسرته ، ويعتمد سقف الصفة

اليسرى على أساطين برديه يانعة التيجان . وتبدو تماثيل رمسيس لأول نظرة جافية لضخامتها وقصرها ، بيد أنه يجب ألا ننسى أنها جزء من عمارة المعبد وأنه لايشترط أن تكون على شاكلة التماثيل المستقلة . وتحلى الجدران مناظر ونصوص تسجل حروب رمسيس الثالث فى سورية وضد العموريين والليبيين ومناظر أخرى دينية .

وتحلى واجهة الصرح الثانى مناظر ونصوص عن القتال مع شعوب البحر ، وقد أبدع الفنان تمثيل ملامح الأجناس المختلفة سواء كانوا من الجنود المرتزقة أو الأسرى ومنهم عموريون وفلستينيون وشردانيون . ويؤدى إلى مدخل الصرح أحدور صاعد كان يكتنفه تمثالان ضخمان . وإطار المدخل من حجر الجرانيت ، وقد جاء فى وصف بابه أنه من خشب السنط ومصفح بالبرنز ومرصع بخليط الذهب والفضة .

وتحيط بالفناء الثانى الصفات من كل جانب ، ويعتمد سقف كل من الصفتين اليمنى واليسرى على صف واحد من أساطين بردية بتيجان مبرعمة ، بينما يعتمد سقف الصفتين الأمامية والخلفية على صف من الأعمدة الأزيرية ، يليه فى الصفة الخلفية صف ثان من أساطين بردية مبرعمة . ويفضى إلى الصفة الخلفية درج بين أحدورين وكان إلى اليمين وإلى اليسار تمثالان كبيران لرمسيس . وتسجل نقوش جدران الفناء الثانى حروب رمسيس مع الليبيين فى السنوات الخامسة والثامنة والحادية عشرة من حكمه وبعض المناظر الدينية ، ومنها موكب الأله مين .

وتلى الفناء الثانى ثلاثة أبهاء ذات أساطين وتقع كلها على محور المعبد بحيث يتبع أحدها الآخر ، وكل منها أقل مساحة من سابقه ، ومن ورائها جميعا قدس الأقداس ، ويعتمد سقفه على أربعة أعمدة ، ويظن أنه كان يودع فيه زورق أمون المقدس ؛ وهو وكثير مما يحيط

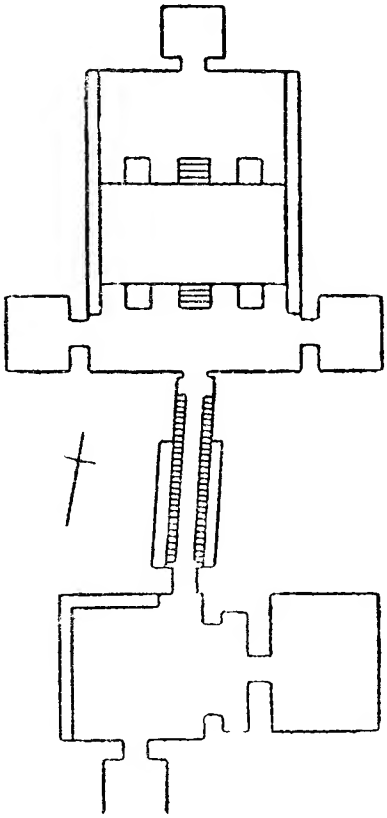
به من قاعات مهدم بسبب زلزال عام ٢٧ ق . م . فيما يظن . ومن القاعات المحيطة ما كان خزائن تودع فيها نفائس المعبد من حلى وأوان وتماثيل من ذهب وفضة وأحجار نفيسة . ومنها ما كان هياكل لعبادة رمسيس الثانى ورمسيس الثالث والآلهة العظيمة وخاصة أزيريس وبتاح ورع حراختى ومنتو وبتاح سكر وتحوت ، وبعضها كان لعبادة أمون رع مع آلهة أخرى . وتحت أرض أقصى القاعات أماكن خفية كانت تحفظ فيها أثمن ذخائر المعبد ، على أنها استخدمت قبورا فى العصر المتأخر .

وتزدان السطوح الخارجية لجدران المعبد بالنقوش والنصوص ، ومنها ما يمثل الملك يهجم فى حماس فى مركبته وهو يصيد الثيران البرية والحمير الوحشية ومعز الجبل فى منظر شائق عامر بالحياة ، ومنها ما يصور حروبه مع الليبيين وفى النوبة وفى آسيا ، ومع شعوب البحر الأبيض فى تفصيل شائق ؛ كما أن منها ما يسجل قائمة الأعياد التى كان يحتفل بها سنويا فى المعبد بمتوسط عيد كل ثلاثة أيام ، ومنها عيد التتويج وكان يستغرق عشرين يوما . وكلها نقوش غائرة على نحو نقوش معظم المعابد فى عهد الرعامسة .

مقابر أفراد الأسرة المالكة

حفرت مقابر أفراد الأسرة المالكة من ملكات وأميرات وأمراء فى واد له جماله الطبيعى خلف معبد مدينة حابو ، وكان يسمى « المكان الجميل » ، ويطلق عليه الآن وادى الملكات . ومع أن من مقابره ما يرجع إلى أواخر الأسرة السابعة عشرة إلا أن أهمها جميعا مقابر عهد الرعامسة ؛ وهى تتألف عادة من ردهة وغرفة التابوت ، وتخلو فى الغالب من الدهاليز الطويلة التى تشتمل عليها مقابر الملوك . وكثيرا ما تحتوى غرفة التابوت على أعمدة ، قلما تحتوى عليها الردهة ، وقد يكون لأحديهما أو لكل منهما غرف جانبية . وأهم جميع هذه المقابر مقبرة الملكة نفرتارى ، زوجة رمسيس الثانى ،

(شكل ١٩٠) ، وتمتاز بصور جدرانها ذات الألوان البهيجة . ولابد أن كان لكل من هذه المقابر مقصورة فى مكان ما فوق سطح الأرض ، تؤدى فيها طقوس القربان


(شكل ١٩٠)
قبر الملكة نفرتارى

مقابر ملوك الأسرتين الحادية والعشرين والثانيـــة والعشرين والأسرة السادسة والعشرين

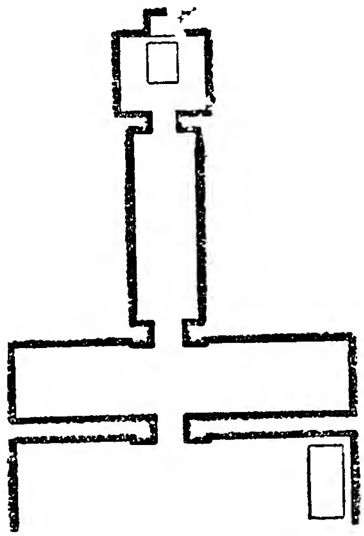
شيد بعض ملوك الأسرتين الحادية والعشرين والانية والعشرين مقابرهم فى حرم المعبد فى تانيس (صان الحجر) ؛ وكان قبر بسوسنس يتألف من دهليز وردهة وثلاث قاعات وجد فى إحداها التابوت ، ويظن أنه كان يعلو القبر بناء فوق سطح الأرض . وذكر هيرودوت عن مقابر ملوك الأسرة السادسة والعشرين ، التى لم يكشف عنها بعد ، أنها فى ساحة المعبد فى سايس (صا الحجر) ، وأنها رواق كبير من الحجر مزدان بأساطين تحاكى النخيل وبضروب أخرى من الزينة باهظة التكاليف . وبداخل هذا الرواق بابان بينهما التابوت (١) .

مقابر الأفراد فى الدولة الحديثة

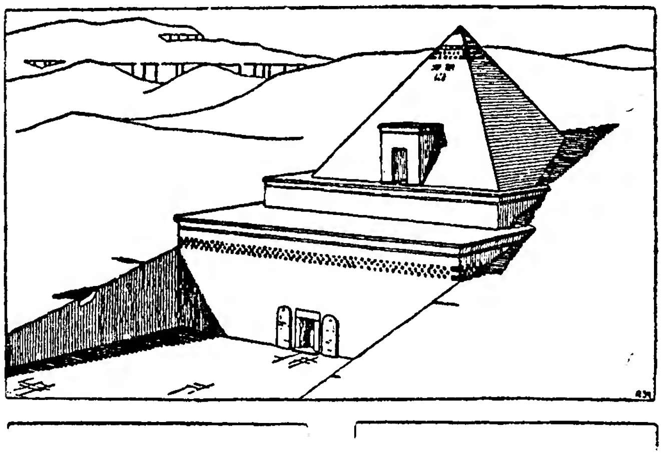
مع أنه كان يقال أن كتابا أفضل من قبر فى الغرب .. وأحسن من نصب فى معبد ، وأن قبور كثير من عظماء الرجال تحولت

(١) وهيب كامل : هيرودوت فى مصر ، فقرة ١٦٩

إلى تراب ، ونسيت أماكنها ، ولم تعد تؤدى لهم الشعائر الجنائزية ، غير أن أسماءهم لا تزال تذكر بسبب ما صنفوه من كتب وأنها ستبقى أبد الآبدين ، إلا أن عظماء الأفراد فى الدولة الحديثة عنوا كثيرا بمقابرهم وقد حفروها فى وجه الجبل بالقرب من معابد ملوكهم الجنائزية . وهى تختلف فيما بينها فى التفاصيل اختلافا غير يسير ، على أنها فى جوهرها تتألف بصفة عامة من فناء تليه ردهة مستعرضة ، تؤدى إلى دهليز طويل ، يفضى إلى مقصورة فى جدارها الخلفى مشكاة لتمثال صاحب المقبرة وحده أو مع بعض



(شكل ١٩١)
مخطط طراز مقابر الأشراف فى الدولة الحديثة

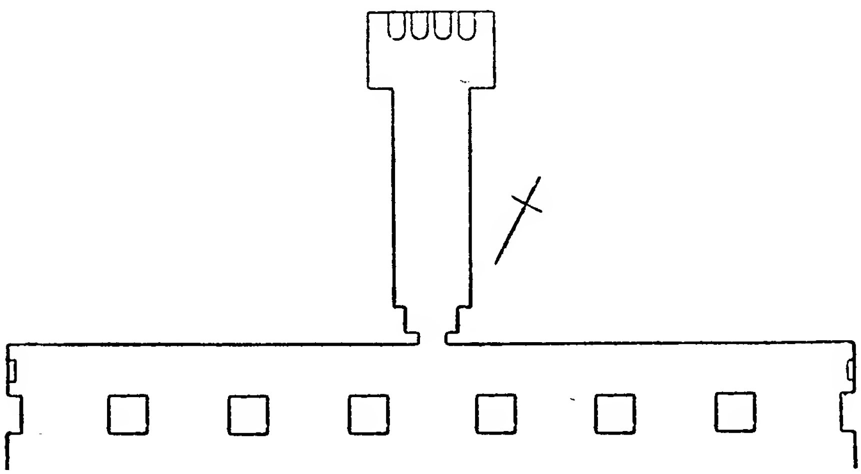


(شكل ١٩٢)
منظور لاحدى مقابر الأشراف فى الدولة الحديثة

أفراد أسرته ؛ وتقع جميع أجزاء المقبرة على محور واحد (شكل ١٩١)(١). وتدل الصور التى خلفها المصريون لهذه المقابر على أنه كان يعلوها هرم من اللبن فى واجهته مشكاة لنصب أو لتمثال (شكل ١٩٢) .

(١) Steindorff, Wolf, Die thebanische Graeberwelt, S. 44 f.

ولا يعرف إذا كان مدخل الفناء بابا بسيطا يعلوه الكورنيش المصرى أو كان فى شكل صرح ذى برجين ، ذلك لأنه تهدم ولم يترك ما يدل عليه . والفناء مكشوف ومنحوت فى الجبل ، أكملت جدرانه باللبن أو الحجر . ويتوسط جداره الخلفى باب بين نصبين مقوس أعلاهما ، مثل عليهما الميت يتعبد أو جالسا أمام مائدة القربان يقرب له أهله وأتباعه . ويعلو الجدار صفان أو أكثر من مخاريط من الفخار مثبتة فيه من قبل أطرافها المدببة بحيث تبين قواعدها المستديرة مطبوع عليها إسم صاحب المقبرة وبعض ألقابه (١) . وفى أحيان قليلة يحلى هذا الجدار عدد من الأبواب الوهمية أو نص طويل .

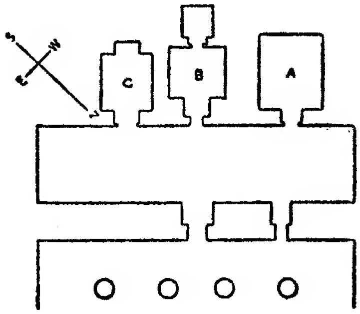


(شكل ١٩٣) مقبرة انينى

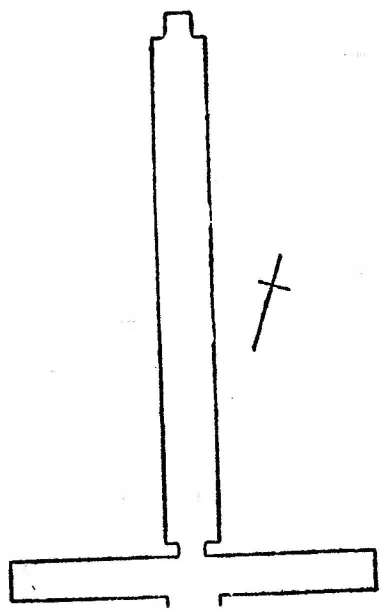
ومن المقابر ما له فى مؤخرة الفناء صفّة تحمى النقوش من أشعة الشمس ويستظل من تحتها وقت أداء الطقوس الجنائزية عند دفن الميت ، ويحتفل فيها بذكراه فى الأعياد المختلفة . وقد تغنى هذه الصفّة عن الردهة المستعرضة (شكل ١٩٣) ، كما أنه قد يكتفى

(١) تمثل القواعد المدورة للمخاريط فيما يغلب على الظن أطراف عروق الخشب التى كانت تسقف بها البيوت ؛ أنظر Koenigsberger, Ricke, Friesziegel in Grabbauten, Ae. Z. 70, S. 25 ff.

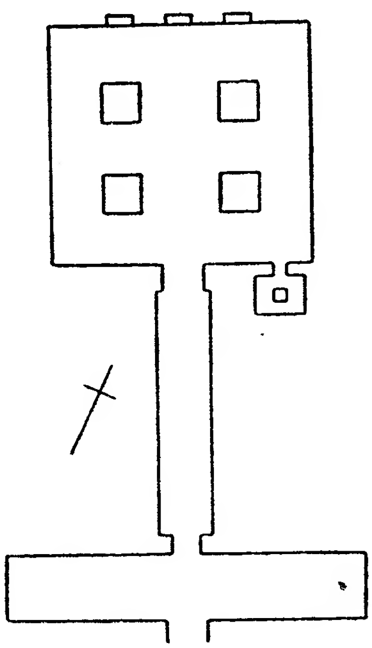
بثلاث مشكاوات عن الدهليز الطويل (شكل ١٩٤) . ومن المقابر أيضا ما استبدلت فيها مقصورة القربان بمشكاة فى الجدار الخلفى من الدهليز الطويل (شكل ١٩٥) ، أو تحولت إلى بهو أعمدة وفى جداره الخلفى مشكاة أو أكثر (شكل ١٩٦) . وتقع أجزاء المقبرة على مستوى واحد فيما عدا ثلاث مقابر من عهد الملكة حاتشبسوت ، فأنها تقع فيها على مستويين مختلفين تقليدا لمعبد الملكة الجنائزى ، ومنها مقبرة كل من سننموت وأخيه سنمن .



(شكل ١٩٤) مقبرة بويمرع



(شكل ١٩٥)
مقبرة رخمارع

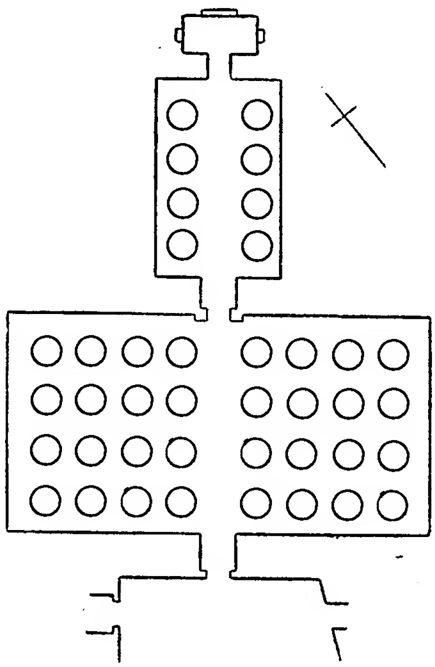


(شكل ١٩٦)
مقبرة سنوفر

ويدل ما حفظ من رسوم لبعض هذه المقابر على أنه كان يعلو القاعات المحفورة فى الصخر هرم من اللبن (شكل ١٩٢) ؛

وبذلك ظل الشكل الهرمى أشبه برمز فوق مقابر الأفراد بينما تخلت عنه المقبرة الملكية . ويؤدى إلى غرفة الدفن أحدور فى الجانب الشمالى من الفناء أو بئر فى أرض مقصورة القربان . وتتميز غرفة دفن سنّوفر والقاعات الملحقة بها بأن سقوفها لم تسو وإنما نحتت فى غير نظام وصورعليها كرم يبدو فى شكل مجسم طبيعى ، وتحلى جدرانها وأعمدتها صور جنائزية .

ومن أفخم المقابر مقبرة الوزير رعموزى من عهد أمنحوتب الثالث وأخناتون ؛ وتحتوى الردهة المستعرضة على إثنين وثلاثين أسطونا فى مجموعتين تكتنفان محور المقبرة ؛ ويشتمل الدهليز الطويل على ثمانية أساطين ، على شكل حزمة البردى ، فى صفين على جانبى محور المقبرة ، وبذلك لايعترض محور المقبرة شىء من بدايته إلى نهايته (شكل ١٩٧) .

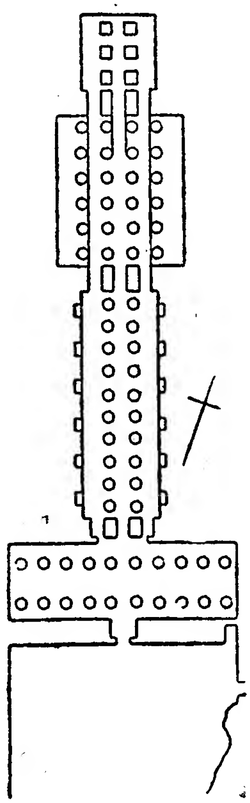


(شكل ١٩٧)
مقبرة رعموزى

وتعد مقبرة أمنمحات سرر من عهد أمنحوتب الثالث أعظم المقابر فخامة (شكل ١٩٨) ، فقد كانت الردهة المستعرضة تشتمل على عشرين عمودا مقنى فى صفين مستعرضين ؛ ويؤدى منها ثلاثة مداخل إلى دهليز طويل يتقاسمه صفان من الأساطين على شكل حزمة البردى يكتنفان محور المقبرة ، وفى كل صف عشرة أساطين ؛ وفى كل من الجدارين الجانبيين ست مشكاوات . وتؤدى ثلاثة مداخل أخرى فخمة من الدهليز الطويل إلى قاعة يعتمد سقفها على

أربعة وعشرين أسطونا على شكل أسطون الخيمة فى أربعة صفوف .

وتقع مقصورة التمربان فى أقصى مكان من المقبرة ، وكان فى النية أن يتخللها صفان من ستة أعمدة . ولو كانت هذه المقبرة قد استكملت عمارتها ونقوشها لما كان يفوقها غير معبد أبو سنبل العظيم بعمارته ، ولكنها كانت تفوقه بجمال نقوشها .



(شكل ١٩٨)
قبر أمنمحات سرر

وقد منح أمنحوتب الثالث مهندسه أمنحوتب بن حابو امتيازا لم يمنح لغيره من أفراد الشعب ، فقد سمح له بأن يبنى لنفسه فى الغرب من معبد مليكه الجنازى معبدا من اللبن والحجر يشغل مساحة تكاد تبلغ ثلاثة أمثال مساحة معبد تحوتمس الثانى الذى يقع إلى الجنوب منه (١) . وكان يتألف من صرح وفناء كبير مستطيل تكاد تشغله بركة كبيرة مستطيلة تحيط بها الأشجار ، ويؤدى اليها من الغرب درجان محفوران فى الصخر (شكل ١٩٩) . وكانت فى نهاية الفناء صفّة تؤدى اليها ثلاثة سلالم ، ومن ورائها صرح ثان ، يؤدى مدخله إلى فناء ثان صغير على كل من جانبيه صفّة وأربع قاعات صغيرة بسقوف مقبية . وكانت فى مؤخرة المعبد ردهة وثلاث مقصورات تحيط بها من الجانبين ومن الخلف خمسة دهاليز .

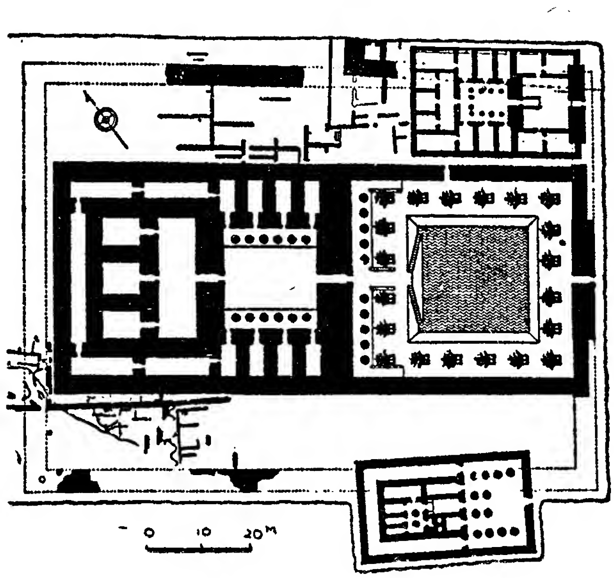
وتحلى جدران المقابر مناظر منقوشة أو مصورة (٢) بألوان شائقة ، منها ما يمثل صاحب المقبرة يخرج من قبره يحيي الشمس

---

(١) C. Robichon, A. Varille, Le temple du scribe royal Amenhotep, fils de Hapow.

(٢) حيثما كان الصخر رديئاً كان يغشي بملاط من طين ثم يطلى بطلاء من جبس وتصور عليه المناظر .

عند شروقها ، أو وهو يدخل قبره يحيي شمس المغيب . ومنها ما يصور موضوعات تختلف باختلاف وظائف أصحابها ؛ فمنها مايمثل الملك على العرش يقدم اليه صاحب القبر تقريرا عن أعماله أوماجمعه من ضرائب أوحصل عليه من جزى الشعوب الأجنبية . ومنها ما يمثل استعراض الجند وتوزيع المؤن عليهم ، أو يصور مسح الأرض وحرثها وحصاد الزرع ودرس الحب وتذريته ثم كيله ؛ ومنها ما يصور المثالين والمصورين والصاغة والنجارين والخبازين



(شكل ١٩٩) معبد أمنحوتب بن حابو

وصناع الجعة والنعال يقومون بأعمالهم المختلفة . ومنها كذلك صور مآدب فخمة اجتمع فيها الأهل والأصدقاء من رجال ونساء ، يستمتعون بسماع الموسيقى ورقص الراقصات ، وتقوم على خدمتهم الخادمات ؛ ومنها ما يصور صيد الطير والأسماك وفرس النهر . وتحلى جدران الأجزاء الداخلية من المقبرة مناظر جنازية مختلفة ،

منها ما يمثل الحج إلى أبيدوس ، وطقوس الدفن ، وتقديم القربان ، وشعيرة فتح الفم ؛ ومنها كذلك صور آلهة الموتى، ومحاكمة الميت أمام أزيريس .

وتزين أعالى الجدران أكاليل من الزهر يسود فيها اللوطس ، وتحلى السقوف زخارف تتميز بحسن تأليفها وتنسيق ألوانها ،وتتألف من عناصر هندسية وعناصر مشتقة من عالم النبات والحيوان (١) . وأغلب الزخارف الهندسية خطوط متكسرة أو حلزونية ، وسطوح مربعة أو معينة أو مستطيلة أو مسدسة أو مستديرة ، ومنها أيضا الخط المتموج والمنحنى والمثلث غير أنه قليل . والخطوط المتموجة متوازية أو متضادة أو متقاطعة تنشىء فيما بينها أشكالا معينة أو مسدسة . ومن الخطوط الحلزونية ما هو بسيط ، ومنها المركب المتشابك ويعد من أهم عناصر الزخرفة المصرية . وقد تكون السطوح المربعة والمستطيلة فى صف واحد أو فى عدة صفوف فى هيئة رقعة الشطرنج . ومن السطوح المسدسة ما يتألف من عدة سطوح كل منها من داخل الآخر ؛ ومن السطوح المستديرة ما تستقل فيه كل دائرة بذاتها ؛ ومنها ما تتقاطع فيه الدوائر فى شكل شبكة من الخرز ، أو تمس أحداها الأخرى.

وأهم العناصر المشتقة من عالم النبات ما يمثل زهور اللوطس والبردى والزنبق وعناقيد العنب ووريدات من أنماط مختلفة يظن أنها تمثل زهر الأقحوان ، وأوراق نمطية من أشكال شتى أحكم تنظيمها جنبا إلى جنب. ومن أزهار اللوطس ما جمع معا فى شكل دائرى جميل.

ومن الزخارف المشتقة من عالم الحيوان ما يمثل الأوز أو البط أو الحمام ، ينشر كل منها جناحيه فى سماء القاعات ؛ ومنها ماله معنى

---

(١) G. Jéquier, Décoration égyptienne. Plafonds et frises végétales du Nouvel Empire thébain ; F. Fortova-Samalova, L'Ornement égyptien.

رمزى ، كصورة الصل ، والرخمة ، ورأس الصقر حورس ، والجعل ممسكا بين أرجله قرص الشمس ، ورأس البقرة بين قرنيها قرص الشمس .

وتتألف بعض الزخارف من عنصر واحد متكرر بألوان مختلفة ، أو بلون واحد على قواعد من ألوان مختلفة ؛ ومنها ما يألتف من أكثر من عنصر واحد بألوان متعددة . وقد يكتفى بتغشية السطوح بألوان مختلفة ؛ على أنه كثيرا ما يحليها ويملأ الفراغ بينها وبين العناصر الزخرفية المختلفة زخارف أخرى ، منها وريدات وعناقيد عنب وزهور لوطس ونخيلات ومربعات ومعينات ودوائر وبعض الرموز والعلامات الهيروغليفية .

وعلى قلة العناصر الزخرفية التى تتألف منها هذه الزخارف فقد ابتدع الفنان المصرى منها أشكالا شتى بفضل تصنيفها وتنويع أجزائها وألوانها رغم قلة الألوان الرئيسية التى استخدمها بما يقتضى الأعجاب والتقدير . وهى تمتاز بوضوح أجزائها المركبة والمتشابكة رغم كثرة تفاصيلها ، وذلك بفضل الدقة البالغة فى اختيار الألوان والبراعة الممتازة فى استخدامها . وهكذا استطاع الفنان المصرى بخطوط بسيطة ، ومسطحات قليلة ، وألوان أساسية محدودة ، وعناصر قليلة ، ابتداع زخارف جميلة ترتاح لها العين ، وتضفى على المكان بهجة ، وتدل على ذوق حسن وشعور فنى دقيق . ولا تزال هذه الزخارف تأسر النظر وتثير الأعجاب الكامل ؛ وقد وجد كثير منها سبيله إلى بلاد أخرى حتى لتعتبر مصر أصل الزخرفة فى العالم .

ومن النصوص والمناظر ما يدل على أن من مقابر الاشراف فى الدولة الحديثة ما كانت له حديقة ، كان الميت يرجو أن ينعم فيها بالهواء الرطب تحت أشجار الجميز ، وأن يسرح الفكر فى الأشجار التى نمت إبان حياته . على أن مثل هذه الحدائق لابد أن كانت قليلة وضئيلة المساحة ، ومع ذلك فاننا نعلم ان إنينى رئيس البنائين

فى عهد التحامسة أقام على الشاطىء الغربى من طيبة حديقة زرع فيها النخيل وشجر الدوم والبرسا والرمان والصفصاف والتين والعنب وأشجارا أخرى(١) . وقد حفر الملك أحمس لقبر جدته التذكارى فى أبيدوس بركة وزرع لها أشجارا ، كما أن حاتشبسوت أنشأت فى معبدها الجنازى ، الدير البحرى ، حديقة زرعتها بأشجار المر ، وجعلت فيه أحواضا ينمو فيها اللوطس والبردى .

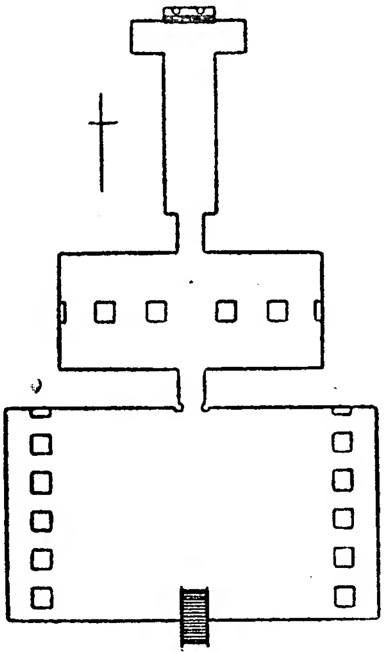
ولا تختلف مقابر الأشراف فى العمارنة كثيرا عن مقابر طيبة ، إذ تتألف من فناء وبهو كبير ، قدت أساطينه البردية من الصخر ذاته (صورة ٧١) ، ثم مقصورة فى نهايتها مشكاة فيها تمثال صاحب المقبرة ؛ وقد يتوسط بين البهو والمقصورة دهليز وردهة . وتقع البئر المؤدية إلى غرفة الدفن فى الغالب فى أرض البهو . وأكثر ما يحلى الجدران من مناظر إنما يصور الأسرة المالكة وعبادة الشمس ؛ فمنها ما يمثل زيارة الملكة الوالدة تى للعمارنة فى السنة الثانية عشرة من حكم أخناتون ؛ ومنها ما يمثل أفراد الأسرة المالكة يكرعون أكوابا كبيرة من النبيذ ؛ ومنها ما يمثل الملك مع الملكة والأميرات فى نافذة التجلى يمنحون المخلصين من الأتباع هدايا الذهب ، أو وهو والملكة فى مركبتهما تنهب الأرض من القصر إلى المعبد ، والملكة ترفع رأسها لتقبله ؛ كما أن منها ما يصور المعبد والقصر الملكى والمخازن . وهكذا اختفت الصور التى كانت تمثل أعمال صاحب القبر فى حياته ، والمناظر التى كانت تمثله يصطاد الطير أو السمك ، أو مع أقاربه وأصدقائه فى مأدبة فخمة يستمتعون فيها بالغناء والرقص والشراب ، كما اختفى كذلك منظر الموكب الجنازى وصور الأهل والأتباع يقدمون القرابين المختلفة .

وفى عهد الرعامسة شاعت إقامة الأعمدة على جانبى الفناء

---

(١) Urkunden IV, 73.

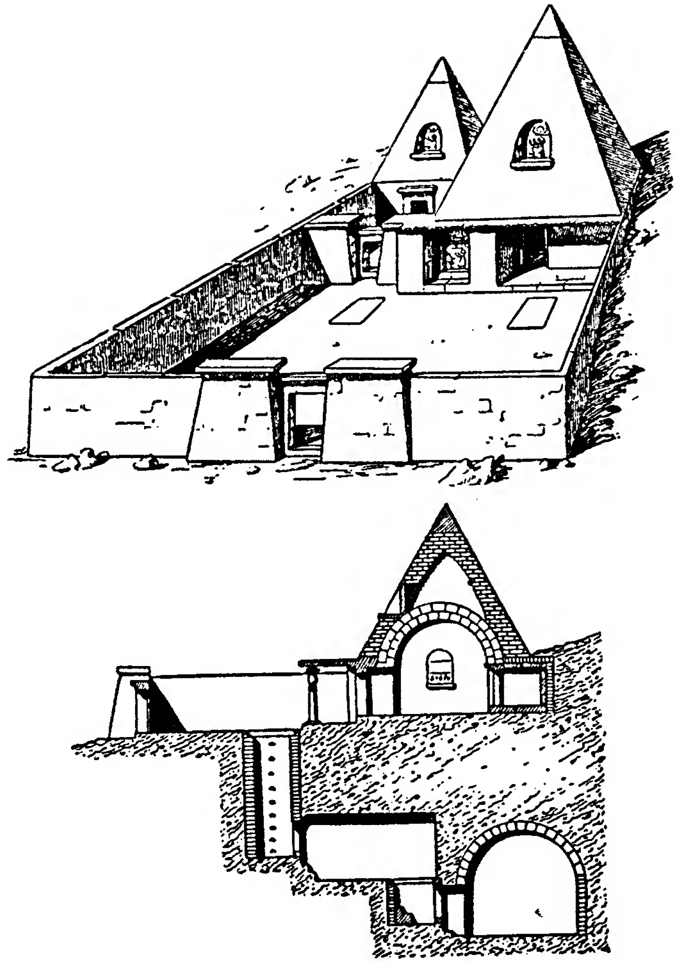
توكيدا لمحور المقبرة (شكل ٢٠٠) ، وسادت صور الآلهة والشياطين والمناظر الجنازية على ما عداها من صور الحياة اليومية .


(شكل ٢٠٠) مقبرة ايبى

وتختلف مقابر الكتبة والفنانين والصناع ورؤساء العمال فى دير المدينة بالقرب من وادى الملكات كثيرا عن مقابر الأشراف وكبار رجال الدولة . فمنها مقابر بنيت على أرض مسطحة ، وتتألف من مدخل فى شكل صرح يؤدى إلى فناء تحيط به جدران من اللبن ، كانت فيه حديقة صغيرة وحوض ماء وأشجار أو زهور تنعم بأريجها روح الميت ، وفى مؤخرة الفناء هرم أجوف من اللبن على قاعدة منخفضة من اللبن أو الحجر ، أعدت فيه مقصورة قربان بسقف مقبى ، وحليت جدرانها بمناظر ملونة تمثل فى الغالب طقوس الدفن وحياة الميت فى العالم الثانى (شكل ٢٠١)(١). وللهرم ذروة من حجر الجير نقشت فى جوانبها الأربعة صورة صاحب القبر يعبد الإله الشمس . وفى واجهة الهرم مشكاة كانت تحتوى على تمثال له ، يمثله فى بعض الأحيان راكعا وبين يديه نصب . وتؤدى من الفناء أو مقصورة القربان بئر أو درج إلى مكان الدفن ، ويتألف عادة من غرفتين أو ثلاث محفورة فى الصخر . وتكسو جوانب غرفة الدفن جدران من اللبن مغشاة بجص أو طين وعليها صور جنازية ملونة ، وسقفها فى الغالب قبو من اللبن محلى بالصور كذلك .

ومن مقابرهم ما أقيم على سفح الجبل مما أدى إلى حفر مقصوراتها

(١) G. Steindorff, W. Wolf, op. cit., S. 55 ff.



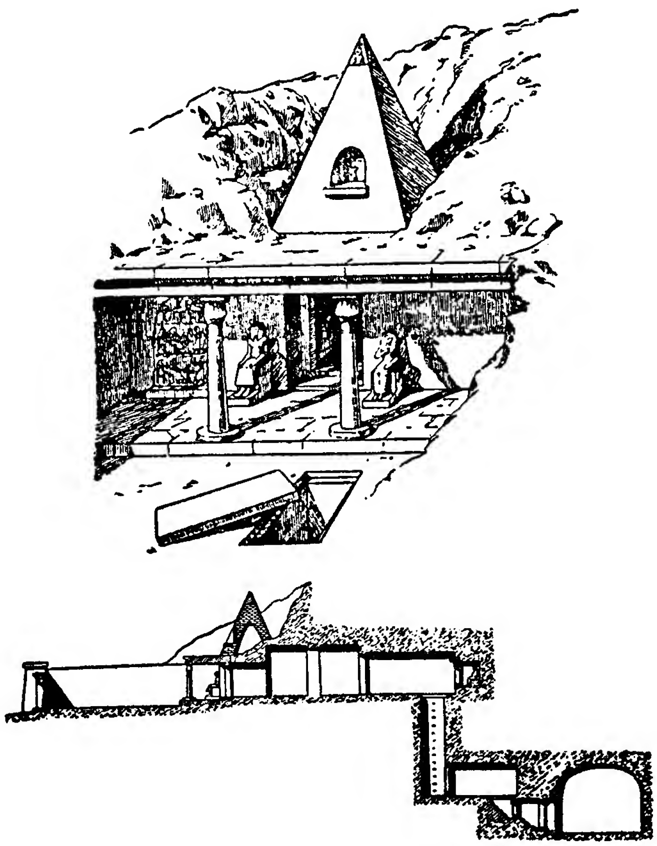
(شكل ٢٠١)

مقبرة على أرض مسطحة فى دير المدينة – منظور وقطاع

فى الصخر (شكل ٢٠٢) (١) . وهى تتألف عادة من مدخل فى هيئة صرح يؤدى إلى فناء نحتت بعض جدرانه فى الصخر ، وفى مؤخرته صفّة صغيرة تظل تمثالا أو أكثر ، وفى جدارها الخلفى مدخل يؤدى إلى دهليز قصير فقاعة ثم مقصورة فى جدارها الخلفى مشكاة فيها تمثال الميت أو صورته . وتحلى الجدران مناظر جنازية . وكان يعلو المقبرة هرم أجوف من اللبن يتوجه هريم من حجر نقشت كذلك

(١) نفس المرجع صفحة ٥٨ وما بعدها .

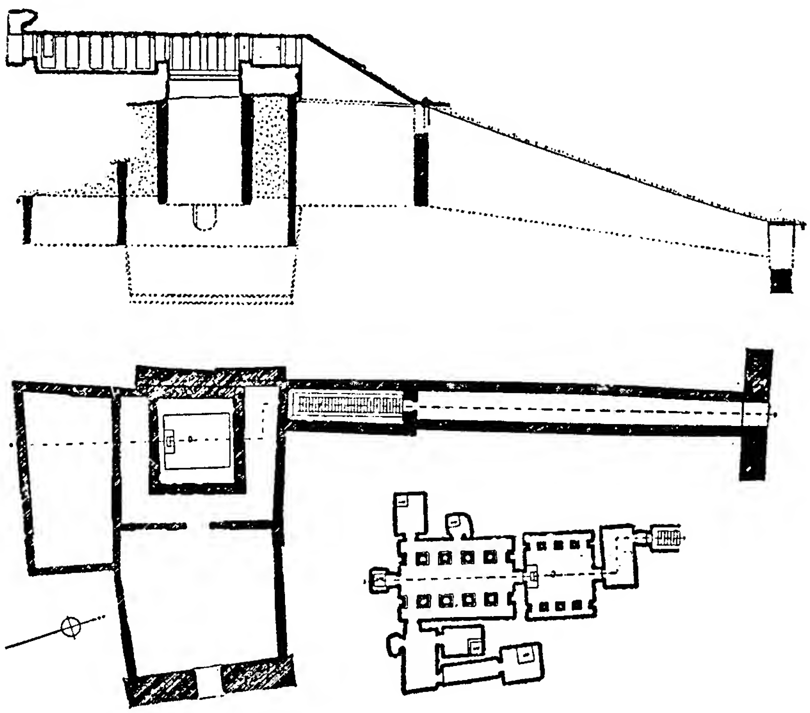
فى أوجهه الأربعة صورة الميت يعبد الإله الشمس . وفى واجهة الهرم المقابلة للفناء مشكاة فيها أيضا تمثال صغير للميت يمثله فى بعض الأحيان راكعا ممسكا نصبا صغيرا . وتؤدى إلى غرفة الدفن بئر فى أرض مقصورة القربان أو الفناء .



(شكل ٢٠٢)
مقبرة فى سفح الجبل فى دير المدينة – منظور وقطاع

وفى الأسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين كان لبعض المقابر الكبيرة مبنى ضخم من اللبن فوق سطح الأرض يتألف من صرح أو أكثر ، وفناء أو أكثر ، وعدد من الدهاليز والأبهاء والقاعات المحفورة فى الصخر تحلى جدرانها النقوش . ومن أبرز

أمثلة هذه المقابر مقبرة ببس فى العساسيف فى البر الغربى من الأقصر (شكل ٢٠٣) ، وتتألف من مبنى ضخم فوق سطح الأرض تحلى جداره الخارجى مشكاوات على الطراز القديم ، ويشتمل على صرح من اللبن فى الشرق يؤدى إلى فناء يليه فناء آخر ، وفى أرضه بئر محفورة فى الصخر تؤدى إلى فناء القربان الذى يؤلف وسط الجزء



(شكل ٢٠٣) مقبرة ببس فى غربي طيبة – مخطط وقطاع

الواقع تحت سطح الأرض من المقبرة . وفى الشمال صرح ثان يؤدى منه أحدور ثم درج ، يحفهما جداران من اللبن ، إلى القاعات المحفورة فى الصخر تحت سطح الأرض ، وتتألف من ردهة وفناء القربان سالف الذكر يكتنفه رواقان ومن ورائه بهو ذو ثمانية أعمدة ،

فى جداره الخلفى مشكاة فى أرضها بئر غير عميقة . وتحلى الجدران صور مشتقة من مقابر الدولتين القديمة والوسطى (١) .

وفى العهد الفارسى حفر الأشراف مقابرهم فى أسفل آبار واسعة ، وتتألف من غرف مبنية بالحجر الجيرى بسقوف مقبية . وكانت البئر تردم برمل نظيف وبجانبها بئر صغيرة تتصل بغرفة الدفن بدهليز صغير ؛ وكانت تفتح فى السقف بعد الدفن فتحات فيملأ الرمل المدخل . وقد حال ذلك دون سرقة المقابر إذ كان كلما أزيل الرمل من المدخل هبط مكانه رمل من البئر الكبيرة . ويبلغ الجزء المبنى تحت سطح الأرض غاية فخامته فى قبر بادى أمنحوتب فى طيبة ، ويشتمل على أحدى وعشرين قاعة ، منها ما يعتمد سقفه على أعمدة ، حتى ليبدو وكأنه قصر (٢) .

الأثاث الجنازى

ضاع أكثر أثاث المعابد الجنازية ولم يبق منها شىء كثير ؛ على أنه كان من أثاثها تماثيل من أحجار مختلفة وخاصة الجرانيت والديوريت والشست والمرمر المصرى ؛ وهى عادة من أحجام كبيرة ، وبعضها من حجم طبيعى أو أكبر قليلا أو كثيرا . ومنها ما يمثل الملك وحده جالسا أو واقفا ؛ ومنها ما يمثله مع الملكة تركع بجانب إحدى ساقيه أو تقف إلى جانبه تطوقه باحدى ذراعيها . ومنها ما يمثله فى مجموعة ثنائية مع أحد الآلهة أو الألهات ، أوفى مجموعة ثلاثية مع إلهة ومشخص أحد الأقاليم التى كانت تنقسم إليها مصر . ومن أهمها جميعا تمثال خفرع من الديوريت الذى يعد من غرر

(١) A. Lansing, Excavations in the Asasif, Metropolitan Museum Bulletin, XV (1920), Sect. II, p. 16 ff.

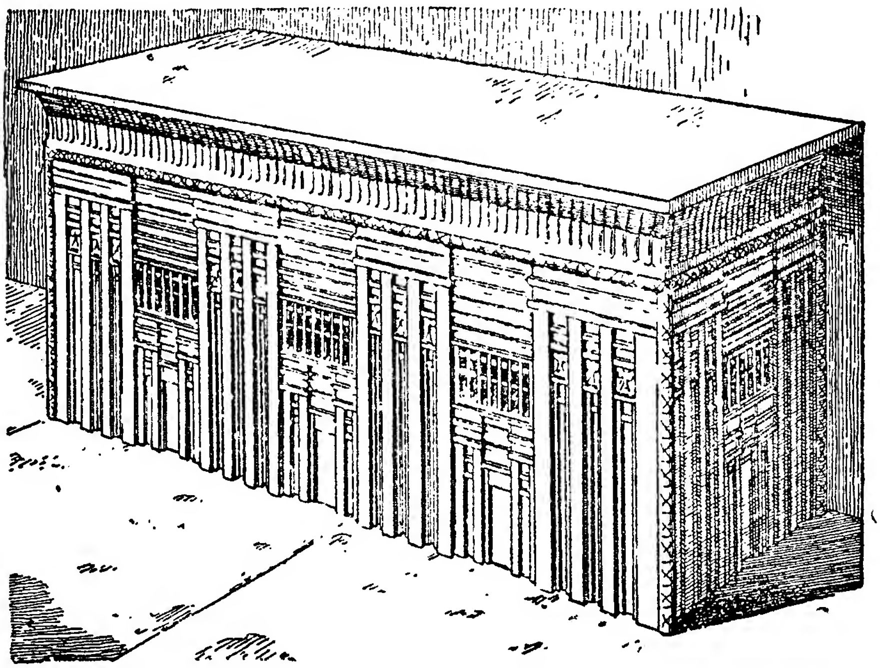
(٢) Von Bissing, Das Grab des Petamenophis in Theben, Ae.Z., 74 (9138), S. 2 ff.

فن النحت على وجه الإطلاق ، ويمثله فى حجم أكبر قليلا من الحجم الطبيعى وفى ملامح وجهه جد وجلال وعظمة . ويقدر عدد التماثيل التى كانت فى معبدى هرم خفرع بين مائة ومائتى تمثال من أحجار مختلفة . وكشف كذلك فى معبدى منقرع عن تماثيل عديدة عدا ما تهشم أو ضاع منها وهو كثير ، على أن بعضها لم يتم نحته وهى لذلك تفيد فى دراسة الطرق التى اتبعها الفنان المصرى فى نحت التماثيل المصرية . ومن تماثيل المعابد الجنازية أيضا تماثيل كهنة ، تمثلهم يؤدون الطقوس للملك المتوفى ؛ ومنها كذلك تماثيل أعداء راكعين مقيدة أذرعهم ، ويظن أنها كانت تستخدم فى أعياد النصر ، وقد يشير إلى ذلك أن بها علامات تلف مقصود .

وكان من أثاث المعابد الجنازية كذلك موائد قرابين فخمة من حجم كبير من حجر الجرانيت أو المرمر المصرى أو الحجر الرملى ، نقشت سطوحها العليا بعلامة القربان وأشكال خبز وأوان ، وتحلى جدرانها صور ممثلى الأقاليم والآلهة تحمل القرابين للملك . وكان بعضها يقام فى الأفنية المكشوفة ، وبعضها فى قدس الأقداس . وكان من الأثاث كذلك أوان من أشكال مختلفة ، وبعضها أوان مصمتة من خشب مطعم بالقاشانى ، وأدوات من ظران ، منها أدوات شعيرة فتح الفم .

وكانت للتابوت أهمية خاصة فى مصر ، وكان يسمى «رب الحياة» مما يعبر عن الرغبة فى أن يحيى من يرقد فيه وأن يعيش إلى الأبد . وكان الملك المتوفى فى الدولة القديمة يدفن فى تابوت من خشب من داخل تابوت من حجر الجرانيت أو البازلت . وقد ضاعت التوابيت الداخلية ، وتهشم أغلب التوابيت الخارجية ، على أن ما بقى منها يدل على أنها كانت صناديق كبيرة مستطيلة ن كتلة واحدة من الحجر ولكل منها غطاء من قطعة واحدة أيضا

من الحجر نفسه ، كان يثبت من فوقه بطريقة بارعة . وكان من أهم توابيت ملوك الدولة القديمة تابوت الملك منقرع ، وكان من حجر البازلت ، وسطوحه الخارجية على شكل واجهة القصر ، نقشت في دقة وعناية كبيرة ؛ وكان يحلى الغطاء الكورنيش المصرى ، وقد غرق أثناء نقله إلى انجلترا (شكل ٢٠٤) . ومن عهد الدولة



(شكل ٢٠٤) تابوت الملك منقرع

الوسطى تابوت الملك سنوسرت الثانى من الجرانيت الوردى ، وقد وصف بأنه من أدق الأعمال رغم صلابة مادته ، وأن استقامة خطوطه تكاد تبلغ حد الكمال ، وأن الأخطاء فيها لاتزيد على ربع ملليمتر فى الذراع الواحد . وبالقرب من تابوت الملك آو إيب رع حورس وجد ناووس من خشب على طراز نواويس المعابد وفيه تمثال من خشب ذو قد نحيف رشيق وبملامح جميلة ؛ وفوق رأسه ذراعان مرفوعتان مما يدل على أنه يمثل قرين الملك .

والتوابيت الخارجية لملوك الدولة الحديثة صناديق كبيرة مستطيلة أو فى شكل طرة الملك ؛ ومن أهمها تابوت كل من تحوتمس الأول وحاتشبسوت بعد أن اعتلت العرش ؛ وهما من حجر الكورتزيت وتحليهما صور ونصوص دينية فى نقش دقيق (١) . ولم تلبث أن أصبحت أركان التابوت الملكى تحلى من الخارج بأشكال بارزة منحوتة فى الحجر لأربع إلهات تحيط التابوت بأجنحتها وكأنها تحمى بها الجثة من داخله . وكان التابوت الحجرى يضم تابوتا أو أكثر على شكل المومیا . وتابوت توت عنخ أمون الخارجى من حجر الكورتزيت (٢) . وكان يحتوى على ثلاثة توابيت فى شكل المومیا ، كل منها من داخل الآخر ؛ والتابوتان الخارجى والأوسط من خشب مذهب ومحلى بزخارف مطعمة بعجينة زجاجية من ألوان مختلفة (٣) . أما التابوت الداخلى الذى كانت ترقد فيه الجثة فهو من ذهب سميك ، ويبلغ وزنه ٢٤٣ رطلا ؛ وقد صنع على صورة الملك فى هيئة أزيريس عاقدا ذراعيه على صدره ، وفى إحدى يديه المحجن وفى الأخرى السوط أو المذبة ، ويزين جبهته الصل والرخمة ، ويحلى جيده عقد من صفين من أقراص رفيعة من الذهب والقاشانى الأزرق (٤) . وهو تحفة فنية لاتقدر بثمن. وكان على وجه الملك قناع من الذهب يمثل ملامحه أرق تمثيل ، وتحلى غطاء الرأس منه شرائط من زجاج أزرق وعلى الصدر عقد كبير مرصع بزجاج وأحجار ؛ وهو أيضا قطعة فنية لاتضارع .

وكانت جميع توابيت توت عنخ أمون من داخل أربع

---

(١) W.C. Hayes, Royal Sarcophagi of the XVIII Dynasty.

(٢) P. Fox, Tutankhamun's Treasure, pl. 26. غطاء هذا التابوت من حجر الجرانيت ولابد أن كان لذلك سببه .

(٣) Ibid., pls. 27-29.

(٤) Ibid., pl. 30.

مقصورات من أحجام مختلفة ، كل منها من داخل الأخرى ؛ وهى من خشب مذهب ، ولكل منها باب من مصراعين ، يغلق بمزلاج من الأبنوس . ويحلى السطح الخارجى من المقصورة الخارجية رمزا أزيريس وإيزيس من قاشانى أزرق لامع ؛ وتحلى المقصورات الأخرى مناظر ونصوص جنازية (١) .

وصناديق الأحشاء على شاكلة التوابيت ؛ ويبدو أن صندوق أحشاء الملك أمنحوتب الثانى هو أول صندوق من المرمر تحلى أركانه أشكال بارزة لأربع إلهات تحرس الأحشاء . وصندوق أحشاء توت عنخ أمون قطعة فنية رائعة من المرمر المصرى يحليه فى كل ركن نقش بديع يمثل إلهة تحمى بجناحيها أحشاء الملك ، وبداخله أربع عيون تغطيها أربع رءوس من المرمر بملامح وجه الملك (٢) . وكان فى كل عين تابوت صغير من ذهب مرصع بزجاج وأحجار شبه كريمة ، ويحتوى على جزء من أحشاء الملك مكفنا فى قماش من كتان (٣) . وكان الصندوق من داخل مقصورة من الخشب المذهب ومن فوقها ظلة يتوجها صف من صلال ، وتحرسها تماثيل أربع إلهات من خشب مذهب .

ومن أثاث توت عنخ أمون الجنازى ثلاثة نعوش ، جانبا كل منها فى شكل حيوان مغشى بصفائح رقيقة من الذهب ، وأحد الأشكال فى هيئة أسد رأسه مطعم بقاشانى أزرق (٤) ، والثانى فى صورة بقرة مرقشة وبين قرنيها قرص الشمس ، والثالث فى هيئة الإلهة تاورت بأنياب من عاج ولسان من عاج مصبوغ بلون أحمر .

ويبدو أن التابوت الخارجى الذى اتخذه الملك بسوسنس الأول ؛

(١) Ibid., pls. 18, 21.

(٢) Ibid., pls. 44, 45.

(٣) Ibid., pl. 46.

(٤) Ibid., pl. 7 B.

أحد ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، كان فى الأصل للملك مرنبتاح الأول ، وقد مثل فى صورة مجسمة فوق الغطاء على هيئة أزيريس . ولم يلبث أن أصبح التابوت الحجرى من حجم ضخم ؛ ومن هذا القبيل تابوت رمسيس الثالث فى متحف اللوفر ، وغطاؤه فى متحف فتزوليم فى كمبردج . وتحلى جوانبه مناظر من رحلة الشمس وصورتا إيزيس ونفتيس تحميان بأجنحتها موميا الملك التى كانت بداخل التابوت . ومن توابيت ملوك الأسرة الحادية والعشرين ما صنع من فضة على شكل موميا وأحيانا برأس صقر .

ومن أهم توابيت الملكات تابوت الملكة حتب حرس ، أم الملك خوفو ؛ وهو من المرمر المصرى وعاطل من أية زخرفة . وصندوق أحشائها من المرمر كذلك وعلى طراز تابوتها ، ويشتمل فى داخله على أربع عيون . ومنها كذلك تابوتا الملكتين كاويت وعشايت من الأسرة الحادية عشرة ؛ وهما من الحجر الجيرى الجيد ، وتحلى سطوحهما الخارجية والداخلية نقوش وصور جميلة من الحياة اليومية ؛ منها ما يمثل الملكة ترجل إحدى الخادمات شعرها فى خفة وأناقة ؛ ومنها ما يصور ملء صوامع الغلال بالحبوب . وكان كل منهما يحتوى على تابوت من الخشب .

وتوابيت ملكات الأسرة الثامنة عشرة مخلقة على شكل الموميا بشعر مستعار غزير ، ويحليها ما يمثل ريش جناحين منشورين يحميان الجثة التى كانت بداخل التابوت ، وبعض التابوت مطعم بزجاج أزرق قاتم ، وبعضه مصفح بالذهب انطبع فيه ريش الجناحين ، ولذلك يسمى «التابوت الريشى» . ومن أهم هذه التوابيت تابوت الملكة أحمس نفرتارى ، زوجة الملك أحمس الأول ، وتابوتا الملكة مريت أمون التى يظن أنها زوجة الملك أمنحوتب الثانى ؛ وهما تابوتان من ثلاثة توابيت دفنت فيها الملكة ،

وكان كل منها من داخل الآخر ؛ وقد نحتت صفحة الوجه بدقة ومهارة كبيرة .

وما من شك فى أن عظماء الأفراد فى بداية الأسرات كانوا يدفنون فى توابيت ، على أنه لم يبق منها شيء يذكر . وكان أفراد الطبقة الوسطى يدفنون فى توابيت صغيرة من مضفور أعواد النبات أو من خشب تتخلل جوانبه مشكاوات ، ولها أغطية مقبية . وفى عهد خوفو كانت التوابيت الخارجية لكبار رجال الدولة صناديق مستطيلة من الحجر الجيرى تخلو من أية حلية على شاكلة تابوت مليكهم . على أنها بعد ذلك أصبحت تصنع أيضا من الجرانيت ومنها ما كانت سطوحه الخارجية تنحت على شكل واجهة القصر ، وينقش عليها إسم الميت وألقابه . ومنها ما كان غطاؤه مقبيا ومنقوشا عليه صورة جلد فهد كناية عن أن صاحبه من رجال الدين .

وفى الفترة الوسيطة الأولى والدولة الوسطى كان يرسم عينان على السطح الخارجى للتوابيت ، وأغلبها من الخشب ، لينظر منهما الميت وهو راقد فى تابوته إلى ما تحتويه غرفة الدفن من قربان وإلى ما يقدم إليه منه فى مقصورته فوق سطح الأرض . وكان يرسم عليه أيضا باب أو مشكاوات متتالية على الجوانب الأربعة ليخرج منها ويدخل حيثما شاء . وعلى السطوح الداخلية للتابوت صور مايحتاج إليه فى حياته الثانية من حلى وتمائم وعطور ولباس وأدوات مختلفة وذلك فى رسم أنيق وبألوان بهيجة (١) ، ومن دون ذلك صيغ جنازية تعرف بمتون التوابيت وعلى أرض التابوت نصوص من « كتاب السبيلين » يصحبها مخطط يبين للميت طريقه فى الآخرة . وكان الميت يدفن أحيانا فى تابوت من داخل تابوت آخر .

وقد بدأت إذ ذاك عادة تغطية وجه الميت بقناع من طبقات

---

(١) G. Jéquier, Les frises d'objets de sarcophages du moyen empire.

من الكتان مغشى من جانبيه بالجبس ومشكل على هيئة رأس إنسان وله هدبتان عريضتان تغطيان الصدر والظهر . ومن هذه الأقنعة ما شكلت فيه ملامح الوجه بمهارة وغشى بصفحة رقيقة من الذهب ، وركبت فيه عينان من المرمر المصرى والسبج المصقول بما يضفى على الوجه حياة . ومنها ما يزين الجبهة منه صل مذهب وله لحية كاذبة ، وكان كلاهما من خصائص الملوك دون غيرهم فى الدولة القديمة . وقد قدر للأقنعة أن تشيع وتنتشر حتى العهد المسيحى . وكان القناع المرحلة المباشرة فى نشأة التوابيت الآدمية الشكل ، وكان من أهم أمثلتها من الأسرة الثانية عشرة تابوت سنبتيسى ،وكان مذهبا ويحلى الصدر منه خرز من ألوان مختلفة (١) . وكان من داخل تابوت مستطيل من خشب الأرز مصفح بالذهب ؛ وكان التابوتان من داخل تابوت آخر مستطيل بغطاء مقبى . وكان التابوت الآدمى والتابوت الخارجى من خشب رخو أتلفته رطوبة الأرض .

وكانت أحشاء الميت تعالج بالتحنيط على نحو ما كانت تعالج الجثة لحفظهما من التلف ؛ وكانت تلف بلفائف من الكتان ، وتوضع فى قدور من الكتان المقوى أو الخشب أو الحجر ، لها أغطية فى شكل رأس الميت وذلك على شاكلة التابوت الآدمى . وكانت القدور الأربعة تحفظ فى صناديق تشبه التابوت الخارجى المستطيل .

وفى الدولة الحديثة من عظماء الأفراد من دفن فى تابوت آدمى من داخل تابوت مستطيل ، ومنهم من دفن من داخل تابوتين أو ثلاثة من التوابيت الآدمية ، وكل منها من داخل الآخر ، وكلها من داخل تابوت كبير مستطيل من خشب مطلى بطلاء أسود لامع ، تحليه شرائط من الكتابة الهيروغليفية بلون أصفر ذهبى . ومن

---

(١) A.C. Mace, H.E. Winlock, The Tomb of Senebtisi at Lisht.

الصور على جدران مقبرة الوزير رخمارع ما يدل على أن من توابيت كبار رجال الدولة ما كان من داخل مقصورة أو أكثر على شاكلة مقصورات توت عنخ أمون (١) .

ومنذ الأسرة التاسعة عشرة كانت السطوح الخارجية للتوابيت المخلّقة على شكل آدمى تطلى بطلاء أصفر لامع ، بينما كانت سطوحها الداخلية تطلى بلون أبيض ؛ وكانت تحلى من الخارج والداخل بمناظر جنازية ونصوص هيروغليفية ورموز ،وكل ذلك بألوان مختلفة . ومنذ الأسرة الحادية والعشرين من التوابيت الخارجية ما نحت فى شكل آدمى ، كما أن من التوابيت الجميلة من الأسرة السادسة والعشرين تابوت من الجرانيت الوردى للزوجة الألهية نيتوكريس ، وقد مثلت فى صورة مجسمة نائمة فوق غطاء التابوت . وتحلى تابوت بتوزيرس نقوش هيروغليفية مطعمة بفسيفساء من الزجاج .

وقد ضاع جل ما كان يودع من أنواع الأثاث فى المقابر الملكية ، إذ كانت من الذهب أو محلاة به مما أغرى اللصوص بسرقتها ؛ على أن فيما تخلف منها على قلته وما حفظ من أثاث توت عنخ أمون ،فضلا عما سلف ذكره من كراسى ومقاعد وخزانات وأسرة وأوان ، وما كشف عنه من أثاث فى مقابر بعض ملوك الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين ما يمثل ما كانت المقابر الملكية تحويه من ذخائر ثمينة .

ويدل ما بقى من آثار مقابر ملوك بداية الأسرات على أنه كان من أثاثها أسرة ، ومقاعد ، وصناديق ، ورقعات لعب ، وقطع لعب من عاج أو بلّور صخرى ، وأوانى من أحجار مختلفة ومن الفخار ،

---

(١) P.E. Newberry , The Life of Rekhmara, pl. XVIII ; N. de G. Davies, The Tomb of Rekh-mi-re at Thebes, vol. II, pl. LII.

وأختام اسطوانية من خشب أو عاج منقوش عليها اسم الملك ، ومناجل ، وفؤوس ، وسكاكين من الظران ، وسهام ، وموائد وفى مقبرة الملك چر فى أبيدوس عثر على اربعة أساور حباتها من الذهب والفيروزج واللازورد على أنماط وفى أشكال مختلفة ، نسقت أحسن تنسيق بما يدل على حسن ذوق الصائغ المصرى منذ خمسة آلاف عام مضت .

ومن الدهاليز تحت الهرم المدرج فى سقارة دهليران وجدا مليئين حتى السقف بأوان يقدر عددها بين ثلاثين ألف وستة وثلاثين ألف إناء ؛ منها أوان سليمة ، وأكثرها مهشم (١)،وهى من أحجار مختلفة ، منها المرمر المصرى والديوريت والدولريت والجرانيت والدولوميت والشست والبورفير والبرشيا والمرو البلورى وحجر الحية . وعلى كثير منها أسماء معظم ملوك الأسرتين الأولى والثانية مما يدل على أنها صنعت قبل عهد زوسر ؛ ومنها ما يبلغ ارتفاعه ٨٠ سنتيمترا . وتمتاز بجمال أشكالها ودقة صنعها،وبعضها من أشكال فريدة ؛ ومن أجملها إبريق كبير من المرمر المصرى عليه رموز بارزة ونص بالمداد عن اليوبيل الملكى . ومن الأوانى ما كتب على سطحه الداخلى بالحبر المناسبة التى أهدى فيها . وهى غالبا الاحتفال باليوبيل ، ثم علامة المصنع وفى بعض الأحيان سعة الأناء . ومما عثر عليه فى هرم سخم خت ٢١ سوارا وخاتم وعلبة للعطور فى شكل قوقعة وكلها من الذهب .

وفى الدولة الحديثة كان مما يزين رأس الملك المتوفى تاج من الذهب محلى بوريدات مرصعة بالأحجار الثمينة . وكانت تحلى أذنيه وصدره وأصابعه وأذرعه وتوضع فى طيات أكفانه أقراط وقلائد وعقود وحليات للصدر وأساور وخواتم من طرز وأشكال شتى ،

(١) P. Lacau, J. Ph. Lauer, La pyramide à degrés, t. IV.

من الذهب المرصع بالفيروزج واللازورد والجمشت والعقيق واليشم والفلسبار الأخضر والزجاج، من ألوان مختلفة تحاكى الأحجار شبه الكريمة ، ومن القاشانى والعاج والقرن[1] . وكانت توضع فى ثنايا الأكفان كذلك تمائم عديدة من الذهب والأحجار شبه الكريمة ، ومنها رءوس صلال ورمز الحياة ، والسعادة ، والبقاء ، ونماذج مصغرة لأسطون بردى وأسطون لوطسى .

ومن اللباس ثياب فاخرة من كتان مزركش ، وأردية منها المطرز والمزركش بأقراص من الذهب ، ومنها المصنوع على شكل جلد فهد بأرقاط من الذهب ومخالب من الفضة ، وأوشحة وشيلان ذات أهداب ، وقفازات من كتان مطرز ، ونعال من البردى أو الذهب أو الجلد المحلى بالذهب والزجاج الملون ، أو بلحاء الشجر وصور الأعداء .

ومراوح ومرايا ورقعات لعب من العاج ، ومنها ماله قاعدة من الأبنوس ؛ وأدوات كتابة ورسم ؛ وخناجر بنصال من ذهب أو حديد ومقابضها من ذهب مزخرف أو مرصع بعجينة الزجاج ؛ وأغماد من ذهب تحليها نقوش بديعة[2] . وصوالج ، وعصى من أبنوس أو خشب أو معدن ومحلاة بأوراق الذهب أو بزخارف محببة أو بنقوش هيروغليفية ؛ ومنها ماله مقبض فى شكل تمثال صغير للملك من الذهب الخالص ، أو ينتهى بشكل أسير أسيوى أو زنجى ، أو بهما موثقين معا فى نحت دقيق صادق الملامح والخصائص[3] .

ومن آلات الصيد والقتال أو نماذجهما فؤوس قتال، رءوسها مكسوة بالذهب ومحلاة بتطعيم من أحجار ملونة، وتروس مكسوة

(١) P. Fox, op. cit., pls. 34-36, 47-49.

(٢) Ibid., pls. 24, 25, 37, 40, 51, 66.

(٣) Ibid., pls. 14, 23, 67.

بجلد حيوان أو من خشب مذهب تحليه رسوم مفرغة ؛ وأقواس وجعاب فاخرة للأقواس ؛ وسهام مريشة ، سنانها من برنز أو زجاج أو عاج ؛ وسيوف وعصى رماية . وعربات من خشب مغشى كله أو بعضه بجص مذهب ؛ ومنها ما هو محلى برسوم بارزة (١) .

وتماثيل كبيرة وصغيرة للملك من خشب بعضه مذهب ، وبعضه بطلاء اسود ؛ ومنها ما يمثله بتاج الوجه القبلى أو بتاج الوجه البحرى ، أو فى قارب يصيد بالخطاف ، أو فوق ظهر فهد أو محمولا على رأس إلهة (٢) . وتماثيل جنازية عديدة من خشب مذهب أو ملون أو من الجرانيت الأشهب أو المرمر المصرى أو الكورتزيت أو الحجر الجيرى أو القاشانى ، وقد نقش على بعضها أسماء الملك وألقابه ، وعلى بعضها الآخر تعويذة تدعو التمثال للقيام بما يكلف به الميت من أعمال فى الآخرة ؛ وبعضها مهدى للملك (٣) . وتماثيل أخرى صغيرة لآلهة مختلفة من خشب مذهب (٤) . ونواويس صغيرة ، منها ما هو مصفح بذهب منقوش بصور شائقه (٥) .

ونماذج سفن من خشب ملون ، مما كان يظن أنه يفيد الملك فى العالم الثانى ، ومنها ما هو مجهز بشراع وحبال .

وأرغفة وفطائر وشرائح لحم وطيور مذبوحة ، وباقات من أوراق البرسيا والزيتون .

وقد ضاع كذلك ما كانت مقابر الملكات تحتويه من أثاث ،

---

(١) Ibid., pls. 5-7 A.

(٢) Ibid., pls. 56, 57.

(٣) Ibid., pls. 53, 54.

(٤) Ibid., pl. 41.

(٥) Ibid., pl. 11.

بيد انه يبدو مما حفظ من آثار الملكة حتب حرس أنه كان من أثاثهن في الدولة القديمة أساور أو خلاخيل من أحجام مختلفة من الفضة مطعمة بزخارف من أحجار نصف كريمة ، وأوان وصحاف وأباريق من الذهب والمرمر المصرى ، وعلى بعضها أسماء الدهون التى تحتويها ، وكراسى ومحفات وأسرة ومساند للرأس ، ومواطئ للأقدام وظلات (١) .

ومما بقى من أثاث بعض الأميرات من الأسرة الثانية عشرة تيجان من أشكال مختلفة ، منها ما يتألف من أسلاك رفيعة من الذهب تحليها نجوم مطعمة ؛ ومنها ما يتركب من وريدات مطعمة ، ومنها ما هو من الفضة ومرصع بأحجار شبه كريمة ، وعقود وقلائد وحليات للصدر رائعة من طرز مختلفة ، وتمائم من الذهب والأحجار شبه الكريمة ، وأساور من الذهب والعقيق واللازورد والجمشت ، ونطق من الذهب فى شكل محار كبير (٢) . وهى كلها تدل على براعة ممتازة فى الابتداع والابتكار وكفاءة عالية فى تنسيق الرصائع ذات الألوان المختلفة فى دقة فائقة .

ولم تكن الحلى النفيسة تقتصر على مقابر الأسرة المالكة وإنما من الأفراد فى الأقاليم منذ عهد بداية الأسرات من تحلى فى مقبرته بعصابة من ذهب حول رأسه وعقود من خرز من الذهب والحجر وتمائم من الذهب . ومن أهم ما حفظ من التمائم تميمة على شكل رمز الحياة من ذهب مرصع بفيروز وعقيق أحمر ، وتدل على أن المصريين عرفوا الترصيع فى جيوب منذ أواخر الدولة القديمة على الأقل .

ومن أهم ما كانت تحتويه مقابر الأفراد فى الدولة القديمة تماثيل من الحجر الجيرى والجرانيت والكورتزيت والمرمر المصرى والخشب

---

(١) G.A. Reisner, Giza Necropolis, vol. II.

(٢) J. de Morgan, Fouilles à Dahchour, t. I, II; G. Brunton, Lahun, I, The Treasure ; H.E. Winlock, The Treasure of Lahun.

والأبنوس ؛ وهى من أحجام مختلفة بعضها صغير لا يكاد طوله يتجاوز ثلاثين سنتيمترا ، وبعضها كبير يزيد قليلا على الحجم الطبيعى ؛ وتمثل أصحابها جالسين أو واقفين أو فى هيئة الكاتب أو القارىء ، ومنها ما يمثل صاحب القبر مع بعض أفراد أسرته وخاصة زوجته وواحد أو أكثر من أبنائه وبناته (١) . وقد تجلس الزوجة بجانب زوجها أو تقف بجانبه أو تركع بجانب إحدى ساقيه ، أما الأبناء فيقفون دائما ، وقد تركع الأبنة بجانب ساق أبيها ، بما يكنى عن أداب السلوك فى الأوساط الراقية . ومن المقابر ما كان يشتمل على عدد كبير من التماثيل من أحجار مختلفة ، تمثل أصحابها فى أوضاع ومظاهر متعددة . ومن أروع ما حفظ من تماثيل الأفراد من عهد بداية الأسرة الرابعة تمثالا رع حتب ونفرت ، وهما من حجر الجير الجيد ، ولايزالان يحتفظان بجدة ألوانهما . ومنها تمثال الأمير حميونو ويمثله بدينا وفى قسمات وجهه نبل وكبرياء ؛ وتمثال نصفى لعنخ حاف يوحى الجيبان تحت عينيه والغضون حول أنفه وفمه بأنه يمثل صاحبه فى صدق كبير . ومن مقابر الأسرة الخامسة تمثال شيخ البلد من الخشب وهو من مفاخر فن النحت على وجه الإطلاق .

ومن تماثيل مقابر الأفراد أيضا تماثيل صغيرة للخدم من حجر الجير أو الخشب تمثل نساء ورجالا يقومون بأعمال مختلفة ، منها طحن الحب ، ونخل الدقيق وطبخ الخبز ، وشى الأوز ، وذبح الثيران وإعداد الجعة (٢) .

ومن صور مقبرة تى رع يبدو أن من الأثاث الجنازى لعظماء الرجال كراسى ومقاعد وأسرة وظلات وصناديق مختلفة وأدوات متنوعة . وقد جاء فى قصة سنوحى أنه أودع قبره أهم

---

(١) M.A. Shoukry, Die Grabstatue im Alten Reich, S. 256 ff.

(٢) H.E. Winlock, Models of Daily Life in Ancient Egypt.

ما جرت التقاليد بوضعه فى غرفة الدفن من أثاث ، وصفح تمثاله بالذهب وقد أمر الملك بصنعه له .

ومما حفظ من حلى قليلة فى مقابر بعض الأفراد من الدولة الوسطى ما يدل كذلك على مهارة بالغة فى صياغة الذهب وتنسيق الأحجار شبه الكريمة ذات الألوان المختلفة ؛ ومن ذلك علق صغير من ذهب فى شكل سمكة لاتبارى فى دقة صنعها رغم صغر حجمها . وكان يودع مع الموتى أيضا أوان صغيرة للعطور والدهون من اشكال مختلفة من المرمر المصرى والسبج ، ومرايا بأقراص من فضة أو نحاس ، لبعضها مقابض من السبج والذهب أو الفيروزج وعلى شكل غصن البردى . وكان من الأثاث الجنازى أيضا تماثيل من خشب ملون لنساء ورجال يؤدون أعمالا مختلفة ، منها تماثيل غزالين ونساجين ونجارين وفخاريين وصناع جعة وقصابين ومغنيين وموسيقيين وحاملات قرابين وعمال يخزنون الحبوب تحت إشراف الكتبة . ومنه أيضا نماذج سفن وزوارق صيد . وأهمها جميعا ٢٤ نموذجا عثر عليها فى مقبرة مكت رع ، ومعظمها صور مجسمة لبعض مشاهد الحياة اليومية ؛ فمنها ما يمثل صاحب المقبرة جالسا فى صفة يشرف على إحصاء ما يملك من ثيران و قر (صورة ٦) ، ومنها ما يمثل إطعام الثيران ، وذبحها ، وإعداد الخبز وصنع الجعة ، وتخزين الحب فى الصوامع ، وغزل الكتان ونسجه ، وصنع الأثاث ، وحديقتين فى كل منهما حوض ماء تحيط به الأشجار (صورة ٥) ، فضلا عن نماذج سفن وزوارق للسفر ولصيد الطير والأسماك .

ومن أثاث مقابر الأفراد أيضا موائد قرابين من أشكال وأحجام مختلفة ، منها ما هو على شكل علامة القربان فى الكتابة الهيروغليفية ، وتمثل رغيفا على حصيرة على نحو ما كان يقدم القربان فى الأزمنة الأولى ؛ ومنها ما هو من حجر مستطيل نقشت فى سطحه العلوى

علامة القربان وبجانبها أشكال أرغفة وفطائر وأوان وأحواض وقنوات صغيرة يجرى فيها ما يسكب من شراب إلى صنبور يبرز فى مقدم المائدة . وكانت موائد القرابين توضع عادة أمام الباب الوهمى حيث كان يظن أن الميت يخرج منه فيجد ما يقدم له من قربان .

ومن أثاث مقابر عظماء الرجال فى الدولة الحديثة ، عدا الكراسى والمقاعد والأسرة ، أساور وعقود وتمائم ومرايا بمقابض فى شكل فتاة نحيفة عارية تقبض فى يدها على قطعة صغيرة أو طائر صغير أو تمد يدها تسند بها قرص المرآة ، وقد وجد هذا الطراز سبيله إلى الفن الأغريقى . ومنها كذلك أوان جميلة من المرمر ، ورقعات لعب ، وسهام ، وتماثيل جنازية من المرمر أو البرنز أو الخشب المصفح بالذهب أو الفضة ، ورمز البعث وأوراق بردية جنازية تشمل ما يعرف بكتاب الموتى وكتاب ما فى العالم السفلى ، وصناديق من خشب مطلى بلون أسود لامع ، بها شرائح لحم وطير مذبوح . ومن كبار الشخصيات ما زود قبره بمركبة خفيفة يتنقل فيها فى العالم الثانى .

وما كان يودع فى مقابر أفراد الطبقة الوسطى من قطع الأثاث لم يكن يختلف كما رأينا عن الأثاث الجنازى للطبقة الراقية إلا من حيث زهادة مادته والاكتفاء بتلوينه بألوان تحاكى الأبنوس والعاج وصفائح الذهب والرصائع المختلفة (١) .

---

(١) انظر صفحة ١٥٩ – ١٦٠

خاتمة

ترسم فصول هذا الكتاب فى الحدود الممكنة مراحل العمارة المصرية فى فتراتها المختلفة وما أقامه المصريون من منشآت فى إطار ما التزموه من قواعد وتقيدوا به من تقاليد وتأثروا به من ظروف وعوامل . وما من ريب فى أنه لم يعد الغرض من العمارة مجرد السكنى أو أداء طقوس العبادة أو الشعائر الجنازية فحسب كما كان الأمر فى المراحل الأولى من حياة الإنسان ، وكما هى عليه حتى الآن عند بعض القبائل والشعوب وفى بعض الظروف والأحوال ، وإنما غدا يقصد منها أيضا أن ترضى شعور الجمال لدى الإنسان المتحضر بحيث تنعم بها عيناه ، وتهنأ بها نفسه ومشاعره ، وترضى عاطفة الجمال عنده . ولا معدى هنا عن التساؤل عما إذا كان المصريون القدماء قد منحوا نعمة الإحساس بالجمال ، وعملوا على أن ترضى منشآتهم نواحى الجمال فى نفوسهم ، وأنهم كانوا يجدون فيها حقا من مظاهر الجمال ما يملأ حسهم وتسعد به مشاعرهم ، أو أنهم ترسموا فيها الأغراض المادية ومطالب العقيدة والتقاليد المتوارثة فحسب .

ليس فيما حفظ من نصوص ووثائق قديمة ما يجيب على هذا السؤال فى وضوح وجلاء ؛ ولا تغنى ألفاظ اللغة المصرية فى هذا الشأن كثيرا ، فاللفظ الشائع الذى يعنى جميل يعنى كذلك مفيد ونافع ، ولهذا لاسبيل إلى التأكد مما إذا كان هذا اللفظ يعنى حقا ما يرضى حاسة الجمال فى الإنسان أو أنه يقصر الجمال على الفائدة المادية بمعنى أن الشيء جميل لأنه يحقق الغرض المادى منه . وكان

المصريون إذا أعجبوا بمعبد أو قبر قالوا عنه أنه كالسماء ، وكانوا يصفون المعبد بأنه مثل « هيكل سيد العالم » أو كأنه « حصن أتوم في السماء » وهو وصف لايفيد شيئا معينا من الناحية الجمالية . ومع ذلك فقد وصفوا أحد المعابد التى شيدها رمسيس الثانى بأن جماله يبلغ عنان السماء ، كما شبهوا جمال أحد الآلهة ببهو العيد ، مما يمكن أن يشير إلى أنهم كانوا يرون فى بعض منشآتهم مظاهر معينة من الجمال . ومع ذلك إذا كانت تنقصنا الأداة المباشرة ، وهو أمر طبيعى محض ، ففى غير المباشر منها ما قد يعين فى الاهتداء إلى رأى صحيح .

لقد أسلفنا الكلام على ما كان بين العمارة فى مصر وبقية الفنون من صلات قوية بحيث لم يكن لأحدها أن يستقيم له وجود فى كثير من الأحيان مستقلا بذاته عن غيره . وما من شك فى أن التماثيل المصرية التى لايحصى عددها ، والمناظر المنقوشة والمصورة على جدران المعابد والمقابر مما لا يحصيه العد ، كانت مقصودة لذاتها لفائدة المعبود ومنشيء المعبد وصاحب القبر حتى ما كان منها يمثل أو يحكى وقائع تاريخية وأحداثا شخصية . على أن ذلك لم يكن غاية كل قصد ، ذلك لأن أغلب التماثيل والمناظر المنقوشة والمصورة يبلغ غاية الكمال الفنى مما يجاوز كثيرا حد الغرض المادى . وما من ريب فى أن الكمال الفنى لايتحقق عفوا وخاصة على ذلك المدى الكبير الذى بلغه فى مصر ، وإنما لابد أن كان عن إحساس وقصد ورغبة فيه ، وإلا لما تكلف الفنان ما اقتضته الأعمال الفنية الجليلة العديدة من جهد وصبر وجلد .

ولا يغنى هنا أن يقال إن الفنان الحقيقى لا يعمل عملا تنقصه الصفات الفنية الممتازة ، إذ أن مثل هذا الفنان لايمكن أن ينقصه الإحساس بالجمال كما لا تعوزه القدرة على تمثيله . ولا يفيد هنا أيضا ما يمكن أن يقال من أن التماثيل والصور كان يجب أن تكون

دقيقة يمكن أن يتحقق الغرض المقصود منها ، إذ أن دقة العمل لاتسمو به من مرتبة الصنعة المتقنة إلى المستوى الفنى الصحيح . ولا يخلو من مغزى هنا أن كل علامة من النصوص الهيروغليفية المنقوشة على جدران المعابد والمقابر هى قطعة فنية لاتبارى ، مما يدل على انه لم يكن الغرض منها ما تسجله من معان فحسب وإنما كان ينبغى أن تكون فى خط جميل يرضى شعور الجمال عند الإنسان المثقف ذى المشاعر الراقية ، وإلا لكان فى الخط الهيراطيقى أو الديموطيقى ما يغنى عن الخط الهيروغليفى الذى كان يقتضى من غير شك وقتا وجهدا وكفاءة فنية ممتازة .

حقا لقد كان كثير من روائع فن النحت والنقش والتصوير يودع أو يصور أو ينقش فى أماكن مظلمة لاتستطيع العين أن تراها فى وضوح لتستمتع بما يتمثل فيها من حسن وجمال ، بل من التماثيل ما كان يقام فى قاعات مسدودة لايدخلها إنسان ، ومنها ما كان يصنع من أحجار صلدة ذات ألوان جميلة ثم يطلى بألوان مختلفة تخفى جمال الألوان الطبيعية للأحجار . على أن ذلك كان له أسبابه ودواعيه(1) ، بل أن هذه الأمثلة وهى عديدة لتدل على أن الفنان المصرى لم يكن ليرضيه أن تكون هذه الأعمال دون غيرها من الكمال الفنى حتى ولو كانت فى مكان مظلم أو خفى لا يمتد إليه النظر ، لينعم بجمالها صاحبها أو روحه فى عالم الآلهة أو الحياة الآخرة ؛ بل يبدو أنه كان يعتقد أنها لن تحقق الغاية منها إلا إذا كانت على أكمل صورة وأحسنها ، وللصورة الكاملة ، أينما تكن ، جمالها الذى هو أحد مقوماتها أو بالأحرى جماع ما فيها من صفات .

ولا تزال روائع الفن المصرى من تماثيل ومناظر مصورة ومنقوشة وكتابات هيروغليفية ترضى حاسة الجمال فينا ، حتى ليحج إليها من أقاصى العالم من يهفو إلى الاستمتاع بها ، لا لكمال صنعتها

(1) محمد انور شكرى : الفن المصرى القديم ، صفحة ٦٠ وما بعدها .

فحسب ، وإنما لما يتجلى فيها أيضا من مظاهر الحسن والجمال . ومما حفظ من آثار أدبية من مقالات وقصص وأغانى وغيرها ما يعد من الأدب الرفيع فى عبارته وأسلوبه ومعانيه ؛ ومنه ما لم يكن الغرض منه خدمة الدين أو السياسة أو غيرهما وإنما المتعة الأدبية . وما ينبغى أن ننسى أن ما حفظ منها جميعا على كثرته قليل بالنسبة لما ضاع منها وما لاتزال تخفيه أرض مصر ، فهل مع هذا كله يجوز أن نحرم الفنانين والأدباء المصريين الذين أنتجوا هذه الأعمال من نعمة حاسة الجمال ، وأن ننسب إليهم أنهم لم يقصدوا إلى شىء مما نتمثله فى أعمالهم من جمال ؟ ثم هل يمكن أن تقتصر حاسة الجمال عليهم وحدهم دون غيرهم من المصريين ؟

ليس يخفى أنه تتجلى فيما حفظ من مصنوعات المصريين على اختلافها منذ أزمنتهم الأولى وفى عصورهم التاريخية المختلفة دقة وأناقة وحسن ذوق وجمال ، مما يضفى عليها طابعا فنياً ممتازاً ويرقى بها كثيرا عن أن تكون مجرد أدوات لتحقيق أغراض مادية . والشواهد على ذلك كثيرة ؛ ومن أقدم الأدلة على ذلك صناعة الظران فى عصور ما قبل التاريخ ، وصناعة الأوانى من الأحجار الجميلة فى بداية عهد الأسرات ، وقد بلغ الصانع المصرى فى كل منهما غاية ليس بعدها غاية . وصناعة الحلى والتمائم فى الدولة الوسطى تغنى عن أى استشهاد آخر ، فقد حقق الصائغ المصرى أقصى ما يمكن أن يتحقق فى هذه الصناعة من دقة وحسن ذوق وجمال يمكن أن تصبو إليه النفس فى أى زمان أو مكان . وفيما حفظ من قطع الأثاث على قلته ما يشدو بمهارة الصانع المصرى ويشيد بقدراته الفنية والصناعية على حد سواء . وما بقى من زخارف شائقة كانت تحلى جدران القصور والبيوت وأرضياتها وسقوفها وسقوف المقابر إنما يشهد بحسن ذوق مبدعها وأنها لا يمكن أن تكون لغرض مادى أو مجرد صنعة فحسب . بل إن من الأدوات البسيطة ، ومنها المرايا

وملاعق العطور والدهون ، ما لم يشأ صانعها إلا أن يضفى عليها من خياله وشعوره الفنى ما سما بها كثيرا عن الغرض المادى الأصيل وكفل لها الأعجاب والتقدير .

ولا يمكن أن يكون الفنانون والصناع فى أى مجتمع هم وحدهم الذين خصوا بأحساس الجمال وتقديره دون بقية طوائف الشعب المثقفة ومنهم الكتاب والأدباء والكهنة والقضاة وكبار رجال الدولة . ولا يصح أن يقال إن الفنان والصانع إنما كانوا يعملون بوحى طبيعتهم دون نظر إلى رأى غيرهم فيهم ، إذ كانوا فى كثير من الأحيان يخدمون أغراضا دينية وجنازية ، وكانوا يعملون لأفراد الطبقتين الراقية والمتوسطة ، وكان لا غنى لأعمالهم من أن تحظى برضاء هؤلاء جميعا . ولا بد أن كانت هذه الأعمال تجد صدى فى نفوس متقبليها ، وإلا لافتقد الفنانون والصناع التشجيع والتأييد اللذين كانا من أقوى الأسباب فى نهضة الفنون والصناعات فى مصر واحتفاظهما بالمستوى الفنى الرفيع آمادا طويلة .

وإذا كان الفنانون والأدباء والصناع وأفراد الطبقتين الراقية والمتوسطة من كتاب وكهنة وقضاة وكبار الموظفين لم يحرموا نعمة الإحساس بالجمال وتقديره ، فهل شذ عنهم المهندسون ، وقد شغلوا أعلى المناصب فى الدولة ، وكانوا موضع تقدير عظيم من كافة طبقات المجتمع ؟ إن فيما حفظ من أعمالهم منذ بداية الأسرات ما يجيب على ذلك بأصدق بيان .

فمشكاوات المصاطب فى بداية الأسرات ، وتدرجها ، واتساقها مع مادة البناء فى نسب جميلة ، وتكسر الأضواء والظلال عليها بما يكسر من حدة الخط المستقيم ، وما يضفيه ذلك كله على البناء من جمال لا يمكن إلا أن يكون من عمل مهندس بارع له من المشاعر والأحاسيس الجميلة حظ غير قليل ، مما يبعد احتمال استيراد

هذا الطراز من خارج مصر ، إذ لم يبلغ من الدقة والروعة والجمال في أي مكان آخر بمثل ما بلغ فيها ؛ وليس أسهل من أن يشوه الطراز الجميل في أيدي من لايستمتعون بما فيه من جمال .

وها هو ذا إمحتب في مطلع الأسرة الثالثة ، لقد نقل فن البناء بخبطة لازب من اللبن إلى الحجر ، إذ كان أول من أقام المنشآت الكبيرة من الحجر ، وأنشأ فيها الأبهاء الفخمة ، والأساطين الجميلة ، وحلاها بالعناصر الزخرفية الرشيقة ، مما لايدع مجالا للظن بأنه اقتصر فيها على الأغراض المادية للبناء ، وإنما لابد أن يكون قد قصد أن يقيم لمليكه مبان فخمة جميلة ، لتستمتع بها روحه في الحياة الآخرة ، ولا بد أن كان له من قوة التصور والخيال والأحساس بالجمال ، وهو يضع مخطط المباني ، ما كفل لها الجمال والروعة .

ودقة القياس في البناء التي بلغت أقصى حد في هرم خوفو ، والنسب الجليلة بين خطوطه الأفقية والرأسية ، ومسطحاته الشاسعة التي تستحوذ على النظر ثم تصعد به إلى السماء ، والدهليز العظيم في داخله الصاعد إلى حيث يرقد الملك لا يمكن ألا أن تدل جميعها على أصالة البنّاء أو البنائين الموهوبين الذين شادوا من الحجر بنيانا ينم ما ترسموه فيه من جمال وروعة وكمال فني عما كانت تجيش به نفوسهم قبل أن ينم عن عظمة مليكهم .

ومعبد الوادي للملك خفرع ، الذي تخلو سطوح جدرانه واعمدته من أي نقش أو زخرف ، والذي حقق فيه البنّاء أقصى ما يمكن أن يكون لبناء من أثر ضخم رائع في النفس معتمدا في ذلك على نوع الحجر ، وضخامته ، واستقامة خطوطه ، وجودة صقل سطوحه الظاهرة ، وقلة الضوء ، وتلاعب ما يتسرب منه على السطوح المصقولة للجدران والأعمدة وعلى التماثيل ثم على الأرض ، فهلا يدل ذلك كله على ما كانت تفيض به نفس بانيه من معاني العظمة والجلال والجمال ؟

وأساطين النخيل واللوطس والبردى فى معابد الأسرة الخامسة ، ألا تنطق هى أيضا بسيقانها الفارهة ، وتيجانها النباتية ، ونسبها الرشيقة الجميلة ، ودقة استدارتها عن حب مبدعيها للجمال الطبيعى والكمال الفنى ، وهما صنوان لايفترقان ، إذا تأثر أحدهما بشىء تأثر به الآخر ؟ ثم هذه الصفات فى واجهات المعابد وكأنها ترحب بالزائر وتدعوه إلى رحابها ، أو فى كل جانب من الأفنية تحمى المنقوش من وهج الشمس ، وتفىء الظل الوارف فى الهضبة الجرداء ، وتقى وقدة الصيف اللافح ، إنما تدل جميعها بما تزدان به من أساطين ويحلى جدرانها من مناظر ملونة بألوان بهيجة على أكثر من الغرض المادى للبناء .

وفى مطلع الدولة الوسطى عقب الأنتقاض الذى تردت فيه الدولة وما أصاب المجتمع من نكبات وأرزاء تشهد مقبرة نب حبت رع منتوحتب فى غربى طيبة على أصالة فى التفكير وشعور غامر بطبيعة المكان وما يجب أن يكون عليه طراز البناء الذى يقوم فيه بما يكفل الاتساق الجميل بينهما .

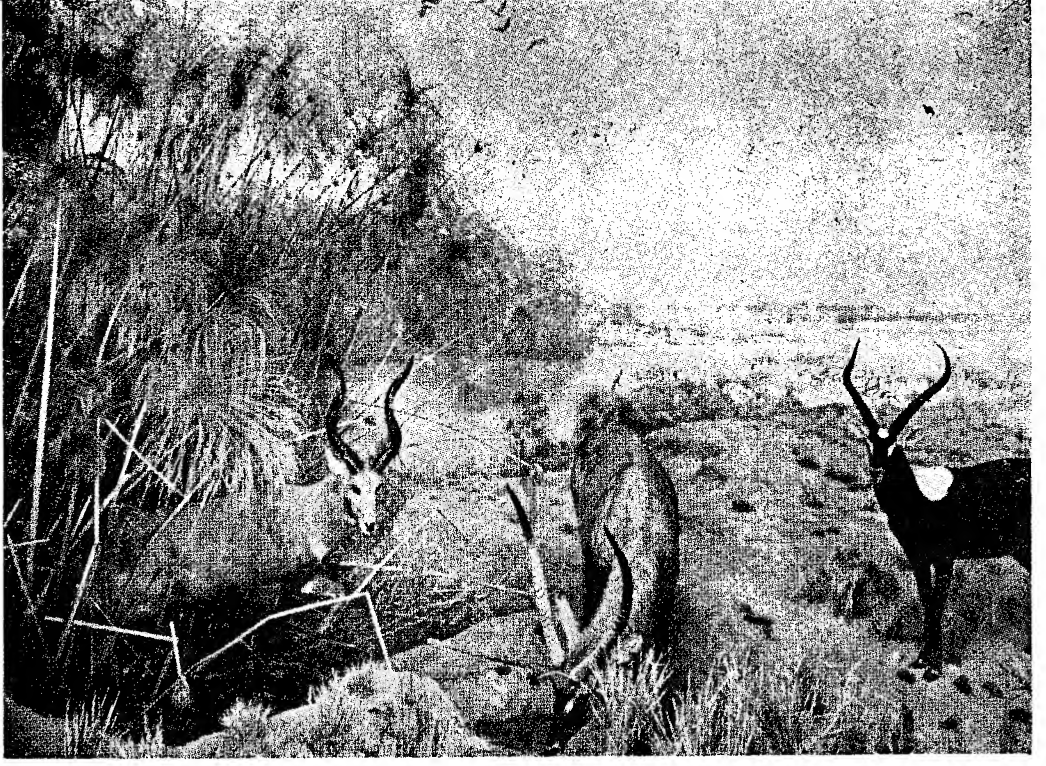
وينطق عن صدق إحساس ذلك البناء المجهول وما كان لعمله من تقدير أنه بعد أكثر من خمسمائة عام لم يجد سننموت أفضل من طرازه فى ذلك المحيط الشامخ فسار على هديه فى بناء معبد حاتشبسوت الجنازى . ولم يهتد سننموت بهذا الطراز فى بناء معبد مليكته عن تقليد أعمى وإنما عن إدراك تام بأنه أصلح طراز فى المحيط الجبلى الفخم ؛ واهتداؤه به دليل على أصالته أيضا ودقة إحساسه بطبيعة المكان والطراز الذى يحسن به ؛ وآية ذلك أنه جعل المعبد على ثلاث مستويات بدلا من مستويين بما أبرزه أحسن ما يكون فى ذلك الوسط الطبيعى العظيم .

ومعبد الأقصر من عهد الملك أمنحوتب الثالث برواقه الفخم ذى أساطين البردى ذات التاج اليانع ، وفنائه وأبهائه ذات الأساطين

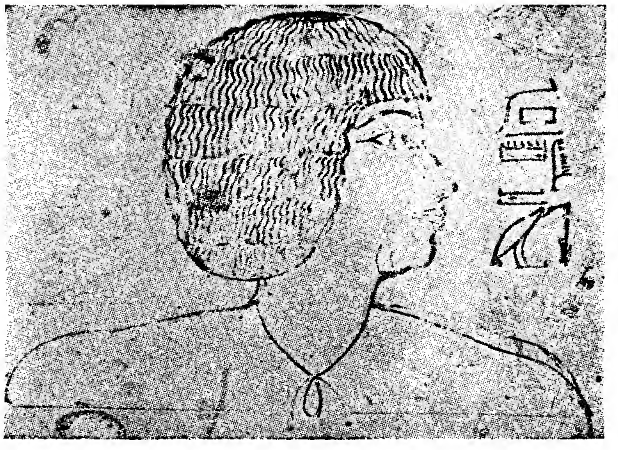
على شكل حزمة البردى خير شاهد على ما يتمثل فيه من دقة وصدق ينمان عن حس مرهف وشعور قوى بما فى النبات من جمال .

ثم كيف تيسر تحقيق مايتمثل فى معبد أبو سنبل العظيم من فخامة وعظمة وجلال ، تتسق أقوى ما يكون الاتساق والمحيط الطبيعى الفخم ، الذى حفر فيه ، إذا لم يكن بانيه قد تصور ذلك كله وهو يخطط له وأحس به إحساسا قويا وهو ينشئه ؟ وهل فاقد الشيء يمكن أن يعطيه ؟

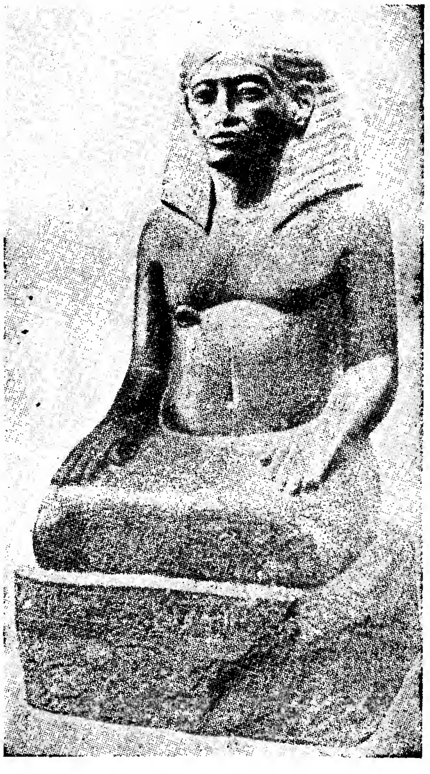
ولا يقتصر الأمر على المهندسين الذين كانوا يعملون للملوك دون غيرهم فمقابر بنى حسن ومقبرة سرانبوت فى أسوان وغيرها أمثلة شاهدة على ذلك . ولا يتسع المجال لتقصى الأمثلة العديدة التى تشهد بكفاءة المهندس المصرى وأصالته ودقة أحاسيسه وجمال مشاعره ، وقد كان وغيره من الفنانين على أوثق صلة بطبيعة بلادهم تستجيب نفوسهم لايحاءاتها ويحسون بما يتمثل فى مظاهرها من جمال وروعة ، وكانوا على كفاءة ممتازة فاستطاعوا أن يعبروا عن عقائدهم وأفكارهم فى أجمل صورة وأروعها . وقد عرفت الدولة فضل المهندسين فآثرتهم بأعلى وظائفها ؛ وقدر الشعب ما أنشأوا ، فسما ببعضهم إلى مصاف الآلهة ؛ ولاتزال تبهرنا أعمالهم ولن يعوزها التقدير والإعجاب ما بقيت على سطح الأرض .



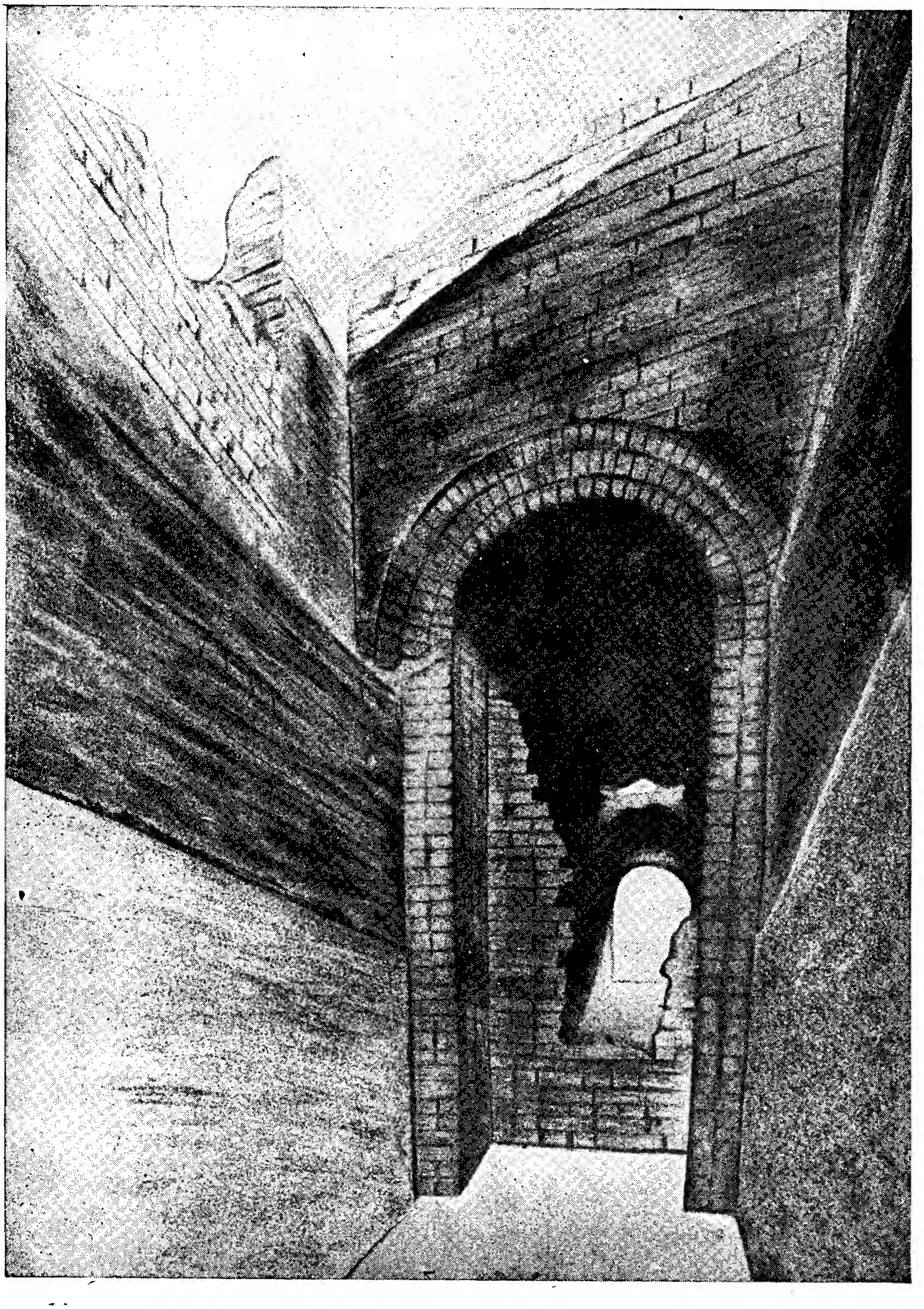
١ ـ أحراج البردى فى أعالى النيل



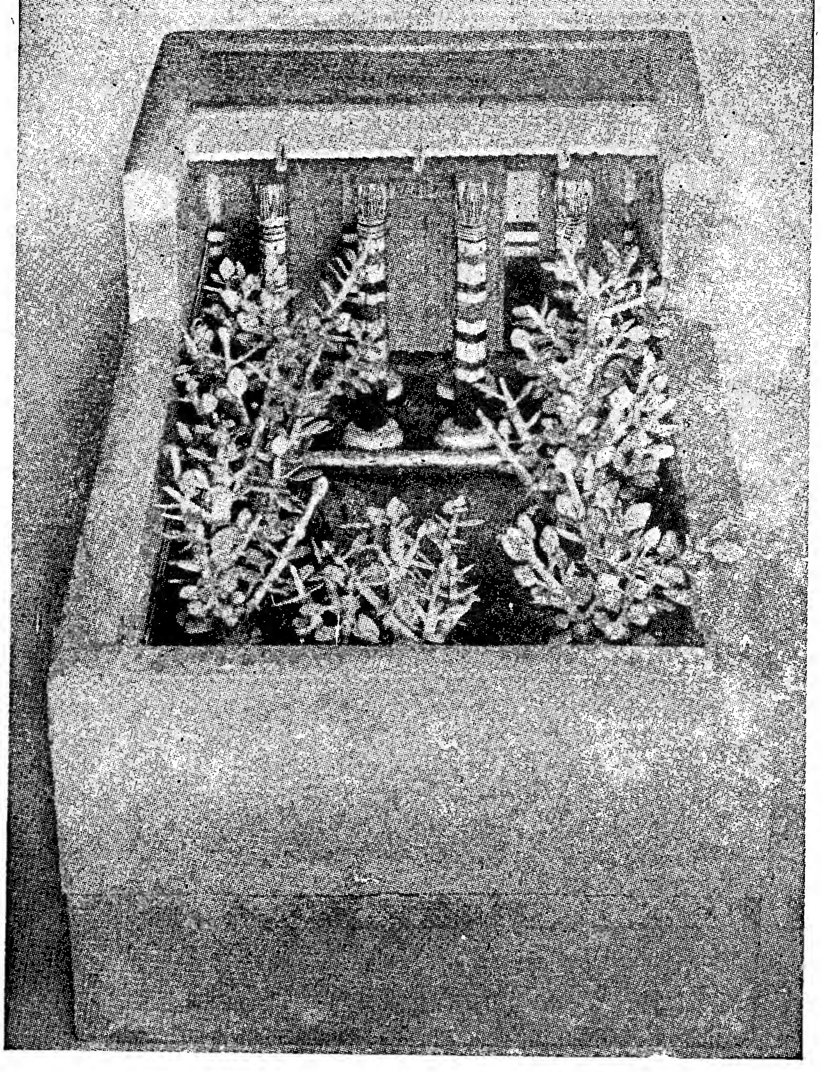
٣ ـ سننموت



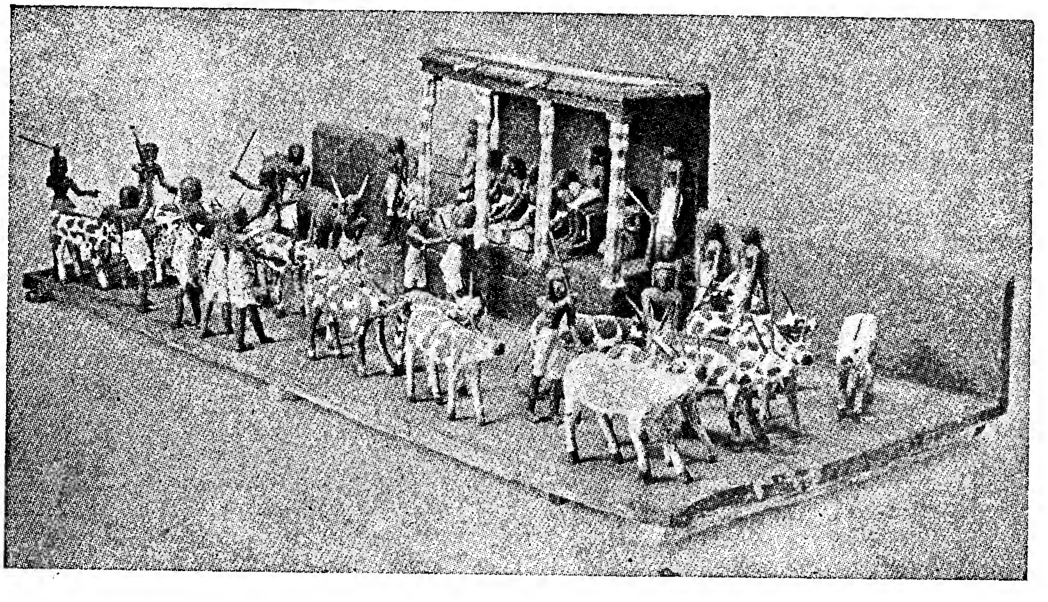
٤ ـ امنحوتب بن حابو



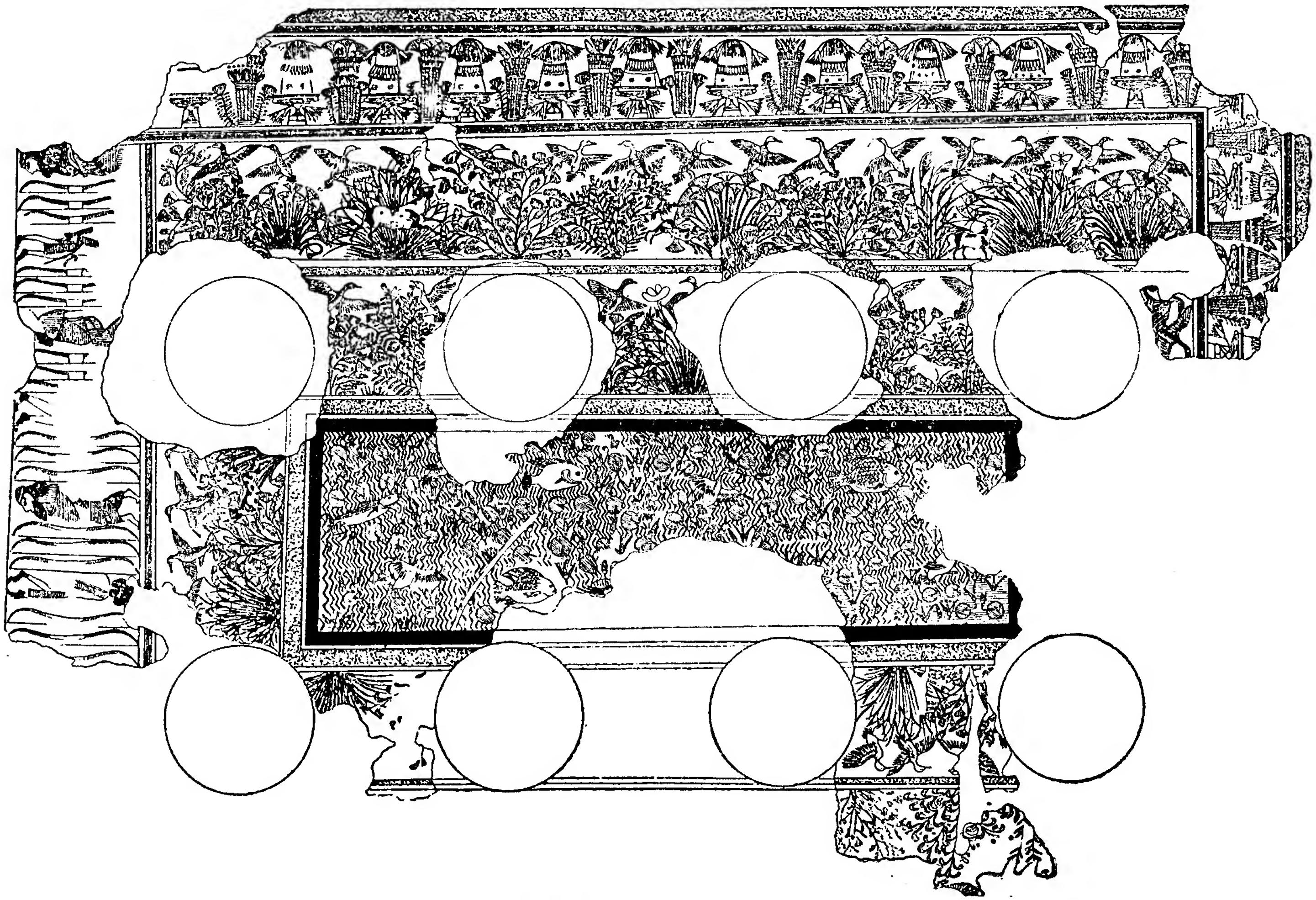
٢ ـ ثلاثة اقباء من اللبن يعلو احدها الآخر



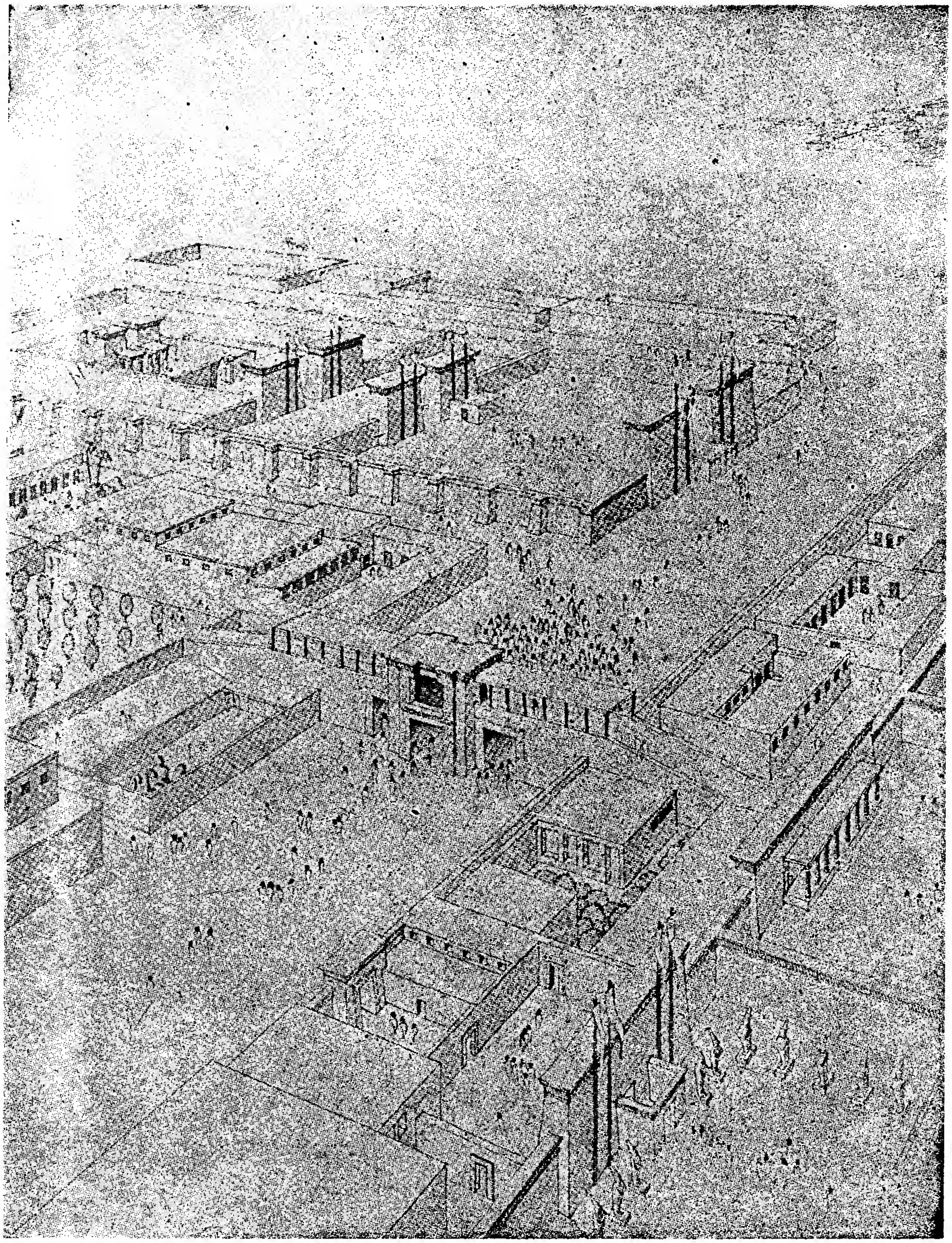
٥ ـ نموذج لصدر
بيت مكت رع



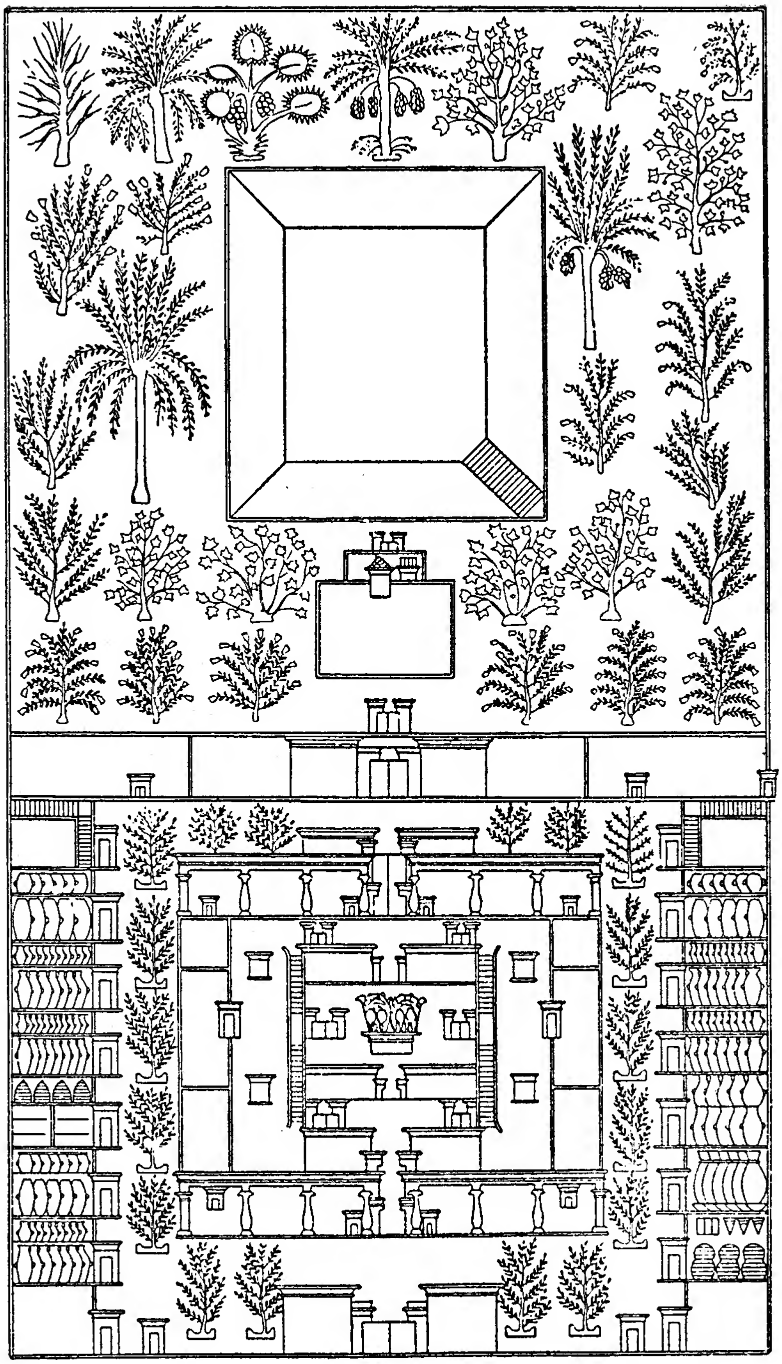
٦ ـ نموذج لظلة مكت رع يستعرض امامها قطعان البقر



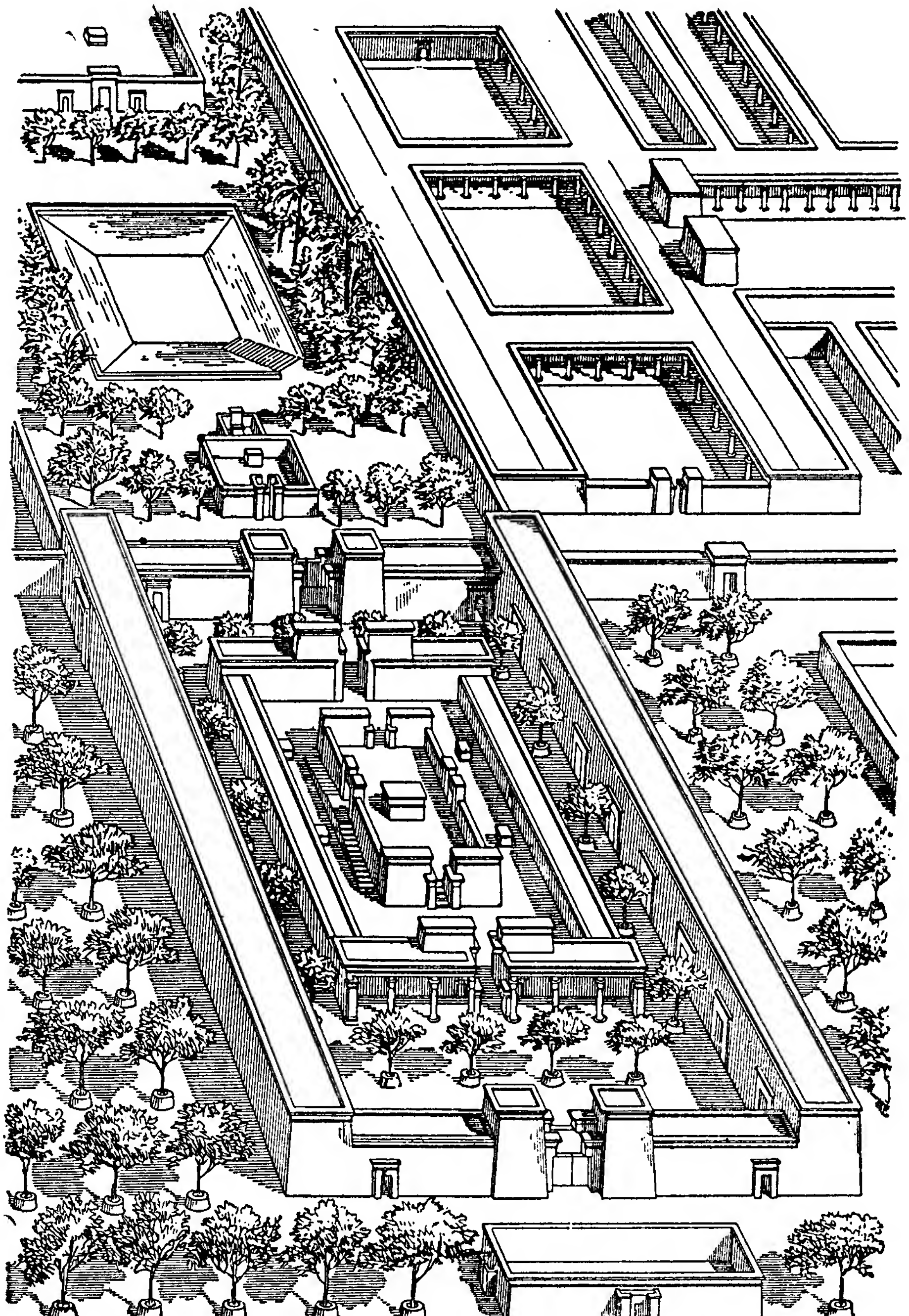
٧ ـ من صور أرضية احدى القاعات فى قصر اخناتون



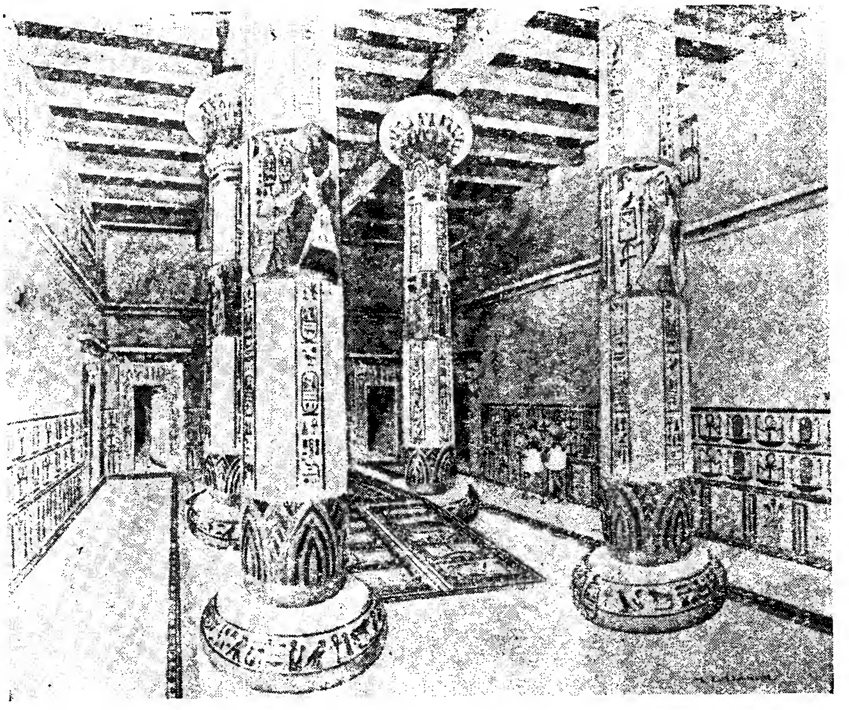
٨ ـ القنطرة بين قصر اخناتون وبيته والى جانبه معبد اتن الصغير



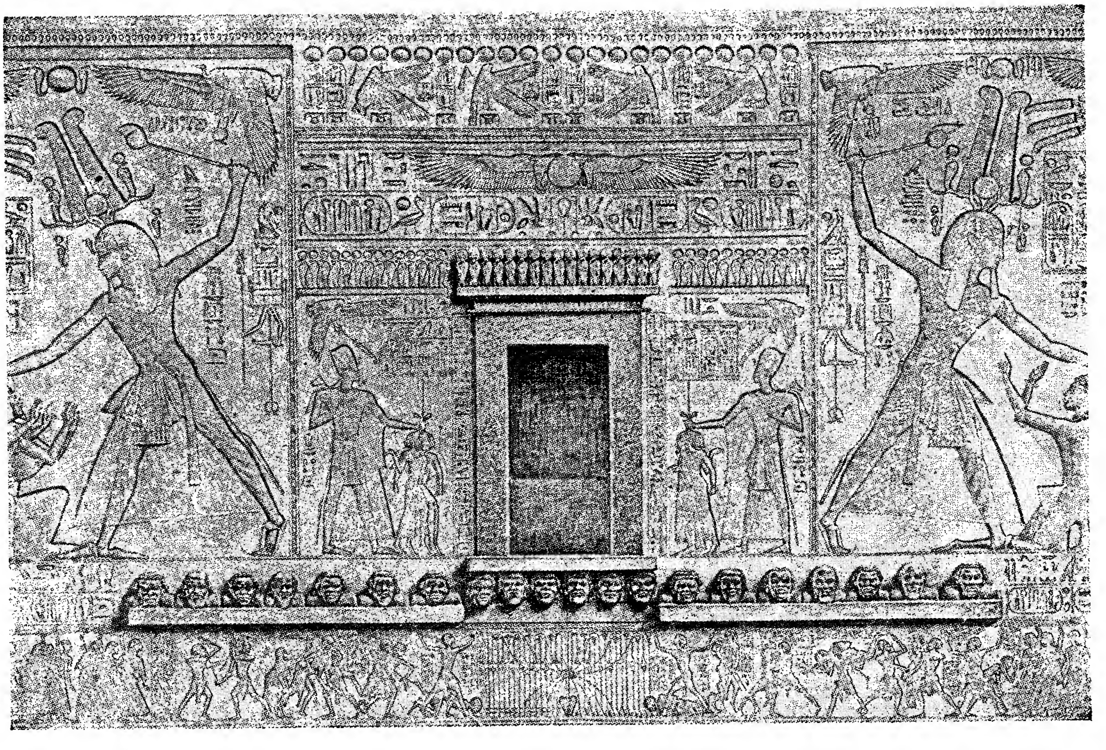
١٩ — مبنى ملكى — من مقبرة مرى رع فى تل العمارنة



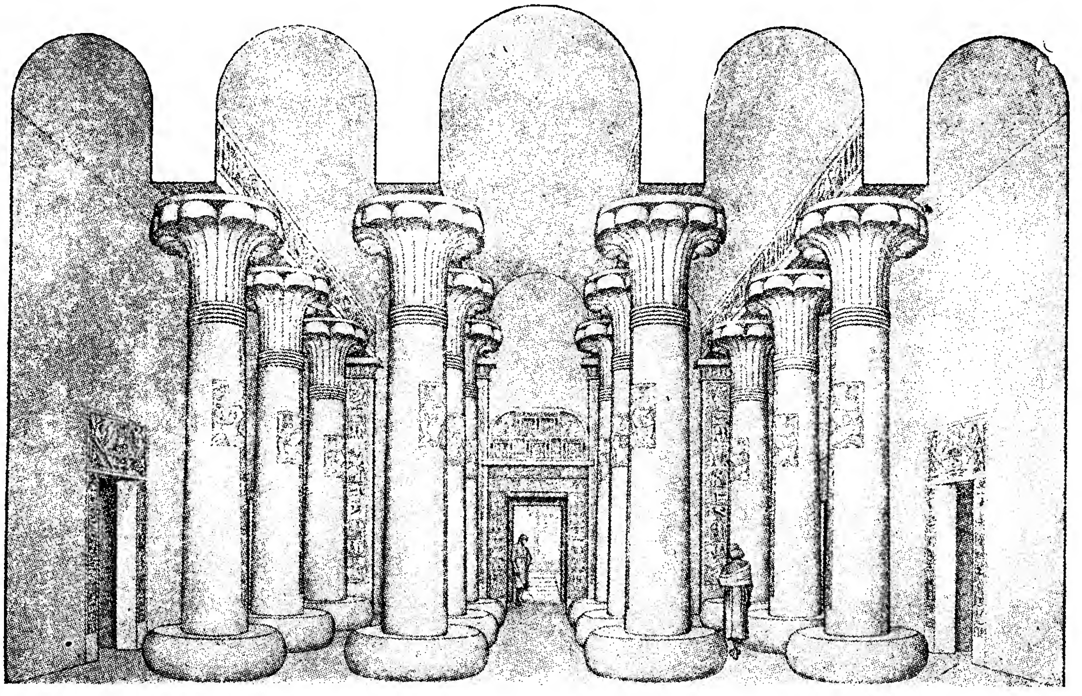
٩ ب ـ مبنى ملكى ـ من مقبرة مرى رع في تل العمارنة ـ منظور



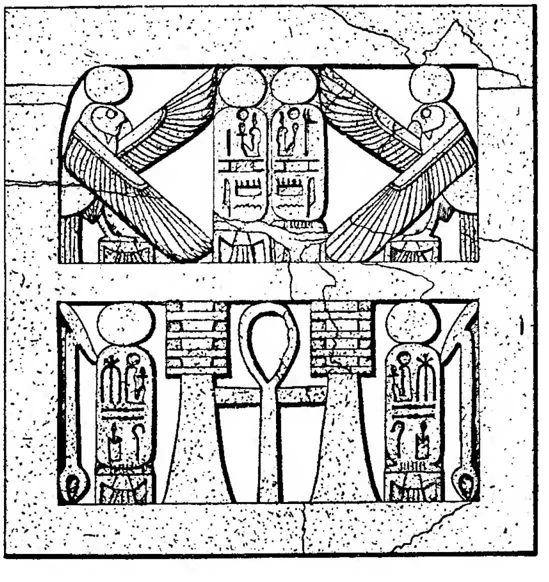
١٠ ـ قاعة العرش
فى قصر مرنبتاح فى منف



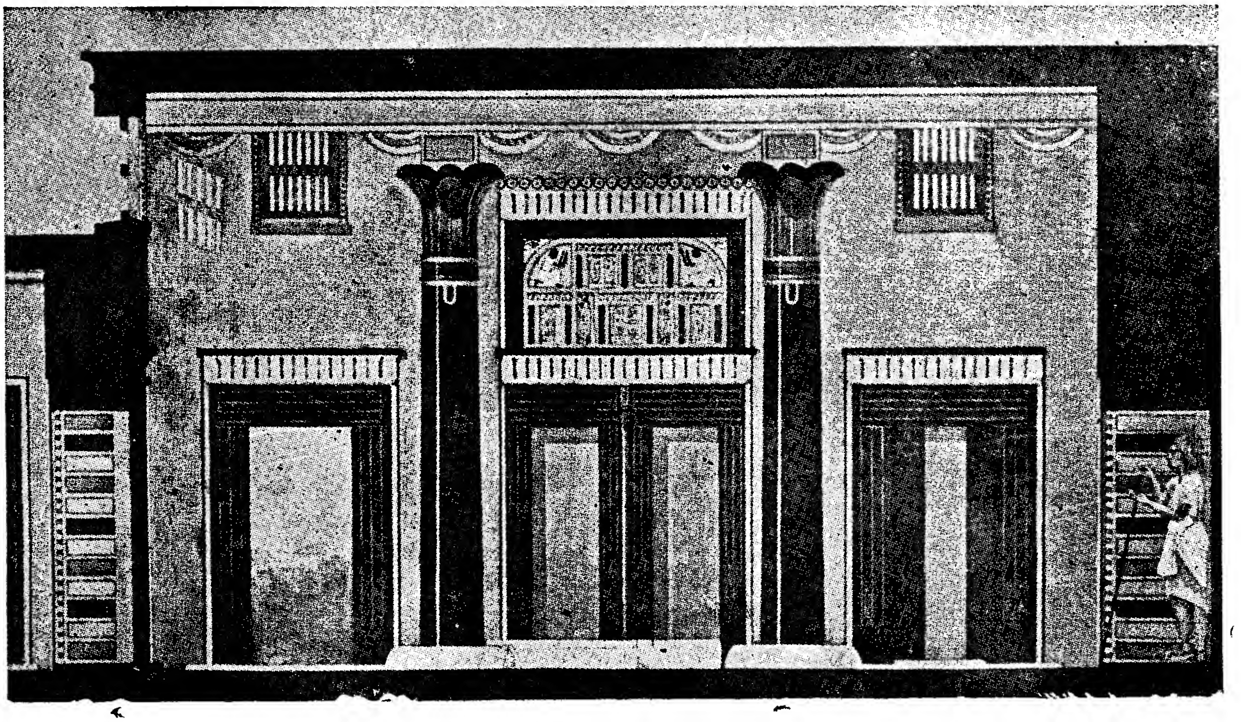
١١ ـ نافذة التجلى فى القصر الاول لرمسيس الثالث فى مدينة حابو



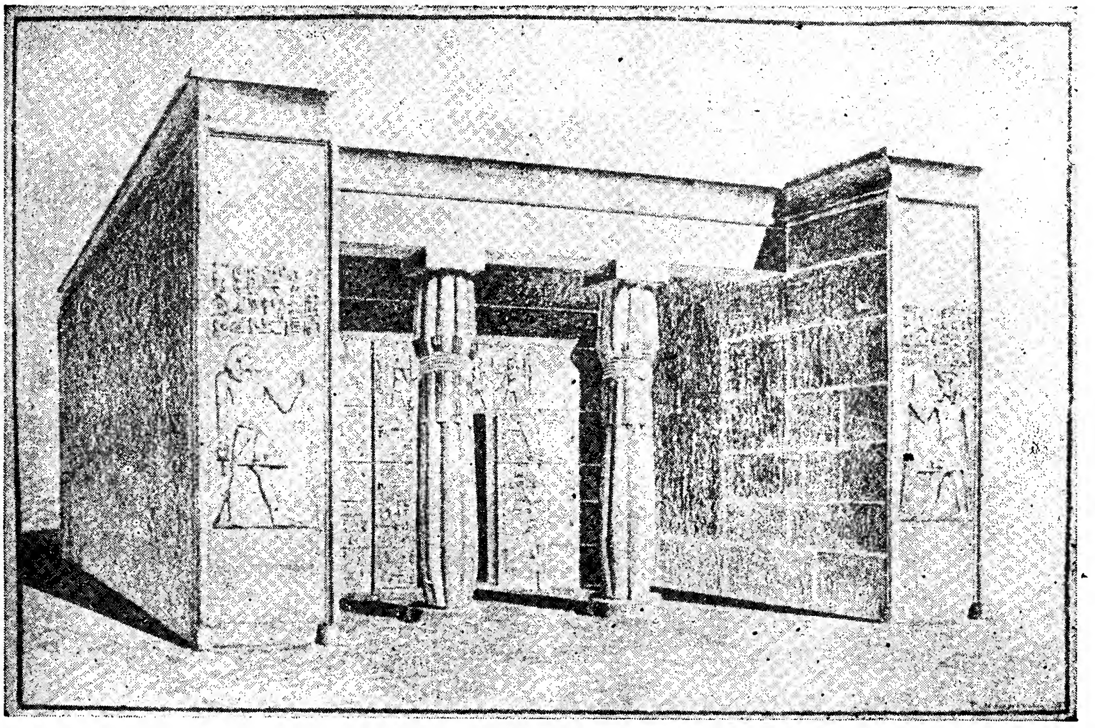
١٢ ـ بهو الاستقبال فى القصر الاول لرمسيس الثالث فى مدينة حابو



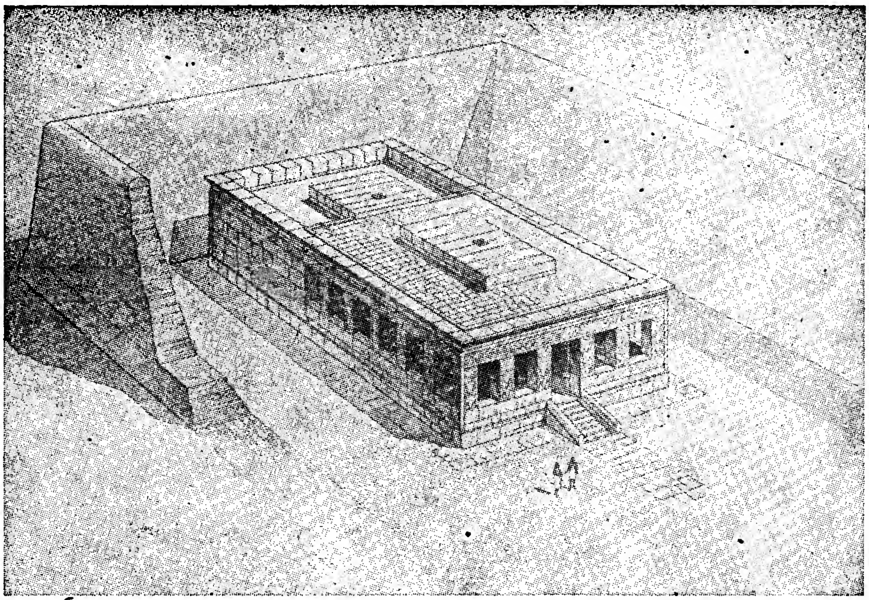
١٣ ـ شباك من الحجر الرملى من القصر الثانى
لرمسيس الثالث فى مدينة حابو



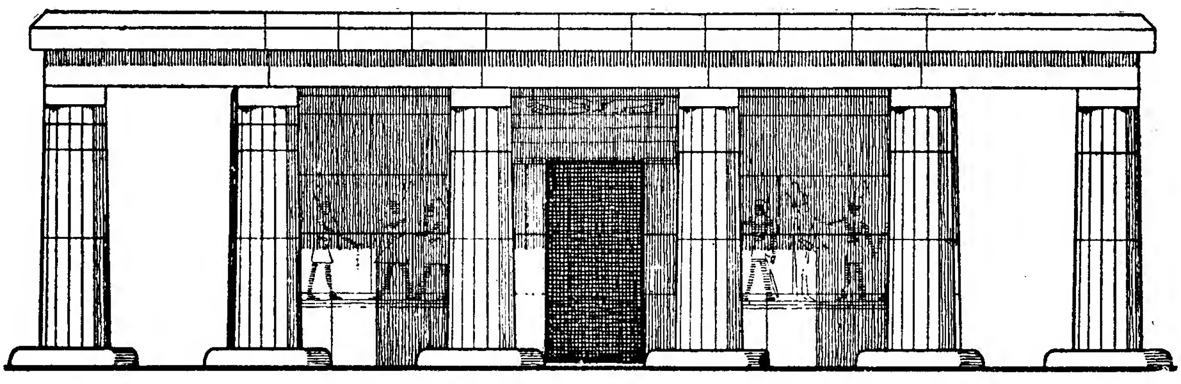
١٤ بهو الاستقبال فى بيت الوزير نخت



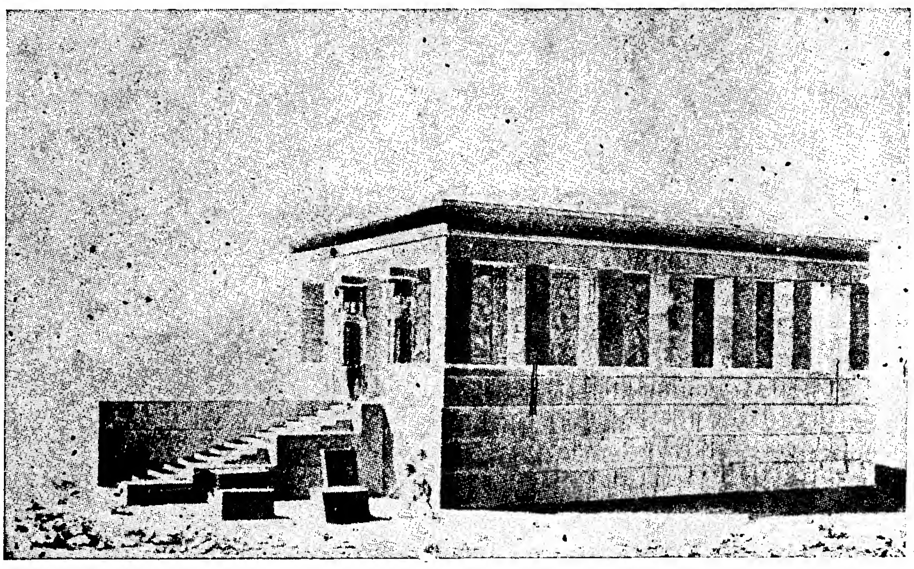
١٥ ـ معبد مدينة ماضى



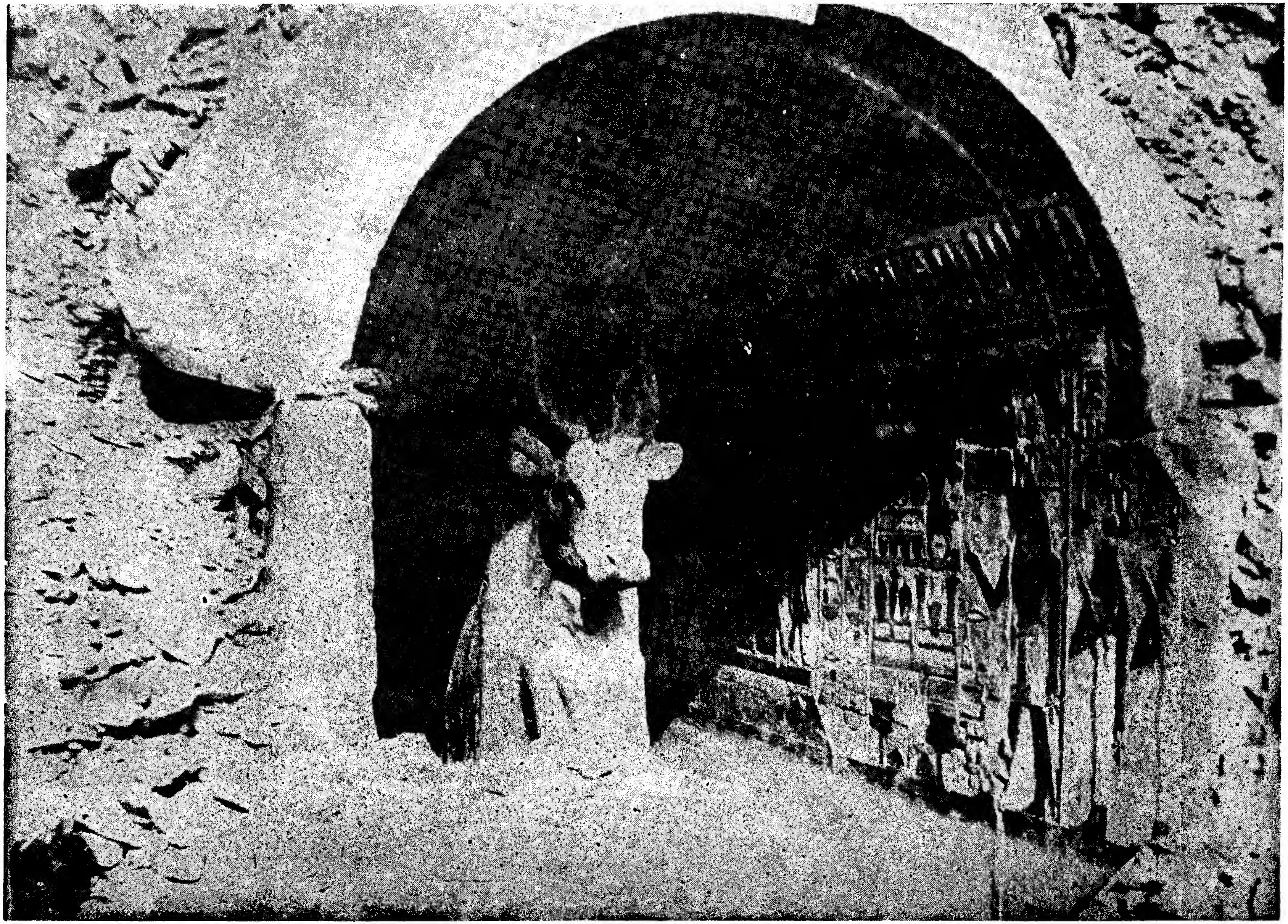
١٦ ـ معبد حاتشبسوت
وتحوتمس الثالث
فى مدينة حابو ـ منظور



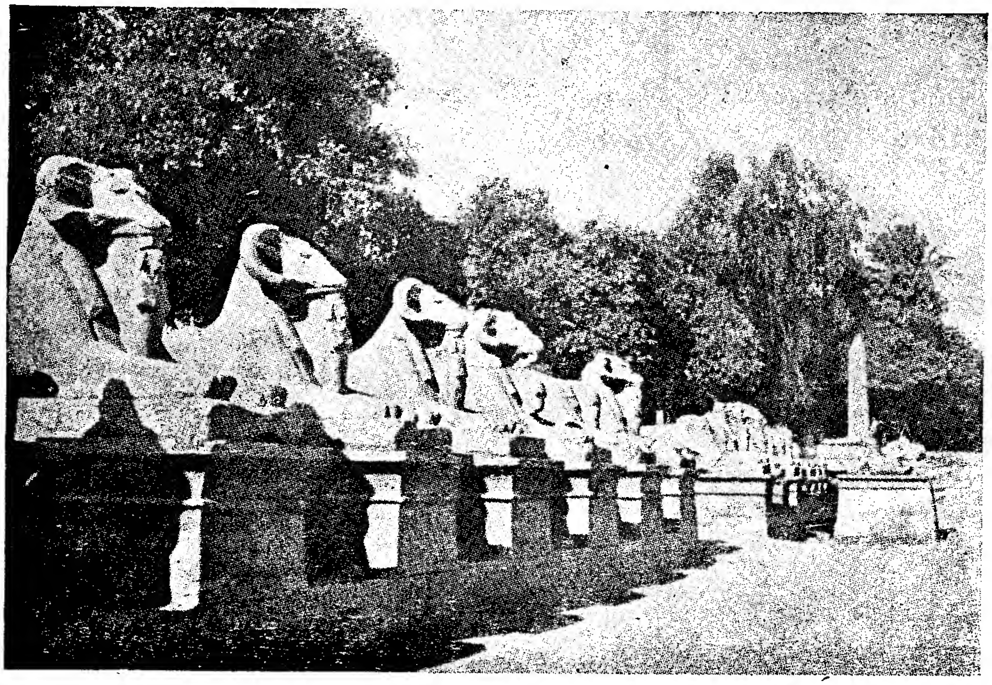
١٧ ـ واجهة معبد حاتشبسوت فى بوهين



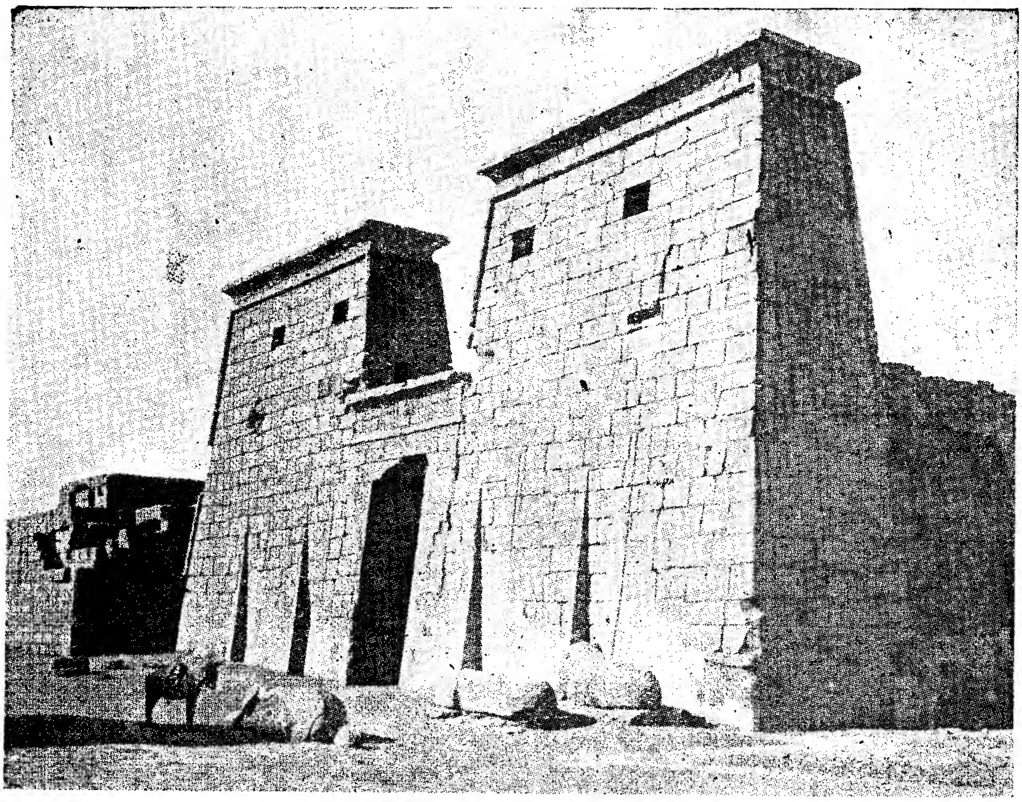
١٨ ـ جوسق
امنحوتب الثالث
في الفنتين



١٩ — مقصورة البقرة حتحور



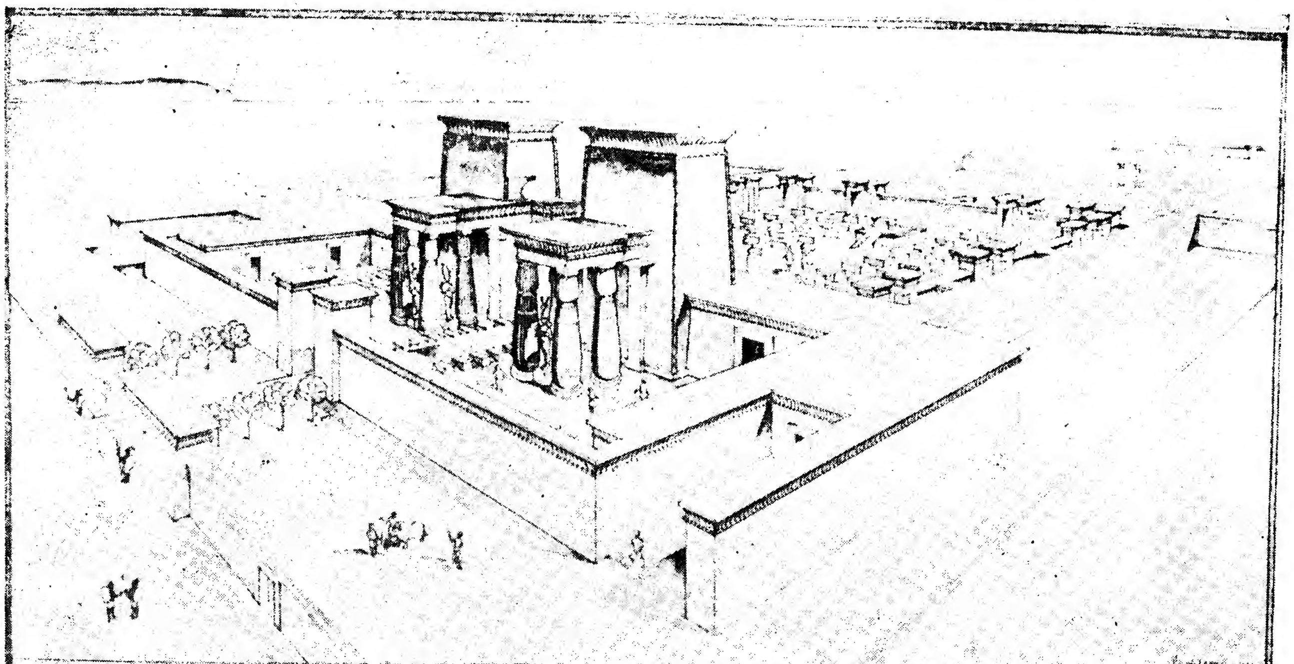
٢٠ ـ طريق الكباش أمام معبد أمون فى الكرنك



٢١ ـ صرح معبد خنسو فى الكرنك

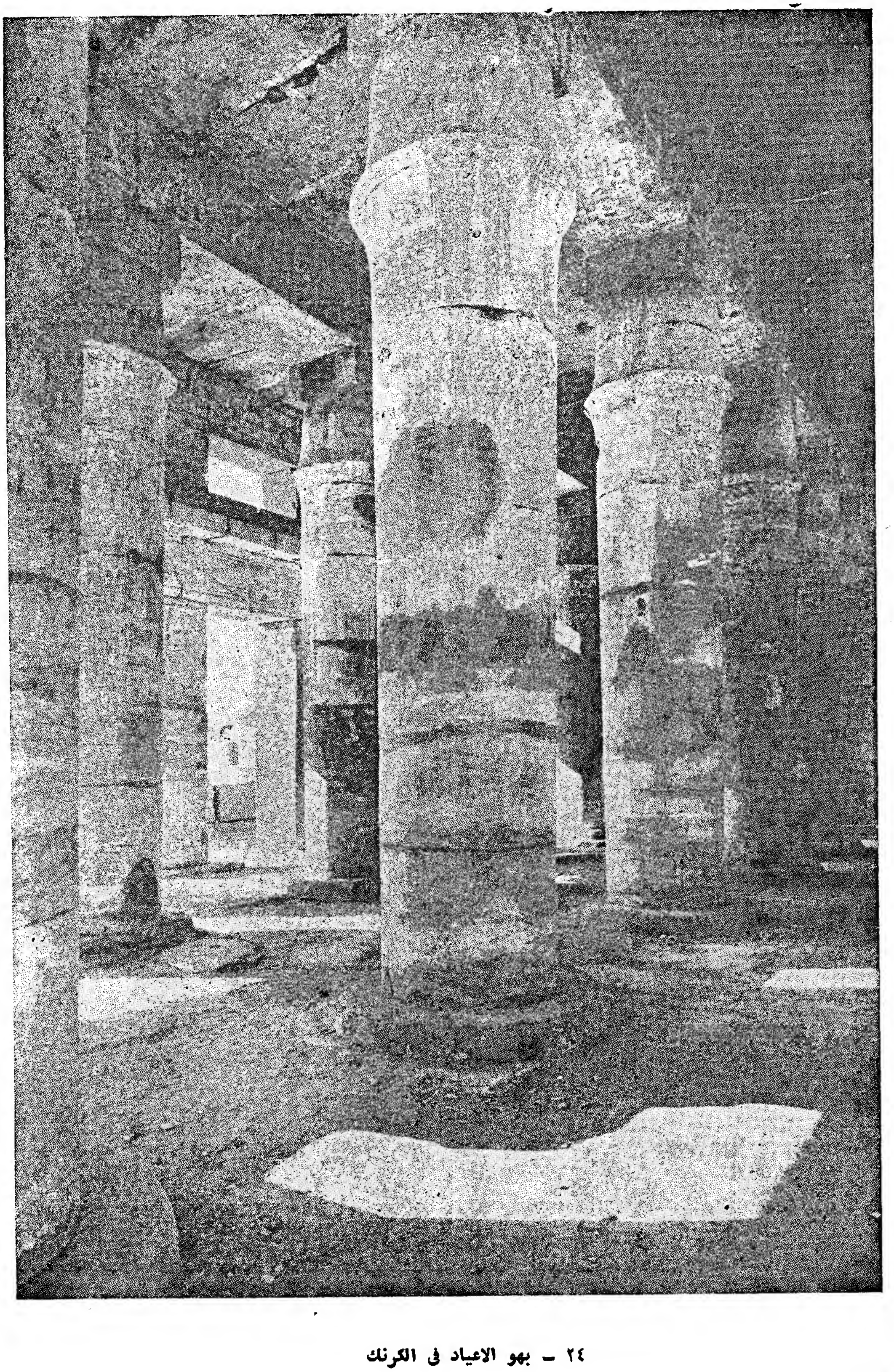


٢٢ ــ رواق معبد الاقصر

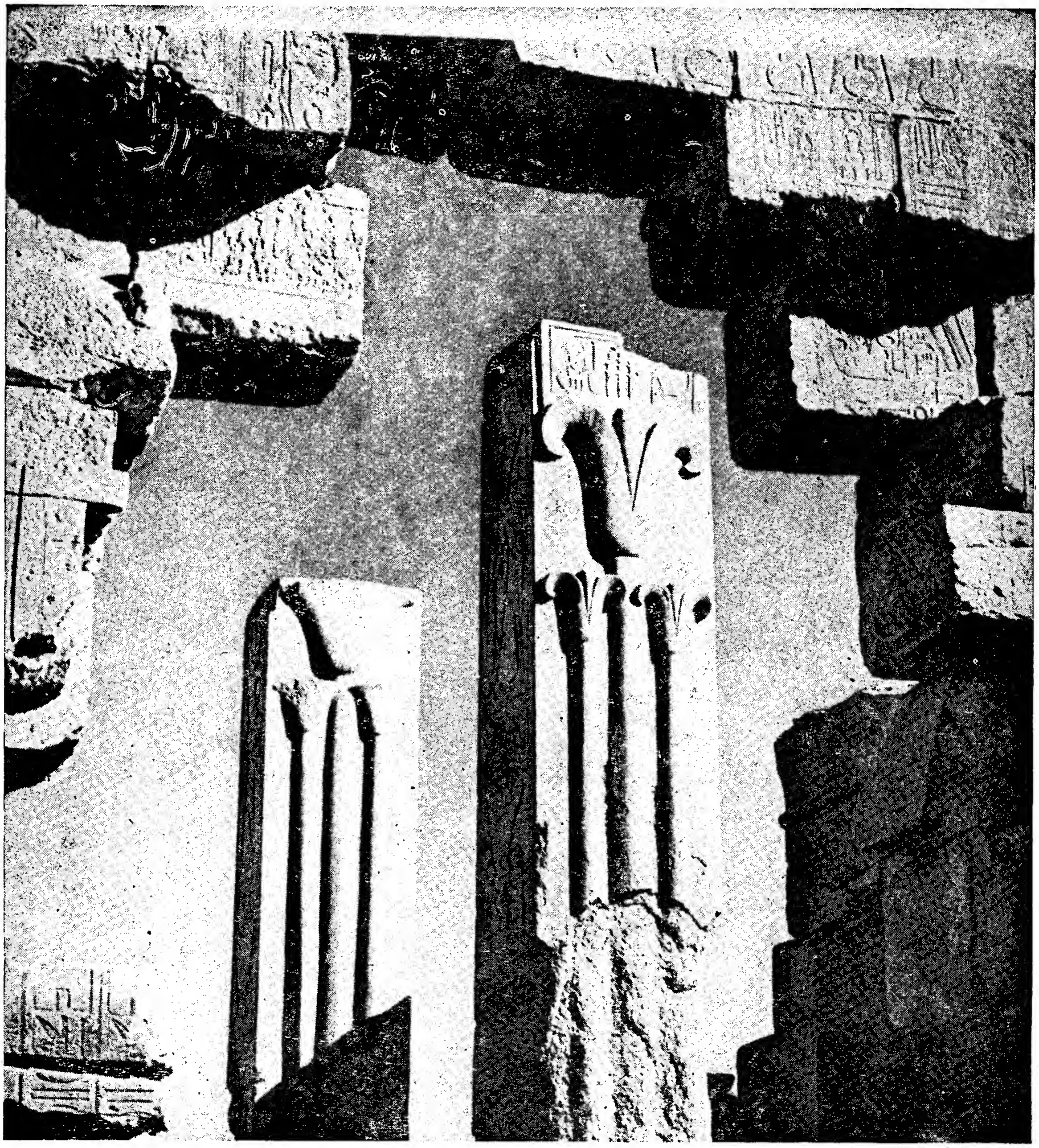


PERSPECTIVE VIEW OF THE SANCTUARY OF THE GREAT TEMPLE

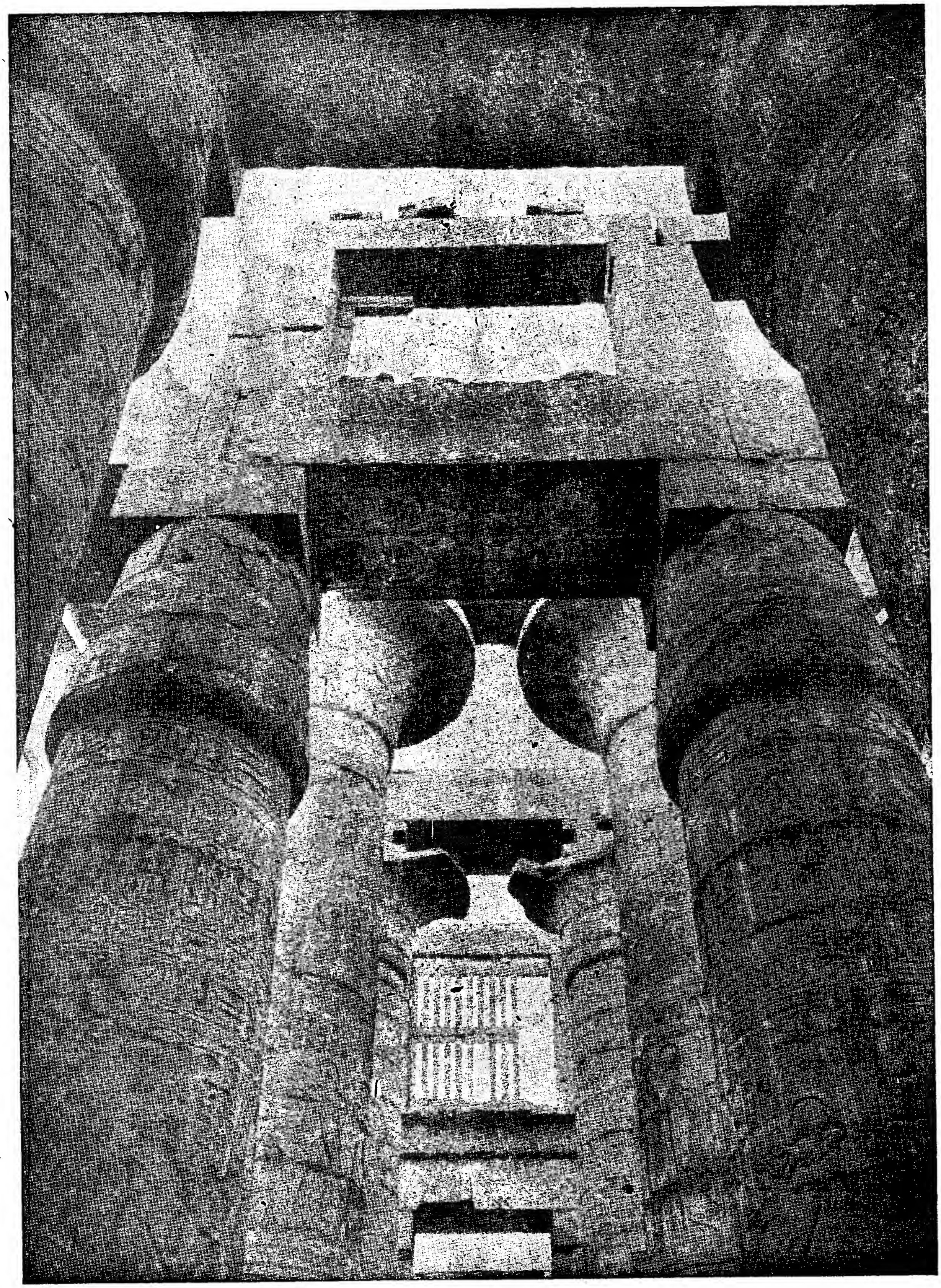
٢٣ ـ هيكل اتن العظيم



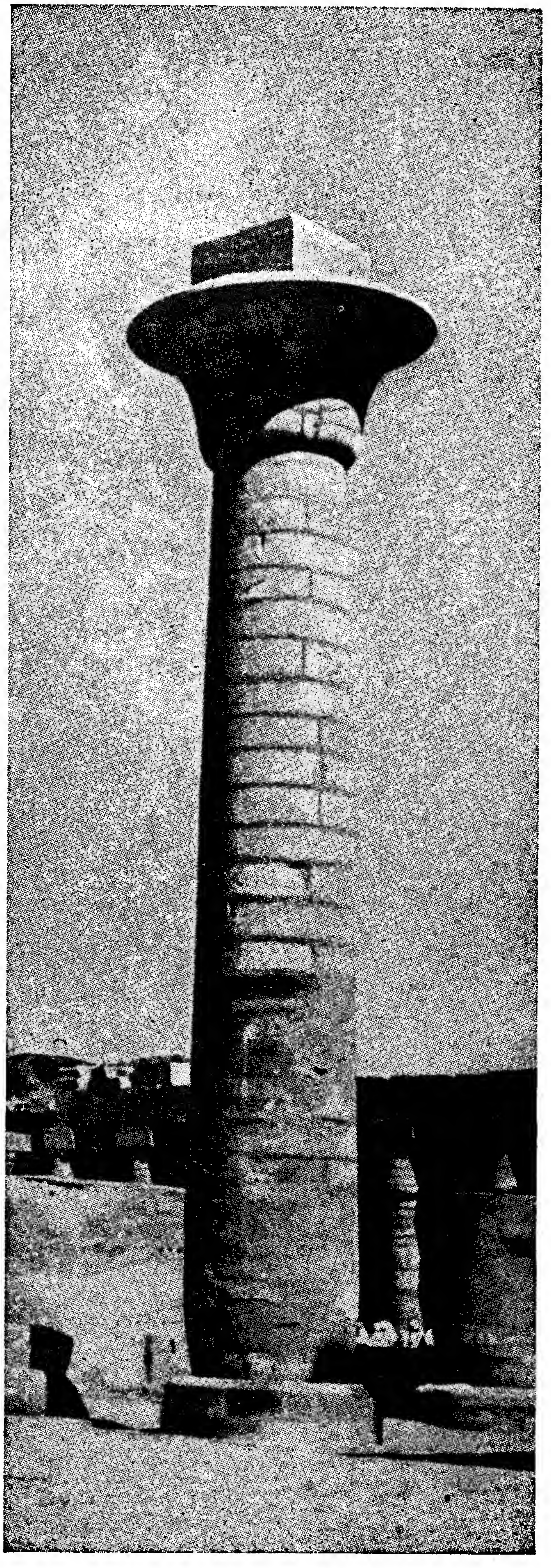
٢٤ ـ بهو الاعياد فى الكرنك



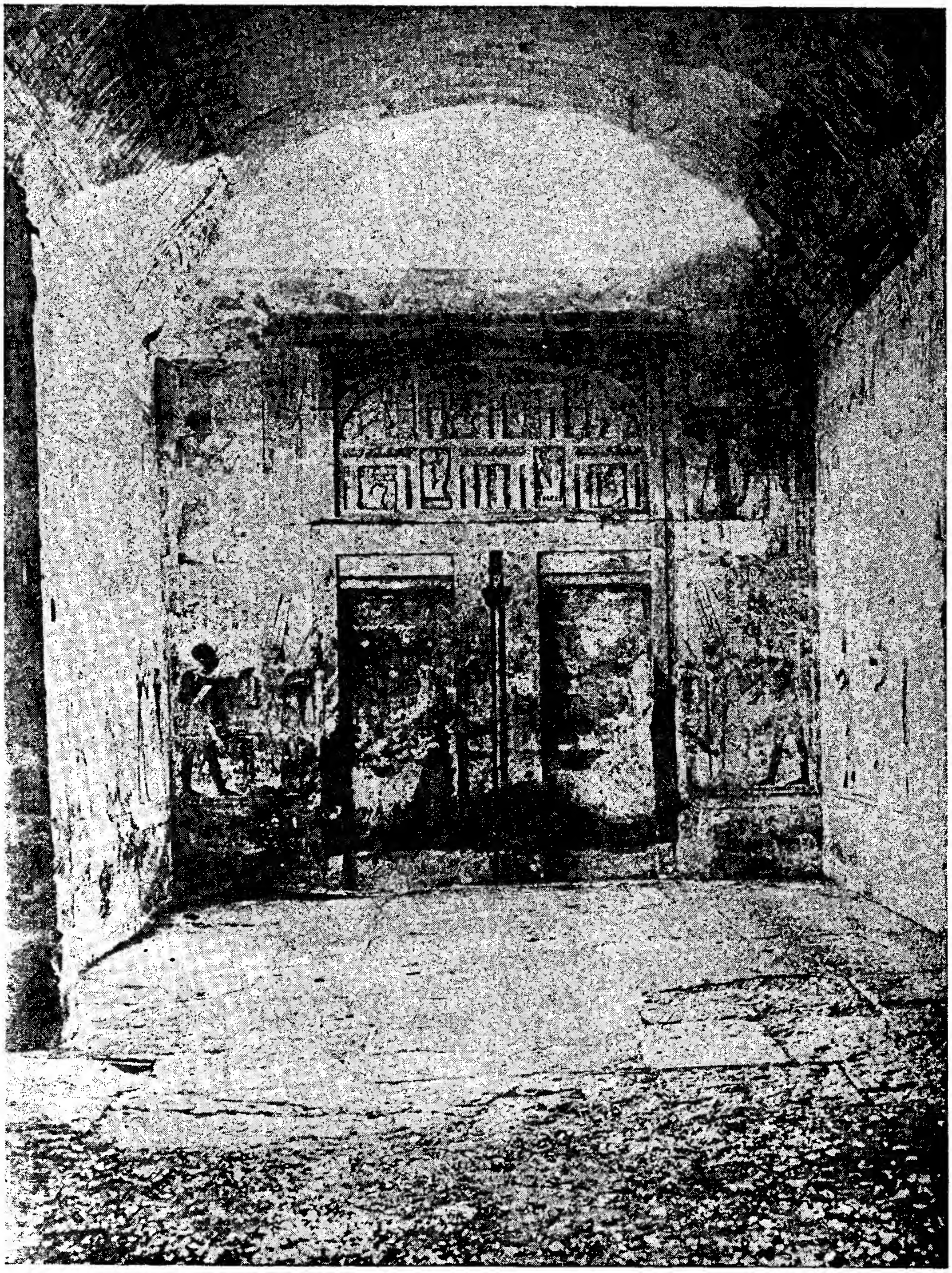
٢٥ ـ عمودا تحوتمس الثالث فى الكرنك



٢٦ ـ من بهو الأساطين العظيم فى الكرنك



٢٧ ـ اسطون طهرقا
فى الكرنك



٢٨ ـ مقصورة أمون فى معبد سيتى الاول فى أبيدوس.



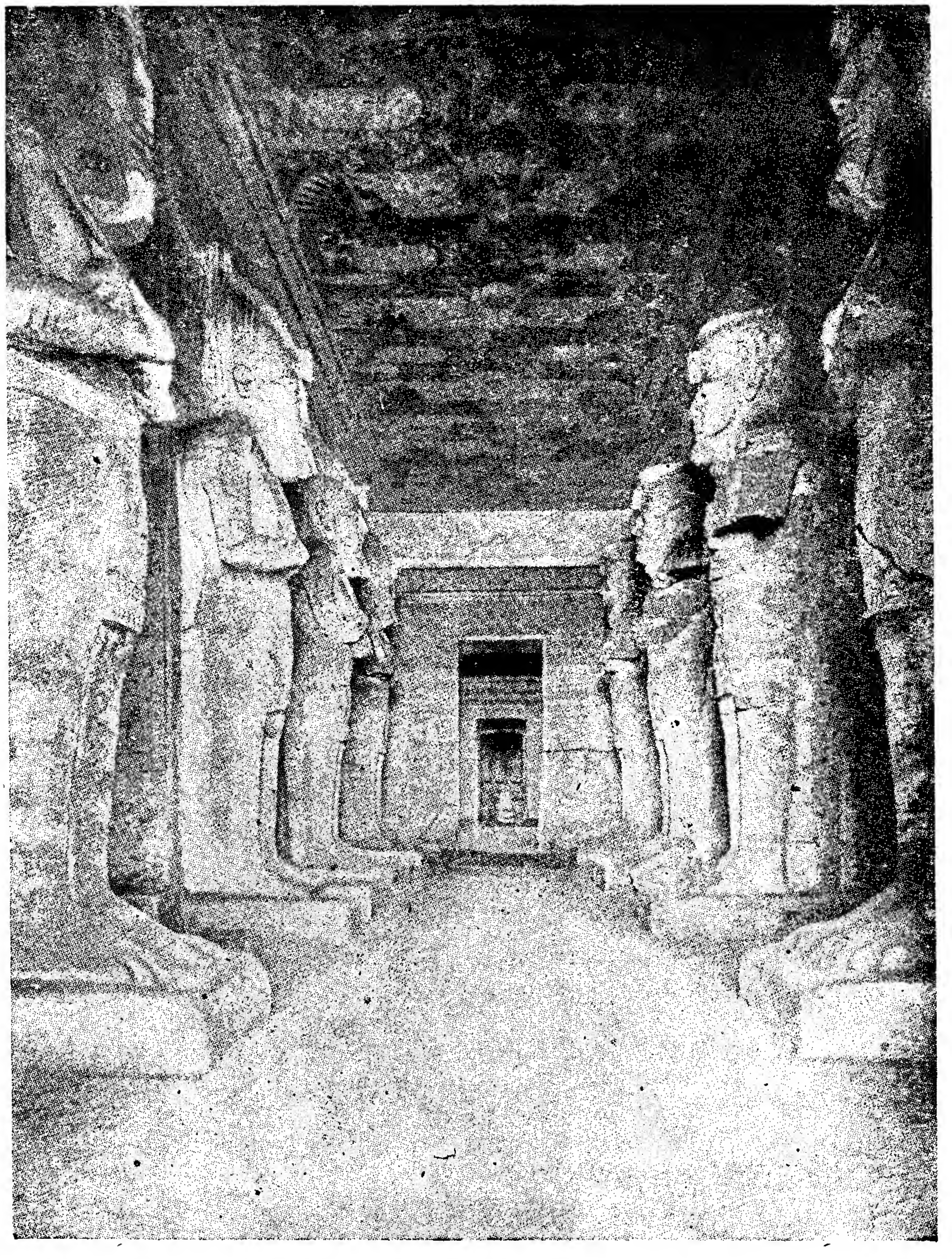
٢٩ ـ باب وهمى مزدوج فى معبد سيتى الاول فى أبيدوس



٣٠ ـ معبد ابو عودة



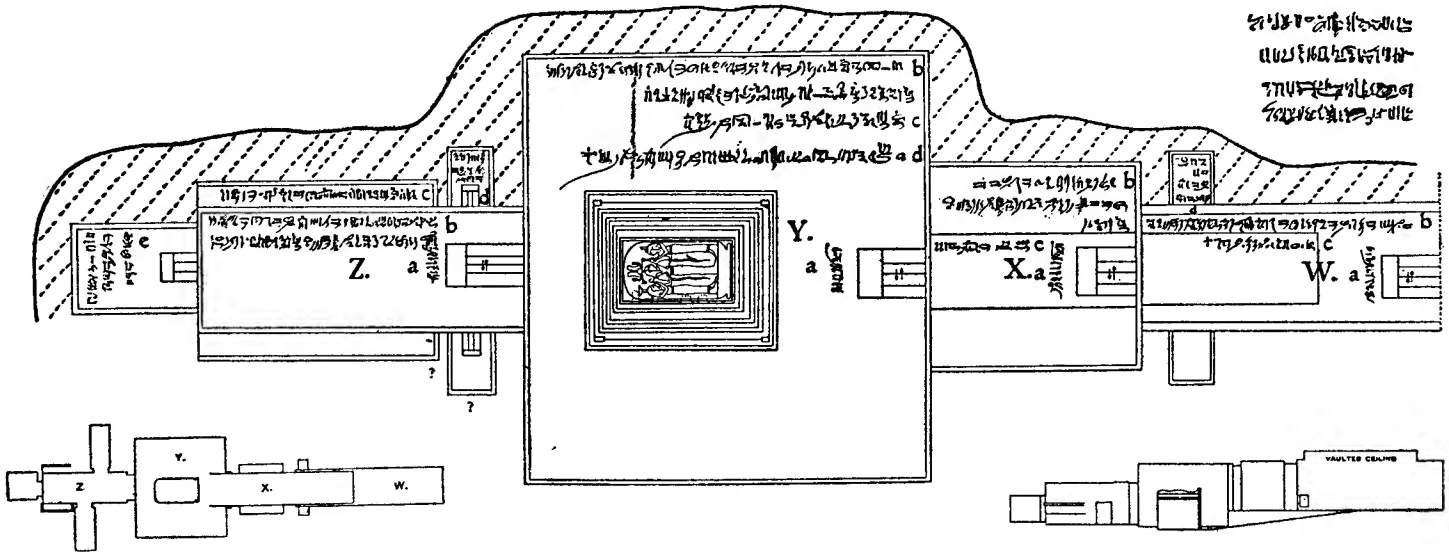
٢١ - واجهة معبد أبو سنبل العظيم



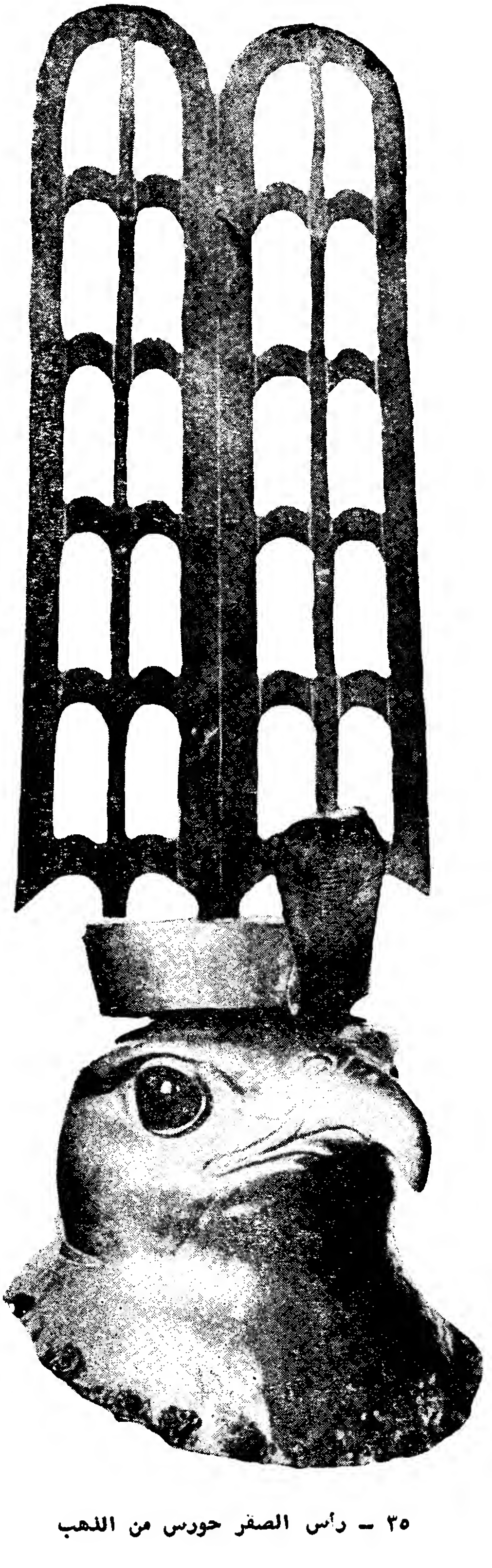
٢٢ ـ قاعة العمد فى معبد أبو سنبل العظيم



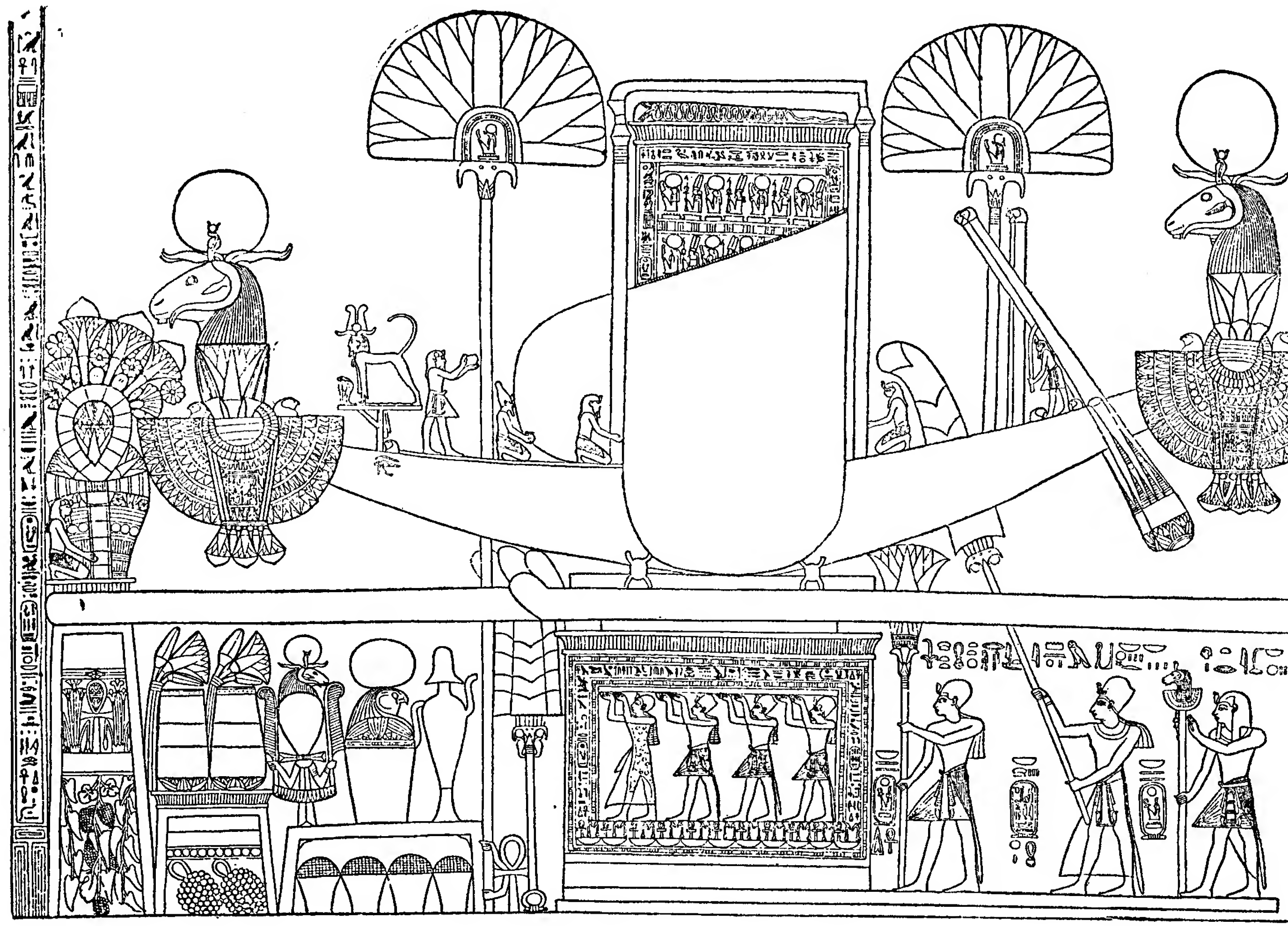
٣٣ ـ واجهة معبد أبو سنبل الصغير



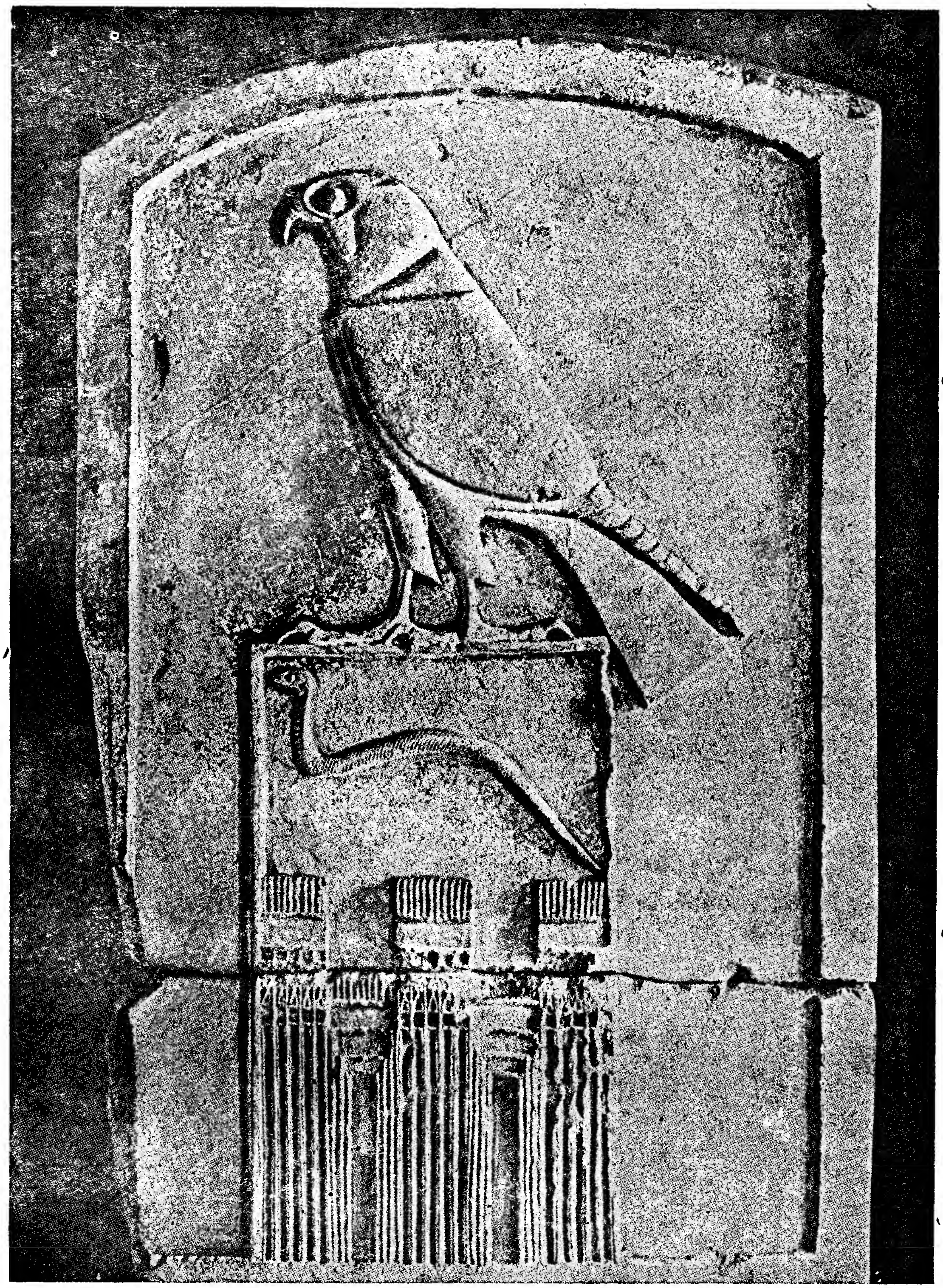
٢٤ – مخطط مصرى قديم على البردى لقبر رمسيس الرابع



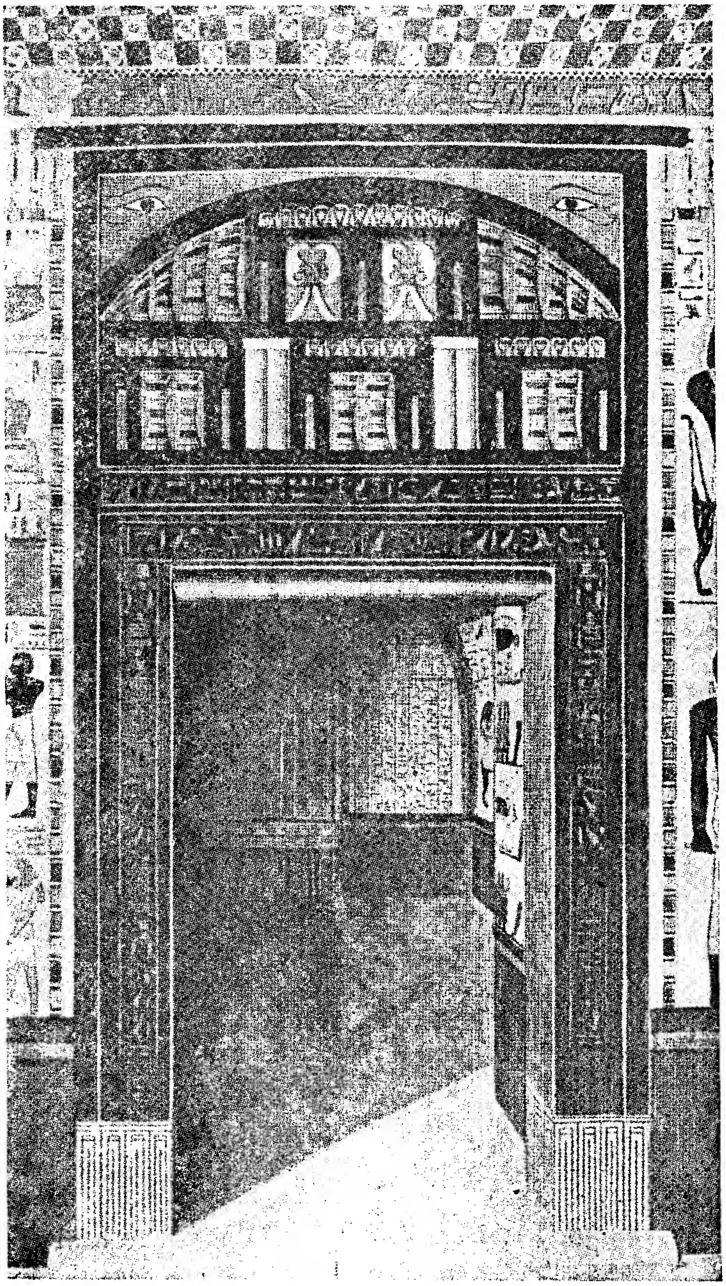
٣٥ ـ رأس الصقر حورس من الذهب



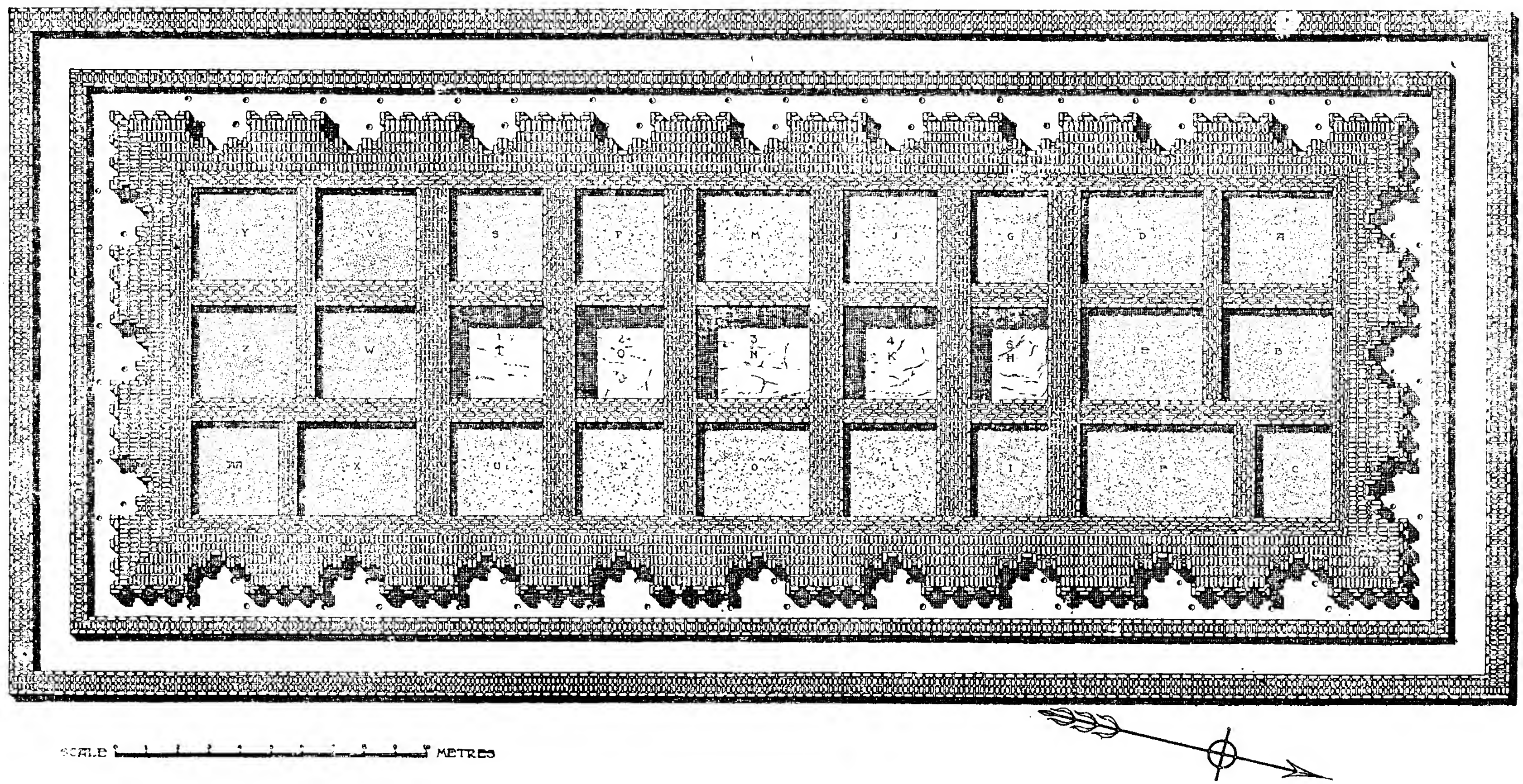
٣٦ ـ الزورق المقدس للإله أمون



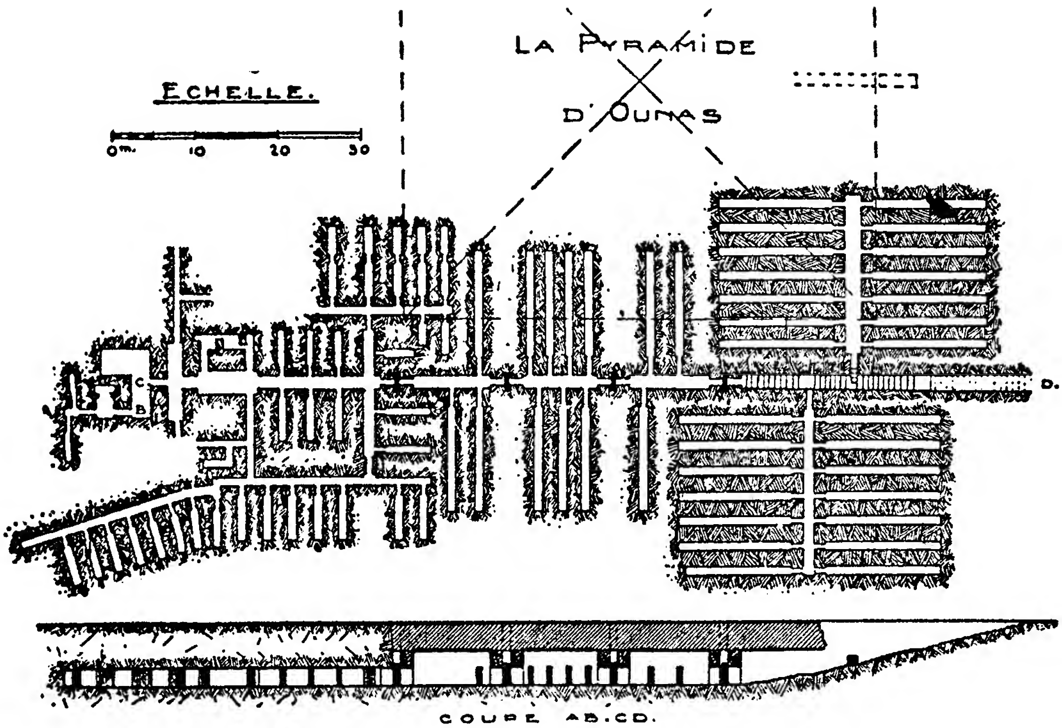
٣٧ ـ لوح الملك جت



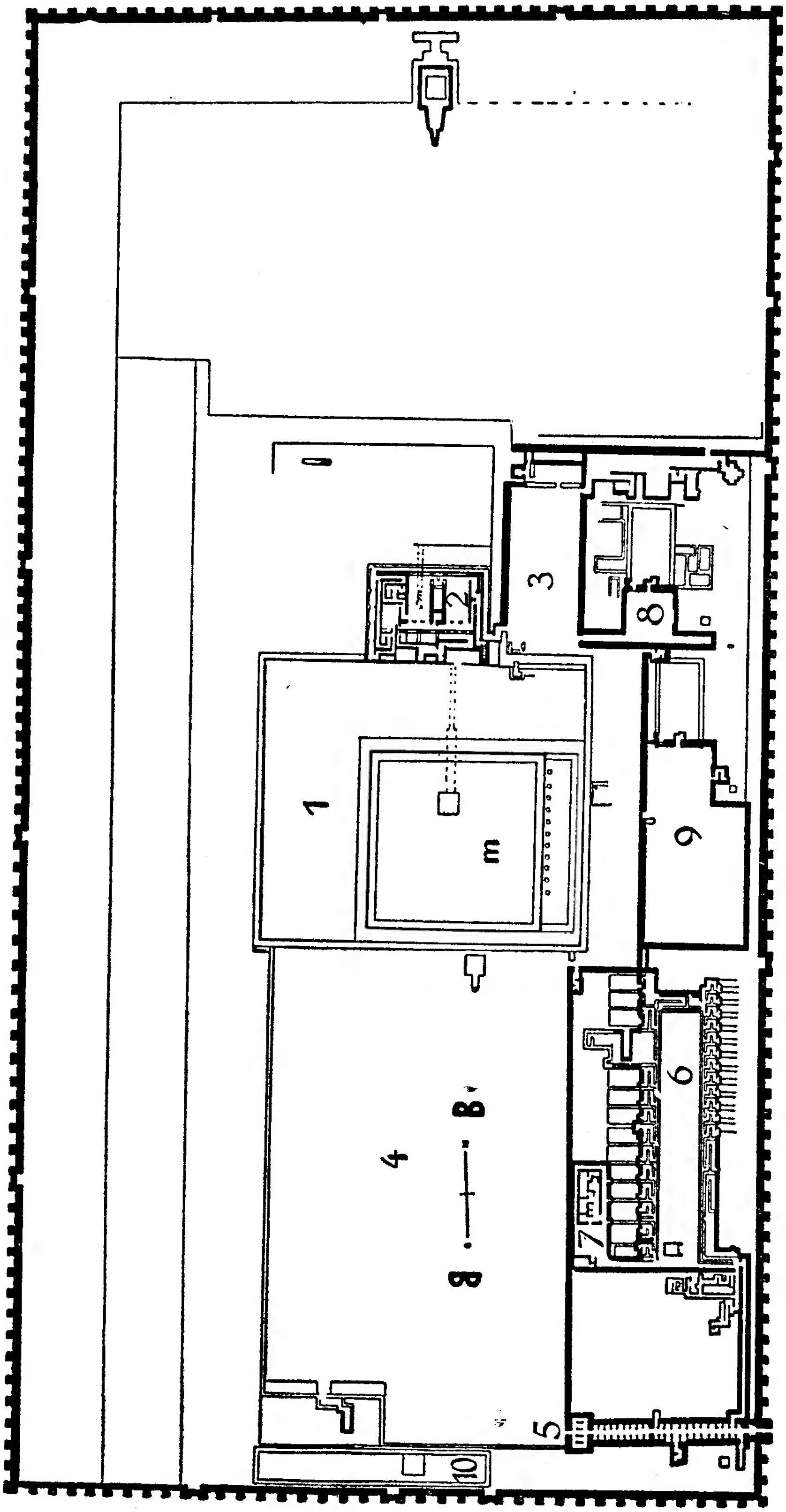
٣٨ ـ باب يعلوه عقد تتخلله رموز وعلامات هيروغليفية



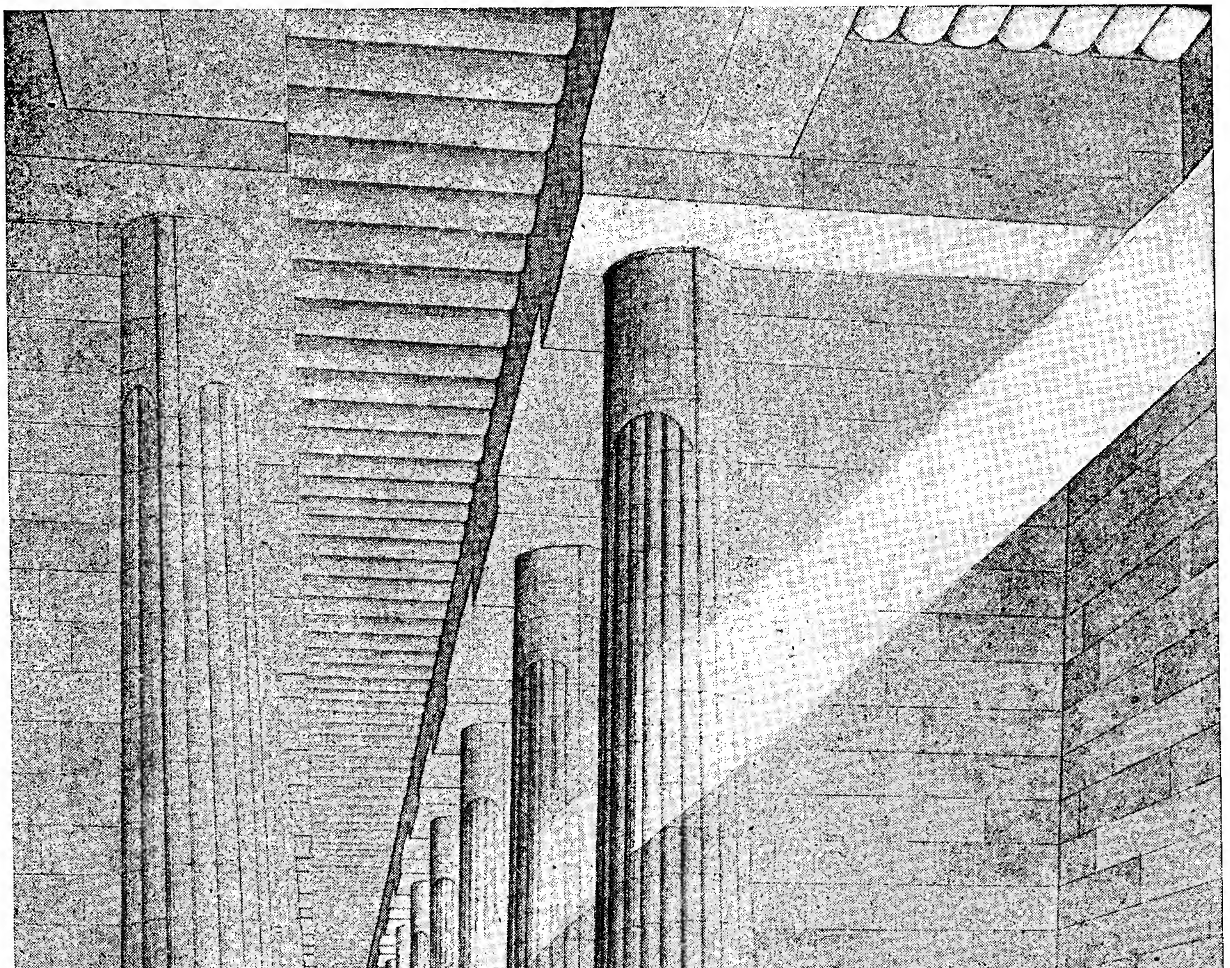
٣٩ ـ مصطبة الملك حور عحا في صقارة



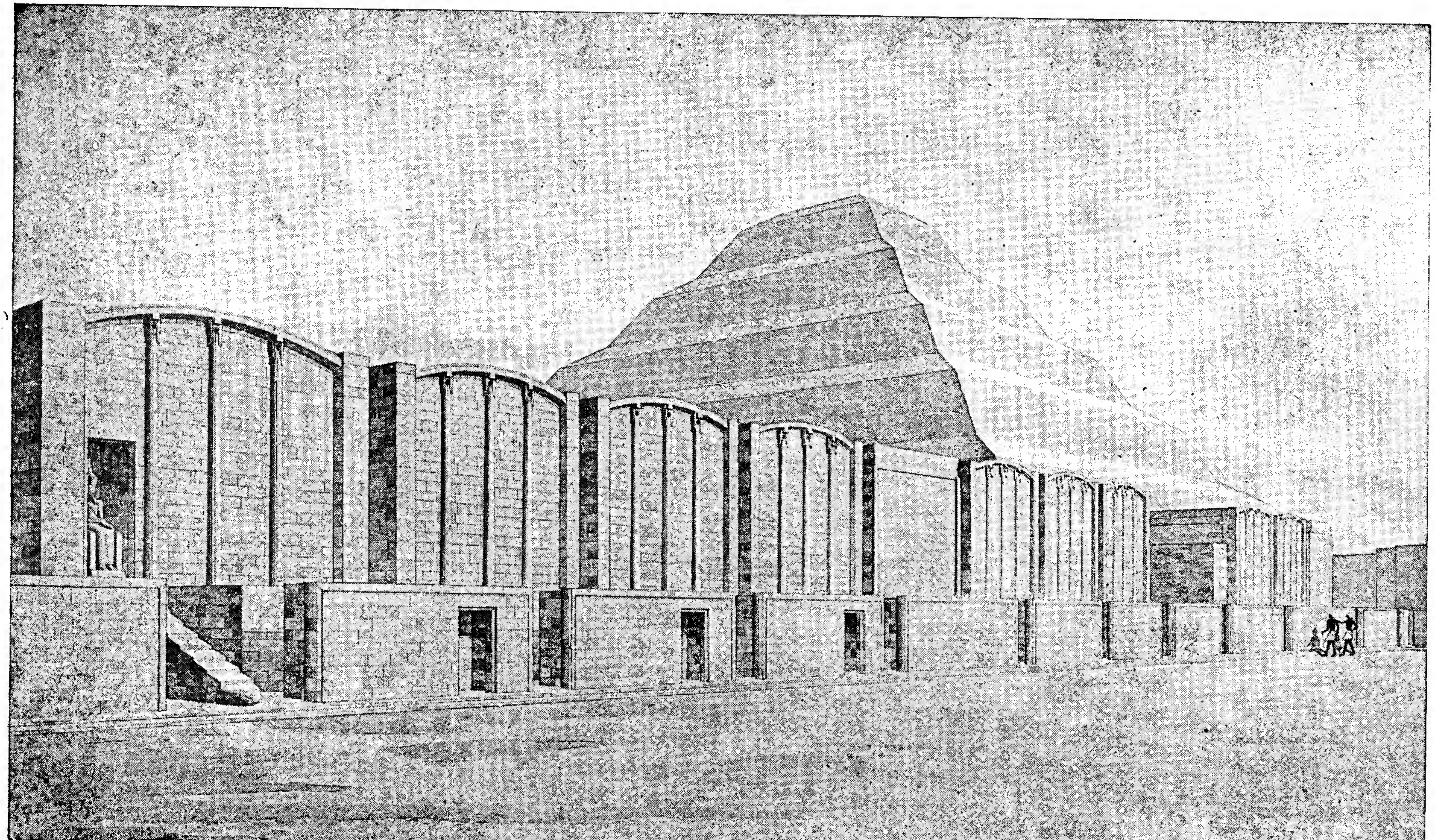
٤٠ ـ قبر ملكى من بداية الاسرة الثانية



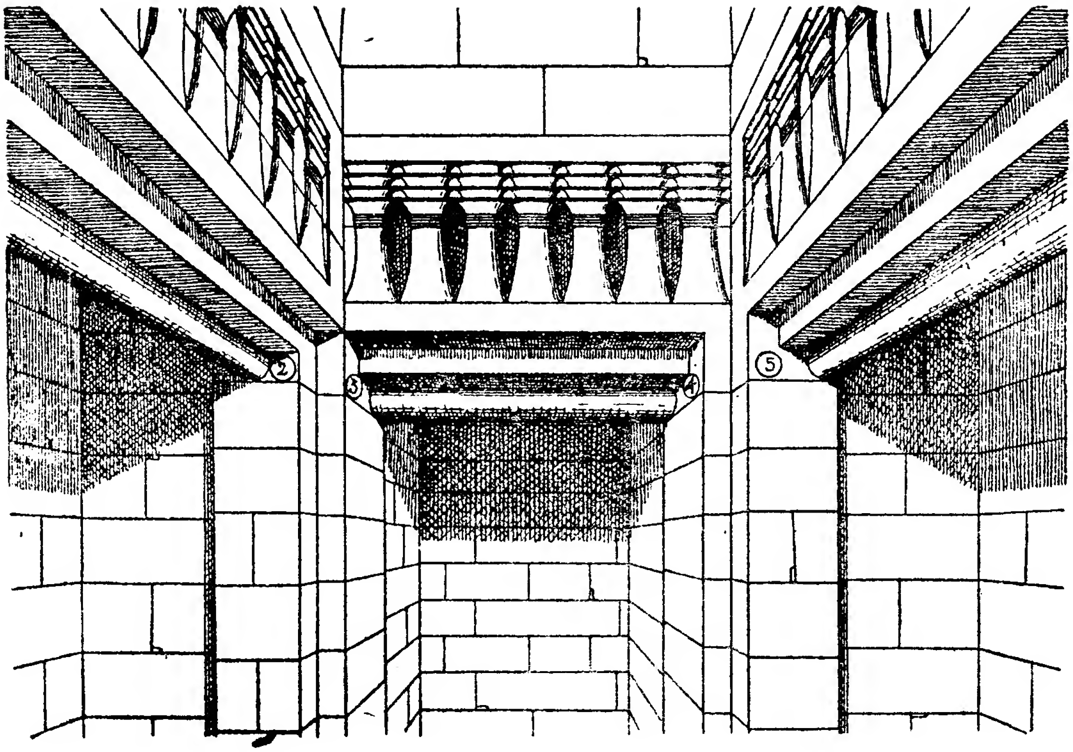
٤١ — مباني زوسر في صقارة



٤٢ - بهو المدخل فى مبانى زوسر في صقارة



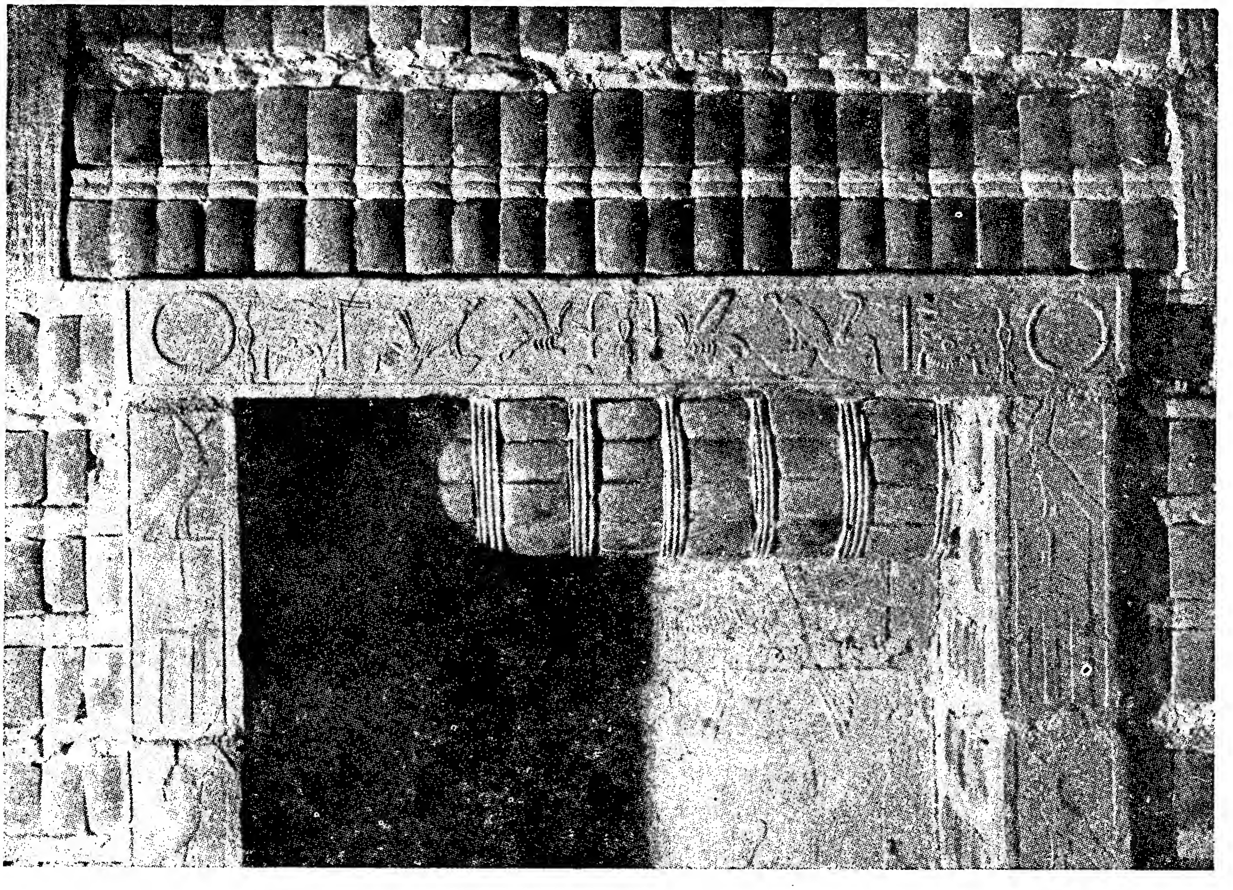
٤٣ ـ المقصورات الغربية فى معبد اليوبيل



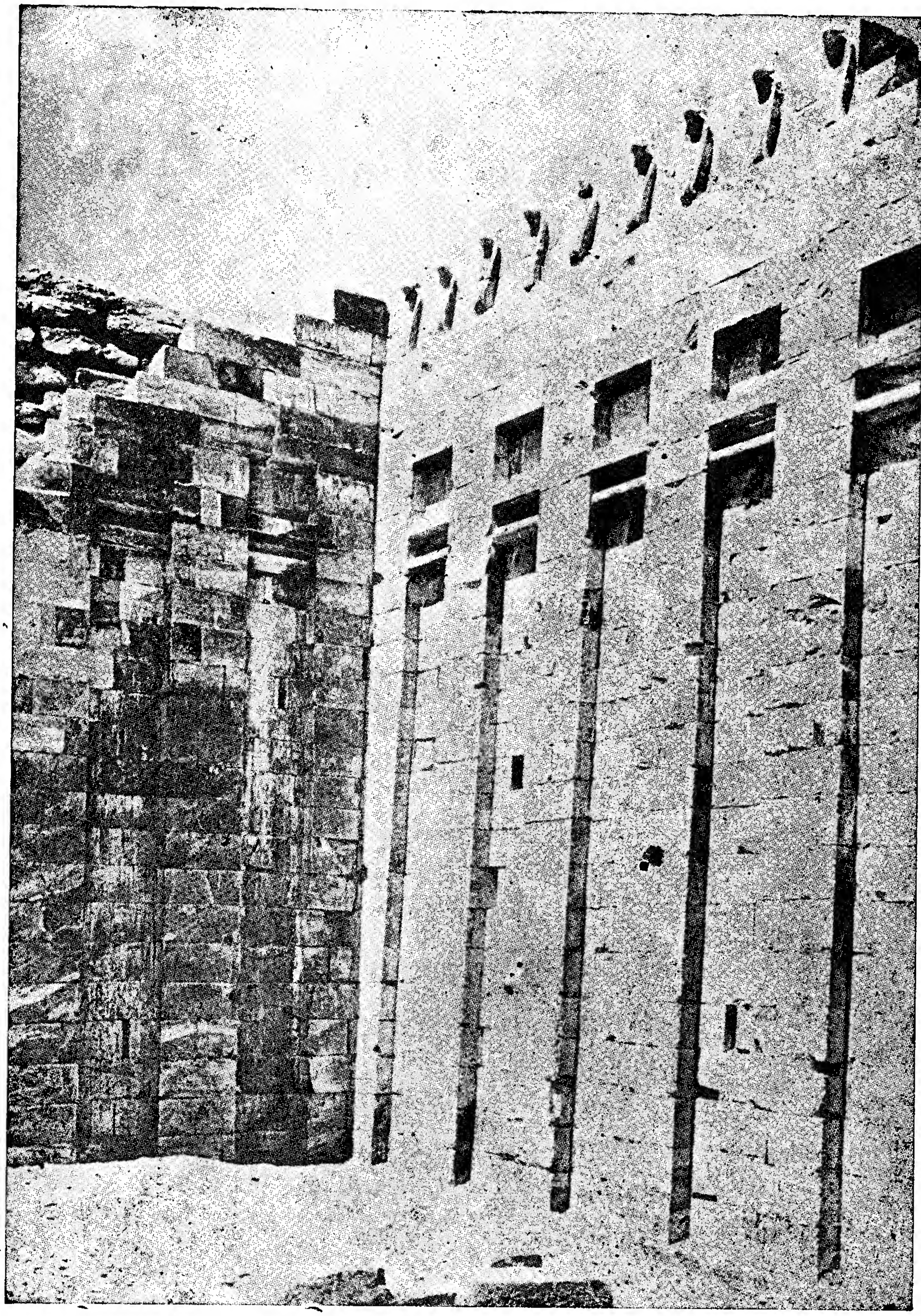
٤٤ ـ مقصورة الجوسق الملكى



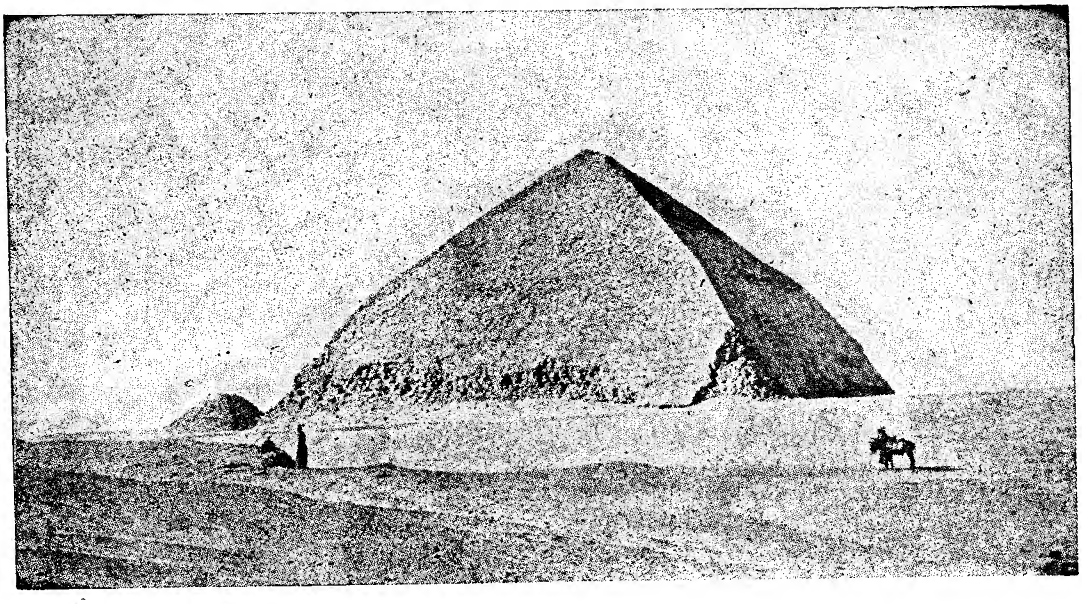
٤٥ ـ أساطين بردية تحلى جدار جانبى لبيت الشمال



٤٦ ـ من جدار تكسوه قراميد تمثل الحصير



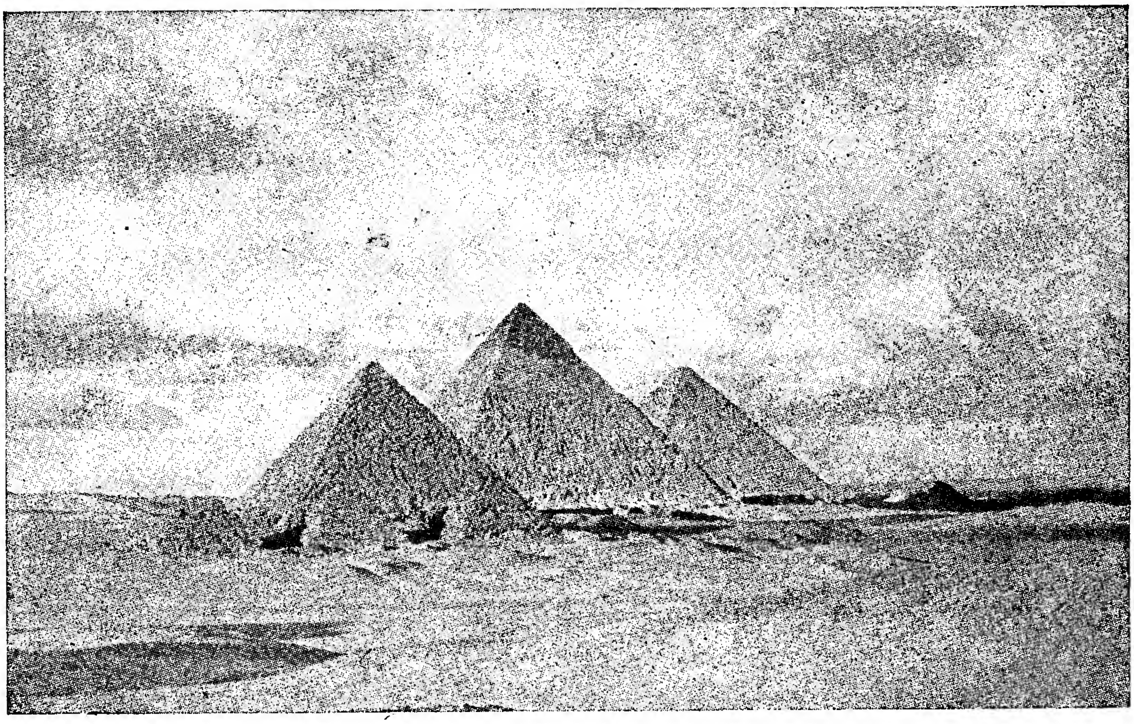
٤٧ ـ افريز من الصلال يتوج جدارا



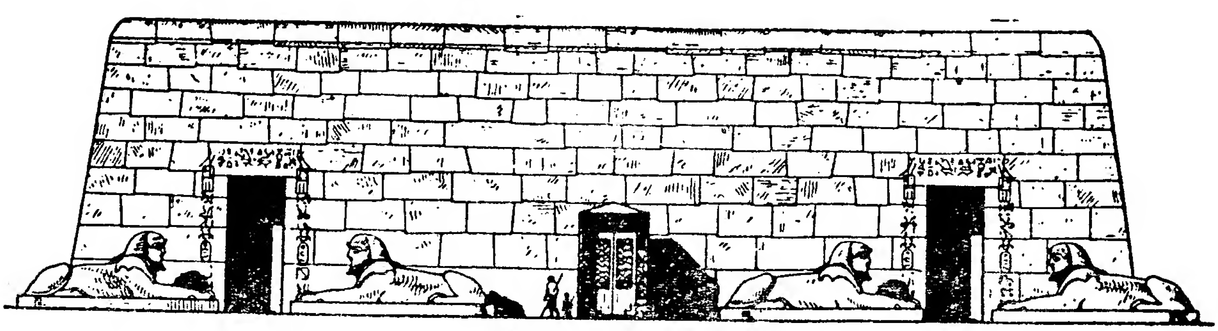
٤٨ ـ الهرم المنحنى فى دهشور



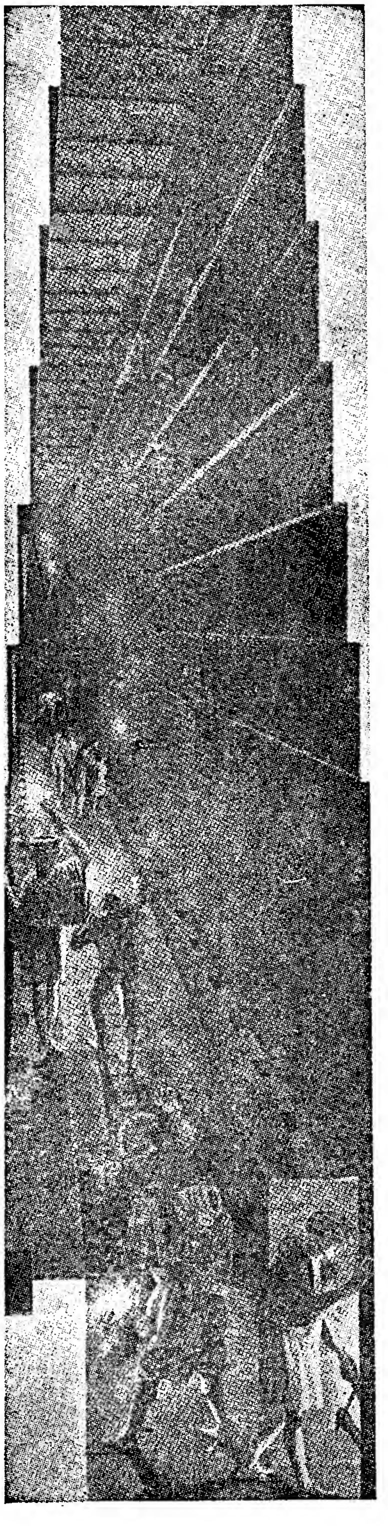
٤٩ ـ الهرم الاحمر فى دهشور



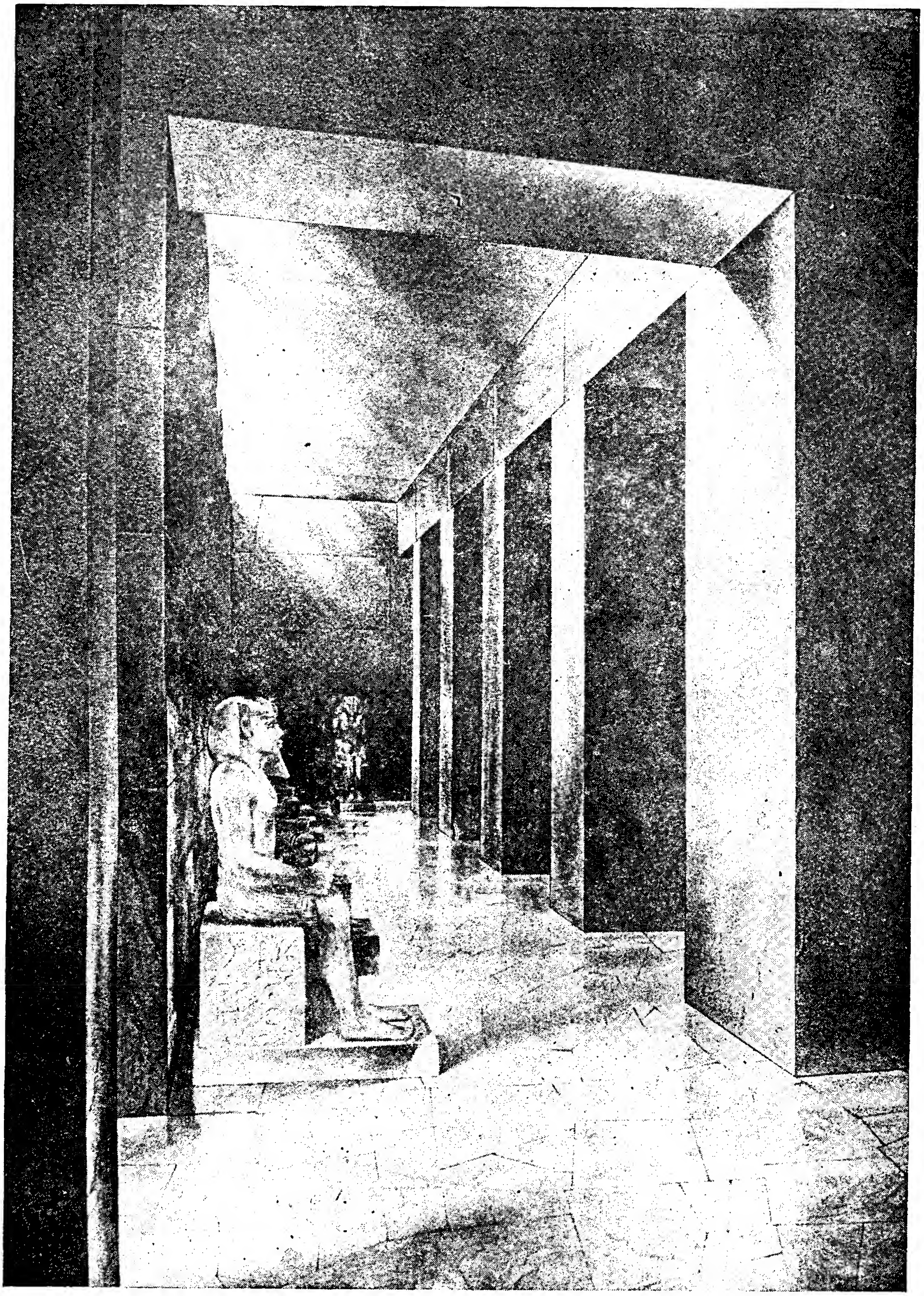
٥٠ ـ أهرام الجيزة



٥٢ ـ واجهة معبد الوادى لهرم خفرع



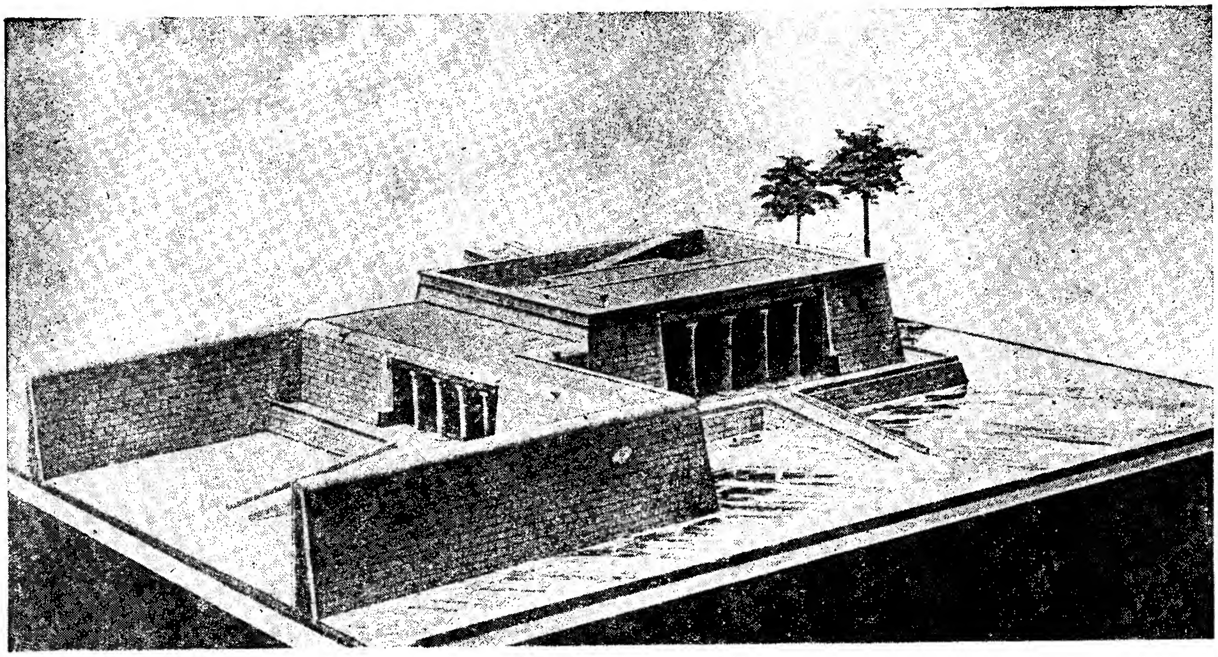
٥١ ـ الدهليز الصاعد
العظيم فى الهرم الاكبر



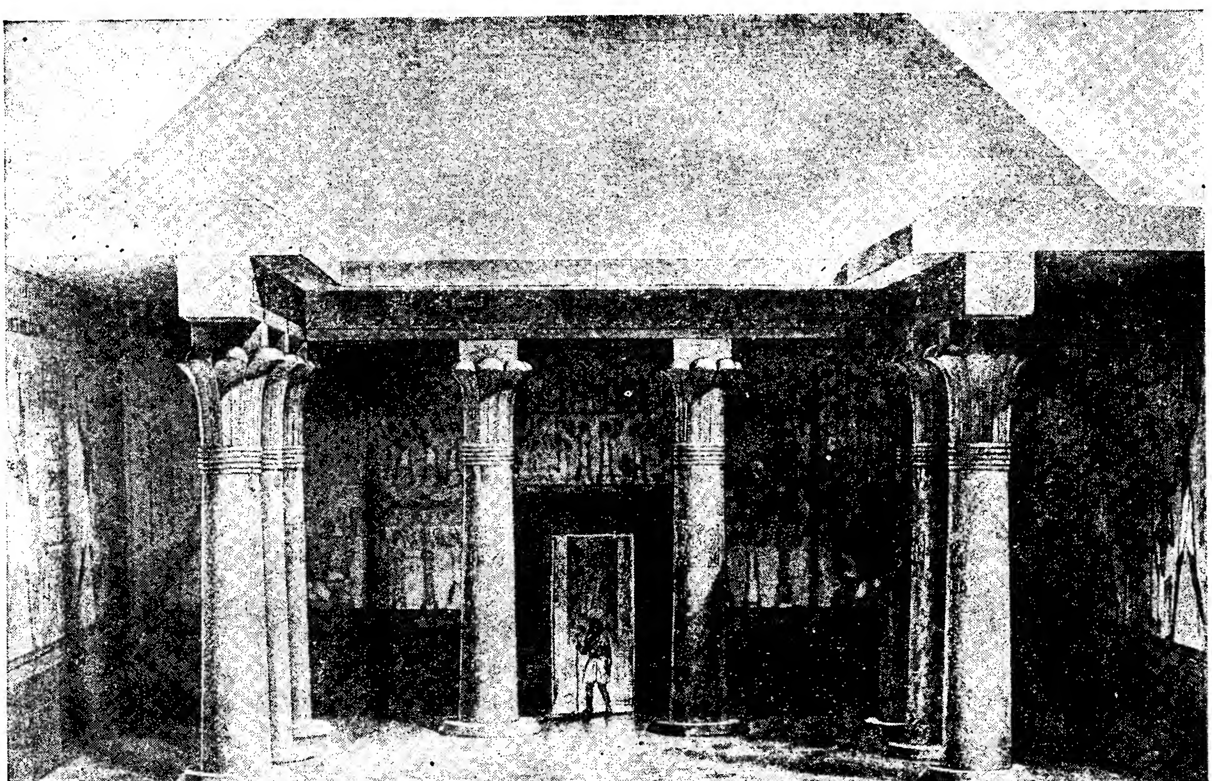
٥٢ ـ بهو العمد فى معبد الوادى لهرم خفرع ـ منظور



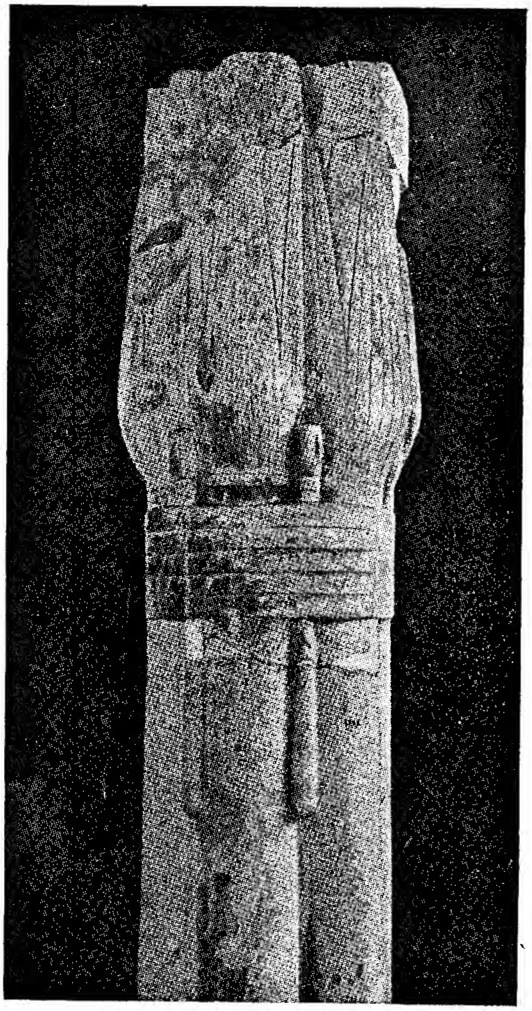
٥٤ ـ ابو الهول العظيم



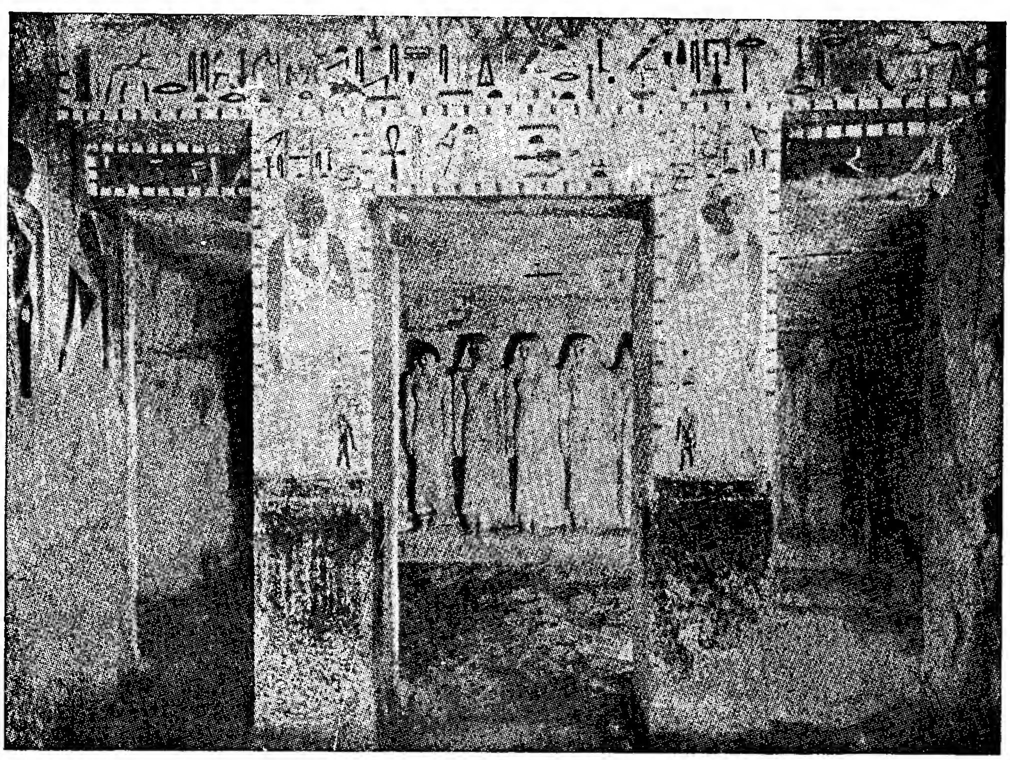
٥٥ ـ نموذج لمعبد الوادى لهرم ساحورع



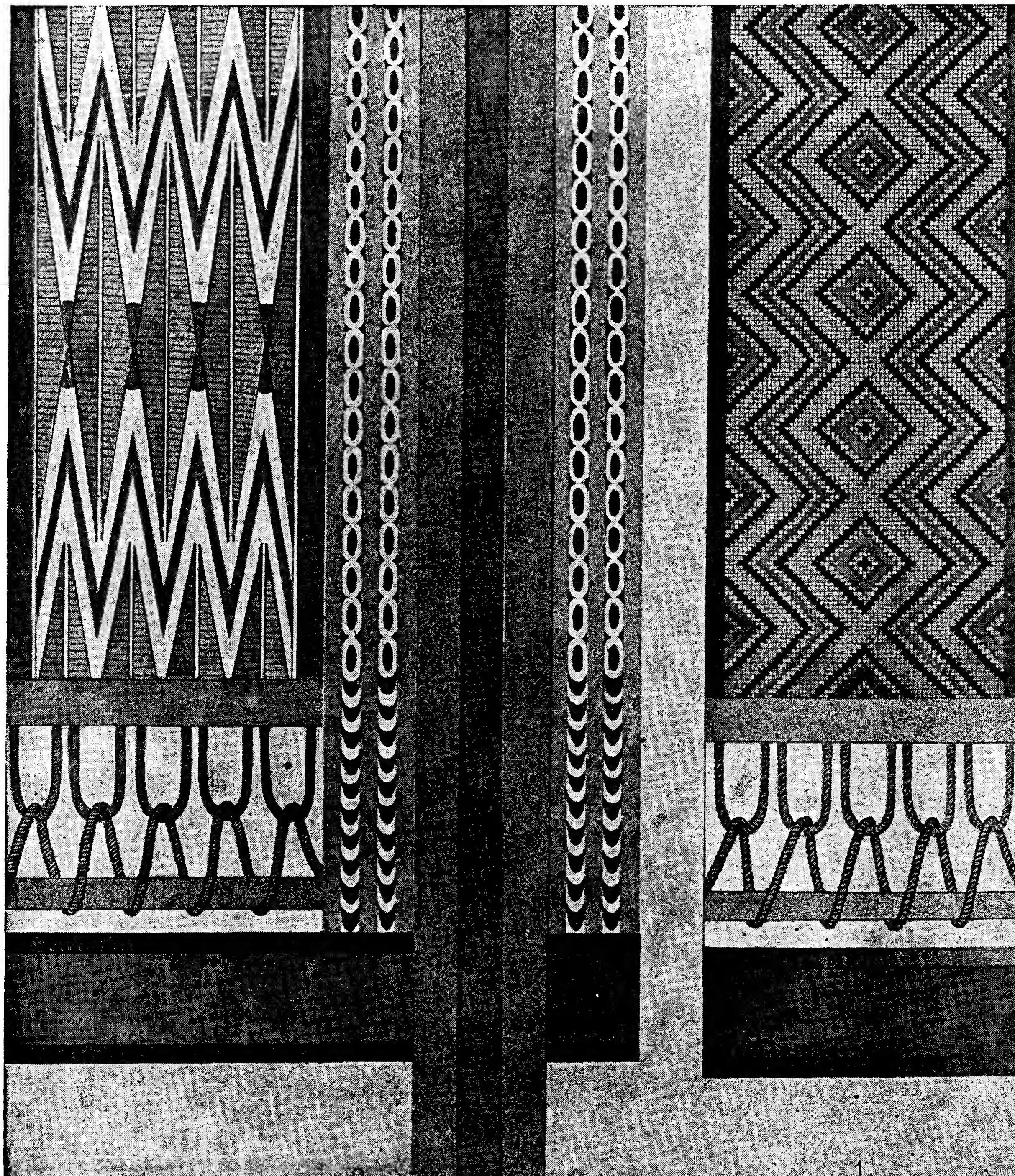
٥٦ ـ من فناء المعبد الجنازى لهرم ساحورع ـ منظور



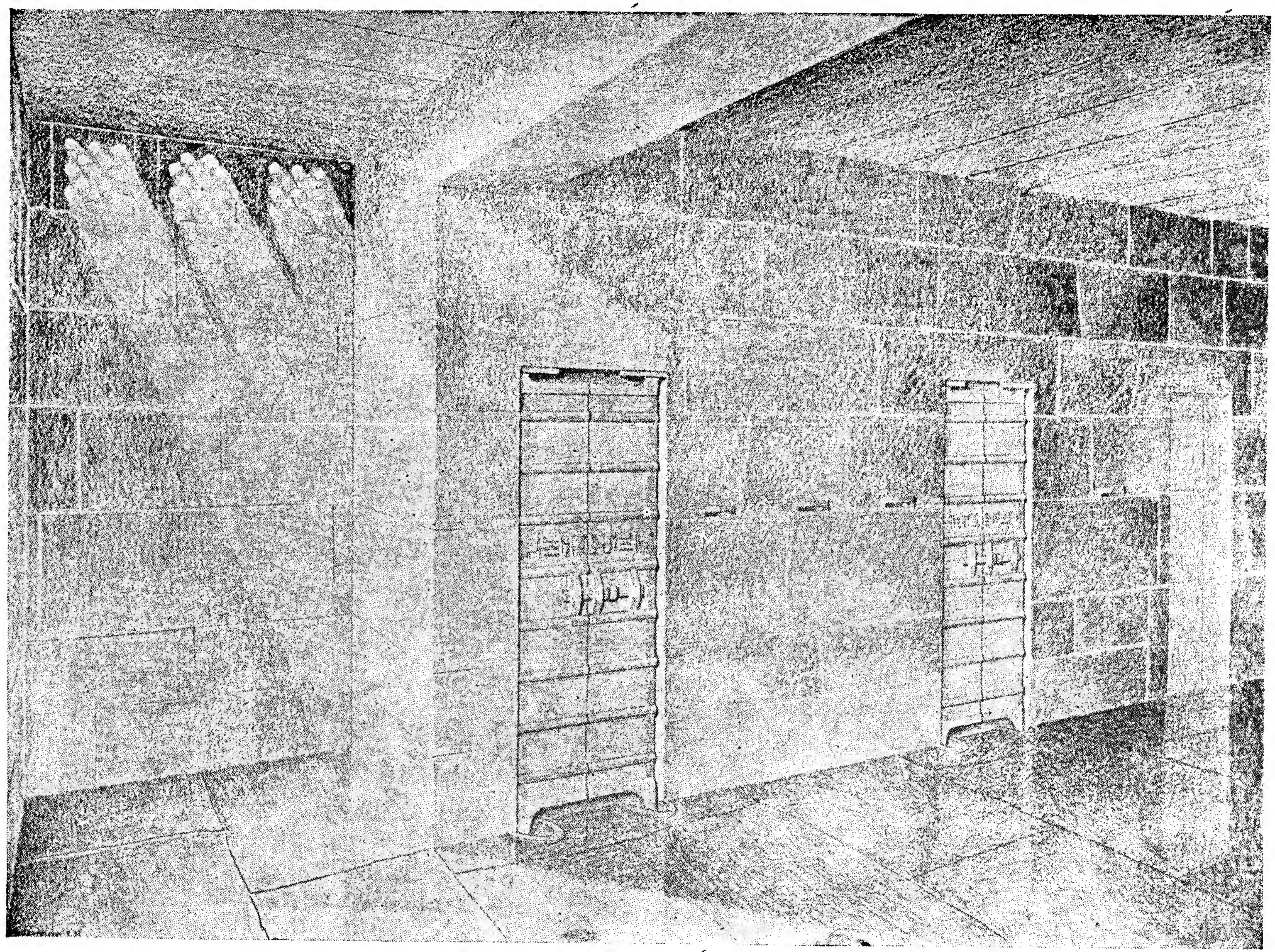
٥٧ ــ اسطون لوطسى



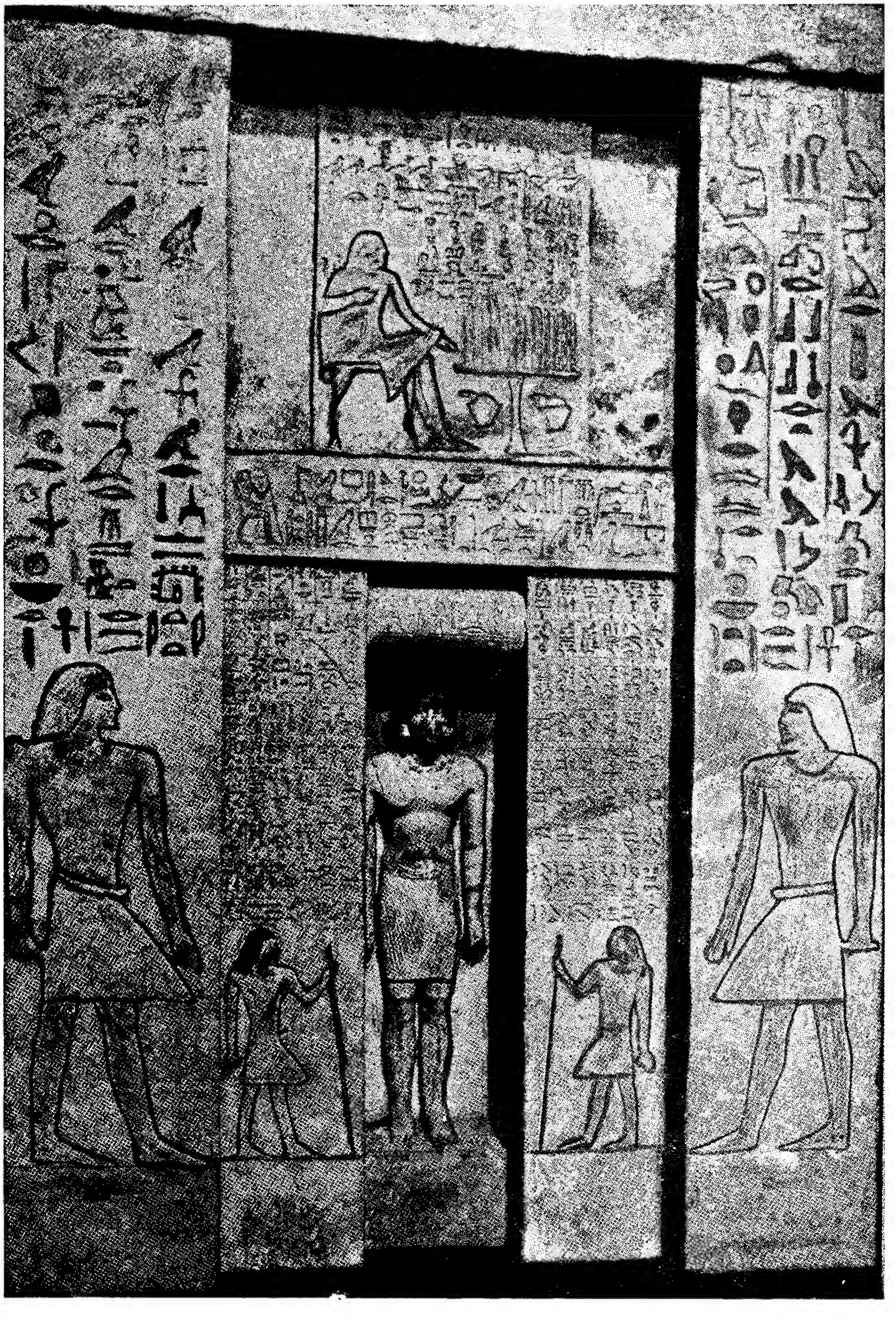
٥٩ ــ من تماثيل الملكة
مرسى عنخ الثالثة



٥٨ ـ من صور ستائر الحصير على جدران مصطبة حسي رع

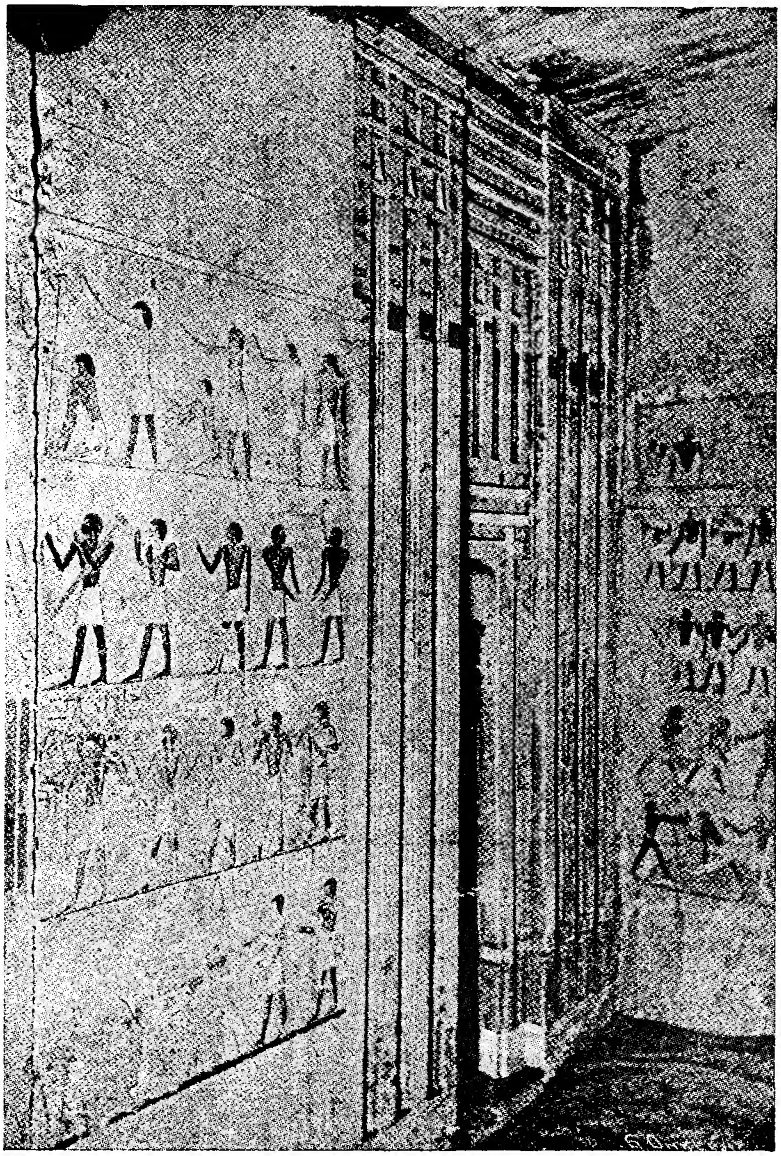


٦٠ ـ قاعة تماثيل سشم نفر الثانى فى منطقة أهرام الجيزة

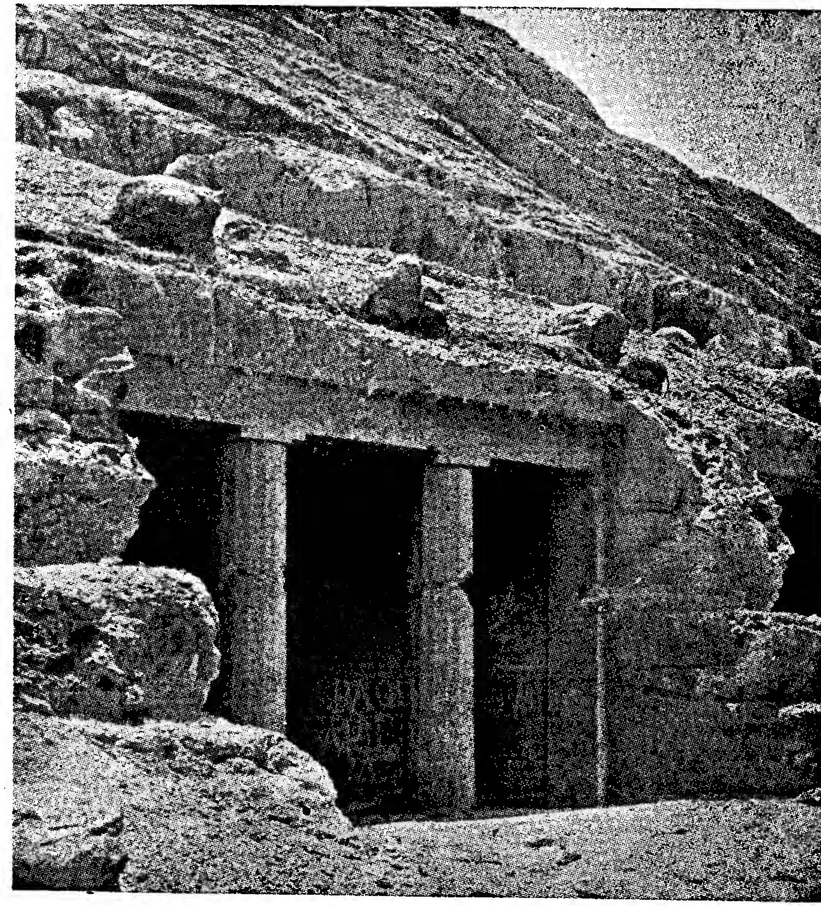


٦١ ـ باب وهمي

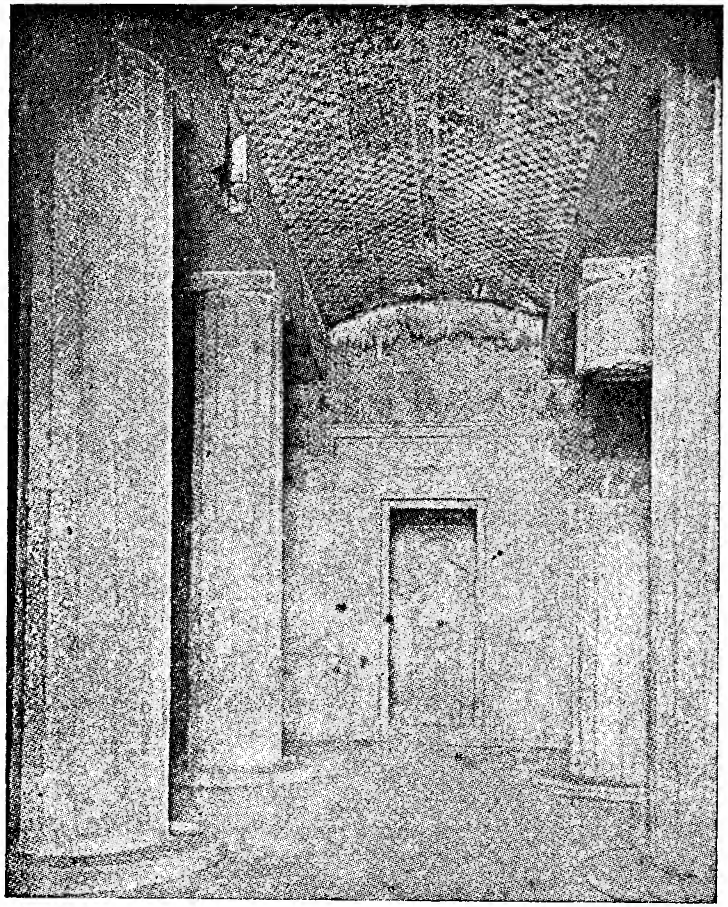
أ



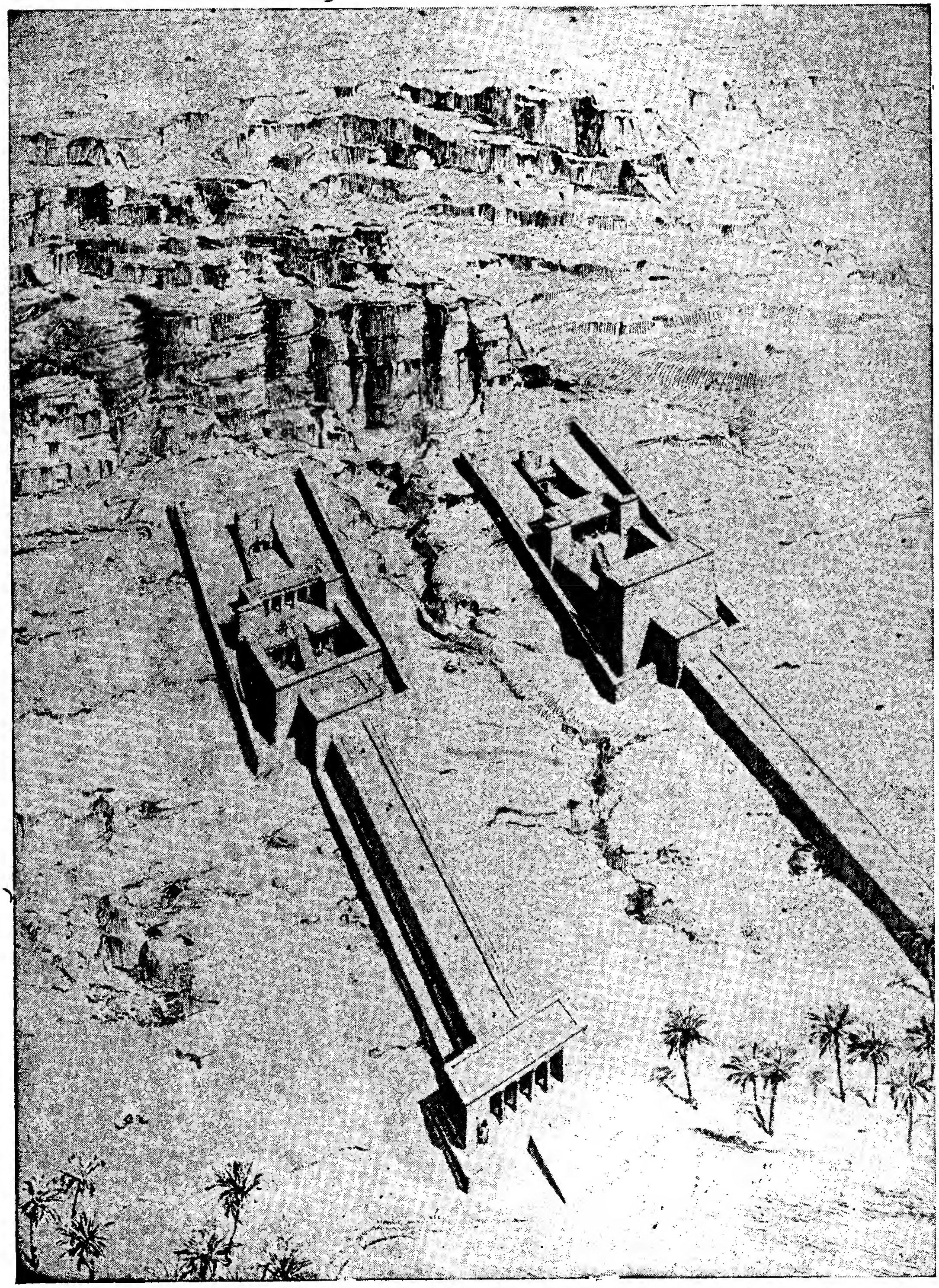
٦٢ ـ باب وهمى فاخر من مقبرة بتاح حتب فى صقارة



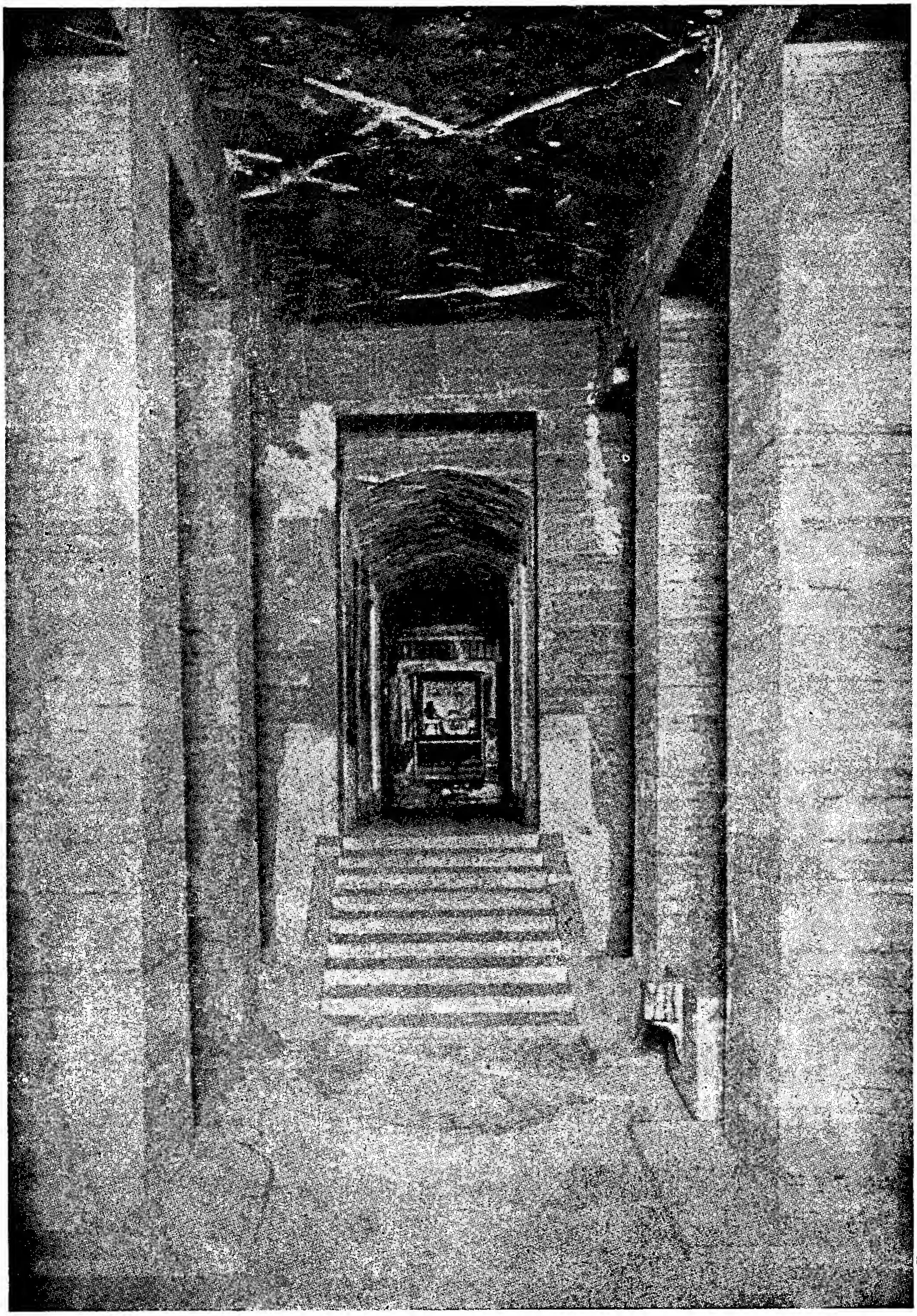
٦٣ – واجهة مقبرة خنوم حتب فى بنى حسن



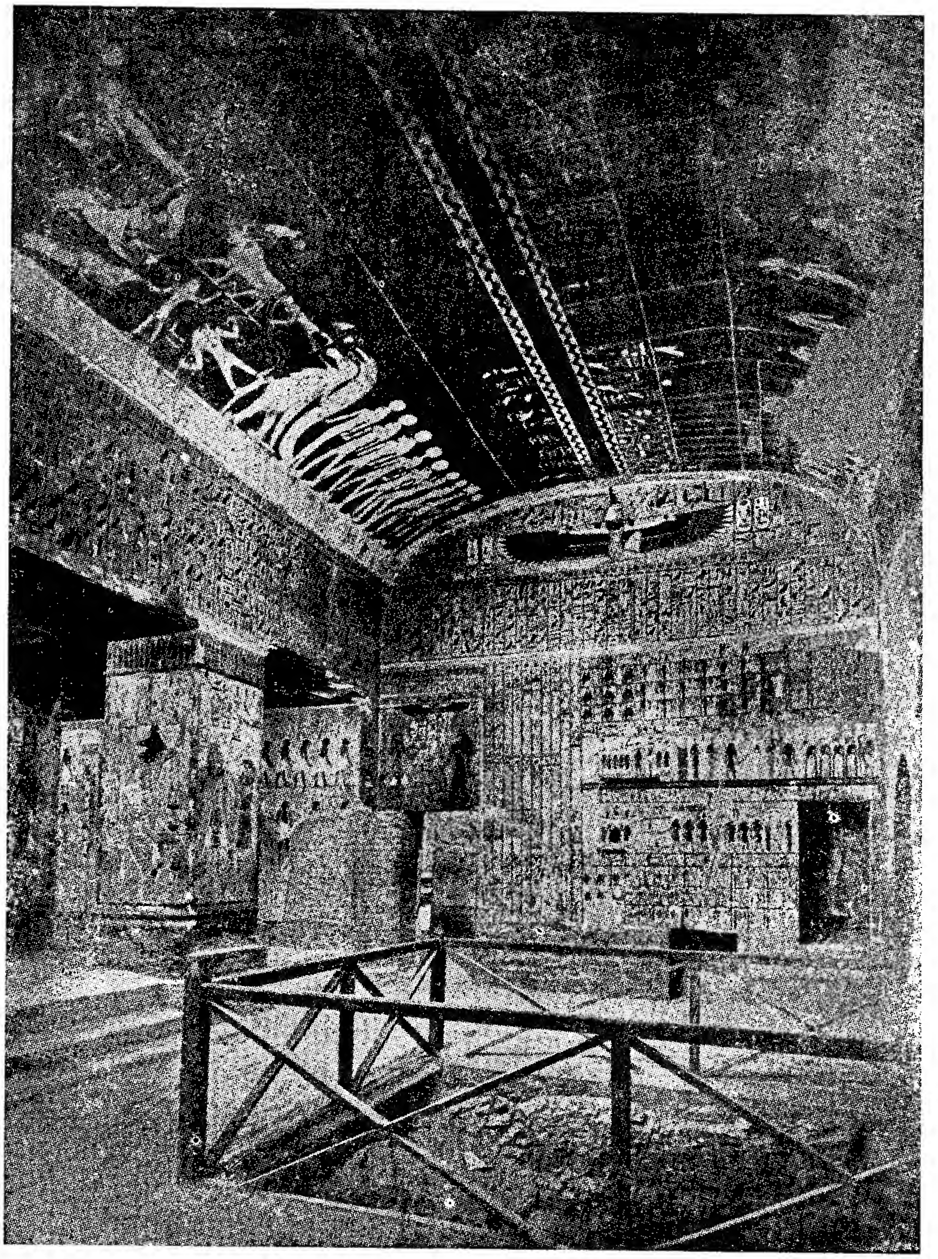
٦٤ – مقبرة امينى فى بنى حسن



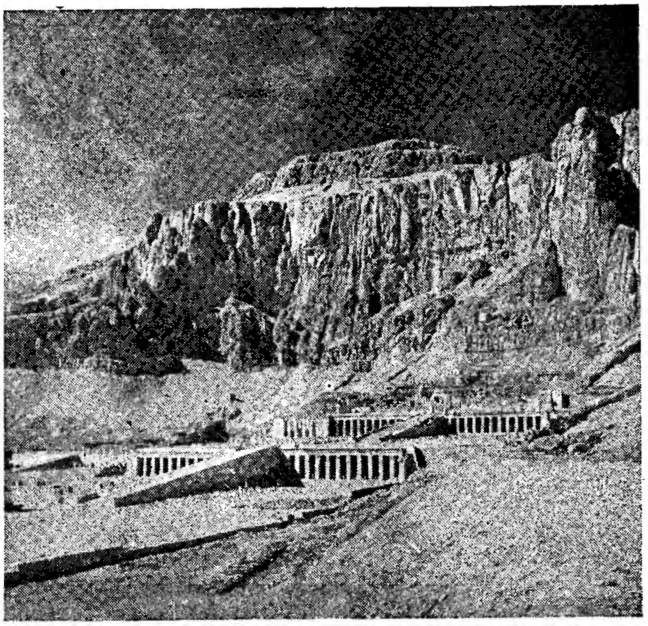
٦٥ ـ مقبرتا واح كا الاول وابو فى قاو ـ منظور



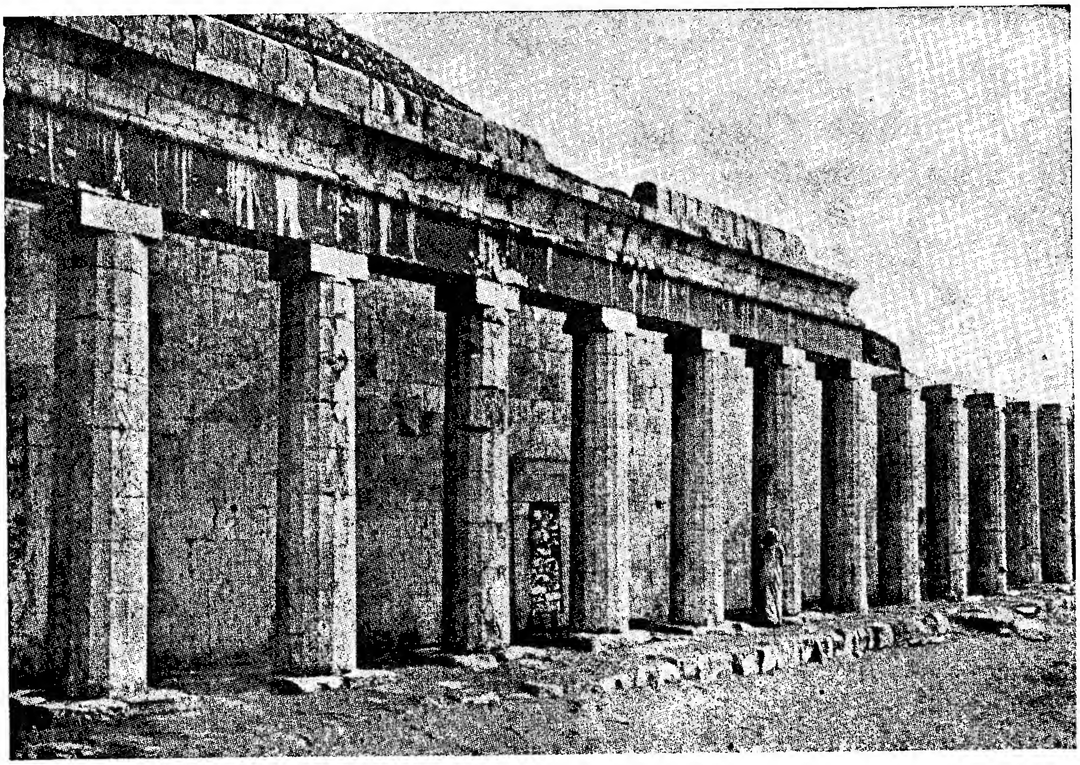
٦٦ ـ مقبرة سارنبوت الثانى فى اسوان



٦٧ ـ غرفة دفن سيتى الاول



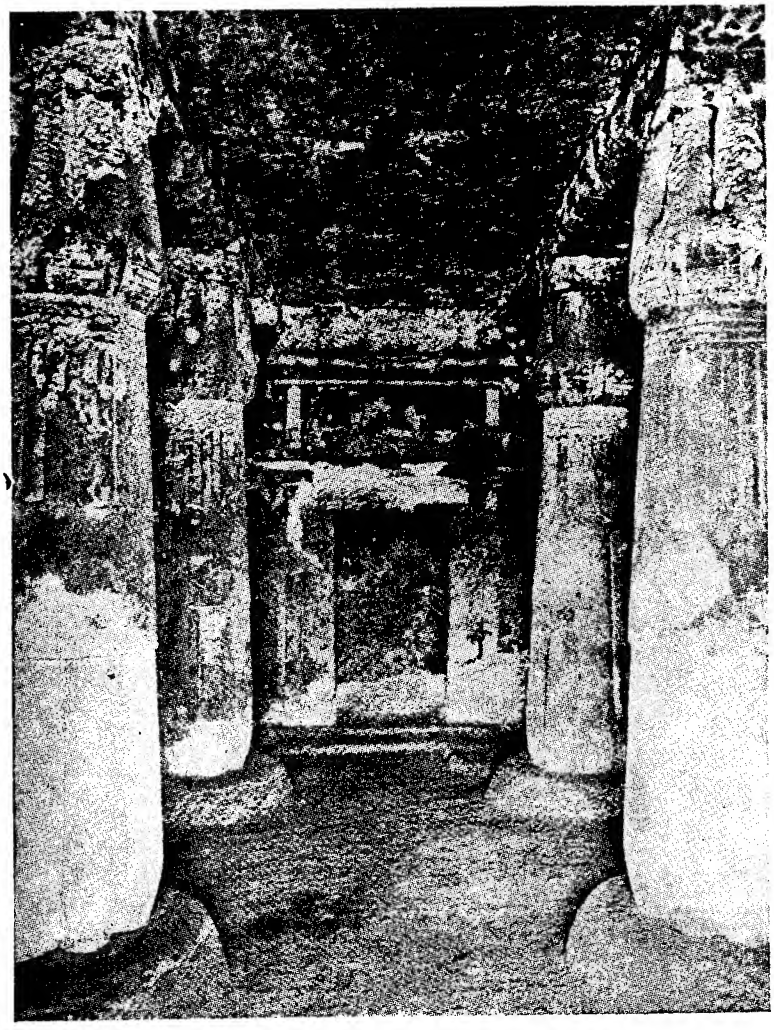
٦٨ ـ الدير البحرى



٦٩ ـ الرواق الشمالى الساند للجبل فى الدير البحرى



٧٠ ـ تماثيل أزيرية في الرمسيوم



٧١ ـ مقبرة ماى فى تل العمارنة

فهرس الأشكال

رقم الشكل ... رقم الصفحة

رقم الشكل ... رقم الصفحة

رقم الشكل		رقم الصفحة
٩٦	– معبد السبوع	٢٣٩
٩٧	– معبد الدر	٢٤١
٩٨	– معبد أبوسنبل العظيم	٢٤٢
٩٩	– مائدة القربان من مقصورة رع حراختى	٢٤٤
١٠٠	– معبد أبوسنبل الصغير	٢٤٥
١٠١	– عمود حتحورى من معبد أبوسنبل الصغير	٢٤٦
١٠٢	– من شعائر تأسيس المعبد	٢٥٠
١٠٣	– مبنى هيراكونبولس ذو الجدران المصورة	٢٦٠
١٠٤	– قبر الملك وديمو فى أبيدوس	٢٦٢
١٠٥	– مصطبة مرنيت فى أبيدوس ، جسب لوير	٢٦٣
١٠٦	– مصطبة نقادة	٢٦٧
١٠٧	– مصطبة داخلية مدرجة فى صقارة	٢٧١
١٠٨	– مصطبة قاى عا ومعبده الجنازى فى صقارة	٢٧١
١٠٩	– قبر خع سخموى	٢٧٢
١١٠	– قبر روابن فى صقارة	٢٧٣
١١١	– مقبرة أحد الأتباع	٢٧٤
١١٢	– مصطبة أحد أفراد الطبقة المتوسطة فى طرخان	٢٧٤
١١٣	– قاعدة جوسق اليوبيل فى مبانى زوسر	٢٨٠
١١٤	– واجهة الجوسق الملكى فى مبانى زوسر	٢٨١
١١٥	– واجهة بيت الجنوب	٢٨٢
١١٦	– المعبد الجنازى لهرم صقارة المدرج	٢٨٤
١١٧	– واجهة على أحد فناءى المعبد الجنازى لزوسر	٢٨٣
١١٨	– الهرم المدرج فى صقارة – مراحل بنائه	٢٨٥
١١٩	– المقبرة الجنوبية لهرم صقارة المدرج	٢٨٩
١٢٠	– مخطط هرم الملك سخم خت	٢٩٤
١٢١	– الهرم المدرج فى زاوية العريان – قطاع ومخطط	٢٩٥

رقم الشكل	رقم الصفحة

رقم الشكل	رقم الصفحة

فهرس الصور

رقم الصورة	رقم الصفحة
٢١ – صرح معبد خنسو فى الكرنك	٤٨١
٢٢ – رواق معبد الأقصر	٤٨٢
٢٣ – هيكل أتن العظيم	٤٨٣
٢٤ – بهو الأعياد فى الكرنك	٤٨٤
٢٥ – عمودا تحوتمس الثالث فى الكرنك	٤٨٥
٢٦ – من بهو الأساطين العظيم فى الكرنك	٤٨٦
٢٧ – أسطون طهرقا فى الكرنك	٤٨٧
٢٨ – مقصورة أمون فى معبد سيتى الأول فى أبيدوس	٤٨٨
٢٩ – باب وهمى مزدوج فى معبد سيتى الأول فى أبيدوس	٤٨٩
٣٠ – معبد أبوعودة	٤٩٠
٣١ – واجهة معبد أبو سنبل العظيم	٤٩١
٣٢ – قاعة العمد فى معبد أبو سنبل العظيم	٤٩٢
٣٣ – واجهة معبد أبو سنبل الصغير	٤٩٣
٣٤ – مخطط مصرى قديم على البردى لقبر رمسيس الرابع	٤٩٤
٣٥ – رأس الصقر حورس من الذهب	٤٩٥
٣٦ – الزورق المقدس للإله أمون	٤٩٦
٣٧ – لوح الملك چت	٤٩٧
٣٨ – باب يعلوه عقد تتخلله رموز وعلامات هيروغليفية	٤٩٨
٣٩ – مصطبة الملك حور عحا فى صقارة	٤٩٩
٤٠ – قبر ملكى من بداية الأسرة الثانية	٥٠٠
٤١ – مبانى زوسر فى صقارة	٥٠١
٤٢ – بهو المدخل فى مبانى زوسر فى صقارة	٥٠٢
٤٣ – المقصورات الغربية فى معبد اليوبيل	٥٠٣
٤٤ – مقصورة الجوسق الملكى	٥٠٤
٤٥ – أساطين بردية تحلى جدار جانبى لبيت الشمال	٥٠٥
٤٦ – من جدار تكسوه قراميد تمثل الحصير	٥٠٦

فهرس الأعلام

(ش)

(ط)

(ع)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

فهرس الأماكن والمدن

فهرس أبجدى

٤٣٥ ، ٤٤٠

تصحيحات

وقع أثناء الطبع بعض الأخطاء ننبه إليها فيما يلى :

ص	س	خطأ	صواب
١٧	١٩	وجلالتها	وجلالها
٢٠	١	وما ريب	وما من ريب
٢٨	٢٠	ذرواتها	ذراهـــا
٣٢	٢٠	والعشرين	والعشرون
٣٤	٦	والعشرين	والعشرون
٤٠	٩	يحتاج	تحتاج
٤٥	٨	حوافيها وحوافى	حوافها وحواف
٦٨	١٥	بأجدائهم	بأجسادهم
٦٩	٥	اسم	اسما
٧٢	٧	بأن	أن
٧٣	١٢	ذكية	زكية
٧٤	٢٢	ثمانية	ثمينة
٧٩	٩	مائتى إلى مائتى	مائتين إلى مائتين
٩١	١٢	قليل	قليلا
٩٢	١٩	مبنى	مبنيا
٩٢	٢٤	ما ظل	من ظل
٩٣	٤	الخصائص	الأخصاص
٩٤	٤ الهامش	القطــر	المحيط
١٠١	٢	مبانى	مبان
١٠٩	٢	الاستبقال	الاستقبال
١١١	٧	حوافيه	حـــوافه
١١٦	٦	متعاقدان	متعاقدين
١١٩	١٤	حوافيها	حوافها
١٢١	٢و ٤ الهامش	خال	خاليا
١٢٤	١٣	منحنى	منحن
١٢٦	٨	قنطير	قنتير

ص	س	خطأ	صواب
١٢٦	١٥	إحديهما	إحداهما
١٢٦	١٧	إثنى عشر	إثنا عشر
١٢٦	١ الهامش	Qnnales ... XI (1911) 49 ff.	Qnnales .., XXX p. 31 ff.
١٢٧	٤	وحمام	وحماما
١٢٩	٦	تيسر	تيسرت
١٣٠	٧	وأسمائه	وأسماءه
١٣٤	٥	وزنوج	وزنوجا
١٣٦	٢٣	حاجيات	حاجات
١٤٠	شكل ٤١	الشكل مقلوب	أسفل الشكل أعلاه
١٤٣	٦	أراض	أراضى
١٥١	١٩	وجلاءها	وجلائها
١٥٥	١٠	حوافيها	حوافها
١٥٦	١٨	وأوانى	وأوان
١٥٧	١١	تهدى زوجها	تهدى إلى زوجها
١٥٧	١٨–١٩	ويدلى .... أنه	ويدل ... على أنه
١٥٩	١٧	إثنى وثلاثين	إثنين وثلاثين
١٦٠	١	هندسيأبة بلوان	هندسية بألوان
١٦٤	٢	وتطـــور	وعلى تطور
١٦٧	١٩	جزءا	جزء
١٧٠	٦	الثلاثة	الثلاث
١٧٢	٨	تكتنفمها	تكتنفهما
١٧٣	٩–١٠	الطائر بلشون	طائر البلشون
١٨٣	٢٢	أربعة	أربع
١٨٩	٦	أسطونين بردين	أسطونان برديان
١٩١	١	بردين	برديان
١٩٤	١٤	ذرى	ذرا
١٩٥	١٥	الدخول	بالدخول
١٩٦	١٥	الملك ورئيس الكهنة	الملك أو رئيس الكهنة
١٩٩	١	ومخبز	ومخبزا
٢٠٠	٧	غصنا واحدا	ساقا واحدة
٢٠٠	٨	الخمسة	الخمس
٢١٢	١٠ الهامش	إحديهما	إحداهما
٢١٩	٨	قليللا	قليلا

ص	س	خطأ	صواب
٢٢٢	٢	إثنى عشر	إثنا عشر
٢٢٩	٢٠	شاقه رؤياه	شاقته رؤيته
٢٣١	٩و١٣	السبعة	السبع
٢٣٢	١	السبعة	السبع
٢٣٣	٤	الثلاثة	الثلاث
٢٣٥	١٠	باساور	باسر
٢٣٥	١٧	يغمــرها	تغمرها
٢٣٦	٨	ومعبد أبو سنبل	ومعبدا أبو سنبل
٢٤٠	١٩	كيلو مترا	كيلو متر
٢٤٠	٢٤	إثنى عشر	إثنا عشر
٢٤٤	٢٣	احديهما	إحداها
٢٤٥	١٥	وقع	وقعا
٢٤٩	١٢	غطت	غطيت
٢٤٩	٣ الهامش	إثنى عشر	إثنا عشر
٢٥٢	٢	مبانى	مبان
٢٥٣	٣ الهامش	مجــد	محمد
٢٦٠	٢٣	وأوان	وأوانى
٢٦٣	١٢	ونصف	ونصفا
٢٦٥	١٩	بلو	بلون
٢٦٦	١٢	ونصبا	ونصبى
٢٧٠	١ الهامش	صفحة	صفحة ١٦٦
٢٧٠	٦	ولعب	ولعبا
٢٨٦	١٣	الستة	الست
٢٨٨	١٩—٢٠	إحدى عشر	إحدى عشرة
٢٩٠	٢٠	وتكسر	وبتكسر
٢٩٣	١	مبانى	مبان
٣٠٠	٥ الهامش	٢٧٠	٢٧٢
٣٠١	١٩	طابع رشيق أنيق	طابعا رشيقا أنيقا
٣٠٢	١١	ثلاثة	ثلاث
٣٠٤	٨	أكبر	أكثر
٣٠٤	١ الهامش	شيء	شيئا
٣٠٥	٧	السبعة	السبع
٣٠٥	١٧	ثلاثين	ثلاثون
٣٠٧	٦	قاعقدته	قاعدته
٣٠٨	٢٢و٢٣	ونصف	ونصفا

ص	س	خطأ	صواب
٣١١	٦	حوافى	حــواف
٣١١	٧	الحــوافى	الحواف
٣١٣	٢٠	معقوق	معقوف
٣١٨	٥	كثيرا	كثير
٣١٩	٢٠	خمسة	خمس
٣٣٣	٢٤	وإذا	وإذ
٣٤٨	٢	ملون	ملونا
٣٦٤	١٣	الأمراء والأميرات	الأمراء والأميرات فى عهد خفرع
٣٦٨	١	وتف لتأ	وتتألف
٣٧٤	١١	لا تبنى	لا تبن
٣٩٥	٢٠	وإذا	وإذ
٤٠٤	١٥	الأثنى عشرة	الأثنتى عشرة
٤١٠	١٧	محــور	محور المعبد
٤١١	٤	تلى	تلا
٤١٣	١٣	الزاهية	الزاهرة
٤١٦	١ الهامش	تسع	تسعة
٤٢٨	١٧	احـ ورين	احدورين
٤٢٩	٢٥	لأحدايها	لأحداها
٤٣٠	١٠	والانية	والثانية
٤٣٢	٨	مطبوع	مطبوعا
٤٣٦	٦	وحرتها	وحرثها
٤٣٧	٢٠	وأوراق	وأوراقا
٤٤٣	شكل ٢٠٣	الشكل مقلوب	أسفل الشكل أعلاه
٤٥٢	١٠	تابوت	تابوتا
٤٥٢	٢٣	وأوانى	وأوان
٤٥٣	١٢	ملوا	ملوك
٤٥٣	١٩	وخاتم	وخاتما
٤٥٩	٧	قطعة	قطة
٤٦٤	٧	كانوا يعملون	كانا يعملان
٤٦٤	٨	طبيعتهم	طبيعتهما
٤٦٤	٨	غيرهم فيهم	غيرهما فيهما